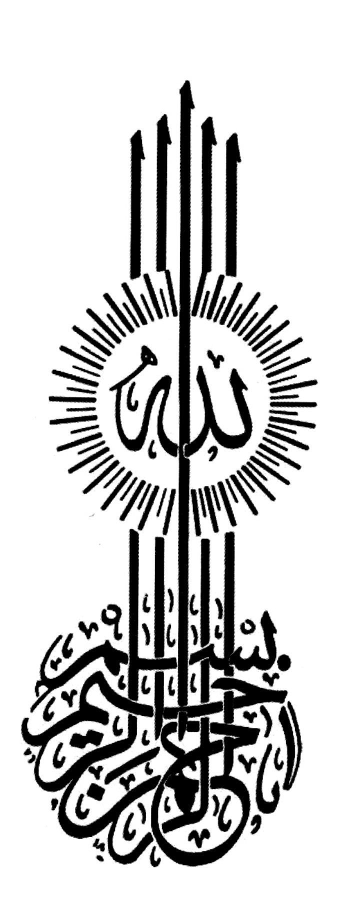


المؤتمر الدولي القرآني الأول :

توظيف الدراسات القرآنيه في علاج المشكلات المعاصرة

المجلد الأول


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة عميد كلية الشريعة وأصول الدين

الحمد لله رب العالمين ، خلق فسوى ، وقدر فهدى، والصلاة والسلام على خير خلق الله، محمد بن عبد الله ، لا خير إلا دل الأمة عليه ، وسبقها إليه، ولا شر إلا حذرها منه ، وكان أبعدها عنه،،،أما بعد

فيأتي انعقاد المؤتمر الدولي القرآني الأول : توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة في رحاب جامعة الملك خالد خلال الفترة من : ١٥ ـ ١٧ محرم ١٤٣٨هـ في ظروف لا تخفى على أحد كبارقة أمل؛ للإسهام في تحقيق رؤية الجامعة والكلية ورسالتهما وأهدافهما ، من أجل تفعيل العمل البحثي العلمي التنافسي المتميز، وبناء التواصل الأكاديمي بين الجامعة والكلية ، والباحثين من مختلف الجامعات العربية والاسلامية، والإسهام في خدمة المجتمع بنشر العلم والوعي الشرعي ، وتحصينه من الانحرافات الفكرية والسلوكية، ومعالجة مشكلاته وفق رؤية قرآنية تتسم بالوسطية والعمق العلمي، من خلال أداء بحثي متميز.

وقد مر المؤتمر عبر مراحله المتعددة بعمل دؤوب من خلال قسم القرآن الكريم وعلومه واللجنة العلمية منذ أن كان فكرة إلى تحديد أهدافه ومحاوره وموضوعاته، والتواصل مع الباحثين واستقبال البحوث من أكثر من خمس وعشرين دولة، وتحكيمها وفق المعايير العلمية ؛ سعيا للإسهام في معالجة المشكلات المعاصرة في مجالات الحياة المتعددة، منطلقين من قول الله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) راجين من الله تعالى التوفيق والقبول.

شكر الله لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز موافقته الكريمة على عقد المؤتمر، والشكر موصول أيضا لصاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبد العزيز أمير منطقة عسير على رعايته للمؤتمر ، ولمعالي وزير التعليم الدكتور/ أحمد بن محمد العيسي على دعمه واهتمامه، ولمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور/ فالح بن رجاء الله السلمي على متابعته المستمرة.

وختاما : حفظ الله بلادنا وبلاد المسلمين من كل سوء ومكروه، ووفق ولاة أمرنا لكل خير ، ونصر بهم الإسلام والمسلمين ، وردّ كيد الكائدين، ونصر جنودنا المرابطين، ووفقنا جميعا لما يحب ويرضى ، إنه على كل شيء قدير.

أ د. علي بن محمد الشهراني
رئيس اللجنة العلمية

كلمة رئيس قسم القرآن الكريم وعلومه

الحمــد لله رب العالمين والصلاة والســلام على أشرف الأنبيــاء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،، أما بعد

فــإن القــرآن كلام الله العظيم ، وصراطه المستقيم ، ونظامــه القويم ، وحبله المتين ، من تمسك به نجا ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ، جعله الله هاديا للتي هي أقوم ، وبين فيه كل شيء ، قال تعالى " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ" وقال سبحانه : " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ " فالقرآن الكريم اشتمل على كل علـم نافـع ، من خبر ما سبق ، وعلـم ما سيأتي ، وما الناس إليــه محتاجون في أمر دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم.

ولمــا كان القــرآن كذلــك فإن ممــا لا شك فيــه أن الله تعالى قد بــين فيه الحل والعــلاج للعلل والمشكلات على مستوى الأمة والأفراد ، ولما كان العباد مطالبين بالاهتداء به في كل شؤونهم كان من صور هذا الاهتداء الرجوع إليه لحل المشكلات المعاصرة التي تمر بها الأمة في شتى مجالات الحياة.

ومــن هذا المنطلق جاء تنظيم جامعة الملك خالد ممثلــة في كلية الشريعة وأصول الدين ـ قســم القرآن الكــريم وعلومه ـ للمؤتمر الــدولي القرآني الأول بعنــوان " توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة " خلال الفترة: ١٥ ـ ١٧ محرم ١٤٣٨هـ .

وقد جــاءت بحوث المؤتمر لتسليط الضوء على علاج المشكلات المعاصرة للأمة في ضوء القــرآن الكريم ، ســواء من خلال دراسة تلك المشكلات وإبــراز علاجها أو من خلال دراسة مناهــج بعضــ العلماء وآثارهــم في إبراز دور القــرآن الكريم وأثره في عــلاج تلك المشكلات علــى اختــلاف أنواعها وتعــدد مشاربهــا في شتى مجالات الحيــاة (الفكريــة والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والعلمية ، وغيرها)

فنســأل الله تعــالى أن يبارك في هذا المؤتمــر وفي أبحاثه وتوصياتــه ، وأن ينفع به الأمة بأجمعها ، وأن يكتب للجميع من منظمين ومشاركين ورعاة الثواب العظيم ، والأجر الجزيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

د. حسن بن علي بن منيع الشهراني

د .أحمد محمد الشرقاوي

تاريخ الميلاد ٢٣/١١/١٣٨٧هـ الموافق ٢١/٢/١٩٦٨م.

الدرجة والوظيفة / أستاذ التفسير وعلوم القرآن – جامعة الأزهر، والجامعة الإسلامية – المدينة المنورة – وأستاذ زائر بجامعة الشارقة سابقًا.

البريد الإلكتروني : sharkawe2000@yahoo.com

- عضو الجمعية السعودية للقرآن الكريم وعلومه من تأسيسها حتى تاريخه. ٢٠٠١ حتى تاريخه .
- مشرف علمي ومحكم بمشروع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بالرياض ٢٠١٢ – ٢٠١٥.
- مشرف علمي ومحكم ومراجع بمشروع تفسير المدينة المنورة بالمدينة المنورة مركز تعظيم القرآن الكريم ٢٠١١ – ٢٠١٣.
- عضو لجان تحكيم الترقية بجامعة الأزهر ٢٠١٤ / ٢٠١٥ ، وعضو لجان الترقية أعضاء هيئة التدريس في جامعات الأردن وباكستان. ومحكم بمعظم جامعات المملكة العربية السعودية.
- شارك في التفسير الموضوعي لسور القرآن بجامعة الشارقة.
- شارك في المشاريع البحثية المدعومة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة على مدار ٢٠١٠ – ٢٠١٥ م .
- شارك في وضع المناهج لمراحل البكالوريوس والماجستير والدكتوراه بالجامعة الإسلامية المدينة المنورة، وبالرئاسة العامة لتعليم البنات سابقا.

من المؤلفات المطبوعة :

- المرأة في القصص القرآني ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٠م .
- نحو منهج أمثل لتفسير القرآن ، الجامعة الإسلامية بماليزيا ، ودار طيبة دمشق ٢٠٠٨ م .
- مناهج المفسرين مكتبة الرشد بالرياض ١٤٢٥هـ .
- يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر . دار طيبة دمشق ، ومؤسسة أضواء البيان درعا ط/١ –٢٠٠٧ م.
- المنهل القدسي في تفسير آية الكرسي . توزيع دار السلام بالقاهرة .
- محاضرات في مناهج البحث والمكتبة الإسلامية ط مكتبة الرشد ١٤٢٩ هـ
- تأملات في التفسير الموضوعي مكتبة الرشد ١٤٣٠

- ظاهرة الرعب من الإسلام وحقوق المرأة ط دار السلام بالقاهرة .
- حقوق المرأة في السنة ، مكتبة الصميعي بالرياض .
- الوسيط في تاريخ التشريع مكتبة الصميعي بالرياض .
- الصبر عند فقد الولد دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ط/ ٢٠٠٨ م.

(تقويم الفهم الخاطئ للحرية والمساواة)

في ضوء القرآن الكريم

محور ١

توظيف القرآن الكريم في علاج المشكلات العقدية والفكرية

إعداد

أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية سابقا
وبجامعة الأزهر حاليا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على من أرسله ربه رحمة ومعلِّما وهادياً للعالمين نبينا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فالقرآن الكريم حجة الله البالغة ورسالته الخاتمة، أنزله هدى ورحمة ونورا وعصمة وبيانا وحكمة، قال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل : ٨٩] . وقال ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ومن بيان القرآن الكريم وهدايته للتي هي أقوم تصحيح المفاهيم الخاطئة، وإزالة ما قد يعلق في الأذهان، أو يشوب العقول من شُبه وإشكال ؛ بدافع جهل أو هوى، أو تلبيس من قبل شياطين الإنس والجن، من ذلك الفهم الخاطئ للحرية والمساواة ؛ بما حاد بهما عن مقاصدهما السامية؛ وأطاح بهما من عرش القيم الإنسانية الرفيعة، وذروة سنام المُثل العليا إلى حضيض الفوضى وهاوية الانفلات، فأصبحا شعارًا يُضمرُ وراءه التعدِّي على الحقوق وانتهاك المحارم، وبات شِراعا يمخُر في خضم الفساد وأوحال الرذيلة، وصار مبرِّرا للتنصُّل من الواجبات والآداب، وغدا سهاما مصوبة على الدين، باسم حرية الرأي والتعبير، وتحت دعاوى المساواة المطلقة بين الجنسين، دون مراعاة للفروق الطبيعية بينهما، من هنا كانت هذه الدراسة ؛ لتصحيح المفاهيم الخاطئة وإرساء المفاهيم الشرعية القرآنية بما تتّسم به من دقّةٍ وواقعيّة .

أهمية موضوع البحث:

١. المساهمة في توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، والنهوض بالأمة .
٢. أن الحرية والمساواة من القيم الإنسانية العظيمة التي تحتاج لتأصيلٍ قرآني يبيِّنها ويقوِّمها .
٣. كثرة الدعاوى الزائفة باسم الحرية والمساواة والتي لا بدّ من كشفها والتحذير منها .

مشكلة البحث:

الدعوة إلى الحرية والمساواة والمكافحة من أجلهما هدفٌ يسعى إليه الكثير، لكن المفاهيم والرؤى والوسائل والسبل لا تزال موضع اختلاف ومثار جدال، في ظل تزاحم الشعارات البراقة وتراكم الفلسفات المضلِّلة، وكثرة الدعاوى الزائفة التي راجت وانتشرت

بسبب الجهل والهوى والانسياق وراء الأباطيل المزخرفة والوعود المُغرِّرة والأماني الكاذبة ؛ من هنا كانت الحاجة الماسّة لهذا البحث ليجيب عن عدة تساؤلات:

- ما المفهوم الرشيد للحرية والمساواة ؟ وما حدودهما وضوابطهما ؟ وما هي الآثار الناتجة عن الفهم الخاطئ للحرية والمساواة ؟

أهداف البحث:

١. تأصيل مفهوم الحرية والمساواة في ضوء القرآن الكريم .
٢. التحذير من الانحرافات الفكرية والسلوكية الناتجة عن الفهم الخاطئ للحرية والمساواة .
٣. بيان مجالات الحرية والمساواة وضوابطهما في ضوء القرآن الكريم .

حدود البحث:

بيان مفهوم وضوابط الحرية والمساواة في ضوء القرآن، مع الاستطراد لبيان خطر المفاهيم الخاطئة حولهما .

منهج البحث:

اقتضت طبيعةُ الموضوع أن أسلك فيه عدة مناهج:

أولا: المنهج التأصيلي: وذلك عند تعريف مصطلح الحرية والمساواة في ضوء الكتاب والسنة.

ثانيا: المنهج الاستقرائي: بتتبع آيات القرآن وما صحَّ من الأحاديث المتعلقة بالموضوع.

ثالثا: المنهج التحليلي: بتدبُّر الآيات وبيانِ هداياتها. إلى جانب المنهجية المتَّبعة في البحوث والدراسات .

خطة البحث:

تتكوّن من مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة: وفيها بيانُ أهمية الموضوع، ومشكلة البحث، وأهدافه وحدوده، ومنهجه، وخطته.

التمهيد: وفيه التعريف بمصطلح الحرية والمساواة في اللغة وفي ضوء القرآن.

الفصل الأول : الحرية مجالاتها وضوابطها . ويشتمل على تمهيد ومبحثين :

التمهيد : صور ومفاهيم خاطئة للحرية .

المبحث الأول: مجالات الحرية، ويتضمن أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** حرية العقيدة والعبادة .
- **المطلب الثاني:** حرية الكلمة .
- **المطلب الثالث:** حرية التصرف والتنقل .
- **المطلب الرابع:** تحرير العبيد والأسارى .

المبحث الثاني: ضوابط الحرية، ويتضمن خمسة مطالب:

- **المطلب الأول:** أن لا تتعارض مع العقيدة .
- **المطلب الثاني:** أن لا تتعارض مع أصول الأحكام .
- **المطلب الثالث:** أن لا تتعارض مع المصالح العامة.
- **المطلب الرابع:** أن لا تنتهك حقوق الآخرين وحرماتهم .
- **المطلب الخامس** : أن لا تصطدم مع القيم والآداب .

الفصل الثاني: المساواة مجالاتها وضوابطها . ويشتمل على تمهيد ومبحثين :

التمهيد : صور ومفاهيم خاطئة للمساواة .

المبحث الأول: مجالات المساواة، ويتضمن أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** المساواة في الأصل .
- **المطلب الثاني:** المساواة في الحقوق .
- **المطلب الثالث:** المساواة في الخطاب .
- **المطلب الرابع:** المساواة في التكاليف والثواب .

المبحث الثاني: ضوابط المساواة، ويشتمل على ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** مراعاةُ الفروق بين الجنسين في الطبيعة والمهام.
- **المطلب الثاني:** مراعاةُ التفاضل والاختلاف الذي هو سنة الله في الخلق .
- **المطلب الثالث:** عدمُ التعارض مع القيم والمصالح العامة.

الخاتمة: وفيها بيانُ نتائج البحث وتوصياته ومراجع البحث .

التمهيد

التعريف بمصطلح الحرية والمساواة في اللغة وفي ضوء القرآن

أولا : الحرية في اللغة : استعمل العرب هذه الكلمة للدلالة على معانٍ متنوعة، فالحرُّ : نقيض العبد، والحرة نقيض الأمة، والجمع حَرائِرُ. والحرُّ: الخالص النقي والفاخر من الأشياء، قال الأزهري : "والحُرّ: كل شَيْء فاخر جيّد من شِعْر أَو غَيره " ... [(١)]

"والحُرَّةُ: الكريمة. يقال: ناقة حُرَّةٌ، وسَحابة حرّة: أي كثيرة المطر. وتَحْريرُ الرقَبة: عِتْقُها". [(٢)]

والحُرَّةُ من النساء: الكريمة المصونة العفيفة، كما في سؤال هند متعجبةً : وهل تزني الحرة ؟ [(٣)] تعني أن الكريمة المصونة لا يُتصوَّرُ منها ذلك .

والحرية في الاصطلاح : " المكنة العامة التي يقررها الشرع للأفراد ، بحيث تجعلهم قادرين على أداء واجباتهم واستيفاء حقوقهم، واختيار ما يجلب المنفعة ويدرأ المفسدة، دون إلحاق ضرر بالآخرين " "[(٤)] .

ثانيا :المساواة في اللغة : " ساوَى الشيءُ الشيءَ: إذا عادَلَه، وساوَيْتُ بَين الشَّيْئَيْن وسَوّيت: إذا عَدَلْتُ بَينهمَا ،وَيُقَال: تَساوَت الأمورُ واستوتْ، وتساوَى الشيئان واستَوَيا بِمَعْنى وَاحِد، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ

(١) تهذيب اللغة، للأزهري (٣/ ٢٧٧).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (٢/ ٦٢٨).

(٣) حديث بيعة النساء وفيه : ثُمَّ قَالَ: " وَلَا تَزْنِينَ " فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، وَهَلْ تَزْني الْحُرَّةُ ؟ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي (ت: ٥٨١هـ) (٧/ ٢٤٠) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤) – (٦ / ٦١٦) وله شاهد في صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار باب: ذكر هند بنت عتبة بن ربيعة رضي الله عنها، الحديث رقم ٣٨٢٥ – ٢/ ٤٩٤ وصحيح مسلم كتاب الأقضية. باب قضية هند – ١٣٣٨/٣ حديث ٧ – (١٧١٤).

(٤) – الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية ، د رحيل محمد غرايبة، ص ٤١ .

يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمـران: ١١٣]، أَي: لَيْسُـوا مُستَوين. [١] ومكانٌ سُوى وسِوى وسَواءٌ : أي عدلٌ ووسـطٌ فيما بين الفريقين، وهم سَـواءٌ وسَواسِيَةٌ: متساوون، وقسّمت الشيء بينهما بالسويَّة. ورجلٌ سَوِيُّ الخَلْقِ، أي مُسْتَوٍ. [٢]

والمساواة اصطلاحا : التكافؤ بين طرفين، سواء كانا متماثلين أو متفاضلين أو متباينين .

ثالثا : الحريـة في القـرآن الكريم : لم ترد هـذه الكلمة بلفظها في القـرآن الكريم، وإن وردت باشتقاقـات أخـرى، منها : الحرُّ وهو ما يقابل العبد، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ ﴾ البقرة: ١٧٨ .

واسـم المفعـول : محرّرا، قـال تعالى﴿ إِذْ قَالَت امْـرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَـذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِـي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّـلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيـمُ ﴾آل عمران: ٣٥ . والمصدر " تحرير " ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ ﴾ النساء: ٩٢، ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ ﴾المائـدة: ٨٩ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ﴾المجادلة: ٣ . وكله في تحرير العبيد بالكفارات التي فرضها الله تعالى على القاتل أو الحانث في يمينه أو المُظاهر من زوجته.

قـال الراغـب " والحريّـة ضربـان: - الأول: مـن لم يجـر عليـه حكـم الشـيء، نحـو: ﴿ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ ﴾ [البقـرة: ١٧٨] . - والثـاني: مـن لم تتملّكـه الصفات الذميمـة من الحرص والشَّرَه على المقتنيات الدنيوية، وإلى العبودية التي تضادُّ ذلك أشار النبيُّ ﷺ بقوله (تعس عبـدُ الدّرهم، تعس عبدُ الدّينار) [٣] . ومـن الثاني ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا ﴾ [آل عمـران: ٣٥]، جعلـت ولدهـا بحيث لا ينتفع به الانتفـاع الدنيوي المذكور بـل مخلصا للعبـادة، ولهذا قال الشعبي: معناه مخلصا، وقال جعفـر: معتَقا من أمر الدنيا،

(١) الصحاح للجوهري (٦/ ٢٣٨٥).
(٢) مختار الصحاح لشمس الدين، أبي بكر: محمد بن أبي بكر الرازي، (ص: ١٥٨) .
(٣) الحديـث صحيح أخرجـه البخاري في الجهاد، باب الحراسة في الغزو ٦/ ٦٠، وفي الرقاق باب ما يتقّى من فتنة المال ١١/ ٢٥٣، وأخرجه ابن ماجة في الزهد ٢/ ١٣٨٦.

وكلّ ذلـك إشارة إلى معنى واحـد.. [1] . فالتحرر إخلاص العبادة لله والاستسلام له تعالى، والعبوديـة تعني التحـرر من الشرك وأدرانـه، وأن يُسْلِمَ العبد وجهه لله وحـده، أما الشرك فإنه تخبُّـطٌ وتأرجُحٌ، قال تعالى﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٢٩ . وتحرير الإنسان من الشرك تحرُّرٌ من عبوديـة الإنسان وعبودية الحجر وعبوديـة الطبيعة، ومن ثَمّ تحررٌ من الأساطير والخرافات والأوهام التي يروِّجُها سدنةُ الشرك وكهنتُه بين أتباعهم، تحرُّرٌ من عبادة الأوثان، وما يترتب عليها من خنوع ومذلة وهوان وانكسارٍ.

رابعا : المساواة في القرآن الكريم : لم ترد هذه الكلمـة في القرآن، وإنما جـاءت مشتقاتٌ كثـيرة لهـا : منهـا الفعـل سوّى، واستـوى، والمضـارع منه يستـوي، وسـواء، وسويًّا، قـال تعالى ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾النساء: ٩٥ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ ﴾المائدة: ١٠٠ ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ ﴾التوبـة: ١٩ ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ هـود: ٢٤ ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٧٥ .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ طـه: ٥٨ . ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعـراء: ٩٧، ٩٨] ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمـران: ١١٣]. ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثيـة: ٢١]، فهنـاك مسـاواة منفيـة ومسـاواة مثبتـة، فالمنفية هي المسـاواة بين متفاضلـين، أو بين متضادّيـن كالمساواة بين الخبيث والطيـب، وبين من اجترح السيئـات ومن آمـن وعمل صالحـا، والمثبتة هي المساواة بـين متماثلين كالتسويـة بين الأبناء الذكـور في الميراث ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ ﴾ [النساء: ١١]. قال

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٢٢٤) بتصرف .

الراغب : " المُسَاوَاةُ: المعادلة المعتبرة بالذّرع والوزن، والكيل، يقال: هذا ثوبٌ مُسَاوٍ لذاك الثّوب، وهذا الدّرهم مساوٍ لذلك الدّرهم، وقد يعتبر بالكيفيّة، نحو: هذا السّواد مساوٍ لذلك السّواد ...وتَسْوِيَةُ الشيء: جعله سواء، إمّا في الرّفعة، أو في الضّعة " [1]

(١) – المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: ٤٤٠) بتصرف .

الفصل الأول
الحرية مجالاتها وضوابطها

ويشتمل على تمهيد ومبحثين :

التمهيد : صور ومفاهيم خاطئة للحرية .

أضحت الحريةُ في الغرب ذريعةً للتحرر من القيم والآداب ونبذها، والانسلاخ عن الشرائع وازدرائها، والتمرغ في الآثام والانحطاط للرذائل واستمرائها، وتحطيم المُثل والفضائل وإقصائها، ناهيك عن حرية الفكر والإبداع التي كثيرا ما تصطدم مع أصول الدين وشرائعه، إلى حدّ التطاول على الأنبياء والسخرية من الملائكة وافتراء الكذب على الله، دون رادع من قانون. ومن صور حرية الإبداع ذلك الأدب الإباحي والصور والمجلات الخليعة والأفلام الماجنة والمسرحيات الهزلية العابثة التي تخدش الحياء وتثير الغرائز وتهدم صروح الأخلاق، وتحطّم المُثل في المجتمعات، وكذلك الرسوم والتصاوير التي تسيء للأنبياء، باسم حرية الفن والإبداع، وقد حذّر القرآن الكريم من سبل الغواية ومُريديها قال تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٢٦،٢٧] فالله يريد لعباده المؤمنين الهداية والاستقامة على خُطى السابقين من الأنبياء والصالحين، بينما يريد اللاهثون وراء الشهوات المستغرقون في الملذات أن ينحرف الآخرون أشدَّ الانحراف. " وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال : ديني، أو أخلاقي، أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السّعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح، من أي لون كان . السعار المحموم الذي لا يَقِرُّ معه قلب، ولا يسكن معه عصب، ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم منه عرض، ولا تقوم معه أسرة. يريدون أن يعود الآدميون قطعاناً من البهائم، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط إلا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة! كلُّ هذا الدمار، وكل هذا الفساد، وكل هذا الشر باسم الحرية، وهي – في هذا الوضع – ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة! [(١)]

(١) – في ظلال القرآن، سيد قطب (٢ / ٩٦) .

فمن صور التحرر الفاسد المجاهرة بالفاحشة، وترخيص دور البغاء والملاهي الليلية والمسارح العبثية، واستحلال الخمر والميسر باسم الحرية، وقد حذّر القرآن كلّ من أحب إشاعة الفاحشة وسعى لإغواء المجتمع المسلم بالعذاب المؤلم في الدارين، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]

فالحرية بمفهومها الغربي والذي يجدُّ المفتونون به في تمريرها إلينا، تعني التحرر من القيم الأصيلة والأخلاق النبيلة والتمرُّغ في مستنقعات الخنا وأوحال الرذيلة، فكلمة "أنا حرة" عندهم تعني أنه لا سلطان لأحد عليها، ولا ولاية ولا قوامة فهي ولية نفسها تصنع ما يحلو لها، وتصبو وراء نزواتها وتستسلم لرغباتها الجامحة، تراقص هذا وتخلو بذاك، لا ترعوي لشرع ولا تستكين لعرف . أما الحرية الحقيقية فهي المحوطة بسياج الكرامة والإباء المكللة بتاج العفاف والنقاء، كما في تساؤل هند بنت عتبة رضي الله عنها : "وهل تزني الحرة !" وفي مقولتها مغزى لطيف ومعنى عظيم، ودرس لدعاة التحرير في عصرنا، فالحرية بمفهوم الجاهلية أنقى وأطهر من الحرية بالمفهوم الغربي المعاصر، الحرية قديما تعني الشرف والإباء، والطهارة والنقاء، والعفة والكرامة.

والحرية لا تعني حق الإنسان في التصرف بما لا يضر بالآخرين كما عرفها البعض، بل قد يجبر الإنسان على فعل ما فيه مصلحة للآخرين، كإنقاذ غريق أو حريق وهو يقدر على ذلك، أو تقديم المساعدة لمحتاج، والإسلام إن أعطى المسلم حق التصرف في أمواله لكنه أوجب على الغني الزكاة لصالح الفقراء والمحتاجين، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] فكل فرد في المجتمع له حقوق وعليه واجبات، والحرية لا تعني الأنانية والأثرة أو السلبية .

المبحث الأول

مجالات الحرية

المطلب الأول: حرية العقيدة والعبادة

منح الإسلام للإنسان حقَّه في الاعتقاد وإن حاد عن الحق، وحقه في ممارسة العبادة، حيث (لا إكراه في الدين) إذ العقيدة في القلب معقودة؛ فلا قيمة لإكراه ظاهريٍّ! لا سلطان له على القلب الذي هو محلُّ الاعتقاد، كما أن الإكراه يعني القهر والقسر الذي يتنافى مع إنسانية الإنسان، والله تعالى بصّر الناس وبيَّن لهم الحق من الباطل والهداية من الضلال بيانا شافيا وأقام الحجج والدلائل الموصلة للحق، بما لا حاجة بعده لإكراه لا سلطان له على القلب، إنما السلطانُ للحجة والبرهان. قال تعالى في سورة البقرة بعد إقامة الحجج وتجلية الآيات : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهل الدين الحقُّ الذي يوافق العقل والفطرة، ويقوم على الحجة والدليل يحتاج لأن يُكرهَ أحدٌ عليه! ألم يسجِّل التاريخ ويشهد الواقع كيف تهفو النفوس إليه وتقبل القلوب عليه بتسليم وإذعان! قال ابن كثير : " لَا تُكْرِهُوا أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ، جَلِيٌّ دَلَائِلُهُ وَبَرَاهِينُهُ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ، بَلْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ وَشَرَحَ صَدْرَهُ وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ دَخَلَ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ، وَمَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مُكْرَهًا مَقْسُورًا" . (١)

عَن ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ تَكُونُ مِقْلَاةً فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتِ النَّضِيرُ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالُوا: لَا نَدَعُ أَبْنَاءَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ (٢)

---

(١) - تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٢).

(٢) - رواه الواحدي في أسباب نزول القرآن، (ص ٨٣) . ومعنى مقلاة : لا يعيش لها ولدٌ . وأخرجه أبو داود في السنن في الجهاد، باب الأسير يكره على الإسلام (٢٦٨٢)، وأخرجه الطبري في التفسير (٥٨١٣)، وإسناده صحيح.

قال الشيخ الغزالي: "إن الإكراه لا يكون في العقائد، إنه على العكس ينفِّر منها ويسيء بها الظنون، وطبائع الأشياء ترسم للعقائد طريقا يبدأ حتماً من الحرية العقلية المطلقة...". (١)

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] والاستفهام هنا يحمل معنى النهي أي لا يجوز إكراه الناس على الإيمان. " عَلَّمَ اللَّه تَعَالَى رَسُولَهُ بِهَذِه الآيَات أَنَّ مِنْ سُنَنه فِي الْبَشَر أَنْ تَخْتَلف عُقُولُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِي فَهْم الدِّين، وَتَتَفَاوَت أَنْظَارُهُمْ فِي الآيَات الدَّالَّة عَلَيْه فَيُؤْمِنُ بَعْضٌ وَيَكْفُرُ بَعْضٌ، فَمَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ - ﷺ - مِنْ إيمَان جَمِيع النَّاس مُخَالِفٌ لِمُقْتَضَى مَشيئَته تَعَالَى فِي اخْتلَاف اسْتعْدَاد النَّاس للإِيمَان، وَهُوَ مَنُوطٌ باسْتعْمَال عُقُولِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ فِي آيَات اللَّه فِي خَلْقه، وَالتَّمْيِيز بَيْنَ هِدَايَة الدِّين وَضَلَالَة الْكُفْر." . (٢) .وقد أخبر الله تعالى عن السموات والأرض كيف استجابتا طواعية، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١] فقدم "طوعا" لأن الله تعالى يحب من عباده أن يأتوه طائعين محبين . وقال تعالى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]" ومعناه أن الحق قد ظهر فليختر كل إنسان لنفسه: إما الحق الذي ينجيه، أو الباطل الذي يهلكه". (٣) والآية تحمل روح الوعيد والتهديد لمن اختار طريق الكفر؛ فالإنسان حرٌّ في اختياره لكنه مسؤول عنه، مجزي به.

وقال تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦]. فلا وصايةَ لأحد على أحد ولا إرغام على قبول الحق، لكن الحرية لا تُعفي من المسؤولية والجزاء.

وقال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ

(١) - الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص:٩٥ .
(٢) - تفسير المنار، لسيد رشيد رضا (١١/ ٢٠٩).
(٣) - التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي (١/ ٤٦٥) .

﴿٣﴾ وَلَآ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾.[الكافرون ١-٦] فالإسلام لا يقبل المساومات أو التنازلات على حساب العقيدة، لكنه يقرُّ بحرية الآخرين في الاعتقاد وممارسة العبادة . كما قال ربُّنا جلا وعلا ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] فلا بد للحقِّ من قوة تحميه، والحريةُ لن تُمنَح للمستضعفين المغلوبين لأن من طبائع الغالب الاستبداد والقهر، لذا شرع الإسلامُ القتال لإعلاء كلمة الحق ودفع الظلم وقمع الاستبداد، وترسيخ الحرية وحماية الدين ونصرة المستضعفين، قال تعالى ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥]. فكما تكفّل الله بحرية غير المسلمين في معتقداتهم وعباداتهم، فمن باب أولى تقريره ودعوته لحماية حرية المسلمين في العقيدة والعبادة، لذا شرع الله الجهاد نصرة للحق وذودا عن حياض الدين، وإزاحة لكل صور الإيذاء والتضييق التي تصدُّ عن سبيل الله، قال تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩]

ومن حقِّ الإنسان أن يعبِّر عن رأيه بحُرِّيَّة، وإن خالف الآخرون، قال ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] ولا شك أن جدال المخالفين من الكفار وغيرهم يعني منحَهم الحق في التعبير والاحتجاج وطرح التساؤلات، وكثيرا ما نقرأ في القرآن الكريم عرضا لشبه المنكرين والردَّ عليها، وهذا من الموضوعية والإنصاف، فضلا عن حرية التعبير، ومما يقوي إيماننا ويزيدنا يقينا بما نعتقده، يقول جون ميل : " إن إطلاق الحرية التامة للغير في معارضتنا هي الشرط الجوهري الذي يسوّغ افتراض الصواب فيما نراه من الآراء حتى نستطيع العمل بموجبها والسير على مقتضاها. ومن غير هذا الشرط لا يستطيع الإنسان أن يكون على ثقة بصحة رأيه وصواب اعتقاده .(١) .

(١) - الحرية، جون استيوارت ميل ص ٥٤ .

لكن الإسلام الذي منح حريّة الكلمة دعا إلى تحرِّي الصدق والتثبُّت وانتقاء الألفاظ، قال تعالى ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤]وعلى مرِّ تاريخنا الإسلامي كم عُقِدَت من مناظرات ومحاورات بين المسلمين وغيرهم، بعضُها بين يدي حاكم، دون مؤاخذة لمخالف أو محاسبة له على ما يبديه من شبه وتساؤلات، طالما لم يتجاوز حدود الأدب في المناظرة.

ويخطئ من يظنُّ أن آية السيف قد نَسَخَتْ جميع آيات العفو والصفح والصبر والإعراض، ألم تنزل آيات كثيرة في سور مدنية متأخرة النزول تدعو لهذه الفضائل وترغِّب فيها ؟ ففي سورة المائدة وهي من أواخر السور نزولا ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣]. وكذلك في سورة التوبة ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩] فالصبر والصفح والعفو باقٍ، وهو من مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام، إلى جانب دعوته لحرية الرأي والاعتقاد وحرية المناقشة والحوار.

التحرر من التقاليد الجاهلية : وتشمل حرية العقيدة والعبادة التحرر من التقاليد الموروثة والعادات الجاهلية التي تستحوذ على العقول وتحُول بينها وبين التفكير السليم، وقد نعى القرآن على أهل الجاهلية تمسكهم وإصرارهم على المضي قُدُما في التعصُّب لطريق الآباء والأجداد، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٤] قال ابن الجوزي : " بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّة أي: على سُنَّة وملَّة ودين وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ فجعلوا أنفُسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حُجَّة "[(١)] . فقد صدّهم عن الهُدى اقتفاؤهم لآثار الآباء، بلا حجة ولا برهان، هذا

(١) - زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٤/ ٧٥).

التقليـد الأعمى والانسياق الضــالّ لنهج الآباء الأقدمين قيدٌ يمنع من الانطلاق نحو الحقيقة والسعــي إلى الهداية، كمــا عبّر المشركون عن حالهم :كيف أنهــم مكبلون بتلك الأغلال التي تحجب حواسّهــم وعقولهم عن الوصول إلى الحقيقة وتبصُّرهــا ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥].

وقد دعا القرآن إلى النظر والتفكُّر والتعقُّل والاعتبار بأساليبَ متنوعة مشوِّقة ومرغِّبة، ونعــى علــى من أهمل الفكــر وعطّل العقل وخضــع لأسر التقاليد الموروثــة . قال تعالى ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونــس: ١٠١] ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّــرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَــقَ اللَّه السَّمَاوَات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَــا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِــيرًا مِنَ النَّاس بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٨] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَة أَنْ تَقُومُوا لِلَّه مَثْنَــى وَفُرَادَى ثُــمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّة إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيــرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَاب شَدِيد ﴾ [سبــأ: ٤٦]، بيَّنت الآياتُ ما هو جديرٌ بالنظرِ والتفكُّر أن ينظر الإنسانُ بإمعانٍ إلى ما في الكــون من آيات وعبر، ومواعــظ ونذر، وأن الكون لم يُخلق عبثا بل لحكمــة بالغة، وأن يتفكّر الإنســان في مصيره الذي ينتظره، فيسعى إلى طلب الحق ويشمّر عن ساعد الجدّ، وتكرر في القــرآن الكريم في سياقات مختلفة الدعوة للتعقل بصيغ مختلفة منها : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقــرة: ٤٤،]حيث حضهم على التعقُّل، وأخرى بصيغ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣] أي رجــاء أن تعقلــوا فتعتبروا، وأخــرى بصيغة الشرط محذوف الجواب للعلــم به ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨]إن كنتم تعقلون فسوف تذعنون لهــذا البيــان، وتؤمنون بخالق الأكوان ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُــونَ ﴾ [يس: ٦٢]أي في الدنيا توبيخ لهــم على تركهم التعقّل، فحثَّ القرآنُ على التعقُّل، وأنكر على من تركه، كما بيّن كون التعقُّل من مقاصد نزول القرآن ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]

التحرر من أسر الشيطان والهوى : الشيطان داعي الهوى، يزيِّن القبيح، ويقبِّح الحسن، فكــم من معصية هوَّنها، وكم من طاعــة سوَّفها، وكم من بدعة حسَّنها، وكم من سنَّة صرف النــاس عنهــا . وأعوانه من الشياطــين يسعون إلى غوايــة الناس وإضلالهــم وإفساد دينهم ودنياهــم، وكذلك أعوانه من شياطين الإنس، قال تعالى عن قوم سبأ وقد تغير حالهم وتبدل من النعمة إلى النقمة ومن الرخاء إلى الشدة، بإعراضهم وكفرانهم وتبطُّرهم ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ

مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]فبينت الآيـةُ الكريمـة كيف وقع قومُ سبأ في مصائد الشيطان فصـدّق عليهم ظنَّه : لما أعرضوا عن شكـر النعم ونسوا المنعم، وأخلدوا إلى الترف، وتنافسـوا في المتع والملذات، فوقعوا في حبائل الشيطان وانقادوا لوساوسه، فصدق عليهم قولُه كما أخبر ربُّ العزة ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] فتركوا له الزمام وأذعنوا له وساروا في ركابه . إلا من عصمهم الله من وساوسه ونجّاهم من إغوائه. وما تسلّط عليهم بقـوة وقهر بل بمكره وحيله التي تنطلي على أهـل الأهواء والظنون . واتباع الهوى يفضي إلى الانسيـاق وراء الملذات والانغماس في الشهـوات، والنفور من الحق، وكراهيته، وما ينبثق عن ذلـك من ظلم وافتراء، وتردِّي الأخلاق، وانفراط عقد المجتمع، وفقدان نعمة الأمن وتلاشي العدالة الاجتماعية، وسقوط المجتمع في براثن الطغيان والاستبداد، وتسلُّط الظلمة، وتصدُّر الفسقة، وتمكُّن المنافقين ومرضى القلوب. ولقد حذّرنا الله في كتابه الكريم من إتباع الهوى، وأنـذر الذين ملك الهـوى أعنّةَ قلوبهم، ودعا إلى تجنُّب أصحاب الأهـواء قال ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] قال ابن عباس : ما ذكر الله عـز وجـل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمَّه . [(١)] فينبغي على الإنسان أن يتحرّر من أسر الشيطـان ومـن استبداد الأهواء. كما حذّر القرآن من استبـداد الأغلبية الضالة، والانقياد إلى الجماهـير الغفيرة في ضلالها بدافع كثرتها، بل يطلـق الإنسان العنان لعقله ونظره، ولا تستهويه الأكثرية الضالة قال تعالى ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]قال ابن كثير " يخبر تعالى: عن حال أكـثر أهل الأرض، من بني آدم أنـه الضلال...وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل" ﷺ.

المطلب الثاني : حرية التصرف والتنقل

منح الإسلام للإنسان حرية التصرف في أمواله وأملاكه، وحرية إجراء العقود، وتحمل الالتزامـات، فـلا يُحجر عليه إلا حماية له؛ لعجزه عن التصـرف أو لسوء تصرُّفه، كالصبي والمجنـون والسفيـه الذي لا يميِّـز ما يصلحه ومـا يفسده، قال تعـالى ﴿ وَلَا تُؤْتُـوا السُّفَهَاءَ

(١) - ذم الهوى، لابن الجوزي ص ١٦ .

أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾ [النساء: ٥، ٦] كما منح الإنسان حرية الانتقال من مكان إلى مكان، بل دعا إلى الهجرة ومفارقة الأوطان بحثا عن أجواء الحرية، إن تلبدت السماء بغيوم الطغيان والاستبداد، حيث لا عذر للإنسان في البقاء بأرض ظلم وقهر وإكراه، طالما كان بوسعه الهجرة إلى أرض يستنشق فيها عبيرَ الحريَّة، وينعم بظلال حُكم عادلٍ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧] . ولقد كان للمسلمين في العهد النبوي هجرتان هجرة للحبشة وهجرة للمدينة المنورة، وقد أثر عن نبينا صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ أنه قال لأصحابه الذين استضعفوا في مكة : (إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ).[1]

من صور حرية النساء : منح الإسلام للمرأة حرية التصرف فيما تملك ببيع أو هبة أو تنازل عن طيب خاطر منها قال تعالى ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: ٤] وقال ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١]. فللمرأة الحق في الصداق ملكا وتصرُّفا، لا يحل للزوج أن يتصرف فيه ولا في غيره من أموال زوجته إلا بإذنها ورضاها. كما منح الإسلام للجنسين حرية اختيار الزوج، دون إكراه أو إجبار، في مقابل أنه يسر السبيل إلى إنهاء الحياة الزوجية إن استحالت العشرة، وانقطعت أواصر المودة، فشرع الإسلام الطلاق وجعله بيد الرجل، وشرع للمرأة الخلع، قال تعالى ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. عن

(١) – دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٠١)، والروض الأنف للسهيلي (٣/ ١٢٠) .

ابـن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس رضي الله عنهما أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله، ثابت بن قيس : ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام! فقـال رسـول الله ﷺ : (أَتَرُدِّينَ عليه حَدِيقَتَـهُ) ؟ قالت : نعم، قال رسولُ الله ﷺ : (اقْبَلِ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً) [(١)].

ولا شـك أنَّ الطـلاقَ أبغضُ الحلالِ عندَ الله تعالى؛ ذلـك أنه إيذانٌ بانفصالِ زوجين، وإعـلانٌ عـن توقُّف مسيرتهمـا الزوجيَّة، وفراقهما بعـد أن كانا جسدا واحـدا، والفراقُ مُرُّ المـذاقِ، لكنَّـه في بعض الأحيان دواءٌ لا بديل له، وإن كان مُرًّا علقمـا ، وحلٌّ حاسمٌ، وإن سبَّب جُرحًا وألما ؛ وذلك حين يسودُ النفورُ ويحتدمُ الخلافُ وتستحيلُ العشرةُ، وتخفِقُ المساعِي بين الزوجينِ . [(٢)]

كمـا منـح الإسلام للمطلقة الحق في الـزواج، بعد انقضاء عدتها، وحـرم ما كان يفعله أهـل الجاهليـة من عضلها أي منعها من الزواج تنكيلا بها قال تعالى في سورة ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا

---

(١) – رواه البخـاري في صحيحـه كتاب الطلاق باب : الخلع وكيفية الطلاق فيه٤١٨/٣ الحديث رقم: ٥٢٧٣ ورواه النسائي في السنن كتاب الطـلاق – باب ما جاء في الخلع ١٢٣/٦ الحديث رقم : ٣٤٦٣ .

(٢) إذ ليـس مـن حـق الرجل أن يطلق زوجته ولا مـن حق المرأة أن تطلب الطلاق فتعيشـ مقهورة مكبوتة في بيت لا تطيقه وزوج لا ترغبه، ولربما يصل بها الأمر إلى الجنون أو الانتحار، الأمر الذي دفع بعض النصارى إلى التخلي عـن دينهـم الذي يقيد الحريات وينتقلوا لديـن آخر، أو يقلّصوا دور الدين ويفصلـوه عن الحياة، كما حدث في العلمانية، أو ينسلخوا من الأديان، حتى انتشر الإلحاد في الغرب بسبب فساد النصرانية وتناقضاتها وإفلاسها، وعنتهـا، وجمودهـا ومجافاتها للواقع، أو يبتدعـوا مذهبا جديدا كما وقع في أوروبا حيـث ظهرت البروتستانتية كحركـة معارضـة ومناهضة لكثير من تعاليم الكنيسة وكان من نتائجها إباحة الطلاق لا بسبب الزنا فحسب بل بسبـب استحالة العشرة بـين الزوجين، كذلك لما نشبت الثورة الفرنسية أباحـت الكاثوليكية في فرنسا الطلاق، وفي مصـر على سبيل المثال لا يزال كثير مـن الأزواج النصارى يعيشون منفصلين عازبين تحت سقف واحد لأن الكنيسة تحرم الطلاق إلا في حالة الزنا، وربما كاد الرجل لزوجته ودسَّ لها ليدبِّر فضيحةً بكيده ، حتى يتخلّص مـن رابطـة الزواج، ومن غرائب القوانين في الغرب أنه في عـام ١٩٢٣ صدر تعديل يسمح للزوجة بطلب الطلاق لخيانة الزوج ولو لمرة واحدة، وأصبح ممكنًا للزوج الذي يرغب في الانفصال عن زوجته أن يقيم ليلة بفندق مع امـرأة أخـرى مسجلاً ذلك في فاتورة الفندق، أو أن يُصَوِّر نفسـه في وضع مخلٍّ مع عاهرة ويرسل بالصورة إلى زوجته نكايةً فيها وجرحا لمشاعرها وتخلُّصا منها ! يراجع بحثي عن الطلاق دراسة موضوعية موسوعة التفسير الموضوعي مركز تفسير بالرياض . ويراجع كتابي حقوق المرأة في السنة ط دار الصميعي بالرياض .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. فنهى تعالى في هاتين الآيتين عن عضل الزوجة سواءً كان من قبَل الزوج الذي يتعمَّدُ إمساكَها للإضرار بها وتعطيلها عن حقِّها بإطالة مدة اعتدادها، أو من قبل وليِّها الذي قد يعضلها عن الرجوع لزوجها الأول بعد انقضاء عدتها، أو يعضلها عن الزواج بغيره لشيء في نفسه . وقال تعالى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]عن ابن عباس – رضي الله عنه – قَالَ : قَوْلَهُ :﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ : نزلت في الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ تَطْلِيقَةً، أَوْ تَطْلِيقَتَيْنِ فَتَنْقَضِي عِدَّتُهَا، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ فِي تَزْوِيجِهَا وَأَنْ يُرَاجِعَهَا، وَتُرِيدُ الْمَرْأَةُ، فَيَمْنَعُهَا أَوْلِيَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ، فَنَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَمْنَعُوهَا. (١).

المطلب الثالث: تحرير العبيد والأسارى

بينما نهج الإسلام سياسة رشيدة لتجفيف منابع الرِّق وتضييق مصادره، فقد وسّع أبواب الحرية وأكثر من أسبابها، المندوبة أو الواجبة، من إحسان أو كفارة أو مكاتبة، فلقد كانت روافد الرقِّ وأسبابه في الجاهلية كثيرة متشعبة، حتى كان هناك في بعض الأعراف من يبيع زوجته أو ابنته، فضلا عن تملُّك الحر إذا سرقه، أو استيفاء للدين فيهب حريته للدائن، فضلا عن انتشار الرقِّ بالسلب والنهب وقطع الطرق، فجاء الإسلام وحرّم استرقاق الأحرار، ووسّع أبواب العتق، قال تعالى ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٩٢]، ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ [المجادلة: ٣] ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة: ٨٩] ﴿ لَيْسَ

(١) جامع البيان للطبري (٤ / ١٩١)، وفتح القدير للشوكاني (١ / ٣٢٨) ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٤١٥ .

الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٠]فجعل الله فك الرقاب وتحرير الأسارى من الكفارات، ووجوه البرِّ ومصارف الزكاة . وقال تعالى ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد: ١١ - ١٣]فرغب القرآن في فك الرقاب، وبين أنه من أسباب النجاة من أهوال القيامة واجتياز عقباتها الكؤود. وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٣٣]حيث أمر القرآن بتيسير المكاتبة لتحرير العبيد والإماء وأن لا يثقل كاهل الأمة فلربما يضطرُها إلى البغاء لكسب المال اللازم لعتقها، وقد حرم القرآن جميعَ صور الإكراه لتنافيها مع حقِّ الإنسان في الحرية والكرامة . " وإن الإنسانية لتستفيدُ من ترك الأفراد أحرارا يعيشون في الدنيا على اختيارهم، ويجرون في الحياة على مرادهم، أضعاف ما تستفيد من إرغام كل فرد على التقيُّد بمشيئة سواه، والنزول على حكم غيره " . [١].

(١) - الحرية، جون استيوارت ميل ص ٤١ .

المبحث الثاني

ضوابط الحرية

المطلب الأول: أن لا تتعارض مع العقيدة

من حق الإنسان أن يفكِّر وأن يعبِّر، دون أن يتجاوز هذا إلى الطعن في الدين أو الإغراق في الأوهام والخيالات، بحجة أنه حرٌّ في تفكيره ومنطقه؛ فالحرية لا تعني الطعن والتشكيك في ثوابت الدين، أو الهجوم الضاري على القيم الإسلامية باسم حرية الفكر والإبداع، أو السخرية والاستهزاء بالدين بدعوى التلهِّي والتسلّي، وبغرض التشكيك والتشغيب وتثبيط الهمم قال تعالى ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٧].قَالَ قَتَادَةُ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّه - ﷺ - فِي غَزْوَة تَبُوكَ وَبَيْنَ يَدَيْه نَاسٌ منَ الْمُنَافقينَ إذْ قَالُوا: يَرْجُو هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَفْتَحَ قُصُورَ الشَّام وَحُصُونَهَا! هَيْهَاتَ لَهُ ذَلكَ، فَأَطْلَعَ اللَّه نَبِيَّهُ عَلَى ذَلكَ، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّه: "احْبِسُوا عَلَيَّ الرَّكْبَ" فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: "قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟" فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى هَذه الْآيَةَ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) ، وقال زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ ومحمد بن وهب: قَالَ رَجُلٌ منَ الْمُنَافقينَ في غَزْوَة تَبُوكَ: مَا رَأَيْتُ مثْلَ قُرَّائنَا هَؤُلَاء أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا وَلَا أَجْبَنَ عنْدَ اللِّقَاء، يَعْني رَسُولَ اللَّه ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَ عَوْفُ بْنُ مَالك: كَذَبْتَ وَلَكنَّكَ مُنَافقٌ لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ ليُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلكَ الرَّجُلُ إلَى رَسُول ﷺ وَقَد ارْتَحَلَ وَرَكبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَنَتَحَدَّثُ بحَديث الرَّكْب نَقْطَعُ به عَنَّا الطَّريقَ.[1] فالحرية تقتضي المسؤولية والانضباط في القول والفعل، وإلا استحالت الأمور إلى فوضى وعبث.

(١) - أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٥٠).

المطلب الثاني: أن لا تتعارض مع أصول الأحكام

منح الإسلام الفرد حرية الكلمة والاعتقاد والتصرف والانتقال والمعاملات، ما لم تخالف تشريعا، فإذا خالفت صارت مروقا وانحرافا لا حرية، فالتبرج ليس حرية شخصية بل يصطدم مع الشرع ومع قيم المجتمع المسلم، وشرب الخمر ليس حرية شخصية بل جريمة يعاقب عليها الشرع وكبيرة نهى الله عنها، فكما أن اللص لا يملك الحرية في أن يسرق كذلك شرب الخمر جريمة تستوجب العقاب، وذلك الذي يدخِّن في الشوارع أو الأماكن العامة أو في الحافلات والقطارات زاعما أنها حرية شخصية، هو في الحقيقة غافل عن حرمة التدخين، منتهك لحق الآخرين أن يتنفسوا هواء نقيًّا، وهكذا يضبط الشرع سلوك الناس ويقيد حرياتهم إن تعارضت مع حريات غيرهم، فليس للفرد الذي ينتمي إلى الجماعة الخيار المطلق في تصرفاته وآرائه . والمؤمن يلتزم بطاعة الله ورسوله واتباع منهج الحق ولزوم جماعة المسلمين، قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ "بلى فانكحيه" قالت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً ﴾ الآية، قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال رسول الله ﷺ: "نعم" قالت: إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي. (١).

المطلب الثالث: أن لا تتعارض مع المصالح العامة

الحرية الفردية لا تعني الأنانية والأثرة أو اللامبالاة والانعزالية عن المجتمع، فالإنسان لا يمكن أن يعيش وحيدا في هذه الحياة مستغنيًا عن الآخرين بل هو جزء من المجتمع لا يستغني عنه، ولو كان لكل إنسان الحق في قضاء حوائجه وتحقيق مآربه كيفما شاء لأصبحت الحياة فوضى، لا أقول غابة فللغابة سننٌ تنظمها وتسيّرها، لكن لو أطلق العنان للإنسان

(١) - تفسير الطبري (٢٠ / ٢٧١).

لركب كيفما راق له كلَّ وسيلة لتحقيق مآربه وإشباع رغباته ، ولأدّى ذلك لفساد المجتمعات . ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]من هنا فإن حرية الفرد تتوقف حين تصطدم بحقوق الآخرين .

المطلب الرابع: أن لا تنتهك حقوق الآخرين وحرماتهم

إذا أُطلق العنان لحرية الفرد لاصطدمت بحقوق الآخرين ولأفضت إلى انتهاك حرماتهم، لذا حرَّم الله الفواحش وشرع الحدود وأخذ الناس في كتابه بالمواعظ والتذكير، فالحرية الشرعية تعني رعاية حقوق الغير وصيانة حرماتهم، تأمل على سبيل المثال في سورة النور : كيف حرم الإسلام الزنا وقذف المحصنات وأوجب اللعان إذا رمى الزوج زوجته إن لم تقرّ بما ادعاه الزوج، ولم يقدم البينة، وشرع الاستئذان والحجاب صيانة للحرمات وحماية للحقوق ومراعاة للخصوصيات ثم أمر بالتزويج ورغّب في تيسيره فهو الطريق الشرعي لإرواء العاطفة في الحلال ، ثم تأمل كيف جاءت سورة الحجرات بحماية عرض الإنسان وصون كرامته ونهت عن تحقيره أو السخرية به أو سوء الظن ، فصون اللسان وإلجامه عن الاعتداء وفضول الكلام واجبٌ شرعيٌّ لا يتعارض مع حق الإنسان في الحديث وحرية التعبير .

المطلب الخامس : أن لا تصطدم مع القيم والآداب

الحرية التي ينشدها الإسلام ويقررُها ويحفظها حرية كريمة طيبة لا تتنافى مع القيم والآداب الإنسانية، بل ترقى بالإنسان وتسمو به إلى التحضُّر والرُّقي، وتنسجم مع الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها، بينما أدَّى التحرر في الغرب إلى الانسلاخ من القيم وإهمال الآداب، بل رسّخوا قيَما جديدة أدّت باسم التحرُّر إلى انتكاس الفطرة، والتمرغ في أوحال الرذيلة. "وساروا مستصحبين الحرية المطلقة من جميع القيود، وهي عبارة عن حرية الشهوات البهيمية والسبعية، فلم يوقفهم عنها دين ولا أخلاق ولا مصلحة عمومية بل ولا فردية، فوقعوا في الفوضى وتصادمت الإرادات ومرجت العقول، فارتكسوا في غيِّهم

يعمهــون، وفي ضلالهم يــترددون، فإن الله بحكمته ورحمته خلق الإنســان ووضع فيه الشهوة التــي تدعــوه إلى جميع ما تشتهيه النفــس، وعند الاسترسال مع هذه القــوة لا يقف عند حد الاعتدال الواجب، بل توقعه في فساد عريض" . (١)

مــن هنــا فلا بد أن تنسجم هــذه الحرية مع المقاصد الخمس التي هــي أساس الشريعة حفــظ الدين وحفظ النفــس وحفظ العقل وحفظ المال وحفظ النسل، فــإن إضاعتها أو شيئًا منهــا مفســدةٌ عظيمــة . ولقد أسهــب القرآن الكــريم في تقريــر مكارم الأخــلاق ومحاسن الآداب في ســوره المكيــة والمدنية، مقررا أن حرية الإنسان لا تعني إيذاء الآخرين أو إحراجهم والتضييق عليهم، تأمل على سبيل المثال ما اشتملت عليه سورة الأحزاب من التأدُّب مع النبي ﷺ وتعظيــم حرمتــه، وآداب حضور الولائم والزيــارات وغيرها، وما اشتملــت عليه سورة الحجــرات من التأدب في خطــاب النبي وندائه وآداب المجالس وصــون النفس عن السخرية بالآخريــن واجتناب سوء الظــن والغيبة واللمز والتحقير، وما اشتملــت عليه سورة النور من آداب العفــاف والاستئذان وغض البصــر والحجاب، فضلا عن السور المكية التي ركّزت على هــذه الموضوعــات، كالوصايا العشر في ســورة الأنعام ووصايا سورة الإســراء ووصايا لقمان الحكيــم، وأكثرُهــا في تقرير محاسن الآداب والتنفير من مســاوئ الأخلاق والسلوك، فضلا عــن ترسيــخ العقيدة التي تمدُّنا بالطاقة والزاد، بل لا تخلو ســورة من سور القرآن من دعوة إلى ارتقاء الأخلاق وتزكية النفوس .

(١) – كمال الدين الإسلامي وحقيقته ومزاياه، عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله (٢/ ٩٥) .

الفصل الثاني
المساواة مجالاتها وضوابطها

التمهيد : صور ومفاهيم خاطئة للمساواة :

من صور المساواة الخاطئة : الدعوة لمساواة مطلقة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات دون اعتبار لاختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل ومهمة كلٍ منهما في الوجود، وهي في الحقيقة ظلمٌ عظيمٌ للمرأة والرجل على السواء، وثورةٌ على الفطرة المستقيمة وتحميل المرأة ما لا تطيق حمله، وإلهاؤها عن دورها الأساسي كزوجة وأم . وإذا كان الغرب قد عجز عن تطبيق المساواة وتحقيق العدالة والحرية والسلام والأمن بينه وبين باقي البشر، فقسم العالم إلى عوالم، وفرَّق بين الناس على أساس الجنس واللغة واللون، وجعل بينه وبين الشعوب الأخرى حواجز وموانع، ولم يحقق المساواة بمفهومها الحقيقي الشامل فكيف يسعى إلى تحقيق المساواة المطلقة بين الرجال والنساء! ألا تزال الجمعيات والحركات النسائية المتحررة في الشرق والغرب تنعى وتندب وضع المرأة وضياع حقوقها في قلب أوربا وأمريكا! وهل المساواة تقتضي أن تُدفعَ المرأةُ دفْعًا إلى مزاحمة الرجال والتبرج والابتذال؟ هل تقتضي المساواة أن تصبح المرأة جنسا ثالثاً، فتفقد أنوثتها في خضم الحياة وتنسى طبيعتها وتتخلى عن عاطفتها ومسئوليتها كزوجة وأم؟ إن الذي يدعو إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة يتجاهل طبيعة كل منهما ويغفل عن سنة الله في الكون، فالمرأة والرجل وإن اتفقا في صفات فإنهما مختلفان في غيرها، ومع ذلك فلا غنى لأحدهما عن الآخر، لأنهما كالليل والنهار، قال الله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (﴾ [الليل: ١ – ٤]. فكما أن لليل مهمته فللنهار أيضا مهمته، كذلك للذكر مهمته وللأنثى مهمتها، ودورها في الحياة ، وكما أنه لا غنى عن الليل بالنهار، أو العكس، فكذلك لا غنى بالرجل عن المرأة ولا بالمرأة عن الرجل فهما مخلوقان متكاملان متلازمان، لا يستغني أحدهما عن الآخر.

ومن دعاوى المساواة الخاطئة تلك النداءات للاعتراف بالشذوذ الجنسي، وبالزواج المثلي، واعتبار ذلك حقا من الحقوق! مستغلين الأنظمة الغربية العلمانية والحملات الانتخابية، فيسعى الساسة إلى كسب رضا الشواذ وتحقيق مطالبهم غير المشروعة لحصد أصواتهم على حساب القيم الإنسانية.

المبحث الأول

مجالات المساواة

المطلب الأول : المساواة في الأصل

فالناس جميعا من أصل واحد، حيث خلق الله آدم u وخلق منه زوجه حواء ومنهما كانت البشرية جمعاء، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] وقال جل وعلا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]فالناس جميعا من أصل واحد، على اختلاف صورهم وألوانهم، وأجناسهم وألسنتهم، لا فضل لأحد على أحد، إلا بالتقوى والعمل الصالح : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ). [(١)] وعن أبي نضرة – رضي الله عنه – قال حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناسُ ألا إنَّ ربَّكُمْ واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ولا لأحمرَ على أسودَ ولا أسودَ على أحمرَ إلا بالتقوى) . " [(٢)] . (إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ٤/١٩٨٧ حديث (٣٤ – (٢٥٦٤) .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة ٥ / ٤١١ وإسناده صحيح إلى أبي نضرة إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابيا، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ / ٥٧٨ برقم ٥٦٢٢ – وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ولقد ورد الحديث متصلا عند الطبراني والبزار حيث رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ٢ / ٤٣٥ حديث ٢٤٤ – ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه ٥ / ٣٧٦ حديث ٤٧٤٦ – وقال الهيثمي في المجمع : " رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ورجال البزار رجال الصحيح ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه " . مجمع الزوائد ٨ / ٨٤ .

برجـال أو ليكونــن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن) [(١)] . وكما أن البشر متساوون في أصل الخلق فهم متساوون في غايته وهي عبادة الله تعالى وحده ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

المساواة في الكرامة الإنسانية : سوّى الإسلام بين الجنسين في حق الكرامة وحماية العرض قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] والبشر جميعا مشتركون في التكريم الإلهي لهم كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]

هذا بالنسبة للتكريم العام، أما التكريم الخاص فعلى أساس التقوى، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]قال البيضاوي : فإن التقوى بها تكمل النفوس وتتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليلتمسه منها" [(٢)]

المطلب الثاني: المساواة في الحقوق

الحقوق الإنسانية حقوق عامة ومتكاملة، تدلُّ على عدل الإسلام وتحقيقه التوازن بين المصالح والواجبات، وطبيعة المجتمع متفاوتة ففيه الغني وفيه الفقير، وفيه الصغير والكبير، والرجل والمرأة، ومن عدالة الإسلام تحقيقه التوازن بين مصالح الناس، فلم يرجِّح كفَّة الأغنياء على كفَّة الفقراء كما نرى في الأنظمة الرأسمالية ولم يُجْحِفْ بالأغنياء فيصادر ثرواتهم ويحرمهم من حرية التصرف والتملك، كما رأينا في الأنظمة الاشتراكية الشيوعية، ولم يسن من القوانين سيفا مسلّطا على أعناق الرجال لصالح النساء كما هو الحال في القوانين الغربية التي ترجِّح كفة النساء فتثقل كاهل الرجل وترهقه وتقيّده بما ليس في

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده٢ / ٣٦١، وأبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب،(٤/ ٣٣١) ح ٥١١٦ ، والترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة الحجرات. (٥/ ٣٨٩)ح ٣٢٧٠ . والعُبِّيَّة:التكبر، والزهو. والجعلان جمع جعل : دُوَيْبَّةٌ سَوداءُ، تكون في المواضع النَّديَّة.تاج العروس للزبيدي (٢١٠/٢٨) .

(٢) - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) . (٥/ ١٣٧) .

صالحه ولا صالح الأسرة ولا مصلحة المرأة مما جعل الرجل يتنصّل من مسؤولية الزواج طالما يستطيع الاستمتاع بالمرأة دون أي التزام ماديٍّ أو أدبيٍّ نحوها، فيخادنها سفاحا. وقد حقق الإسلام المساواة بين الناس فلا تمييز علىً أساس اللون أو البلد أو اللغة، فالناس في الإسلام سواسية، في الحقوق والواجبات، وإن وقع تفاوت فلمصلحتهم، مراعاة لاختلاف مهامهم ومسؤولياتهم، تأمل في قوله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]: فالتفاضل من أجل التكامل، ولولا التفاضل لما تحقق التكامل، فلا تستقيم الحياة إن صار الناس كلهم أغنياء، ولا إن كانوا جميعهم فقراء، فمن رحمة اللّه وحكمته أن جعل الفقير والغني ليدور دولابُ الحياة قال تعالي ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]فقد شرع الإسلام من الأحكام ما يحقق التوازن في المجتمع بين الغني والفقير، ولا يسمح ببقاء المال في خزائن الأغنياء.

وبين تعالى أن قاعدة المساواة هي الأصل بين الجنسين فقال ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] كما قال ابن عباس إني لأحب أن أتزيّن لزوجتي كما أحب أن تتزيّن لي، وما أحب أن أستوفي جميع حقي عليها، لأن اللّه يقول ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

ومن ذلك أيضا التسوية بين الناس في التقاضي فلا يميَّز خصمٌ على خصمه لأي سبب من قرابة أو عداوة، أو اختلاف دين أو مذهب، أو غنى أو فقر، أو ذكر أو خمول، قال اللّه تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]

(١) جامع البيان للطبري (٤ / ٥٣٢)، وتفسير ابن أبي حاتم (٢ / ١٤٣)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٢ / ٦٥٩) وعزاه إليهما.

المطلب الثالث: المساواة في الخطاب

جاء الخطاب الشرعي في القرآن في أغلب أحواله بصيغة العموم ليعمّ جميع المؤمنين، بل قال علماء الأصول خطاب الشارع لواحد إن لم يدل الدليل على تخصيصه فيُحمل على العموم، وهكذا فهمت أمُّ سلمة رضي الله عنها بفقهها عموم الخطاب وشموله للرجال والنساء على السواء : حين سمعت النبيَّ ﷺ ينادي قائلا : (أيُّها الناسُ) والجاريةُ تمشِّطُها قالت : اسْتَأْخِري عَنِّي، فقَالَتْ لها الجاريةُ : إنّمَا دَعَا الرِّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ، فَقالت: إنِّي مِنَ النَّاسِ.(١) . فأصغت سمعها لهذا النداء وطلبت من الجارية أن تتوقف حتى لا يشغلها شيء عن سماع ما وراء النداء من توجيه وإرشاد، امتثالا لأمر الله ورسوله، وحرصًا على الخير، وفهما لمكانة المرأة ورسالتها، وكونها جزءا من المجتمع. فكل خطاب شرعي جاء بصيغة من صيغ العموم مثل "يا أيها الناس"، "يا أيها الإنسانُ"، "يا أيها الذين آمنوا"، "يا بنى آدم"، " أيها المؤمنون" ونحوه فهو موجه للرجال والنساء على السواء، إلا ما دلت القرائن على أنه خاص بالرجال مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] فهذا واضح أنه خطاب للرجال لاشتماله على هذا التكليف الشرعي وتلك الوصية الإلهية بالنساء .

وليس أدلَّ على تكريم القرآن للمرأة وإنصافها لها من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "كنا لا نعدُّ للنساء شأنا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل "(٢)، إذ كانت المرأة في جاهليتها كسقط المتاع، وربما تورَّث إذا مات زوجها لأحد أقاربه، بينما تحرم غالبا من ميراثها، وكانت مهيضة الجناح محرومة من معظم الحقوق مثقلة بآصار العادات الجاهلية التي تحقِّر من شأنها وترهقها وتنكِّد عليها عيشها، ولم تكن البنت الوليدة قادما مرغوبا فيه، بل كانت تستقبل من قبل أبيها بالضيق والنفور، والتجهُّم والتشاؤم، قال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها صحيح مسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ٤/١٧٩٥ حديث ٢٩- (٢٢٩٥) .

(٢) - رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير من حديث ابن عباس (٤ / ١٨٦٦) ٤٦٢٩ ومسلم باب فِي الإِيلَاءِ وَاعْتِزَالِ النِّسَاءِ حديث (٤ / ١٩٠) ٣٧٦٥.

هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] . قال المفسرون: وهذا صنيع مشركي العرب، كان أحدُهم إذا ضرب امرأته المخاضُ، توارى إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً سُرَّ به، وإن كانت أنثى، لم يظهر أياماً يُدَبِّر كيف يصنع في أمرها"[(١)].

والمساواة هي الفطرة التي فطر الله الإنسانية عليها، فحين خلق الله آدم وخلق له حواء وأمرهما بسكنى الجنة ونهاهما عن الأكل منها جاءت الأوامر والخطابات موجهةً للاثنين معا، بينما نُسبَ الشقاءُ لآدم وحده ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧] ، ذلك لأن الشقاء هنا هو الكدُّ والتعب لتحصيل العيش وذلك من شأن الرجل ومسؤوليته، وليس من شأن المرأة .

المطلب الرابع : المساواة في التكاليف والثواب

فالمرأة والرجل سواء في معظم التكليفات الشرعية لا تفاوت بينهما إلا فيما يرجع كما ذكرنا لتفاوت طبيعتهما ووظيفة كلٍّ منهما : لذلك جاء الخطاب القرآني بصيغ العموم يشمل الجنسين معا وكذا الخطاب النبوي.سوّى الله عز وجل بينهما في الإيمان والعمل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] وسوّى بينهما في الأجر والثواب قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]

روى الترمذي عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبيَّ ﷺ وقالت : ما أرى كل شئ إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء! فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾[(٢)].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٦٦).

(٢) حديث صحيح : رواه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن عن رَسُول الله ﷺ -باب ومن سورة الأحزاب وقال الترمذي : " هَـذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وإنَّمَا نعرفُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ هَذَا الوَجْـه." سنن الترمذي ١٩٥/٥ رقم ٣٢١١ وقال عنه حديث حسن غريب وقال الشيخ الألباني في تعليقه على السنن :" صحيح الإسناد " .

المبحث الثاني

ضوابط المساواة

المطلب الأول: مراعاة الفروق بين الجنسين في الطبيعة والمهام :

سبق الحديث عن ضوابط الحرية، وما ذكرناه هناك لن نكرره هنا اختصارا، ولكن نضيف إليه، ضرورة مراعاة الفروق الطبيعية بين الجنسين العضوية والنفسية، وقد أثبت العلم أن فترة الحيض التي تمر بالنساء تؤثر على مستوى الفهم والاستيعاب والتحمل والأداء لديهن : أشار لذلك العالم الأنثروبولوجي الأمريكي ليونيل تايجر Lionel Tiger وسرد مثالاً معبراً لذلك فقال : إن أداء الفتيات لامتحان كتابي يهبط بمعدل ١٤٪ استناداً إلى وقت الدورة الشهريّة، والبعض من العقليات الأنثويّة الممتازة يحكم عليها بالحصول على نتائج من الدرجة الثانية بحكم الأمور البيولوجيّة ومجرد مصادفة التقويم، وهذا لا يمكن اعتباره عدلاً بأي شكل من الأشكال، ومع ذلك فإنّ العديد من النساء يفضلن القبول بهذا الإجحاف على أن يطالبن بنظام للاختبار يقرّ ويُدخل في اعتباره هذه الإعاقة الأنثويّة البيولوجيّة، ولو أنّ نسبة مماثلة من الرجال عانت من إعاقة مشابهة لتلك التي للنساء، لكان ذلك رهاناً رابحاً بأنّ تشريعاً سيوضع للتخفيف من آثارها (١). فالفروق بين الجنسين أمرٌ واضحٌ لكل إنسان كما قالت امرأة عمران ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦] فالذكر له طبيعته القائمة على الجرأة والإقدام والخشونة والجَلَد، بينما الأنثى من طبعها الضعف واللدانة، والاحتماء بالرجل والاستكانة، ولو كانت طبيعتهما واحدة لما اجتمعا وانسجما بل يتنافران ويتصادمان؛ لذا كانت المساواة التي دعا إليها الإسلام مساواة عادلة تراعي الفروق بين الجنسين وتحقق التوازن في الحقوق والواجبات والمصالح، وتنسجم مع الفطرة، وتتواكب مع رسالة كلٍّ منهما في الوجود، لتستقيم الحياة، وتستقر الأسرة والمجتمع .

(١) - يراجع كتاب الفروق الطبيعية بين الجنسين جنس الدماغ تأليف كلٍّ من آن موير وديفيد جيسيل . كما يراجع كتاب الرجال من المريخ والنساء من الزهرة وفيه ركز الباحث على اختلاف طبيعة المرأة عن الرجل وأثر معرفة ذلك في استقرار الأسرة ودوام العشرة والمودة .

المطلب الثاني : مراعاة التفاضل والاختلاف الذي هو سنة الله في الخلق

"خلق الله الناس بحسب فطرتهم متماثلين، وكذلك ولدتهم أمهاتهم أحرارا متكافئين، ولكن دخولهم في ملاحم الحياة الاجتماعية ينزع عنهم لباس التماثل والتساوي ويرفع بعضهم فوق بعض درجات"[1] . ومن حكمة الله جل وعلا ومن سننه الكونية سنة التفاضل بين الخلق، ولهذه السنة الربانية حِكَمٌ بالغةٌ، فقد فضَّل الله بعض الأجناس على بعض كما فضل بعض الأنواع على بعض، ومن ذلك التفاضل بين البشر، الذي جرى بمقتضى الحكمة الإلهية، فلولا هذا التفاضل الموجود لما تحقَّق التكامل المنشود، قال تعالى ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال الله تعالى ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢] قال الطبري : " ولا تتمنوا، أيُّها الرجال والنساء، الذي فضل الله به بعضكم على بعض من منازل الفضل ودرجات الخير، وليرض أحدكم بما قسم الله له من نصيب، ولكن سَلُوا الله من فضله. "[2].

المطلب الثالث : المساواة في الإسلام ليست مطلقة

المساواة هي الأصل بين الناس، ولكن المساواة في الإسلام ليست مطلقة، ذلك أنه ليس من العدل التسوية بين متفاضلين، وكذلك التفاضل بين متساويين، ولقد جاء القرآن الكريم ببيان ذلك، ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]. فالتفاضل من سنن الله تعالى، ولا يمكن أن تستوي العاقبة

(١) - الحرية في الإسلام محمد الخضر حسين أصل الكتاب محاضرة ألقيت سنة ١٣٢٤هـ . ص ٢٨.

(٢) - جامع البيان للطبري (٨/ ٢٦٥).

مـع تبايـن الأحوال . فالمساواة ليست علـى إطلاقها بل لها موازينهـا وضوابطها . " إنَّ مبدأ المساواة مع التفاضل في الخصائص والصفات والوظائف الاجتماعية ظلمٌ وإفسادٌ في الأرض عريضٌ . " [1]. إن الدعوة لمساواة مطلقة انقلابٌ على الفطرة وخلخلةٌ لنظام المجتمع وسبيلٌ لإشاعة الفوضى العارمة وترسيخ الظلم الفادح، فالتفاضل بين الناس من سنن الله عز وجل يتفاضلـون بأعمالهم ومواهبهم وجهودهم وتفاوت عقولهـم ومدى إتقانهم ومهاراتهم، فإذا سوّينـا بـين من يعمـل ومن هو عاطلٌ، بـين المهمل والمتقن، بـين العاقل والأخـرق، بين النابه والخامل، بين القادر والكَلّ، فقد وقعنا في ظلمٍ بيِّن .

(١) - أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت : ١٤٢٥هـ) (ص: ٦٣١).

الخاتمة

وفيها بيان نتائج البحث وتوصياته ومراجع البحث .

الأصل في الحرية أن لا تتعارض مع أصول الأحكام وثوابت الشريعة ومقاصدها .

الحرية لا تعني الانسياق للأهواء والتنصُّل من الواجبات .

حرية العقيدة والعبادة تشمل التحرر من التقاليد الموروثة والعادات الجاهلية التي تستحوذ على العقول وتحُول بينها وبين التفكير السليم .

يأبى الإسلام أي شكل من أشكال التمييز بين الناس على أساس اللون أو اللغة أو البلد أو النسب .

المساواة المطلقة مجافية للفطرة منافية لمبدأ العدالة بين الناس؛ فكما لا يجوز التسوية بين متفاضلين، كذا لا يجوز التفاضل بين متساويين .

أوصي بعمل رسالة علمية عن الحرية في القرآن الكريم، وكذلك منهج القرآن في مواجهة الاستبداد ، والعناية بدراسة إنصاف القرآن للمرأة وتكريمها . والله الموفق .

مراجع البحث

١. القرآن الكريم
٢. أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت : ١٤٢٥هـ) ط: دار القلم – دمشق . الطبعة : الثامنة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
٣. الإحســان بترتيب صحيح ابن حبــان ، للأمير علاء الدين على بن بلبان الفارسي(ت ٧٣٩ هـ)- تحقيق شعيب الأرنؤوط - ط مؤسسة الرسالة بيروت ٠
٤. الإسلام والاستبداد السياسي: محمد الغزالي. دار نهضة مصر، الطبعة: الأولى.
٥. أنــوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت ٦٨٥هــ) المحقق:محمد عبد الرحمن المرعشلــي .ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط١- ١٤١٨ هـ .
٦. تــاج العروس مــن جواهر القاموس للإمــام (محب الدين أبــى الفضل السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي (١٢٠٥ هـ) ط المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ ٠
٧. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ت ١٣٩٣هـ ط: الدار التونسية للنشر ١٤٠٤ هـ.
٨. التسهيــل لعلــوم التنزيل، للإمــام المفسر محمد بن أحمد بن جــزي الكلبي الغرناطي الأندلسي ت ٧٩٢ هـ.
٩. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
١٠. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م.
١١. تفســير القــرآن العظيم للإمــام الحافظ عماد الديــن أبو الفــداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ ط مؤسسة قرطبة ٠
١٢. تفســير القرآن العظيم، لابــن أبي حاتم للإمام الحافظ عبــد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ) ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ١٤١٩هـ .
١٣. تهذيب اللغة ،للأزهري:أبي منصور محمد بن أحمد الهروي (ت ٣٧٠) ط الدار المصرية.

١٤. جامـع البيان في تأويل القرآن للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ ط دار الريان للتراث ، ودار الحديث بالقاهرة سنة ١٤٠٧ هـ .

١٥. الجامع لأحكام القـرآن للقرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ م ٠

١٦. الحريـة في الإسلام محمد الخضر حسين ط دار الاعتصـام، أصل الكتاب محاضرة ألقيت سنة ١٣٢٤ه .

١٧. الحرية، جون استيوارت ميل ترجمة طه السباعي مطبعة الشعب بمصر ط ١ – ١٩٢٢ .

١٨. الحقـوق والحريـات السياسيـة في الشريعة الإسلامية ، د رحيـل محمد غرايبة، دار المنار للنشر والتوزيع الأردن ط١ سنة ١٤٢١.

١٩. ذم الهوى لابن الجوزي ط دار الكتب الإسلامية بالقاهرة ٠

٢٠. الرجـال مـن المريخ والنسـاء من الزهرة، د. جـون غراي، ترجمة د.حمـود شريف . مكتبة جرير ، السعودية . ط١ – ٢٠٠١ م

٢١. الروض الأنف للسهيلى أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى (٥٠٨- ٥٨١)هـ ط الطباعة المتحدة بالقاهرة ٠ بدون تاريخ ٠

٢٢. زاد المسير في علم التفسير للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ) ط المكتب الإسلامي بيروت ط١ سنة ١٣٨٥ هـ سنة ١٩٦٥ م.

٢٣. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ط المكتب الإسلامي.

٢٤. سنن ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ هـ)ط دار الحديث القاهرة ٠

٢٥. سنن أبي داود (سليمان بن شعث السجستاني الأزدي ت ٢٥٧ هـ)ط دار الكتب العلمية ٠

٢٦. سـنن الترمـذي (أبي عيسى محمد بن عيسى بن سـورة الترمذي ت ٢٩٧ هـ) ط دار الفكر ١٤٠٨هـ ٠

٢٧. سـنن الدارمـي (عبد الله بن عبد الرحمن الدارمـي السمرقندي ت ٢٥٥ هـ) ط دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ ط أولى.

٢٨. سير أعلام النبلاء ، للذهبي مؤسسة الرسالة بيروت .

٢٩. شعب الإيمان للبيهقي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠

٣٠. الصحـاح؛ تاج اللغـة وصحاح العربيـة. لإسماعيل بن حماد الجوهـري (ت٣٩٣هـ). النـاشر: دار العلم للملايين- بيروت. ط٤ . سنة ١٩٩٠.

٣١. صحيـح البخاري (الجامـع الصحيح المختصر)، محمد بـن إسماعيل البخاري، ت: محمـد زهـير الناصر، ترقيم محمـد فؤاد عبد الباقـي، دار طوق النجـاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٣٢. صحيـح مسلم بشرح النووي (الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت ٢٦١ هـ) دار إحياء الكتب العربية بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي٠ ط البابي الحلبي بالقاهرة
٣٣. فتـح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية مـن علم التفسير للشوكاني، محمد بن علي ت ١٢٥٠دار المعرفة بيروت .
٣٤. في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ت ١٩٦٦م دار الشروق ١٤٠٧ ط ١٣
٣٥. كمـال الدين الإسلامـي وحقيقته ومزاياه ،عبد الله بن جار الله بـن إبراهيم آل جار الله، ط: وزارة الشئون الإسلامية، بالملكة العربية السعودية ط ١، ١٤١٨هـ .
٣٦. اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي الدمشقي ط دار الكتب العلمية بيروت .
٣٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ط دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠٢ هـ
٣٨. محاسن التأويل للإمام جمال الدين القاسمي ت ١٣٣٢ هـ ط دار إحياء الكتب العربية ٠
٣٩. المحـرر الوجيـز في تفسـير الكتـاب العزيـز للقاضي عبـد الحق بن غالـب بن عطية الأندلسي ت ٥٤٦ هـ ط المجمع العلمي بفاس المغرب سنة ١٣٩٥ هـ ٠
٤٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل ط مؤسسة الرسالة .
٤١. المصبـاح المنـير في غريـب الشرح الكبير ، للعلامـة أحمد بن محمد بـن على المقري الفيومي ت ٧٧٠ هـ ط المكتبة العصرية بيروت .

أحمدي الشيخ التجاني

المنصب الوظيفي الحالي: أستاذ بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية موريتانيا.
دولة الإقامة الحالية: موريتانيا.
رقم الاتصال الدائم: ٣٣٢٠٥١٨٣(٠٠٢٢٢) أو ٢٢٦٥٣٢٠٤(٠٠٢٢٢).
البريد الإكتروني: tijani1985@yahoo.com

من أعماله المنشورة:

عـدة كتـب في مجالات متعددة من أبرز هذه الكتب: تاريخ القرآن الكريم: دراسة نقدية تحليليـة، والإيضـاح في علوم القرآن... وعـدة كتب محققة منها: تقـديم وتحقيق كتاب نشر البنـود على مراقـي السعود، للعلامة سيدي عبد الله بن الحـاج إبراهيم..، كلهم بطبعة دار الضياء بالكويت.

وعدة أبحاث منشورة في مجلات محكمة: منها: شبهات الحداثيين حول أسباب النزول: بسام الجمل نموذجا، مجلة الإمام الشاطبي بجدة، واختلاف المواقف حول النسخ في القرآن الكـريم وأثر ذلك في حقيقته، بحـث منشور بمجلة البحوث العلميـة والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر ١، العدد (٩) بتاريخ: ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م...

المشاركة في المؤتمرات والندوات:

شاركت في ما يناهز خمسة عشر مؤتمرا دوليا، من أهمها وأحدثها: الندوة الثانية: القيم الأسريـة في القـرآن الكريم، المنظمة من مركز القيم الأسريـة في القرآن والقانون، بالتعاون مـع كليـة الآداب عين الشق الدار البيضاء، التي انعقدت يومـي: ٢٣-٢٤ مارس عام ٢٠١٦م، والمؤتمـر العالمي الثـاني: التغيير في نظرية المنهـاج النبوي عند الإمام عبـد السلام ياسين، جامعـة صباح زعيم ومؤسسة وقـف دراسات العلوم الإسلامية، ومؤسسة الإمام عبد السلام ياسـين باستنطبـول تركيـا، يومـي: ١٦-١٧ عـام ٢٠١٦م، والملتقى الـدولي الأول: "الإعلام الدينـي" المنظمة برعاية وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالتنسيق مع مخبر دراسات الإعلام والاتصال جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، يومي ٢٥-٢٦ ماي ٢٠١٥م.

الدراسات المقاصدية القرآنية ونقضها للمقاربات العلمانية لآيات الأحكام

"دراسة نقدية تحليلية"

أحمدي الشيخ التجاني

أستاذ بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية موريتانيا

المقدمة :

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد، فإن اهتمام الدراسات المقاصدية القرآنية بالمناهج الموصلة إلى تحديد المعنى وتوليد الدلالات، أنتج وضع قواعد عامة يحتكم إليها من أجل قراءة النص القرآني، وهذه القواعد تحوي مبادئ الشريعة التي بنيت عليها وهي قصد الشارع من تشريع الأحكام، وهي تشكل مدخلا هاما ورئيسيا لتحديد المعنى، وميزانا ضابطا لتفسير النصوص.

إلا أن الفكر العلماني المعاصر ينظر إلى المغزى والمقصد من النص القرآني وهو أن يصبح وعاء لكل مضمون معاصر، وقالبا لكل واقع جديد.

كما يعتقد بتاريخية المنظومة التفسيرية وما أنتجتها من مواقف ورؤى، واندراج تلك المواقف والرؤى ضمن حدود معرفية تستجيب لأفق القدامى. وينظر إليها باعتبار أنها بنيت على ايديولوجيات خلفت آثارا على الوعي الجمعي، أهمها الحد من حرية المؤمن في التعامل مع النص القرآني وتوجيه تعامله توجيها مخصوصا.

وهذا البحث يقوم على دراسة الأفكار والمبادئ المحددة للتفسير المقاصدي لآيات الأحكام ووسائله وآلياته وغاياته، واسهامه في نقض ودحض المقاربات العلمانية حول آيات الأحكام من قبيل المقاربة القانونيّة الدستوريّة ("القرآن والتشريع" للصادق بلعيد و"الإسلام والحريّة" لمحمّد الشرفي)، والمقاربة المقاصديّة السهميّة ("تطوير شريعة الأحوال الشخصيّة" لمحمود محمّد طه و"أمّة الوسط" لمحمّد الطالبي)، والمقاربة التاريخيّة النقديّة ("تاريخيّة التفسير القرآني" لنائلة السلّيني و"الإسلام بين الرسالة والتاريخ" لعبد المجيد الشرفي)، والمقاربة الجندريّة الهيرمينطوقيّة ("القرآن والمرأة" لأمينة ودود).

وهذه المقاربات تنطوي على المقولات العلمانية الرئيسية، وهي مجرد مصادرات متحكمة في فكره ومنهجه، ويسعى البحث من خلال منظومة القواعد والعلوم القرآنية لتعريتها وتفكيكها من نسقها الأصلي، وذلك وفق المنهج الآتي:

الفصل الأول
الخطاب المقاصدي القرآني وآيات الأحكام

للمقاصد مفاهيم وقواعد محددة من قبل الأصوليين وعلماء القرآن، والحكم أيضا له مفهومه عند الفقهاء والأصوليين يرتبط بآيات الأحكام، وتعتبر هذه المفاهيم والقواعد أسس للفهم والاستنباط والتنزيل، لذلك سنتعرض لها في المبحثين الآتيين:

المبحث الأول

مفهوم المقاصد القرآنية وآيات الأحكام

مقاصد القرآن الكلية والجزئية تحتاج للسبر والعناية بها؛ لأنها الأصل بالنسبة لما بعدها، أما آيات الأحكام فلها إشكالها المفهومي في القديم والحديث، وسنجلي ذلك من خلال مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم المقاصد القرآنية

للقصد معاني عديدة منها استقامة الطريق، وإتيان الشيء وأمه، والأصل قصدته قصدا ومقصدا[1] فهو قاصد. وقوله تعالى:﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحل:٩)؛ أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعوة إليه بالحجج والبراهين الواضحة، ومنها جائر أي ومنها طريق غير قاصد. وطريق قاصد: سهل مستقيم.

ومواقعها في كلام العرب الاعتزام والتوجه والنهود والنهوض نحو الشيء، على اعتدال كان ذلك أو جور، هذا أصله في الحقيقة وإن كان قد يخص في بعض المواضع بقصد الاستقامة

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، مادة: قصد.

دون الميل، ألا ترى أنك تقصد الجور تارة كما تقصد العدل أخرى؟ فالاعتزام والتوجه شامل لهما جميعا.[1]

والمعنى الشرعي المقصود عند الإطلاق هو معنى الاعتزال والتوجه نحو الشيء وإرادته.

أما الاصطلاح الشرعي فله عدة إطلاقات، منها الغايات والأسرار، والأغراض؛ ولهذا عرفها علال الفاسي بقوله: "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها؛ والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها.[2]

ومقاصد الشريعة مستمدة من مقاصد القرآن الكريم الذي هو مصدر التشريع، وهي: المعاني والأسرار التي من أجلها وضعت الأحكام وشرعت، أما مقاصد القرآن الكريم العامة، فهي القواعد العامة التي أنزل القرآن الكريم لأجل بيانها للناس، وحثهم على إقامتها ورعايتها، واعتنى بها في كل السور والآيات، سواء كانت عقدية أو معاملاتية أو قصصية، وعرفها الدكتور عبد الكريم حمادي بقوله: "أما المقاصد العامة فهي تلك الأغراض العليا الحاصلة من مجموع أحكام القرآن" وقد أدرج فيها المعاني العامة للشريعة، "التي هي المعاني الملحوظة في جميع القرآن أو معظم أحكامه".[3]

والمقاصد العامة للقرآن الكريم قل الاعتناء بها من قبل المفسرين القدامى، بينما راجت وكثر الحديث عنها عند المتأخرين، ونوضح ذلك من خلال النقطتين الآتيتين:

الاهتمام بالمقاصد الكلية للقرآن الكريم عند المتقدمين والمتأخرين:

الاهتمام بمقاصد القرآن الكريم العامة أو الكلية، فاز به العلماء المتأخرون على المتقدمين، ويرجع ذلك إلى أن المتقدمين لم يكن بيانها هدفا لهم؛ ولذا جاءت عندهم مجملة، بينما كان المتأخرون يقصدون تبيانها وتفصيلها، ولذلك جاءت مفصلة.

---

(١) ابن منظور لسان العرب، دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة: قصد.

(٢) علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، ط٥ ١٩٩٣م. ص:(٧).

(٣) أحمد الريسوني مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، الشبكة العربية للأبحاث، مركز المقاصد، ط١، بيروت، ٢٠١٣، ص ٩.

المقاصد الكلية للقرآن الكريم عند المتقدمين:

نلحظ تطرق العلماء القدامى إلى هذا النوع من المقاصد في مقدماتهم عند ذكرهم لأنواع المقاصد القرآنية أو معاني القرآن الكريم الكلية، فهم مع اهتمامهم بمقاصد السور أحيانا، ومقاصد الآيات، يذكرون ذلك في مقدماتهم لغرض تبيين ما للمفسر من أغراض وغايات من تفسيره.

المقاصد الكلية للقرآن الكريم عند الغزالي:

يقول الإمام الغزالي عن مقاصد القرآن: "انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهمة. وثلاثة: هي الروادف والتوابع المغنية المتمة.

أما الثلاثة المهمة فهي: تعريف المدعو إليه. وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه. وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغنية المتمة:- فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صنع الله فيهم؛ وسره ومقصوده التشويق والترغيب، وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة وكيفية قمع الله لهم وتنكيله لهم؛ وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب. وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق، وسره ومقصوده في جنب الباطل الإفضاح والتنفير، وفي جنب الحق الإيضاح والتثبيت والتقهير. وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأهبة والاستعداد".[١]

المقاصد الكلية للقرآن الكريم عند ابن جزيء:

أما ابن جزيء الكلبي فقد ذكر أن مقاصد القرآن الكريم على التفصيل سبعة: "وأما على التفصيل فاعلم أن معاني القرآن سبعة: هي علم الربوبية، والنبوة، والمعاد، والأحكام، والوعد، والوعيد والقصص".[٢]

(١) أبو حامد الغزالي جواهر القرآن، تحقيق: الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م(١/٢٤).

(٢) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبيالأرقم – بيروت، ط١ - ١٤١٦ هـ (١/١٤).

المقاصد الكلية عند المتأخرين:

يلاحظ أن المتأخرين أكثر ملاحظة لهذا النوع من المقاصد، وذلك يرجع إلى اهتمامهم بها، وسعيهم لاكتشافها وإدراكها، خلافا للمتأخرين الذين كانوا يقصدون أكثر ما يقصدون المعاني الجزئية، ويكتفون بالإشارة والتلميح فقط إلى المقاصد، وهذه المقاصد الكلية مرتبطة بمقاصد الشريعة، وهي التي تأخر التعبير عنها والتأليف فيها؛ ولهذا فالمتأخرون راموا شرحها وتفصيلها، وصياغة نظرية عامة تحويها، ومن أبرز من تصدى لذلك الشيخ رشيد رضا والطاهر ابن عاشور.

المقاصد الكلية للقرآن عند رشيد رضا:

ترجع المقاصد الكلية للقرآن الكريم عند رشيد رضا إلى عشرة مقاصد، يمكن إجمالها في الآتي: الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي والإنساني. تعليم الناس أمر النبوة والرسالة. بيان أن دين الإسلام دين الفطرة والعقل. تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية، والوسطية. بيان حكم الإسلام السياسي الدولي. الإرشاد إلى الإصلاح المالي والحربي. إعطاء حقوق النساء الإنسانية والدينية والمدنية. هداية الإسلام في تحرير الرقيق.[1]

والملاحظة الكبيرة على تصنيف الشيخ رشيد رضا للمقاصد، أنها قواعد يهدف من خلالها الانتصار للقرآن الكريم، أمام الهجمات التي يتعرض لها في عصره، فهاجس الدفاع يظهر جليا في تصنيفه.

المقاصد الكلية للقرآن عند الطاهر ابن عاشور

قدم معنى إجماليا عن مقاصد القرآن الكريم، ثم فصلها، يقول: "إن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية".[2]

(١) محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م. (١١-١٩٥-٢٠٢).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ. (٣٨/١).

ثـم أجملها في ثمانيـة مقاصد: الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليـم العقد الصحيح. الثاني: تهذيب الأخلاق. الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. الرابع: سياسة الأمة. الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم. السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها. السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير. الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.(١)

إن عمليـة رصـد وحصر مقاصد القرآن الكريم هامة جـدا لإسهامها في عصمة المفسر مـن الزلل والغلـط، وإدراكه المعاني الصحيحـة السليمة، فعملية الفهـم والاستنباط تتطلب ملاحظة المقاصد وتطبيقها حتى لا تتعارض الأقوال وتتضارب.

الاهتمام بمقاصد القرآن الكريم الجزئية:

تمثل ذلك بالاهتمام بمقاصد الآيات والسور فالاهتمام بها شاع عند المفسرين المتقدمين والمتأخرين، إلا أن هذا الاعتناء والاهتمام كان على تفاوت، فمقاصد الآيات القرآنية بما أنها غرض المفسر الرئيسـي، وهي تعني بيان المعاني والأحكام المقصـودة من كل آية، وكل جملة وكل لفظـة قرآنية كان الاعتناء بها أكبر. وكان عمل المفسرين ينصب على الجزئيات والأمور التطبيقيـة، فكتـب تفاسير الأحـكام هذا هو منهجهـا الغالب، لكن بدأ التطـور والارتقاء في البحـث التفسـيري يفرض نفسه تدريجيا مـع اهتمامهم بالبحث النظـري الكلي، فقد اهتم بعض المفسرين ببعض القضايا الكلية من قبيل مقاصد السور والمقاصد العامة للقرآن وعلم التناسب ومناهج التفسير الموضوعي وقواعده.(٢)

المطلب الثاني: مفهوم آيات الأحكام

لفظـة "حكـم"، جمعها: أحكام، مصدر فعل "حكم"، ومن ثم""المنع"، وهو في ذلك يماثل كلمة حكمة، وكل حكمة في لغة العرب الفصحى هي الحكم.(٣)

(١) نفسه (١/٤٠-٤١).

(٢) البقاعـي، مصاعـد النظر للإشراف على مقاصـد السور، مكتبة المعارف – الرياض ط١ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م، (١/١٤٩).

(٣) إبراهيـم، زكـي خورشيـد ويونس عبد الحميد وحسـن عثمان: دائرة المعـارف الإسلامية، مطابـع دار الشعب، القاهرة، (١٥/٢٢٠).

والحكم عند الفقهاء هو أثر خطاب الله أي ما يتضمنه هذا الخطاب، فقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّني﴾ (الإسراء: ٣٢) هو الحكم عند الأصوليين، أما عند الفقهاء: فهو أثر هذا الخطاب، أي ما تضمنه هذا النص الشرعي وهو حرمة الزنى.[(١)]

وكتب الفقه لم تتعرض لتعريف الحكم، فضلا عن آية الأحكام من حيث العدد أو ضبطها بقاعدة واضحة، وإنما اهتمت في معظمها، بأقسام الحكم وآثاره على المكلف ومسائل أخرى متعلقة به، فلم تقدم آيات الأحكام من حيث حقيقتها وخصائصها وأطرها، مع أن هؤلاء العلماء وضعوا مجلدات قيمة تعنى بالبحث في المسائل المستنبطة من تلك الآيات.

فمثلا الزركشي قسم آيات الأحكام تبعا للتصريح بالحكم أو التلميح إليه إلى قسمين: "أحدهما: ما صرح بالأحكام، وهو كثير في كل من سورة البقرة والنساء والمائدة. والثاني: ما يؤخذ بطريق الاستنباط، وهو على قسمين:

- الأول: ما يستنبط من غير ضميمة لآية أخرى، كاستنباط الشافعي صحة أنكحة الكفار من قوله تعالى: ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (التحريم:١١). وقوله تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد: ٤) واستنباطه حجية الإجماع من قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النساء:١١٥)- والثاني: ما يستنبط مع ضميمة آية أخرى، كاستنباط علي وابن عباس رضي الله عنهما، أن أقل الحمل ستة أشهر، من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ (الأحقاف: ١٥) مع قوله: ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ (لقمان: ١٤).[(٢)]

أما ابن حزم فقد نظر من جانب اللفظ، فهو يقول: إن "الأوامر الواجبة" ترد على وجهين: أحدهما: بلفظ "افعل" أو "افعلوا"، والثاني بلفظ الخبر، إما بجملة "فعل" وما يقتضيه من فاعل ومفعول به، وإما بجملة "ابتداء وخبر".

فأما الذي يرد بلفظ "افعل" و"افعلوا"، فكثير واضح، مثل ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وما شابه ذلك.

(١) زيدان، عبد الكريم: الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٧، ص: ٢٥.

(٢) الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، (٥/٢).

وأما الذي يرد بلفظ الخبر وبجملة فعل وما يقتضيه، فكقوله تعالى ﴿ قُلِ انَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأعراف:٣٣).

وأما ما ورد من ذلك بجملة لفظ "ابتداء وخبر"، فكقوله تعالى: ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ (المائدة: ٨٩)، و﴿ فَجَزَاءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (المائدة: ٩٥). فلا طريق لورود الشرائع والأوامر الواجبة إلا على هذين الوجهين فقط.[١]

وعليه فبالنظر إلى بناء كلامه يمكن القول: إن آيات الأحكام هي التي جاءت بتشريع في شكل أمر بالفعل أو الترك لفظا أو خبرا.

ويمكن أن يعطي تبويب آيات القرآن الكريم من حيث مجالاتها جانبا هاما يوضح بعضا من مفاهيم آيات الأحكام، قد يعوض بعض ما قصر عن الإيفاء به التعريفان السابقان، من قبيل تقسيمها إلى أحكام اعتقادية، وأحكام خلقية، وأحكام عملية[٢].

(١) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٥، (١/٣٠١).

(٢) انظر النبهان، محمد فاروق: المدخل للتشريع الإسلاميّ، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، ط.١، ١٩٧٧م ص: ١٣.

المبحث الثاني

ضوابط التفسير المقاصدي للنص القرآني

يمتاز النظر الشرعي المقاصدي بمنهجه المنضبط الخاضع لاعتبارات تقنن تعامله مع النص القرآني؛ ولهذا دائما ما يشدد عليها في مقدمات كتب التفسير والأصول، وهذه الضوابط سنقسمها إلى اعتبارات منهجية وعلمية وتنزيلية، وإيضاحها سيكون تبعا للمطلبين الآتيين:

المطلب الأول: ضوابط منهجية للتعامل مع النص القرآني

سطر علماء القرآن خطوات لتفسير وتأويل النص القرآني، وهي بمثابة المنهج العلمي الواجب اتباعه خطوة بعد خطوة، وإلا وقع المفسر في إشكالات لغوية وشرعية؛ لأن المنهج التفسيري مؤسس على أساس اعتبار مكونات اللغة وبنائها، وكذلك الاعتبارات الشرعية التي تتمثل أساسا في ترتيب مصادر الاستدلال، واعتبار واقع التنزيل ومقتضياته، وقد أوجبوا الالتزام بالخطوات الآتية:

تحقيق الألفاظ:

فعلى المفسر أن يبدأ بتحقيق الألفاظ أولا؛ لأن تحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن الكريم، يدرك من خلاله معانيه؛ لأن المركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته، فالجزء سابق على الكل في الوجود.

والنظر إلى الألفاظ يكون من ثلاثة أوجه: الجهة الأولى اللغة: أي البحث عن المعاني التي وضعت الألفاظ إزاءها، بمعنى التثبت من أصل الوضع للمفردة في لغة القرآن الكريم. وأما الجهة الثانية فهي التصريف: فيجب البحث في الصيغ والهيئات الواردة على المفردات ودلالات معانيها المختلفة. والجهة الثالثة الاشتقاق: أي رد الفروع المأخوذة من الأصول إليها.

التراكيب (الجمل): وعند الانتهاء من المفردات يشرع في دراسة التراكيب باعتبارات أربعة:

الأول: باعتبار كيفية التراكيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو.

الثاني: باعتبار كيفية التركيب من جهة إفادته معنى المعنى أعني لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء وهو الذي يتكلف بإبراز محاسنه علم المعاني.

الثالث: باعتبار طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراتبها وباعتبار الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه وهو ما يتعلق بعلم البيان.

الرابع: باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية والاستحسان ومقابله وهو يتعلق بعلم البديع(١)

فإذا تخطى هذه الخطوات يكون قد حصل المعنى، فعليه أن يبينه، إذا كان واضحا مصرحا به، أو يستنبطه إذا كانت العبارة أو التركيب ألمح إليه أو أشار إليه.

أسباب النزول والمناسبة:

اختلف المتقدمون في ذكر السبب أولا أم المناسبة، فبعضهم جرى على عادة ذكر سبب النزول أولا؛ لأنه بمثابة تقديم السبب على المسبب، بينما جرت عادة آخرين على تقديم المناسبة؛ لأنها المصححة لنظم الكلام وهي سابقة على النزول(٢)،إلا أن الزركشي رأى التفصيل في ذلك؛ قال: "والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفا على سبب النزول كآية: ﴿إِنَّ اللّه يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨) فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب؛ لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة"(٣).

وقال في مراعاة المناسبة: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز(٤).

---

(١) الزركشي، البرهان (١٧٢/٢).

(٢) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الندوة الجديدة، بيروت (٢٣٠/٤).

(٣) الزركشي، البرهان (٣٤/١).

(٤) الزركشي، البرهان (٣١٧/١).

مراعاة مصادر تفسير القرآن الكريم:

بعد النظر في اللفظ والمعنى تتم مقابلتهما بمجموع ما في القرآن والسنة في الموضوع والنظر في تفاسير النبي ﷺ والأئمة بعده، ومصادر التفسير هي: تفسير القرآن بالقرآن: فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر.

ثم تفسير القرآن بالسنة: فلأن السنة هي المبينة للقرآن فلا ينبغي أن يفسر بدون الرجوع إليها والاستنارة بها في توضيح ما أشكل وتفصيل ما أجمل. قال الإمام الشافعي: كل ما حكم به رسول -الله ﷺ- فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (النساء:١٠٥)، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه) يعني السنة.(١)

ثم تفسير القرآن بأقوال الصحابة: فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين.(٢)

ثم التفسير بأقوال التابعين: إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر؛ فإنه كان آية في التفسير.(٣)

ثم التفسير بالرأي: ولا يبقى بعد ما ذكر إلا فهم أوتيه عالم أو ألهمه متدبر، بشرط أن يكون موافقا لمدلول اللغة ومقاصد القرآن وروح الإسلام.

والتفسير بالرأي ذهب ابن تيمية وجمع من الأئمة إلى تحريمه عملا بالحديث

(١) ابن تيمية مقدمة أصول التفسير، دار القرآن، ص: ٤٠.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

الشريف: (مـن قـال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النـار)[1]، وفي حديث آخر (من أخذ بالقـرآن برأيه فأصاب فقد أخطـأ)[2] وكان أبو بكر يقول (أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم).[3]

وهذه الأحاديث صريحة في منع التفسير بالرأي. ولكن ما هو الرأي؟.

لا شك أن مجرد التخمين دون تدقيق في اللغة ولا في مقاصد القرآن وأسرار الشريعة؛ أو الاعتماد على البادرة تبدر للقارئ دون أن يتدبر الآية وموقعها من القرآن وأسباب نزولها وما يوافقهـا من آيات وآثار أو يخالفهـا، أو يحملها على ما يقتضيه هواه أو مذهبه دون نزاهة في البحـث ولا عناية بالتدبر ولا تجرد عن الهـوى، لا شك أن هذا هو المقصود بالحديث، ويكون معنـاه "من قال في القرآن بمقتضى رأيه الخاصـ السابق والذي يريد تأييده وتطبيق القرآن عليه، وجعله مقياسا يرد إليه الكتاب والسنة وغيرهما فليتبوأ مقعده من النار".[4]

وقـد قدم الشاطبي أدلـة بينة على أهمية استثمار العقل في تدبـر القرآن الكريم، وهذا الرأي شرط أن يكون جار على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة، وذلك من ثلاثة وجوه:

الأول: أن إهمال العقل في القرآن الكريم محال شرعا؛ إذ لا بد فيه من استنباط حكم، وبيـان معنى، وتفسير لفظ، واستجلاء مراد، ولم يـأت جميع ذلك عمن تقدم، فالتوقف دون ذلك تهيبا من سطوة العقل أو جموحه تعطيل لأحكام الشرع، وحجب لمعاني القرآن ومقاصده، فلابد، إذا، من القول فيه بما يليق.

الثـاني: إن القـول بعدم صحة الاستمداد من العقل في التفسـير يترجح لو كان الرسول -ﷺ- قد بين كل شيء في القرآن وفصله توقيفا، فلا يكون لأحد بعد ذلك قول أو نظر، ولكن الثابت بالاستقراء أنه لم يفعل ذلك؛ بل فسر بعضه، وترك كثيرا مما يدركه أرباب الاجتهاد باجتهادهم؛ فلم يلزم في جميع تفسير القرآن التوقيف.

(١) رواه أحمد في المسند، الحديث رقم: (٢٠٦٩).

(٢) الحديث أخرجه أبو داوود، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، (٣/٣٢٠).

(٣) ابن تيمية المقدمة، ص:٤٤-٤٦.

(٤) علال الفاسي مقاصد الشريعة، ص ٩٢.

والثالث: أن الصحابة كانوا أولى بهذا الاحتياط من غيرهم، وقد علم أنهم فسروا القرآن على ما فهموا، ومن جهتهم بلغنا تفسير معناه، والتوقيف ينافي هذا؛ فإطلاق القول بالتوقيف والمنع من الرأي لا يصح.[1]

المطلب الثاني: ضوابط التأويل

الأصل العمل بالظاهر في تفسير كتاب الله تعالى والاستنباط منه، ولا يصار إلى التأويل إلا لمسوغ راجح؛ لأن صرف اللفظ عن ظاهره خلاف للأصل، واستثناء منه، فالعام على عمومه حتى يرد ما يخصصه، والإطلاق على إطلاقه حتى يرد ما يقيده....

ومن هنا كان التأويل ضرورة واستثناء، لا يلوذ به المفسر إلا عند تعذر حمل اللفظ على ظاهره، ونهوض القرينة الصارفة إلى الباطن، فمنطق اللغة هو الأصل، وتحكيمه في التفسير هو الأولى، وذهب الشافعي إلى أن النص لو جاز أن يحال شيء منه عن ظاهره إلى معنى باطن يحتمله، كان أكثره يحتمل عددا من المعاني، ولا يكون لأحد ذهب إلى معنى منها حجة على أحد ذهب إلى معنى غيره، ولكن الحق فيها واحد؛ لأنها على ظاهرها وعمومها، إلا بدلالة من الشارع، ومن هنا كان الوقوف عند الظاهر عاصما من الضياع في متاهة المعاني المحتملة، مع إعواز الحجة التي تنصر فريقا على فريق.[2]

ولهذا وضع علماء القرآن شروطا للتأويل الصحيح، حفاظا على النص القرآني من التلاعب، وتجرئ غير العالمين عليه، وهذه شروط دل عليها الاستقراء، وأملتها روح الشريعة، ودعت إليها سلامة الخطاب. ويمكن حصر هذه الشروط فيما يأتي:

احتمال اللفظ لأكثر من معنى: وهو بذلك يصبح قابلا للتأويل، ولا بد هنا أن يكون محتملا للمعنى المؤول به والذي صرف إليه لغة، أو عرفا، أو شرعا؛ لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاء باللسان العربي ولا يجوز أن يراد بشيء منه خلاف لسان العرب أو خلاف الألسنة كله[3].

(١) الشاطبي، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ط١ دار بن عفان بتاريخ ١٤١٧، ١٩٩٧م، (٢٧٨/٤).

(٢) الشافعي الأم، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ص:٢٧-٢٨.

(٣) ابن تيمية مجموع الفتاوي، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، (٣٦٠/٦).

وهذا الشرط شرط لغوي يؤدي الاخلال به إلى الاخلال بأصل لغوي.

واللفظ يقبل التأويل إذا كان محتملا لأكثر من معنى، ولم ينهض دليل قطعي على تعيين المراد منه، وهذا يجري في الآيات المتعلقة بالفروع، كالقرء في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٦)، فإنه من قبيل المشترك، إذ يتردد بين معنيين: الطهر والحيض.

أما الألفاظ التي نهض الدليل القطعي على بيان المراد منها فلا يصح تأويلها، وتشمل في اصطلاح الحنفية المفسر والمحكم، وفي اصطلاح غيرهم النص، ومثاله: آيات أصول العقيدة، وأمهات الفضائل، وما علم من الدين بالضرورة.

أن يكون تفسير اللفظ بمعنى يحتمله الوضع اللغوي ويشهد له؛ إذ لابد من النظر في موقع اللفظ من الكلام، وربطه بالجو العام للنص، وملاحظة القرائن.[١]

أن يدل الدليل أن المراد بذلك اللفظ هو المعنى الذي حمل عليه إذا كان لا يستعمل فيه إلا نادرا، وهذا الدليل قد يكون نصا شرعيا، أو قياسا، أو قاعدة من القواعد القطعية، أو مقصدا من مقاصد الشريعة.[٢]

سلامة دليل التأويل من المعارض المقاوم، والمعارضة قد تكون راجحة فيسقط التأويل بسقوط دليله المرجوح، وقد تكون مساوية، فيحتاج عند التساوي إلى التغليب بمرجح معتبر[٣]

أن لا يخالف التأويل أصلا شرعيا، أو قاعدة قطعية؛ وإلا فلا يعتد به ولا يقبل كما قال الشاطبي.[٤]

---

(١) انظر ابن القيم الجوزي بدائع الفوائد، إدارة الطباعة المنيرية، ودار الكتاب العربي، بيروت (٤/٩).

(٢) انظر الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٩م، (١/١٧٧).

(٣) انظر المصدر نفسه (٦/٣٦١).

(٤) انظر الشاطبي، الموافقات (١/٩٩).

الفصل الثاني
المقاربات العلمانية لقراءة آيات الأحكام

سأهتمّ هنا بالمقاربات العلمانية التي ادعى أصحابها أنهم قدموا قراءات جديدة لآيات الأحكام مع العلم أنهم وظفوا الأدوات ذاتها واستثمروا مناهج متقاربة في قراءاتهم لآيات الأحكام من منظور علماني صرف، تأخذ هذه القراءة بعين الاعتبار شواغل العلمنة ومطالبها وهمومها المسكونة بـ "الحِسّ التاريخي" (le sens historique) في التعامل مع النصّ القرآني، وجعله منغرسا في نسيج الاجتماع ونتيجة طبيعية من تفاعلاته، وخاضعا لإكراهات التاريخ، وهو ما تسعى هذه الدراسة لدحضه ونقضه من خلال دراسة هذه المقاربات والتركيز على عينات منها، وذلك وفق المبحثين الآتيين:

المبحث الأول

المقاربة المقاصدية السهمية والتاريخانية ونقضهما

تعتمـد إعادة قراءة النص القرآني على جملة من المقاربـات، منها المقاصدية السهمية التـي تدعي الحسـ المقاصدي، والتاريخية التـي تنظر إلى القرآن كنصـ تاريخي، لا بد من وضعه في إطاره الزماني، ويمكن تسليط الضوء على المقاربتين من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: المقاربة المقاصدية السهمية ونقضها

مـن خلال مـا تقدم من عرض مفصـل لبحث المقاصـد في القرآن الكـريم عرفت أيها القـارئ مكانتهـا الهامة عند علماء المسلمين قديما وحديثـا. إلا أن الفكر العلماني هو الآخر يدعي أنه يملك حسا مقاصديا في قراءة النص القرآني، وهي مجرد دعوى ما دامت لا تستند علـى نظرية واضحة المعالم والمسالك، وهذا ما يوضحه دعوة هؤلاء إلى قراءة جديدة للنص القرآني، من ذلك ما دعا إليه الطاهر الحدّاد، من ضرورة التمييز بين جوهر الإسلام الخالد المتمثّـل في التوحيد ومنظومة الأخلاق والعدل والمساواة من ناحية، و"النفسيّات الراسخة في الجاهليّـة قبله دون أن تكون غرضا من أغراضه. فما يضع لها من أحكام إقرارا لها وتعديلا فيهـا باق ما بقيت هي. فإذا ذهبت ذهبت أحكامُهـا معها. وليس في ذهابها جميعا ما يُضير الإسـلام وذلـك كمسائل العبيد والإمـاء وتعدّد الزوجات ونحوها ممّـا لا يمكن اعتباره حتّى كجـزء من الإسلام،"[1] وبالإمكان أن نقدّم بعض العيّنـات على هذه القراءة العلمانية للنص القرآني التي تميّز بها الطاهر الحدّاد تقديما تأليفيّا موجزا للغاية:

- إنّ إقـرار القرآن بأن تكون شهادة المرأة أمام القاضي بنصف شهادة الرجل مردّه إلى أنّ المـرأة لم يكـن لها هذا الحقّ متاحـا قبل الإسلام، فضلا عن أنّ قلّـة نشاطها في الفضاء العـامّ ومحدوديّة ثقافتها قديما قـد يجعل ذاكرتها في موضوع الشهـادة عُرْضَة للتحريف أو

---

(١) طاهر حداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص ٢٥.

الخطأ غير المقصود[1] إنّ مثل هذه التوجّهات العلمانية لدى الطاهر الحدّاد جديرة بالرد عليها؛ لأنّها تنظر إلى آيات الأحكام في ميدان المعاملات تحديدا نظرة نسبية تحصرها في السياقات التاريخيّة لنزولها وتتخطّاها في آن معا طلبا لما يحقّق مقاصد القارئ ولما يتلاءم مع فكره المتغرب.

ويبدو أنّ هذه المقالة بلغت حدّها الأقصى في تجديد النظر إليها وفي تحيينها مع محمّد الطالبي. فقد أقترح مفهوما جديدا للمقاصد سمّاه بـ "السهم الموجّه" (vecteur orienté). وقد وضّح هذا المفهوم بمثال مداره على مسألة الرقّ. إذ تُرسم نقطة أولى تهمّ وضع الرقيق قبل نزول الوحي، ثمّ تُرسم نقطة ثانية تخصّ وضعهم الجديد إثر نزول الوحي وتحديدا الآيات التي فيها حثّ على تحرير الرقيق[2] وبين هاتيْن النقطتيْن يُرسم خطّ يوضّح السهم الموجّه المفيد للقراءة المقاصديّة للنصّ والتي ينبغي السير فيها والتوجّه نحوها. وفي ذلك يقول الطالبي: "إنّ القراءة المقاصديّة ترتكز في مرحلة أولى على التحليل الاتجاهي (ana - yse vectorielle) للنصّ، فهي قراءة في نفس الوقت: تاريخيّة. إناسيّة. غائيّة، فهي إذن قراءة حركيّة للنصّ لا تقف بي عند حَرْفه وما يُقاس عليه، وإنّما تسير بي في اتجاهه (...) إنّ في استطاعة القراءة المقاصديّة، سيرا على خطّ السهم الموجّه الذي سبق الحديث عنه، أن تسهم بقسط كبير في أسلمة الحداثة وتحديث الإسلام[3]" وبالإمكان تبيّن ملامح المقاربة المقاصديّة عند الطالبي من خلال قراءته للآية ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤) في دراسة له بعنوان "قضيّة تأديب المرأة بالضرب[4]" في هذا السياق أورد المؤلّف التنبيهات الآتية:

- - إنّ ضرب المرأة ممارسة موجودة في الأرياف والحواضر، وفي المجتمعات القديمة والمعاصرة (صدر تقرير في فرنسا يشير إلى أنّ ربع النساء الفرنسيّات المتزوّجات يتعرّضن للضرب من أزواجهنّ) ممّا أدّى إلى تأسيس "جمعيّات النساء المتعرّضات للضرب".

(١) انظر امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص ٢٩.

(٢) على نحو ما جاء في سور البقرة٢/١٧٧ والنساء٤/٩٢ والمائدة٥/٨٩ والمجادلة٥٨/٢.

(٣) الطالبي محمد، عيال الله، ص ١٤٤.

(٤) نشرت الدراسة المذكورة ضمن كتابه "أمّة الوسط"، ص ١١٥ - ١٤١.

- ـضــرب المرأة مسألة لها بُعـد أنتروبولوجي: فهذه الممارسة تعـبّر عن وجود مَرَض اجتماعيّ وتوتّر نفسي.
- ـضــرب المـرأة سلوك موجود في الأديان الكتابيّة (في المسيحيّة مثلا) ممّا يدلّ على تراتبيّة وتفاضل بين الجنسيّن.

إنّ المستفـاد من هذه العيّنات للقـراءة العلمانية لبعض آيات الأحكام أنّ أصحابها سعوا إلى تغليـب المغزى والهدف من تعاملهم مع النص علـى المنهج العلمي المتبع في تفسير وتأويل آيـات الأحـكام، وذلك من أجـل أن تواكب صيغة الأحـكام الجديدة القانـون الوضعي وروح "الحداثة" والقطيعة مع المقاصد الشرعية، ويمكن بشيء من التأمل في الآيات التي تعرض لهـا هـؤلاء أن ننقض شبهاتهم ونبـين تهافتها وسقوطها، وذلك من خـلال بيان منطلق هذه القراءة العرجاء، ومن ثم التأمل في آيات العينات التي أثاروها وقدموا مقارباتهم حولها.

تنطلـق هـذه المقاربة من منهج علماني مشهـور هو التاريخية، وهي تعنـي أن للأحداث والممارسـات والخطابـات أصلهـا الواقعي، وحيثياتهـا الزمانية والمكانيـة، وشروطها المادية والدنيويـة، كما تعني خضوع البنـى والمؤسسات والمصطلحات للتطـور والتغيير، أي قابليتها للتحويل والصرف وإعادة التوظيف.[١]

ويعتبر الطاهر الحداد أول من بشر بالتاريخية المطلقة للشريعة واستثنى منها (العقائد ومكارم الأخلاق وقيم العدالة)، أما الثوابت الأخرى فهي متغيرة بتغير الزمان والمكان؛ لأنها مرتبطة بسياقها التاريخي في الإسلام الأول، ولا تتعداه إلى غيره، فالحجاب وتعدد الزوجات كلها أحكام عفا عليها الزمن ولم تعد صالحة لعصرنا.[٢]

وأكـثر من نظر لفكرة تاريخية النص القـرآني أركون، غير أنه أدرك منذ الوهلة الأولى صعوبـة مهمة ترسيخ التاريخية، فلجأ إلى نبذ مقاصد القرآن وتفكيك قدسيته، فهو يقول في هـذا السياق: وأنا أعلم أن الغايـة المستمرة لهذا النص المقدس تكمن في ترسيخ معنى نهائي وفوق تاريخي للوجود البشري.[٣]

(١) علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥م، ص:٦٥.

(٢) الطاهر الحداد، امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ص:٣٩.

(٣) محمد أركون قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤م، ص: ٢١.

ونتيجة الإيمان بالتاريخية هي إعادة النظر في النص القرآني وتشكله اللغوي والدلالي. وإبعاده عن الاستغلال الإيديولوجي.

وأصحاب نظرية التاريخية يعتبرون القول بصلاحية القرآن الكريم لكل زمان ومكان هوس ميتافيزيقي، أو صيغة مصادرة إطلاقية.(١)

ومن هنا نتبين نسبية التشريع المنزل عند أصحاب هذه المقاربة، وذلك تبعا للحالات التاريخية والأوضاع الاجتماعية المختلفة، فعقوبات مثل القطع والرجم كانت سارية المفعول في ذلك العصر التاريخي بسبب ملاءمتها للأحوال الاجتماعية آنذاك(٢)، حيث المجتمعات بدوية بدائية متنقلة فلا توجد سجون ولا جدران وإنما خيام، فكيف يسجن السارق، وكيف تحفظ الأموال، لا بد من عقوبة تميز السارق وتجعل الناس يحذرون منه أما اليوم فقد تغير الحال.

وحتى القرآن الكريم –في نظرهم– يوضح نسبية التشريع في علاقته مع بيئته التاريخية الحاملة له بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ (المائدة:٥٠) فإن الثابت إذن هو مبدأ العقوبة أو الجزاء، أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة إلى كل عصر حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه، وبذلك تظل التشريعات تفاصيل تطبيقية مشدودة إلى كلية المنهج.(٣)

أما ما أثاره طاهر حداد من شبه حول شهادة المرأة، وذلك بكون اعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد دليلا على أن المرأة تساوي نصف رجل، فليس الأمر كذلك، وإنما هذا مجرد إجراء روعي فيه توفير كل الضمانات في الشهادة، سواء كانت الشهادة لصالح المتهم أو ضده، ولما كانت المرأة بطبيعتها العاطفية المتدفقة السريعة الانفعال، مظنة أن تتأثر بملابسات القضية (فتضل) عن الحقيقة، روعي أن تكون معها امرأة أخرى ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ (البقرة: ٢٨٢) وقد يكون المشهود له أو عليه امرأة جميلة تثير غيرة الشاهدة، أو يكون فتى يثير كوامن الغريزة أو عطف الأمومة... إلى آخر هذه العواطف التي تدفع إلى الضلال بوعي أو بغير وعي، ولكن من النادر جدا حين تحضر

(١) الطيب تيزيني، النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار الينبوع دمشق بتاريخ ١٩٩٧م، ص:٤٢٦.

(٢) نفسه، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) حاج حمد العالمية الثانية، ص:٢٤٩.

امرأتــان في مجال واحد، أن تتفقا على تزييف واحد، دون أن تكشف إحداهما خبايا الأخرى فتظهــر الحقيقــة! على أن شهادة الواحدة تعتبر فيما تعد المرأة خبيرة فيه أو مختصة به من شؤون النساء[1].

وأمــا قضيــة تأديب المرأة بالضرب عنــد نشوزها وارتفاعها عن القيــام بحقوقها، فقد اشترط العلماء أن يكون غير مبرح، وروى ذلك ابن جرير مرفوعا إلى النبي -ﷺ-، والتبريح الإيذاء الشديد، وروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - تفسيره بالضرب بالسواك ونحوه، أي: كالضرب باليد أو بقصبة صغيرة[2].

يقــول محمــد عبــده: "إن مشروعية ضــرب النســاء ليست بالأمــر المستنكــر في العقل أو الفطــرة، فيحتــاج إلى التأويــل، فهو أمر يحتاج إليــه في حال فساد البيئــة وغلبة الأخلاق الفاســدة، وإنما يبــاح إذا رأى الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزهــا يتوقف عليه، وإذا صلحت البيئــة، وصــار النســاء يعقلــن النصيحة، ويستجــبن للوعــظ، أو يزدجرن بالهجــر، فيجب الاستغنــاء عن الضــرب، فلكل حال حكم يناسبهــا في الشرع، ونحن مأمــورون على كل حال بالرفــق بالنساء، واجتناب ظلمهن، وإمساكهن بالمعروف، أو تسريحهن بإحسان، والأحاديث في الوصية بالنساء كثيرة جدا"[3].

المطلب الثاني: المقاربة التاريخانية ونقضها

أساس هذه المقاربة أنّها تطرح سؤالَيْن كبيرَيْن وتسعى إلى الإجابة عليهما ما استطاعت إلى ذلــك سبيلا هما: كيف؟ ولمــاذا؟. وهذه المقاربة لا تنطلق من مسلّمــات مهما كان نوعها حتّــى وإن كانت إيمانيّة، وهذا هو جوهر اختلافهــا عن المقاربة المقاصديّة. فهي، أي المقاربة التاريخيّــة النقديّة، تذهب بالبحث إلى مداه الأقصى وتقتحم مجاله اقتحام المغامر الباحث عن الحقيقة مهما كان الثمن باهضا أو ربّما جارحا للضمير الديني. وحسبي في هذا البحث أن أعرض لعيّنة في هذا الباب.

(١) محمد قطب، شبهات حول الإسلام، دار الشروق، ط١١، ١٤١٣هـ، ص ١٢١.

(٢) رشيد علي رضا، تفسير المنار، (٥/٦٠).

(٣) نفسه، (٥/٦٢).

لقد أنجزت الباحثة الجامعيّة التونسيّة نائلة السلّيني الراضوي أطروحة دكتورا دولة سنة ١٩٩٨م بعنوان "تاريخيّة التفسير القرآني والعلاقات الاجتماعيّة من خلال نماذج من كتب التفسير"، ونشرت الجزء الأوّل منها في كتاب بعنوان "تاريخيّة التفسير القرآني".

قامت المؤلّفة في هذا الكتاب بتعيين آيات الأحكام الواردة في المصحف دون المرور إليه عبر الإنتاج التفسيري الذي تراكم على امتداد التاريخ الإسلامي.

ومن قضايا الأسرة في التفسير القرآني التي نظرت فيها السلّيني نورد قراءتها التاريخيّة النقديّة لآية الإحداد ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة:٢٣٤) التي تحدّد مدّة تربّص المتوفّى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشرا.[(١)]

أشارت المؤلّفة إلى أنّ جلّ المفسّرين اعتبروا هذه الآية هي في ذات الوقت ناسخة للحُكم الوارد في الآية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٤٠) وهو حُكم يجعل العدّة تمتدّ على حوْل من ناحية، وهي أيضا منسوخة بالحُكم المنصوص عليه في الآية ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤) ومفاده أنّ عدّة الحامل، المتوفّى عنها زوجها أو المطلّقة، هي وضع حملها من ناحية أخرى. وساقت الباحثة عدّة أخبار من مصنّفات التفسير ومن مدوّنات الفقه فيها ما يشير إلى العمل بحُكم العدّة وفيها، بالمقابل، ما يعطّل العمل به. واستنتجت السلّيني من ذلك أنّ هذه المسألة كانت خلافيّة لدى الجيل الإسلامي الأوّل. ومن ثمّ تعاملوا مع البُعد التشريعي في القرآن بمرونة كبيرة.

إنّ ما قرّره العلماء المسلمون هو أنّ العدّة واجبة على المرأة المتوفّى عنها زوجها أو المطلّقة. وهنا حاولت المؤلّفة تفهّم مدّة العدّة: "هل هي للريبة أم للإحداد؟"، وذلك في ضوء ما لاحظته من تمييز القدامى بين العدّة والاستبراء. فالمرأة الحرّة مثلا المتوفّى عنها زوجها لا تعتدّ بل عليها الاستبراء مدّة تسعة أشهر حتّى يتأكّد رفع الريبة في الرحم.

(١) نائلة السليني الراضوي، تاريخيّة التفسير القرآني، ص ١١٢ - ١٢٣وص ١٥٥ - ١٦٠.

لقد قدّرت السلّيني أنّ المرأة المعتدّة يصعب عليها تمثّل المعنييْن المشار إليهما، أي الريبة والإحداد. ولكنّ الثابت عندها أنّ ما غلب على عمل الفقهاء هو الحدّ من معنى العدّة في القرآن عبر عمليّات تأويليّة لآية الإحداد. وهكذا "انغلقت المنظومة الفقهيّة في أحكام العدّة نفسها، فانقطع الحوار بينها وبين أسئلة العمران التي ظلّت تبحث في الأعراف عن أجوبة لنوازلها وفرضت الممارسة حلولا للخروج من أزمة تحجّر الأحكام. وأسهمت المرأة نفسها في استنباط الحلول لنوازلها من حيث قصدت مؤسّسة الرجل تهميشها، وهي وإن كانت حلولا نسبيّة بحسب الأحوال الاجتماعيّة فقد كانت وليدة الواقع وتجربة المحنة التي تعانيها المرأة[1].

حقيقة أن ما انغلق هو فهمها، فهي لم تتعامل مع النصوص بالطريقة المعتادة، والتي تحتم النظر فيها جميعا، حتى تعرف العام والخاص والمجمل والمبين، وغير ذلك، فقضية عدة الزوجة المتوفى عنها تجب بسبب الموت أو الطلاق، وتنتهي بوضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي انقضاء أجلهن أن يضعن حملهن؛ ولأن براءة الرحم لا تحصل في الحامل ـ كما هو واضح ـ إلا بوضع الحمل. قال ابن مسعود: "من شاء باهلته ـ لاعنته ـ أن سورة النساء القصرى نزلت بعد الآية التي في سورة البقرة" وفي رواية البزار: "من شاء حالفته أن: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نزلت بعد آية المتوفى، فإذا وضعت المتوفى عنها حملها، فقد حلت. وقرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[2] ويدل على هذا أن (سبيعة بنت الحارث توفي عنها زوجها وهي حبلى، فوضعت بعد نحو عشر ليال من وفاة زوجها، ثم جاءت النبي ﷺ فقال: انكحي. وفي رواية: فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي)[3]. فليس هناك انغلاق، ما دام القرآن الكريم والسنة النبوية هي التي قررت ذلك.

(١) نائلة السليني، تاريخيّة التفسير القرآني، ص ١٥٩.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٢٣/٢٨).

(٣) تفسير البغوي (١١١/٥).

المبحث الثاني

المقاربة الجندرية والقانونية ونقضهما

تنطلق المقاربة الجندرية من فكرة اتهام المفسرين القدامى بالنظر إلى النص القرآني بنظرة مسبقة، وبتسلط الثقافة الاجتماعية على أحكامهم، كما تنطلق المقاربة القانونية من أسس قواعد القانون الوضعي لتطبقها على الأحكام القرآنية، ويمكن تفصيل ذلك من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: المقاربة الجندريّة الهرمينطوقيّة ونقضها

من المقاربات الجديدة التي طُبّقت على عدد من آيات الأحكام المتّصلة بالأحوال الشخصيّة وبشأن الأسرة نذكر المقاربة الجندريّة الهرمينطوقيّة التي أنجزتها أمينة ودود[(١)] في كتابها غير المعروف كثيرا "القرآن والمرأة: إعادة قراءة النصّ القرآني من منظور نسائي[(٢)] يدلّ الجندر في معناه المجمل على أنّ المجتمع هو الذي يؤسّس للذكورة وللأنوثة، وهو الذي يوزّع الأدوار بين الجنسيْن و يضبط أشكال العلاقات بينهما. ومن ثمّ فإنّ الفروق بينهما ثقافيّة بالأساس وليست فطريّة كما يزعم أنصار هذه القراءة.

لقد عملت أمينة ودود على اسقاط مفاهيم الدرس الهرمنوطيقيفي في قراءتها لآيات الأحكام خصوصا من قبيل "القراءة" و"التأويل" و"النصّ المُسبَق". وهي ترى أنّ المسار المنهجي الأنموذجي الذي ينبغي اتباعه في محاورة القرآن يرتكز على المحطّات الثلاث الآتية:[(٣)]

(١) أمريكيّة مسلمة من أصول إفريقيّة، وُلدت سنة ١٩٥٢م في ماريلاند وأعلنت إسلامها سنة ١٩٧٢م. وهي، منذ ٢٠٠٧م،أستاذة الدراسات الإسلاميّة بجامعة فرجينيا كومنويلث في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.اشتهرت بإلقائها لخطبة الجمعة في أحد مساجد جمهوريّة جنوب إفريقيا في أبريل ١٩٩٤م، وأيضا بتولّيها إمامة عدد من المسلمين في صلاة الجمعة بنيويورك في مارس ٢٠٠٥م.

(٢) طبع الكتاب بالإنكليزيّة في طبعة أولي بماليزيا سنة ١٩٩٢م، وفي طبعة ثانية موسّعة بفرجينيا سنة ١٩٩٨م. وترجم إلى العربيّة بعد موافقة الأزهر على ذلك سنة ٢٠٠٥م.

(٣) انظر: أمينة ودود، القرآن والمرأة، ص ١٩وص ١١٠.

- معرفـة السياق الذي نزل فيه القـرآن (استحضار جميع العناصر والعوامل الحافّة بالتنزيل).
- دراسة البناء اللغوي للنصّ (الطريقة التي قال بها القرآن ما يريد قوله).
- تفهّـم الرؤيـة الكونيّة التـي يدعو إليها النصـّ برمّته (مثـل : الهدايـة والمساواة، وغيرهما).

وفي ضـوء هذه المحدّدات المنهجيّة بيّنت أمينـة ودود أنّ كلّ استخدام للمذكّر في القرآن إنّمـا المقصود بـه الذَكَر والأنثى على حدّ سـواء ما لم يقع التنصيص علـى خلافه صراحة، وهـذا الاختيار القرآني يبدو في تقديرها متّفقا مع "عالميّة الهدي القرآني"[1] فالنصّ الإلاهي يكسّـر القيود التي تضعها اللغـة في التذكير والتأنيث في عمليّات التواصل بين الناس. غير أنّ ذلك لا يمنع من القول بأنّ هؤلاء يقرؤون القرآن تحت تأثير "النصّ المسبق"[2] (- the prio text)، وهـو يعني الرصيد اللغوي والمنهجي والمعرفي الذي يُعوَّل عليه في قراءة نصّ ما. وهذا ما يفسّر تعدّد وجهات النظر إلى النصّ واختلافها ما دام ذلك الرصيد متغيّرا من قارئ إلى آخر. وبذلك لا توجد قراءة واحدة ونهائيّة للنصّ.

وقـد انطلقـت أمينة ودود من أن هناك براهين تدل علـى أنّ عددا من الآيات، متى نُظر إليهـا مـن زاوية جندريّة هيرمنوطوقيّـة، أثبتت المساواة بين الرجل والمـرأة في عدّة أغراض منها عمليّة الخلق والجزاء الأخروي، لكن ما يعنينا، ههنا، قراءتها لبعض آيات الأحكام ممّا لها تعلّق بالعلاقة بين الجنسيّن في أحوال الاجتماع. ونوجز وجهة نظرها في المسألة الآتية:[3]

المـيراث الـذي ورد في الآيـة ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء:١١): إنّ حصول المرأة على نصف نصيب الرجل في الميراث هو حالة من بين حالات عديدة في توزيع الإرث. والمهمّ أنّه في كلّ الحالات تحصل المرأة على نصيب منه بغضّ النظر عـن مقداره، إذ المبـدأ الأساسي ههنا هو عدم حرمانها من الميراث على خلاف ما كان عليه الوضـع في الجاهليّـة. والجدير بالملاحظة أنّ القرآن لم يورد جميـع إمكانات توزيع الميراث،

(١) نفسه، ص ٢٤.

(٢) القرآن والمرأة، ص ٢٢.

(٣) انظر أمينة ودود، القرآن والمرأة، ص ١٠٩ ـ ١٤٦ (الفصل الرابع: حقوق المرأة وأدوارها: بعض الآراء المتباينة).

وبالإمكان اليوم التعويل على تلك الإمكانات من أجل تقسيم عادل للإرث يأخذ بعين الاعتبار الأدوار الاجتماعيّة التي يقوم بها كلّ فرد ذَكَرا كان أو أنثى.

إنّ المقاربة التي طبّقتها أمينة ودود على آيات الأحكام بيّنت بجلاء أنّ تعاملها مع النصّ القرآني عموما جمع بين لحظتيّ "القراءة" و"التأويل" ضمن النسق الهرمنوطيقي. ففي مستوى القراءة انطلقت من اتهام للمفسرين القدامى من أن تفاسيرهم لآيات الأحكام كانت تحت تأثير "النصّ المسبق" (القراءات السائدة، الذاكرة، ثقافة قارئ النصّ). أمّا في مستوى التأويل فإنّ هناك محاولة للنظر في القرآن بشكل غير موضوعيّ تحررت من سلطة المقاصد القرآنية ووظفت بدلا منها مناهج تحليل الخطاب باعتبار القرآن خطابا لغويّا في المقام الأوّل. وهو ما يعني أنّ إمكانات تأويله لا حدّ لها ممّا يسمح للنص القرآني أن يصبح وعاء لكل فكر وايديولوجيا تكيفه مع ما يلائمها من الفهم والتأويل.

وقد أتاحت المقاربة المذكورة –في نظرها– قراءة آيات الأحكام وتأويلها في ضوء المبادئ العامّة الكبرى التي انتصر لها القرآن من قبيل المساواة بين الجنسيّن وتقاسم الأعباء الاجتماعيّة وتحمّل المسؤوليّة الفرديّة والهداية. ولا يمكن الوصول إلى هذه المبادئ –حسب زعمها– إلاّ متى تحرّر القارئ من التفاسير القرآنيّة التي كرّست وجود قيم الذكورة وبرّرت تسلّط الرجل على المرأة بِحُجَج غير قرآنيّة.

وهي تريد من خلال قراءتها تقديم رؤية نسائية تعكس ما يختلج في صدرها من نزعة كيدية، تجعل تفسير وتأويل القرآن الكريم خاضعا لـ "هويات جنسية"، وكأن انتماء المرأة لجنسها كان عائقا أمام أخذها مكانتها في التفسير، وتحقيق حقوقها، ويمكن رد شبهاتها من خلال النقط الآتية:

تنطلق هذه المقاربة من القراءة التأويلية (الهرمنيوطيقية)؛ ويطلق التأويل على عملية الفهم، بينما يطلق مصطلح التأويلية (الهرمنيوطيقيا) على نظرية التفسير أو علم التفسير، فهما يختلفان في الدلالة، فالتأويلية تنظر لقوانين القراءة والتأويل في حقل النص الديني أو البشري على السواء. أما التأويل فيعني عملية الشرح والتفسير.[1]

(1) انظر نصر حامد أبوزيد، إشكاليات القراءة والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠١م، ص١٣.

وقـد استخدمت آمنـة ودود مناهج شتـى يتيحهـا التأويـل الهرمنيوطيقي،كالبنويات، والتفكيكيـات، واللسانيات، واتجاهات تحليـل الخطاب، فهي ترى القرآن نصا يتجسد كغيره مـن النصوص في اللغـة الإنسانية[1]ومن المقـولات الهرمنيوطيقية التي تنفـذ الغرض ثبات المنطـوق وتغير المفهوم؛ يقول نصر حامد أبو زيد "ذلك أن النصوص الدينية...تأنسنت منذ تجسـدت في التاريخ واللغة، وتوجهت بمنطوقهـا ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد؛ إنها محكومة بجدلية الثبات والتغير، فالنصوص ثابتة في المنطوق، متغيرة في المفهوم".[2]

فمنطـوق القـرآن الكريم بهذا المعنـى توجه إلى المخاطبـين زمن التنزيـل، فهو حبيس اللحظـة التاريخية التي نزل فيها، أما مفهومـه فمتغير مختلف بتغير العصور والأمكنة، وهو وعاء فارغ لما يملأ به في كل قراءة، وفضاء مفتوح لكل التأويلات.

ومعنـى هـذا قصر الآيـات علـى أسبابها الخاصـة، وربطها بظـروف بيئتهـا ومكانها وسياقاتهـا المختلفة[3]، ومن ثم إقصاؤها من دائرة الفعل الزماني والمكاني، وعلى كل عصر أن ينتج تشريعات تساير التطور العقلي، وتوسع الإدراك للمخاطبين.

أمـا قـرره الإسـلام من كـون إرث الذكر ضعـف نصيب الأنثـى فهو حـق، وذلك لكون الإسـلام جعل الرجل هو المكلـف بالإنفاق، ولا يطلب من المرأة أن تنفـق شيئا من مالها على غير نفسها وزينتها "إلا حيث تكون العائل الوحيد لأسرتها، وهي حالات نادرة في ظل النظام الإسلامـي؛ لأن أي عاصب مـن الرجال مكلف بالإنفاق ولو بعدت درجتـه، فأين الظلم الذي يزعمـه دعاة المسـاواة المطلقة؟ إن المسألة مسألة حساب، لا عواطـف ولا ادعاء، تأخذ المرأة -كمجموعة- ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها، ويأخذ الرجل ثلثي الثروة لينفقها -أولا على زوجته -أي على امرأة- وثانيا على أسرة وأولاد- فأيهما يصيب أكثر من الآخر بمنطق الحسـاب والأرقام؟ وإذا كانت هناك حالات شاذة لرجـال ينفقون كل ثرواتهم على أنفسهم ولا يتزوجـون ولا يبنـون أسرة، فتلك أمثلة نادرة. ومهما كانت ثروتها الخاصة فلا يحق له أن

(١) انظر: القرآن والمرأة، صفحات ٥٥ إلى ١١٠.

(٢) انظـر نصر حامد أبوزيد، نقد الخطاب الديني، المركز الثقـافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م، ص:١١٨-١١٩.

(٣) انظـر نصر حامـد أبوزيد النصـ، السلطة، الحقيقـة، المركز الثقافي العربـي الدار البيضـاء، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص:٩٦.

يأخذ منها شيئا البتة إلا بالتراضي الكامل بينهما، وعليه أن ينفق عليها كأنها لا تملك شيئا، ولهـا أن تشكـو إن امتنع من الإنفاق، أو قتر فيـه بالنسبة لما يملك، ويحكم لها الشرع بالنفقة أو الانفصال.

هـذا بالنسبة للمال الموروث بلا تعب، فهـو يقسم بمقتضى العدل الإلهي الذي يعطي كل حق بحسب المهمة المنوطة به، أما المال المكتسب فلا تفرقة فيه بين الرجل والمرأة، لا في الأجر علـى العمـل، ولا في ربح التجارة ولا ريع الأرض؛ لأنه يتبع مقياسا آخر هو المساواة بين الجهد والجزاء[1].

المطلب الثاني: المقاربة القانونيّة الدستوريّة ونقضها

لرجـال القانون الدستـوري نظرة مخصوصة لآيات الأحكام، فَهُـمْ يبحثون فيها عن ما يُسمّـى بـ "القاعـدة القانونيّة"، أي "القاعدة التي تنطوي على أمـر باتباع سلوك معيّن وتهمّ العلاقـات بين البشر كأعضاء في المجتمـع[2]، ومن شروط القاعـدة القانونيّة أن يتوفّر فيها الإلـزام[3]، ولكن الجدير بالملاحظة أنّ العديد من آيـات الأحكام غاب عنها الإلزام واكتُفيَ فيهـا بالحثّ على اتبـاع سلوك معيّن ممّا يتنـزّل في باب "الأخـلاق الاجتماعيّة" ولهذا يرى الصادق بلعيد، أستاذ القانون الدستوري بالجامعة التونسيّة، أن "الأحكام" بالمعنى الصحيح من الناحية التشريعية تنحصر في قسم الأحكام العملية. وبذلك يخرج من الأحكام العقائدية والخلقية فلا يمكن اعتبارها أحكاما تشريعية بالمعنى الصحيح من حيث الميدان المعني أو من حيث الشروط التي يجب توفرها في القاعدة حتى تعتبر قاعدة تشريعية أو قانونية؛[4] لأنها لا تهتم إلا بجانب القناعات الفردية ولا تمتد إلى العالم الحسي والعملي، ويعبر عن ذلك بقوله: "الأحكام" بالمعنى الصحيح من الناحية التشريعية، تنحصر في قسم "الأحكام العملية"، فلا يمكن اعتبار "الأحكام" التي لا تتسم بهذه الصفة العملية، أحكاما بالمعنى الكامل، حتى وإن وردت في شكل أمر أو حكم، فإنها لا تؤدي بالضرورة إلى تعيين سلوك بشري عملي؛ ولهذا

(١) انظر محمد قطب شبهات حول الإسلام، ص ١١٩-١٢١.

(٢) الصادق بلعيد، القرآن والتشريع: قراءة جديدة في آيات الأحكام، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) نفسه، ص ٤٢.

(٤) بلعيد، الصادق: القرآن والتشريع، مركز النشر الجامعي، ط.٢، ٢٠٠٠م، ص: ٤٠.

السبب أقصى بلعيد الأحكام العقائدية بكونياتها ورموزها وأساطيرها، من قائمة "آيات الأحكام" ولم يحددها بقوله: "آيات الأحكام العملية أو المعاملاتية[1] كما أقصى الآيات القرآنية التي تهم الأخلاق الاجتماعية[2] أو كما سماها في موضع آخر "القواعد السلوكية التي تعتمدها المجتمعات البشرية.[3]

وهذا الإقصاء منه مفهوم لخلفيته القانونية التي لا تعترف سوى بالحكم العملي، فهو يعرف القاعدة القانونية بقوله: "وظيفة القاعدة القانونية أن تأمر البشر باتباع سلوك معين في علاقاتهم بعضهم ببعض يكون مشفوعا بجزاء معين، يطبق كلما اكتملت الظروف والشروط التي حددت له، ويبرر بذلك الطابع العملي والمفعول الإلزامي للقاعدة القانونية... لهذا السبب الرئيسي وعلى خلاف ما يراه الفقهاء القدامى، فإننا نرى ضرورة عدم اعتبار العديد من الآيات القرآنية آيات حكمية، نظرا إلى انعدام الشروط اللازمة لذلك فيها.[4]

إن غياب الجانب العملي في الآيات العقائدية والخلقية لا ينفي تأثيرها القوي في المكلف من حيث إلزامه بتطبيق باقي أنواع الأحكام العبادية منها والمعاملاتية، "فالقواعد التشريعية السماوية تلقى احتراما وقبولا لدى الناس أكثر مما تلقاه القواعد التشريعية الوضعية، لسلطان العقيدة على النفوس... بالإضافة إلى ما تتميز به الشرائع السماوية عن الشرائع الوضعية من حيث احترامها في النفوس، فإننا نلاحظ أن الشريعة السماوية تدعم قواعدها التشريعية بالجزاء الأخروي، وبخاصة في الحالات التي لا يملك القانون الوضعي أن يصل إليها لعدم توفر وسائل الإثبات فيها، مما يؤكد أن الصفة الدينية في القاعدة القانونية ميزة حقيقية، لأنها تمنح تلك القاعدة سلطانا قويا مرتبطا بضمير الفرد ووجدانه.[5]

أما الغاية من تشريعات الأحكام الخلقية السمو بالنفس البشرية لكي تكون أقرب إلى الكمال أخلاقا وسلوكا، وأن الفرد الأخلاقي هو الفرد القادر على الإسهام في خدمة المجتمع

(١) انظر: المصدر نفسه، ص: ٥٦.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص: ٤٠.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص: ٣٩.

(٤) المصدر نفسه-ص: ٣٩-٤٠.

(٥) النبهان، محمد فاروق: المدخل للتشريع الإسلاميّ، ص: ١٣.

الذي ينتمي إليه وهذا الفرد هو الغاية من وجود التشريعات الدينية وما تتضمنه من توجيهات سلوكية.[١]

وخلاصة القول أن إقصاء بلعيد للأحكام العقائدية والخلقية كان بمنطق قانوني ومقياس وضعي، وهو أمر مجانب للصواب لعدم تطابق المعادلتين السماوية والوضعية.

والحق ما ذهب إليه محمد فاروق النبهان من تصنيف الأحكام التي جاءت بها الشريعة إلى ثلاثة أقسام: الأحكام الاعتقادية، الأحكام الخلقية، الأحكام العملية.

وتشمل الأحكام الاعتقادية: الأحكام التي جاءت بها الشريعة الإسلامية لتحرير العقل البشري من الخرافات والأوهام والأساطير المتعلقة بالخالق والخلق والكون وتوجيه العقل نحو الاستدلال والاستنساخ والتفكير للوصول إلى الحقيقة.

أما القسم الثاني، أي الأحكام الخلقية، فتشمل كل ما يتعلق بالفضائل والمكارم والحث عليها والنهي عن الرذيلة والشر وتحريمهما.

وجمع محمد فاروق النبهان في القسم الثالث، الأحكام العملية أي كل الأحكام المتعلقة بحياة الإنسان ومعاملاته وعلاقاته مع الآخرين، وتشمل هذه الأحكام كل أنواع الأحكام المتعلقة بالعبادات والأسرة والمعاملات المالية والمدنية والمنازعات والعقوبات وما يتعلق بالحكم والدولة[٢].

(١) المصدر نفسه، ص: ١٤.

(٢) نفسه، ص: ١٣.

الخاتمة

في غب هذا البحث أعتقد أن ما قدمته يشكل المنظور المقاصدي لآيات الأحكام وفق رؤية الدراسات القرآنية، وكذلك المنظور العلماني لقراءة آيات الأحكام من حيث الخلفية الفكرية والمعرفية والمنهجية والتطبيق، وهذا البحث يطرح سؤال الضابط والمنهج وأساس قراءة النص القرآني أو إعادة قراءته في أفق مناهج الدراسات القرآنية الأصيلة، وأخرى علمانية دخيلة، ويمكن إجمال النتائج في الآتي:

في منظور الدراسات القرآنية لا بد في تفسير النص وتأويله من الالتزام بضوابط لغوية وأخرى عقلية تتكئ على فلسفة التشريع، وتعتبر النص ومبادئه محورها، فالنص بالنسبة لها يتعدى الوقائع الجزئية التي نزل لأجلها.

والمشكلة المطروحة بالنسبة له ليست في المنهج المتبع والمؤسس، وإنما في أهلية المتصدي للاجتهاد وآلية التعامل مع النص.

وارتكاز الدراسات القرآنية يقوم على بُعدين:

بُعد إيماني: وهو مطلقية النص القرآني، ومن ثم تعالي أحكامه وصلاحيتها لكل زمان ومكان. بُعد إنساني: تمثل في قصد الشارع من تشريع الأحكام وهو جلب المصالح للناس ودرء المفاسد عنهم، وقد وضعوا قواعد يعرف بها صحة القصد.

في المنظور العلماني: الأزمة أزمة نظر واجتهاد ومنهج، والحل يكمن في:

العودة إلى النص القرآني بقراءة جديدة منطلقها وأساسها المنهجية المعرفية المقترحة في إعادة القراءة. وهي تنطلق من نسبية النص وأحكامه التشريعة (آيات الأحكام).

وارتكازه على بعدين: بعد إنساني: تمثل في تركيزه على محورية الإنسان في آيات الأحكام، فهي تعالج قضاياه الوجودية، ومن ثم فهو محور هام في بناء المنهج المعرفي في التعامل معها.

بعـد منهجي: أخذ المنظور العلماني بأدوات ومناهج فلسفية غربية، إلا أنه استثمرها وفق ما يخدم بناءه المعرفي الجديد، وبما يستجيب لأطره المرجعية.

وقـد عمل البحث علـى تفكيك القـراءة العلمانية مـن نسقها المعرفي الغربـي، ومن ثم التعرف على أهدافها ومراميها وأدواتها.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
٢. ابن تيمية مقدمة أصول التفسير، ط دار القرآن.
٣. ابـن جزي الكلبـي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: الدكتور عبـد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت، ط١ - ١٤١٦ هـ
٤. ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٥م.
٥. ابـن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السـلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م، مادة: قصد.
٦. ابن منظور لسان العرب، دار صادر بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة: قصد.
٧. أبـو حامد الغزالي جواهر القرآن، تحقيق: الدكتـور الشيخ محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
٨. أحمد الريسوني مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، الشبكة العربية للأبحاث، مركز المقاصد، ط١، بيروت، ٢٠١٣م.
٩. أركـون القرآن مـن التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينـي، ترجمة هاشم صالح دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ط١/٢٠٠١م.
١٠. أركون، ومحمد الفجاري نقد العقل الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
١١. حـاج حمد محمد أبـو القاسم العالمية الإسلامية الثانية جدليـة الغيب والإنسان والطبيعة، ط٢، ١٩٩٦م، دار ابن حزم لبنان.
١٢. حاج حمد منهجية القـرآن الكريم المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، ط٢، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م، دار الهادي.
١٣. زيدان، عبد الكريم: الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٨٧م.
١٤. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الندوة الجديدة، بيروت.
١٥. الشاطبي، الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ط١ دار بن عفان بتاريخ ١٤١٧، ١٩٩٧م.

١٦. الشافعي الأم، بيت الأفكار الدولية، الرياض.

١٧. الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٩م.

١٨. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٩. عبد الله بن الصديق الغماري، بدع التفاسير، مكتبة القاهرة، ط١، ١٣٨٥هـ

٢٠. علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، ط٥ ١٩٩٣م.

٢١. علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥م.

٢٢. القطب الريسوني النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التدبر القرآني، وزارة الأوقاف المغربية الرباط، ط١، ٢٠١٠م.

٢٣. محمد أركون قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤م.

٢٤. محمد بن حجر القرني، موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام دراسة تحليلية نقدية، ط١، مجلة البيان، ١٤٣٤هـ.

٢٥. محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٢٦. نصر حامد أبو زيد إشكاليات القراءة والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠١م.

٢٧. نصر حامد أبو زيد الخطاب والتأويل المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط١/٢٠٠٠م.

٢٨. نصر حامد أبو زيد النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٢٩. نصر حامد أبو زيد مفهوم النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣م.

لبصير نورالدين

- **الدرجة العلمية:** أستاذ محاضر أ
- **المؤسسة الأصلية:** جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
- **رقم الهاتف/ الفاكس:.....**٠٦٩٩٢٦٥٨٧٨
- **البريد الإلكتروني:** labessir.nouraddine67@gmail.com

الأبحاث والمنشورات:

- شعر المولدين في الدرس النحوي ين الرفض والقبول مجلة القلم جامعة السانية وهران.
- الشاهد النحوي ولغة الضرورة الشعرية قراءة في المعلقات ،مجلة المعرفة سوريا
- علم الأصوات التشكيلي من الجزئيات إلى النظام والبنية ،مجلة القلم جامعة السانية وهران
- تعليمية البلاغة بين التوظيف التراثي والتجديد الحداثي ،مجلة اللغة الوظيفية
- قراءة المعاصرين للمصطلح اللساني في الفكر اللغوي القديم بين الغلو والإهمال ،مجلة اللغة العربية وآدابها مجلة أكاديمية فصلية محكمة جامعة لونيسي علي البليدة
- ملامح أساوبية في موشح جادك الغيث للسان الدين بن الخطيب،مجلة الآداب واللغات مجلة دولية محكمة جامعة لونيسي علي البليدة ٢.
- التسيب الأسري ودوره في بطء التعلم مجلة مقاربات مجلة دولية محكمة جامعة الجلفة

المشاركة في المؤتمرات والندوات:

الملتقيات الدولية:

- الملتقى الدولي في القراءات القرآنية المنعقد سنة : ٢٠٠٩عنوان المداخلة:(أثر القراءات في تفسير المعنى)
- الملتقى الدولي حول حوسبة المعجم المنعقد سنة : ٢٠١١ عنوان المداخلة: (سلبيات

ونقائص الأعمال التي عالجت العربية بالعلاج الآلي)

- الملتقى الدولي حول مساهمة الدراسات القرآنية في إثراء البحث النقدي والأدبي واللغوي ٢٠١٤ المنعقد سنة : ٢٠١١ عنوان المداخلة: (استشهادات النحويين بالقرآن الكريم وأثره في الدرس النحوي)
- الملتقى الدولي البيان النّبويّ في عُلُوم اللّغة والأدب المنعقد سنة : ٢٠١٤ عنوان المداخلة: (استشهادات البلاغيين بالحديث النبوي وأثره في الدرس البلاغي)
- الملتقى الدولي الأول تحت عنوان:" تقنيات تعليم اللغة العربية: الواقع والمأمول " المنعقد سنة ٢٠١٤ :عنوان المداخلة: (الطريقة الاستكشافية وأهميتها في البناء المعرفي للمتعلم).

معالم الهوية الإسلامية بين الثوابت القرآنية وإغراءات المادية

د.لبصير نورالدين
أستاذ محاضر أ
جامعة حسيبة بن بوعلي الجزائر

مقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة على النبي المصطفى ﷺ وعلى أصحابه الذين اصطفى

،وبعد:تمايــز الأمم والشعوب واختلافها أمر طبعي،وهو آية من آيات الله تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾[1] ،وهذا التمايــز في الخلقة يستتبع إختلافاً في الثقافات والنظــم ؛قال الله تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾.[2]وعلى الرّغم من هذا الاختلاف والتمايز هل يمكن للمجتمعات الإسلامية أن تعيش منعزلةً عن المجتمعات الأخرى،وخصوصــاً في ظل تحول العالم إلى مدينة كونية؟وعلى الرّغم من محاولات الشعوب للحفــاظ على نقاء العرق وصفــاء الثقافة،فهل تستطيع المجتمعــات الإسلامية الحفاظ على خصوصيتهــا؟؛في ظل مفهوم العولمــة التي تسعى من خلاله لتتبــادل الخبرات والتجارب مع بعضهــا البعضــ تؤثــر وتتأثر،فهل تحافظ المجتمعــات الإسلامية على هويتهــا في ظل حتمية العولمــة التي تسعــى لصياغة القيم والأخلاق والمبادئ وفق أهدافهــا المادية،فأصبح كل شيء معولماً...لقــد أثرت العولمة في هوية الأمم في ظل التغيير الناجم عن مثاقفة الأنا للآخر،التي زعزعــت جيولوجيا المجتمعات،وبدّلــت مصائرها في كثير مــن الأحيان،وأحياناً أخرى تلغي وجودها لتنصهر وتذوب في ثقافة الأخر؟.

في زمان العولمة الذي أفضى لتداول المواقع الفاعل صار مفعولاً والمفعول صار فاعلاً ،وفي ظــل غياب الأنا الذي استلزم حضور الآخر، كلّ ذلــك يدعونا لإعادة النظر في مفهوم الهوية في عصر المادية،والذي تحول فيه العالم لقرية كونية لا مكان فيه للخصوصيات ،والمتعاليات ،والمقدسات...،مــن شأنــه أن يضــع مفهــوم الهوية الإسلاميــة التي نبحث عنهــا- في زمان الاغــتراب- في قلب التحــولات الفكرية والاجتماعيــة والفلسفية والإيديولوجيــة للمجتمعات الإسلاميــة سواء في مرحلــة الصراع مع الآخر في إثبات الهويــة ،أم في البحث عن هوية الأنا التــي ضاعــت في زمان الاستــلاب الحضاري،أم في سبيــل البحث عن إعــادة الاعتبار لمكانة

---

(١) سورة الروم،الآية:٢٢.

(٢) سورة المائدة،الآية: ٤٨.

الهويــة الإسلامية،ومن ثمّ النهوض بالمجتمعــات العربية والإسلامية،و يتسنى لنا إعادة الأنا للحضــور؟ لقــد أصبح مــن الصعوبة بمكان على المجتمعــات الإسلامية المعاصــرة أن تعيش خارج الحداثة العولمية الكونية،دون أن تتأثر أو تندرج في مساراتها.

إنّ الهويــة التــي نبحث عنها،هــي بلا شك هويــة مستمدة من الأصل الربــاني القرآن حبــل الله المتين،ذلــك أنّ رسالة الإسلام اليــوم ضعيفة في رسالتهــا المادية،قوية في رسالتها الروحية،بخلاف المادية الغربية التي هي قوية في رسالتها المادية والتقنية،ضعيفة في رسالتها الروحية،للوصــول إلى الرؤية التوحيدية القرآنية التي تربــط الدنيا بالآخرة،وتتعالى عن كل ظرف مادي دنيوي.

نحن اليوم نعيش في عصر العولمة،عصر الانفتاح على العالم الآخر،والذي يفرض علينا التواصل مع الآخر،لذلك نتساءل هل يا ترى ستزول خصوصية المجتمعات المحافظة؟،ما هو مصــير المجتمعات المنغلقة؟،هل نتصور انفتاح المجتمعــات المتدينة،على العالم الآخر بكل ما فيه؟.

ولمــا كانت العولمة في أبسط معانيها تسعى لذوبان الخصوصيات،ولذلك تسعى للانتقال من الخصوصيــات إلى العموميات،ومــن الجزئيات إلى الكليات،وعلــى النقيض تماماً نجد الهويات تسعى للانتقال من العموميات إلى الخصوصيات،ومن الكليات إلى الجزئيات.

وفي ظلّ هذا التجاذب الحاصل بين طرفي نقيض تأتي أهمية البحث في مثل هذا الموضوع الذي وسمتــه ب"معالم الهوية الإسلامية الثوابت القرآنية وإغــراءات المادية" باعتبارها من أكــثر المواضيع حضــوراً ومناقشةً بين النخــب المثقفة في الآونــة الأخيرة،والتي تمخض عنها ضياع الأجيال،وفقدان الهوية الإسلامية.

أهمية الدراسة: أول الطريق الذي يجب أن تسلكه الأمة في سبيل إحيائها،وإعادتها إلى مكانتهــا اللائقة بها تبــدأ ؛ من إحياء الهوية الإسلامية والحفــاظ عليها من عوامل الطمس الذي تتعرض لها.

- لاشــك إنّ الاهتمــام بقضية الهويــة هي أولويــة الأولويات التي يجــب أن يتفرغ لها المفكرون والأكاديميون والباحثون القادرون على التأصيل لها والإبداع في طرحها.

- لا تستحق أمة من الأمم وصف (الأمة) حتى تكون لها هويتها المستقلة والمتميزة عن غيرها من الأمم.
- الأمة إذا فقدت (هويتها) ،فقدت استقلالها وتميزها ،وأصبح بلا محتوى فكري أو رصيد حضاري.
- لم تعد مقاربة سؤال الهوية ذات بعد معرفي فقط؛ بل أصبحت تطرح رهانات متعلقة بتحصين الهوية واستمرارها.
- الحديث عن صراع الهوية والعولمة في الحقيقة،هو حديث عن الوجود الكوني والإنساني والحضاري لأمة من الأمم.

أهداف الدراسة :

لذلك يمكن إجمال هذه الأهداف في ما يلي:

- بناء تصور سليم تكون له القدرة على التخلص من الأوهام و المواقف والتصورات السلبية المسبقة اتجاه الآخر ،وإقامة جسور من التفاهم بين الثقافة الجديدة والثقافة الأم تقوم على فهم سمات ومواطن الاختلاف الثقافي بينهما وليس على طمسها وسلبها وتهميشها.
- إبراز الهوية الحضارية العربية والإسلامية والمحافظة عليها بوصف الثقافة مستودع الأصالة .
- الأمة التي تفقد هويتها تموت؛ بل تجذب إليها برابرة الأمم.
- تعزيز مقومات الوعي بالذات وبالآخر في هذا الظرف الذي تعيشه الأمة اليوم.
- في زمان التحول المادي الذي يختزل الإنسان في المادة،لم يعد لهذه الهوية بُعدُها السامي، يصبح من الضروري الرجوع للقرآن للسمو بهذه الهوية.
- السعي لرسم معالم واضحة للهوية الإسلامية مصدرها القرآن الكريم لتكون صمام أمان،حتى لا يكون مصيرها مشابها لما تعرضت له نظيرتها في الغرب في ظل العولمة المتوحشة .
- الوقوف في وجه الحملات المسعورة لسلخ ومسخ الهوية الإسلامية.

أهداف الدراسة : تهدف هذه الورقة البحثية لتحقيق جملة من الأهداف:

- إحياء هذه الأمة (الميتة)،وفي اعتقادي أنّه لا سبيل لذلك إلا بالكشف عن هوية هذه الأمة.
- إجلاء أبعاد خصوصية هويتنا بين الأمم،لأنَّ هذه الخصوصية من شأنها مساعدة أفراد الأمة نفسياً لإحياء مجدها التليد،والمساهمة الفعالة في السبق الحضاري من جديد .
- عقلنة انفتاح الشباب المسلم على الآخر ممّا يسهل عمليه التوصل مع المجتمعات الأخرى،مع التأكيد على ضرورة المحافظة على الخصوصية.
- بيان الأبعاد الإنسانية وقيم الشريعة الإسلامية في استيعاب الآخر وقبوله،ضمن رحابة الإسلام وسماحته.
- المحافظة على الخصوصية الثقافية مع الانفتاح الفكري الذي يجعلنا نستوعب ما عند الآخرين من علوم ومعارف ومنجزات حضارية، ونمتنع عن التأثر السلبي لهذا الانفتاح.
- كما تسعى لحماية الأجيال القادمة من الانسلاخ والتغريب تعميق سؤال الهوية في ظلّ التحديات الراهنة.
- السعي الحثيث للمحافظة على الهوية الإسلامية،والثوابت،مع معايشة العصر،دون التنازل عن الثوابت.

إشكالية الدراسة : الإشكالية الرئيسة: إنّ تجاذبات العولمة والهوية بكل حمولتها الدلالية تتعلق بطبيعة الصراع والتجاذب الحاصل بين مفهومي العولمة والهوية،ولما كانت العولمة تدعو للقضاء على الخصوصية بكل ما أوتيت من قوة،والهوية تدعو للحفاظ على هذه الخصوصية،ولذلك،تتقدح أمام هذه الدراسة جملة من الإشكاليات:

ما موقع الهوية من جدلية الخصوصية والكونية؟هل تفلح العولمة في تقليص الهويات في هويـة واحدة متجانسة ثقافيـاً، سياسياً،اجتماعياً..؟هل تفلـح في تذويب الحدود،والحواجز الثقافيـة؟أم تقـوم الهوية بدور صناعـة المناعة للفرد والجماعـة؟،وفي اعتقادي هو التحدي الأكبر لهوية الأمم والشعوب.فهل كان لزاماً أن نوجه سؤال الهوية اليوم لتحرير الإنسان من الاستلاب والاغتراب في ظلّ تحول الصراع من صراع الثقافات إلى صراع الهويات؟

إنّ الهويـة الإسلاميـة يحيـط به خطـر حضارة تزعـم لنفسها أنّها هـي المعيار الذي ينبغـي إتباعه،والمنهـج الوحيـد الـذي يتأكـد استنساخه للنجـاة مـن التخلف،لذلك نسعى لتكريـس أنّ الهويـة الإسلامية أساس لمشروع حضاري إسلامي بديـل شامل الذي يمكن أن يعطـي تجمعًا عقائديًـا يُخرجنا من الكيانات الصغرى التي فرقتهـا الوطنيات المحدودة إلي مواجهة التكتلات العالميـة من خلال مشروع حضاري إصلاحي يواجه مشاريعهم الحضارية التدميرية في عصر لا حياة ولا مكان فيه للكيانات الصغيرة وفي عصر يحرص فيه الاستعمار الصليبي على التفتيت إلى أقصى مداه.

الإشكاليات الفرعية:إن"هذه الإشكالية المطروحة تجرّ وراءها مجموعة من الإشكاليات الفرعية،والتـي يمكـن أن أجملهـا في النقاط التالية:سيظـل هذا التجـاذب قائماً:مادام لم نستطيـع تحديـد إجابة واضحة عـن الإشكالية الكبرى التـي ملأت جدلاً كبـيراً في الساحة الفكرية في الآونة الأخيرة (جدلية الأنا والآخر).

ولعـل مـن أصعب الحـروب التي تخوضهـا الأمة اليـوم حـروب الأفكار،لذلك نسعى مـن خلال هذه الدراسة،لضبـط و تصحيح المفاهيم،وبيان أهميتهـا وخطورتها-باعتبار أن المفاهيـم أول مـا يتأثر بعمليات الصـراع الفكري-والتي يمكن من خلالهـا إحداث التغيير الفكري والتحول الحضاري الذي ننشده لأمتنا،وتعميق الإيمان الصحيح الخالص لدى أفراد الأمة ما يعزز الهوية الإسلامية.

في ظـلّ سلسلـة النهايات،نهاية الأسرة،نهايـة العلم،نهاية التاريخ،نهايـة العالم،نهاية المتعاليات،ونهايـة المقدسـات، نهايـة الديـن،و في خضـم سلسلـة الجنائـز المتتالية،مـوت المؤلف،مـوت الإنسان،موت الإله،موت النص...هل سنشهد نهايـة العولمة ونهاية الهوية؟هل

ستنتهي هويات المجتمعات الإسلامية وتذوب وتنصهر؟هل كان من الواجب اتخاذ مرجعية القرآن لبناء معالم الهوية الإسلامية المتماسكة في ظل الإفلاس التي تعاني منه التشريعات الوضعية التي فشلت في ضبط و وضع الآليات التي تحافظ على الهوية التي يزداد تفاقمها يوم بعد يوم ؟ويبقى المنهج القرآني الوحيد القادر على احتواء المرجعيات الأخرى في أنساقها التي اختزلت فيه قيمة الإنسان إلى مادة.

المبحث الأول

الهوية والقرآن

المطلب الأول:البحث عن الهوية الإسلامية،أو البحث في الهوية الإسلامية:

علــى الرّغم من كثرة الكتابات والبحوث حول مسالــة الهوية،فمازلنا بحاجة لطرح مثل هذه المواضيع وفتح النقاشات المعمقة،إذ لم يحدث في تاريخ الأمة الطويل والذي امتد لقرون طويلــة أن اهتم الباحثون والمفكرون بموضــوع الهوية كما نهتم به نحن اليوم،لقد غزا مفهوم الهويــة مجمــل العلوم الإنسانية،بمــا جعلها تبدو كأحــد أهم الأسئلة الحيويــة في الدراسات الإنسانيــة والاجتماعيــة والثقافيــة الراهنة لدى المهتمــين حتى أصبح موضــوع الساعة،فقد فرض نفسه حتى غدا بمثابة كلمة سحرية والذي أثار ولا يزال جدلاً واسعاً في صفوف المثقفين تستوجب الوقوف على دلالتها.

ومــن خلال ما تروج له أفكار العولمة حــول الهوية،بأنّها أوهام،وعالم بلا هوية،أو الوجه المظلــم للهوية كما يقــول باكيو،يصبح من العسير أن نتصور أمة مــن دون هوية،أو نقتنع بما يزعمه شايغان أنّها: "صورة مغلوطة للذات ".(١)

ينبغــي علينــا قبل الولــوج في الدراسة تحديد طبيعــة الدراسة التــي نريد،هل هي بحث عــن أو بحث في الهوية الإسلاميــة ؟ أو هو بحث مزدوج بحث عن الهوية وفي الهوية في الوقت نفســه؟لأنّ الحديــث عن الهويــة الإسلامية ليس مجرد بحــث عن المفاهيــم المجردة؛بل هو حديــث عن الوجــود الإنساني،والحضــاري لأمة الإسلام عــبر امتدادهــا الفكري،وتواصلها المعــرفي الذي دام قرون،فالبحث عن الهوية هو بحث عــن ماهية هذا الوجود،و إعادة وضعه في مكانه الصحيح.

(١) أوهام الهوية:داريوس شايغان ،ترجمة محمد علي مقاد،دار الساقي ،بيروت ١٩٩٣ ،ص: ١٢٧.

ولأنّ البحث عن الهوية الإسلامية بحث إيديولوجي بمعنى أنّ المدونة موجودة والمتمثلة في القرآن الكريم،لكنّها ضائعة في حياة المسلمين،وهذا يكشف لنا عمق الأزمة التي نعاني منها اليوم،لذلك نحاول في هذا الدراسة أن نبحث عن معالمها وخصوصيتها من القرآن،تأكيدا للذات،أكثر ممّا نبحث عن تحديد مفهومها،وإن كان ضرورياً.

والبحث عن الهوية الضائعة والمغيّبة يمكّننا تجاوز صدمة الحداثة والعولمة،ومن ثمّ الانطلاق في البحث عنها،وخير ما يرشدنا إليها القرآن الكريم،ثم إيجاد منهجية تخضع لقانون الاتزان والتوازن للمزاوجة بين الاستفادة من المنجزات الحضارية والتقنيات الحديثة قي البناء والأسس، والتجاوب الايجابي مع الحاجيات التي تنهض بالمجتمع من جهة والتمسك بالهوية كإطار يهيكل وينظم كل التدخلات من جهة أخرى.

فالبحث عن الهويَّة هو البحث في وحدةِ الانتماء لهذا الدين،ومن ثمّ تحقيق الولاءَ و البراء ممّا يقوِّي اعتزاز الفرد بهويَّته والفخر بها أينما كان.

أما البحث في الهوية،فهو بحث معرفي فلسفي يبحث عن ضمان ومتابعة واستمرار هذه الهوية،لذلك كان البحث في الهوية الإسلامية بحث علمي،و فكري،ومعرفي،نسعى من خلاله لتعميق مفهوم الهوية،هو صنع لهذه الهوية لتميزها عن غيرها،لذلك اخترنا القرآن الكريم كمنطلق،لأنّه تختلف المنطلقات في تحديد مفهوم الهوية.

والبحث عن الهوية،هو بحث عن تفاصيل،ومميزات،وملامح الهوية التي نسعى لاستخراج معالمها من القرآن الكريم.

المطلب الثاني:مفهوم الهوية:

يمثل ضبط المفهوم اللبنة الأساسية التي يتكون منها أيّ حقلٍ من حقول المعرفة وهو جزء من المنهج وأداة له،لذلك يجدر بنا أن نضبط مفهوم الهوية لغةً و اصطلاحاً،قبل أن نعرّج لضبط مفهوم الهوية الإسلامية،لأنَّ ضبط المفاهيم يشكل الوعاء الذي تطرح من خلاله الأفكار،فإذا اضطرب ضبط هذا الوعاء اختلت دلالاته و تميعت معطياته واهتزت قيمه ،والتبست معانيه لذلك يعتبر ضبط المصطلحات والمفاهيم نقطة جوهرية،حتى نتجاوز التباس المفاهيم واختلاطها بغيرها؛إذ يبقى ضبط جهاز المفاهيم الركيزة الأساس لأيّ

شرعيــة مصطلحية.ويبقى المدخل اللغــوي أساسياً في كل محاولة للتعريف،ومن هنا فتعريف الهوية لغوياً يفرض نفسه بقوة.

الهويــة لغة:بفتــح الهــاء في المعاجــم العربيــة القديمــة وردَت بمعنى:الهُوّة:الحُفــرة الْبَعِيــدَة القَعْر،وَهــي المَهواة[1] البئر أو الحفــرة البعيدة القعر "بئر بعيــدة المهواة"،وقيل:هي تصغــير كلمة(هوة)،وهي:"كل وهدة عميقة".[2] وتأتي الهَويّةُ بمعنــى موضعٌ يَهْوِي مَنْ عَلَيْه أي:يَسْقُط؛يصِفُ فوتَ الأمرِ وصعوبتَه بِقَوْلِه:عَرْش هَوِيّة.[3]

أما كلمة –الهُوية- بضم الهاء، فهي كلمة جديدة طارئة على اللغة العربية ،لذلك تخلو المعاجــم العربيــة القديمــة تخلو من كلمة الهُويــة- بضم الهاء-،ولا نجد هــذه الكلمة إلاّ في المعاجــم الحديثة ومع ذلــك فإنّها قد استقرت كمصطلح له دلالته.جــاء في المعجم الفلسفي أنّ مصطلح "الهوية" ليســت عربيا في أصله،وإنما اضطر إليهــا بعض المترجمين فاشتق هذا الاســم من حرف الربــاط أعني: الذي يدل علــى ارتباط المحمول بالموضــوع في جوهره،وهو حرف(هو)"[4]

(١) تهذيــب اللغة:الأزهري،تحقيق:محمــد عوض مرعــب،ط.الأولى،٢٠٠١ دار إحيــاء الــتراث العربي،بيروت ٦/ ٢٦١،القامــوس المحيط:الفيروزآبادى،تحقيق:مكتــب تحقيق التراث في مؤسســة الرسالة،بإشراف:محمد نعيم العرقسُوسي،ط.الثامنة،١٤٢٦هـ،٢٠٠٥م،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،ص:١٣٤٧،تاج العروس من جواهر القاموس:الزَّبيدي،تحقيق :مجموعة من المحققين،دار الهداية،٤٠/٣٢٣.

(٢) لسان العرب:ابن منظور،ط٣،بيروت، ٢٠٠٤،دار صادر للطباعة والنشر، ١٥/١١٦-١١٧.المعجم الفلسفي،مجمع اللغة العربية؛ ،المطابع الأمرية،القاهرة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،ص: ٢٠٨.

(٣) لســان العرب:ابــن منظور،٦/٣١٦،مجمــل اللغة:ابــن فارس،دراســة وتحقيق:زهــير عبــد المحســن سلطان.ط.الثانية،١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

،مؤسســة الرسالة،بيروت١/٦٥٨الصحــاح تــاج اللغــة وصحــاح العربية:الجوهري،تحقيق:أحمــد عبد الغفور عطار،ط.الرابعــة ١٤٠٧ هــ،١٩٨٧م،دار العلــم للملايــين ،بيروت،٣/١٠١٠،دســتور العلماء،جامــع العلــوم في اصطلاحــات الفنون:القاضــي عبد النبي بن عبد الرســول الأحمد نكري،عرب عباراتــه الفارسية:حسن هاني فحص،ط.الأولى،١٤٢١هــ،٢٠٠٠م،دار الكتــب العلميــة، لبنــان،ب بيروت،٣/٣٣٠،معجم مقاييــس اللغة:ابن فارس،تحقيق:عبد السلام محمد هارون١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م،دار الفكر،٤/٢٦٦.

(٤) موسوعة علم السياسة:ناظم عبد الواحد الجاسور،ط،١،٢٠٠٤ ،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،عمان،الأردن،ص: ٣٨٤؛المعجــم الشامــل لمصطلحــات الفلسفة:عبــد المنعــم الحفني،ط٢٠٠٠،٣،مكتبــة مدبولي،القاهرة،صــ: ٩١١؛موسوعة كشاف اصطلاحــات الفنون والعلوم:علي التهانوي،تقديم وإشــراف ومراجعة:رفيق العجم،ط١، ١٩٩٦لبنان،بيروت، ٢/١٧٤٥-١٧٤٦؛المعجم الوجيز،مجمع اللغة العربية،القاهرة، ١٩٩٧، ص:٦٥٤.

الهويـة اصطلاحـا: :"إنّ الهويـة وجـود وماهيـة،وفي المجـال البشري،مجـال الحيـاة الاجتماعية على الأقل،الوجود سابق للماهية دوماً،الشيء الذي يعني أنّ الماهية ليست معطى نهائياً؛بل هي شيء يتشكل،بشيء يصير".(١)

والهويـة في معناها المجرَّد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة،تستقلُّ بهـا الـذات عـن الآخـر، فبغيـاب هـذه العلامـات والخصائص تغيب الذات وتـذوب في الآخر،وبحضورها تحضر.(٢)

والهُويَّة:إحساس الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكيَّاته وأفكاره في مختلف المواقف.(٣)

و في كشـاف اصطلاحـات الفنون:"هويّـة الشيء تعيّنه ووحدتـه وخصوصيّته ووجوده المتفرّد له كلّها واحدة".(٤)

وعرفهـا بـركات حليم:"بأنّها وعـي الإنسان وإحساسـه بانتمائه إلى مجتمـع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام،إنّها معرفتنا بما،وأين،ونحن،ومن أتينا،وإلى أيـن نمضي،ومـا نريـد لأنفسنـا وللآخرين؟وبموقعنـا في خريطـة العلاقـات والتناقضات والصراعات".(٥)

لذلـك تقـوم هويـة كلّ أمـة علـى مـا تتميز به عـن غيرها مـن الأمم كدينهـا ولغتها وقوميتهـا وتراثها(٦)،ومـن ثـمَّ يمكـن القـول:إنّ الهوية هي الكيفيـة التي يُعَـرِّف الناس بها ذواتهـم أو أُمَّتهم،وتُتَّخـذ اللغة والثقافـة والدين أشكالاً لها؛فهي تنـأى بطبعها عن الأحادية

(١) مسألة الهوية:العروبة والإسلام والغرب:عابد الجابري،ط٢ ، ١٩٩٧،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،ص: ١٠.

(٢) اللغة والدين والهوية:عبد العلي الودغيري،الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٠، ص: ٦٧ .

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة:أحمد مختار عمر ،ط.الأولى١٤٢٩هـ٢٠٠٨،عالم الكتب،٣/ ٢٣٧٢.

(٤) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم:علي الفاروقي،تقديم وإشراف ومراجعة:د.رفيق العجم،تحقيق:علي دحروج،نقل النص الفارسي:د.عبد الله الخالدي،الترجمـة الأجنبية:د.جورج زيناني،ط.الأولى١٩٩٦م،مكتبة لبنان ناشرون،١/ ١٠١٠.

(٥) المجتمـع العربـي في القـرن العشرين،بحث في تغير الأحـوال والعلاقات:حليـم بركات،مركـز دراسات الوحدة العربية،لبنان،ص: ٦٢.

(٦) العولمة وعالم بلا هوية : محمد المنير، ط١ سنة ١٤٢١، دار الكلمة ، مصر ،ص: ١٤٦.

والصفاء،وتنحـو منحـى تعدديًّـا تكامليًّـا إذا أُحسـن تدبيرها،ومنحى صداميًّـا إذا أُهملت وأُسـيء فهمها،تستطيع أن تكون عامل توحيـد وتنمية، كما يمكن أن تتحوَّل إلى عامل تفكيك وتمزيق للنسيج الاجتماعي، الذي تؤسِّسه عادة اللغة الموحدة.[1]

الهوية تجمع كل هذه المعاني:هي الذاتية و الخصوصية و هي القيّم و المثل و المبادئ،هي العقيـدة و اللغـة و الثقافـة و الحضـارة والتاريخ،وكذلك هـي الوعي بالـذات الاجتماعية و الثقافية التي تشكل الأساس و النخاع للشخصية الفردية أو المجتمع...على الرّغم من محاولة الوقـوف علـى مفهوم الهويـة،إلاّ أنّ هـذا المفهوم مـازال محاطاً بكثير مـن الغموض،وسوء الفهم وسراب الوهم،وذلك بسبـب الخلط المضطرب بين الأبعاد،والمستويات،والعناصر،وال علاقـات، والأنماط ،والصور المتعددة المتنوعة للهوية،وتمثيلاتها،وتأويلات معانيها ودلالاتها المختلفة،لذلـك يبقى هذا المفهوم شديد التعقيد بما ينطوي عليه من عناصر،وأنساق،وأبعاد متشابكة،ودلالات متعددة.

وبعد هذه الإطلالة في مفهوم الهوية عموماً،كان لابد من ضبط مفهوم الهوية الإسلامية لأهميـة المفاهيم وخطورتها في إحداث التغيير الفكـري والتحول الحضاري الذي ننشده،لأنّ توضيحهـا يجـب أن يأتي في مقدمـة الأولويات؛فأول مـا تصاب بـه الأمم في أطوار وهدتها الحضارية مفاهيمها؛والمفاهيم أول ما يتأثر بعمليات الصراع الفكري.

وعليه فالهوية الإسلامية هي كل ما يميز المسلمين عن غيرهم من الأمم الأخرى،وقوام هويتهـم هـو الإسلام بعقيدتـه وشريعته وآدابه ولغتـه وتاريخه وحضارتـه المشتركة بين كل شعوبه على اختلاف قومياتها.

فالهوية عند المسلمين هي الإسلام بعقيدته وشريعته وتاريخه وحضارته ولغته هو هوية مشتركة لكل مسلم، كما أنّ اللغة التي نتكلم بها ليست مجرد أداة تعبير ووسيلة تخاطب،وإنّما هي:الفكـر والذات والعنوان؛بل ولها قداسة،التي أصبحـت لسانه بعد أن نزل بها نبأ السماء العظيـم، كمـا أنّ العقيدة التـي ندين بها ليست مجـرد أيديولوجية وإنمّا هـي: العلم الكلي والشامـل والمحيط،ووحـي السماء، والميزان المستقيم، والحق المعصـوم الذي لا يأتيه الباطل

(١) الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم،ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي،إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية:رشيد بلحبيب،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،ط.الأولى،بيروت،٢٠١٣،ص: ٢٤٨.

مـن بين يديه ولا من خلفه، وهـي منظومة القيم التي تمثل مرجعيتنا في السلوك، فهي ليست نسبية ولا مرحلية.[1]

الهويـة الإسلامية:الإيمان بعقيدة هذه الأمة،والاعتـزاز بالانتماء إليها،واحترام قيمها الحضاريـة والثقافية،وإبراز الشعائـر الإسلامية،والإعزاز بالانتمـاء والتمسك بها والشعور بالتمييـز و الاستقلالية الفردية والجماعية،والقيام بحـق الرسالة،و واجب البلاغ،والشهادة علـى الناس وهـي أيضا محصلة ونتاج التجربة التاريخية لأمـة من الأمم،وهي تحاول إثبات نجاحها في هذه الحياة.[2]

المطلب الثالث:أهمية البحث في الهوية الإسلامية:

و علـى الرغم من كثرة الكتابات في موضوع الهويـة، يبقى البحث في موضوع الهوية من القضايـا الأساسية التـي شغلت المثقفـين في العالم،فالهوية قضية محوريـة، وعنصراً هاماً واستراتجياً،سواء على الصعيد الأمني أو التنموي.

فمعظـم البحوث التي اشتغلـت على مقاربة موضـوع الهوية تزعم أنّهـا وضعت الخطة والعـلاج المناسب لدفع الشبهات والشكوك،والوقوف أمام زحف العولمة،والفاضل الذكي يعلم أنّ الشبـه والشكـوك زادت والأمـة ضاعت،ونسي هؤلاء أو تناسـوا أنّ الشفاء والهدى والعلم واليقـين يكون في كتاب الله تعـالى وكلام رسوله،ويدركون حتماً أنّ الإسلام الدين الحضاري الوحيـد الذي يملـك أدوات المعارضة،والمواجهة لعولمة الحضارة،لأنّه يملـك البدائل الأنسب التـي تتوائم مع فطرة الإنسان،اعتقاداً،وأخلاقاً،ومنهجاً ... والمتأمل في البحوث التي تناولت موضوع الهوية و طريقة معالجتهم للهوية الإسلامية خاصة،يرى تبنيهم لكثير من النظريات والمناهـج الفلسفية،باعتبـار أنّ مفهوم الهوية مفهوم إشكالي ذو أبعـاد شائكة متداخلة فيما بينهـا لتعـدد الاتجاهات،والحقـول المعرفية التي تناولـت مفهـوم الهوية،فكان،منها الثقافي ،والفلسفي،والنفسـي، والأنثربولوجي،والاجتماعي...في حين أنّ التناول القرآني يقربنا أكثر

(١) مخاطر العولمة على الهوية الثقافية: د.محمد عمارة،ط.الأولى، ١٩٩٩م،دار نهضة مصر للطباعة والنشر،ص: ٤٦.

(٢) الهويـة الإسلامية في زمـن العولمة:د.خليل نوري مسيهـر العاني،ط.١،١٤٣٠،٢٠٠٩،ديوان الوقف السني، مركز البحوث والدراسات الإسلامية،العراق،ص:٤٥.

مـن لب الموضـوع،كلّ ذلك حفزني لخوض غمـار البحث ،ورأيت أقرب الطـرق لتبيت الهوية طريقة القرآن الكريم.

إنّ الهويـة الإسلاميـة تتعرض لسلسلـة الهجمـات الشرسة،والتحديـات الكبـيرة والخطيرة،ممّـا أدخلها في دوامـات من الصراعات والتناقضـات أحياناً،من أجل المحافظة علـى هويتها في عالم يتسم بالتغير،كلّ ذلـك جعلها تقف على مفترق الطرق،إما أن تذوب في الثقافات الأخرى،وتستسلم للثقافات الغازية،أو أن تصمد بأصولها وثوابتها.

المطلب الرابع:لماذا البحث عن الهوية الإسلامية من القرآن؟

لعـل من أعظم الإشكاليات التي تاه فيها الفكـر العربي المعاصر هو سؤال المرجعية؟إلى أي حـدّ يمكـن أن نقرأ المواقف المختلفة والـرؤى المتعدّدة والتّصورات المتباينــة التّي يعجّ بها الفكـر الإسلامي المعاصر حول تحديد مفهـوم الهوية؟إذ مازال الفكر العربي يطرح التساؤل نفســه خلال السنوات الأخيرة ضمن إطاريْن ضيقين ومستويين أحاديين،فإمّا أن تنفتح على الآخـر في شـكل كامل ومكتمل مع الغرب،وإمّـا أن تنغلق في إطارٍ محـدّد وثابت ،له مرجعيته الحضارية والثقافية.

فـلا الإقبال الشغـوف واحتضان المنجز الغربـي بكامل صوره وكأنّــه معطى مصمت لا يتفـاوت،ولا التضايق والتضييق والتعنـت والعدمية والرفض،قد أفاد،وبـين هذين الإطارين المتجاذبـين هل نستطيع بلورة خطـاب جديد يحاول أن يسـاءل مفهوم"الهوية الإسلامية في زمان العولمة"شرعياً بعيداً عن التهريج و خارج التبعية للغرب والشرق معاً.

كلّ ذلـك يحيلنـا إلى السّـؤال المعـرفيّ الذي نريـد التأسيس له في الحقيقـة هو سؤال منهجي نظراً للتباين والاختلاف في المرجعيات التي اعتمدها روّاد الفكر المعاصر كمرجعيّات تحـدّد طبيعة مواقفهم تجاه الهويـة المطروحة في مجتمعاتنا الإسلاميّـة الرّاهنة ؟،وفي ظل منعطـف العولمـة الذي يعيشه مجتمعنا اليوم ،نحن بحاجة لمرجعيّـة عليا ثابتة،هي مرجعيّة القـرآن والسّنة؛قـال رسول الله ﷺ:" تركت فيكم أمرين لن تضلـوا ما تمسكتم بهما:كتاب

الله وسنــة رسوله ".[1] لذلـك نعتبر القرآن الكريم هو الهُوية التي يَشرُف بها المؤمن ويزداد بهـا عـزًّا ؛قال تعالى:﴿لَقَـدۡ أَنزَلۡنَا إِلَيۡكُمۡ فِيـهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾،[2]أي: فيـه شرفكم كما يقول ابن عباس - رضي الله عنهما[3]

وقـال القرطبـي: "القُـرۡآنُ شريفٌ في نَفسه لإعجـازه واشتماله على مـا لا يشتملُ عليه غيره"[4]، وقد قال الله تعالى لنبيه:﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾[5]،والمراد بكون القرآن ذي الذكر أي:ذي شرف .[6]

إنّ القـرآن كان يحرص على تثبيت الهوية الإسلامية لأتباعـه،وأن تكون لهم شخصية استقلاليـة فـلا يجـرون وراء كل لاهـث،ولا يسمعـون لـكل ناعق،فمنهجهـم يحفـظ لهـم شخصيتهـم وتمييزهم عـن بقية الأمم،قال تعـالى:﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗـا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُـواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُـم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[7]؛قال عبد الله بن مسعـود رضـي الله عنه:خط لنا رسـول الله ﷺ خطًا ،وخط خطوطًا عـن يمينه وشماله،ثم قال:هـذا سبيل الله وهذه سبل علـى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه[8]ثـم قرأ:﴿وَأَنَّ هَـٰذَا

(١) الموطـأ :مالك بن أنس،تحقيق:بشار عـواد معروف،محمود خليل١٤١٢هـ،مؤسسة الرسالة رقم الحديث:١٨٧٤، ٢/٧٠. قـال الألباني:حسـن ،مشـكاة المصابيح:الخطيـب التبريزي،ط.الثالثـة ،١٤٠٥،١٩٨٥،المكتب الإسلامي،بيروت،تحقيق:الألباني١/ ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء،الآية:١٠.

(٣) تفسـير ابـن أبي حاتم، تحقيـق أسعد محمـد الطيب،ط.الثالثـة ١٤١٩ هـ،مكتبة نزار مصطفـى الباز ،المملكة العربيـة السعوديـة ٨/ ٢٤٤٦،معـالم التنزيل في تفسـير القـرآن :البغوي،تحقيق:حققه وخـرج أحاديثه محمد عبـد الله النمر،عثمان جمعـة ضميرية،سليمان مسلم الحرش ط.الرابعة، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م،دار طيبة للنشر والتوزيع١/٢٧٨.

(٤) تفسير القرطبي،١٥/١٤٤.

(٥) سورة الزخرف،الآية : ٤٤.

(٦) اللباب في علوم الكتاب ١٦/ ٣٦٥.

(٧) سورة الأنعام،الآية: ١٥٣.

(٨) جامـع البيـان عـن تأويـل آي القرآن الطـبري، ٩/ ٦٧١،تفسـير ابن أبي حـاتم ٥/ ١٤٢١،مفاتيـح الغيب:فخر الديـن الرازي،ط. الثالثة، ١٤٢٠هـ،دار إحياء التراث العربـي بيروت،١٥٨/١٤،التدمرية:ابن تيمية ،تحقيق:د. محمـد بن عـودة السعوي،ط.السادسة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م،مكتبـة العبيكان،الرياض،ص:٢٣٨، قاعدة جليلة في التوسـل والوسيلة:ابـن تيمية،تحقيق:ربيع بن هادي عمير المدخلـي،ط.الأولى ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١هـ مكتبة الفرقان ،عجمان،ص:٢٨.

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية؛قال القرطبي في تفسير هذه الآية: "وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع،وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ، ومظنة لسوء المعتقد ؛ قاله ابن عطية".[١] وقال ابن تيمية: "إذا اعتصم بالكتاب والسنة هداه الله إلى صراطه المستقيم،فإنّ الشريعة مثل سفينة نوح عليه السلام،من ركبها نجا،ومن تخلف عنها غرق"،[٢]لذلك كان الرجوع إلى القرآن الكريم بوصفه عاملاً رئيساً من عوامل تثبيت هوية الأمة المسلمة،لأنّ الله عز وجل يقول في محكم تنزيله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٣] ،فهذه نكرة في سياق النفي وزيدت عليها "مِن" فدل على أنها نصٌ في العموم؛قال ابن عادل[٤]:وعلى هذا فهل العُمُومُ بَاقٍ؟منهم من قال:نعم إنّ جميع الأشياء مُثْبَتَةٌ في القرآن إمَّا بالصريح،وإمَّا بالإيمَاءِ.وفَرَّطْنَا تضمن معنى ما أغفلنا وما تركنا،لأنّ التفريط يأتي بمعنى التقصير فحقه أن يتعدى بفي،فيكون قد ضمن ما أغفلنا وما تركنا،ويكون "من شيء" في موضع المفعول به و"من" زائدة،لأنّها سبقت بنفي والمعنى:ما تركنا وما أغفلنا في الكتاب شيئاً يحتاج إليه الإنسان،ويبعد جعل من هنا تبعيضية وأن يكون التقدير ما فرطنا في الكتاب بعض شيء يحتاج إليه المكلف. وجاء عن ابْنِ عَبَّاس،قَوْلَهُ:﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَاب مِنْ شَيْءٍ﴾ يعْنِي:مَا تَرَكْنَا شَيْئًا إِلَّا قَدْ كَتَبْنَاهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ؛[٥] وقال الطبري: "إِنَّ مَعْنَاهُ: مَا ضَيَّعْنَا إِثْبَاتَ شَيْءٍ مِنْهُ".[٦]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن:القرطبي،تحقيق:هشام سمير البخاري،ط. ١٤٢٣هـ،دار عالم الكتب،المملكة العربية السعودية،١٣٨/٧.

(٢) درء تعارض العقل والنقل:ابن تيمية ،تحقيق:الدكتور محمد رشاد سالم،ط.الثانية، ١٤١١هـ ،١٩٩١م،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية،١/ ٢٣٤.

(٣) سورة الأنعام،الآية:٣٨.

(٤) اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل،تحقيق:الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض،ط.الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م،دار الكتب العلمية ،بيروت / لبنان،١٢٦/٨.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر الطبري،تحقيق:الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي،بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة،ط.الأولى،١٤٢٢هـ،٢٠٠١م،دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان،٩/ ٢٣٥، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:ابن أبي ، ٤/ ١٢٨٦.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر الطبري،٩/ ٢٣٤.

مـن أجل ذلـك كانـت رسالة الإسـلام محصلـة حضارية بنيـت علـى أركان العقيدة الإسلاميـة التي جعلها الله دينه الخاتم وبعث خاتم النبيـين ﷺ،لذلك نريد أن نقنع المسلم بأنّه يعتنق أكمل الأديان وأعدلها،وأنّ مبادئ هذا الدين وأحكامه ومثله ومقاييسه هي المبادئ الكفيلـة بإسعـاد الفرد والمجتمع،كما نعمل على إقناع غير المسلـم بهذا المعنى حتى لا يتصور الإسـلام دعوة عصبية أو قاصرة عمّـا يكفل الحياة السعيدة للناس،وأنّ يعرف أن ما جاء به الإسـلام إنّما هو برنامج عملي إصلاحـي للبشرية كافة؛قال تعالى:﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.(١)

قـال محمـد حبش:"ونتيجة لختـم النّبوة يلزم أن تكـون صالحة لكل زمـان ومكان،وأن تكـون الرسالة لجميع البشر تحقيقـا للعالمية."(٢)لذلك ندعو لضـرورة فهم عالمية الخطاب القرآني،فنحـن أمام خطاب إلهي في القرآن الكـريم يمضي متدرجاً من العائلية إلى القبلية ثمّ إلى الأممية ثمّ إلى العالمية،ذلك أنّ القرآن يمثل منهجاً متكاملاً،له مميزاته وخصائصه التـي يتفـرد بهـا دون سائـر المناهـج والأنظمـة والقوانـين الأخـرى،لأنّ القـرآن كلام الله تعالى،الذي قـال:﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِـيرُ ﴾(٣)،وغيره من المناهج والمبادئ كلام البشر،الموصوفين؛بالنقص.

لذلـك كان القـرآن وما وزال هـو أساس ومنطلق الهوية الإسلاميـة في جانبها العلمي والمعـرفي والتشريعـي،وكل المصادر الأخرى تستمد حجيتها منه،و هذا هو شأن أهل السنة في تعهد القرآن تلاوةً،وحفظاً وتفسيرا ،وسلوكاً..

(١) سورة الأنبياء،الآية: ١٠٧.

(٢) القـراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني والأحكام الشرعية:محمـد حبش،ط١٤١٩،١هـ١٩٩٩م،دار الفكر دمشق،ص: ١٩٧.

(٣) سورة الملك،الآية: ١٤.

المطلب الخامس: ما أهمية العودة إلى القرآن الكريم في حل مشكلات الهوية:

نلجأ إلى القرآن لأنّه شفاء، كما أخبرنا الله عز وجل في القرآن الكريم ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾.[1] يقول ابن القيم رحمة الله عليه: "فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن".[2]

فهو كتاب جعله الله شفاء لما في الصدور وأدواء النفوس، وموعظة لها، يشفى من الوساوس والشكوك و ويداوي من أمراض الشبهات والشهوات.. وضلالات العقول، فيشفي به من الشبهة ويهدي به من الحيرة.[3]

وهذا الشفاء يمتد من الفرد إلى الأمة في أمراضها الاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية وغيرها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛[4] يقول ابن القيم: "جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها...، فهي لحم جمل غث

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: ابن قيم الجوزية ،تحقيق: مُحَمَّد أجمل الإصْلاَحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري ،ط. الأولى، ١٤٢٩، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة، ص: ٦.

(٣) الكشف والبيان: النيسابوري، تحقيق: ابن عاشور، ط. الأولى ١٤٢٢ ،هـ ٢٠٠٢ م دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ٦/١٢٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ٥٧.

علــى رأســ جبل وعر لا سهــل فيرتقى ولا سمــين فينتقل،فليس عندهــم إلا التكلف والتطويل والتعقيد،أما القرآن فهو أصح تقريراً وأحسن تفسيراً". [١]

ولا مانعَ من حَمْله على المَعْنَيَيْن شفاء للقلوب والأمراض من باب عموم المَجَاز،أَوْ من بَاب حَمْل المُشْتَرك عَلَى مَعْنَيَيْه؛قال الشوكاني: "فيه مِنَ الْعلوم النَّافعة المشتملة على ما فِيه صلَاح الدِّيــن وَالدُّنيا" [٢]،لذلك يبقــى القرآن هو المنهج الوحيد الكفيــل بتحديد الهوية الحضارية للمسلم،فيصبــح الكتــاب والسنة،مصــدري المعرفة والتربيــة والثقافة والأخــلاق، كما هما مصــدرا التشريع،وهمــا المرجعيتان اللتان يجب أن تحكما الحياة،ليســ الإنسان والواقع كما تزعم العولمة،ولكن للأسف الشديد نجد كثير من المسلمين ضيعوا وعطلوا مهمة القرآن حين اكتفــوا منه بمجرد التــلاوة ؟ وأعرضوا عن كتاب ربهم،ولعل الشقاء والضنك الذي تعيشهما الأمــة اليوم نتيجة لإعراضها عــن كتاب ربها؛يقول الله تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٣]؛قال ابن القيم: "والصحيح:

أَن ذِكْــرَهُ الَّذي أَنزَلَهُ على رسوله ﷺ – وهــو كتابه – مَنْ أَعْرَضَ عنه: قَيَّضَ له شيطانًا يُضِلُّه وَيَصُدُّهُ عن السَّبيل وهو يَحْسَبُ أَنَّهُ على هُدًى". [٤]

فلذلك نسعى من خلال هذه الورقة البحثية كيف نعيد فهم الهوية الإسلامية في زمان المتغيرات لتكون علاجاً شافياً لما نعاني منه من أزمات،وفق منهج القرآن الذي يعتبر دستور الأخــلاق الحميــدة و حصن العقيدة السليمــة، وهو السبيل الذي علينــا اتبعه والله عز وجل يقول في محكم تنزيله:﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾. [٥]

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان:ابن القيم الجوزية،تحقيق:حامد الفقي،ط.الثانية، ١٣٩٥، ١٩٧٥دار المعرفة، بيروت،١/٤٤.

(٢) فتح القدير:محمد بن علي الشوكاني ،ط.الأولى ١٤١٤ هـ،دار ابن كثير،دار الكلم الطيب،دمشق، بيروت،٣/٣٠٠.

(٣) سورة طه،الآية: ١٢٣ – ١٢٤.

(٤) مــدارج السالكــين بــين منــازل إيــاك نعبــد وإيــاك نستعين: ابــن قيــم الجوزية،تحقيق:محمــد المعتصم بالله البغدادي،ط.الثالثة، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦م ،دار الكتاب العربي،بيروت،٢/٤٨٠.

(٥) سورة الإسراء،الآية:٩.

قال قتــادة: "إنَّ هَذَا القــرآن يدلكم على دائكـم ودوائكم"؛وقــال الطبري: "ويسدد من اهتدى به للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل"[1] ؛وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وما أحســن ما وصف الله به كتابه بقوله: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ فأقوم الطريق إلى أشرف المطالب".[2]

وقـد دعانــا للاعتصــام به؛فقــال عــز مــن قائل:﴿وَاعْتَصِمُــوا بِحَبْـلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾.[3] وحبل الله هو القرآن.[4]

إنّ هــذا القــرآن يخرجنا مــن التيه الذي نتخبط فيــه إلى الرشاد،ومــن الضَّلَالَة إِلى الهدى،ومن الكفر إِلى الإِيمَان وَمن الغواية إِلَى الرشد، كما قال السمعاني في تفسيره.[5]

وقـد أخـبر المولى عز وجـل أنّ هذا القــرآن أنزلــه الله ليخرج البشرية مــن الظلمات إلى النور؛فقــال:﴿ كِتَــابٌ أَنْزَلْنَــاهُ إِلَيْــكَ لِتُخْــرِجَ النَّاسَ مِــنَ الظُّلُمَــاتِ إِلَى النُّورِ﴾[6]؛قال الطبري: "لتهديهــم به من ظلمات الضلالة والكفر إلى نــور الإيمان وضيائه، وتبصر به أهل الجهل والعمى سبل الرشاد والهدى".[7]

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢٣١٩/٧.

(٢) مجمــوع الفتاوى:تقــي الديــن بــن تيمية،تحقيق:عبد الرحمن بن محمــد بن قاسم ،١٤١٦هــ/١٩٩٥م ،مجمع الملــك فهــد لطباعة المصحــف الشريــف، المدينــة النبوية، المملكــة العربيــة السعوديــة٩/ ١٥٣،النبــوات: ابن تيمية،تحقيق:عبد العزيز بن صالح الطويان،

ط.الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م،أضواء السلف، الرياض،المملكة العربية السعودية٧٤٣/٢.

(٣) سورة آل عمران،الآية:١٠٣.

(٤) روائــع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجــب الحنبلي):ابن رجب البغدادي،جمع وترتيب:أبي معاذ طارق بن عوض الله بــن محمد،ط.الأولى ١٤٢٢،٢٠٠١ م،دار العاصمة،المملكة العربيــة السعودية٩٧/١،لباب التأويل في معــاني التنزيل:الخازن١٣٩٩هــ /١٩٧٩ م،دار الفكــر، بيروت،لبنان٣٩١/١،التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد:أبــو عمر بن عبــد البر،تحقيق:مصطفى بن أحمد العلوي،محمد عبد الكبــير البكري،١٣٨٧هـ وزارة عمــوم الأوقاف والشؤون الإسلامية،المغرب،٢٧٣/٢١،التَّفْسِيرُ البَسِيْط: النيسابوري،ط.الأولى، ١٤٣٠هـ،عمادة البحث العلمي،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،٤٧١/٥.

(٥) تفسير السمعاني ٣/ ١٠٢.

(٦) سورة إبراهيم،الآية:١.

(٧) جامع البيان ،١٣/ ٥٨٨.

وانظـر كيف سمى الله عز وجـل طرق الظلال بالظلمات،وكيـف سمى طريق الإسلام بالنور؛قـال السمعاني: "وإنَّمَا سمى الكفر ظلمات؛أَن طَرِيق الْكفْر مشتبه ملتبس، وَإِنَّمَا سمى الإِسلام نورا لِأَن طَرِيقه بيِّن وَاضح". (١)

و لما كانت طرق الضلال،والكفـر والبدع،الفرق المنحرفـة كثيرة،وطريق الحق واحد ،جـاء بلفظ الظلمات بصيغة الجمع ظلمات،وجاء بالإيمان ،بلفظ مفرد النور للدلالة على أن طرق الكفر والبدعة والجهل كثيرة،وأنّ طريق الخير ليس إلا الواحد. (٢)

ولاشـك أنّ أعظم ما يثبت الهوية في أبناء أمتنا اليوم،ويحميهم من التغريب والتذويب والطمس والتفلت،هو الرجوع إلى كتاب ربها،وهو المخرج من طوفان الفتن.

(١) تفسير السمعاني ١/ ٢٦٠.

(٢) مفاتيح الغيب:فخر الدين الرازي، ١٩/ ٥٩.

المبحث الثاني

هويتنا في خضم التحولات والعولمة

المطلب الأول:مفهوم العولمة:

بات مفهوم العولمة أشـدّ أنواع المفاهيم حضوراً في المشهد الثقافي والنقاشات والكتابات العلمية،وبـات الإقبال عليه من شتى أنواع العلـوم الاجتماعية،والسياسية،والثقافية،والأدبية ،والأنثربولوجيـة. إذ منذ تسعينيـات القرن العشرين والعالم يشهد فيضـاً من الكتابات عن العولمة،التي أصبحت بفضل ذلك الاهتمام الواسع موضوعاً ذات أهمية لجميع الدراسات،ومع ذلك يبدو من الصعوبة طرح تعريف جامع ومانع لهذه الظاهرة.

لا توجد في المعاجم العربية لفظ عولمة،لأنّها من المصطلحات الحديثة،ولا علاقة للعولمة بمفهـوم العلم،العولمة ثلاثـي مزيد،يقال:عولمة علـى وزن فوعلة،مشتق من كلمـة العالَم،كما يقال:قولبة،اشتقاقاً من كلمة قَالَب،إذاً كلمة "العولمة"

نسبـة إلى العَالم- بفتح العين-أي:الكون،وليس إلى العِلـم - بكسر العين- والعالم جمع لا مفـرد.. و يعتبر مصطلح العولمة مصطلحاً مطاطيـاً لذلك يتفاوت فهم الأفراد لمضامينها المختلفة؛فالاقتصادي يفهم العولمة بخلاف السياسي، كما أنّ عالم الاجتماع يفهمها فهمًا قد يختلف فيه عن المهتم بالشؤون الثقافية...

العولمـة: هي:"محاولة لفرض الفلسفة البراجماتية النفعية المادية العلمانية، وما يتصل بها من قيم وقوانين ومبادئ وتصورات على سكان العالم أجمع".(١)

أو هي:"تعميـم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة،وجعله يشمل الجميع أي العالم كله".(٢)

(١) الإسلام والعولمة:محمد إبراهيم المبروك وآخرون،الدار القومية العربية،القاهرة ١٩٩٩م،ص:١٠١-٩٩.

(٢) العرب والعولمة:الدكتور محمد عابد الجابري،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،ص: ١٢٧.

ويعـرّف د. محمـد عابد الجابري العولمة ؛بقولـه هي:"العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع" وهي أيضاً أيديولوجياً تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته".[1]

المطلب الثاني:صراع الهويات في زمان العولمة:

قـال تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[2]،وانظر كيـف عبر القرآن بالفعل المضارع الذي يدل على تجدد الإصـرار واستمرار العداوة من قبل الكفار[3]،وهـذا نلاحظـه في كثير من الآيـات مثل:(لا يزالون) و(ولـن ترضى) و(ما تخفي صدورهـم أكبر) ،وهـذه هـي الحقيقة الثابتـة والدائمة،ربمـا تختلف من عصـر إلى عصر فقط؛قال الرازي:"لا يزالون أي يدومون على ذلك الفعل لأن الزوال يفيد النفي فإذا أدخلت عليه:ما كان ذلك نفياً للنفي فيكون دليلاً على الثبوت الدائم".[4]

قال أهل التفسير:"هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه،غير تائبين ولا نازعين".[5]

على الرّغم من عدم انقطاع العداوة ومحاربة الكفار للمسلمين ،إلاّ أنّه ينبغي أن يطمئن كلّ من يتمسك بدينه ،وإسلامه،وعقيدته،وهويته،وثوابته،لأنّ القرآن قيدها بالاستطاعة؛قال الألوسي:"والتعبير بأن لاستبعاد استطاعتهم وأنّها لا تجوز إلا على سبيل الفرض كما يفرض المحال،وفائـدة التقييد بالشرط التنبيه على سخافـة عقولهم وكون دوام عداوتهم فعلا عبثا لا يترتـب عليه الفرض،وليس متعلقاً بلا يزالـون يقاتلونكم؛إذ لا معنى لدوامهم على العداوة إن استطاعوها لكنّها مستبعدة،وذهب ابن عطية إلى أنّ حتى للغاية والتقييد بالشرط حينئذ لإفـادة أنّ الغاية مستبعـدة الوقوع والتقييد بالغاية الممتنع وقوعهـا شائع كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّـى يَلِجَ الْجَمَـلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[6]وفيه أنّ استبعاد وقـوع الغاية ممّا يترتب عليه عدم انقطاع العداوة ".[7]

(١) المصدر السابق،ص: ١٣٦.
(٢) سورة البقرة،الآية: ٢١.
(٣) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية:محماس الجلعود،ط.الأولى،١٤٠٧هـ ١٩٨٧م،دار اليقين ٢/ ٥٩٧.
(٤) مفاتيح الغيب:فخر الدين الرازي ٣١/٦.
(٥) تفسير الطبري٣/٦٥٣، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٧.
(٦) سورة الأعراف،الآية: ٤٠.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:محمود الألوسي،دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢/ ١١٠.

والتعبير بإنّ استطاعوا استبعاد لاستطاعتهم،ولكنّها العداوة المتأصلة التي لا يرضيها إلا فناء الإسلام و القضاء على المسلمين،لأنّ عداوتهم لم تتوقف ولن تتوقف أبداً إلاّ في حالة واحدة كما بيّنه لنا ربنا في كتابه،ومن أصدق من الله قيلا: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[١] ،والقائل:﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾.[٢] وهم لا يرضون إلا حين ينسلخ المسلم من دينه مطلقا؛قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "انظر كيف قال في الخبر : "مِلَّتَهُمْ " ،وقال في النهي: "أَهْوَاءَهُمْ" ،لأنّ القوم لا يرضون إلاّ بإتباع الملة مطلقاً،والزجر وقع عن إتباع أهوائهم في قليل أو كثير،ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه،أو مظنة لمتابعتهم فيما يهوونه".[٣]

والكفر كله ملة واحدة ،فقد تمسك بهذه الآية جماعة من العلماء منهم أبو حنيفة والشافعي وداود وأحمد بن حنبل على أنّ الكفر كله ملة واحدة"[٤] ؛وهو القائل في محكم تنزيله:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾.[٥]

لقد أدرك أهل الكتاب قديماً وحديثاً خسارتهم لمعركة التحدي الكونية،بسبب فقد ديانة العهد القديم والعهد الجديد المقومات الذاتية اللازمة لقيادة الإنسانية والارتقاء بها حضاريًّا وأخلاقيًّا بسب تحريفهم وتبديلهم وكذبهم، وقد أدركوا أنّ الإسلام هو البديل الحضاري فعمدوا إلى إقصاء الإسلام عن الحلبة الكونية نهائيًا؛حتى يتسنى لهم قيادة السفينة وامتلاك مقدراتها بما يدّعون من حقٍّ إلهي مقدس.[٦]

---

(١) سورة البقرة،الآية:١٢٠.

(٢) سورة النساء،الآية:٨٩.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم:ابن تيمية،ط.السابعة،دار عالم الكتب، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م،ص:١٠٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن أبو عبد القرطبي ،تحقيق:هشام سمير البخاري،ط، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م،دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ٢/ ٩٤.

(٥) سورة البقرة،الآية: ١٠٩.

(٦) الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم:عبد الراضي عبد المحسن،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،ص:٨.

لذلـك كانت المواجهة مع الإسلام والصراع ضده هي السبيل لتحقيق ذلك الهدف،وقد اتخـذ ذلك الصـراع شكلـين أساسيين:هما الحـروب العسكرية التدميرية،وحـرب العقيدة والفكـر التـي تسعـى للنيـل مـن الإسلام،ونبيِّه،وكتابه،ونُظُمـه ومعتقداته،وشرائعه؛ هدف زعزعـة عقيدة المسلم وتشكيكه في دينه،ممّا يقود إلى الخروج من الإسلام وليس بالضرورة الدخول في النصرانية.

ورحـم الله ابـن القيـم القائل:"فلا تتعب ذهنـك بهذيانات الملحديـن فإنّها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين والله متم نوره ولو كره الكافرون".[1]

مازالـت تواجه العديد من الدول ومنهـا دول العالم العربي والإسلامي مشاكل وأزمات خطـيرة تهـدد وحدتهـا الوطنيـة بالانهيـار والاندثار،ولعـل من أخطـر هذه الأزمـات على الإطلاق؛بـل ربمـا أكثرها جدلاً أزمة الهوية،ومن هنا أصبحـت الهوية المحور الرئيس للأمم والشعوب،فقـد انفجرت صراعات عرقيـة وثقافية في شتي أنحاء العـالم تبيد وتدمر..حيث عمليـات الإبادة الجماعية علـى أشدها وعلى نحو غير مسبوق حربا على الهوية..وصدق الله إذ يقول:﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً ﴾.[2]

المطلب الثالث: العولمة والقضاء على خصوصيات الهويات:

في عصـر العولمـة فإنـه لا يسمح لأمة من الأمم تحمـل رسالة واضحة المعـالم أن تتميز بدينهـا، وهويتهـا، وقيمهـا، وعقيدتها..تميّـزًا يتعارض مع متطلبـات العولمـة، فضلًا عن معارضتهـا ومقاومتها؛فالفكرة الأساسية للعولمة هي البحث عن القدر المشترك بين الشعوب والحضارات،وإعادة صياغته بصورة تتواءم مع نتاج الحضارة الغربية.

إنّهم يروجون لفكرة الهوية العالمية التي تذوب معها وفيها كل الهويات الخصوصية،ويبقى الهـدف الأسمـى هـو القضاء علـى الهويـة الإسلامية،لذلـك تراهم يحرصـون في كتابتهم ومؤتمراتهـم وبحوثهم يستمتـون في الدفاع عن هوياتهم الخاصـة، ويتهمون المسلمين حينما

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة:ابن القيم الجوزية،دار الكتب العلمية ،بيروت ١/ ٢١٥.

(٢) سورة التوبة،الآية: ٨.

يتحدثون عن هوياتهم الإسلامية بأنّهم عدوانيون متسلطون يريدون محاربة العالم،وأنّهم متطرفون ومغالون ومتعصبون و في شعارهم هذا احتقار لمشاعر الغير،وأنّهم يرفضون الاندماج في العالمية الثقافية وأنهم لا يريدون التعددية الحضارية،وهم لا يفقهون التعامل مع الآخر والتفاعل معه.

إنّنا كمسلمين لا نحبذ الانغلاق على الذات،فالتعاون الحضاري ولاتصال الإنساني،مبدأ من المبادئ الجوهرية في تاريخنا الحضاري؛قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[(1)] لا يوجد في تاريخنا الحضاري مشكلة في التعامل مع الأطراف الأخرى،فهو دين أنزله خالق الناس،لا يفرق بينهم ولا يميز أحداً على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.ولكن المشكلة أنّ الآخر ينظر إلى الهوية الإسلامية بأنّها أصبحت من التراث الغابر،وعندما ننخدع بمثل هذه المقولات يطلع علينا بأطروحات جديدة أو متسربلة بأقنعة مختلفة ، تبرر تأكيد الهويات الدينية والثقافية غير الإسلامية،ومن هذا المنطلق لا يعد الحديث عن أزمة الهوية واللغة ترفاً فكرياً،أو جدلاً فلسفياً،بل هو أمر جاد يتعلق بطبيعة الصراع المصيري للأمة مع خصومها..

إنّ العولمة تستهدف القضاء على الهوية الإسلامية للأمة،لتصبح مسخا مشوها مفتقدا لكل مقوماتها وثوابتها العقدية و الحضارية،ومن تمّ يسهل عليه مسخه،أو على الأقل دمجه في حظيرة الأمم التابعة.

إنّ عملية التواصل والتثاقف واكتشاف الذات تمرّ عبر التحاور مع الآخر،ولما كانت هذه العملية هي أخذ وعطاء بين الحضارات البشرية المتعددة،فهذه العملية تقف أمامها عوائق فالعولمة تدعو للانفتاح المطلق للأمم والشعوب الذي يؤول في النهاية إلى الانصهار في ثقافة الآخر والقضاء على الخصوصيات،وبين انغلاق المطلق للهويات القومية والوطنية والذي يؤول إلى الانعزال تماماً عن الآخر والعالم بأسره.

لقد سارعت العولمة إلى إفراغ الهويات من محتوياتها وخصوصياتها وتأمرت للقضاء عليها خاصة الإسلامية منها حين اكتسحتها و هي مشحونة بإرادة الهيمنة،فإنّها تحولت

(1) سورة الحجرات،الآية: ١٣.

إلى أيديولوجيا قمعية وهي تسعى إلى أمركة العالم وتقسيمه إلى مركز وأطراف، بفرض الحراسة والعقاب على المعتقدات والاستثمار في القيم المقلوبة.

وعلى الرّغم من التحذيرات من محاولة طمس الهويات؛إلاّ أنّ واقعنا ينذر بخطر شديد فيما يخص تمييع هويتنا الإسلامية،والتي تتعرض لاختراقات وهجمات لسلب خصوصياتها،وطمس ومسخ الهوية الإسلامية من الوجود وذلك باتهام المسلمين ومصادر تشريعهم،من قبل الآخر على مختلف توجهاته.

المبحث الثالث

معالم الهوية في الثوابت القرآنية :

نحـن بحاجة إلى حملة كبيرة لاستعادة الهويـة الإسلامية والتأكيد على استقلاليتها ،في ظل ما تتعرض له ،لذلك نحاول في هذه المداخلة مقاربة موضوع الهوية الإسلامية من القرآن الكـريم باعتباره أحـد الأبعاد الأساسية و الحساسة لأيّ مجتمـع قائم بذاته محافظ على خصوصياتـه ،ولأنّ القرآن الكريم والسنة المطهرة هما المرجعتان ومصدرا الحياة العقائدية والتشريعية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، وإليهما يُرّجع عند الاختلاف﴿ فَـإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .[١]

المطلب الأول: هويتنا الإسلام:

في ظل سيطرة الحضارة المادية اللادينية:يعتبر الدين الإسلامي أساس الهوية،ذلك أنّ الإسلام هو العمود الفقـري لشخصيتنا ،وأساس هويتنا .فهو الانتماء الحقيقي، ومحور حياة المجتمـع والرمز وهو مـن الثوابت،والدين الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ .[٢]

ولكـن عندمـا ضعـف التمسـك بهذا الديـن والالتزام بـه في نفوس أفـراد الأمة ظلّت وتاهت،وأصبحت تبحث عن الهوية المفقودة ،إنّ الهوية التي يعتز بها المسلم،والتي جاء القرآن يرسم معالمها هـي الإسلام باعتبارها فطرة الله التي فطر الناس عليها؛قال تعالى:﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَـنْ أَحْسَنُ مِـنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾،[٣]وذلك بحكم أنّنا مسلمـون أولاً وأخيراً ،ولأنّه ليس من

(١) سورة النساء ، الآية:٥٩.

(٢) سورة آل عمران،الآية:١٩.

(٣) سورة البقرة،الآية: ١٣٨.

الممكن أن نختار غير الإسلام هوية ونظلّ مع ذلك مسلمين،فنحن حينما ابتغينا الإسلام ديناً، فقد ارتضيناه هوية[1]،فالهوية الإسلامية هو الشرف التي نطلبه وننتمي إليه وندافع عنه و ننطوي تحته.

إنّ هويتنا هي الإسلام،وأنّ الإسلام هو القاسم المشترك الوحيد لأمة متكاملة تتفق عليه وتلتقي عنده فلا الأرض ولا اللغة ولا التاريخ ولا شيء آخر يمكن أن يكون بديلاً عن الإسلام،وذلك لأنّ الإسلام هو الهوية الراسخة في نفوس أفراد الأمة،والذي يهدي رؤيتهم إلي مختلف القضايا،ويعطيهم الوعي الصحيح والرؤية الواضحة والزاد الحقيقي في مواجهة أعداء الأمة الإسلامية.وقد أدركت الصليبية والشيوعية والصهيونية بالأمس أنّ الهوية الإسلامية أنفس ما يعتز به المسلم،فأعلنوا الحرب على هذه الهوية،ثمّ أكملت مسيرتها الكونية اليوم،إذ يرون أنّ استعادة المسلمين لهويتهم الإسلامية وانتمائهم القرآني هو أكبر الأخطار،ومن ثمّ فإنّ كل قوى التغريب والغزو [2] الثقافي ستطلق في هذا الاتجاه،ويقوم الاستشراق والتنصير بدور كبير.

ومن أجل طمس هذه الهوية تنوعت الخطط والدعوات،وأُقيمت الندوات والمؤتمرات،وكلها تدعو إلى تمييع الحواجز الدينية بين هذه الديانات،باسم وحدة الأديان،أو الملة الإبراهيمية،أو وحدة الدين الإلهي وأرباب الكتب السماوية،أو كلمة العالمية،يريدون صهر الأديان في بوتقة واحدة،﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾[3]؛وصدق الله عز وجل القائل:﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.[4]

التهجم على الإسلام ليس وليد اليوم،ففي أحسن الأحوال يقدمونه على أنّه صالح في مرحلة سابقة من التاريخ،وأنّه قدر الأمة العربية فيما مضى،أما اليوم فالعصر عصر القوميات،وعصر الاشتراكية العلمية وعصر التقدمية والديمقراطية،وأنّ الإسلام قد أدى دوره وانتهى من الوجود إنها هي نفس الصيغة السابقة التي تحدث عنها القرآن أنّه أساطير

(١) دراسات تربوية البحث عن هوية تربوية :د. علي أحمد مدكور ،مصر ٧/يونيو/١٩٨٧م ،ص:١٠٧.

(٢) حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني:أنور الجندي،دار الاعتصام،سلسلة الرسائل الجامعة،د..ت،ص: ٧.

(٣) سورة يونس،الآية: ٣٢.

(٤) سورة ص،الآية: ٢٨.

الأولين...مـن أجل ذلـك يحرصون كلّ الحرص علـى تذويب هوية المسلمـين وطمس معالمها والنـأي بهم بعيداً عـن دينهم حتى لا يعود الإسـلام إلى الساحة مـرة أخرى،ولذلك حرص القـرآن على بيان هذه الحقيقة التـي ربما يغفل عنها كثير من المسلمين؛قال الله تعالى:﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾[1]

؛وقـال تعالى:﴿وَلَـنْ تَرْضَى عَنْـكَ الْيَهُـودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّـى تَتَّبِـعَ مِلَّتَهُمْ﴾[2]؛وقال سبحانه:﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾[3]؛وقال عز وجل:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الْكِتَـابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً لذلك تعددت أنواع وأساليب الحروب على الإسـلام بمسميات كثيرة الحرب على التطـرف[4] مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾، والإرهاب،والرجعية والأصوليـة والضلاميـة،...إنّ التحديات التي تواجه الهوية الإسلاميـة على مرّ العصور هي محاولـة طمسهـا،و تذويبها،والقضـاء عليها،لذلـك كان لزاماً تحديـد الهويّة التـي تعّرفنا بأهدافنـا التـي نريدها،وترسم لنا الطريق الذي يجب علينـا أن نسلكه،حينها يعرّف المسلم هويتـه وذاته،ويعرف هدفه،فهو يقدّم نفســه بحقيقته الأسمى التي يعتز بها ويفخر بها،كيف ولا،وقـد امتدح القرآن الكـريم هذه الهوية وأثنى عليها ؛بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِـنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[5]؛قال ابن القيم:"فهذا احتجاج بما ركب في العقـول والفطر لأنّه لا قول للعبد أحسن من هذا القول"[6] والاستفهام الإنكاري الوارد في الآيـة أي:لا أحد أحسن منه،ممّا يجعله يردد ويقول: إنّني من المسلمين بافتخار واعتزاز لأنّه أفضل الأديان.

إنّ القـرآن الـذي سعـى لتحرير الإنسان مـن عبودية غـير الله في كل صورها لا يمكن أن يدعـه مستسلمـاً خاضعاً لسلطـان في الأرض غير سلطان واحد وهـو الدين الذي ارتضه لعبادة؛قال ابن القيم:"ولما ارتضاه لعباده وأتم عليهم به نعمته أكمله لهم وأظهره على الدين

(١) سورة البقرة،الآية:٢١٧.
(٢) سورة البقرة،الآية:١٢٠.
(٣) سورة النساء،الآية:٨٩.
(٤) سورة البقرة،الآية:١٠٩.
(٥) سورة فصّلت،الآية: ٣٣.
(٦) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة:ابن القيم الجوزية دار الكتب العلمية ،بيروت١/ ١٠.

كله و أوضحه إيضاحاً مبيناً[(١)]؛ فقال تعالى:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾.[(٢)]

لذلك يؤكد القرآن أنّ الإسلام هو هُوية الأنبياء جميعاً؛قال ابن القيم:"يعني الذي جاء به مُحَمَّدٌ،وهو دين الأنبياء مِنْ أَوَّلهمْ إلى آخرهم،ليس للَّه دِينٌ سواهُ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلام ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرَة مِنَ الْخَاسرينَ﴾[(٣)]،وقد دلَّ قوله:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّه الإِسْلامُ﴾[(٤)] على أَنَّه دين جميع أنبيَائه ورسله وَأتبَاعه من أَوَّلهم إلى آخرهم، وأنَّه لَم يكن للَّه قَطُّ ولا يكون له دين سواه؛قال أول الرسل نوح: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّه وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلمينَ﴾[(٥)] ؛وقال إبراهيم وإسْمَاعيل:﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلمَةً لَكَ - إلى قوله - وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيه ويعقوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّه اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلمُونَ﴾[(٦)]؛وقَال يَعْقُوب لبَنِيه عنْد الْمَوْت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ -إلى قوله - وَنَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ﴾[(٧)]؛وَقَالَ مُوسَى لقَوْمه :﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّه فَعَلَيْه تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلمينَ﴾[(٨)]؛ وقال عيسى:﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّه آمَنَّا بِاللَّه وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلمُونَ﴾،[(٩)] فالإسلامُ دين أَهل السَّماوَات،ودين أَهل التَّوْحيد من أَهل الأَرْض،لا يَقْبَلُ اللَّه من أَحدٍ دينًا سواه".[(١٠)] والله عز وجل سمانا من قبل القرآن وفي القرآن

---

(١) أحكام أهل الذمة: ابن القيم الجوزية،تحقيق :يوسف أحمد البكري،شاكر توفيق العاروري،ط.الأولى، ١٤١٨ - ١٩٩٧ ،رمادى للنشر ،دار ابن حزم ، الدمام ، بيروت،١/ ٤٨٠.

(٢) سورة المائدة،الآية ٣.

(٣) سورة آل عمران،الآية:٨٥.

(٤) سورة آل عمران،الآية:١٩.

(٥) سورة يونس،الآية: ٧٢.

(٦) سورة البقرة،الآية: ١٢٨ — ١٣٢.

(٧) سورة البقرة،الآية: ١٣٣.

(٨) سورة يونس،الآية: ٨٤.

(٩) سورة النمل،الآية: ٤٤.

(١٠) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،ابن القيم الجوزية ٣/ ٤٤١-٤٤٢.

بالمسلمين فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل إسلامهم وقبل وجودهم[1]؛فقال عز من قائل:﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾.[2]

إنّ أعداء الهوية الإسلامية يعلمون أنّ الإسلام كدين هو(البديل الحضاري) القوي،الذي يمكنه دون غيره أن يملأ الفراغ الذي تعانيه الحضارة المادية الغربية اليوم،لأنّه يملك نموذجاً متكاملاً للحضارة،لذلك يصرحون بأنّ الخطر القادم هو الإسلام ،ومن هنا يتضح أنّ الأمة مستهدفة في ذاتها،وهويتها،وفي دينها. ويبقى الإسلام معلماً من معالم ثوابت الهوية الإسلامية هو الحصن الذي تتحصن به الأمة الإسلامية في مجابهة أعدائها....

المطلب الثاني:من معالم الهوية في الثوابت القرآنية العقيدة:

إنّ الشعار الذي ينبغي رفعه،و ويعرّفنا بذاتنا وأهدافنا،وعقيدتنا،وانتمائنا، ويميزنا عن غيرنا هو"العقيدة" وهو الشعار الذي نردده في القرآن :﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[3] ، ﴿قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوتْهُ الشياطينُ في الأرض حيرانَ له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأُمِرْنا لنسلم لربّ العالمين﴾[4] ،﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[5]،فقد حذرنا القرآن من المغضوب عليهم اليهود،و الضالين النصارى ومن كل:عابد أوثان،وعابد نيران،وعابد شيطان،وصابئ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن:أبو جعفر الطبري،١٦ /٦٤٦،تفسير القرآن العظيم:ابن كثير،تحقيق:محمدحسين شمس الدين،ط.الأولى،١٤١٩هـ،دار الكتب العلمية،منشورات محمد علي بيضون،بيروت٣٩٩/٥،،فتح القدير:محمد بن علي الشوكاني،ط.الأولى ،١٤١٤هـ،دار ابن كثير، دار الكلم الطيب،دمشق،بيروت٥٧٧/٣،شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل:ابن قيم الجوزية،ص: ٢٨.

(٢) سورة الحج،الآية: ٧٨.

(٣) سورة الكافرون،الآية:٦.

(٤) سورة الأنعام،الآية: ٧١.

(٥) سورة الأنعام،الآية:٥٥ — ٥٧.

حـيران؛ يجمعهـم الشرك،وتكذيـب الرسل،وتعطيـل الشرائع.[1]فقد علمنـا أن تردد في كل يـوم هذا الشعار:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِيـنَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[2]،بدايـة بكل معتقد،ونهاية بالشكل الظاهـر في الملبس والهيئة؛ومرورًا بكل أمور الحياة العملية؛﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3]،فهي تامَّة الموضوع،فهي محـددة المعالم،تحـدِّد لصاحبها بكل دقة ووضـوح هدفَه ووظيفته وغايتـه في الحياة،لا كما تدعـي العولمة﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِـي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِـينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[4]،فهذه الهُوية قائمة على أساس تصور الإسلام للإنسان والكون والحياة،والتـي تصبـغ الأمـةَ: عاداتها،وسلوكها ،وعقيداتهـا وتقاليدَها وأعرافهـا، وآدابها وفنونها،وسائـرَ أمورهـا.. إنّ الأمـة عندما تمسكت برايـة التوحيد،نجحت في الحفاظ على كيانها،ويوم أن رفعت شعارات أخرى لا تعبر عن هويتها،ولا خصوصيتها ،وتخلت عن قرآنها كان الفشل مآلها والعمالة والتآمر عنوانها.

إنّ الوعي العقدي مهم للغاية،وهو الأساس،لذلك تسعى العولمة إلى طمسه وإعادة تشكيل رؤى النـاس وتصوراتهم للحياة على أساس الثقافة الغربيـة المعاصرة في نسختها الأمريكية تحديدًا" ولعـل أخطر ما استهدفه الغرب هو هـدم شخصية الأمة هدمًا عقديًّا وحضاريًّا،ولا يخفـى أن انهدام الشخصيـة يساعد على قبول الزيف والأباطيل كما يدفع إلى التبعيَّة،ولهذا كان لابـد إذا رغبـت الأمـة أن لا تؤثر فيها مخططـات المتربصين أن تبنـي شخصيتها على العقيدة فالأمة الإسلامية هي أمة المعيار التي وكل الله إليها أمر الشهادة على الناس والقيادة لهم بما تمتلك من قيم معصومة محفوظة في الكتاب والسنة"[5].

قـال صالح الفوزان في شرح مسائـل الجاهلية: "والتعاون بين الأديـان ومساواة الدين الباطـل بالدين الحق،ثمّ لا يثبتون على هذا؛بل يريـدون إزالة الإسلام،فهم يقتلون المسلمين

---

(1) الإبطـال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان: بكـر بن عبد الله أبو زيد،ط.الأولى، ١٤١٧ هـ،دار العاصمة،ص: ٧.

(2) سورة الفاتحة،الآية:٦-٧.

(3) سورة يونس،الآية: ٤١.

(4) سورة الأنعام،الآية: ١٦٢، ١٦٣.

(5) شبـاب الأمة ومواجهة شعارات الغرب وتياراته:د.أحمـد السايح، المؤتمر العالمي الثامن للندوة العالمية للشباب الإسلامي.ص ٥٣.

ويشردونهــم من أجل أن يصرفوهم عن دينهم، ويريدون أن لا يبقى على وجه الأرض مسلم، هذه أمنيتهم،وهذا قصدهم". [1]

ولطمس هذه الهوية العقدية يعملون على التشكيك في المعتقدات الدينية،ونزع المقدسات لـدى الشعـوب المسلمــة لصالح الفكـر المادي اللاادينــي الغربـي،أو إحلال الفلسفــة المادية الغربيــة محــل العقيــدة الإسلامية،وتبني بعض الشعــارات كالتقريب بــين الأديان" و"وحدة الأديان" و"التآخــي بــين الأديان" و"حــوار الحضارات" و"النظام العالمــي الجديد" والهدف بــث الكفر،والإلحاد، ونشــر الإباحية،وتغيير الفطرة،لذلك كان أخطر مــا تسعى إليه العولمة هــو نزع المتعاليات وكســر المقدسات،ومن أجــل تهديم الحصن الذي يتخنــدق فيه المسلمين وهــو العقيدة،تراهــم يدعــون إلى وحــدة الأديان،وهــي دعــوة تنقض عقيــدة الإسلام من أساسها،وتهدمها من أصلها،لأنّ دين الإسلام قائم على حقيقة أنّه الرسالة الخاتمة من الله تعالى للبشرية،الناسخة لكل الأديان السابقة التي نزلت من السماء.

العولمــة تسعــى لإعادة تشكيــل المفاهيــم الأساسية عن الكــون والإنســان والحياة عند المسلمين،والاستعاضــة عنها بالمفاهيــم التي يروج لها الغرب ثقافيــاً وفكرياً،فالكون في نظر العولمة لم يخلق تسخيراً للإنسان،ليكون ميدان امتحان للناس لابتلائهم أيهم أحسن عملاً؛مع أنّ القرآن الكريم يقرر:﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾. [2]

قــال ابن القيم:"نصبــت عليه المعارضــات والمحن،ليتميز الصادق مــن الكاذب وتقع الفتنــة ويحصــل الابتلاء ويتميز مــن يصلح ممن لا يصلــح"[3] ؛وقال أيضــا: "إنّه سبحانه وتعــالى إنمّا خلــق السماوات والأرضــ وخلق الموت والحيــاة وزين الأرض بمــا عليها لابتلاء عباده،وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها". [4]

---

(١) شــرح (مسائــل الجاهلية لمحمد بن عبــد الوهاب):صالح بن فوزان بــن عبد الله الفــوزان،ط.الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٥م ،دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض،ص:٢٩٨.

(٢) سورة هود،الآية: ٧.

(٣) طريق الهجرتين وباب السعادتين: ابن قيم الجوزية،دار السلفية، القاهرة، مصر،ط.الثانية، ١٣٩٤هـ،ص:٢٤٣.

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ٢/ ١٩١.

ونصوص القرآن كثيرة في بيان ذلك منها: قوله تعالى:﴿إنّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْض زينَةً لَهَا لنَبْلوهُمْ أيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا ﴾[1]؛وقال الله تعالى:﴿الَّذِى خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيكُمْ أحسَنُ عَمَلاَ ﴾.[2]

و يروجون أنّ الإنسان لم يخلق لهدف عبادة الله تعالى!!؛قال تعالى:﴿أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا ارْكَعُـوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]؛وقال تعالى:﴿ وَاعْبُدُوا اللّه وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[4]؛وقال تعالى:﴿ اعْبُدُوا اللّه مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[5]،وغيرها مـن النصوص،إنّ هذه الآيات العظيمـات تبين بشكل بارز وظيفة الإنســان في الدنيا و أبعاد هــذه الوظيفـة من خلال العبادة بـكل أنواعها،وهي الدعوة التي تكررت علـى لسان الأنبياء جميعـاً:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولًا أَن اعْبُدُوا اللّه وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[6]؛﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْه أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾.[7]

إنّ من بين الوظائف السامية التي خلقنا الله عز وجل من أجلها العبادة كما أخبر بذلك القـرآن الكريم؛قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْـتُ الْجِنّ وَالْإِنْـسَ إلّا لِيَعْبُدُونِ﴾[8]؛قال ابن أبي حاتم :"ليقـروا بالعبودية طوعـاً أو كرهًا".[9]لذلك كان من مقتضيـات الهوية الإسلامية التوحيد والعبـادة في الشهـود الحضـاري فالعبادة هي الغايــة التي خلق لها الجـن والإنس والخلائق كلها[10]؛قــال الله تعالى:﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾[11]،فلقد خلق الله الخلق لغاية شريفة سامية وهي عبادته وحده لا شريك له،وإذا كانت الغاية من إيجاد البشرية هي عبادة

(١) سورة الكهف،الآية::٧.
(٢) سورة الملك،الآية:: ٢.
(٣) سورة الحج،الآية: ٧٧.
(٤) سورة النساء،الآية: ٣٦.
(٥) سورة الأعراف،الآية: ٦٥.
(٦) سورة النحل ،الآية:٣٦.
(٧) سورة الأنبياء،الآية : ٢٥.
(٨) سورة الذاريات،الآية:٥٦.
(٩) تفسير ابن أبي حاتم ،١٠/ ٣٣١٣.
(١٠) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين١ / ١١٨.
(١١) سورة القيامة،الآية: ٣٦.

الله وحده،يبقى التوحيد هو رأس العبادات وأساسها.[1]وهذه المفاهيم الأساسية للعقيدة الإسلامية،ليست في نظر العولمة الفكرية والثقافية سوى خرافة.[2] لذلك ينشرون الكفر والإلحاد،والشرك.وصدق الله:﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾.[3]

المطلب الثالث:الهوية الإسلامية هوية إنسانية:

لا تقوم على العرق،أو اللون،أوالجنس،أو المصلحة،أو الطبقة أو أي تصنيف آخر من التصنيفات مهما كانت؛بل يستطيع كل واحد اكتسابها فهي متاحة للجميع على التساوي،والقرآن قد بيّن ذلك بوضوح لا غموض فيه؛﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَر وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. [4]

فالمقياس و الأساس لأي كرامة واستحقاق عند الله،لا يكون بما يتعارف عليه الناس؛بل المقياس لتفاوت الأفراد في ميزان القرآن هو التقوى والعمل الصالح،وهذا المبدأ يحقق العدل بالنسبة لكافة المنتمين إليه،وهو مبدأ يسع العالم أجمع دون أي تمييز بينهم أو إقصاء أو تهميش..

إنَّ الهوية الإسلامية تتميَّز بخصوصية عن غيرها من الهويات بأنَّها أقامت معالمها على شيء بسيط يتساوى فيه جميع البشر؛ ذاك الشيء الذي لا يمكن أن يَتنافس عليه أحد إلا ويصل إليه، فلقد فُضِّل بنو البشر على بعضهم بالكثير من الأشياء التي تقسمهم على أساس عنصري وطبَقي،أو اجتماعي،أو ثقافي...،دون أن يكون لهم دخل أو يدٌ فيه،إلا ذاك الشيء الوحيد المتساوي بين جميع البشر،ولا يَسعى إليه عبدٌ بإخلاص إلا ناله،ألا وهو التقوى،لذلك المبدأ القرآني الذي يريد أن يسود بين الناس جميعاً،هو المساواة؛يقول الرافعي:"يريد القرآن أن يكون المنبع الإنساني في القلب،ثمّ أن يبقى هذا المنبع ما بقي صافياً ثراً لا يعتكرُ و لا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية:أبو العز الحنفي،تحقيق:أحمد شاكر،ط.الأولى،١٤١٨هـ،وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد،ص:٣.

(٢) ٢٠٠١م،ص: ٢٧٥. العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة:محمد بن سعد التميمي،ط.١، ١٤٢٢هـ

(٣) سورةالبقرة،الآية:١٢٠.

(٤) سورة الحجرات،الآية: ١٣.

ينضب، كأنّما في القلب سماء ما تزال تمد له من نور وهدى ورحمة وهذا الأصل- أصل المساواة- هو الذي كشفه القرآن بقوله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾الآية،فانظر كيف أبان عن المساواة الطبيعية التي لا يملك بحال من الأحوال أن يفرق فيها الجنس الإنساني كله وهي الخلق من(الذكر والأنثى)وكيف وصف الغاية الاجتماعية للناس شعوباً وقبائل بأنّها (التعارف)،لم يزد على هذه اللفظة التي لا تشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ولا تجد رذيلة اجتماعية يمكن أن تدخل في مدلولها ولن تجدها إلا منصرفة عنها في الغاية ثمّ تأمل كيف أقام هذا الأساس الأدبي العظيم ،فجعل أكرَم الناس المتساوين جميعاً في الحالتين الفردية والاجتماعية،هو أتقاهم،أي:أعظمهم خلقاً،لا أوفرهم مالاً،ولا أحسنهم حالاً،ولا أكثرهم رجالاً،ولا أثقبهم فهماً،ولا أعلمهم علماً،ولا أقواهم قوة،ولا شيء من ذلك وأشباه ذلك ممّا لا يتفاضل به الناس على التحقيق إلا في إدبار الدولة واضطراب الاجتماع وفساد العمران،ويكون مع ذلك كأنّه دُرّبة لهم أن يتباينوا بعد هذه الفضائل المشوبة بالرذائلِ صِرفة لا شَوبَ فيها".[١]

لقد كان واضحًا كلّ الوضوح في القرآن عالمية الهوية الإسلامية وإنسانيتها والتي جاءت الذي تخاطب الإنسان، أي:جنس الإنسان بغضِّ النظر عن وطنه، ومكانته، ولونه، وغناه، وفقره..

المطلب الرابع: من معالم الهوية القرآنية التميز:

إنّها هوية متميزة عمّا عداها؛قال تعالى:﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٢]؛قال ابن القيم:"بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يَظهر اللّه منهم عباده وبلاده"[٣]،لذلك قال تعالى:﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهدى﴾[٤]،يعني الإسلام هو الهدى الحقّ الذي يصح أن يسمى هدى،وهو الهدى كلّه ليس وراءه هدى[٥]؛فكانت أول خطوة في

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:الرافعي،ط.الثامنة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥ م،دار الكتاب العربي، بيروت،ص:٧٢.

(٢) سورة الكافرون،الآية : ٦.

(٣) بدائع الفوائد:ابن قيم الجوزية،دار الكتاب العربي، بيروت،لبنان،١٤١/١.

(٤) سورة البقرة،الآية: ١٢٠.

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٤٣٨.

تثبيت الهوية الإسلامية هي التميز عن الجاهلية: تصوراً ومنهجاً وعملاً. هذا التميز بهذه الصورة هو حجر الأساس،يشعره بأنّه شيء آخر غير هؤلاء لهم دينهم وله دينه،لهم طريقهم وله طريقه،لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم،فهي البراءة الكاملة،والمفاصلة التامة، والحسم الصريح..؛ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ،إنّه التميز الكامل عن الجاهلية،هذا هو ديني:التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه،وعقيدته وشريعته .. كلها من الله .. دون شريك كلها لله في كل نواحي الحياة والسلوك.(١)

ولكي يبقى هذا التميز ثابتاً في كل حين ،أوجب الله علينا أن ندعوه في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة على الأقل أن يهدينا الصراط المستقيم،المغاير بالضرورة لمنهج الآخرين:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ..الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ ،(٢)وقد حسم القرآن ذلك عندما دعا في أكثر من آية لضرورة التميز بين الفريقين،والفصل بين الطائفتين؛فقال تعالى:﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(٣)؛قال ابن القيم:"فإنّ معنى الآية:كل يعمل على كل ما يشاكله،ويناسبه،ويليق بـه فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق،ومريد الدنيا وجيفتها عامل على ما يناسبه،ولا يليق به سواه،ومحب الصور:عامل على ما يناسبه ويليق به فكل امرئ يهفو إلى ما يحبه وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه فالمريد الصادق المحب لله: يعمل ما هو اللائق به والمناسب له،فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به، والأنسب لها".(٤)

قال تعالى:﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٥)؛قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"فقد أمره الله أن يتبرأ من عمل كل من كذبه وتبريه هذا يتناول المشركين وأهل الكتاب ".(٦)

وأراد الله عز وجل أن يكون هذا التمييز تام،ولا يكون تاماً إلا بالبراءة منهم؛قال الشيخ الطاهر بن عاشور:"إنّما عدل عن الإتيان بالعمل مصدراً كما أتي بـه في قوله:"لي عملي

(١) مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة :علي بن نايف الشحود،ط.الأولى، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢ م ،ص: ١٠٥.

(٢) سورة الفاتحة،الآية : ٦ ، ٧.

(٣) سورة الإسراء،الآية: ٨٤.

(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٣٥١.

(٥) سورة يونس،الآية: ٤١.

(٦) مجموع الفتاوى:تقي الدين بن تيمية١٦/ ٥٤٦.

ولكـم عملكـم" إلى الإتيان به فعـلاً صلة ل"ما" الموصولـة للدلالة على الـبراءة من كل عمل يحـدث في الحـال والاستقبال،وأما العمـل الماضي فلكونه قد انقضـى لا يتعلق الغرض بذكر الـبراءة منـه، ولو عبر بالعمل لربمـا توهم أنّ المراد عمل خاص لأنّ المصدر المضاف لا يعم ، ولتجنـب إعـادة اللفظ بعينه في الـكلام الواحد؛لأنّ جملة البيان من تمـام المبيَّن،ولأنّ هذا اللفـظ أنسب بسلاسة النظم،لأنّ في"ما" في قوله : "ممـا أعمل" من المد ما يجعله أسعد بمد النَّفَس في آخر الآيـة والتهيئة للوقف على قوله: "ممّا تعملون" ،ولمـا في تعملون من المد أيضاً ،ولأنّـه يراعي الفاصلـة، وهذا من دقائق فصاحة القرآن الخارجة عـن الفصاحة المتعارفة بين الفصحاء". [1]

إنّهـا الهويـة المستقلـة بحيث لا تلتفت إلى رجيـع أفكار الآخرين وسقـط هوّياتهم،لقد فهـم اليهود مـاذا يريد الإسلام من أتباعه،وما فهم أتباعه ماذا يريد منهم﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَـنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[2] ،حين نتميز بهويتنا ونعتز بشخصيتنا وننتصر من دواخلنا يحصل لنا السؤدد والتمكين.

المطلـب الخامس:مـن معالـم هويتنـا فـي الثوابت القرآنيـة أنّها صبغة الله:

عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿صِبْغَةَ اللَّه وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّه صِبْغَةً﴾[3]؛قَال:إِنَّ الْيَهودَ تصبـغ أبناءها يهـوداً ،وَإِنَّ النَّصَـارَى تَصبِغ أَبْنَاءَهَـا نصارَى،وَإِنَّ صبغـةَ اللَّه الْإِسْلَامُ؛فلا صبغَةَ أَحْسن من الْإِسْلَام ولا أَطهر ،وهو دين اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الَّذي بعث به نوحًا ،صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وَالْأَنْبِيَاءَ بعدهُ؛صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ. [4]

---

(١) التحرير والتنوير:الشيخ محمد الطاهر بن عاشور،١٩٩٧ ،دار سحنون للنشر والتوزيع،تونس ١١/ ١٧٦.

(٢) سورة آل عمران،الآية:١١٠.

(٣) سورة البقرة،الآية: ١٣٨.

(٤) المجالسة وجواهر العلم:أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري،تحقيق:أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان،جمعية التربية الإسلامية البحرين،دار ابن حزم ،بيروت،لبنان،١٤١٩هـ،٣٠٩/٤ الجامع لأحكام:القرطبي،تحقيق:أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط.٢، ١٣٨٤هـ ،١٩٦٤ م،دار الكتب المصرية،القاهرة،١٤٤/٢.

قال القرطبي الصبغة:هي الْإِسلام، فسُمِّيَ الدِّين صِبْغَةً استعَارَةً وَمَجَازًا من حيث تظهرُ أعماله وسِمَتُهُ عَلَى الْمُتَدَيِّنِ ... فالمراد أنّه يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم به من أوساخ الكفر فلا صبغة أحسن من صبغته وتلك هويته التي تميزه عن غيره[1]،تُظل أبناءها جميعاً،لذلك سماها القرآن صبغة لأنّه يظهر أثر الدين على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب[2]،فالصبغة هي الهوية،والهوية هي الإسلام،ومشاعره وتصوراته وآماله وأهدافه وسلوكه وأعماله ؛كما يقول عمر سليمان الأشقر.[3]

إنّ الأمة تحت تأثير العولمة وإغراءاتها المادية يلحظ أنّها في كثير من مواقفها وأوضاعها اختارت غير ما اختار الله، ودانت بمناهج على غير طريق الذي رسمه القرآن،اختلطت عليها السبل،واصطبغت بغير صبغة الله،من أجل ذلك كلّه كان القرآن يحرص أن تكون لأتباعه صبغة خاصة بهم تسهم في تثبيت الهوية تجعله متميزاً عن غيره تجمع الأرواح قبل جمع الأشباح،لا كما تفعل الفلسفات والنظريات،صبغة القلوب والعقول،صبغة الخواطر والمشاعر..

(١) مفاتيح الغيب :فخر الدين الرازي ،ط.الأولى،٤ /٧٩ .

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن:البغوي،حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر،عثمان جمعة ضميرية ،سليمان مسلم الحرش،ط.الرابعة، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م، دار طيبة للنشر والتوزيع،١/١٥٧.

(٣) معالم الشخصية الإسلامية :عمر سليمان الأشقر ،دار النفائس،الأردن،ط٦،١٤١٥ه،ص:١٩.

الخاتمة

إنّ الخوف على المصير والهوية، والذات ،والوطن... أمر مشروع في ظل رؤية التبديلات الجارفة والعميقة التي أحدثها زلزال العولمة في كل الأمصار وعند كل الشعوب دون استثناء ،لذلك في ختام هذه الدراسة نؤكد أنّ الأسئلة التي طرحتها هذه الورقة البحثية على نفسها ليس بالضرورة أن تجد الحلَّ الحاسِم لها غدًا ،ولكنَّها تبقى تُصِرُّ على طرْحها وتدعو الباحثين لمُناقَشتها مناقشة علمية هادئة هادفة بعيدة عن الارتجاليَة وردت الأفعال الآنية والمرحلية؛ فلا يزال السؤال مطروحاً حتى نصل إلى الإجابة المُناسبة والعلاج الشافي الذي من خلاله يمكن أن تستَرِدُّ الهوية الإسلامية حيويَّتها، وتستردُّ الأمَّة مزيدًا من مَلامِح شخصيَّتها ومكانتها ،و على الرغم من تباين الآراء واختلاف وجهات النظر بين الباحثين حول كيفية الحفاظ على الهوية، وما هي أولويات الأهداف والسبل الكفيل للنهوض بها ،إلاّ أنّنا ندعو للعودة إلى القرآن الكريم كشرط أساسي ومنطلق للنهضة شاملة ،فنحن مطالبون أكثر من أي وقت مضى بعودة صادقة إلى الكتاب العزيز ،إيماناً وتصديقاً ،حفاوةً،وإجلالاً ،تلاوةً وحفظاً ،تدبراً وفهماً، خشوعاً وخضوعاً، إتباعا ،وتطبيقاً، تحاكماً وتحكيماً...

إنّنا نعيش في عصر العولمة التي تلاطمت فيه الأفكار واختلطت فيه المفاهيم، كثرت فيه الشبهات،وغرق فيه كثيرون في بحور الشهوات؛ ومظاهر المرض،والتخلف،والتقليد ،والإت باع،والانسلاخ ،والتغريب وهي مظاهر بادية في جسم أمتنا (أفراداً ومجتمعات)، و لتحقيق نهضة جادة، لابد من إعادة الاعتبار للهوية الإسلامية و صدق الانتماء ،والانطلاق من الثوابت القرآنية ،وتعميق البحث في الهوية وامتلاك المعرفة اللازمة لفهم معالم هذه الهوية ،والتمسك بها والدفاع عنها، والاعتقاد والإيمان الراسخ بأنّ هويتنا الإسلامية بثوابتها وبعمقها الديني والحضاري لأنّها لا بديل لنا عن سواها من أية حضارة أخرى.

ويبقى موضوع الهوية وكيفية الحفاظ عليها في حاجة إلى جهود ضخمة لا يسع مقال كهذا إلى حصرها.

نتائج البحث

لا شك أنّ الأمة لو عادت لثوابت القرآن لأمكنها من بناء هوية قوية قادرة على أداء الرسالة التي كلفت بها ،و قامت بنشر القيم الربانية في عالم يعاني من مجاعة روحية تقتل روح الإنسان.

- إنّ مواجهة هيمنة العولمة في تذويبها للهويات،والقضاء على الخصوصيات ليست مجرد شعارات ترفع ولا صرخات ظرفية كلما شعرنا بالخطر؛بل هي معركة طويلة تحتاج للعدة والاستعداد ،تبدأ بضرورة رفض لكل أشكال الهيمنة والسيطرة سواء كان باسم العولمة أو باسم أخر.
- إنّ البحث عن هوية أخرى للأمة الإسلامية خيانة كبرى ، وجناية عظمى.
- إنّ الابتعاد عن القرآن سبب الذل والهوان الذي تعاني منه أمتنا اليوم، لذلك لابد من العودة إلى القرآن و الانطلاق منه في كافة الأمور لأنّه السبيل الوحيد للعزة.
- لا بد من تذكير الأمة المسلمة بثوابت هويتها ، وتبصيرها بالأخطار التي تحدق بها .
- لا مخرج للأمة من محنتها إلا باستعادتها للهوية؛لأنّها المخرج الوحيد لمواجهة التحديات المعاصرة.

التوصيات:

توصي هذه الدراسة القائمين على المؤسسات التربوية والدعوية ،والإعلامية...إلى بذل المزيد من الجهود من أجل تعزيز الهوية الإسلامية لدى الناشئة ،و الحرص على الحفاظ عليها من الذوبان .

- تثمين وتشجيع الجهود التي تبذل للحفاظ على الهوية الإسلامية.
- العمل الجاد من أجل تعزيز الإنتماء للإسلام في الناشئة وذلك من خلال تطوير برامج التربية الروحية.
- التنسيق بين المؤسسات الدعوية في أساليب التعامل مع الحملات الشرسة في طمس و تشويه واستلاب ومسخ الهوية الإسلامية.

- تعزيز مفهـوم الهوية؛بالعودة إلى الإسلام، وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيـد الله سبحانه وتعالى،والتي تجعل المسلم في عـزة معنوية عالية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.
- في تأصيلنا لثوابت الهوية لا ينبغي التركيز على القراءة التاريخية ، بل ينبغي قراءة اتجاهات المستقبل.
- كمـا توصي هـذه الدراسة إعطاء الفرص للدعاة والمفكرين لإبـراز معالم الهوية الإسلامية .
- الحاجـة ماسة لتصحيـح مفاهيم المسلمين،وإعادة الاعتبـار لمفهوم الهوية، وذلك بإعـادة إحيـاء الهويـة الإسلامية النقيـة الصافية التـي تتأثـر بالكافرين ، لا من النصارى ولا من اليهود ولا من غيرهم .

المصادر والمراجع

١. الإبطــال لنظريــة الخلط بــين دين الإسلام وغــيره مــن الأديان:بكر بن عبــد الله أبو زيد ،ط.الأولى، ١٤١٧ هـ،دار العاصمة.

٢. أحــكام أهــل الذمة:ابــن القيــم الجوزية،تحقيــق :يوســف أحمــد البكري،شاكــر توفيــق العاروري،ط.الأولى، ١٤١٨،١٩٩٧،رمادى للنشر ،دار ابن حزم،الدمام،بيروت.

٣. الإسلام والعولمة:محمد إبراهيم المبروك وآخرون،الدار القومية العربية،القاهرة ١٩٩٩م.

٤. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:الرافعي،ط.الثامنة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥ م،دار الكتاب العربي، بيروت.

٥. إغاثــة اللهفان من مصائــد الشيطان:ابن القيــم الجوزية،تحقيق:محمد حامد الفقي،ط. الثانية،١٣٩٥، ١٩٧٥،دار المعرفة ، بيروت.

٦. اقتضــاء الصراط المستقيــم لمخالفة أصحــاب الجحيم:بــن تيمية،ط.السابعــة،دار عالم الكتب، ١٤١٩هـ ، ١٩٩٩م.

٧. أوهام الهوية: داريوس شايغان ،ترجمة محمد علي مقاد ،دار الساقي ،بيروت ١٩٩٣ .

٨. بدائع الفوائد:ابن قيم الجوزية،دار الكتاب العربي، بيروت،لبنان،١/١٤١.

٩. تاج العروس من جواهر القاموس:مرتضــى، الزَّبيدي،تحقيق:مجموعة من المحققين،دار الهداية.

١٠. التحرير والتنوير:الشيخ محمد الطاهر بن عاشور،١٩٩٧ ،دار سحنون للنشر والتوزيع،تونس.

١١. التدمرية:ابن تيمية ،تحقيــق:د. محمد بن عودة السعوي،ط.السادسة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م، مكتبة العبيكان،الرياض.

١٢. تفســير ابن أبي،حاتم تحقيق أسعد محمد الطيب،ط.الثالثة١٤١٩ هـ،مكتبة نزار مصطفى الباز،المملكة العربية السعودية.

١٣. التَّفْسِيرُ البَسِيْط:أبو الحسن النيسابوري،ط.الأولى، ١٤٣٠هـ،عمادة البحث العلمي،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٤. تفسير القرآن:السمعاني تحقيق:ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم،ط. الأولى،١٤١٨ه،-١٩٩٧م،دار الوطن،السعودية.

١٥. تفسير القرآن العظيم:أبو الفداء إسماعيل ابن كثير،تحقيق:محمدحسين شمس الدين،ط. الأولى،١٤١٩هـ،دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون،بيروت.

١٦. تهذيب اللغة:الأزهري،تحقيق:محمد عوض مرعب،ط.الأولى،٢٠٠١ دار إحياء التراث العربي،بيروت.

١٧. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد:أبو عمر بن عبد البر،تحقيق:مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري، ١٣٨٧ هـ ،وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية ،المغرب.

١٨. جامع البيان عن تأويل آي القرآن:الطبري،تحقيق:د.عبد الله بن عبد المحسن التركي،بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر،د.عبد السند حسن يمامة،ط.الأولى، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١ م،دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان .

١٩. الجامع لأحكام القرآن :القرطبي،تحقيق:هشام سمير البخاري،ط،١٤٢٣هـ،٢٠٠٣م،دار عالم الكتب،المملكة العربية السعودية.

٢٠. الجامع لأحكام القرآن:القرطبي،تحقيق:أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش،ط. الثانية،١٣٨٤هـ ،١٩٦٤م،دار الكتب المصرية،القاهرة.

٢١. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:ابن قيم الجوزية ،تحقيق:مُحَمَّد أجمل الإِصْلاَحي،خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري ،ط.الأولى، ١٤٢٩، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ط دار عالم الفوائد بجدة.

٢٢. حتى لا تضيع الهوية الإسلامية والانتماء القرآني:أنور الجندي،دارالاعتصام،سلسلة الرسائل الجامعة،د.ط.ت.

٢٣. درء تعارض العقل والنقل:ابن تيمية ،تحقيق:الدكتور محمد رشاد سالم،ط.الثانية، ١٤١١هـ ،١٩٩١م،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

٢٤. دراسات تربوية البحث عن هوية تربوية :د. علي أحمد مدكور ،مصر ٧/يونيو/١٩٨٧م.

٢٥. دستور العلماء،جامع العلوم في اصطلاحات الفنون:القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري،عرب عباراته الفارسية:حسن هاني فحص،ط.الأولى، ١٤٢١هـ،٢٠٠٠م،دار الكتب العلمية، لبنان،بيروت.

٢٦. روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي):ابن رجب البغدادي،جمع وترتيب:أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد،ط.الأولى ١٤٢٢،٢٠٠١ م،دار العاصمة،المملكة العربية السعودية.

٢٧. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:محمود الألوسي،دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٨. شباب الأمة ومواجهة شعارات الغرب وتياراته:د.أحمد عبد الرحيم السايح ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثامن للندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٢٩. شرح العقيدة الطحاوية:أبو العز الحنفي،تحقيق:أحمد شاكر،ط.١،١٤١٨هـ،وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

٣٠. شرح (مسائل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب):صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان،ط. الأولى ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٥م ،دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض.

٣١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية:الجوهري ،تحقيق:عبد الغفور عطار،ط. الرابعة١٤٠٧هـ،١٩٨٧م،دار العلم للملايين ،بيروت.

٣٢. طريق الهجرتين وباب السعادتين: ابن قيم الجوزية،دار السلفية، القاهرة، مصر،ط. الثانية، ١٣٩٤هـ.

٣٣. العرب والعولمة:الدكتور محمد عابد الجابري،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت.

٣٤. العولمة:محمد سعيد أبو زعرور،ط. الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م،دار البيارق،عمان،الأردن.

٣٥. العولمة وعالم بلا هوية : محمد المنير، ط١ سنة ١٤٢١، دار الكلمة ، مصر .

٣٦. العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة:محمد بن سعد التميمي،ط. الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٣٧. الغـارة التنصيرية على أصالة القـرآن الكريم:عبد الراضي عبد المحسن،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٣٨. فتـح القدير:محمـد بـن علـي الشـوكاني،ط.الأولى ،١٤١٤هــ،دار ابـن كثـير،دار الكلم الطيب،دمشق،بيروت.

٣٩. قاعـدة جليلـة في التوسـل والوسيلة:ابـن تيمية،تحقيق:ربيـع بـن هـادي المدخلـي،ط١. ١٤٢٢هـ،٢٠٠١هـ مكتبة الفرقان ،عجمان.

٤٠. القاموس المحيط:الفيروزآبادى،تحقيق:مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي،ط. الثامنة، ١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،لبنان.

٤١. القـراءات المتواترة وأثرها في الرسم القـرآني والأحكام الشرعية:محمد حبش،ط.الأولى، ١٤١٩هـ ١٩٩٩ م،دار الفكر، دمشق.

٤٢. الكشـف والبيان:النيسابوري،تحقيق: أبو محمد بن عاشور،ط.الأولى١٤٢٢،هـ ٢٠٠٢ مدار إحياء التراث العربي ،بيروت،لبنان.

٤٣. لبـاب التأويل في معاني التنزيل:علاء الدين علي بـن محمد الخازن١٣٩٩هـ /١٩٧٩ م،دار الفكر، بيروت،لبنان.

٤٤. اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل،تحقيق: الشيخ عادل أحمـد عبـد الموجود والشيخ علي محمـد معوض،ط.الأولى، ١٤١٩ هــ -١٩٩٨م،دار الكتب العلمية ،بيروت / لبنان.

٤٥. لسان العرب:ابن منظور، ، ط٣، بيروت، ٢٠٠٤،دار صادر للطباعة والنشر.

٤٦. اللغة والدين والهوية:عبد العلي الودغيري،الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٠.

٤٧. المجالسـة وجواهر العلم:أبو بكـر أحمد بن مـروان الدينوري،تحقيق:أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ،جمعية التربية الإسلامية البحرين ،دار ابن حزم ،بيروت،لبنان،١٤١٩هـ.

٤٨. المجتمـع العربي في القرن العشرين،بحث في تغير الأحـوال والعلاقات:حليم بركات،مركز دراسات الوحدة العربية، -لبنان،٢٠٠٠.

٤٩. مجمـل اللغة:ابـن فارس،دراسة وتحقيق:زهـير عبد المحسن سلطـان ط.الثانية، ١٤٠٦ هـ ،١٩٨٦ م،مؤسسة الرسالة،بيروت.

٥٠. مجموع الفتاوى:ابن تيمية،تحقيق:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم،١٤١٦هـ/١٩٩٥م،مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية.

٥١. مخاطـر العولمة على الهوية الثقافية: د.محمد عمـارة،ط.الأولى، ١٩٩٩م،دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

٥٢. مسألة الهوية:العروبة والإسلام والغرب:عابد الجابري،ط٢ ، ١٩٩٧،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

٥٣. مـدارج السالكـين بين منازل إيـاك نعبد وإيـاك نستعين:ابن قيـم الجوزية،تحقيق:محمد المعتصم بالله البغدادي،ط.الثالثة، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦م ،دار الكتاب العربي،بيروت.

٥٤. معالم التنزيل في تفسير القرآن:أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ،تحقيق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ط.الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م،دار طيبة للنشر والتوزيع.

٥٥. معالم الشخصية الإسلامية :عمر سليمان الأشقر ،دار النفائس،الأردن،ط٦، ١٤١٥،ه.

٥٦. المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة:عبد المنعم الحفني،ط٢٠٠٠،٣،مكتبة مدبولي،القاهرة.

٥٧. المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية؛ ،المطابع الأمرية،القاهرة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م،ص: ٢٠٨.

٥٨. معجم اللغة العربية المعاصرة:أحمد مختار عمر ،ط.الأولى١٤٢٩هـ٢٠٠٨،عالم الكتب.

٥٩. المعجم الوجيز،مجمع اللغة العربية،القاهرة، ١٩٩٧.

٦٠. معجم مقاييس اللغة:ابن فارس،تحقيق:عبد السلام محمد هارون١٣٩٩،هـ – ١٩٧٩م،دار الفكر.

٦١. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة:ابن القيم الجوزية،دار الكتب العلمية ،بيروت.

٦٢. مفاتيح الغيب :فخر الدين الرازي،ط.الثالثة، ١٤٢٠ هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت.

٦٣. مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة :علي بن نايف الشحودط.الأولى، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢ م.

٦٤. الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية:محماس الجلعود،ط.الأولى،١٤٠٧هـ ١٩٨٧م،دار اليقين.

٦٥. موسوعة علم السياسة:ناظم عبد الواحد الجاسور،ط١،،٢٠٠٤ ،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،عمان،الأردن.

٦٦. موطأ الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك،تحقيق: بشار عواد معروف،محمود خليل١٤١٢هـ ،مؤسسة الرسالة.

٦٧. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم:علي التهانوي،تقديم وإشراف ومراجعة:رفيق العجم،ط١ ، ،١٩٩٦ لبنان،بيروت.

٦٨. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: علي الفاروقي،تقديم وإشراف ومراجعة:د.رفيق العجم،تحقيق:د.علي دحروج،نقل النص الفارسي إلى العربية:د. عبد الله الخالدي،الترجمة الأجنبية:د.جورج زيناني،ط.الأولى،١٩٩٦م،مكتبة لبنان ناشرون،بيروت.

٦٩. النبوات:ابن تيمية،تحقيق:عبد العزيز بن صالح الطويان،ط.الأولى،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، أضواء السلف،المملكة العربية السعودية.

٧٠. الهوية الإسلامية في زمن العولمة:الدكتور خليل نوري مسيهر العاني،ط.١ ، ١٤٣٠، ٢٠٠٩، ديوان الوقف السني،مركز البحوث والدراسات الإسلامية،العراق.

٧١. الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم،ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات وثقافية وسياسية: رشيد بلحبيب،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط. الأولى، بيروت،٢٠١٣

محمد يسري إبراهيم

- **الجنسية :** مصـــــري
- **تاريخ الميلاد :** ١/٥/١٣٨٦هـ - ١٥/٩/١٩٦٦م
- **مكان الميلاد :** القاهــــــرة

المؤهلات العلمية :

البكالوريوس في الهندسة	بتقدير جيد جدًا جامعة المنيا- عام ١٩٨٨م، - تقدير المشروع ممتاز
الماجستير في الهندسة	بتقدير ممتاز جامعة المنيا- عام ١٩٩٣م.
الدكتوراه في الهندسة	بتقدير ممتاز جامعة القاهرة- عام ١٩٩٨م.
الإجازة العالية "البكالوريوس" في الشريعة الإسلامية	بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف جامعة الأزهر - عام ١٩٩٧م
درجة التخصص (الماجستير) في الشريعة الإسلامية	بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف جامعة الأزهر - عام ٢٠٠٣م، والتوصية بالطبع والتبادل بين الجامعات. بعنوان: الجناية العمد للطبيب على الأعضاء البشرية بالجراحة الطبية.
درجة العالمية (الدكتوراه) في الشريعة الإسلامية	بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف جامعة الأزهر - عام ٢٠١١م، والتوصية بالطبع والتبادل بين الجامعات بعنوان "النوازل الفقهية للأقليات المسلمة، تأصيلاً وتطبيقًا".
حاصل على جائزة الأمير نايف العالمية للدراسات الإسلامية سنة ١٤٢٨هـ	عن بحث بعنوان (الفتوى: أهميتها وضوابطها وآثارها).

الوظائف العلمية :

١- دكتور باحث بالمركز القومي للبحوث	وزارة البحث العلمي- القاهرة.
٢- نائب رئيس الجامعة وعضو مجلس أمناء	الجامعة الأمريكية المفتوحة- واشنطن
٣- وكيل الجامعة لشئون البحث العلمي	جامعة المدينة العالمية - ماليزيا

معالجة القرآن الكريم لأزمة الهوية وخواء الذات من خلال قصة آدم

بحث مقدم من

د. محمد يسري إبراهيم حسين

مقدمة

إن الحمـد لله نحمـده ونستعينه ونستغفـره، ونعوذ بالله من شـرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقَاته وَلَا تَمُوتُـنَّ إِلَّا وَأَنْتُـمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنْهَـا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُـوا اللَّه الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِه وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:٧٠]، أما بعـد،،

فمـن الغنـي عن البيان أن مجتمعاتنـا المعاصرة تواجه العديد مـن المشكلات المتداخلة والمترابطـة، نظـرًا لتقلب مجريات الحياة في هـذه المجتمعات بتقلب الليـل والنهار، في زمن انفتحـت فيه الدنيـا على مصراعيها؛ فقـد صرنا في حقيقة الأمر نعيشـ في عالم يجتمع في غرفـة واحدة، وصار المرء يتلقَّى آراء عديدة وتوجهات متغايرة، ومعطيات ثقافية واجتماعية غريبـة أفرزهـا الاختراق الفكـري والثقافي لقوى العولمـة، وما فرضته مـن ضغوط إعلامية واقتصادية وسياسية، مما أدى لفتح أبواب الشهوات والشبهات على الناس على مصاريعها، بدعـوى عدم الحجر على الأفكار وإعمال العقل، مع غض الطرف عن ضعف التربية الدينية وانعـدام الحصانـة الفكرية وانتشـار الأخلاق الرديـة واستحكام ركيزة الهـوى في القلوب، فكانت النتيجة فقدان الهوية الإسلامية، وخواء الذات المسلمة.

والناظـر لحال أمتنا وما وصلت إليه من هزيمة نفسيـة واستعمار فكري، بالإضافة إلى الحصـار الإعلامي الذي أنتج جيلاً تائهًـا ضعيفًا لا هدف له في الحياة ولا يعرف لها معنى، يـدرك أن الأزمـة أكـبر من أن تكـون أزمة تدين أو أخـلاق، ولكنها أزمة هويـة، فالمسلم إذا تساهـل في الالتزام ببعض أمور دينه أو وقع في بعض المعاصي يظل مسلماً يعلم معنى الطاعة والمعصيـة، أمـا إذا كان المعيار مختـلاً، والمرجعية غائبـة فهذا هو الـداء العضال، والمرض الفتاك، والخطر الداهم الذي بات يهدد هذه الأمة.

وفي خِضَمٍّ هذه التحديات، وجب على أهل العلم الشرعي أن تكون لديهم رؤية ناضجة في مواجهة هذه الأخطار، بإحياء الهوية الإسلامية في القلوب، وترسيخها في النفوس، بإيقاظ القوَّة العقدية، وتثبيت الركائز الفكرية، والنهل من معين القرآن الصافي، مع تجديد أسلوب الطرح والعرض، بما يناسب العصر وثقافته.

وعليه فقد رأيت طرح قصة آدم عليه السلام كأساس قرآني لترسيخ قضية الهوية، وإبراز قيمة تدبرها في البناء الفكري السليم للمسلم، وأهمية تلقينها للشباب للإجابة عن الأسئلة الكونية الكبرى: (كيف جئت؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين المصير؟)، وإرشاد المسلمين إلى ما في كلام ربهم من المحكمات التي تغنيهم عن تسول آراء الغرب والشرق المختلفة والمتباينة التي لا تزيد مريدها إلا حيرة على حيرته، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وقد استخدمت في هذا البحث المنهج التحليلي الاستنباطي في عموم البحث، مع استخدام المنهج المقارن في بعض النقاط بغرض إبراز الإعجاز النفسي في القرآن بإذعان العلم الحديث لإرشادات القرآن تارة، ولبيان فشل المناهج الوضعية في إشباع حاجات الإنسان النفسية تارة أخرى.

سبب اختيار الموضوع:

انتشار تيارات الإلحاد بين الشباب.

الإقبال الكبير على دورات البرمجة العصبية والتنمية البشرية مما يدل على تعطش الشباب للتوجيه فيما يتعلق ببناء الشخصية، والتي تعتبر الهوية أساسها، ولا شك في أن الدعاة والعلماء الشرعيين يتحتم عليهم سد هذا الفراغ بما هو مستند إلى الأسس الشرعية الصحيحة.

ارتفاع نسب المترددين على العيادات النفسية من الأصحاء، وارتفاع نسب الإصابة بالاكتئاب والأمراض النفسية بين المسلمين.

أهداف البحث:

١. بيـان معنى الهويـة الإسلامية، وضرورة التمسك بها لإخـراج المسلمين من كبوتهم المعاصرة.
٢. عرض جوانب بناء القرآن لهوية المسلم من خلال قصة آدم.
٣. لفـت أنظار الباحثين في مجـال علم النفس وبناء الشخصية إلى معين القرآن الذي لا ينضب.

وقد اقتضى حسن الترتيب أن يقسم هذا البحث كما يلي:

- **المبحث الأول:** معنى الهوية وأزمتها.
- **المبحث الثاني:** علاج أزمة الهوية من خلال قصة آدم.
- **المبحث الثالث:** الآثار الإيجابية للبناء الصحيح للهوية الإسلامية.
- خاتمة.

والله أسـأل أن يكـون هذا البحث نـوراً لمن أراد الهدايـة والتثبيت على سلَّـم الشريعة؛ ومعيناً لمن أراد أن يكون معتنياً بحماية عقله وأن يدفع عن نفسه مكائد أهل الضلال، وسريان الأفكار المضلِّلَة إلى عقله وقلبه.

والله من وراء القصد ولاحول ولا قوة إلا بالله.

المبحث الأول

معنى الهوية، وأزمة الهوية الإسلامية

الهويــة مصطلح فكري فلسفي قديم، له استخدام لغــوي أصيل، واستخدام اصطلاحي بــين علماء المنطق والــكلام، واصطلاح حادث لدى المعاصرين من علمــاء النفس، وفيما يلي تعريف الهوية وبيان المعنى المراد منها في هذا البحث.

الهوية في اللغة :

أصــل كلمة الهوية في اللغة، من فعل (هوي) بمعنى سقط، قال ابن فارس: "الهاء والواو واليــاء: أصــل صحيح يدل علــى خلو وسقوط"[١]، وتطلــق في اللغة على تصغــير الهوة، وهي "الوهدة العميقة"[٢]، قال ابن منظور: "الهوية: موضعٌ يَهْوِي مَنْ عَلَيْهِ أي يَسْقُط"[٣].

الهوية في اصطلاح المناطقة :

أمــا الهوية في اصطلاح المناطقــة والفلاسفة فهي حقيقة الشــيء باعتبار ما يميزه عن غــيره، قــال الجرجاني: "حقيقة الشيء: ما به الشيء هو هــو، كالحيوان الناطق للإنسان... إن ما به الشيء هو هو باعتبار تحققه: حقيقة، وباعتياز تشخصه: هوية، ومع قطع النظر عن ذلــك: ماهية"[٤]، وقال المنــاوي: "الصورة الحاصلة في العقل من حيــث إنها تقصد باللفظ تسمــى معنى، ومن حيث حصولها من اللفظ في العقــل تسمى مفهوما، ومن حيث أنها مقولة في جواب ما هو تسمى ماهية، ومن حيث ثبوتها في الخارج تسمى حقيقة، ومن حيث امتيازها مــن الأعيان تسمى هوية"[٥]، ويتبين من هــذا أن مصطلح الهوية منحوت من كلمة (هو هو) التي يعبر بها عن حقيقة الشيء عند الفلاسفة، وليس من الهوي بمعنى السقوط.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٦/١٥).

(٢) الصحاح للجوهري (٦/٢٥٣٨).

(٣) لسان العرب، لابن منظور (٦/٣١٦).

(٤) التعريفات، للجرجاني (٩٠)

(٥) التوقيف، للمناوي (٣٠٩).

الهوية في اصطلاح المعاصرين:

يتعامل علماء النفس مع مصطلحات الهوية والشخصية والذات وغيرها على أنها مصطلحات مترادفة أو متقاربة، وقد عرّف أريكسون – الذي يعتبر الأب لهذا المصطلح- الهويّة الشخصية، أو الذّات، بأنّها: "الوعي الذّاتي ذو الأهميّة بالنّسبة لاستمراريّة الأيديولوجيّة الشخصية، وفلسفة الحياة الّتي يمكن أن توجّه الفرد، وتساعده في الاختيار بين إمكانيّات متعدّدة، وكذلك توجّه سلوكه الشّخصيّ"[1]، ويمكن التعبير عن الهوية بعبارة أوضح من ذلك، وذلك مثل التعريف الذي يقول: "هوية الشخص هي مجموع الخصائص الملازمة له، والتي يتميز بها عن غيره"[2]، ويقاربه قول د.محمد إسماعيل المقدم: "تعريف الإنسان نفسه فكراً وثقافة وأسلوب حياة.. أو هي مجموعة الأوصاف والسلوكيات التي تميز الشخص عن غيره"[3].

الهوية الإسلامية:

لما كانت الهوية - بالمعنى العام في إحدى تعريفاتها- هي تعريف الإنسان نفسه فكراً وسلوكاً ومنهج حياة، اتضح أن الهوية الإسلامية هي أن يختار المسلم ويرتضي لنفسه فكراً منبثقاً من الإسلام عقيدة وأصولاً، وسلوكاً هو تطبيق لآداب الإسلام وأوامره وأحكامه، ومنهج حياة يحكم جميع جوانب الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية من وجهة نظر إسلامية، ولا تقتصر على جانب دون آخر، فهوية المسلم تتمثل في حفاظه على دينه، واعتزازه به وتمسكه بتعاليمه والتزامه بمنهجه في صغير الأمور وكبيرها، أما الانتماء للهوية الإسلامية فقد عرف بأنه: "الإيمان بعقيدة هذه الأمة، والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية، وإبراز الشعائر الإسلامية، والاعتزاز والتمسك بها، والشعور بالتميز والاستقلالية الفردية والجماعية، والقيام بحق الرسالة وواجب البلاغ، والشهادة على الناس"[4].

(1) costalat-Founeau.A-M.1997 p22

(٢) مستفاد من تعريف د.محمد بودهان في مقاله: ما هي الهوية؟ المنشور على موقع هسبريس.

(٣) الهوية أو الهاوية لد.محمد إسماعيل المقدم (٢).

(٤) الهوية الإسلامية لخليل نوري: ص: ٤٥.

ولكـي يصدق علـى أي هوية لأية جماعة بشرية هذا الاسـم لا بد لها من وجود مقومات تمكنهـا من البقاء والمنافسـة والاستمرارية، وهذه المكونات تتلخص في وجود عقيدة واحدة يؤمـن بهـا أفراد هـذا المجتمع، وتاريخ جامـع لأيامه وأحوالـه، وثقافة تجمع تحتهـا لغة أم، وعلومًـا وفنونًا وآداب وعادات وأعراف، وقد اشتملت الهوية الإسلامية على هذه الثلاث على أتم صورة.

وتتميـز الهويـة الإسلامية عن غيرهـا بأنها هوية ربانية فهـي في الواقع تحقيق وتطبيق لقـول الله تعالى: ﴿صِبْغَـةَ اللَّهِ وَمَـنْ أَحْسَنُ مِـنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقـرة:١٣٨]، "فالصبغة هـي الإسلام، وذلك لأن الإسلام يصبغ الإنسان بصبغـة خاصة في عقيدته وفكره ومشاعره وتصوراته وآماله وأهدافه وسلوكه وأعماله، وهذا يقتضي أن نطرح أهوائنا جانباً ونحن نعمل بالإسـلام ونربـي عليه، فنحن لا نريد أن نربي الناس علـى تصوراتنا ومناهجنا نحن"[(١)]، قـال القرطبي في تفسيره للآية السابقة: "فسمى الدين صبغـة استعارة ومجازاً حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب"[(٢)].

ومـن ميزات الهوية الإسلامية كذلك أنها هوية شاملـة لا تتجزأ، فهي عبارة عن تكامل فكري وتطبيقي، لا يصلح للمرء إلا أن يأخذها جملة، فلا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ثـم إنها هوية ثابتة وراسخة، بثبات مصدرها الذي تستند إليه وهو الوحي المعصوم، ثم إنها هويـة شديدة الفاعلية والتأثير في حياة المنتمين إليها والمتمسكين بها جماعات وأفرادًا، حتى إنه حول العرب من أمة لا قيمة لها بين الأمم إلى أمة يهابها الشرق والغرب، كسرت كسرى، وقصرت قيصر، وأثرت في سلوك أفرادها تأثيرًا لم يسبق إليه.

أزمة الهوية الإسلامية :

لم يدخـر أعدائنـا جهداً في تفريـغ هذا الدين عن محتـواه وطمس الهويـة الإسلامية، واستبدالهـا بالهويات القوميـة والعرقية والليبرالية التي جاءت لتحـل محل الهويات المناوئة للهويـة الغربية، ولتذيب كل العصبيات والهويات الصالـح منها والفاسد، عن طريق العولمة،

(١) معـالم الشخصيـة الإسلامية للدكتور عمر سليمـان الأشقر، من كتاب محاضـرات إسلامية هادفة (ص٢٨٣-٢٨٤) باختصار.

(٢) تفسير القرطبي (١٤٤/٢).

وقد حشد الغرب لذلك الجيوش من المستشرقين والإعلاميين والكتاب، الذين راحوا يشككون في الثوابت وينتقصون من الدين ويروجون للتغريب في كل محفل وفي كل مجال، رامين إلى استلاب الهوية الإسلامية من المسلمين، مستخدمين وسائل متعددة منها:

١. التهوين من بعض أحكام الدين بدعوى أنها ليست من مقاصد الدين ولبه.
٢. محاربة الدين في أحكامه ونصوصه وشعائره وشرائعه وعلمائه ورموزه.
٣. الاهتمام المبالغ فيه بإحياء الأساطير الوثنية والخرافات الشركية.
٤. التآمر على اللغة العربية.
٥. محاولة طمس المكونات الثقافية الأصيلة للأمة الإسلامية، كالزي والتقاليد وطريق الحياة، واستبدال ذلك بالنموذج الغربي.
٦. غزو الأوساط المثقفة والجامعات من خلال السيطرة على فكر عدد من الأدباء والمفكرين.
٧. طمس التاريخ الإسلامي وتفريغه من محتواه، مع تصدير تواريخ أخرى للمسلمين يستمدون منها هويتهم كالتاريخ الفرعوني مثلاً.
٨. إحياء النعرات والقوميات التي تمزق الأمة الإسلامية.
٩. إشغال المسلمين بالترفيه والشهوات.
١٠. استقطاب المرأة المسلمة، والتغرير بها.
١١. النشاط التنصيري الذي يستغل الفقر والمرض.
١٢. استغلال العامل الاقتصادي في تذويب الهوية.
١٣. الحرب النفسية المدعمة بالأساليب التعسفية.[١]

وقد أفلحت تلك الوسائل في تغييب هوية كثير من المسلمين، وتزيين الانصياع لكل ما يصدر عن الغرب من أفكار وآراء ومعتقدات؛ وقد أخبرنا النبي ﷺ عن حصول ذلك آخر الزمان كما في حديث رسول الله ﷺ، قال: "لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه"، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: "فمن"[٢]، ومن المظاهر التي تدل على تلك الأزمة لدى الأمة المسلمة في الوقت الحاضر، فمنها:

(١) انظر: الهوية أو الهاوية د.محمد إسماعيل المقدم؛ (ص ٤٣-٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

١. غياب التصور الصحيح الواضح للهدف والغاية من الحياة لدى كثير من المسلمين.
٢. اختلال ميزان القيم: فبعد أن كانت القيم الإسلامية في السابق هي المعايير التي تقيم على أساسها السلوكيات والمواقف، ويقف الجميع عند حدودها بدوافع دينية ذاتية، وبدوافع اجتماعية خارجية، تغير الحال واضطرب الميزان الذي يقاس عليه السلوك، وانتشرت اللاأخلاقية والمجاهرة بها، بل آل الأمر بكثير من المسلمين إلى الاقتناع بأن مُجرد الالتزام بالمُحدِدَات القيمية الدينية لا يعدو إلا أن يكون رجعية يجب تجاوزها، وعدم الارتهان إليها، بقدر ما تجاوزتها قيم الغرب المُنظور إليها من قبلهم بأنها الوسيلة المُثلى لإحداث الأثر الإيجابي في بُنية المجتمع الراغب في إثبات حضوره كمُجتمع مُتحضّر من وجهة نظرهم.
٣. انتشار النزعة الاستهلاكية: فقد أدركت الدول الكبرى أنه لا يمكن أن ينجح التسويق العالمي دون تغيير نمط الحياة والسلوك في البلاد الفقيرة، وذلك لن يتم إلا بنشر القيم الاستهلاكية، فعملوا على تزيين الرفاهية وربطها بالسعادة الشخصية، ونشر قيم اللامبالاة والكسل والتفاهة.
٤. انغماس الناس في ألوان الشهوات والملذات وانتشار الفواحش.
٥. زيادة العنف والنزوع إلى الجريمة.
٦. زيادة نسب التفكك الأسري عن طريق الطلاق أو الشقاق المستمر.
٧. التمسك بالعادات الغربية: يظهر الانبهار بالغرب في اتباع العادات الغربية ليس فقط في المأكل والمشرب والملبس ولكن في التعاملات والاحتفالات والأعياد واللغة وأنظمة التعليم وغيرها من نواحي الحياة، مما يعكس الروح الانهزامية للمسلمين، وهذا هو أحد صور العولمة التي يسعون صراحة لصبغنا بها بدلاً عن صبغة الله التي هي الإسلام، فقد بلغت الجرأة بالرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون إلى أن قال: "إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشري، وإننا نستشعر أن علينا التزاماً مقدساً بتحويل العالم إلى صورتنا"، قالها بالإنجليزية:(To transfer the world in our image).

أزمة الهوية من وجهة النظر النفسية:

بحث علماء النفس أزمة غياب الهوية بحثًا موسعًا، وقد قرروا أن وصول الإنسان لوضح الهوية يمر عبر المراحل الآتية:

أولاً: تكوين صورة واضحة عن الذات "Self image"

ونعني بها الإجابة عن الأسئلة: من أنا؟ وماذا أريد؟ من أحب؟ ومن أكره؟

فصورة الذات تعني نظرة الفرد لنفسه، وقيمه وأهدافه، ومشاعره وأحاسيسه تجاه من حوله، وتؤدي الصورة السلبية عن الذات إلى احترام ضعيف للذات.

ثانياً: احترام أو "اعتبار" الذات "Self esteem"

وتعني اعتقاد الشخص عن نفسه أو تقييمه لها من حيث إمكانياته ومنجزاته وأهدافه، ومواطن قوته وضعفه، وعلاقاته بالآخرين، ومدى استقلاليته واعتماده على نفسه، والثقة بالنفس جزء من أجزاء احترام الذات.

وقد يكون احترام الذات عالياً أو منخفضاً لدى الشخص، والاعتبار المنخفض للذات يترك العنان لذلك الصوت الداخلي الناقد والمشكك، والمثبط للهمم الذي يدفع إلى التردد عند مواجهة أي تحد، مع الاستسلام أو الهروب مبكرًا، وينشأ اعتبار الذات القوي عن صورة الذات الايجابية المدعومة بالثقة وقوة الإرادة والتصميم، ولا يحدث هذا إلا إذا كان الشخص واثقاً بنفسه، ومتقبلاً ومتوافقاً مع ذاته ومع الآخرين.

ثالثاً: تحقيق الذات "Self actualization"

وتقييم الفرد لذاته يتولد من الصغر تدريجياً بالمقارنة مع ذات مثالية يحلم بها، وتنموا مع الوقت الرغبة لدى الإنسان في تحقيق هذه الذات المثالية، والأصل أن يسعى الإنسان إلى تحقيق ذات واقعية تتواءم مع إمكانياته وخبراته ودرجة تكيفه مع بيئته، لا أن يلهث وراء ذات مثالية لا يمكن تحقيقها في الواقع، فيمكن إذن التعبير عن تحقيق الذات بتحقيق الأهداف العامة في الحياة، أو أداء الرسالة في الحياة، ويستغل الإنسان الإمكانيات الذاتية والظروف الكامنة لتطوير الذات الواقعية إلى تلك الذات المنشودة، التي تحقق للشخص السلام والوئام مع نفسه وبيئته، كما أن إحباط حاجات احترام الذات وتحقيق الذات يجعل الفرد يعاني من فراغ كبير ويشعر بأن الحياة لا قيمة لها ومتعبة ومملة.

وقد حدد مارشيا (من علماء النفس) أصناف الناس في أزمة الهوية في أربعة رتب أساسية تتمثل في[1]:

---

(١) مدارس علم النفس لد.حسين عبد الفتاح الغامدي، ٢٠٠١، (٢٢١، ٢٤٢).

١. **تحقيق الهوية :** تمثل الرتبة المثالية للهوية حيث يتم تحقيقها نتيجة لخبرة الفرد للأزمة من جانب مروره بفترة مؤقتة من الاستكشاف أو التعليق المختلط، المتضمن اختبار القيم والمعتقدات والأهداف والأدوار المتاحة، وانتقاء ما كان ذا معنى أو قيمة شخصية واجتماعية منها، ثم التزامه الحقيقي بما تم اختياره من قبل، وهذه المرحلة تعني وصول الشخص للهوية الواضحة والتزامه بها.

٢. **تعليق الهوية :** يفشل المراهق في رتبة التعليق من اكتشاف هويته إذ تستمر خبرته للأزمة ممثلة في استمرار محاولته لاختبار وتجريب الخيارات المتاحة دون الوصول إلى قرار نهائي، ودون إبداء التزام حقيقي بخيارات محددة منها، مما يدفعه إلى تغييره من وقت لآخر في محاولة منه للوصل إلى ما يناسبه، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر تغير مجال الدراسة أو المهنة أو الهويات أو الأصدقاء، فهذه المرحلة هي مرحلة البحث عن الهوية.

٣. **انغلاق الهوية :** يرتبط انغلاق هوية الأنا بغياب الأزمة متمثلة في تجنب الفرد لأية محاولة ذاتية للكشف عن معتقدات وأهداف وأدوار اجتماعية ذات معنى أو قيمة في الحياة، مكتفيًا بالالتزام والرضا بما يحدد له من قبل قوى خارجية كالأسرة والمجتمع، فهذه المرحلة مرحلة من خضع للهوية المقدمة له من الخارج والتزم بها، مع رفضه محاولة اختبار هذه الهوية، أو التأكد من نسبتها إلى الحق.

٤. **تشتت (تفكك) الهوية :** يرتبط تشتت الهوية بغياب أزمة الهوية، متمثلًا في عدم إحساس الفرد بالحاجة إلى تكوين فلسفة أو أهداف أو أدوار محددة في الحياة من جانب، وغياب الالتزام بما شاءت الصدف أن يمارس من أدوار من جانب آخر، ويحدث ذلك كنتيجة لتلافي الفرد في هذا النمط للبحث والاختبار كوسيلة للاختيار المناسب مفضلًا التوافق مع المشكلات أو حلها عن طريق تأجيل وتعطيل الاختيار بين أي من الخيارات المتاحة، فهذه مرحلة من لم يتبع أي هوية، ولم يلتزم بأي مبدأ، لا لأنه في طور البحث والاختبار، بل لأنه معرض عن القضية برمتها منشغل عنها.

ويشرح إريكسون أزمة الهوية عند المراهقين فيبين أن عملية التشكيل تبدأ بظهور أزمة مجسدة في درجة من القلق والاضطراب، المقترن بمحاولة المراهق تحديد فلسفة حياة

محــددة، واكتشاف ما يناسبه مــن معتقدات وأدوار وعلاقات اجتماعيــة ذات معنى أو قيمة على الصعيد الشخصي والاجتماعي، وبلغة أخرى فهي سعى ومحاولة لإيجاد حلول لتساؤلات محوريــة ووجودية منها من أنــا؟ إلى من أنتمي؟ ماذا أعتقد؟ ما هــو دوري في الحياة؟ ماذا ينتظــر مني المجتمع؟ وتنتهــي الأزمة ويتم تحقيــق الهوية في الظروف الحسنــة بانتهاء هذا الاضطراب، أما الفشل والخبرات والصراعات المؤلمة فإنها تؤدي إلى اضطراب هوية الأنا في مرحلة المراهقة، وقد يأخذ هذا الاضطراب من وجهة نظر اريكسون شكلين أساسين:

فــالأول يتمثل في اضطــراب المراهق في تحديد دوره في الحياة، حيــث يفشل المراهق في إدراك ذاتــه إدراكًا صحيحًــا، مما يــؤدي إلى الإحساس الغامض بالــذات، والفشل في تبني أدوار اجتماعية ثابتة ذات قيمة.

أمــا الشــكل الثــاني فيتمثل في تبنــي الهويــة السلبيــة، والمرتبطــة أساسًــا بالإحساس بالتفــكك الداخلــي، الذي يــؤدي إلى غيــاب أهداف المراهــق في الحياة، وعــدم الرضا عن أدواره الاجتماعيــة، بل يتعدى الأمــر إلى أخطر من ذلك عندما يلجأ المراهق إلى تبني أدوار اجتماعية سلبية كالانحراف والمخدرات والجريمة...الخ[(1)].

وبتطبيــق تصنيــف علمــاء النفس لمراتــب الهوية على الهويــة الإسلامية يتضــح لنا أن أصناف المسلمين بهذا الاعتبار لا تخرج عن:

أولًا: مرتبة تحقيق الهوية الإسلامية: وتعني وضوح القيم، والمعتقدات الإسلامية، ومن ثم وضوح الأهداف والأدوار المترتبة عليها، ثم الالتزام الحقيقي بما تمليه عليه تلك الهوية من سلوكيات وأخلاقيات وأسلوب حياة.

ثانيًــا: مرتبــة تعليــق الهوية الإسلاميــة (تمييــع الهويــة): وهــي حين يفشــل الشخص في اكتشــاف هويتــه، فلا تتضح عنده الصــورة الصحيحة عن الإســلام وشموله لكل جوانب الحيــاة، ولا يستطيــع أن يفهــم دوره في الحيــاة في إطــار الدين، ويقع في حــيرة وشكوك بين الشعــور الفطري بصحة هــذا الدين، وبين شبهات الأعداء الذيــن يوهمونه بأنه لن يستطيع أن يعيش بهذا الدين، وأن الإسلام لن يلبي احتياجاته النفسية والعصرية، فيقع في التذبذب

(١) التعليم وأزمة الهوية الثقافية، لمحمد عبد الرؤوف عطية، ٢٠٠٩، (٢٤-٢٥).

وتجريب الخيارات المتاحة دون الوصول إلى قرار نهائي، ودون إبداء التزام حقيقي بخيارات محددة منها، مما يدفعه إلى تغيير سلوكه من وقت لآخر في محاولة منه للوصل إلى ما يناسبه.

ثالثًا: مرتبة تفكيك الهوية (انعدام الهوية): ويقصد به غياب أزمة الهوية متمثلًا في عدم إحساس الفرد بالحاجة إلى تكوين فلسفة أو أهداف أو أدوار محددة في الحياة، فلا يهمه البحث عن حقيقة هويته الإسلامية أو مدى التزامه بها، ولا يهمه البحث عن هوية أخرى، بل يعيش ليأكل ويشرب ويستمتع بالحياة وفقط، بلا هدف ولا معنى.

أما مراتب هوية المسلم بالنظر إلى علاقة هوية الفرد بهوية الجماعة فإن الهوية تنقسم إلى أحد مراتب ثلاثة:

١. إما أن تتوافق هوية الفرد الإسلامية مع هوية المجتمع المسلم فيتعمق إحساسه بالانتماء لهذا المجتمع واعتزازه به.

٢. أو تتصادم الهويتان فإما أن يتمسك الفرد بهويته الإسلامية مع تحلل المجتمع منها، فتظهر أزمة الاغتراب، التي أشار النبي ﷺ إليها بقوله: "إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء"(١)، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "قيل: من الغرباء؟ فقال: أناس قليل في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم"(٢)، أو أن يتحلل الفرد من الهوية الإسلامية مع تمسك المجتمع بها، فتظهر صورة الفسق والعصيان والخروج على المجتمع.

٣. أن تتصادم الهويتان ولكن يتظاهر الشخص برضاه عن القيم والسلوك والأعراف الإسلامية وخضوعه لها خوفا من عقاب أو طمعًا في ثواب، وهو المنافق الذي يُظْهِر خلاف ما يبطن، وقد قال الله تعالى في المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهِ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٤٢]، وقال فيهم رسول الله ﷺ: "تجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩٤)، ومسلم (٢٥٢٦).

المبحث الثاني

علاج أزمة الهوية من خلال قصة آدم عليه السلام

تعتبر قصة آدم الركيزة الأولى التي يبني عليها الإنسان صورته الذاتية عن نفسه وطبيعته البشرية، وعن غاية خلقه، وعلاقته بخالقه، والكون من حوله، ففيها الإجابة عن الأسئلة الأساسية والمحيرة: من أنا؟ وكيف جئت؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين المصير؟ فتختص هذه القصة العظيمة ببناء هوية المسلم، وإرساء دعائم الشخصية الإسلامية وأركان التصور الإسلامي في النفس، وذلك من جوانب ثلاثة:

الجانب الأول: تكوين نظرة الإنسان الصحيحة لنفسه وعلاقته بالكون:

وذلك عن طريق ما يلي:

١. معرفة الإنسان لطبيعته وحقيقته وشرف مادته.
٢. معرفته صفات نفسه، ونظرته الصحيحة لغرائزه.
٣. معرفة الإنسان شرف مكانته بين الكائنات بتحمله للأمانة والمسئولية.
٤. معرفة الإنسان شرف الوظيفة التي أوكلها الله إليه، والمفهوم الصحيح للهدف من الحياة.

أولًا: معرفة الإنسان لطبيعته وحقيقته وشرف مادته:

إن أول ما تبنيه قصة آدم في نفس المسلم هو وعيه بكرامة طبيعته وشرف مادته، وترفع قصة آدم هذا البناء النفسي على دعائم ثلاث، فالأولى بيان شرف مادة الإنسان التي خلق منها، ثم بيان شرف كيفية خلق الإنسان، ثم بيان شرف الإنسان ومنزلته بين غيره من المخلوقات، فتبين له أول ما تبين أنه خلق من مادة شريفة تركبت من قبضة من طين الأرض، مع نفخة من روح الله، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[ص:٧١-٧٢]، ثم تبين الآيات بعد ذلك شرف الطريقة التي خلق بها الإنسان الأول، وهي خلقه بيد الله عز وجل، قال تعالى:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، وتبين بعد ذلك أثر هذا التشريف الإلهي على مكانة الإنسان بين مخلوقات الله تعالى، وذلك في أمر الملائكة المقربين بالسجود لآدم، كما مر في الآيتين السابقتين، وتؤكد السنة النبوية هذا التصور القرآني وتفصله كما ورد في حديث الشفاعة، من قول النبي ﷺ: "يَجْمَعُ اللَّه الأَوَّلِينَ وَالآخرِينَ فِي صَعيد وَاحد، فَيُبْصرُهُمُ النَّاظرُ وَيُسْمعُهُمُ الدَّاعي، وَتَدْنُو منهُمُ الشَّمْسُ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاس: أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فيه، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاس: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَر، خَلَقَكَ اللَّه بيَده، وَنَفَخَ فيكَ منْ رُوحه، وَأَمَرَ المَلاَئكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ، أَلاَ تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فيه وَمَا بَلَغَنَا؟"[1].

وإن المدارس الوضعية والفلسفات المادية – التي لا تعرف من الإنسان إلا صورة اللحم والدم، وتنظر له نظرة دونية باطلة لا تعرف له مبدأ شريفًا ولا غاية محمودة إلا التحلل والهلاك – قد أثبتت فشلها الذريع في تحقيق السعادة والراحة النفسية لأصحابها، وذلك لما في تصورهم الباطل من احتقار الذات وعدم تقديرها، ومن ثم عدم الطموح لتحديد أهداف وغايات سامية، فضلًا عن السعي لتحقيق تلك الأهداف والغايات، فهذه النظرة الدونية للإنسان لنفسه تفقده هويته الإنسانية، وتجعله في نظر نفسه حيوانًا ماديًا كغيره من البهائم.

وقد وافق العلم الحديث قضية الخلق كما أخبر بها القرآن في قصة آدم من جهتين:

١. **الأولى:** إثبات أصل الإنسان الأول وخلقه من طين، خصوصاً بعد انهيار نظرية التطور الداروينية، وبذلك وضعت البشرية علمياً أمام الحقيقة التي تحتم ضرورة الإيمان بوجود خالق لهذا الإنسان.
٢. **الثانية:** إثبات وجود روح للإنسان هي خارج حدود العلم الحديث، فقد أعلن العلم الحديث عن "إعادة اكتشاف الروح"، إذ أعلنوا في الولايات المتحدة أن العقد الأخير من القرن العشرين هو عقد "المخ البشري"؛ لأن المخ هو مكان التقاء المادة- أي الأعصاب- واللامادة، وحاولوا اكتشاف أعظم الألغاز وهو الوعي بالهوية والذات، وكيف يتفاعل الوعي مع الخلايا العصبية في المخ؟ وهل الوعي الذاتي يزيد على كونه مجرد إدراك حسي؟ ومن المشاكل أن "الوعي الذاتي" يوجد في الإنسان فقط،

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

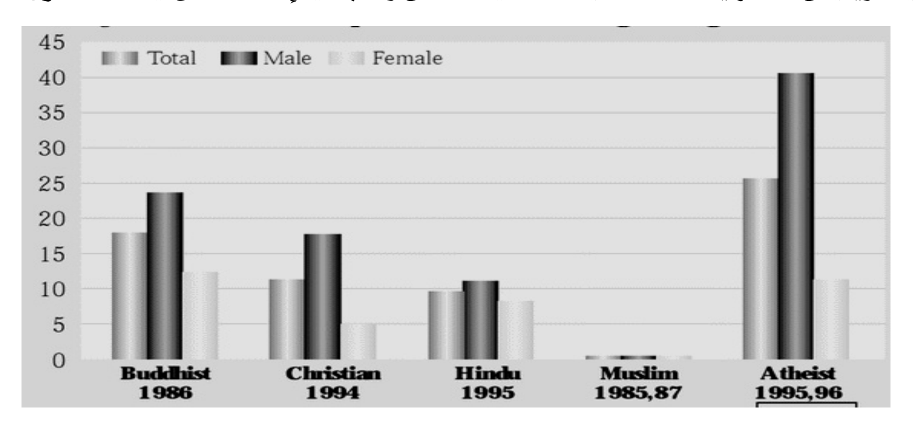
ولذلـك يحتاج إلى مراقبة ذاتية، ولايمكن بالطبـع تعريض البشر لتجارب تتعرض للشبكة العصبية لأدمغتهـم، فكيف يمكننا بوعينا الذاتي حل لغز "وعينا الذاتي"؟ وبنـاء علـى ذلك قرر بعضهـم أن "روح الإنسـان" تمثل الحد الخارجـي للعلم[١]، وبالتالي أبطلت النظرة المادية للإنسان، التي سبق أن أنتجت شعورين مختلفين:

أولهما: شعور بعض الناس بالتفاهة والضياع، والنظر إلى نفسه نظرة حيوانية بحتة.

والثاني: شعور البعض بالغرور والكبر، ذلك الشعور الذي ينتهي بالإنسان إلى حد تأليه نفسه حين يسقط وجود الإله الحق من اعتباره.

"إن اعتقـاد الإنسـان بكرامتـه علـى الله، ومكانه في الملأ الأعلى، ومركـزه القيادي في هذا الكون، يشعر بذاته، ويغالي بقيمة نفسه لأنه يعتز بانتسابه إلى الله، وارتباطه بكل ما في الوجود، فيحيا عزيز النفس، عالي الرأس، أبياً للضيم، عصياً على الذل والهوان، بعيداً عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ.

وهذا الإحساس الذي يعيش به المؤمن ليس شيئاً هيناً ولا بضاعة مزجاة، إنه كسب كبير ومغنـم ضخم للإنسان، كسب له في عالم الشعور والتصـور وفي عالم الواقع والسلوك... وما أعظـم الفرق بين رجلين: يعيش أحدهما وهو يعتقد في نفسه إنه مجرد (حيوان) من فصيلة راقية. ويعيش الآخر يعتقد أنه خليفة الله في الأرض ونائبه في إقامة الحق في هذا الكون!"[٢].



(١) خواء الذات والأدمغة المستوردة، مراد هوفمان، ط الأولى، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢م، (ص٥٤-٥٥) باختصار.

(٢) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي، ط السابعة، مؤسسة الرسالة (ص٦١).

ومن الأدلة على وجود هذا الفرق بين من يعتقد أنه مخلوق لله ومن ينكر ذلك الدراسات العلمية المتعلقة بالانتحار، والتي أثبتت أن أكبر نسبة للانتحار كانت في الدول الأكثر إلحاداً، وعلى رأسها السويد التي توصم بأن شعبها أكثر الشعوب في نسبة الإلحاد((1))، ومنها هذه الدراسة التي قام بها الدكتور جوس مانويل والباحثة أليساندرا فليشمان، وهي دراسة علمية شاملة استندا فيها إلى مراجع الأمم المتحدة الموثقة.

وقد انتهت هذه الدراسة العلمية إلى أن أعلى نسبة للانتحار كانت بين الملحدين، ثم البوذيين ثم المسيحيين ثم الهندوس وأخيراً المسلمين الذين كانت نسبة الانتحار بينهم تقترب من الصفر[٢]، ومن العجيب أن مؤسسة الصحة العالمية فد نشرت في تقرير لها – في إطار البحث عن عوامل الحد من ظاهرة الانتحار– "أن من الوقاية من الانتحار التدين بالإسلام"[٣].

ثانيًا : معرفة الإنسان صفات نفسه ونظرته الصحيحة لغرائزه وتحقيق التوازن بين مطالب الروح والجسد :

من الخصائص المميزة للتصور الإسلامي (الواقعية، والتوازن)، اللذان يظهران بوضوح في التصور الإسلامي للنفس الإنسانية، فالإسلام يثبت وجود الغرائز والشهوات في الإنسان، ويتعامل معها بما يقتضيه التوازن وإعطاء كل ذي حق حقه، فقد قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم:٢١]، وفي هذا إثبات لوجود الغرائز الفطرية في الإنسان من الاحتياج للطّعام والشراب والنكاح، وأن هذه الغرائز غير مذمومة في ذاتها بدليل وقوعها في مقام الامتنان على بني آدم، فالغرائز والشهوات ليست أمراً طارئاً على الإنسان، بل هي فطرته التي فطره الله عليها وأهله بها للخلافة في الأرض، فعلى هذا يستطيع الإنسان

(1) Stack S. Lester D: The effect of religion on suicide ideation. Soc Psychiatry PsychiatrEpidemiol 1991: 26:168–170

(2) Religious Affiliation and Suicide Attempt. 2004. American Psychiatric Association.

(3) Stack S: The effect of religious commitment on suicide: a cross-national analysis. J Health SocBehav 1983
15. Spitzer RL. Williams JBW. Gibbon M. First MB: Structured Clinical Interview for DSM-III-R—Patient Version 1.0 (SCID-P). Washington. DC. American Psychiatric Press. 1990

تحقيق التوازن بين مطالب روحه وجسده كما أمره الله تعالى، فلا كبت ولا صراعات، ولا يكون العلاج في تلبية رغبات الجسد بلا حساب كمايدعي الفرويديون والوضعيون، ولا استقذار للرغبات الجسدية ولوم النفس على تلبيتها وطلب العزوف عنها كما يدعي أصحاب المذاهب المثالية ككثير من فلاسفة اليونان والمانويين وغيرهم، ولكن منهج الإسلام هو التوازن بين الروح والجسد، وعدم إهمال من أجل الآخر.

يقول سيد قطب رحمه الله: "إن "الإنسان" –في التصور الإسلامي- هو هذا "الإنسان" الذي نعهده. هذا الإنسان بقوته وضعفه، بنوازعه وأشواقه، بلحمه ودمه وأعصابه، بجسمه وعقله وروحه... إنه ليس الإنسان كما يريده خيال جامح، أو كما يتمناه حلم سابح مع قضايا ذهنية من قضايا المنطق الشكلي! كما أنه ليس الإنسان الذي يضعه المنطق الوضعي في أسفل سافلين، ويجعله مخلوقاً من مخلوقات هذه "المادة" الصماء! أو من مخلوقات "الاقتصاد"! إنه الإنسان "الواقعي"، والمنهج الإسلامي للحياة –على كل رفعته ونظافته وربانيته ومثاليته- هو في الوقت ذاته منهج لهذا الإنسان في حدود طاقاته الواقعية.. فلا يسوء ظنه بهذا الكائن، ولا يهدر قيمته في صورة ما من صور حياته. كما أنه لا يرفع هذا الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يخلع عليه شيئاً من خصائصها. كذلك لا يتصوره ملكاً نورانياً شفيفاً لا يتلبس بمقتضيات التكوين المادي، ومن ثم لا يستقذر دوافع فطرته ومقتضيات هذا التكوين الفطري، ومع اعتبار المنهج الإسلامي لإنسانية الإنسان من جميع الوجوه فهو وحده الذي يملك أن يصل به إلى أرفع مستوى، يبلغ إليه الإنسان، في أي زمان وفي أي مكان"(١).

وهذا التصور الإسلامي هو التصور المتوازن السالم من شطط كثير من الفلاسفة وعلماء النفس، إذ إن طبيعة الإنسان عند كثير منهم تتلخص في أن الإنسان مادي بحت، لا هدف له إلا إشباع غرائزه وشهواته الحيوانية، أو أنه متدنس بسبب وجود هذه الغرائز، ولا يبلغ الكمال المنشود إلا بالإعراض عن هذه الغرائز والعزوف عن مقتضياتها، فقد ذهب أفلاطون إلى أن نفس الإنسان تنقسم إلى ثلاثة أنفس، هي: النفس العاقلة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية، ثم قرر بعد ذلك أن سعادة النفس في قهر النفس الشهوانية، وتجاهل مطالبها، وأن تمام السعادة إنما هو بتحرر النفس من سجن الجسد والمادة(٢).

---

(١) انظر: التصور الإسلامي ومقوماته لسيد قطب.

(٢) انظر أفلاطون سيرته وآثاره ومذهبه الفلسفي، لجيمس فينيكان (٦٥) وما بعدها.

أما فرويـد فقد افترض أن النفس مكونة من ثلاثة أقسام وهي:

الهـو (DI): وهو مستودع الغرائز والطاقة النفسية، فعندما تثار الغرائز يشعر الإنسان بالتوتـر، ولا يعـود لطبيعته إلا بتفريـغ هذه الطاقة ليعـود التوازن، وهذا الجـزء من النفس يحكمه مبدأ تحقيق اللذة.

الأنـــا(Ego): ويمثـل الجانـب الشعوري، ويقـرر مايشبع من رغباته ومـا يؤجل منها، حسب الظروف المحيطة، ويحكم هذا الجزء من النفس مبدأ الواقع.

الأنـــا الأعلى(Supper ego): وهو الممثل الداخلي لقيم السلوك والأخلاق التي يمتصها الفـرد أثناء عملية التنشئة الاجتماعيـة، وتنزع إلى الكمال... ويحكمهـا مبدأ المثالية وتعمل على كف دفعات الهو، خاصة الدفعات الجنسية والعدوانية، ويطلق عليه اسم الضمير[(١)].

وأهم أسباب الصحة النفسية عند فرويد يتمثل في تفريغ الرغبات المكبوتة في اللاشعور، ويعتـبر فرويد أن أهم هـذه الدوافع والرغبـات الإنسانية هو الجنس، بل إنــه يعطي للجنس "المـكان الأول في الحيـاة النفسية الفردية والجماعية عند الإنسان"[(٢)]، وباتباع آراء فرويد وأمثاله من الإباحيين والماديين يصبح الإنسان عبدًا للذات والشهوات، لا هم له إلا تحصيلها.

وبتقييـم الرأيين السابقين من وجهة النظر الإسلامية نجد أنهما اتفقا على أن الإنسان في طبيعتـه الغرائز والشهوات، فمنهم من استقذرها وأهمل مطالبها، ومنهم من سار خلفها وانشغـل بالاستكثار منها، فهما متفقـان في الجملة على اعتبار الإنسان شريرًا بطبعه، وفيما يلي ذكر لبعض الفروق بين النظرة الإسلامية وغيرها في هذا الجانب:

النظـرة لطبيعة الإنسـان: اتفق الرأيان السابقان في الجملة على اعتبار الإنسان شريرًا بطبعــه، والحـق أنه خيّر بطبعــه كما هي النظـرة الإسلامية التـي دل عليها القـرآن فقال: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم:٣٠]، وأخبرنا رسولنا ﷺ أن: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَـدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانه، أَوْ يُمَجِّسَانه"[(٣)]، فقد خلقه الله في أحسن تقـويم، وجعله مهيئًا لتقبل القيـم والأخلاق وقواعد السلوك الاجتماعـي، فالنفس الإنسانية

(١) ملخص من عدة كتب، انظر أعلام علم النفس، لد. نبيل موسى (٢/٢٧١).

(٢) فكر فرويد، لإدجار بيش، ترجمة جوزف عبد الله (٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

قابلة للتعلم والتزكية، قال تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾[الشمس:٩]، فبالتربية الصالحة تسمو النفس، ويتحقق لها التوازن الذي تنشده الصحة النفسية.(١)

النظرة للشهوات: إن الغرائز والشهوات ليست مذمومة دائماً في نظر الإسلام، فالشهوات والملذات مادية وضعها الله في الإنسان لفائدة حفظ حياته، واستمرار نوعه في تعمير الأراضي، مما يجعل تركها بالمرة مذمومًا، والاعتدال في طلبها من حلال محمودًا، بل أوجب الإسلام الثواب لمن أتى شهوته من طريق مباح، لما في ذلك من المصالح والمنافع، فقد قال رسول الله ﷺ: "إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: "أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر".(٢)

النظرة للتوازن بين الروح والجسد: الشخص السوي في نظر الإسلام قادر على تحقيق التوازن بين مطالب الجسم والروح، وقادر على إشباع حاجاتهما باعتدال في حدود ما أمر الله، وهذا التوازن يجب أن يتم وفق أوامر الله وحدوده، فهو العالم بما يصلح الإنسان ويفسده، أما المذاهب والفلسفات الأخرى فمنهم من لم يعن بقضية التوازن أصلًا ومال إلى أحد الطرفين كما سبق عن فرويد وغيره، ومنهم من حاول تحقيق هذا التوازن لكن لا على منهج الله بل على أساس من الهوى والمنهج الوضعي.

ثالثًا: معرفة الإنسان شرف مكانته بين الكائنات بتحمله للأمانة والمسئولية:

خلق الله تعالى الإنسان مستعدًا استعدادًا فطريًا للقيام برعاية ما كلفه به من أمور تتعلق بدينه ودنياه، فإن وفى ما عليه من الرعاية حصل له الثواب، وإن فرط فيها حصل له العقاب، وهذا هو معنى المسئولية، فقد عرفها الدكتور عبد الله دراز بقوله: "المسئولية هي كون الفرد مكلفاً بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدم عنها حساباً إلى غيره"(٣)، وقيل هي: "حالة يكون فيها الإنسان صالحاً للمؤاخذة على أعماله وملزماً بتبعاتها المختلفة"(٤).

(١) مقال للدكتور كمال ابراهيم مرسي؛ مجلة المسلم المعاصر بعنوان "تعريفات الصحة النفسية" – العدد ٥٠-٥١، ١٩٨٨م، بتصرف.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٣) دستور الأخلاق، لد.محمد عبد الله دراز (١٣٦)..

(٤) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ بإشراف د .صالح بن عبد الله الحميد (٨/ ٢٤٠٠) دار الوسيلة للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

ومن الكلمات القرآنية التي تتقارب مع معنى المسئولية كلمات: الخلافة والتكريم والأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾[الأحزاب:٧٢]، وقد ذكر ابن كثير في تفسير الأمانة عدة أقوال، تدور كلها على الفرائض والطاعات، ثم قال: "وكل هذا الأقوال لا تنافي بينها، بل هي راجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إذا قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله، وبالله المستعان"[١]، وقد بينت قصة آدم هذه المسئولية في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠]، وإدراك الإنسان هذه المسئولية وشرفها له أبلغ الأثر على وضوح هويته ومنهجه وأهدافه في هذه الحياة، فيجعل تحقيق رعاية هذه المسئولية محور حياته، ويسخر ما وهبه الله له من الطاقات والملكات في رعايتها. أما حين تغيب هذه المسئولية عن إدراك الإنسان وتتعطل هذه القوى عن أداء مهمتها يهبط الإنسان إلى درك الأنعام؛ بل إلى أضل من ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف:١٧٩].

والإنسان مسئول عن نفسه، وعن مجتمعه كذلك، وذلك لسببين، الأول: أن الإنسان لا تستقيم له حياة إلا بما يحصله بمعاونة مجتمعه من المصالح والمنافع، فالمسئولية الإيمانية تقتضي أن يتقلد كل إنسان في عنقه قدرًا معتبرًا من الالتزام الأخلاقي والأدبي تجاه الأفراد الآخرين، في مقابل استعانته وانتفاعه بهم. والثاني: أن "الهوية الفردية لا تكتمل إلا بالاندماج في وعي جماعي، حينئذ يشعر الإنسان بقيمته كفرد مجرد، وقيمته كفرد في جماعة أو مجتمع، لأن فلسفة الحياة تكمن في أن ينظر الإنسان لغيره كما ينظر لنفسه، واعتبار ذلك من صميم الإيمان"[٢]، وهو ما يحقق التوازن في نفسية الإنسان وشخصيته بين كونه فردًا له حظوظه وحقوقه.. وبين موقعه الاجتماعي على خريطة الاستخلاف باعتباره لبنة في بناء مجتمعي لا يستغنى عنه بأي حال، فعلى هذا تتشعب مسئولية الفرد إلى شعبتين:

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤٨٩).

(٢) الإنسان في الإسلام.. ماهيته وحقيقة وجوده، لعباس الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، منشورات النادي الجراري، ١٤٠٨هـ-١٩٩٧م ( ).٣٧

مسئولية الفرد تجاه نفسه:

من مبادئ الإسلام التشريعية مبدأ "المسئولية"، والمقام الأول في هذه المسئولية هو مسئولية الفرد تجاه نفسه، فالفرد مسئول عن أقواله وأفعاله مسئولية يترتب عليها الجزاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾[النجم:٣٨-٤١]، وقد قامت نظرية "المسئولية الفردية" في الإسلام على قواعد وأسس فاقت بها نظريات الشرق والغرب، فالمسئول في الإسلام هو العالم العامد القادر، فتعفي الشريعة من المسئولية من لم يكن أهلًا لها من غير المكلفين، كالصغير والمجنون، وكذا المكلف إن لم يقصد الخطأ أو جهله في حدود معينة، وذلك كالجاهل بالحكم أو المكره أو غير العامد، فليست نظرية المسئولية في الإسلام نظرية جامدة مادية، بل هي مرنة حكيمة ترعى أحوال المسئول والظروف المحيطة به، بخلاف النظريات الوضعية التي لا ترى إلا المسؤولية المادية فتوقع العقوبة على من تسبب في الخطأ أيا كان، حتى البهائم![1].

والفرد في الإسلام مسئول عن أقواله وأفعاله ومعتقداته، وهو مسئول قبل ذلك عن حماية فطرته التي فطره الله عليها من التلويث والانتكاس، كما أنه مسئول عن بدنه، فيرفق به ولا يحمله ما لا يطيق، ويشبع حاجاته بلا إفراط ولا تفريط، وهو مسئول أيضًا عن عقله وفكره، فهو مأمور بطلب العلم ليعرف الحق من الباطل في عقيدته وعبادته، وليزكي أخلاقه ويتخير ما يتحلى به من الآداب والعادات.

مسئولية الفرد تجاه إصلاح المجتمع:

رغم أن من المبادئ التي قررها الإسلام مبدأ "شخصية الجزاء"، والذي يعني قصر العقوبة على المذنب وحده، إلا أن الفرد في نظر الإسلام هو جزء المجتمع الإسلامي، فالفرد في الإسلام مسئول عن مجتمعه كذلك ولكنها مسئولية أدبية أو أخلاقية، وليست مسئولية جزائية، وبيان ذلك أن الفرد مجازى على أفعاله بالثواب والعقاب، ثم هو مسئول عن دعوة مجتمعه ونصحه وأمره ونهيه، إلا أنه غير معاقب على أفعال المجتمع وخطاياه، مادام قد قام بدوره المنوط به من الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ

(١) كان هذا سائدًا حتى الثورة الفرنسية، وقال به كثير من الفلاسفة كأفلاطون وغيره، انظر: التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، لعبد القادر عودة (١/٣٨٧)، ودستور الأخلاق في القرآن لدراز (٢٢٣).

لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة:١٠٥]، وهذه الآية لا تنفي مسئولية الفرد نحو المجتمع بل تفرق بين نوعي المسئولية، وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبًا في الناس فقال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[المائدة: ١٠٥]، قال: وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب"[١]، فالإنسان إذن له مع مجتمعه حالات إما أن يقوم بدوره الدعوي للمجتمع وإما أن لا يقوم بذلك، فإن قام بدوره فقد عوفي من المسؤولية الجزائية وبقيت عليه نحو أمته ومجتمعه المسؤولية الأخلاقية والأدبية، وإن لم يقم بدوره فهو مسؤول جزائيًا وعقابيًا عن تركه ما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم إن المجتمع الفاسد قد يصل به الحال - من قلة المصلحين وضعف دورهم - إلى حلول الفتن والعقوبات العامة على كافة أهله.

ومن المعروف أن الإنسان كائن اجتماعي يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، فتمرض رُوحه وتُهزَل، أو تصح وتقوى تبعاً لصلاح المجتمع أو فساده، وقيام الأفراد بإصلاح المجتمع طاعة لله أولًا ووقاية لهم من عقابه على عدم تغيير المنكر، ثم وقاية لأنفسهم من التأثر بالبيئة الفاسدة، ثم وقاية للمجتمع من الهلاك العام؛ وقد قال رسول الله ﷺ: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا"[٢]. وتلك النظرة المتوازنة تشعر الفرد بقيمته وأهميته في هذه الحياة من جهة، وتشعره بالحماية والأمن لكونه منتميًا إلى مجتمع متماسك من جهة أخرى.

رابعًا: معرفة الإنسان شرف الوظيفة التي أوكلها الله إليه، والمفهوم الصحيح للغاية من الحياة:

إن السؤال الذي يؤرق كثيرًا من غير المسلمين، وكثيرًا ممن طمست هويتهم هو: لماذا أعيش؟ ما غاية خلقي؟ كما قال عمر الخيام:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، وأخرج الرواية الأولى فقط الترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

لبست ثوب العمر ولم أستشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وغدًا أنضو الثوب عني ولم
أدر لماذا جئت أين المفر

ولكن المسلم صاحب الهوية يجد الإجابة في أوائل صفحات قرآنه، إذ الغاية التي خلق من أجلها الإنسان ومهمته في الأرض قد بينتها قصة آدم أوضح البيان، فالإنسان لم يخلق عبثاً، وإنما خلق لغاية وحكمة، والغاية هنا لها معان ثلاثة، المعنى الأول هو مقصد الله من خلق الإنسان، والمعنى الثاني هو الغاية التي ينبغي أن يجعلها الإنسان غاية لحياته، والمعنى الثالث هو المصير الذي يؤول إليه الإنسان بعد الحياة الدنيا، والمعنيان الأوليان للغاية قد سبق ذكر ما يدل عليهما من قصة آدم، فالله عز وجل خلق الإنسان ليكون خليفة له في أرضه يعمرها بعبادته، والإنسان غايته في الدنيا عبادة الله والاستقامة على وحيه ليحصل رضوان الله وجنته، أما المعنى الثالث فقد ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٣٨، ٣٩]، فالمؤمن يعلم أنه لم يخلق ليكون عبداً لعنصر من عناصر الكون، ولم يخلق ليتمتع كما تتمتع الأنعام، ولم يخلق ليعيش هذه السنين التي تقصر أو تطول، ثم يبلعه التراب ويأكله الدود ويطويه العدم.

إنه خلق ليعرف الله ويعبده، ويكون خليفة في أرضه، خلق ليحمل الأمانة الكبرى في هذه الحياة القصيرة: أمانة التكليف والمسئولية، فيصهره الابتلاء وتصقله التكاليف، وبذلك ينضج ويعد لحياة أخرى هي حياة الخلود والبقاء والأبد الذي لا ينقطع، قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون × فتعالى الله الملك الحق﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

أما "النظرة المادية الملحدة فلم تعرف للإنسان غاية، لأن الغاية تقتضي قصداً، والقصد يقتضي قاصداً، وهي تنكر أن يكون الإنسان قد خلق قصداً، ولهذا فليس للإنسان في نظرها رسالة غير رسالة الكدح وراء العيش وابتغاء تحسينه، وبعبارة أخرى: وراء زينة الحياة الدنيا ومتاعها. لا أكثر من ذلك...وما أصدق قول القرآن:﴿قل متاع الدنيا قليل﴾[النساء: ٧٧]، وهو ليس متاعاً قليلًا فحسب؟ بل هو أيضاً متاع رخيص، متاع حقير؛ لأنه متاع حيواني

محض، سخر بعض الأدباء من طلابه وعشاقه فقال: "من كانت غايته بطنه وفرجه فقيمته ما يخرج منهما""[1]، فما أعظم الفرق بين الذي يعيش لنفسه والذي يعيش لربه، بين من يعيش لدنياه المحدودة، ومن يعيش لوجود غير محدود بزمان ولا مكان!

من أبرز مظاهر هذا الفرق اختلاف موقف المؤمنين عن غيرهم من الحياة الدنيا والآخرة، فالمؤمن ينظر للدنيا على أنها مزرعة للآخرة، وليست غاية في ذاتها، فلو نال شيئًا من متاعها عمل به في طاعة الله، وما هو على صحبتها بحريص، فليس متشبثًا بالدنيا ولا متاعها بل يقبل على الله بقلب مشتاق، كهذا الأَعْرَابيّ، الذي مرض فَقيلَ لَهُ: إِنَّكَ تَمُوتُ. قَالَ: إِلَى أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟ قَالَ: إِلَى اللَّه. قَالَ: "فَمَا كَرَاهَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْ لَا أَرَى الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ؟"[2]، أما من عاش لنفسه وجعل همه تحقيق ذاته، فلو فشل عاش مهموماً كارهاً لنفسه حاقداً على من حوله، ولو نجح في تحقيق أهدافها الدنيوية سأل نفسه: وماذا بعد؟ ثم إذا انقضت أيام عمره، وأقبلت عليه الشيخوخة يطل من ورائها الموت، كانت تلك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى ؛ لأنه لا يعرف لوجوده غاية إلا ملذات الدنيا وتحصيلها، فإذا فاتت الملذات فقد فات كل شيء.

فقد امتلأت الكتب والمجلات بأخبار الناجحين التعساء، والعظماء المنتحرين- الذين حققوا ذواتهم كما يدعون- مما يؤكد أن تحقيق الذات ليس كافياً في إسعاد الإنسان وإشعاره بالراحة والطمأنينة والأمن النفسي، ومما يؤكد وهاء الغاية التي يتغياها الملحدون من حياتهم – ويطلقون عليها اسم "تحقيق الذات" – أن بعض المجرمين يشعرون بتحقيق ذواتهم في إنجاز أعمال إجرامية، ويشعرون بلذة النجاح ونشوة الانتصار كلما غفل عنهم المجتمع. ومع هذا ليسوا سعداء لأن سعادتهم في هذه الأعمال مؤقتة، تزول بمجرد الحصول عليها، فيعيشون في هَمّ الشعور بالذنب والخوف من المجتمع، وعدم الرضا عن الذات.

كما أن الإنسان قد يشعر بتحقيق الذات مع حرمانه من اللذات الجسدية كالطعام والماء والراحة والنساء، ومع تعذيبه بالحبس والنفي ومصادرة الأموال، وعدم إشباع الحاجات الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية، فالرسل والدعاة وجدوا تحقيق ذواتهم في إبلاغ

(١) الإيمان والحياة للدكتور يوسف القرضاوي، ط السابعة، مؤسسة الرسالة (٨١).
(٢) المحتضرين لابن أبي الدنيا (٢٤).

رسالات ربهم، وفي إظهار دينهم وفي الدفاع عن مبادئهم، لا في إشباع حاجاتهم الجسمية التي ضحوا بها في سبي دعواتهم، مما يدل على أن السعادة واللذة إنما هما في تحقيق غاية الخلق، والقيام بمقتضى التكليف الإلهي، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أصل السعادة الإيمان"(١).

الجانب الثاني: علاقة الإنسان بخالقه ووضوح الغاية والمنهج

قد يتعجب القاريء من علاقة قصة آدم التي سبقت بعثة محمد ﷺ بدهور طويلة وبين الهوية الإسلامية والثبات على منهج الشريعة، والحقيقة أن في عرض القرآن الكريم لقصة آدم والتعقيب القرآني عليها يضع قواعد تضبط علاقة الإنسان بخالقه من خلال الوحي حيث قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٣٨]، وهذه الآية وما في معناها من الآيات تؤسس عدة قواعد منها:

القاعدة الأولى: توحيد مصدر التلقي للبشرية كلها من الوحي المعصوم الذي تأتي به الرسل في كل زمان:

قال السعدي: "قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: أيَّ وقت وزمان جاءكم مني -يا معشر الثقلين- هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم مني؛ ويدنيكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي، واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر والاجتناب للنهي، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾"(٢)، وقال ابن عاشور: "وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ الآيةَ هو في معنى العهد أخذه الله على آدم فلزم ذريته أن يتبعوا كل هدى يأتيهم مِنَ الله وأنّ من أعرض عن هدى يأتي من الله فقد استوجب العذاب"(٣).

القاعدة الثانية: الثقة بأنه لاهدى إلا من عند الله:

قال الزركشي في البرهان: "في قوله تعالى: ﴿إما يأتينكم مني هدى﴾، ولم يقل (منَّا)

(١) مجموع الفتاوى (٢/٤٠).
(٢) تفسير السعدي (٥٠).
(٣) تفسير التحرير والتنوير(١/٤٤٠).

مع أنه للجمع أو للواحد المعظم نفسه وحكمته المناسبة للواقع فالهدى لا يكون إلا من الله فناسب الخاص للخاص"[١].

وتشمل هذه القاعدة ما يلي:

أولاً: الاعتراف بحاجة العقل البشري للوحي وأنه لا يستقل بمعرفة الخير والشر: قال صاحب المنار: "إن توبة آدم في الْحَقِيقَة قَدْ كَانَتْ بِالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ وَاعْتِرَافِهِ مَعَ حَوَّاءَ بِظُلْمِهِمَا لِأَنْفُسِهِمَا وَطَلَبِهِمَا الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ مِنْهُ تَعَالَى، لَا بِمُجَرَّدِ تَدَبُّرِ الْعَقْلِ وَوَزْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِمِيزَانِ الْفِكْرِ... إِنَّ عَقْلَ الْبَشَرِ لَا يَسْتَقِلُّ بِوَضْعِ حُدُودٍ لِلْأَعْمَالِ تَنْتَهِي إِلَيْهَا نَزَعَاتُ الشَّهَوَاتِ، وَيَقِفُ عِنْدَهَا سَيْرُ الْأَهْوَاءِ وَالرَّغَبَاتِ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَشْرِيعٍ إِلَهِيٍّ لِذَلِكَ، فَلَا هِدَايَةَ إِلَّا هِدَايَةُ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي تُذْعِنُ لَهُ الْأَنْفُسُ بِمَحْضِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ - تَعَالَى"[٢].

ثانياً: ضرورة الربانية في مصدر الهداية وفي العمل به، فلا بد من ربانية المصدر أولاً، ثم ربانية العمل والانتفاع به على صعيد التصورات والسلوكيات، الأمر الذي يستلزم الثبات والشمول، والتكامل والتوازن، وصحة المرجعية، يقول سيد قطب رحمه الله في كلام ماتع عن هذه الخصائص التي تستلزمها الربانية: "إنه تصور رباني، جاء من عند الله بكل خصائصه، وبكل مقوماته، وتلقّاه "الإنسان" كاملاً بخصائصه هذه ومقوماته، لا ليزيد عليه من عنده شيئاً، ولا لينقص كذلك منه شيئاً، ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته في حياته، وهو -من ثم- تصور غير متطور في ذاته، إنما تتطور البشرية في إطاره... وتظل تتطور وتترقى، وتنمو وتتقدم، وهذا الإطار يسعها دائماً، وهذا التصور يقودها دائماً؛ لأن المصدر الذي أنشأ هذا التصور، هو نفسه المصدر الذي خلق الإنسان، هو الخالق المدبر، الذي يعلم طبيعة هذا الإنسان، وحاجات حياته المتطورة على مدى الزمان. وهو الذي جعل في هذا التصور من الخصائص ما يلبي هذه الحاجات المتطورة في داخل هذا الإطار، وإذا كانت الأنظمة التي يضعها البشر لأنفسهم - في معزل عن هدي الله -تحتاج دائماً إلى التطور في أصولها، والانقلاب أحياناً عليها حين تضيق عن البشرية في حجمها المتطور! فذلك لأنها من صنع البشر! القصار النظر! الذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم من الأحوال والأوضاع

(١) البرهان للزركشي (٣/٣٣٥).

(٢) تفسير المنار (١/٢٣٦).

والحاجات في فترة محدودة من الزمان، وفي قطاع خاص من الأرض.. رؤية فيها -مع هذا- قصور الإنسان وجهل الإنسان، وشهوات الإنسان، وتأثرات الإنسان.

أما التصور الإسلامي -بربانيته- فهو يخالف في أصله وخصائصه، تلك التصورات البشرية، ومن ثم لا يحتاج إلى التطور والتغير.. فالذي وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان. ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور. ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات.

وهو -من ثم- كامل متكامل. لا يقبل تنمية ولا تكميلًا، كما لا يقبل "قطع غيار" من خارجه. فهو من صنعة الله، فلا يتناسق معه ما هو من صنعة غيره. والإنسان لا يملك أن يضيف إليه شيئاً.. فقد جاء ليضيف إلى قلبه وعقله، وإلى حياته وواقعه. جاء ليوقظ كل طاقات الإنسان واستعداداته، ويطلقها تعمل في إيجابية كاملة، وتؤتى أقصى ثمراتها الطيبة، مصونة من التبدد في غير ميدانها، ومن التعطل عن إبراز مكنونها، ومن الانحراف عن طبيعتها ووجهتها، ومن الفساد بأي من عوامل الفساد.. وهو لا يحتاج -في هذا كله- إلى استعارة من خارجه، ولا إلى دم غير دمه! بل إنه ليحتم أن يتفرد هو في حياة البشر، بمفهوماته وإيحاءاته ومنهجه ووسائله وأدواته. كي تتناسق حياة البشر مع حياة الكون- الذي تعيش في إطاره - ولا تصطدم حركته بحركة الكون فيصيبها العطب والدمار!

وهو -من ثم- شامل متوازن منظور فيه إلى كل جوانب الكينونة البشرية أولاً. ومنظور فيه إلى توازن هذه الجوانب وتناسقها أخيراً. ومنظور فيه كذلك إلى جميع أطوار الجنس البشري، وإلى توازن هذه الأطوار جميعاً. بما أن صانعه هو صانع هذا الإنسان.. الذي خلق، والذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير...

وهو - من ثم- الميزان الوحيد الذي يرجع إليه الإنسان في كل مكان وفي كل زمان، بتصوراته وقيمه، ومناهجه ونظمه وأوضاعه وأحواله، وأخلاقه وأعماله.. ليعلم أين هو من الحق. وأين هو من الله. وليس هنالك ميزان آخر يرجع إليه، وليس هنالك مقررات سابقة ولا مقررات لاحقة يرجع إليها في هذا الشأن.. ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾[النساء: ٥٩]"[١].

(١) خصائص التصور الإسلامي (٤١-٤٣).

القاعدة الثالثة: ربط السعادة والفلاح باتباع الوحي:

من القواعد التي تقررها هذه الآية أنه ليس للإنسان سعادة في دنياه ولا نجاة في أخراه إلا باتباع الوحي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد أوجب السعادة لمن أطاعه بقوله: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾[النساء: ٦٩]، وعلق السعادة والشقاوة بطاعته ومعصيته في قوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾[النساء: ١٣]، ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين﴾ [النساء: ١٤]"(١)، وهذه الآية تنفي الخوف والحزن عن من اتبع هدى الله المنزل على رسله، الأمر الذي يعني تمام الأمن والسعادة في العاجل والآجل، قال السعدي رحمه الله: "فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظرا، أحدث الخوف، فنفاهما عمن اتبع هداه وإذا انتفيا، حصل ضدهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته"(٢).

وعليه فدين الله لم يأت ليحاكمه العقل البشري، بل ليسمع له ويطيعه، ولهذا فإنَّ المنهج العقلي وإنْ صوِّر لأصحابه في البداية بأنَّه منهج المنطقية والعقلانية، إلاَّ أنَّه في الحقيقة منهج الحيرة والضلالة، لأنَّ هذا المنهج وإن كانت له قيود، فقيوده متفلِّتة، وقواعده متسيِّبة، فينتج على ذلك التعصب والجمود على الباطل، أو الحيرة والاضطراب بين الآراء المختلفة.

الجانب الثالث: معرفة الإنسان لأعدائه وأوليائه:

من الجوانب المهمة في بناء الهوية والشخصية الإسلامية معرفة الإنسان لأعدائه وأوليائه، وهذا القسم من الهوية تابع للقسمين الأولين، فمن عرف نفسه وسبيله وغايته في

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٢/١٥٤).

(٢) تفسير السعدي (٥٠).

الحياة، ثم عرف ربه وخضع لدينه وحكمه، أثمر ذلك ولا بد أن يوالي من يتفق معه في الانتساب لتلك الهوية، ويشاركه في القيام بهذه الرسالة، وأن يوالي ربه تعالى وأولياءه، وأثمر كذلك بالضرورة أن يعادي من ينافر هويته، ويعوقه عن أداء رسالته، ومن هو عدو لربه تعالى ولدينه وشرعه، ومع أن الولاء والبراء لازم عن وضوح الهوية، إلا أنه جزء أصيل منها كذلك، وقد عني القرآن بتأصيل هذا المعنى أيما عناية، ولم يخل موطن من مواطن قصة آدم من التأكيد على العدو الأول للمسلمين، وهو الشيطان، فقد ذكر القرآن تحذير الله تعالى لآدم من عداوة الشيطان في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[طه:١١٧]، وبينت الآيات سبب عداوة إبليس لآدم وهو الحقد والحسد والكبر، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[ص: ٧٥، ٧٦]، ثم بينت مكيدة الشيطان بآدم لإخراجه من الجنة وما ترتب على الاستجابة لوسوسته من استحقاق اللوم والعقوبة في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾[الأعراف:٢٠-٢٢]، وكذلك حذر الله تعالى بني آدم من عداوة الشيطان وربط بين عداوته لآدم وعداوته لبنيه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾[يس:٦٠]، وقال تعالى: ﴿ يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾[الأعراف:٢٧]، وبين تعالى في قصة آدم كذلك مداخل ومسالكه الشيطان لإضلال بني آدم، ومصير من يتبع الشيطان منهم وذلك في مواطن منها قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الأعراف:١٦-١٨]، وكذلك بين الله عز وجل للمؤمنين أن عدوهم ليس

هـو الشيطان وحده، إنما هـو الشيطان وحزبه وأتباعه، وأن حـزب الله هم المفلحون وحزب الشيطان هم الخاسرون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾[المجادلة:١٩-٢٢].

وإن مـن المظاهـر المعاصرة التي تـدل على غياب الهويـة الإسلامية مـا تطفح به حياة المسلمـين من موالاة ومتابعة واقتداء بغير المسلمين، وما ذلك إلا لغفلة المسلمين عن هويتهم، واضطـراب معـاني الولاء والبراء في قلوبهم، وإن هذا الانبهـار بالغرب والتقليد لهم إنما هو دليل حب وموالاة خفية في النفوس، وهو مع ذلك دليل على انهزام نفسي تام، وانسحاق أمام الحضارة الغربية، حتى إن العربي المسلم لا يرفع رأسًا بدينه ولا لغته ولا ثقافته ولا عاداته ولا أخلاقـه وطباعه إلا ما رضي عنه الغرب أو جاء من جهته، ولم يسلم من ذلك المرض الفتاك الخواص كما لم يسلم منـه العوام، فتجد من يدعى عميـد الأدب العربي د.طه حسين يقول عـن السبيل للتقدم والحضارة: "وإنما هي واضحة بينـة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهـي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أنـدادًا، ولنكون لهم شـركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحَبّ منها وما يُكره، وما يُحمَد منها وما يُعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع..."[(١)]، ولا نجد لمثل هذا الكلام وهذا الفكر من تفسير إلا الهزيمة النفسية، والاستعمار الفكري التام، الذي فسـره ابن خلدون فقال: "المغلوب مولع أبدًا بالاقتـداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسّبب في ذلك أنّ النّفس أبدًا تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه، إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها اعتقادًا فانتحلت جميع مذاهب الغالب

(١) مستقبل الثقافة في مصر، للدكتور طه حسين، (٣٩).

وتشبّهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه والله أعلم من أنّ غلب الغالب لها ليس بعصبيّة ولا قوّة بأس وإنّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب، تغالط أيضًا بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأوّل، ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله... كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة فإنّك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتّى في رسم التّماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتّى لقد يستشعر من ذلك النّاظر بعين الحكمة أنّه من علامات الاستيلاء والأمر لله"(١)، وهذا الذي قاله ابن خلدون إنما يسري على من غابت عنه الهوية الإسلامية، أما المتمسك بها ظاهرًا وباطنًا فإنه وإن غلب في ميادين الدنيا لا ينبهر بعدوه بل يعاديه ويبغضه دينًا لله عز وجل، ولا يتغير حاله من اعتزازه بدينه واستمساكه بشرع ربه، وإن فقد الأسباب المادية.

(١) تاريخ ابن خلدون (١/١٨٤).

المبحث الثالث

الآثار الإيجابية للبناء الصحيح للهوية الإسلامية

للهويـة الإسلامية آثار عظيمة وثمار جليلة على شخصيـة المسلم المتمسك بها لو علمها أهل الباطل لجالدونا عليها بالسيوف، وفيما يلي تفصيل القول عن بعض تلك الثمار اليانعة:

الهوية الإسلامية تخلص المسلم من مشاعر بغض النفس وتحرره من آثار الذنوب:

تتمثل الصراعات النفسية في التناقض بين قوى الخير والشر، وبين الغرائز والمحرمات، وشعـور المذنـب بالذنب والخطأ وتأنيـب الضمير، الذي كثـيرًا ما يتسبـب في الضيق والقلق والتوتر، والعدوان واضطراب الطبع والسلوك، وتعتبر هذه الأعراض من مظاهر سوء التوافق النفسـي، وتمثل حيلًا دفاعية للهروب من وخز الضمـير، وتعتبر الهوية الدينية هي الحصن الوحيـد للأمـن النفسي الـذي لا تستطيع أي قـوة في الأرض أن توفره، بمـا في ذلك أساليب علـم النفس المعاصر، الـذي تأثرت معظم مدارسه بالنظـرة الفرويدية، وللأسف زعم كثير مـن المعالجين أن التدين والكبت هـو سبب الشعور بالذنب والعقـد النفسية، ومن ثم يصبح الانفـلات الأخلاقي والإشبـاع الغريزي هو العـلاج بزعمهم، فجرّوا علـى مرضاهم ويلات الشقاء والتعاسة وزادوهم مرضًا إلى أمراضهم.

ورغـم أن بعض أعلام العلاج النفسي يؤمنون بأن الدين عامل هام في إعادة الطمأنينة إلى النفسـ، مثـل كارل يونج الـذي أوضح أهمية الديـن وضرورة إعادة فرصـ الرجاء لدى المريض، وستيكل الذي أوضح أهمية تدعيم الذات الأخلاقية، إلا إنه بالنظر لأسس علاجهم للشعور بالذنب نجد أن القرآن الكريم قد سبق بوضعها وتبيينها في قصة آدم أتم بيان، حيث بينـت قصة آدم الأسس النفسيـة الصحيحة لتعامل الإنسان مع نفسه عند وقوعه في الذنوب والمعاصي، وتلك الأسس نابعة من وضوح صورة الإنسان عند نفسه، ووضوح علاقته بخالقه، ويقينـه بصفـات هذا الخالق العظيم، وتلـك الأسس من شأنها أن تحميـه من الاضطرابات النفسية وتميز شخصيته بالتوازن والثبات، فمن أسس العلاج النفسي: (الاعتراف، والتوبة،

والاستبصار، واكتساب قيم ومفاهيم جديدة)[1]، وبالنظر إلى السياق القرآني لقصة آدم نجد هذه الأسس على النحو التالي:

أ) **الاعتراف:** يظهر لنا هذا الأساس في قوله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[الأعراف:٢٣]، وحذرنا من استخدام الوسائل الدفاعية اللاشعورية مثل الإنكار أو الإسقاط أو التبرير وغيرها، كطريقة أهل الضلال التي بينها لنا الله في نفس السياق في قوله: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾[الأعراف:٢٨]، فاعتراف المريض يزيل مشاعر الخطيئة والإثم ويخفف من عذاب الضمير، لأنه يعني تفريغ مشاعر الإثم، ويتبعه الرجوع إلى الحق والفضيلة والتوازن النفسي السليم.

ب) **التوبة:** وهي الندم على الذنب رجاء المغفرة، مع العزم على عدم العود للذنب، وتمثل أمل المخطئ الذي تحرر من ذنوبه، فيشعر الفرد بعدها بالتفريغ النفسي والانفراج، قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾[البقرة:٣٧]، وهذه المفاهيم تنقذ "المسلم" من الصراع النفسي واليأس والقنوط المؤديان إلى تكرار الذنوب.

ج) **الاستبصار:** ومعناه الوصول بالمريض إلى فهم أسباب شقائه ومشكلاته النفسية، وإدراك الدوافع التي أدت به إلى حالته المضطربة وفهم ما بنفسه من خير وشر، وتقبل المفاهيم الجديدة مستقبلًا بصدر رحب[2]، ويعني هذا نمو الذات البصيرة، والمتتبع للآيات في قصة آدم يجد أن القرآن بعد أن قص علينا القصة في سورة الأعراف أعقبها بعدة نداءات يحتوي كل نداء منها على حقيقة تبصّر الإنسان بسبب وقوعه في المعصية، مثل قوله تعالى: ﴿يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما...﴾، وكيفية تجنب ذلك في قوله: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾[الأعراف:٢٦].

د) **اكتساب اتجاهات وقيم جديدة:** الأمر الذي يعني تجنب تكرار الخطأ، والتزام الطريق المستقيم في الحياة مستقبلًا، ويمثلها النداء الأخير لبني آدم حيث يقول تعالى:

---

(١) الصحة النفسية والعلاج النفسي، لحامد عبد السلام زهران، ط ٤ ٢٠٠٥م، عالم الكتب (٣٥٣- ٣٦١) باختصار.

(٢) وهذه الطريقة المثلى كثيرًا ما تستعمل في عديد من مظاهر العلاجات النفسية المعاصرة بما فيه التحليل النفسي الفرويدي أو طريقة كارل روجيرس الخ.

﴿يابنــي آدم إمــا يأتينكــم رسل منكم يقصــون عليكم آياتــي فمن اتقــى وأصلح فلا خوف عليهم﴾[الأعراف:٣٥].

- تحقيق الصحة النفسية :

ليســ ثمة شك أن الصحة النفسية إحدى الغايات السامية لعمليات التنشئة الاجتماعية والتربويــة، ومن أهم مقومــات الشخصية السوية المنشودة، كما أنهــا عامل رئيس للتفوق في التحصيــل الدراسي والإنتاج العملي والترابط الأسري والاجتماعي، "ولكن إذا ذهبنا نبحث عن مفهوم لهذه الصحة النفسية المنشودة لأعيانا ذلك، فتعريف الصحة النفسية ليس أمرًا هينًــا لأن النفســ وأبنيتهــا ووظائفها لا يمكن قياسهــا بطريقة مباشرة، وإنمــا هي مفاهيم فرضيــة نستدل علــى وجودها من آثارها في سلوك الإنسان، وكذلــك فإن كل هذه التعريفات تتأثــر إلى حــد كبير بثقافة مجتمع واضعه وقيمه وقواعد السلــوك فيه، كما تتأثر نظرة عالم النفســ إلى الصحــة النفسية باختــلاف معتقداته وثقافتــه، وهذا ما جعــل تعريف الصحة النفسيــة تعريفًــا محليًا، يختلف مــن مجتمع إلى آخر، ويختلف في المجتمــع الواحد من زمان إلى زمــان، ومن عالم نفســ إلى آخر، بخلاف الصحة الجسمية...ومــن مراجعة التعريفات المتداولــة في كتب الصحــة النفسية العربية تبين أن أصحابها تأثروا كثيرا بنظرة علم النفس الحديــث إلى الإنسان، والتي تعتبره مكونًا من نفســ وجسم وتهمل روحه، وهى نظرة تناسب الإنســان في المجتمعات الغربية ولا تناسبه في المجتمعــات الإسلامية لاختلاف فلسفة الحياة وأهداف التربية والأخلاق والدين في كل منها"(١).

ورغــم هذه النسبية والتفــاوت في تعريفات ومعايير الصحة النفسيــة إلا أنها جميعاً قد اتفقت على اعتبار أن وضوح الهوية من أهم مكونات وسمات الصحة النفسية بطريق مباشر أو غير مباشر، وباستعراض بعض هذه التعريفات يتضح ذلك، فقد عرفها البعض بأنها:

أولًا : الخلو من الانحراف:

وغني عن البيان أن "الانحراف" مفهوم نسبي، لايمكن تحديده إلا في إطار محدد من القيم والأفكار – تحددها الهوية- فما يعد انحرافاً في عرف أناس لا يعد كذلك في عرف آخرين.

(١) بتصــرف من مقال للدكتور كمال ابراهيم مرسي؛ مجلــة المسلم المعاصر بعنوان "تعريفات الصحة النفسية" – العدد ٥٠-٥١، ١٩٨٨م.

ثانيًا: تحقيق التوافق:

ذهب كثير من العلماء إلى أن الصحة النفسية "حالة نفسية يشعر فيها الإنسان بالتوافق مع نفسه ومع المجتمع الذي يعيش فيه"[1]، ويعني توافق الفرد مع ذاته أن يكون قادرًا علي ضبط دوافعه ورغباته، ومقدرًا لذاته تقديرًا إيجابيًا، وفي نفس الوقت هو لا يشعر بالإجبار من الآخرين لكي تكون آراءه موافقة لهم، وهذا يتطلب أن يكون الفرد واعيًا بدوافعه ومدركًا لمشاعره الخاصة، ولايتصور حدوث هذا إلا في وجود إطار واضح لهوية الشخص ومرجعيته وقيمه، وإدراكه واحترامه لها. أما توافق الفرد مع المجتمع فيقصد به، رضاه عن الناس الذين يعيش معهم، وعن عاداتهم وتقاليدهم وشعوره بالتقبل والحب والتعاون معهم، ورغبته فى الالتزام بقواعد السلوك السائد في مجتمعه[2]، ولا يتصور هذا إلا عندما تتقارب أو تندمج هوية الفرد الذاتية وهويته الاجتماعية، وبالتالي فالتعريف يدور أيضاً على اعتبار الهوية بغض النظر عن نوعيتها واتجاهها، وعلى هذا فالشخص المتمتع بصحة نفسية هو الذي اكتسب السلوكيات المقبولة اجتماعيًا، أما الشخص الذي اكتسب سلوكيات غير مقبولة اجتماعيًا تثير سخط المجتمع عليه، أو تعلم سلوكيات متناقضة في التعامل مع الموقف الواحد، فإنه يكون في حيرة بين تلك التصرفات المتناقضة فيقع في الصراع النفسي[3].

ومن وجهة النظر الإسلامية فإن الإسلام قد حث على التوافق الحسن مع الجماعة، وبيّنَّ للمسلم الطريق إلى ذلك، ونهى عما يعيق هذا التوافق ويمنعه، كما قال رسول الله ـ صّلى الله عليه وسلم ـ "لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام"[4]، وقد أمر الإسلام الفرد بالالتزام بجماعة المسلمين ومعاييرها، والخضوع لقواعد السلوك فيها ،قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾[النساء:٥٩]، لكن لم يجعل الإسلام توافق الإنسان مع

(١) انظر: مدخل الى الصحة النفسية، صلاح مخيمر، والصحة النفسية والعمل المدرسي لصمويل مغاريوس، القاهرة النهضة المصرية، ١٩٧٤ م.

(٢) مقال للدكتور كمال ابراهيم مرسي؛ مجلة المسلم المعاصربعنوان "تعريفات الصحة النفسية" – العدد ٥٠-٥١، ١٩٨٨م.

(٣) انظر: "الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام"،لمحمد محمد عودة وكمال ابراهيم مرسي، ط٢، الكويت: دار القلم ١٩٨٦ م.

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٦٥).

نفسه ومجتمعه توافقًا قائمًا على الخضوع الآلي، بل جعله توافقًا مسئولًا، قائمًا على بصيرة وإرادة الفرد وخاضعًا لشرع الله، فعلى المسلم التوافق مع المجتمع الصالح، وإصلاح المجتمع الفاسد فإن تعذر فعليه إصلاح نفسه والخروج على الجماعة، الفاسدة التي خرجت على شرع الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال رسول الله ﷺ: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[1].

أما توافق المسلم مع نفسه فهو توافقه مع ما يؤمن به ويعتقده (الدين) لا مع أهوائه وشهواته، فإذا وافق فعله ما يعتقده من الحلال والحرام فإنه يحقق السلامة والصحة النفسية، بخلاف من يتبع الهوى والشهوات بالمخالفة لأحكام الله، فإنه يفقد التوافق مع نفسه، ويشعر بالذنب والضيق ووخز الضمير، فليس توافق الإنسان مع نفسه بأن يكون عبدًا لشهواته كما يعتقد البعض، بل هو مأمور بمخالفة هواه إن خالف أمر الله، قال تعالى:﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٣٧-٤١]، فخلاصة التوافق الذي يحقق الصحة والأمن النفسي أن يتوافق فعل الإنسان مع الحق الذي يعتقده، ويتوافق مع الجماعة الصالحة التي توافق شرع الله الذي يؤمن به الإنسان، ويخرج على كل ما خالف ذلك من الأهواء والتقاليدوالأنظمة.

ثالثًا: تحقيق التوازن:

يعرف علماء آخرون الصحة النفسية بأنها حالة نفسية، يشعر فيها الإنسان بالأمن والطمأنينة، عندما يحقق التوازن بين قوى نفسه الداخلية، أو بين مطالب جسمه ونفسه وروحه، أو مصالحه الفردية ومصالح مجتمعه، أو بين هذا الجوانب جميعاً، وقد اختلفت نظرتهم لكيفية حدوث هذا التوازن وطبيعة القوى الداخلية والخارجية، وعلى أية حال فلا بد للشخص أن يكون على وعي بدوافعه ورغباته، وعنده مرجعية واضحة يحدد على أساسها الرغبات التي يمكن إشباعها والرغبات التي يجب كبتها، ويرجع إليها في تحديد مفهوم الكمال، ولن يتم له ذلك إلا في وجود هوية واضحة المعالم تجمع بين الأفكار والقيم والمشاعر وقواعد السلوك.

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

رابعًا: تحقيق الذات:

عـرف كثير من علماء النفس الصحة النفسية بأنهـا: "حالة نفسية يشعر فيها الإنسان بتحقيـق الـذات" "actualization Self" [1]، ومعنى تحقيق الذات هـو أن يكون الإنسان في مستـوى فهمـه لنفسه وفكرته عنها، فإن عبّر عن نفسه بصـدق شعر بالجدارة وانطلق يعمل بـكل طاقاتـه، وإذا فشل شعر بالذنب والدونية والقلق، فعندما يفهـم نفسه وينميها ويقبلها، يصـل بقدراتـه إلى أقصى وسع لهـا، ويبلغ أعلى درجـات التفوق والنجـاح، ويشعر باتساق حاجاته، وتكامل دوافعه، ويثق في نفسه، ويعتمد عليها[2].

وقـد جعل "إبراهام ماسلـو" العالم النفسي الأمريكي الحاجـة إلى تحقيق الذات أعلى الاحتياجـات وأرقاها، فقد ذهب إلى أن الإنسان يولد وهو محفز لتحقيق احتياجات أساسية في شـكل هرمي، ابتـداءً بالحاجات الفسيولوجية كالجـوع والعطش، وصـولاً إلى احتياجات اعتبار واحترام الذات في قمة الهرم، وبعد تحقيق كل هذه الحاجات يجاهد الإنسان لتحقيق ذاته ليصل إلى أسمى مراحل الاكتفاء الذاتي والسلام مع نفسه.

ويتفـق هذا المفهوم لتحقيق الذات مع أسلوب الحياة في المجتمعات الغربية، والذي يقوم علـى الفلسفات النفعية والفردية والرأسمالية وغيرهـا، والتي تعتبر السلوك الذي يؤدي إلى إشباع حاجات الفرد وتحقيق أهدافه بجهوده الشخصية بدون عون من أحد سلوكًا مثاليًا.

وفكرة تحقيق الذات تنطوي على ربط النجاح والتفوق بقدرة الفرد على الأخذ بالأسباب التـي توصلـه لما يريد، فلا تربط النجـاح بمشيئة الله وعونه، وتنطوي علـى ربط قيمة العمل بالمنفعة الفردية، ولا تربطها بحكم الله فيها حلال أم حرام، وهذا ما تقوم غليه أكثر دورات البرمجـة العصبيـة والتنميـة البشرية، وهـو مفهوم مخالـف للشرع ولا يصلـح للتطبيق في المجتمعـات الإسلاميـة، ولا يدل على الصحة النفسية فيهـا، لأن فكرة المسلم عن نفسه وعن الآخريـن تقوم على أن الإنسان خلق ليعبد الله ويعمر الكون بطاعته، وعلى أن مصلحة الفرد

(١) مثـل: شوبن وروجرز وبلاتز وهورني وفـروم وآبل وماريا جاهودا، نقلًا عن الدكتور كمال ابراهيم مرسي؛ مجلة المسلم المعاصر في مقال بعنوان "تعريفات الصحة النفسية" — العدد ٥٠-٥١.

(٢) انظـر: أسس الصحة النفسية.لعبـد العزيز القوصي،القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٧٥ م، ومقال للدكتور كمال ابراهيم مرسي؛ مجلة المسلم المعاصر بعنوان "تعريفات الصحة النفسية" — العدد ٥٠-٥١
Maslow.1970-1985.. English & English. 1958 Postethwaite&Husen

من مصلحة الأمة، وعلى تنمية الفردية والمسئولية والحرية والإرادة من خلال ارتباط الإنسان بأخيه، فخير الناس أنفعهم للناس، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ويؤدي اعتماد تلك المفاهيم الغربية في المجتمعات الإسلامية إلى نمو الجشع والأنانية والتكالب على المتاع الدنيوي الزائل، مع ضعف الروابط والصلات، وانتشار التحاسد والتحاقد، إلى غير ذلك من المفاسد، ومن ثم فنشر مفهوم الذات واحترامها بطريقة صحيحة في إطار الهوية الإسلامية – التي تعتبر أن تحقيق الذات وسيلة لتحقيق العبودية– هو صمام الأمان بين خواء الذات من جهة، وبين الانجرار للمفهوم الغربي بما يحمله من مفاسد من جهة أخرى.

السكينة والسعادة والأمن النفسي:

من المشاهد الملعوم أنن السعادة ليست في مطالب الدنيا من وفرة المال، وسطوة الجاه، وكثرة الولد، ولكن السعادة شيء معنوي لا يرى بالعين، ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه الخزائن... إنها طمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير، السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه، فينبوع السعادة الأول بلا ريب هو السكينة والاطمئنان، "ولكن كيف السبيل إليها إذا كانت شيئًا لا يثمره الذكاء ولا العلم، ولا الصحة ولا المال، ولا الجاه، ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية؟

إن للسكينة مصدراً واحداً هو الإيمان بالله واليوم الآخر، إيمانًا صادقًا لا يكدره شك ولا نفاق، هذا ما يشهد به الواقع والتاريخ، وما يلمسه كل بصير منصف، فقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقاً واضطراباً هم المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين، إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات، لأنهم لا يدركون لها معنى ولا هدفًا، فكيف يظفرون بسكينة نفس، أو انشراح صدر؟"[(١)].

وإنما كان المؤمن أولى الناس بسكينة القلب، لأن القلوب بين يدي الله، لا يملكها ولا يؤثر فيها إلا هو، قال رسول الله ﷺ: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء"[(٢)]، ثم إن السكينة والاطمئنان والأمن إنما هي هبات ربانية ينزلها الله على قلب العبد، ولا يملك أن يهبها غيره قال تعالى في السكينة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

(١) الإيمان والحياة، لد.يوسف القرضاوي (٩٤، ٩٥) باختصار.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح:٤]، وقال تعالى في الأمن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[الأنعام:٨٢]، وقال عز وجل في الطمأنينة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، إن راحة القلب ونعيم الروح أمر لا سبيل له إلا الاتصال بالخالق العظيم سبحانه، إذ كيف للإنسان أن ينعّم روحه وهو لا يدرك حقيقتها ولا ماهيتها؟ وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: "في القلب شعث، لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات: لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد: لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا"(١).

تحقيق الخوف والرجاء في قلب العبد، والتحرر من جميع المخاوف مما سوى الله.

إن أول شيء تثمره الهوية الإسلامية في البناء الشخصي للإنسان المسلم هو تقوية صلته بالله عز وجل، إلى الدرجة التي تجعله يراقبه في السر والعلن، فهو لا يقدم على شيء إلا وهو يراعي حرمة الله ويرجو له وقارًا.. في نفس الوقت الذي يتوجه إليه بالرجاء.. وذلك الخوف وهذا الرجاء يملآن قلبه بشعور عارم بالتحرر من جميع المخاوف مما سوى الله، لأنه يوقن أن الله وحده هو مالك أمره ومقرر مصيره، أما غيره فأسباب عرضية ليس لها من الأمر شيء، فالمسلم المتشبع بقيم الإسلام يتحرر من الخوف على الحياة والرزق والمكانة والمركز، وغير ذلك، فالحياة بيد الله، ليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة، قال تعالى:﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[التوبة:٥١]، وربى النبي ﷺ ابن عباس فقال: "يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ

(١) مدارج السالكين (١٥٦/٣).

لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ"(١).

- انضباط ميزان الولاء والبراء:

إن مـن الآثـار الواضحة لصلـة الإنسان بربه، وتمسكـه بهويته الإسلاميـة هو التركيز لفكـر الإنسـان وجهده وطاقته حول محـور واحد هو الله عز وجل ودينـه، هذا التركيز الذي يجذبـه تلقائيًـا إلى موالاة الله وأوليائـه، ومعاداة الشيطان وأتباعـه، فينضبط عنده ميزان الواء والبراء، وينجو من التشتت والانشطار والتيه الذي يضرب الذات بعنف عند غياب هذا الميـزان، ويلهث حول مرجعيات أخرى واهية ينصب عليها الولاء والبراء بين قبلية وعصبية وقوميـة وغير ذلك، أما المؤمن فقد سلم من هـذا التشتت آخذًا بقول الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[المائدة:٥٥].

أما الهويات المادية فتعصف بقوى الإنسان وتذهب بها طرائق قددًا، وتلحق بها تشوهات مريعـة يتحـول معها الإنسـان إلى كائن مستلـب، غريب عن نفسه، وغريب عـن الكون الذي يحيط به...

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

خاتمة

بعد هذا العرض الموجز لأزمة الهوية وعلاجها من خلال العرض القرآني لقصة نبي الله آدم، خلص الباحث لجملة من النتائج والتوصيات، وفيما يلي عرض أهمها.

نتائج البحث:

١. غياب الهوية الإسلامية من أهم أسباب الكبوة الإسلامية المعاصرة.

٢. ضرورة العودة للوحيين لاستنباط حلول للمشكلات المعاصرة.

٣. أهمية التفريق بين البناء المنهجي للعلوم الإنسانية والنفسية ونحوها، وبين منتجات الفكر الغربي المتنافية مع الإسلام، فلا مانع من التعاطي مع المناهج العلمية الغربية في علوم النفس ونحوها، ولا يجوز أن تمر علينا مخرجات الفكر الغربي أو أن نسلم بها دون بحث وتمحيص وعرض على ما عندنا من الثوابت والمسلمات.

٤. من أولويات الخطاب الدعوي المعاصر إعادة بث الروح الإسلامية، وبناء الهوية الإسلامية في نفوس المسلمين، والاعتماد في ذلك على القرآن والسنة، ومن أهم ما يعتمد عليه في هذا الباب قصة آدم عليه السلام.

توصيات البحث:

تكثيف البرامج التوجيهيَّة في وسائل الإعلام بشتَّى أصنافها، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم، وتمكين قواعد الإسلام في قلوبهم، والرد على ما يضادها، وحتماً سيولِّد ذلك قناعة بأولويَّة الأصول الإسلاميَّة في قلوب المسلمين، وبناء الرسوخ العقدي في قلوبهم، ومن أهم الموضوعات التي يجب نشرها كوقاية في هذا الجانب:

١. الرد على نظرية التطور الداورينية وبيان كذبها من وجهة النظر العلمية، والاستعانة بالأفلام التسجيلية والأبحاث التخصصية في هذا المجال.

٢. بيان فشل المناهج الغربية في المجال النفسي، وأثر البعد عن الدين في انتشار الجريمة والعنف والانتحار والأمراض النفسية.

٣. بيــان حقيقــة النظريــة الفرويديــة وآثارها والاعتراضــات الموجهة إليهــا من جهة المتخصصين النفسيين ومن جهة المتخصصين الشرعيين.

إنشــاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنيَّة برصــد الانحرافات الفكريَّة، والتعقيب عليها بتفنيد الشُّبه، والجــواب عن الشكوك والشبهات التي يثيرها بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئــه، وتفعيــل هذه المراكــز بقوَّة البحــوث، وضخِّ المــال الداعم لها، وتوظيــف الباحثين المتمكِّنين فيها، وإعطائها قدراً من الشهرة والانفتاح على الوسائل الإعلاميَّة.

الدراســة الواعية والناقــدة للأفكار والملل والنحل المغايرة لمنهــج أهل السنَّة، مع الحذر مــن أهلها، وتمكــين العقلية الإسلاميَّة من أدوات الفهم والنظــر والمعرفة لرصد الانحرافات الفكرية، ومعالجتها على ضوء الشريعة، وعلى أساس هدي القرآن الكريم الذي فند الشبهات وأفحم المشككين، وعلى خطى الصحابة والتابعين والعلماء الراسخين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفى بموجب العلم والإيمان"[(١)].

التربيــة للنشء على منهــج الله تعالى، وعلى عقيدة أهل السنة المستقيمــة، والحذر من أن تتسلل إلى أذهانهم شبهات المبطلين، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي هي أول مهمات المربــي؛ مع بناء الشخصية الإسلاميَّة التي لا تؤثِّر فيها تيَّارات التشكيك، قال أيوب السختياني رحمه الله: "إنَّ من سعادة الحدث والأعجمي، أن يوفِّقهما الله لعالم من أهل السنَّة"[(٢)]، ولتكن تربيــة النشء على القــرآن والسنة أولًا، قبل الدخول في متاهــات الكلام والفلسفة، قال الغزالي رحمــه الله: "وليســ الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعــة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القــرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلَّة القرآن وحججه، وبما يَردُ عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها"[(٣)]، فإذا عرف الشاب عقيدته وعبادته من منابعها الصافية أمكن أن يعلم بعد ذلك رد الشبهات ومجادلة الملحدين، ومناقشة المارقين.

وفي الختــام نســأل الله تعالى أن يتقبــل منا هذا العمل، وأن يكتب بــه النفع، وأن يقضي لأمتنا أمر رشد، تتبصر فيه طريقها، وتعرف هويتها، وتعتز بإسلامها.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/١٦٥).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة اللالكائي (١١).

(٣) إحياء علوم الدين (١/٩٤).

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. صحيح البخاري، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٣. صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي- بيروت.
٤. سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية-حلب، الطبعة الثانية،١٩٨٦.
٥. سنن أبي داود، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت.
٦. سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٩٨.
٧. سنن ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية.
٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١.
٩. أسس الصحة النفسية، عبد العزيز القوصي،القاهرة: النهضة المصرية، ١٩٧٥ م
١٠. أفلاطون سيرته وآثاره ومذهبه الفلسفي، لجيمس فينيكان، دار المشرق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١.
١١. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة – بيروت.
١٢. الإيمان والحياة، لد. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩.
١٣. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٩٥٧.
١٤. تاريخ ابن خلدون، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
١٥. التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.
١٦. التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، لعبد القادر عودة، دار الكتاب العربي – بيروت.
١٧. التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
١٨. التعليم وأزمة الهوية الثقافية، لد.محمد عبد الرؤوف عطية، ٢٠٠٩.
١٩. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩.
٢٠. تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠.
٢١. التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.
٢٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.
٢٣. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٤.
٢٤. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب، دار الشروق، الطبعة الخمسة عشر، ٢٠٠٢.

٢٥. خواء الذات والأدمغة المستوردة، لمراد هوفمان، مكتبة الشروق، الطبعة الأولى،٢٠٠٢.
٢٦. دستور الأخلاق في القرآن، لد. محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٨.
٢٧. شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي، دار طيبة، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٣.
٢٨. الصحاح، للجوهري، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧.
٢٩. الصحة النفسية والعمل المدرسي، لصامويل مغاريوس، ١٩٧٤.
٣٠. الصحة النفسية والعلاج النفسي، لحامد عبد السلام زهران، دار عالم الكتب، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.
٣١. الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.
٣٢. فكر فرويد، لإدجار بيش، ترجمة جوزف عبد الله، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
٣٣. لسان العرب، لابن منظور، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
٣٤. مجلة المسلم المعاصر.
٣٥. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥.
٣٦. محاضرات إسلامية هادفة، لد.عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
٣٧. المحتضرين، لابن أبي الدنيا، دار ابن حزم–بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
٣٨. مدارج السالكين، لابن القيم، دار الكتاب العربي –بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦.
٣٩. مدارس علم النفس، لد.حسين عبد الفتاح الغامدي، ٢٠٠١.
٤٠. مدخل إلى الصحة النفسية، لصلاح مخيمر، مكتبة الأنجلو بالقاهرة،الطبعة الرابعة، ١٩٩٦.
٤١. مقاييس اللغة، لابن فارس، دار الفكر، ١٩٧٩.
٤٢. مستقبل الثقافة في مصر، لد.طه حسين، دار المعارف، الطبعة الثانية.
٤٣. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، إشراف: د.صالح بن حميد، الطبعة الأولى، ١٤١٨.
٤٤. هويتنا أو الهاوية، لمحمد إسماعيل المقدم.
٤٥. الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، لخليل نوري مسيهر، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.
٤٦. Stack S, Lester D: The effect of religion on suicide ideation. Soc Psychiatry PsychiatrEpidemiol 1991
٤٧. Religious Affiliation and Suicide Attempt, 2004, American Psychiatric Association,
٤٨. Stack S: The effect of religious commitment on suicide: a cross-national analysis. J Health SocBehav 1983
٤٩. 15. Spitzer RL, Williams JBW, Gibbon M, First MB: Structured Clinical Interview for DSM-III-R—Patient Version 1.0 (SCID-P). Washington, DC, American Psychiatric Press, 1990

هُوِيَّة المسلم بين الاستعلاء والانهزام

دراسة قرآنية

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي القرآني الأول لتوظيف الدراسات القرآنية
في علاج المشكلات المعاصرة
المنعقد بكلية الشريعة وأصول الدين – جامعة الملك خالد (أبها)

إعداد
أ.د. صالح يحيى صواب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بقسم الدراسات الإسلامية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة صنعاء
drsawab@hotmail.com

الحمد لله رب العالمين، القائل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣]، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون للبشرية ديانات وشرائع، منها ما هو صحيح ومنها ما هو باطل.

وارتضى الله عز وجل الإسلام دينا للبشرية جمعاء، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾[آل عمران: ١٩]، وتعددت الشرائع السماوية فكان لكل نبي شريعة ومنهج، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[المائدة ٤٨].

وختم الله تعالى تلك الشرائع بدين الإسلام الذي لا يقبل الله تعالى من أحد دينا سواه، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأمر الله سبحانه المؤمنين بالاعتزاز بدينهم والتمسك به وإعلان الانتماء إليه دون حياء أو خجل، فقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

وبين سبحانه أن العزة إنما هي لله وللرسول وللمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المنافقون: ٨].

وعلى هذا المنهج من الاعتزاز بالدين وإعلانه سار سلف هذه الأمة، وأعلنوا انتماءهم وفخرهم بهذا الدين، كما ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في قوله لأبي عبيدة رضي الله عنه: "إنا كنا أذلّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير

ما أعزنا الله به أذلنا الله"[1].

ولما ضعف أمر المسلمين وقويت شوكة أعدائهم ضعف كثير من أبناء المسلمين، ولم يسيروا على ما سار عليهم أسلافهم من التمسك بالدين الإسلامي وإعلان الانتماء إليه، بل إننا نجد انهزاما واضحا لدى كثير من أبناء المسلمين وانبهارا بالحضارات الأخرى، وخجلا من إظهار الانتماء للدين الإسلامي لدى بعض المسلمين، ولا شك أن لذلك أسبابا ودوافع عدة، أدت إلى هذا الواقع المؤلم، ولهذا رأيت أن أكتب حول هذا الموضوع بعنوان:

هُوِيّة المسلم بين الاستعلاء والانهزام – دراسة قرآنية

ولا شك أنه قد كثر الحديث والكتابة عن الهوية وبخاصة لدى الكتاب المعاصرين، ولكن ما يميز هذا البحث أنه دراسة قرآنية، أتلمس من خلالها النصوص القرآنية الدالة على الاستعلاء بالانتماء للإسلام، والتي تحث المسلمين على إعلان دينهم والتصريح به، وهذا بخلاف الكتابات الأخرى التي تستعرض الجانب الفكري والثقافي من منظور آخر.

وسيشتمل هذا البحث – إن شاء الله – على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة:

المقدمة، وفيها أهمية البحث وخطته.

التمهيد: المراد بالهوية الإسلامية.

المبحث الأول: الاستعلاء والاعتزاز بالهوية الإسلامية.

- المطلب الأول: الاستعلاء والاعتزاز.
- المطلب الثاني: وجوب الاستعلاء والاعتزاز بالهوية الإسلامية.

المبحث الثاني: اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية

- المطلب الأول: أسباب اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية.
- المطلب الثاني: مظاهر اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية.

الخاتمة.

وفيها أهم نتائج البحث.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الإيمان ١/ ١٣٠، رقم ٢٠٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

تمهيد: المراد بالهوية الإسلامية:

تعريف الهوية:

لم يكن لفظ "الهوية" مستخدما في العصور المتقدمة ولم يرد هذا اللفظ في كتب السلف، ثم ظهر هذا اللفظ في بعض كتب الصوفية إشارة إلى المولى تبارك وتعالى، يقول حقي: "لا إله إلا هو: لا معبود في الأرض ولا في السماء إلا هو، دل على الهوية بهذا القول، فإن "هو" كناية عن غائب موجود، والغائب عن الحواس الموجود في الأزل هو الله تعالى، وفيه معنى حسن، وهو المتعالي عن درك الحواس، حتى استحق اسم الكناية عن الغائب من غير غيبة كما في بحر العلوم"[١].

أما في معاجم اللغة العربية فقد جاء في الصحاح: "هَوِيَ يَهوى هَوًى، أي أَحَبَّ.

وهَوى بالفتح يَهْوي هُوِيًّا، أي سقط إلى أسفل. قال: وكذلك الهُوِيُّ في السير إذا مضى"[٢].

والهَوِيَّةُ ، كغَنِيَّة: الحفرة البعيدة القَعْر.[٣]

والهوية هي: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[٤].

وفي كتاب الكليات أن ماهية الشيء هو باعتبار تحققه يسمى ذاتاً، وباعتبار تشخيصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية[٥].

وفي المعجم الوسيط: "الهوية: – في الفلسفة – حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن

---

(١) تفسير روح البيان ٧٩/٨ .

وهذا تخصيص بلا دليل، والمعلوم من اللغة العربية أن (هو) ضمير غائب، يدل عليه الكلام أو السياق وليس من أسماء الله تعالى أو صفاته العلى.

(٢) الصحاح للجوهري ٢٦٠/٢ .

(٣) تاج العروس ٣٣٤/٤٠.

(٤) التعريفات للجرجاني ص٢٧٨.

(٥) الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي ص٩٦١.

غيره، وبطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى البطاقة الشخصية أيضا (محدثة)"[1].

وتستعمل كلمة(هوية) في الأدبيات المعاصرة تعبيرا عن خاصية المطابقة : مطابقة الشي لنفسه، أو مطابقة لمثيله، وفى المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميز عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات.

ولذلك فإذا اعتمدنا المفهوم اللغوي لكلمة (هوية)، أو استندنا إلى المفهوم الفلسفي الحديث فإن المعنى العام للكلمة لا يتغير، وهو يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يتميز الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائص ومميزات ومن قيم ومقومات.

وخلاصة الأقوال إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت، والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية ، طابعاً تتميز به عن الشخصيات الأخرى.[2]

المراد بالإسلام بمعنييه الخاص والعام:

الإسلام لغة :

قال الجوهري: "وأسلم أمره إلى الله: أي: سلَّم، أي: دخل في السَّلم، وهو الاستلام، وأسلم: من الإسلام"[3].

وفي لسان العرب: "الإسلام والاستسلام: الانقياد"[4].

(١) المعجم الوسيط ٢/٩٩٨.

(٢) مقال بعنوان: أزمة الهوية الإسلامية، د. خالد روشة، منشور بموقع المسلم (http://www.almoslim.net/node/103661)

(٣) الصحاح، للجوهري ١/٣٢٨.

(٤) لسان العرب ١٢/٢٨٩.

وعرّفه شيخ الإسلام بقوله: "الإسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له"(1).

ويمكننا القول بأن للإسلام معنيين، أحدهما أوسع من الآخر:

الأول: الإســلام بمعناه العــام، وهو: الاستسلام لله - عز وجـل - بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

وهــذا النوع (الاستسلام) هو الذي اجتمعت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، فدَعَوا إلى توحيــد الله وإلى الاستسلام له بالتوحيد بعبادته وحده دونما سواه، وخلع الآلهة والأنداد والبراءة من كل معبودٍ سوى الله - عز وجل - ومن كل عبادة لِمَا سوى الله تعالى، وهذا هو ما ورد في مثـل قوله تعــالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقولـه سبحانــه في قصة نوح عليه السلام: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾[يونس: ٧١]، وقولـه تعـالى في قصة لوط عليه السلام: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الذاريات: ٣٦].

والنوع الثاني الإسلام الخاص وهو شريعة محمد ﷺ.

وهــو الذي جاء تفسيره في قول النبي ﷺ: "بني الإســلام على خمس: شهادة أَنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصوم رمضان"(2).

وما ورد الإشارة إليه في قوله سبحانه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة: ٣].

---

(1) مجموع الفتاوى ٧/٢٦٣.

(2) أخرجـه البخاري في صحيحـه كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/١١، رقـم ٨، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس ١/٣٤، رقم ١٢١.

وهــو الدين الذي لا يقبل الله من أحـد سواه بعد مبعث محمد ﷺ، كما جاء في الحديث عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والذى نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"(١).

وهذا المعنى هو الذي نعنيه في عنوان البحث.

أما هُويّة المسلم فيمكن القول بأن المراد بها:

ما يتميز به المسلم المؤمن بشريعة محمد ﷺ وما يختص به فردا أو مجتمعا أو دولة من خصائص وقيم وتصورات.

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ٩٣/١، رقم ٤٠٣.

المبحث الأول

الاستعلاء والاعتزاز بالهوية الإسلامية

المطلب الأول: الاستعلاء والاعتزاز.

أولا: علو المسلم وعزته:

المسلم عالٍ بإيمانه بالله تعالى، وقد كتب الله تعالى له العزة والنصر، وعلى المسلم أن يستحضر هذه المعاني لينطلق منها في نظرته إلى الحياة وتعامله مع الناس.

وقد ركز القرآن الكريم على بناء الثقة في نفوس المسلمين، وأكد على ذلك في آيات كثيرة، من ذلك:

قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[النساء: ١٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر: ١٠]، وقوله سبحانه: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[يونس: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[آل عمران: ١٣٩]، ويقول سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المنافقون: ٨]

قال الطبري رحمه الله: "(وأنتم الأعلون) أنتم أعز منهم"[(١)].

وقال ابن كثير رحمه الله: "والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد"[(٢)].

(١) جامع البيان ٢٢٨/٢١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٢ .

فبين سبحانه وتعالى أن العزة له سبحانه ولرسوله ﷺ وللمؤمنين بالله تعالى، وذلك لأنهم اتبعوا منهج الله تعالى والتزموا بدينه الذي شرعه لهم، يقول القرطبي رحمه الله تعالى: "فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة - ولله العزة - فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله"(1).

وقال أبو حيان: "(فإن العزة لله جميعا) أي: لأوليائه الذين كتب لهم العز والغلبة على اليهود وغيرهم"(2).

فعلى المسلم أن يعتز بهويته الإسلامية وأن تثبت هذه العزة في نفسه وقلبه دون أن يخالجه شك لأن الله تعالى هو الذي وهبه هذه العزة.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: "ويضم الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين إلى جانبه، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين معه إلى جواره، ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء، وهذا هو الصف العزيز! وصدق الله.

فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة"(3).

فهي عزة ثابتة راسخة، ظاهرة معلنة، مستمدة من عزة الله تعالى.

وكما كتب الله عز وجل العزة والعلو لعباده المؤمنين فقد كتب سبحانه على أعدائه الكافرين الذل والهوان، كما قال سبحانه في حق أهل الكتاب: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة: ٢٠]،

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٣٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٤/١٠١ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٥٨٠

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فصار الذل والصغار ملازما لهم، بسبب تكبرهم عن طاعة الله تعالى وإعراضهم عن هديه.

قال القرطبي في تفسير قوله سبحانه: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣]: "أي: من الأذلين، ودل هذا أن من عصى مولاه فهو ذليل"(١).

وهذا لا شك ينطبق على إبليس وعلى غيره من العصاة.

وقال الآلوسي رحمه الله: "(في الأذلّين) أي: في جملة من هو أذل خلق اللّه عز وجل من الأولين والآخرين معدودون في عدادهم؛ لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر، وحيث كانت عزة اللّه عز وجل غير متناهية كانت ذلة من حادّه كذلك"(٢).

وقال السعدي رحمه الله تعالى: "هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة، ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون ، فصار من حزب الله المفلحين أن لهم الفتح والنصر، والغلبة في الدنيا والآخرة"(٣).

ثانيا : بواعث استعلاء المسلم:

لم يكن استعلاء المسلم نابعا من جنس ينتمي إليه، أو مال يملكه، أو سلطان أو قوة يقهر بها غيره، بل استعلاء المسلم بإسلامه نابع من إعلاء الله له وإكرامه بهذا الدين، وهو أساس مهم في التمسك بهذا الدين واستيقانه بأنه الدين الحق الذي لا مرية فيه، كما أن ذلك يمنحه الاطمئنان بسلوكه الطريق الصحيح الآمن في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: :مخ مم

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧٣/٧.

(٢) روح المعاني ٢٢٨/١٤ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٨٤٨/١ .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الأنعام: ٨١،٨٢].

وهـو أمن عام في الدنيـا وفي الآخرة، كما قال سبحانـه: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[يونس: ٦٢-٦٤]، وقـال سبحانـه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾[الزمر ١٧،١٨].

وهـذا الاستعلاء والاعتزاز لـه بواعثه وأسبابه، وهـي كثيرة، نذكر بعض مـا أشار إليه القرآن الكريم:

١ – عبوديته لله سبحانه وتعالى:

وهـذا من أهـم ما يميز المسلم، ومـا يستحق به الفخر، وهي عبوديتـه لله تعالى وحده، وهـذا مقام عظيـم وشرف كبير لا يصل إليه غير المسلم، وهو وسـام يعتز به المسلم ويفاخر بـه، ولهـذا وصـف الله تعالى نبيه محمـدا ﷺ بأنه عبـد لله، ونسب عبودية سائـر الأنبياء والصالحين إليه فشرفهم بذلك، قـال سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[الإسراء: ١]، وقـال سبحانـه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهـف: ١]، وقـال سبحانـه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقـان: ١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الصافات: ١٧١].

وقـال تعالى في وصـف الملائكـة: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وبـين النبي ﷺ أن سيد الاستغفار اعتراف العبد بالعبودية، كما في الحديث عن شداد بن أوس – رضي الله عنـه – عن النبي ﷺ : "سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك ..." الحديث[١].

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار ٨/٨٣ ، رقم ٦٣٠٦.

وحُقّ لكل عبد لله تعالى الافتخار بهذه العبودية، وأن يردد:

وممـــــــا زادني شــــرفـــا وتـيـهـا
وكـــــدت بـأخـمـصـــي أطــــأ الــثريـا
دخـــــولي تحـــت قـــولــك يــا عــبــادي
وأن صــــيرت أحــمــــد لي ولـيّـــا

وإنــه شــرف للمسلم أن يكون عبدا لله تعالى وحده، في حــين أن غير المسلم قد جعل من نفســه عبــدا لمخلوق من بشــر، أو حجر، أو درهــم أو دينـار، أو غير ذلك، كمــا قال سبحانه: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣].

وقد بين النبي ﷺ تعاسة هؤلاء العبيد، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قــال: "تعس عبــد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصــة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش.." الحديث[١].

٢ – كون المسلم على الحق:

الديــن الإسلامــي هو الديــن الحق الذي لا مرية فيــه، وكل دين سواه فهــو باطل، وعلى المسلم أن يدرك هذه الحقيقة وأن يعلنها ويظهرها ويعتز بها دون حياء أو مواراة.

والمسلــم يعلم إن إلهه حــق، وأن رسوله حق، وأن كتابه حق، ويوقن بأنه على طريق الحق والهدايــة، قال سبحانه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ [سبأ: ٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص: ٥٣].

فينطلــق حينئــذ بثقة وخطى ثابتة لعلمه أنه يسير في الطريق الصحيح، ولأنه يعلم أنه لا يرتكب منكرا باختياره هذا الطريق، ومن ثم فلا يستحيي من إعلان ما هو عليه وإظهاره، بل إنه يفخر به ويعلنه للناس، وهذا دافع له للمضي على المنهج الرباني بثقة واعتزاز؛ لكونه على الحق، كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل: ٧٩].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤/٤١، رقم ٢٨٨٧.

ولا شك أنه لا يستوي من كان على الحق مع من كان يتخبط في الظلمات، فمثلهما كمثل الحي والميت، والبصير والأعمى، قال سبحانه: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾[آل عمران: ١٦٢].

إن كل منهج سوى هذا المنهج، وكل طريق سوى هذا الطريق وكل دين سوى هذا الدين (الإسلام) هو باطل لا يمكن الاعتزاز به ولا الفخر به، وكل من يسلك منهجا غير منهج الإسلام فهو خاسر في الدنيا والآخرة، وهذا ما يجعل المسلم متميزا عن غيره مفتخرا بهُويّته.

٣ – اليقين بتميزه عن غيره بإيمانه:

مما يزيد المسلم اقتناعا واعتزاز بإسلامه: يقينه باختلافه عن غيره وتميّزه عنه، قال سبحانه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[القلم: ٣٥،٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[الجاثية: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨].

يقول سيد قطب: "وأنتم الأعلون .. عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون للّه وحده ، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج من صنع اللّه، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق اللّه! ودوركم أعلى، فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق، ومكانكم في الأرض أعلى، فلكم وراثة الأرض التي وعدكم اللّه بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون.. فإن كنتم مؤمنين حقا فأنتم الأعلون"[1].

ولا شك أن هذا التميز يشعر المسلم بمكانته عند الله تعالى، مما يبعث على اعتزازه بدينه ويزيده تمسكا به وإصرارا عليه.

(١) في ظلال القرآن ١/٤٨٠.

٤ – ولاية الله تعالى له:

من أهم أسباب افتخار المسلم بهويته الإسلامية واعتزازه بها أن يعلم أنه وليّ لله تعالى، ومن كان مع الله كان الله معه ولن يخذله أبدا.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية: ١٩]، وإذا ثبتت لهم ولاية الله بإيمانهم فإنهم يشعرون بالأمن، ويرفع عنهم الخوف، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس: ٦٢].

ولا شك في أن ذلك يدعوهم إلى الاعتزاز بهذه الولاية وافتخارهم بها، وحُقّ لهم ذلك.

أما غير المسلم فليس له ولي يواليه وينصره، وفي ذات الوقت فقد فاتته ولاية الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشورى: ٤٦]

وقد جعل المشركون ولايتهم للشيطان، قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

٥ – وعد الله له بالنصر والتمكين والغلبة :

من بواعث اعتزاز المسلم وافتخاره بدينه أن الله تعالى وعده بالنصر والتمكين والغلبة على أعدائه، فالغلبة بالحجة والنصر للمؤمنين، وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في آيات كثيرة في كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات ١٧٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة:

٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الروم: ٤٧]، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

قال الطبري: "(أنتم الأعلون)، يعني: الظاهرون عليهم، ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم"[١].

وقال ابن الجوزي: "قوله تعالى: (وأنتم الأعلون) أي: أنتم أعزُّ منهم، والحُجَّة لكم، وآخِرُ الأمر لكم وإن غَلَبوكم في بعض الأوقات"[٢].

وقال الشنقيطي: "وقوله تعالى: (وأنتم الأعلون) أي: والحال أنكم أنتم الأعلون، أي: الأقهرون والأغلبون لأعدائكم، ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون.

وهذا التفسير في قوله: (وأنتم الأعلون) هو الصواب"[٣].

٦ – أنه من أهل الجنة:

من بواعث عزة المسلم واعتزازه بهويته يقينه بأن المسلمين هم أصحاب الجنة، وهذه ميزة لا تحصل لغيره، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[هود: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحقاف ١٣،١٤].

والفوز بالجنة هو غاية الفوز الذي لا فوز بعده، كما قال سبحانه:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

أما غير المسلم فهو خاسر لكل شيء خسرانا مبينا، قال تعالى:﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر: ١٥].

---

(١) جامع البيان ٧/٢٣٤.

(٢) زاد المسير ٥/٣٨٠.

(٣) أضواء البيان ٧/٦٣٢.

وشتان بين من ينتظر الآخرة ليسكن جنة عرضها السموات والأرض وبين من يأتيه الموت ليخلّد في نار جهنم خالدا فيها: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة: ١٨-٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر: ٢٠].

وحقٌّ لمن وعده الله بالجنان أن يفخر وأن يعتز بهذه المكانة التي وعده الله تعالى بها، وأن يفرح بها، ويدعو الناس إلى أن يسيروا على المنهج الذي اتبعه وسار عليه.

المطلب الثاني: وجوب الاستعلاء والاعتزاز بالهوية الإسلامية وصور ذلك.

أولا: وجوب الاعتزاز والاستعلاء بالهوية الإسلامية:

إن مما ينبغي أن يعلم أن من الواجب على المسلم إعلان إسلامه والاعتزاز به، وألا تأخذه في الله تعالى لومة لائم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[فصلت: ٣٣].

وقد اختلف العلماء في تفسير قوله: (وقال إنني من المسلمين) فقال بعضهم: ليس المعنى أنه تكلم بهذا، بل المعنى أنه كان من المسلمين واعتقد الإسلام، وقال آخرون: بل المعنى أنه أعلن إسلامه وجهر به، معتزا ومفتخرا بدينه.

قال البيضاوي: "(وقال إنني من المسلمين): تفاخرا به واتخاذا للإسلام دينا ومذهبا من قولهم هذا قول فلان لمذهبه"(١).

وقال أبو حيان: "(وقال إنني من المسلمين) ليس المعنى أنه تكلم بهذا ، بل جعل الإسلام معتقده، كما تقول: هذا قول الشافعي، أي مذهبه" (٢).

---

(١) أنوار التنزيل ١١٥/٥.

(٢) البحر المحيط ٣٠٦/٩.

وقال أبو السعود: "(وقال إنني من المسلمين): ابتهاجاً بأنه منهم أو اتخاذاً للإسلام ديناً ونحلةً من قولهم هذا قولُ فلانٍ أي مذهبه لا أنَّه تكلَّم بذلك"(١).

وقال الآلوسي: "(وقال إنني من المسلمين): أي: تلفظ بذلك ابتهاجا بأنه منهم وتفاخرا به مع قصد الثواب إذ هو لا ينافيه أو جعل واتخذ الإسلام دينا له من قولهم : هذا قول فلان أي مذهبه ومعتقده"(٢).

وقال ابن عاشور رحمه الله: "وأما: (وقال إنني من المسلمين) فهو ثناء على المسلمين بأنهم افتخروا بالإسلام واعتزوا به بين المشركين ولم يتستروا بالإسلام.

والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنه خُصَّ بالذكر؛ لأنه أريد به غيظ الكافرين، ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ قولوا (الله أعلى وأجل)، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم)(٣).

والجهر بالهوية الإسلامية والاعتزاز بها وإعلان البراءة من الشرك وأهله أمر مطلوب، وهذا هو المنهج الذي سار عليه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مع ما قد يلاقيه المرء من أذى أو مضايقات أو اتهامات مختلفة.

والنصوص الدالة على هذا في كتاب الله تعالى كثيرة جدا، منها:

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرًا له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بَصِيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكلّ من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي"(٤).

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦/٦٢.

(٢) روح المعاني ١٢/٣٧٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/٥٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٢٢.

ومـن ذلك قوله سبحانـه في قصة هود عليه السـلام: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[هـود: ٥٤-٥٦].

فلـم يبـال هود - عليـه السلام - بكيد قومهـم أو أذاهم ولم يحمله ذلـك على المجاملة والاستخفـاء أو الاستحيـاء من إظهـار معتقده، بل أعلنها واضحة جليـة ببراءته من الشرك وتوكله على الله سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الزخرف: ٢٦،٢٧]

وقوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الأنعام: ٧٨،٧٩].

وقـد أمرنا الله تعـالى بالاقتداء بإبراهيم والمؤمنين معه في هـذا المنهج، وهو التبرؤ من المناهـج الباطلـة المخالفة، وإظهار الانتمـاء للدين الحق، كما قـال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذا بخلاف ما عليه كثير من أبناء المسلمين اليوم، الذين يخجلون من الافتخار بدينهم ولا يتـبرؤون من غيره من الأديـان الباطلة، بل يحاولون التزلـف والتلطف إلى غير المسلمين وعدم مواجهتهم ببطلان ما هم عليه من مناهج ضالة منحرفة.

ويستثنـى مـن ذلك ما إذا كان هـذا الإعلان يشكل خطرا على المسلـم فيجوز له حينئذ عـدم التصريح بإسلامه للضرورة كما قـال سبحانه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[النحل: ١٠٦].

يقول البغوي: "ومعنى الآية: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين"(١).

وهذه رخصة حال الإكراه، ومع ذلك فإن كثيرا من الصحابة – رضي الله عنهم – لم يأخذوا بهذه الرخصة بل سلكوا مسلك العزيمة، وأوذوا في الله أذى شديدا، فمات بعضهم وعذّب بعضهم، كما فعل بلال، وياسر والد عمار، وأمه سمية، وحبيب بن زيد رضي الله عنهم أجمعين.

ثانيا : صور الاعتزاز والاستعلاء بالهوية الإسلامية :

إذا كان من الواجب على المسلم الاعتزاز بهويته والافتخار بها، فإن لهذا الاعتزاز والافتخار صورا كثيرة تعبر عن هذا المعنى، منها:

١ – التصريح بهويته الإسلامية وإعلانها :

من صور الاعتزاز بالهوية والاستعلاء بها التصريح بها وإعلان الدين الذين ينتمي إليه المسلم، وقد سبق ذكر الآيات الدالة على هذا المعنى، كقوله سبحانه:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف: ١٠٨].

٢ – الدعوة إليها دونما خجل :

ومن صور الاعتزاز بالهوية الإسلامية الدعوة إليها والعمل على اعتناق الناس للإسلام، قال سبحانه:﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾[الحج: ٦٧]، وقال سبحانه:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[النحل: ١٢٥].

(١) معالم التنزيل ٢/٢٦.

ولا تكـون الدعوة إلا بعـد الاستيقان في النفوس بأن ما يدعو إليـه المرء هو الحق وأن ما سواه باطل.

٣ – إقامة شعائر الدين وعدم التحرج منها:

من مظاهـر الاعتزاز بالهوية الإسلامية إظهار الشعائـر الإسلامية، وعدم التحرج من ذلك..

فـإذا أيقن المسلم بأن الصلاة مكتوبة عليها وجب عليه أداؤها في أوقاتها والجهر بذلك دون حياء أو خجل من الكفار.

وإذا أيقنـت المسلمـة بـأن الواجب عليهـا لبس الحجـاب وستر زينتها التـي أمرها الله سبحانـه وتعـالى بها فإن الواجـب عليها أن تلتزم بذلـك وأن تفخر بذلك لأنهـا ملتزمة بما شرعه الله سبحانه وتعالى.

وهذا الامتثال يحقق مصالح عديدة، فيجمع بين الاعتزاز بالدين، والدعوة إليه، وتحقيق ما أمر الله تعالى به، وترك ذلك يؤدي إلى الذلة والهوان، ومعصية الله سبحانه وتعالى.

٤ – الاعتزاز بأحكام الشريعة الإسلامية:

تتميز الشريعة الإسلامية بأحكام وتشريعات تختلف عن الشرائع الأخرى، وتتعارض مع كثـير من القوانين والتشريعـات الوضعية، وكثيرا ما يوجه النقد إلى هذه التشريعات من قبل أعداء الإسلام، ومع الأسف نجد كثيرا من أبناء المسلمين يضعف أمام هذه الشبهات ويتحرج من إظهار الأحكام الشرعية في كثير من المجالات، ومن الأمثلة على ذلك:

أ – الحدود كالقصاص وقطع يد السارق وحد الزنا والردة وغيرها.

ب – أحكام الأسرة كالقوامة والميراث وتعدد الزوجات.

وواجـب علـى المسلـم تطبيق أحـكام الله تعالى في هذه المجـالات، وعـدم الالتفات إلى الأحكام الوضعية البشرية المخالفة لأحكام الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسـف: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[المائدة: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[المائدة: ٥٠].

ويحسن هنا أن نشير إلى أن الاعتزاز بالشريعة الإسلامية وأحكامها لا يعني الهجوم على التشريعات الأخرى وتقبيحها والانشغال ببيان مساوئها، وإنما يؤخذ من ذلك بقدر الحاجة، مع مراعاة المصلحة في ذلك، لكي لا يؤدي ذلك إلى ردود الفعل المسيئة إلى أحكام الإسلام، عملا بمقتضى قول الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

٥ - التميز عن الكفار في السلوك والمظهر:

إن من ركائز اعتزاز المسلم بهويته الإسلامية التمايز عن الكفار وعدم التشبه بهم، وقد نبه القرآن المسلمين إلى الابتعاد عما ظاهره تقليد للكفار، ذلك أن الانجراف وراء عادات الكفار وتقاليدهم يعتبر هزيمة نفسية، وينعكس ذلك على سلوك المرء فيقع في المحظور ابتغاء تقليد الآخرين، كما أنه يدل على ضعف الإيمان وعدم الاعتزاز بالهوية، ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التشبه بالكفار في آيات كثيرة، كما في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[البقرة: ١٠٤]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: "نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم"(١).

ومن ذلك النهي عن تشبه النساء المؤمنات بالكافرات في لباسهن، كما قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٣٧٣.

وقد ورد النهي عن النبي ﷺ عن التشبه بالكفار، كما في الحديث عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: "من تشبه بقوم فهو منهم"[1].

وفي هذا كله دليل على أهمية استقلال الهوية الإسلامية عن غيرها.

٦ - عدم الخنوع والخضوع للكافرين:

إن مما يميز الهوية المسلمة أنها لا تخضع إلا لله سبحانه وتعالى، ذلك أن النفع والضر إنما هو بيده سبحانه وتعالى، وهو الذي بيده مقاليد الملك، ومن ثم فإن المسلم لا يخضع للكفار ولا يستكين لهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

وقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التذلل للكفار والاستكانة لهم، قال الشوكاني – رحمه الله تعالى – في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: ٣٩]: "أي: أصابهم بغي من بغى عليهم بغير الحق، ذكر سبحانه هؤلاء المنتصرين في معرض الفتح، كما ذكر المغفرة عند الغضب في معرض المدح؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات من جعل الله له العزة، حيث قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]"[2].

ولهذا ورد النهي عن التسليم والاستسلام للكافرين، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد: ٣٥].

٧ – عدم الاعتماد على غير المسلمين:

إن مما يعزز الهوية الإسلامية في نفوس المسلمين اعتمادهم على أنفسهم بعد الله سبحانه وتعالى وعدم الركون إلى غيرهم من الكفار، ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى عن

(١) سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة ٤٤١/٢، رقم ٤٠٣١، قال الألباني: حسن صحيح، صحيح وضعيف أبي داود ٣١/٩ ..

(٢) فتح القدير ٣٨٦/٦ .

الركون إلى الظالمين والاعتماد عليهم، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[هود: ١١٣].

ونهى سبحانه وتعالى عن ولاية الكفار في آيات كثيرة جدا، كما في قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾[النساء: ١٤٤]، وقوله سبحانه:﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[المائدة: ٥١]، وغير ذلك من الآيات.

وعن عائشة – رضي الله عنها – أن رجلا من المشركين لحق بالنبي ﷺ ليقاتل معه فقال: ارجع، ثم اتفقا فقال: "إنا لا نستعين بمشرك"[١].

٨ – عدم المبالاة بمؤامرة الأعداء أو الالتفات إليها:

إن مما يميز المسلم في حياته عدم مبالاته بما يكيده له الأعداء، ذلك أنه واثق بالله سبحانه وتعالى، ومن ثم ينعكس ذلك على سلوكه، فلا يبالي بكيد الأعداء، ولا يمنعه ذلك من الدعوة إلى الله تعالى والجهر بالحق والصدع به.

وبهذا أوصى الله عز وجل نبيه محمد ﷺ وأمره بعدم الالتفات إلى كيدهم وسخريتهم، كما قال تعالى:﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يس: ٧٦].

فيجب على المسلم الاستعانة بالله تعالى والاعتماد عليه وعدم الالتفات لما يكيده أعداء الإسلام.

هذه أبرز مظاهر الاعتزاز والاستعلاء بالهوية الإسلامية، ولا شك أنها ليست مقصورة على هذه المظاهر، بل ينبغي أن تكون كل تصرفات المسلم وأفعاله معبرة عن هُويّته التي ينتمي إليه، وألا يتناقض القول مع العمل﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الصف: ٢،٣].

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في المشرك يُسهَم له ٣/٧٥، رقم ٢٧٣٢، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود ٦/٢٣٢ رقم ٢٧٣٢ .

المبحث الثاني

اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية

تحدثنا في المبحث الأول عن طبيعة الهوية الإسلامية وأهمية إظهارها والاستعلاء بها، إلا أن من المسلمين من لم يأخذ بالتوجيهات القرآنية، مما أوجد منهزمين في هويتهم الإسلامية، غير معتزين بها، بل نجد من المسلمين من يخجل من تشريعات الإسلام وأحكامه، وربما تظاهر بأن هذه الأحكام والتشريعات لا تعنيه، بل وصل الحال ببعض المسلمين إلى محاربة أحكام الشريعة الإسلامية وانتقادها والانبهار بما لدى الكفار من قوانين وتشريعات، وهذا انهزام مقيت، وضعف في الانتماء للهوية الإسلامية.

وسأعرض هنا لاهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية لدى بعض المسلمين: أسبابها ومظاهرها، في مطلبين اثنين:

- **المطلب الأول: أسباب اهتزاز بالهوية الإسلامية.**
- **المطلب الثاني: مظاهر اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية.**

المطلب الأول: أسباب اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية:

ثمة أسباب عدة أدت إلى اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية لدى بعض المسلمين، ولا يمكن حصر هذه الأسباب جميعا، لكن سنستعرض عددا من الأسباب التي يمكن استخلاصها من خلال حديث القرآن الكريم.

١ – ضعف الإيمان:

أهم الأسباب التي تؤدي إلى اهتزاز الهوية لدى المسلم هو ضعف الإيمان، فإذا ضعف إيمان العبد قلّ اعتزازه بدينه وافتخاره به، ولهذا نجد أن المنافقين يتذبذبون في إعلان هُويتهم بين فترة وأخرى، وبين بيئة وبيئة، فأحيانا يعلنون هُويتهم الإسلامية ويجاهرون بها، وأحيانا يخفونها ويتنصّلون منها، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا

خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال سبحانه: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾[آل عمران: ١١٩].

ومع أن السبب بالنسبة للمنافقين هو انعدام إيمانهم، إلا أن ضعف الإيمان سبب من أسباب ضعف الاعتزاز بالهوية الإسلامية، وبخاصة أنه لا يمكن الجزم بالنفاق لأنه أمر يعلق بالقلب والمعتقد.

لقد كان الصحابي يؤمن بالله تعالى ويدخل في الإسلام ثم لا يلبث أن ينطلق معلنا إسلامه، مفصحا عن هُويته؛ لاقتناعه بها وإيمانه العميق، لكن عندما يضعف الإيمان تهتز الثقة بالهوية فيخجل المرء من إظهارها والانتماء إليها.

٢ – الجهل وقلة الفقه :

الجهل بيئة خصبة للشبهات، فإذا لم يكن لدى المرء علم يصونه عن الانحراف، ويجسّد هويته في نفسه، ويزرع الثقة لديه بدينه فإن ذلك يؤدي إلى اهتزاز هويته وتسلل الشبهات إلى نفسه.

ومن تأمل نصوص القرآن وأحداث السيرة النبوية وجد أن المنافقين كانوا يثيرون الشبهات لدى المسلمين فكان القرآن يرد عليهم ويفند شبهاتهم.

وهناك شبهات كثيرة يتم طرحها لتضعيف الاعتزاز بالهوية الإسلامية، ومن ذلك:

دعوى صحة الديانات السماوية وقبولها من معتنقيها بعد بعثة محمد ﷺ، والقول بأنها كلها ديانات سماوية صحيحة، والاستشهاد بآيات من القرآن وحملها على غير معناها، كقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[البقرة: ٦٢].

فنجد من يقلّل من أهمية الالتزام للهوية الإسلامية بدعوى أن المؤمنين واليهود والنصارى بمنزلة واحدة، مع أنه لايقبل دين بعد مبحث محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران: ٨٥].

وهكذا نسمع أحيانا من يزعم بأن أهل الكتاب ليسوا كفارا، مع أن الله تعالى نصّ على كفرهم في أكثر من آية، كما في قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾[المائدة: ٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[المائدة: ٧٣].

هذه الشبهات كلها تضعف الانتماء للهوية والاعتزاز بها، ولا يمكن دفع هذه الشبهات إلا بالعلم والتفقيه.

٣ – اتباع الشهوات:

من أسباب الانهزام التي تطرأ على بعض المسلمين البحث عن الشهوات والانهماك فيها، ذلك أن التشريع الإسلامي ينظم شهوة الإنسان ويقيدها بقيود الشريعة.

ومن حرص على قضاء شهواته بعيدا عن ضوابط الشريعة فإنه يحاول الانسلاخ من هويته حتى يشعر نفسه بالانفلات من هذا القيد، كما قال سبحانه: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩].

وأجزم أن كثيرا ممن ينسلخون عن هويتهم الإسلامية يدركون أن الإسلام هو الحق، وأن ما هم عليه هو الباطل، لكنهم لا يعترفون بذلك ظاهرا، اتباعا لشهواتهم وأهوائهم، وصدق الله القائل: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[المؤمنون: ٧١].

٤ – التفوق المادي للكفار:

لا شك أن لموازين القوة والضعف أثرا كبيرا في تبعية هوية لأخرى، وعندما كان المسلمون أقوياء كان هم سادة الدنيا، ولم تتأثر الهوية الإسلامية بمن حولها من الثقافات، بل على

العكس من ذلك، فقد كانت الهوية الإسلامية متميزة في سائر البلدان، وكان لها مكانتها وتميزها عن غيرها.

ولكن لما ضعفت الأمة الإسلامية ماديا، وانبهر أبناؤها بما لدى الغرب، فقد كثير من أبناء المسلمين هويتهم وتأثروا بالثقافات المختلفة، ولم يعودوا متمسكين بهويتهم، ذلك أن كثيرا من الناس تحكمه المصالح المادية، فلا يبني قيمه على أسس صحيحة، بل على المصلحة وبهذا يتأثر في تبعيته، وتتذبذب هويته، كما قال سبحانه وتعالى في وصف المنافقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[النساء: ١٤١].

وهذا من أهم أسباب ضعف الثقة بالهوية الإسلامية.

المطلب الثاني: مظاهر اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية:

هناك مظاهر لاهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية، وهي كثيرة، من أبرزها:

١ – موالاة الأعداء:

ولاية الأعداء والارتماء في أحضانهم وتسليم أمر المسلمين لهم هو أحد مظاهر اهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية، يقول الله سبحانه: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[النساء: ١٣٨،١٣٩].

والباعث على هذا ضعف الثقة بالله تعالى والثقة بالكفار، حيث يرى البعض أنه قد يحتاج إليهم عند الشدة، يقول سبحانه: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥٢].

يقول السعدي رحمه الله تعالى: "يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا نخشى أن تصيبنا دائرة، أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم

يد يكافئوننا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام"[1].

بل إن الأمر قد يتعدى ذلك إلى مناصرة الكفار على المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾[الحشر: ١١].

٢ - التشكيك في الشريعة الإسلامية وصلاحيتها :

من مظاهر الانهزام لدى بعض المسلمين: التشكيك في الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، فنجد بعض المسلمين يزعم أن أحكام الشريعة الإسلامية لا تواكب العصر الحديث، ونجده ينتقد من يلتزم بتطبيق الشريعة الإسلامية بدعاوى متعددة، إما بالقول بأن هذه الأحكام كانت مناسبة للعصر الذي فُرضت فيه دون غيره، أو أنها لم تثبت وأن هناك من أخطأ في جمعها ونقلها إلينا، وهذه الأقوال لا تستند إلى أسس علمية أو منهجية وإنما مجرد دعاوى باطلة.

٣ - الانبهار بأفكار غير المسلمين:

من مظاهر الانهزام لدى بعض المسلمين إعجابه بالهوية الكفرية والثناء عليها، ونجد أن في المسلمين من انبهر بحضارة الغرب ودعا إلى السير على نهجهم والاقتداء بهم في كثير من القضايا.

ولا شك أن مثل هذه الرؤى لا تصدر إلا من شخص منهزم في تفكيره، وغير معتز بهويته الإسلامية، ولو أنه عرف حقيقة الإسلام وحقيقة الكفر لما انبهر بمثل هذه الحضارات ولما دعا إلى الاقتداء بها وتقليدها.

٤ - الدعوة إلى المساواة بين المسلم والكافر:

جاءت الشريعة الإسلامية لتحفظ حقوق العباد، وفي التشريع الإسلامي يتميز المسلم عن غيره باستحقاقات لا ينالها غيره، وهو تشريع إلهي، مبني على العبادة والتقوى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[الحجرات: ١٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/٢٣٥.

وهنـاك فوارق عديدة في أحكام الدماء، والولايـة، والإرث، وغيرها مما هو مفصل في كتب الفقه الإسلامي.

إلا أننـا نجد اليوم مـن أبناء المسلمـين المنهزمين في إظهار الهويـة الاسلامية دعوتهم إلى المسـاواة بين المسلـم والكافر، بدعاوى كثيرة، كدعوى المواطنـة المتساوية، ودعوى حقوق الإنسان، وغير ذلك من الدعاوى.

ومـن المعلـوم أن هناك حقوقا خاصة للمسلمين وحقوقا أخـرى لغير المسلمين، ولا يمكن التسوية بينهم إلا عند من عميت بصائرهم وفتنوا بالأفكار المنحرفة، كيف والله تعالى يقول: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

٥ – التشبه بالكفار وتقليدهم :

وهـذا مـن أبرز مظاهر الانهـزام، وهو السعـي إلى تقليد الكفـار في لباسهم وعاداتهم وتصرفاتهـم، وقـد يتعدى ذلـك إلى تقليدهم فيما هو عبادة لديهـم، فيقع المرء في المخاطر التي تهدد دينه وعقيدته.

ومـا هـذا التشبه والتقليد إلا إعجابا بتلك الهوية التـي يدينون بها، أو ضعفا في الانتماء للهويـة الإسلامية، إذ يرى هـؤلاء أن هذه التصرفات ترفع مكانتهم لدى الآخرين، بينما هي في الحقيقة تحط من مكانتهم عند الله تعالى.

هذه بعض الأسباب التي أدت إلى ضعف الاعتزاز بالهوية الإسلامية، وغيرها كثير.

الخاتمــة

الحمــد لله الــذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والســلام على رسول الله محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمن خلال استعراضنا لهذا البحث الذي بعنوان: "هوية المسلم بين الاستعلاء والانهزام، دراسة قرآنية"، وقفنا من خلاله على عدد من المسائل والقضايا، يمكن أن نوجز أهمها فيما يلي:

١. يمكن تعريـف الهوية بأنها: مجموعـة الخصائص والميـزات العقدية والأخلاقية والثقافية التي ينفرد بها مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم.

٢. للإســلام معنيــان: أحدهما بمعنــاه العــام، وهو الاستســلام لله تعــالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والآخر بمعناه الخاص وهو شريعة محمد ﷺ.

٣. المسلم عال بإيمانه، عزيز بدينه، وعزته مستمدة من عزة الله تعالى.

٤. عزة المسلم واستعلاؤه نابعة من أمور عدة، أهمها:
أ – عبوديته لله تعالى.
ب – كونه على الحق.
ج – يقينه بتميزه عن غيره بإيمانه.
د – ولاية الله تعالى له.
هـ- وعد الله له بالنصر والتمكين والغلبة.
و – أنه من أهل الجنة.

٥. وجوب اعتزاز المسلم واستعلائه بهويته الإسلامية.

٦. هناك صور عدة لاعتزاز المسلم بهويته الإسلامية، منها:

أ – التصريح بهويته الإسلامية وإعلانها.
ب – الدعوة إليها بلا خجل.
ج – إقامة شعائر الدين وعدم التحرج من ذلك.
د – الاعتزاز بأحكام الشريعة الإسلامية.
هـ- التميز عن الكفار في السلوك والمظهر.
و – عدم الخنوع والخضوع للكافرين.
ز - عدم الاعتماد على غير المسلمين.
ح – عدم المبالاة بمؤامراة الأعداء أو الالتفات إليها.

٧. هناك طائفة من المسلمين لديهم اهتزاز في ثقتهم بهويتهم الإسلامية.

٨. هناك أسباب عدة لاهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية، منها:
أ – ضعف الإيمان.
ب – الجهل وقلة الفقه.
ج – اتباع الشهوات.
د – التفوق المادي للكفار.

٩. هناك مظاهر لاهتزاز الثقة بالهوية الإسلامية، منها:
أ – موالاة الأعداء.
ب – التشكيك في الشريعة الإسلامية وصلاحيتها.
ج – الانبهار بأفكار غير المسلمين.
د – الدعوة إلى المساواة بين المسلم والكافر.
هـ- التشبه بالكفار وتقليدهم.

وختاما فإني أوصي بإعطاء الهوية الإسلامية اهتماما خاصا لتوعية الشعوب الإسلامية وحثها على التمسك بدينها وإزالة الشبهات حولها، وزرع الثقة في نفوس الأجيال بهويتهم الإسلامية.

والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبـت المراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، المتوفى سنة ٩٨٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

٢. أزمة الهوية الإسلامية، مقال للدكتور خالد روشة، منشور بموقع المسلم على صفحات الإنترنت على الرابط: (http://www.almoslim.net/node/103661)

٣. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ/ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، المتوفى سنة ١٣٩٣ه ط١٤١٥هـ ١٩٩٥م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي، المتوفى ٦٨٥هـ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٥. البحر المحيط، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي، المتوفى سنة ٧٤٥هـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٣٩٣م دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٦. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي، دار الهداية.

٧. التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م

٨. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي، بيروت.

٩. تفسير القرآن العظيم، للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المتوفى سنة ٧٧٤هـ دار الكتب المصرية.

١٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المتوفى سنة ١٣٧٦هـ مؤسسة الرسالة.

١١. جامـع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠هـ الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

١٢. الجامع لأحـكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمـد الأنصاري القرطبي، المتوفى سنة ٦٧١هـ دار عالم الكتب، الرياض – السعودية.

١٣. روح البيـان، إسماعيل حقي بن مصطفـى الاستانبولي الحنفي الخلوتي، المتوفى سنة ١٣٧٠هـ دار إحياء التراث العربي.

١٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمـود أفندي الآلوسي البغدادي، المتوفى سنة ١٢٧٠هـــ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

١٥. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، ابن الجوزي، المتوفى سنة ٥٩٧ه الطبعة الثالثة ١٤٠٤ه المكتب الإسلامي – بيروت.

١٦. سـنن أبـي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستـاني، المتوفى سنة ٢٧٥هـ بيت الأفكار الدولية، الرياض – السعودية.

١٧. الصحــاح تاج العربية وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ه ١٩٨٧م دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.

١٨. صحيح البخاري، المسمى: الجامع الصحيح المختصر، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الجعفي البخاري، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ه ١٩٨٧م دار ابن كثير، بيروت.

١٩. صحيح مسلم، للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، بيت الأفكار الدولية، الرياض – السعودية.

٢٠. صحيح وضعيف سنن أبي داود، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

٢١. فتـح القديـر الجامـع بين فنـي الروايـة والدراية من علـم التفسير، محمـد بن علي الشوكاني، المتوفى سنة ١٢٥٠ه

٢٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة.

٢٣. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ١٤١٩ه ١٩٩٨م دار الرسالة – بيروت.

٢٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور المصري، الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت.

٢٥. مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المتوفى سنة ٧٢٨هـ الطبعة الثالثة ١٤٢٦ه ٢٠٠٥م دار الوفاء – المنصورة، مصر.

٢٦. المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبدالله النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

٢٧. معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن محمد البغوي، المتوفى سنة ٥١٦ه الطبعة الرابعة ١٤١٧ه ١٩٩٧م دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية.

٢٨. المعجم الوسيط، من إعداد مجمع اللغة العربية بمصر، الطبعة الرابعة ١٤٢٥ه ٢٠٠٤م مكتبة الشروق الدولية.

محمد شاكر المودني

الاسم العائلي	**المودني**	***ELMOUDNI***
الاسم الشخصي	**محمد شاكر**	***MOHAMMED CHAKIR***
الجنسية	**مغربية**	

٢- الشهادات العلمية والمهنية والتربوية:

الشهادة	التخصص	الكلية – الجامعة -المؤسسة	السنة
الدكتوراه	الدراسات الإسلامية، وحدة القرآن والحديث وعلومهما، تخصص المصطلح القرآني	جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز بفاس	يناير ٢٠٠٤م
دبلوم الدراسات المعمقة	الفقه والأصول	جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز بفاس	نونبر ١٩٩٦م
الإجازة	الدراسات الإسلامية	جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بمكناس	١٩٩٥م.
بكالوريا	الآداب الشرعية الأصيلة	مكناس	١٩٩٥م
الشهادة الجامعية	الدراسات الأدبية، شعبة الدراسات الإسلامية	جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بمكناس	١٩٩٣م
بكالوريا	العلوم التجريبية	مكناس	١٩٩١م
شهادة الأهلية التربوية	الدراسات الإسلامية	المدرسة العليا للأساتذة بفاس	١٩٩٦م

الحوار ومنهج البناء الفكري في القرآن الكريم:
(أصول وخصائص وقواعد)

مداخلة معدة للمؤتمر الدولي القرآني:

توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة

(١٥ - ١٦ - ١٧ محرم ١٤٣٨هـ الموافق ١٦ - ١٧ - ١٨ أكتوبر ٢٠١٦)

الدكتور محمد شاكر المودني

أستاذ التعليم العالي - المغرب

مقدمة

يعتبر الحوار أهم آلية لتدبير الاختلاف وتحقيق التعايش المطلوب الذي يمكن أن يسهم في إشاعة نفس الفعل والإيجابية والبناء، ومنطق التشارك والتعاون مع الغير، وأداة تذويب الخلافات والتصدعات، ووسيلة لجمع الكلمة ورأب الصدع ولم الشمل وتوحيد الصف..

ثم إن اختيار الحديث عن هذا الموضوع سيسهم بالتأكيد في تعميق الوعي بالإسلام وطبيعته، خاصة وأن الحاجة ماسة اليوم إلى تصحيح فهم هذا الدين الذي تشوه لدى الكثيرين وخاصة من المحسوبين عليه، حتى صار العنف عند بعضهم سبيلا مبررا، ومنهجا مرسخا، بل قد ينسبه البعض إلى الإسلام ويؤصله تأصيلا، والإسلام منه براء. بل إن ديننا الحنيف دين سلم وسلام، دين أمن وأمان، دين حب ووئام، دين تواصل وحوار...

وها قد صار ينعت الإسلام اليوم من طرف خصومه بأنه دين جمود وتعصب، ودين يدعو إلى الإيمان الأعمى ويلغي العقل، ودين يرفض الحوار ويلغي الرأي الآخر ولا يعترف به ولا يريد سماعه.. فضلا عن نعوت التكفير والإرهاب.. والتي –مع الأسف- بدأنا نسمعها من بني جلدتنا، حتى صرنا إلى من ينبري اليوم من بيننا ليدعي أن قول النبي عليه السلام لملوك عصره "أسلم تسلم" هو إرهاب وجب حذفه من المقررات الدراسية !!

إن جزءا من أزمة الأمة اليوم يمكن إرجاعه إلى غياب الحوار والتواصل على المستوى العالمي والمحلي، على مستوى الأفراد والمجتمعات، بين المسلمين وغيرهم أو بين المسلمين أنفسهم، بل داخل الأسرة الواحدة... مما يغيب معه التعارف والتفاهم واحترام الخصوصيات الثقافية والحضارية، وآية الحجرات نصت على مقصد التعارف، قال تعالى: (يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ خَبِير)[1]، فكان الانتقال من خطاب (يا أيها الذين آمنوا) إلى (يا أيها الناس) لاعتبار مقصد التعارف عاما بين البشرية وهو الأرضية المشتركة بين الجميع، ولا سبيل إلى تحقيقه إلا بالحوار والتواصل، فالاختلاف طبيعي (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً

(١) – سورة الحجرات: ١٣.

وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِـينَ) [1]، ولكن الحوار يُضيق مساحات الاختـلاف والفرقة، ويجنب الناس الصدام والعنف، ويمد جسور التفاهم والتقارب والتعاون...

ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى بذل كل الجهود لإرساء ثقافة الوحدة والحوار، والتعايش والتكتل للَمِّ شعث الأمة وتوجيه إمكاناتها وطاقاتها، بل وبناء أفهامها ومعتقداتها وتصوراتها، وإن كثـيرا من الاضطراب الفكري والانحراف العقـدي وخاصة عند الشباب مرده في جانب كبير إلى غياب محاوِر مقنع وعدم وجود فضاء حوار مناسب.

(١) - سورة هود: ١١٨.

١- الحوار والجدال في القرآن الكريم

المفهوم والورود:

أ- مفهوم الحوار:

مـدار كلمة الحوار في اللغـة على التجاوب والمراجعـة، والمَرَادَّة في الـكلام ...[١]، يقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط: "..وتحاوروا: تراجعوا الكلام ... والتحاور هو التجاوب.."، ويقـول صاحب الجمهرة (ابن دريد): "وحاورتَ فلانا محـاورة وحوارا وحويرا... إذا كلمَك فأجبته"، ويقول الراغب في مفرداته: "..والمحاورة والحَوَار: المُرادَّة في الكلام.."[٢]

ب- مفهوم الجدال:

والجدل في اللغة[٣] شدة الفتل، "يقال جدلت الحبل أجدله جدلا إذا شددت فتله وفتلته فتـلا محكما" كما قال صاحب اللسـان، وفيه أيضا: "والجدال هـو الصراع... وجدله جدلا وجدَّلـه فانجدل وتجدَّل: صرعه على الجدالة وهـو مجدول.. والمجدل الملقى بالجدالة، وهي الأرضـ"، وفيـه أيضا: "جادلـت الرجل فجدلته جـدلا أي غلبته... وجادلـه: أي خاصمه... والاسـم الجـدل: وهو شـدة الخصومة.."، وقـال ابن فارسـ في المقاييس: "الجيـم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام."[٤]

ممـا يتبين معه أن الجدال فيه معنى الصراع والخصومـة والمغالبة، والرغبة والحرص على الانتصار، ولهذا جاء مذموما في القرآن الكريم أحيانا أو موجها مقيدا بالآداب المطلوبة

---

(١) ينظر لسان العرب، القاموس المحيط، جمهرة اللغة، تاج العروس، الصحاح.../ حور

(٢) الحوار قد يكون تجاوبا بين اثنين أوأكثر وهو الغالب، ولكن القرآن الكريم يحكي تفاصيل حوار مع الذات حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى في سورة الأنعام: (وَكَذَالِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِـنَ الْمُوقِنِينَ(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَـالَ لآَ أُحِبُّ الآفِلِينَ(٧٦) فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ(٧٧) فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَـةً قَـالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَا قَـوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٧٩))
كما أن الحوار قد يكون بالكلام –وهو الغالب- وقد يكون بالكتابة أو بالإشارة أو بغيرها مما يفيد معنى ويحقق تواصلا.

(٣) ينظر لسان العرب، جمهرة اللغة، معجم مقاييس اللغة، الصحاح.../ جدل.

(٤) معجم مقاييس اللغة/ جدل.

في سياق المدح أحيانا أخرى، خاصة مع حالات الانفعال التي يمكن أن تصاحب المتجادلين والتي يمكن أن تؤدي إلى نتائج عكسية أحيانا، وبهذا يتميز الحوار عن الجدال كما تؤكده آية المجادلة -وسيأتي بيانه بحول الله في حينه-.

ج- في ورود لفظ الحوار في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ الحوار في القرآن الكريم إلا في أربعة مواضع[1]:

١. في سورة الكهف: ٣٢ - ٣٤: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنَ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا(٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا(٣٤))

٢. في سورة الكهف: ٣٧: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)

٣. في سورة المجادلة: ١: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌم بَصِيرٌ(١))

٤. في سورة الانشقاق: ١٤ - ١٥: (إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَّحُورَ(١٤) بلى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا(١٥))، بمعنى لن يرجع إلى ربه ولن يبعث.

د- في ورود لفظ الجدال في القرآن الكريم:

أما لفظة "الجدل" فقد وردت في ٢٩ موضعا في سياق المدح أحيانا مع توجيه منهج الجدل، كما في قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[2]، وقوله سبحانه: (وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦))[3]، ....، وفي سياق الذم أخرى،

(١) - وورد اللفظ في تسعة مواضع أخرى بغير هذا المعنى.

(٢) سورة النحل: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٦.

كمـا في قوله تعالى: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَـلاً اذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ(٥٧) وَقَالُوا ءَاالِهَتُنَا خَيْرٌ اَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ(٥٨)) –سورة الزخرف-، فوصفهم القرآن بجدالهم بأنهم قوم خصمون، وقال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِـعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ(٣)) –سـورة الحج-، وقال سبحانـه: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنَ اَطَعْتُمُوهُمُ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١)) –سورة الأنعام-.

وقـال تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الانسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَـدَلاً(٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّومِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُـدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمُ إِلاَّ أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ الاَوَّلِينَ أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلاً(٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُؤًا(٥٦)) –سورة الكهف-

والملاحظ: أن أغلب ورود لفظ الجدل في القرآن الكريم جاء في سياق الذم إلا نادرا.

كمـا أن النبـي عليه السلام حذر من الجدل وذمـه كما في قوله: "ما ضل قوم بعد هدى كانـوا عليـه إلا أوتوا الجدل"، ثم تـلا الآية (ما ضربوه لك إلا جدلا بـل هم قوم خصمون)، (سورة الزخرف: ٥٨)[١].

هـ- بين الحوار والجدال في الاستعمال القرآني:

قـال تعالى: (قَـدْ سَمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَـا وَتَشْتَكِـي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَـآ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌـم بَصِـيرٌ)[٢]، وهذه هـي الآية الوحيدة التـي تضمنت اللفظين معا في سيـاق نستطيـع معه تبين الفـرق بين اللفظين، ذلـك أن المرأة (خولة بنـت ثعلبة) جاءت تشكو زوجها (أوس بن الصامت) مستاءة منفعلة من الظهار الذي أقسم به عليها فلزم منه الطـلاق، ولكن ما إن تحدثت إلى النبي ﷺ حتى هـدأت نفسها، فانتقل الوضع من الجدال إلى الحوار.

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٥٦٣٣.

(٢) سورة المجادلة: ١.

وبهـذا يكون الحوار محمودا ما لم يخرج عن خصوصيتـه الهادئة مع المراجعة المطلوبة والتجـاوب الإيجابي والمرادة في الكلام بحثا عن الحـق والصواب في الرأي.. ، فيكون حينها كالجدال المحمود، وإلا انتقل إلى الجدال المذموم.

في حـين يقوم الجـدال أساسا على المغالبة المنطلقة من اعتقـاد كل طرف أنه الذي يمتلـك الحـق ويحاول إقنـاع الآخر بكل ما يملك مـن الأدلة، قد تتحول إلى اعتـداد بالرأي، ورغبة في إثبات الذات ولو مع مجانبة الصواب أحيانا..

٢- وقفات مع حوارية القرآن الكريم:

وبعيدا عن لفظتي الحوار والجدال اللتين لا تحتلان حيزا كبيرا من حيث الورود لفظا في القرآن الكريم، هل يمكن الادعاء أن القرآن الكريم كتاب حوار؟ وهل يدعو فعلا إلى الحوار؟ أم أنـه كتاب منغلق لا يعترف بالآخر؟ وهل للمساحة الصغيرة التي يحتلها لفظ الحوار دلالة سلبية على اعتبار هذا الكتاب كتاب حوار؟ أليس في ذلك دليلا على أحادية الرأي في القرآن، وتأسيسـا لمصادرة الآراء الأخرى؟ خاصة وأنه كتاب إلهي المصدر، متعال عن منطق البشر، وبالتالي فليس عيبا ولا ينتقص منه ألا يكون حواريا؟

بتأمـل آيات الكتاب الحكيـم وسياقاتها المختلفة، يمكن أن نجيب عـن هذه التساؤلات، ونخلص إلى إثبات الدعوى أو دحضها:

بـل نستطيع القـول بكل اطمئنان إن القرآن الكريم كتاب حـوار بامتياز، ودعوة صريحة إلى الحوار، وبيان ذلك فيما يلي:

أ- مع مادة قال (ق.و.ل) في القرآن الكريم:

وردت مـادة قـال (ق.و.ل) :١٧٢٢ مـرة في القرآن الكريم.. في المرتبـة الثانية بعد اسم الجلالـة "الله" الذي يحتل المرتبة الأولى بين الألفـاظ ذات الجذور الثلاثية المتعددة الورود بالقرآن الكريم.

ويتصـرف لفظ (قال) على حوالي ٤٩ تصريفـا واشتقاقا تتوزع على الأوضاع والأحوال والأجناس والأنواع المختلفة للأطراف المتحاورة (من مخاطَـب ومخاطِب، وحاضر وغائب، وصغـير وكبير، وذكر وأنثى، ومفرد وجمع...) ، فقـد وردت صيغة قال ٥٢٩مرة، ويقولون٩٢

مرة، وقل ٣٣٢مرة، وقولوا ١٣مرة، وقيل ٤٩ مرة، والقول ٥٢ مرة، وقولهم ١٢مرة، وقالت...[١]

فلا نجد المادة متصرفة تصريفا واحدا مثلا أو على جهة الاستعلاء بما يفيد الرأي الواحد أو يفيد التلقين والتبليغ...إلى غير ذلك.

ب- تنوع المتحاورين في القرآن:

الله يحاور الملائكة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[٢].

الله يحاور إبليس: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا ءَلآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ(١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجِ انَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىا يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ(١٥) قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(١٦)...)[٣].

- الله يحاور آدم ...
- الله يحاور الأنبياء ...

وإلى جانب محاورة الله لخلقه، يحكي القرآن الكريم حوارات مختلفة بين أطراف مختلفة كذلك، من ذلك:

- حوار إبراهيم مع قومه
- حوار إبراهيم مع نفسه
- حوار موسى مع العبد الصالح (الخضر عليه السلام)
- حوار سليمان مع الجن ومع الهدهد.. (قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَاتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَّاتُونِي مُسْلِمِينَ(٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

(١) - يراجع كتاب الأستاذ المقرئ الإدريسي أبو زيد بعنوان: القرآن والعقل – الجزء الثاني، ص٢٦ وما بعدها.
(٢) - سورة البقرة: ٣٠.
(٣) - سورة الأعراف: ١١ – ١٦.

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩)[١].

- حوار الإخوة (قابيل وهابيل)
- حوار فرعون مع السحرة
- حوار مؤمن آل فرعون
- حوار صاحب الجنة لصاحبه في سورة الكهف (واضرب لهم مثلا رجلين).
- حوار أهل النار
- إلى جانب قصص حوارية متعددة (قصة خولة مع النبي عليه السلام، ملكة سبأ، مريم العذراء، ابنتي شعيب: نموذج الحوار مع المرأة...)

ج- القرآن الكريم يعرض الرأي والرأي الآخر بنسبة متكافئة تقريبا (٥٠ ٪)[٢]، النصف من كلام الله ومن تكلم به ومن كلام الملائكة والأنبياء والمؤمنين، والنصف الآخر من كلام الكفار والمشركين والمغرضين وغيرهم من أمثالهم، وهذا مستوى حواري رفيع، لأن مصدر القرآن الكريم هو الله تعالى ولو شاء سبحانه ما أتى على ذكر الرأي الآخر وما عرضه أو لعرضه بنسبة ضعيفة تنتقص من شأنه وقدره، وتدفع به إلى سلة المهملات التاريخية، حتى ما يعود له ذكر مع توالي الأزمنة... فكيف وقد عرضه بنسبة متكافئة، بل أزيد من ذلك يعرضه كاملا دون بتر أو تشويه (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ..) –الجاثية: ٢٤–، ويعرضه رغم ضعفه وقصوره، بل ورغم ضلاله وبطلانه وتناقضه وتهافته، كما في سورة المائدة: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) –المائدة ١٨–، (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) –المائدة: ٦٤–، ويعرضه بمثل جمالية عرض آرائه، وبأفضل مما كان سيعرضه صاحبه أصلا[٣]، كما في قصة ملكة سبأ: (.. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ(٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا

(١) – سورة النمل: ٣٨ – ٣٩. ويمكن مراجعة حوار نبي الله سليمان مع الهدهد في نفس السورة.

(٢) – يلاحظ أن لفظ (قالوا) ورد ٣٣١ مرة وغالبا ما يسند الكلام إلى الكفار والمغرضين كما في قوله تعالى: (وَإِذَا لَقُوا الذينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوا الىٰ شَيَاطينهمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) –البقرة:١٤–، وقال سبحانه: (وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُّخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تعلمون)–البقرة: ٨٠– ... ، في حين ورد لفظ (قل) ٣٣٢ مرة ويكون القول وحيا من عند الله إلى من سيتكلم به...

(٣) – يراجع كتاب الأستاذ المقرئ الإدريسي أبو زيد بعنوان: القرآن والعقل – الجزء الثاني، ص٣٥ وما بعدها.

بَأْس شَديد وَالأمْرُ إلَيْك فَانظُري مَاذَا تَامُرينَ(٣٣) قَالَت انَّ المُلُوكَ إذَا دَخَلُوا قَرْيَةً افْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أهْلهَآ أذلَّةً وَكَذَالكَ يَفْعَلُونَ(٣٤) وَإنِّي مُرْسلَةٌ الَيْهم بهَديَّة فَنَاظرَةٌ بمَ يَرْجعُ المُرْسَلُونَ(٣٥)...) –سورة النمل–، وأيضا قصة يوسف... بل أكثر من ذلك كله يشرع الله تعالى التعبد بالقرآن الكريم كله بما فيه كلامه سبحانه الذي يحكي الرأي الآخر..

د- ومن جمالية حوارية القرآن الكريم أنه يعرض الرأي الآخر بكل أمانة متضمنا بذلك الاعتراف بالآخر الذي يعتبر شرط الحوار الناجح المثمر.

٣- وقفات مع نموذج إبراهيم عليه السلام في حواراته:

في تجربة فريدة رائدة يعرض القرآن الكريم نموذج إبراهيم عليه السلام الذي اعتمد أساليب حوارية متميزة وبديعة أحيانا مع الذات وأحيانا مع الآخر، وهو يغير نظام القناعات، ويصحح التصورات، ويقوم الأفهام، ويبني العقيدة، ويوجه السلوك.

نموذج الحوار مع الذات:

قال تعالى: (وَكَذَالكَ نُري إبْرَاهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَات وَالارْض وَليَكُونَ منَ المُوقنينَ(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْه اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أفَلَ قَالَ لآ أحبُّ الافلينَ(٧٦) فَلَمَّا رَءَا القَمَرَ بَازغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أفَلَ قَالَ لَئن لَّمْ يَهدني رَبِّي لأكُونَنَّ منَ القَوْم الضَّآلِّينَ(٧٧) فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أكْبَرُ فَلَمَّآ أفَلَتْ قَالَ يَا قَوْم إنِّي بَريءٌ مِّمَّا تُشْركُونَ(٧٨) إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهيَ للذي فَطَرَ السَّمَاوَات وَالارْضَ حَنيفًا وَمَآ أنَا منَ المُشْركينَ(٧٩))[1].

إنه الحوار الداخلي الذي يعيشه كل إنسان ولكنه لا يصل دائما إلى النتائج المطلوبة والقرارات الصائبة؛ فكل إنسان ترد عليه الخواطر فإما يترجمها إلى واقع أو يحجم ويتراجع، وهذا النموذج الإبراهيمي يعرض لحوار مع الذات في منهج عقلي ومنطق حجاجي عميق، حيث يناقش الإنسان فيه خواطره التي ترد عليه قبل أن تصير أفكارا ثم واقعا،

(١) – سورة الأنعام: ٧٥ – ٧٩. بعض المفسرين حمل هذه الآيات على أنها منهج في الرد على أوهام المشركين وضلال عقائدهم كما ذهب إلى ذلك غير واحد من المفسرين كالإمام الزمخشري في الكشاف ٢/٤٥-٤٦، وبعضهم حملها على مرحلة ما قبل قيام الحجة وتمام النظر، "فلما تم نظره قال: (إني بريء مما تشركون)" كما قال الإمام القرطبي في الجامع ٧/٢٨ وانظر تفسير الطبري... وغيره. وهو في الحالين من المناظرة أو النظر حوار مع الذات.

ليصل إلى الفهم الصحيح والموقف السليم وهو يتأمل في خلق الله الدال عليه سبحانه وعلى عظمته، فيعود إلى رشده وينتصر لفطرته ويعلن للعالمين "إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ(٧٩)".. فيبنى الفهم وتترسخ العقيدة. وعلى رأي من قال إنه حوار موجه للآخر -أي قوم إبراهيم- حقيقة ففي الآيات إشارة إلى منهج في حوار الآخر رفيع يتنزل المحاور منزلة الاستفادة والاستعانة في النظر والاسترشاد بالمحاوَر والقصد هو تسفيه رأيه ودحض حجته وأبطال زعمه بل ورده إلى رشده وصوابه.

نموذج الحوار مع الآخر:

-حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه: قال تعالى: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيئًا(٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَآ أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا(٤٢) يَآ أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَاتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا(٤٣) يَآ أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا(٤٤) يَآ أَبَتِ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يَّمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ انتَ عَنَ -الِهَتِي يَآ إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا(٤٦) قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا(٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا(٤٨))[(١)].

ويتضح من خلال هذا الحوار الراقي كيف استعمل إبراهيم عليه السلام أدلة مختلفة في منهج حواري متدرج بدءا من إفحام العقل بوضعه أمام مسلمات بديهية لا يستطيع إغفالها ولا إنكارها، مرورا بخطاب القلب وإظهار الرحمة واللين بالمخاطب، إلى بيان حاجة المحاوِر إلى امتلاك أدوات الحوار الناجح من العلم والحلم، ومن الجمع بين الدعوة والدعاء؛ بدعوته إلى الله تعالى والحرص على إقناعه بكل الوسائل والحجج والأدلة مع التوجه إلى الله تعالى بالدعاء للمدعو (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) في غير انفعال ولا ضعف ولا تنازل عن المباديء (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا).

(١) - سورة مريم: ٤١ — ٤٨.

-حواره مع النمرود: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّـهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الذي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) -البقرة: ٢٥٨-

في هذه الآية العجيبة عرض مختصر لمنهج حواري حجاجي متقدم عميق رصين علمي دقيق -كما سأبينه بحول الله- القصد منه إثبات الربوبية لله تعالى، لقد بدأ إبراهيم عليه السلام بأعظم صفة لله تعالى وهي الخالقية (رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، فكان رد النمرود (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)، ثم انتقل به نبي الله إبراهيم إلى مستوى آخر (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)، وجمهور المفسرين ذهب إلى أن الحجة الثانية أقوى ولهذا أفحمت النمرود (فَبُهِتَ الذي كَفَرَ) ولكن أعتقد أن النمرود كان ضعيف الحجة ضعيف الحجاج قاصر العقل لم يدرك عمق مسألة فلسفية تتعلق بمسألة الخلق وقضية الروح والإحياء والإماتة، وفهمه البسيط قاده إلى الجواب البسيط (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ)، فانتبه إبراهيم عليه السلام إلى ضرورة النزول إلى مستوى المحاوَر ومخاطبته بما يفهم فقال (فإن اللَّه يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) فانتقل من قضية فلسفية تجريدية ذهنية إلى مسألة حسية ظاهرة بسيطة ولكنها معجزة لم يملك معها النمرود إلا ما حكاه القرآن (فَبُهِتَ الذي كَفَرَ).

إنها صور رائعة لتجربة حوارية رائدة يوجهنا القرآن من خلالها إلى السبيل القويم لبناء المفاهيم، وتصحيح التصورات وترسيخ العقيدة الصحيحة، وبهذا المنهج الحواري اليوم نستطيع كذلك أن نحصن شبابنا من كل الأفكار الهدامة والمعتقدات الفاسدة والمسالك المعوجة والأطروحات المتطرفة والمواقف الإرهابية، فنحفظ بذلك مجتمعاتنا ونؤمن أوطاننا، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وكما أسس لذلك القرآن الكريم وهو ينشر هداياته بين العالمين، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) -الإسراء: ٩-.

٤- خصائص الحوار في القرآن الكريم:

أ- العلمية :

ونقصد بها أن لغة الحوار في القرآن الكريم بنيت بالأدلة واعتمدت على الحجج والبراهين، ومن ذلك أغلب آيات الاستدلال على وجود الله ووحدته، وأغلب حوارات الأنبياء والمرسلين كإبراهيم وموسى ونوح..)

- ففي حوار إبراهيم مع قومه: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْرَاهِيمَ(٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيه وَقَوْمِه مَا تَعْبُدُونَ(٧٠) قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكفينَ(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ(٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣) قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَالكَ يَفْعَلُونَ(٧٤)) -سورةالشعراء-، فلفت إبراهيم انتباه قومه إلى بعض خصوصيات الألوهية، ومثله في خطاب مستفز ومثير للعقل، (قَالُواْ ءَآنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِئَالِهَتِنَا يَآ إِبْرَاهِيمُ(٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَاسْأَلُوهُمُ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ(٦٣)) -سورةالأنبياء-.

- وفي منهج حجاجي متميز -سبقت الإشارة إليه- يقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّه أَنَ اتَاهُ اللّه الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَاْ أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّه يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَات بِهَا مِنَ الْمَغْرِب فَبُهِتَ الذِي كَفَرَ وَاللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨)) -سورة البقرة-

- (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَات وَالاَرْض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ(٢٥) قَالَ رَبُّكُم وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ(٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ(٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ(٣٠) قَالَ فَات بِه إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ(٣٣)) -سورة الشعراء-، وهكذا يتدرج في حشد الأدلة.

ب- الرفق والترغيب:

قال تعالى: (اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤)) -سورة طه-.

– وفي قصة موسى مع الرجل الصالح في سورة الكهف، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا..)

– وفي حوار موسى مع ربه ملاطفة: (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُر الَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنُ انظُر الَى الْجَبَلِ فَإِن اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُومِنِينَ(١٤٣)) –سورة الأعراف–.

– وفي قصة إبراهيم كذلك: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُومِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..) –سورة البقرة: ٢٦٠–.

– وفي الترغيب وجدنا نوحا عليه السلام يقول لقومه كما يحكي القرآن الكريم: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(١٠) يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا(١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا(١٢)) –سورة نوح–.

ج- المحبة والتسامح:

وقد تمثلها مؤمن آل فرعون خير تمثل كما يحكي القرآن: (وَقَالَ الذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الاَحْزَابِ(٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنم بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ(٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي(٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُّضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٣٣)) –سورة غافر–.

د- الإنصاف والموضوعية:

– الإنصاف في حق أهل الكتاب، قال تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلذِينَ ءَامَنُواْ الذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَالِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٨٢) وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٨٣)) –سورة المائدة–.

– وقال تعالى: (وَإِنَّآ أَوِ اِيَّاكُمْ لَعَلَىا هُدًى اَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ(٢٤) –سورة سبأ–

– ويذكر القرآن ما في أهل الكتاب من خير: (وَمِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مَنِ اِن تَامَنْهُ بِقِنطَارٍ

يُّـوَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُم مَّـنِ ان تَامَنْهُ بِدِينَـارٍ لاَّ يُوَدِّهِ إِلَيْـكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَآئِمًا) –سورة آل عمران:٧٥-. ومثله ما جاء في المباهلة... وغيرها.

هـ- التجرد وفصل الذات عن الموضوع:

يعطي القرآن الكريم فرصة للمتحاورين للتجاوب والتفاهم والاقتناع دون حرج، ولا نجد القـرآن يستعمل أسماء الأشخاص إلا نادرا ولضرورة، ولكنه ينحو منحـا التعميم إذ لا يهم الشخص ولا المكان ولا الزمان في السيـاق القرآني بقدر ما يهم الفعـل والسلوك وتصحيح المسار وتدقيق الوجهة، وكما يقول علماء الأصول في قواعدهم النفيسة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" و"العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني"، من ذلك مثلا قصة إبراهيـم عليه السـلام مع من ذكر المفسرون أنه النمرود، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيـمَ فِي رَبِّـهِ أَنَ- اتَـاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيـمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـالَ أَنَاْ أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَـإِنَّ اللَّهَ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨)) –سورة البقرة-، فجاءت الآية في سياق حجاجي بنائي بعيـد عـن الشخصنة، وبعيد عـن الارتهان للزمـان أو المكان، بل يمكـن أن تصلح لكل زمان ومـكان، ويمكن أن تتنزل على مختلف الأشخاص والأحوال، ومثله كذلك قوله تعالى: (الذِينَ قَـالَ لَهُـمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُـمُ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ(١٧٣) فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْـلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤)) –سورة آل عمران-... والأمثلة في القرآن كثيرة فوق أن تعد أو تحصى وتحصر.

٥- قواعد في الحوار الناجح:

قال تعالى: (يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣)) -سورة الحجرات-.

فالآيـة تقرر حقيقة الاختلاف والتنـوع في الاجتماع البشري بين الذكر والأنثى والشعوب والقبائل...، وتقرر غاية وهدف هذا الاختلاف والتنوع وهو "التعارف"، وهذا لا يمكن أن يمر إلا عبر بوابة الحوار والتواصل ومد الجسور، ثم إن لفظ "لتعارفوا" يفيد تداخلا، أي المطلوب معرفـة متبادلة بـين الشعوب، وهـذا يقتضي ضرورة الإقـرار بالتنوع والتعـدد والاختلاف، والاعتراف بالخصوصيات الثقافية والحضارية، وانفتاح الشعوب بعضها على بعض، في إطار

الحوار والتواصل الذي لا ينبغي أن ينطلق من اعتبار الموقع الحضاري بين غالب ومغلوب، ولكن من موقع احترام الخصوصيات الحضارية، ونظام العلاقات الاجتماعية والقيمية، والعمل في المشترك الإنساني لإغناء التجربة الإنسانية، مع استمرار التحاور في المختلف فيه في أفق البحث عن الحقيقة وإيجاد المشترك، بما يشكل التكامل الحضاري الذي لا يلغي أحدا، وبما يحد من تداعيات الصراعات ويجنب البشرية العنف ويحقق الأمن والاستقرار. فلا يعني الحديث عن التعارف –بحال من الأحوال- الذوبان الثقافي والانسلاخ الحضاري لأحد، بقدر ما يعني الحوار والتقارب والتفاهم والتعاون.. لتحقيق وحدة إنسانية.. في ظل التنوع والاختلاف، الذي يمكن أن تتقلص دائرته مع استمرار الحوار الهادئ البناء، كما وقع في التجربة النبوية مع نموذج صلح الحديبية، وفي التجربة العمرية من خلال وثيقة القدس..

فالحوار هو الآلية المثلى لتذويب الخلافات، وجمع الشتات، ورأب الصدع، وتوحيد الأمة، وتحقيق مقصد "التعارف".. ولكنه في الوقت نفسه يحتاج إلى بعض القواعد والضوابط التي يمكن أن تضمن إيجابيته وفاعليته، ويمكن تلخيص أهمها فيما يلي:

١- اقصد في حوارك:

وهذا أول ما يجب الانتباه إليه إذ ينبغي أن يكون الحوار قاصدا وموضوعه محددا، فكلما كثرت الأقواس في الحوار، وتعددت الهوامش، وتشعبت الموضوعات وتفرعت، كلما دخل الحوار متاهات قد لا يخرج منها، فيكون حوارا فاشلا غير مثمر...، والقرآن الكريم يعلمنا هذه القصدية كما جاء في سورة النازعات عندما سئل النبي عليه السلام عن الساعة، فلم يته في الجواب عن التفاصيل بل وجهه القرآن إلى القصد في الجواب والتنبيه على المراد، قال تعالى: [يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها..] -سورة النازعات: الآية ٤٥-، وهو ما وقع معه عليه السلام حين سأله أعرابي عن الساعة، فقال: وما أعددت لها؟...، فلم يستطرد النبي عليه السلام في تفاصيل لا حاجة للأعرابي بها ولن تفيده في شيء، بل قصد إلى الجواب الذي سيعود بالنفع عليه وعلى من وراءه من الناس ممن يشغلهم نفس السؤال.

٢- الأنا.. أداة دمار وخراب:

وهذا منطق إبليسي فرعوني، فإبليس أول من قال (أنا) حين قال لربه سبحانه (أنا خير منه..)، ومن بعده قالها فرعون كما يحكي القرآن الكريم (فقال أنا ربكم الأعلى..)

-النازعات: ٢٤-، فينبغي الحذر من تضخم الذات وهذا منطق ذمه القرآن الكريم واعتبره منهج المفسدين وسبيل الضالين... فقال على لسان فرعون: (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)، فبين كيف تدفع الأنا صاحبها إلى التعالي والاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة، وهذا مخالف لمنطق القرآن الكريم الذي يؤسس في الحوار للانطلاق من التواضع ومن قاعدة الاستعداد لتغيير القناعات (وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ(٢٤)) -سورة سبأ- (قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) -البقرة: ١١١-...

ومثل (أنا)، لفظة (لي) و(عندي)، فقد قال فرعون (ولي ملك مصر) -سورة الزخرف: ٥١-، وقال قارون: (إنما أوتيته على علم عندي) -سورة القصص ٧٨-.

٣- العدل منطق الصالحين:

فينبغي في الحوار الراشد الحرص على العدل واحترام الآخر وتقدير وجهة نظره مهما كان الاختلاف معه، قال تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) -سورة المائدة: الآية ٨-، ثم قال بعد ذلك: (اعدلوا هو أقرب للتقوى)، وقد رأينا صورا تطبيقية لهذا المنطق في القرآن في المحور السابق، وكيف عدل القرآن واحترم الآخر وقدر رأيه واعتبره وحكاه وهو على الكفر أو الشرك، فكيف بغيره؟؟.

٤- من المشترك نبدأ:

قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء) -سورة آل عمران: الآية ٦٤-، هي الكلمة السواء التي ينبغي الانطلاق منها، والمشترك الذي ينبغي الحرص عليه.. والمتفق عليه الذي ينبغي البدء به في الحوار لبناء القناعات، وترسيخ المبادئ، وإرساء المشترك الذي يؤسس للتعايش والتساكن، بعيدا عن منطق المغالبة والإقصاء والتهميش.

٥- لا لمنطق الضعفاء:

وأقصد رفع الصوت عاليا عند الحوار، قال تعالى على لسان لقمان في حديثه مع ابنه: (واغضض من صوتك) قال ابن كثير في تفسيره: (أي لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه..)[1]، فعادة ما يرفع صوته صاحب الحجة الضعيفة، ولا يصدر الصخب

(١) - تفسير ابن كثير: ٣/٤٣٠

وكثرة الضوضاء إلا من العربة الفارغة، وكما يقول المثل "جعجعة ولا طحن"، قال الشاطبي: "رفع الصوت من خواص الجدل المذموم، لأن رفعَ الصوت والخروجَ عن الاعتدال فيه ناشئ عن الهوى في الشيء المتكلم فيه"[1].

قال الشافعي –رحمه الله– في ديوانه:

إذا ما كنتَ ذَا فَضْلٍ وعِلْمٍ
بما اختَلَفَ الأوائلُ والأواخرْ
فناظر من تناظر في سكونٍ
حليما لا تلح ولا تكابرْ
يُفيدك ما استفاد بلا امتنانٍ
من النُّكَت اللطيفة والنَّوادرْ
وإياك اللَّجوجَ ومن يُرائي
بأني قد غَلبتُ، ومن يُفاخرْ
فإن الشَّرَّ في جَنَبَات هذا
يُمَنِّي بالتَّقاطُع والتَّدابُرْ

٦- الحجة سلاح الأقوياء:

قال تعالى: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) –النمل: ٦٤– فجعل القرآن الكريم المنطق البرهاني من أهم قواعد الحوار، فينبغي مقارعة الحجة بالحجة، ومقابلة البينة بالبينة، من غير انفعال، ولا ردود أفعال، فذلك مما يفسد الحوار ويذهب بثمرته.

٧- (بالتي هي أحسن):

اختيار الأحسن في الأقوال والأفعال والمواقف مسلك قرآني، فقد قال تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن) –سورة النحل: الآية١٢٥–، وقال سبحانه: (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) –سورة الإسراء: الآية ٥٣–، وقال: (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) –سورة فصلت: الآية ٣٤–، فبالتي هي أحسن تنتقل بالعدو من موقع العداء

(١) – الاعتصام: ٢/٩٤.

إلى موقع الولاء والحميمية (.. كأنه ولي حميم)، وإذا كان هذا مع العدو فكيف مع الصديق؟

وقال تعالى لموسى عليه السلام حين بعثه إلى فرعون: (اَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤)) –سورة طه-

وقال أيضا: (اذْهَبِ الَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَّكَّى(١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى(١٩)) –سورة النازعات-، قال ابن القيم: "وتأمل امتثال موسى لما أمر به، كيف قال لفرعون: (هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَّكَّى(١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض، لا مخرج الأمر، وقال (إِلَى أَن تَزَّكَّى) ولم يقل: إلى أن أزكيك، فنسب الفعل إليه، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة والخير والنماء.."[١].

٨- (وأعرض عن الجاهلين)[٢]:

هكذا يوجه القرآن الكريم المسلمين إلى منهج التعامل مع المخالفين الجاهلين، فإذا تبين أن المحاوَر من الجاهلين فينبغي الإعراض عنه وتمثل الآية الكريمة: (وأعرض عن الجاهلين)، أو تمثل الآية الأخرى: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) -سورة الفرقان: الآية ٦٣-، ويكون الإعراض عندها بشكل لبق، يتشبث بشعرة معاوية[٣]، ويحفظ خط الرجعة لاستئناف الحوار عند ارتفاع موانعه، كما أسس له القرآن الكريم إذ كان يدفع دائما في اتجاه عدم "شخصنة" الحوار، وعدم الدفع بالخصم في اتجاه "خندقته"، لتبقى جسور التواصل دائما ممتدة، وإمكانات التراجع والمراجعة دائما ممكنة ومتوفرة، كما وقفنا عند بعض صوره في محور سابق، ولهذا قال أبو العباس الناشيء[٤]:

وإذا بُليتُ بجاهلٍ مُتحاملٍ
يَجِدُ المحالَ من الأمورِ صوابا
أَوْليتُه منّي السكوتَ، وربما
كان السكوتُ على الجوابِ جوابا

(١) - البدائع لابن القيم: ١٣٢/٣

(٢) - سورة الأعراف: الآية ١٩٩

(٣) - وهذا المثل مأخوذ من قولة معاوية رضي الله عنه: "لو كان بيني وبين خصومي مقدار شعرة ما انقطعت أبدا، فإن هم شدوا أرخيت وإن هم أرخوا شددت".

(٤) - بهجة المجالس: لابن عبد البر ٤٣١/٢.

على سبيل الختم:

إن الحديث عن الحوار في القرآن الكريم مع بيان أصوله في الكتاب العزيز، والوقوف عند بعض خصائصه وأهم قواعده لم يكن من أجل ترف فكري، ولا حتى لإثبات حوارية القرآن -رغم كل المرافعة التي قمنا بها لأجل ذلك إذ كان القصد التأصيل وإشاعة ثقافة الحوار، ثم توجيه الكلام إلى من يهمه الأمر- فالقرآن أكبر من أن يدافع عنه أحد، وحسبه أنه كلام رب العالمين..

ولا أعتقد أن مجرد إثبات حوارية القرآن الكريم، أو مجرد الحديث عن الحوار وأهميته، وبيان منهجه وقواعده...، ولا حتى ضرب أمثلة رائدة من القرآن الكريم -كمثال إبراهيم عليه السلام- من شأنه أن يغير أحوال الأمة بل والإنسانية، وأن يحدث النقلة المطلوبة من واقع الفرقة والتجزئة والصراع، إلى واقع التفاهم والتعايش والتعاون!!

بل إني أعتقد أن كل ثورة تسبقها فكرة.. وأن الربيع لا يأتي إلا بعد قطر وغيث مُرِّبعٍ وماء يسقي الأرض الجدباء..

وأحسب أن هذا العمل إن هو إلا إسهام في طريق البناء الثقافي وإعادة تشكيل العقل المسلم، للانتقال من الوضع المعرفي إلى الواقع الثقافي، حيث تترجم المعارف والأفهام إلى واقع وسلوك..

وإننا اليوم أحوج ما نكون إلى ثورات ثقافية تعيد لهذه الأمة وعيها بالإسلام وطبيعته، وفهمها للقرآن ومركزيته، في أفق التحول الحضاري الراشد المنشود..

والحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

١. معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد ابن فارس، تحقيق: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة – مصر، ١٤٢٩ﻫ / ٢٠٠٨م.

٢. تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م.

٣. القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، المطبعة الحسنية بمصر، ط٢: ١٣٤٤هـ

٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، دار الفكر

٥. معجم مفردات ألفاظ القرآن: للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر – بيروت.

٦. لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن منظور، ط١، دار صادر – بيروت – لبنان.

٧. أساس البلاغة: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٨. مناهل العرفان في علوم القرآن: للشيخ عبد العظيم الزرقاني، ط٣، دار إحياء الكتب العربية.

٩. صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (طبعة مرقمة بترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث)، دار الاعتصام.

١٠. الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للإمام أبي البقاء الكفوي – ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

١١. تفسير الكشاف: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، اعتنى به ورتب حواشيه محمد السعيد محمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر

١٢. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري): لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط ١: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٣. تفسير الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٩٦٦م.

١٤. تفسير التحرير والتنوير: للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

١٥. أحكام القرآن: لأبي بكر ابن العربي المعافري الأندلسي، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

١٦. فتح القدير: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: هاني الحاج، المكتبة التوفيقية.

١٧. مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) : لفخر الدين الرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٨. تفسير ابن كثير: للإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير، ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت - لبنان.

١٩. فقه الوسطية الإسلامية والتجديد "معالم ومنارات": الدكتور يوسف القرضاوي، ط١، ٢٠١٠م، دار الشروق، القاهرة – مصر.

٢٠. الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف: الدكتور يوسف القرضاوي، كتاب الأمة الصادر عن مجلة الأمة القطرية، ط١، شوال ١٤٠٢هـ،

٢١. مقدمة ابن خلدون: للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، ط١، ١٤٢٦ – ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، دار الفكر، بيروت – لبنان.

٢٢. تفسير المنار: للإمام محمد رشيد رضا، ط٢، دار الفكر

٢٣. الغلو في الدين، المظاهر والأسباب: أبو زيد المقرئ الإدريسي، منشورات الزمن، الكتاب ٢٩، ٢٠١٠ – دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

٢٤. الخصائص العامة للإسلام: الدكتور يوسف القرضاوي، ط ١٠، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

٢٥. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٦. أزمة العقل المسلم: الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية، ط١، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، دار القارئ العربي، القاهرة – مصر.

٢٧. فن الحوار: أصوله – آدابه – صفات المُحَاوِر. أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، ودار القمة، إسكندرية.

٢٨. أسلوب الحوار في القرآن الكريم: الموضوعات والمناهج والخصائص، ذ.إدريس أوهنا، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٩. بداية جديدة، د. جاسم محمد السلطان، سلسلة رسائل النهضة، نماء المركز المغربي لتنمية الكفاءات، ط١، ٢٠١٢م.

٣٠. جدلية الحوار قراءة في الخطاب الإسلامي المعاصر، د. مريم آيت أحمد، منشورات مجلة علوم التربية ع ٢٤، ط١، ٢٠١١م.

٣١. القرآن والعقل: نماذج تطبيقية، ذ.أبو زيد المقرئ الإدريسي، منشورات مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ط١، فبراير ٢٠١٦م.

المجلات:

٣٢. مجلة الأمة الوسط: يصدرها الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، العدد الأول، السنة الأولى ٢٠٠٩

٣٣. مجلة الفرقان (المغربية)، العدد ٥١ / ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٣٤. مجلة رسالة القرآن، العدد الثالث، السنة الثالثة، رجب – شعبان – رمضان: ١٤٢٧هـ/ غشت – شتنبر – أكتوبر: ٢٠٠٦م.

٣٥. مجلة المنطلق اللبنانية، العدد ١٠٥، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م، عدد خاص.

محمد بودبان

- الاسم: محمّد *Mohamed*
- اللقب: بودبان *BOUDEBBANE*
- شهادة البكالوريا بتقدير "قريب من الجيّد" سنة ١٩٩٩م بقسنطينة، شعبة علوم الطبيعة والحياة.
- ليسانس في: "مقارنة الأديان" من كلية أصول الدّين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة سنة ٢٠٠٣م، (الأول على مستوى الدفعة).
- ماجستير بنفس الجامعة، بتقدير "جيّد" سنة ٢٠٠٦م؛ بمذكِّرة عنوانها: "أهم المفردات العقديَّة بين الإسلام والنَّصرانيَّة".
- دكتوراه بتقدير: "مشرف جدًّا" ٣٠ أفريل ٢٠١٢م؛ برسالة عنوانها: " إشكالية العلاقة بين النصوص الدِّينيَّة وتقرير العقائد – الإسلام والنّصرانيّة نموذجًا-".
- حائز على الجائزة الأولى في المسابقة الوطنية في فنون القراءة والتلخيص؛ جويلية ٢٠١٠م.
- يحسن العربيَّة والفرنسيَّة والإنجليزية؛ متوسّط في الألمانيَّة، ومبتدئ في العبرية.
- أستاذ محاضر في مقارنة الأديان"صنف أ" ، بقسم العقيدة ومقارنة الأديان بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.
- عضو مجلس إدارة الجامعة، ابتداءً من العام الجامعي: ٢٠١٤-٢٠١٥م.
- مستشار سابق لدى نائب مدير الجامعة.
- رئيس فريق التكوين في الليسانس والماستر لتخصص مقارنة الأديان ابتداءً من العام الجامعي: ٢٠١٤- ٢٠١٥م.
- عضو لجنة التكوين للدكتوراه في تخصص مقارنة الأديان، ابتداءً من العام الجامعي ٢٠١٥-٢٠١٦م.
- عضو فريق التكوين في الليسانس والماستر لتخصص مقارنة الأديان من العام الجامعي: ٢٠١٤- ٢٠١٥م؛ إلى العام الجامعي ٢٠١٥- ٢٠١٦م.
- عضو بمخبر البحث في الدراسات العقدية ومقارنة الأديان.

دور الدراسات القرآنيَّة في مواجهة الشبهات التَّنصيريَّة

- قراءةٌ تحليليَّة نقديَّة بين الواقع والمأمول -

الدكتــــور محمــــد بودبـــان

أستاذ محاضر في مقارنة الأديان

عضو مجلس الإدارة

ومستشـار سابق لدى نائب مدير الجامعة

جامعة الأمير عبد القـادر للعلوم الإسلامية قسنطينة - الجزائـــر

مقدِّمة

إنّ الحمـد للّه، أحمده وأستعينه وأستغفره وأتـوب إليه؛ وأشهد أن لا إله إلاّ هو، وحده لا شريك له؛ وأشهد أنّ محمَّدًا عبدُهُ ورسوله، أمّا بعد:

فإنَّه ثمَّة مشكلة تعترض سبيل الشباب المسلم بصورة أساس؛ سواءً في واقع معاشهم، أم في الفضـاءات الافتراضيّة؛ وهي الدعـواتُ التَّنصيريّة – في شكليها: المباشر وغير المباشر- بحيـث يختطُّ أصحابها لأنفسهم مسالك للعبـث بمعتَقَد المسلم؛ وإمطاره بوابلٍ من الشُّبهات التـي يـرادُ لها أن تزعزع ذاتَهُ المتديِّنة؛ والهدف إمّا تنصُّـره، وإمَّا خروجه منَ دينه الإسلامِ كهدفٍ أدنى، ولا يهمُّ بعد ذلك أيَّ دينٍ اعتَنَق، أو بقي تائهًا جاحدًا مُلحدًا.

والشبهـات التنصيريّـة حين النظـر تُطلق سهامَهَـا أوَّلَ ما تطلقهـا إلى القرآن العظيم محاولَـةً – عبثًـا – أن تنال منـه. وإنَّ جواب كلِّ شبهة ضدَّ القرآن الكـريم فيه؛ والمتوقّع من الدِّراسـات القرآنيَّـة أن تجلِّيَ هذه المسالـك، وتربط دارسَها بالهدايـة الربّانيَّة المتضمَّنة في كتاب اللّه تعالى، لتحقيق الغاية الربَّانيَّة من الوحي المنزل فيه.

وتأتـي هذه الدراسة لتنظر في واقـع الدراسات القرآنيّة وحظِّهـا المنهجيِّ والدعويِّ من التصـدِّي للشُّبهـات التَّنصيريَّة المختلفة في القديم والحديث. كمـا تحاول كذلك أن تستجليَ المأمّلَ من مستقبل الدراسات القرآنيَّة في المجال ذاته.

المبحث الأوّل

مدخل مفاهيمي

١ / مفهوم الدراسات القرآنيّة.

يُفهم مباشرةً من هذا المركّب أنَّ الدراسات القرآنيّة هي: "كلُّ الدراسات التي جعلت موضوعًا لها القرآن الكريم وعلومَهُ، وما يتّصل بذلك". (١) وعلى الرُّغم من كون القرآن العظيم من أعرف المعارف؛ إلَّا أنَّ تزيين البحث بذكر تعريفه يزيده بهجةً وعلميَّةً، فنقول – وبالله التوفيق-:

القرآن من حيث اللغة، قال بعض أهل العلم إنّه جامدٌ غير مشتقٍّ؛ وهو مرويٌّ عن الشافعي رضي الله عنه؛ ورجَّحه السيوطي؛ وقال الواحديُّ: " قاله جماعةٌ من الأئمَّة". (٢) وقال غيرهم: بل له اشتقاقه في لسان العرب؛ واختلفوا في كيفية الاشتقاق؛ فقالوا: هو مصدر قرأ، أي تلا؛ وهو من باب تسمية المفعول باسم المصدر. أو من قرأ بمعنى جَمَعَ؛ قال الجوهري: قرأتُ الشيءَ قُرآنًا: جمعتُهُ وضممتُ بعضَهُ إلى بعض؛ سمِّي كذلك لأنّه جَمَعَ القصصَ والأمرَ والنَّهي والوعد والوعيد، والآيات والسور بعضها إلى بعض؛ ولاجتماع الحروف والكلمات؛ ولأنّه مجتمع الأحكام والحقائق والمعاني والحكم. أو هو من قرأ بمعنى أظهَرَ وبيّنَ لأنّ القارئ للقرآن يظهره ويخرجه بالتلاوة؛ ونسبه السيوطي لقطرب. أو هو من القِران – في غير الهمز

(١) الشاهد البوشيخي: أولويَّات البحث العلمي في الدراسات القرآنيّة؛ نُشر بواسطة الجمعية العلميَّة السعوديَّة للقرآن الكريم وعلومه " تبيان"؛ اللقاء العلمي ٥٧، ص٦.

(٢) انظر في ذلك: انظر في ذلك: ابن منظور: لسان العرب، (دط)، دار المعارف (دب)، (دت)، (٥/٣٥٦٣)؛ مجد الدّين الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ (دط) المكتبة العلمية: بيروت- لبنان، (دت)، (١/٨٣)؛ بدر الدِّين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، (دب)، ١٩٨٠م، (١/٢٧٨)؛ جلال الدين السيوطي :الإتقان في علوم القرآن (وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني)، (دط)، دار المعرفة: لبنان، (دت)، (١/٦٧)؛ وأبو عبد الله الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (٢/٢٩٨)؛ وعبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، ط١، دار سعد الدّين: دمشق – سوريا، ٢٠٠٠م، (١/٢٥٥).

ههنـا- من قَرنْـتُ الشيءَ بالشيءِ إذا ضممتُ أحدَهما إلى الآخـر؛ سمِّيَ بذلك لقِرانِ السور والآيـات والحروف فيه. أو هو من القرائن؛ ونسبـه الزركشيُّ في البرهان للقرطبي ولم أجده في تفسـيره حين كلامه عن الاشتقاق، وقال به كذلك الفـرّاءُ؛ لأنّ الآيات منه يصدِّق بعضُها بعضًـا، وهي قرائن. وقيل هو من القرى بمعنى الضيافة لأنّ القرآن مأدُبةُ الله للمؤمنين؛ ولم أجده عند غير مجد الدِّين الفيروزآبادي.(١)

أمّا تعريفه شرعًا فهو: كلام الله عزّ وجلّ الموحى به إلى نبيِّه محمَّد ﷺ بواسطة الأمين جبريـل عليه السلام، باللّفظ العربيِّ، المتعبَّدُ بتلاوته؛ المنقول إلينا بالتّواتر، المعجِزُ في لفظه ومعناه.(٢)

٢ / مفهوم التّنصير.

وهنا تأتي عدَّة ألفاظ تُتداول في هذا الحقل المعرفي؛ وبحسب مختلف اللُّغات بين العربيّة والأوروبيّة، وبحسب المعرِّبين كذلك. ولفظ " التَّنصير " أشهرُ وأكثرُ توافقًا لدى الباحثين لأنّه يعـبِّر عن العمل على جعل المُستَهدَف نصرانيًّا؛ كما فيـه تجنُّبٌ لبعض المعاني التي لا يُوافقُ عليهـا النّصارى؛ إذ على سبيل المثـال: لفظُ التَّمسيح، وهو التعريب لكلمة: "Christianis - tion" جعـلُ المـرءِ مسيحيًّا أي منتسبًـا للمسيح عليه السلام؛ وليســت مسيحيّة اليوم اتِّباعًا لمـا جاء به المسيح عيسى ابن مـريم عليه السلام. وبعضهم كذلك لم يقبل لفظة: " التبشير " وهي تعريبٌ للفظة: "Evangelization" وقد يعرِّبُها بعضهم بـ: " أَنْجَلَةٌ" من الإنجيل؛ وإنّما عرَّبهـا أكثرهم من النّصارى بالتبشـير، لأنّ معنى الإنجيل عندهـم، وفي اشتقاقه اليوناني

(١) - الإتقـان، (١/ ٦٨)؛ البرهـان، (١/ ٨٤؛ ٢٧٣، ٢٧٨)؛ القرطبي، (٢/ ٢٩٨)؛ بصائر ذوي التَّمييز، (١/ ٨١؛ ٨٤)؛ لسان العرب (٥/٣٥٦٣)؛ وإسماعيل بن حمّاد الجوهري: الصّحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، ط٣، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ١٩٨٤م، (١/ ٦٥).

(٢) - تعريـفٌ مدمجٌ من عدَّة تعريفات متقاربة، انظرها والمحترزات فيها، في: محمّد بخيت المطيعي: سلّم الوصول لشـرح نهايـة السّـول؛ (مطبوعٌ مـع نهاية السـول في شرح منهـاج الأصـول للبيضـاوي)، (٢/٠٣)؛ علاء عبد العزيـز بن أحمـد البخاري: كشف الأسرار عن أصـول فخر الإسلام البـزدوي، (دط)، دار الكتاب الإسلامي: القاهـرة- مصـر، (١/ ٢١، ٢٣)؛ موسى إبراهيم الإبراهيم: بحوث منهجية في علـوم القرآن؛ ط٢، دار عمّار: عمّان- الأردن، ١٩٩٦م، ص١٤، ١٨؛ وغازي عناية: هدى الفرقان في علوم القرآن، (دط)، دار الشهاب: باتنة- الجزائـر؛ ١٩٨٨م، (١/ ٢٢)؛ شعبـان محمّـد إسماعيـل: دراسات حول القـرآن والسنّـة، ط١، مكتبة النّهضة المصرية: القاهرة- مصر، ١٩٨٧م، ص١٨.

يعني: " البِشارة" وهي الخبرُ السارُّ؛ فالإنجيل يضمُّ إعلان البِشارة بالخلاص بابن الله الوحيد – عياذًا بالله- فيما يعتقد النَّصارى. بالإضافة إلى مصطلح آخر كذلك، وهو الإرسال والإرساليّة؛ وإن كان استعمالها لدى أهل اللِّسان العربي يكون بشكلٍ مركَّب فيقولون: " الإرساليّات التّنصيريّة".

وهذه الألفاظ من حيثُ اللُّغة والاصطلاح هنَّ كالآتي:

أ/ التَّنصير:

نسبة إلى الدِّيانة النَّصرانيَّة؛ وتنصَّر: دخل في دينهم؛ ونصَّرَهُ تنصيراً: جعله نصرانِيًّا.[1] وهذا الاسم كان لهم في الأوّل، وقدماؤهم لم يُنكروه؛ ولكنَّ المتأخِّرين منهم ظنُّوه شتمًا؛ وأنكروا هذا الاسمَ عنادًا بأوائلهم... وهؤلاء قد زعموا أنَّ " النَّصارى" كلمةُ تحقيرٍ لأنَّها نسبةٌ إلى "ناصرة" وهي قريةٌ حقيرةٌ عندهم كما جاء في إنجيل يوحنا.[2]

وإنَّني خلال حياتي البحثيّة القصيرة في أمور النَّصرانيّة، وجدتُ عزوفًا من نصارى العرب عن أن يتسمَّوا بالنَّصارى، أو أن يُسمّى تديُّنهم نصرانيَّةً؛ من دون أن أجد لذلك علَّةً واضحةً – مع يقيني بوجودها- في مقابل أنَّه لم يَردْ في القرآن الكريم الوصفُ بالمسيحيِّ أو أنَّ ما يتبعه النّصارى مسيحيّةٌ؛ وأنّ أقرب النَّاس مودَّةً للذين ءامنوا الذين قالوا إنّا نصارى؛ وهذا ما جعلني أعتقد أنَّ البحث في ذلك وبشكل مقارن يحتاج إلى تعمُّق كبير؛ وبحوث جادّة في الأصول والبدايات؛ للوقوف على المفاهيم والعلل في ذلك[3]. ووقع التّعريفُ الاصطلاحيُّ للتّنصير من خلال الفعل في معجم الإيمان المسيحي هكذا: "نصَّر: هدى إنساناً، أو مجموعةً، أو شعباً، أو بلداً إلى الإيمان المسيحي".[4]

---

(١) مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيحا؛ (ط٢)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م، ص١٢٨٨.

(٢) عبد الحميد الفراهي: مفردات القرآن - نظراتٌ جديدة في تفسير ألفاظ قرآنيَّة-؛ تحقيق محمد أجمل أيوب إصلاحي، (ط١)، دار الغرب الإسلامي: بيروت- لبنان، ٢٠٠٢م، ص٣٢٢.

(٣) وبخاصَّة حين تردُنا بعض المعطيات كقولهم: ناصريٌّ: اسمٌ أُطلقَ على يسوع؛ وهو اسمٌ أحياناً ما أطلقه اليهود في زمن الرُّسل على المسيحيِّين، بصفتهم تلاميذ يسوع النَّاصري؛ وكذلك هو اسمٌ قال القدِّيس هيرونيمُس إنَّه أطلق في القرن الثَّاني على أعضاء شيعة مسيحيَّة من أصل يهوديٍّ فلسطينيٍّ؛ كانوا على الإيمان القويم، ولكنَّهم كانوا متمسِّكين بأحكام الشَّريعة اليهوديَّة. وكانوا يرفضون رسائل القدِّيس بولس، ويتداولون: "إنجيل العبرانيِّين" وهو نصٌّ منقَّحٌ، وموسَّعٌ لإنجيل القدِّيس متَّى العبريِّ. انظر: صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون، (ط١)، دار المشرق: بيروت- لبنان، ١٩٩٤م؛ ص ٥٠٢.

(٤) - المرجع نفسه؛ ص ٥١٢.

ب/ تبشير- أنجلة- كرَازة: Evangelism:

في اللغة: بشَّر يُبشِّرُ، مثلُ فرح يفرح وزنًا ومعنًى، وهو الاستبشار أيضًا؛ واسم الفاعل من المخفّف: بشير؛ ويكون البشير في الخير أكثرَ من الشرّ. والبُشرى فُعلى من ذلك، والبِشارةُ أيضًا - بكسر الباء والضمِّ- لغةٌ.(١) والمعنى الاصطلاحي للتبشير له علاقةٌ باشتقاق لفظة الإنجيل؛ فهي عند النَّصارى في اللسان اليوناني؛ قال l-cl. FILLION: " الكلمة في الأصل يونانية ومشتقة من الظرف ευ بمعنى "حسنٌ" ومن الفعل ἀγγέλλω بمعنى "أعلنُ" وبذلك يكون معنى الكلمة بصورة عامّة الخبر السّار، أو البشارة".(٢) قالوا: "لأنّ هذا الكتاب يعلّم جميع النّاس البشرى السّارة بخلاصهم من عبوديتهم للشيطان ومصالحتهم مع الرّب بفضل ابنِه الذي تأنّس في جوف عذراء وضحّى بنفسه قربانا على الصليب"(٣)؛ وهذه هي رسالة المسيح في زعمهم. والاصطلاح هو هو؛ حيث قالوا: هي مهمَّة التَّبشير بالمسيحيَّة لهؤلاء الذين هم خارج الكنيسة.(٤) حيث إحدى المهمَّتين اللتين توجّبتا على الكنيسة كما على كلِّ مؤمنٍ صادقٍ - حسبهم- الشهادةُ للإنجيل (الأنجلة).(٥)

جـ/ إرسال- إرساليّة:

مصطلح Mission في التعبير الدِّيني الجاري في القرنين التاسع عشر والعشرين يعني بالأساس الإرسال من قِبل جماعةٍ أو هيئة محليَّة، لمندوبين أو ممثِّلين، وظيفَتُهم نشرُ ما يؤمنون به، وإنشاء مؤسّسات علىً ذلك الأساس. على هذا الأساس يكون الإرسال نحو الخارج، حيث يوجد من يجهل الرسالة التي يراد تبليغها إيَّاهم؛ وهذا هو المعنى الدارج والأقدم؛ حيث إنَّ الرسول (الحواري Apotre) في الجيل الأوَّل للمسيحيَّة بحسب الاشتقاق

---

(١) - أحمد بن محمّد بن علي الفيُّومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، ١٩٨٧م، ص ١٩.

(2) l-cl. FILLION : Sainte Bible : Letouzey et Anne editeurs. Paris- France : 1901. (510/). et voir aussi : La Grande Encyclopedie : Librairie Larousse .paris- France 1982 . (1911804/). et Encyclopedia Universalis : France 1996: (483/). et L'abbé H. LESETRE : La Clef Des Evangiles : Lethielleux libraires – editeur: Paris-France. p3.

(3) R.P.DECARRIERE Sainte Bible (et les commentaires de Menochius Jouby. Libraire (et autres): Pari- France. (5289/).

(٤) - جوناثان هيل: تاريخ الفكر المسيحي؛ ترجمة سليم اسكندر، ومايكل رأفت، ط١، مكتبة دار الحكمة: القاهرة- مصر٢٠١٢م، ص٣٤٩.

(5) - Jean- Yves Lacoste Editor: Encyclopedia of Christian Thelology : Routledge: New York. London: 2005. p1044.

اليونـاني -أبوستولوس Apostolos- ثـمَّ في اللاّتينيـة – ميسوس Missus- يعني المُرسَلَ المتشبِّع بالطاعة، المظهر لسلطان الـذي أرسله؛ والواجب في حقِّه أن يذهب إلى الذين أُرسل إليهم: يهودًا كانوا، أم وثنيِّين؛ حاملًا إليهم البِشارة بالمسيانيَّة التي تحقَّقت، والخلاص الذي حصل[١].

٣/ الأغراض من التنصير.

لقـد تنـازع الباحثـون في الدراسات المتعلِّقـة بالتَّنصير حـول أغراض المنصِّرين؛ هل دعوتهم دينيّةٌ أم دنيويَّةٌ؟ ولكلِّ فريق طائفةٌ من الحجج؛ تدلُّ بمجموعها على الأمرين جميعًا؛ ويبدو الأمرُ أشدَّ وضوحًا إذا حاولنا اختصار تاريخ التّنصير بحسب الحقب الزمانيَّة التي مرَّ بها، ووفق ما يعتقده النَّصارى، كالآتي:

أ/ النَّصرانيَّة في زمن المسيح عليه السَّلام:

كانـت ديانةً دعويَّةً؛ ولكن بطريقة مخصوصة ببني إسرائيل. والدَّليل على ذلك الأقوال التـي تنسـب إلى المسيح عليـه السَّلام في النَّصِّ الإنجيليِّ الذي بين أيـدي النَّصارى اليوم؛ حيـث حينما اختار تلاميـذه – حواريِّيه- الاثني عشر، "هؤلاء الاثنا عشـر أرسلهم يسوع[٢] وأوصاهـم قائلاً: "إلى طريـق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسّامريّـين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحريِّ إلى خراف بيت إسرائيل الضّالّة". [٣] كما دلَّنا عليه كذلك فعلُ المسيح عليه السلام في الدَّعوة، بحيث لم يَعْدُ الحيِّزَ الجُغرافيَّ الذي شَغَلَهُ شعب بني إسرائيل.

ب/ بعد الصلب وقيامة المسيح عليه السَّلام – فيما تزعمه النَّصارى-:

تتحـدَّث بضعة نصوص إنجيليَّة أنَّـه أوصى تلاميذه وصيَّةً مخالفةً للوصيَّة الأولى، وهي أن يدعوا إلى دينه كلَّ الأممَ بلا استثناء وأهمُّ ذلك ما ورد في ختام إنجيل مرقس من زعمهم قولَـه لتلاميـذه: "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيـل للخليقة كلِّها. من آمن واعتمد خَلَصَ؛ ومن لم يُؤمـن يُدن". [٤] وكذا في آخـر إنجيل متَّى وردت هاتـان الفقرتان: "فتقدّم

---

(1) -Voir: Encyclopedia Universalis. "MISSION" ; Article ecrit par : Jean BAUBEROT. Henry DUMERY. Antonin Marcel Henry. (CD).

(٢) – هو اسم عيسى عليه السلام في الأناجيل عندهم.

(٣) – متّى ١٠: ٥-٦.

(٤) – مرقس ١٦: ٩-٢٠.

يسوع وكلّمهم قائلاً: "دُفع إليّ كلّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والرّوح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وهأنا معكم كلّ الأيّام إلى انقضاء الدّهر".(١)

ويستند النّصارى إلى هذين النصّين تحديدًا في إثبات أنّ مهمّة تنصير العالم وتبشيره مُؤصّلةٌ في كلام المسيح عليه السلام؛ ولكن يُردُّ عليهم في أهون الردود بأمرين:

أ/ ليس الإشكالُ في معنى الخطاب أو وضوحه، وإنّما هو في صحّته ووثاقته، وكون تلك الفقرات قد وردت في ذيل الإنجيلين، فإنّ احتمال إلحاقها واردٌ بشكلٍ مبدئيٍّ. بل هو واقعٌ فعلاً على أدنى التّقديرات في النّصّ الأوّل. قال وليم باركلي: " أمّا عدد: ٩-٢٠ - من إنجيل مرقس- فلم نجده في المخطوطات القديمة الموثوق بها.

ب/ نصوص سفر أعمال الرّسل تُنبئنا أنّ خلافات وقعت بخصوص دعوة غيرِ بني إسرائيل ومعاملتهم بين التّلاميذ وبين بولس صاحب ما يقارب نصف العهد الجديد من حيث الحجم؛ وأمّا من حيث الأثر فيكاد يكون صاحب العهد الجديد بأكمله؛ وقد كان صاحبَ الغلبة في تحديد طبيعة الدّين على الجميع، بمن فيهم بطرس صفا الحواري الذي أعطاه المسيح عليه السّلام مفاتيح الكنيسة في زعمهم. ويمكننا القول إنّه ههنا حدثت نقطة التّحول للدّعوة الدّينيّة النّصرانيّة من الخصوص إلى العموم على يد بولس؛ لا من قِبَلِ المسيح، ولا حواريّيه.

جـ/ في فترة الاضطهاد الذي وقع على النّصارى وإلى غاية مرسوم ميلانو سنة ٣١٣م:

كانت الدعوة النّصرانيّة ما تزال دينيّة بحتةً وعامّةً تشمل بني إسرائيلَ وغيرهم، ولكن على أصول بولس وغيره؛ والسبب هو عدم قدرة النّصارى على استعمال السيف، كما توضّحه المراحل التي بعدها فيما يأتي بيانُه.

د/ بعد اتّصال الدّين النّصراني بالحكم الرُّوماني فما بعده:

صار للنّصارى القُدرة على حمل السّيف - فعدم حمله سابقاً كان لعدم القدرة عليه عموماً- فلمّا حملوه سلّطوا بعضه على أنفسهم بسبب الانشقاقات التي وقعت في الكنيسة، وظهور الهرطقات المختلفة. وسلّطوا الجزء الآخر على غيرهم ممّن لا يَدِينُ بدينهم.

(١) - متّى ٢٨: ١٨-٢٠.

هـ/ لـمَّا استحكمت حلقات السيطرة السياسيَّة للكنيسة على المشاهد كلِّها:

امتزجت الدَّعـوة الدِّينيَّة بالدَّعوة السياسيَّة امتزاجاً كامـلًا؛ وطغت أحكام الدُّنيا على حكَّامها الدِّينيِّين، فصار من الصعب التَّمييز فيما بين الدِّينيِّ والدُّنيويِّ.

و/ لـمَّا جاء الاستعمار الأوروبيُّ الحديث:

والـذي يمكننـا أن نقـول إنَّـه نشأ – في قليـل أو كثـير– في أحضان الكنيسـة، ومن قِبَل رجالاتها، وفكرِها، قام الاستعمار بتوظيف الدَّعوة الدِّينيَّة –وبمشاركة فاعلة من أصحابها– لتحقيـق أطماعه، ولم يدَّخروا في ذلك وسيلـةً ولا أسلوباً مهما تكن قيمتهما المادِّيَّة والمعنويَّة. وهنـا تتجلَّى خطـورة التَّنصـير، وآثارُهُ السيِّئـة في عالمنا اليـوم على وجـه الخصوص. فإنَّ الاستعمـار والتَّنصير أصبحـا بصورة جليَّة في الزمن المعاصر وجهـين لعملة واحدة؛ وهو ما جعل دعاةَ التَّحذير من التَّنصير لا يرون إلاَّ الجانبَ سيِّئَ النيَّة من التَّنصير، وهو الاستعمار والاستعبـاد، ونهب الخيرات والثَّروات، وتدمير الوحدة: لغويَّةً كانت، أم دينيَّة، أم ثقافيَّة، أم وطنيَّةً.

٣/ مفهوم الشبهة.

مـن حيثُ اللغةُ: الشِّين والباء والهـاء أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على تشابه الشَّـيءِ وتشاكُله لوناً ووصفـاً. يقال: شِبـهٌ وشَبَهٌ، وشبيـهٌ. والمشَبَّهاتُ من الأمـور المشكلاتُ؛ واشتبـه الأمرانِ إذا أشكلا. والشُّبهة: الالتباسُ؛ وشُبِّه عليه الأمر تشبيهاً: لُبِّس عليه. واشتَبَهَتِ الأمورُ وتشابهت: التَبَسَتْ، لإشباهِ بعضِها بعضًا. (١)

ومـن حيث الاصطـلاحُ: نجد هذه اللفظةَ تـدور أكثر ما تدور على ألسنـة المتحدِّثين في العقائـد وفي الفقـه؛ فمـن الثاني قولهم: هو مـا لم يُتيَقّن كونُـهُ حرامًا أو حـلالًا؛ أو الشُّبهة في الفعـل: وهو مـا تثبّتَ بظنِّ غيرِ الدليلِ دليـلًا كظنِّ حِلِّ وطئ أمة أبويـه وعرسه... (٢) إلى آخـر ذلك من الصور الفقهية التي يراد منهـا غالبًا درءَ العقوبات بالشُّبهات؛ أو مَا عبَّر عنه

(١) – أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، دار الفكر: بـيروت– لبنـان، (دت)، ص٥٤٨. والقاموس المحيط، ص٦٦٥. وأبو القاسـم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزَّمخشـريُّ: أساس البلاغة؛ تحقيـق محمَّد باسل عيون السُّـود، (ط١)، دار الكتب العلميَّـة: بيروت– لبنان، ١٩٩٨م، (٤٩٣/١).

(٢) – علي بن محمَّد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان: بيروت– لبنان، ١٩٨٥م، ص١٢٩.

صاحب أحد التعريفات التي ساقها التّهانوي بـ " الإشكال في العمل".[١]

وأمَّـا في مجـال العقائد – وهو ما يتَّصلُ به بحثنا – فيتعلَّـق الأمر بـ: "خفاء الأمر"[٢]؛ وبتلبيسِهِ بغيره باعتبار منشئِ الشُّبهة.

وأمّـا عن خطورة الشبهات في الدِّين؛ فلكونها من صميم عالم الأفكار من جهة، ولكونها مرتبطـةً وَثيقًـا بالدِّين من جهة أخـرى؛ فاشتباهُها وتشابهها في الأذهــان – ولتعلُّقه بمعالم الحقِّ والباطل – آثارُه رهيبةٌ؛ بلً قد تكون مدمِّرةٌ للأنفس وللاجتماع وقوانينهما؛ لأنَّها تُعطِّل الممانعةَ، فيحدُثُ التَّخريب لآليات التَّفكير ككلٍّ - أو بدرجة أقلَّ تتعطَّل- أو تتشكَّل لديها آلياتُ تفكيرٍ دخيلةٌ، مُضعفَةٌ للمنظومة الفكريَّة التي ينتمي إليها المتعرِّض للشُّبهة.

والتصــدِّي للشبهــات من أعظم القُربات؛ ومن أنفع ما ينفــع المسلم به أخاه؛ حين يُسلِّم لــه دينه من الآفات، وسيِّءِ الظُّنــون والأفهام؛ والتخلِّي عن هكذا واجب خذلان؛ وكم يعجبني قــول الشيخ رشيد رضــا رحمه الله تعالى: " وقد يخفى الحقُّ بخِذلان أهله له؛ ويظهر الباطل باجتماع أهله عليه".[٣]

---

(١) - محمّد علي التهانوي: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت علي دحروج، ترجمة فارسية: عبد الله الخالدي، ترجمــة أجنبية جورج زيناتي، إشــراف ومراجعة: رفيق العجم؛ (ط١)، مكتبة لبنــان ناشرون، بيروت- لبنان، ١٩٩٦م، (١/ ١٠٠٥).

(٢) - المرجع نفسه، (١/ ١٠٠٥).

(٣) - محمَّد رشيد رضا: شبهات النَّصارى وحجج الإسلام؛ ط٢، دار المنار، ١٣٦٧هـ؛ ص ب.

المبحث الثاني

واقع الدِّراسات القرآنيَّة في مواجهة الشُّبهات التَّنصيريَّة

١ / طبيعة الشُّبهات التنصيريَّة واستمداداتُها.

إنَّ التتبُّــع لخطِّ التَّنصير عبر التَّاريخ يجد فيه سمةً بارزةً، وهي أنّه ذو طابع عمليٍّ أكثرَ منــه نظريّ؛ والاستشــراقُ – وهو متراخ عنه في الزمن- هو ذو طابــع علميٍّ أكثرً منه عمليّ؛ ولمّا ظهر الاستشراق كان أعظم مَعين يستقي منه المنصِّرون مادَّتهم في توجيه السؤالات إلى الآخر؛ ومادة الشبهات حين يتعلَّق الأَمر بالإسلام تحديدًا. وتتَّضح الصورة أكثر حين نعلم أنَّ الاستشــراق أصلًا نشــأ في الأحضان الكنسية؛ "ولـ"رودي بارت" كتاب: "الدراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعات الألمانيّة" فيه كلامٌ عن بدايات الاستشراق وأنَّ أهدافه حينئذٍ كانت تبشيريّة".[١]

والمنصِّــرون يقومــون بالتطبيق العملــي في تعليم الشُّبهــة عمليًّا؛ بمعنى أنَّــه زيادةً على الطعــن النظــري مثلاً في القــرآن العظيم، أو في عقائــد معيّنة كالقدر مثــلًا، فإنَّه يجعل من الواقــع شاهــدًا علــى شبهته؛ الواقعِ الــذي يتفنَّنُ هو في صنعــه؛ ذلك أنَّ المنصِّــرَ يحتاج إلى الآلام، والكــوارث والنَّائبات، والجوعِ والمرض، والفقر والموت؛ ونحوها من فظائع الأمور؛ فإن لم يجدها احتاج إلى من يُوجدها له لتظهر آثار نعمته على الأفراد والشُّعوب والتي تكون آمنةً مطمئنَّــة. ولنا الشاهدُ التَّاريخــي في أمم الشرق قبل وفود المحتلِّ عليها؛ يوم اتَّحد في المعركة غــيرِ الإنسانيَّة الجيشــان: العسكري والتَّنصيري وانتظما في سلــك واحد؛ يتَّفقان في الهدف والغاية، ويختلفان من حيثُ دقائق التَّنفيذ، ونوع الأسلوب أو الوسيلةً في بعض الأحيان: يأتيان في سفــن واحدةٍ ولكنَّ العسكريَّ يقتــل، والقسِّيس يمسح الدِّماء، العسكــريٍّ يُيَتِّم، والقسِّيس يمسح الدُّموع.

(١) – محمَّــد حســين علــي الصغير: المستشرقــون والدراســات القرآنيّــة، ط١، دار المؤرِّخ العربي: بــيروت- لبنان، ١٩٩٩م، ص١٣.

والعَصَبُ بين الجيشين هم جنود الاستشراق الذين يزوِّدون كلا الجيشين المحاربين بما يحتاجانه من العلوم والدراسات الدقيقة عن تلك الشعوب. وإن كان الباحثون المسلمون قد اضطربوا في مواقفهم اتِّجاه غرض المستشرقين من أعمالهم العلميَّة إلَّا أنَّه في أدناها " لهم دوافعُ متفاوتةٌ شدَّةً وضعفًا. اتَّسم بعضها بهدف تبشيريٍّ؛ واتَّجه البعض الآخر منها بغرض استعماريٍّ؛ وخلص القسم الثالث باتِّجاه علميٍّ".[1] ويكفي في ظنِّي كونُ ثلثَيه على الأقل في اتِّجاه أغراض دنيئة أن يُفقدنا الثِّقةَ بأعمالهم؛ إذ ليس من اليسير فرز أعمالهم بين النَّافع والضَّارِّ؛ ولا أدلَّ على ذلك من اختلاف الباحثين في تحديد البحوث النافعة عندهم من السامَّة للأفكار.

والاستشراقُ كما هو معلومٌ يضمُّ في صفوفه أهلَ ملل ونحلٍ شتَّى؛ بحيث لا يقتصر على النَّصارى، بل الاستشراقُ اليهوديُّ له مساحةٌ كبرى في مُنتَجه؛ ويوجد فيه ملاحدةٌ منكرون للوحي. ومع ذلك فقد قام المنصِّرون بتوظيف جميع الشبهات في حربهم للإسلام وأهله؛ مع أنَّ تلك الشبهات تصدُقُ في دينهم؛ أو في مستوًى أدنى إن صدقت في إنزالها على القرآن الكريم؛ فإنزالها على كتابهم المقدَّس أولى وأظهر؛ وهم منتبهون إلى ذلك؛ وإنَّما غرضهم تحقيق التشكُّك لدى المسلمين، وزعزعة إيمانيَّاتهم؛ حتَّى وإن لم تقدهم النتيجة بالأخير إلى دخول المسلم في دينهم؛ يكفي الشكُّ، ويا حبّذا لو يُلحِد.

أمَّا عن منهج المنصِّرين في مواجهة المسلمين بالشبهات؛ فيحدِّثنا جون مارك تيري John Mark Terry عن منهج الإرساليات البروتستانتية الأولى إلى بلاد المسلمين، بأنَّهم كانوا ينظِّمون مناظرات عامَّة، ويصدرون مؤلّفات هجوميَّة. ثمّ يعقِّب: لم يعد هذا المنهج مستخدمًا على نطاق واسع اليومَ؛ أوّلاً: لأنّ معظمَ البلاد الإسلاميَّة لا تسمح به؛ فأولئك المرسلون الأوَّلون غالبًا ما كانوا يعملون في حماية الحكومات المستعمرَة. وثانيًا: لأنَّ المرسلين اليوم يفضِّلون إظهار الإنجيل بطبيعته الإيجابيّة. وأخيرًا: لأنَّ هذه الوسيلةَ عادةً غيرُ ناجحة؛ فمن الممكن للمناظرات أن تُقنعَ المثقَّفين، ولكنَّها لا تمسُّ العامَّةَ.[2]

---

(١) – المرجع نفسه، ص١٣.

(٢) – انظر: روث أ. تكر: إلى أقصى الأرض – تاريخ الكرازة بالإنجيل بدايةً من عصر الرسل حتَّى وصولها إلى أقصى الأرض–؛ (دط)، ترجمة وجدي وهبه، ومريانا كتكوت، رؤية للطباعة، (دب)، ٢٠١٣م، ص٢٩٣.

والمنهج التَّنصيري قائمٌ على التفاعل مع العوائق المختلفة التي تقف في طريقه؛ وقد ساقت إحدى الباحثات في تاريخ الإرساليّات، مجموعةً من النماذج التنصيريَّة العمليَّة في العصر الحديث؛ ثمّ قالت: ولكن بالتحليل النهائي يتَّضح أنَّه لم ينجح أيٌّ من هذه النماذج في تقديم وسيلة لاختراق هذا الحقل الشديد الصعوبة. ومن أسباب ذلك – كما يرى دَدلي وودبري Dudley Woodburry– العوامل الاجتماعيَّة من الترابط العائلي والمجتمعي؛ والقضايا اللاّهوتيَّة (وتشمل رفض الإسلام رفضًا قاطعًا لفكر الثالوث)؛ والقضايا السياسيّة (عدم انفصال الدِّين عن السياسة في الإسلام)؛ وأخيرًا: ارتباط المسيحيّة في الأذهان بالثقافة الغربيّة.(١)

وفي ضوء ذلك يمكننا فهم التغيير في أساليب المنصِّرين ونحوهم؛ فإذا غيّروا في مرحلة ما أسلوبَ التهجُّم فليس ذلك معناه أنَّهم اكتشفوا أنّ منهجهم سيّء أو ما شابه؛ وإذا دعواً إلى الحوار فلا يعني ذلك ضرورةً أنَّهم يجنحون إلى السَّلم؛ وإذا أثنى بعضهم على الإسلام أو نبيِّه أو كتابه في معرض خطابٍ أو حديثٍ فليس ذلك ولا بدّ موادَّةٌ من جانبهم ومحبَّة أو بوادر موالاة... الخ.

٢ / أصول الشُّبهات التَّنصيريَّة حول القرآن الكريم ونماذج منها.

توجَّهت الشبهات التَّنصيريَّة منذ بداياتها إلى القرآن الكريم والوحي المعصوم على اعتبار كونه مصدر التعاليم الإسلاميّة؛ وآيةَ صدقِ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، وإعجاز الخلق؛ ولو أردنا تصنيف المحاور التي انتظمت فيها شبهاتهم لجاءت كالآتي:

أ/ التشكيكُ في وقوع الوحي بالقرآن الكريم أصلًا: من جهة مُنزِله، والمنزَلِ عليه، وفي كيفيَّة الإنزال. فأمّا من جهة المُنزِلِ فهم يحاولون إثبات أنَّ الله تعالى بعد إرساله ابنَهُ الوحيد – عياذًا بالله– لم تعُد ثمّة حاجةٌ إلى إرسال غيرِه؛ ومن معايير بطلان ذلك عندهم أن يكون مضمون الوحي مخالفًا لما هم عليه من الديانة، وخاصَّةً في تقرير بشريّة المسيح عليه السلام، وهدم عقيدة التّثليث. غير أنَّ النَّصارى لا يذهبون إلى بيان هذا الكلام في الغالب الأعمِّ بطريقة مباشرة؛ وإنّما بطرُق تلبيسيّة؛ ومن أمثلة ذلك الشبهاتُ التي تتحدَّث بأنَّ التعاليم المتضمَّنة فيما يتعلّق بالنصرانيّة ونفي البنوّة والتثليث هي هرطقاتٌ وبِدَعٌ كفريّاتٌ

(١) – المرجع نفسه، ص٢٩٤.

قالت بها بعض الجماعات المنحرفة في ماضي النَّصرانيَّة؛ وإنَّما النبيُّ ﷺ – والعياذ بالله- حاطب ليلٍ لم يحسن الوقوع على التعاليم النَّصرانيَّة الحقَّة، وأخذ المنحرفة.

وأمَّا من جهة المُنزَل عليه، فإنَّهم يحاولون التشكيكَ في أهليَّة النبيِّ ﷺ لتحمُّل الوحي: من حيثُ خُلُقه، ومن حيثُ سيرته في أهله وخاصَّته، وفي سياسته للنَّاس بالدِّين، وفي مختلف معاملاته؛ وإنَّ تشويههم لصورته في أذهان النّاس ينجرُّ عنه استحالة أن يصطفيه الله تعالى لحمل رسالته المضمَّنة في القرآن العظيم.

وأمّا من جهة كيفيَّة الإنزال، فيتناولون فيه تصوير حال النبيِّ ﷺ حين نزول الوحي عليه؛ وأنَّ حالَهُ حينئذ حال المجانين – عياذًا بالله- أو الشعراء، أو الكهّان في زمانه ممَّن يسترهبون النَّاس بكلامهم. ولكنَّهم ألبسوا هذه الشبهات التقليديّة لباس العلم الحديث؛ كقولهم بشبهة " الوحي النَّفسي"، ونحوها؛ أو قولهم – عياذًا بالله-: إنّ بعض السور أملاها رسول الله ﷺ، بعد نوبات نفسية- فيزيولوجية psycho- physiologiques .[1]

ب/ التشكيك في مضمون القرآن العظيم؛ ونفي إعجاز المعنى، وكلُّ الشبهات التي تطعن في أصالة العلوم الإسلاميَّة المنبثقة من الأنوار القرآنيَّة منتهاها إلى هذا الباب؛ فيسعَوْنَ في هذا المضمار إلى تزيين شبهات في اقتباسات القرآن العظيم من الكتب السابقة في العقائد والتشريعات والقصص والأخبار؛ ومن بين كتب المستشرقين – سواءٌ كانوا منصِّرين أو اعتمد عليهم المنصِّرون- الآتي:

" صلةُ القرآن باليهوديَّة والمسيحيَّة"، لـ"فسلهم رودلف".[2] وبحثان للمستشرق الألماني "بومشتارك" في علاقة الإسلام بغيره من الديانات هما: "النَّصرانيَّة واليهوديّة في القرآن" بمجلة الإسلام، ١٨٢٧م؛ و" مذهب الطبيعة الواحدة النَّصراني في القرآن" بمجلة الشرق المسيحي، ١٩٥٣.[3] " عناصر من الهجادة في قصص القرآن"، بقلم شابيرو، ليبزيج،

---

(1) - Publié sous la direction de A. Robert et A.Tricot: Initiation Biblique. Introduction a l'étude des sainte écritures: société de Saint Jean l'evangiliste imprimeurs du saint siége et de la sacrée congregation des rites. Paris- France.

(٢) – علي شواخ إسحاق: معجم مصنّفات القرآن الكريم، ط١، دار الرفاعي: الرياض- المملكة العربيّة السعوديَّة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، (٣/ ١٧٢).

(٣) – محمَّد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنيّة، ص٨٤.

١٩٠٧م. "عناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدِّينيَّة"، للمجري بيرنات هيللر (١٨٥٧م-١٩٤٣م)، نُشر عام ١٩٢٨م.[١] "المصادر الأصليّة للقرآن" لتاسدول، لندن ١٩٠٥م. "مصادر القصص الإسلاميّة في القرآن وقصص الأنبياء"، لسايدر سكاي، باريس، ١٩٣٢م. "مصادر القصص الكتابي في القرآن" لسباير، نشر عام ١٩٣٩م.[٢] "طابع الإنجيل في القرآن"؛ بقلم ولكر ١٩٣١م. و"عناصرُ نصرانيَّة في القرآن"، بقلم أهرنس (د.ت).[٣]

وكتب "ريتشارد بيل": "أصل الإسلام في بيئته المسيحيّة"؛ لندن ١٩٢٦م. و"مقدِّمة في القرآن"؛ أندنبرج ١٩٥٣م. وكتب "تور أندريا": "أصل الإسلام والمسيحيَّة"؛ أوبسلو ١٩٢٦م.[٤]

وكلُّ هذه الكتابات إنَّما كانت بمنهج إسقاطي؛ بحيثُ ما انتُقِد عليهم في كتابهم من تعدُّد مصادره التي صيغ منها؛ أرادوا وَصْمَ القرآن العظيم به كذلك.

جـ/ التشكيك في شكل القرآن ولغته وبلاغته؛ وتبتدئ الشبهات من النيل من اللغة العربيَّة أوَّلاً؛ ثمَّ لمز عربيَّة القرآن العظيم؛ فمن أمثلة الأوّل: نموذجٌ تنصيريٌّ معاصرٌ، هو كتاب: "أعربيٌّ هو؟ بحثٌ في عروبة الإسلام"[٥]؛ وهو يقع في مائتين وثلاثة وخمسين صفحة؛ ملخَّصُ مضمونه يبتدئ من بحث لفظ: "عرب" ومشتقاتها في الحضارات القديمة؛ وبأنّها لم تَعْنِ عرقًا، أو جنسًا لشعب معيَّن، أو لأرض خاصّة؛ بل صفة لشعب يسكن غربيّ الفرات؛ ويعيش في البادية، أو يعيش حياةً بدويَّة، فقيرةً، بدائيَّة.[٦] ولا وجود لقوميَّة عرب الجاهلية، ولا لقوميَّة عرب القرآن[٧]. وقد يكون الآراميُّون والبابليُّون هم من أطلقوا الاسم والصفة والمعاني الجمَّة للعروبة التي لم توجد إلاَّ غربي الفرات بين العراق وبلاد الشام، أو في بادية

(١) المرجع نفسه، ص١٥٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٩.

(٣) المرجع نفسه، ص٨٥.

(٤) عبد الرحمن بدوي: دفاعٌ عن القرآن ضدّ منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، ط، الدار العالمية للكتب والنشر، ص٢٣.

(٥) أبو موسى الحريري: أعربيٌّ هو؟ بحثٌ في عروبة الإسلام، بيروت- لبنان، ١٩٨٤م.

(٦) المرجع نفسه، ص٧٥.

(٧) انظر: المرجع نفسه، ص٨٤.

الشام.[1] - أي العرب أصلهم في الشمال- ولغتهم لاحقةٌ متأخِّرة؛ وكثيرٌ من المعاني والكلمات المعرَّبة والأسماء الآراميَّة والخصائص اللُّغويَّة، وكيفيَّة النُّطق، وعدّة مفردات، دخلت اللغة العربيّة من مصدرٍ آراميٍّ، أو من لغات أخرى ساميَّة؛ مرَّت عبر الآراميَّة إلى اللغة العربيّة. والدليل على ذلك عنده وجود المعرَّب في القرآن الكريم الذي رآه ألفاظًا أعجميّة. وأوّل المتكلِّمين بها كانوا نصارى.[2] ثمَّ حملها المرسلون والمبشِّرون معهم إلى الصحراء، إلى مكّة والحجاز؛ وحملها التُّجار معهم من بلاد الشام والعراق إلى بلادهم؛ فتكلَّموا بها منذ أيَّام قصيٍّ الذي جمع القبائل والعشائر في قريش.[3] ليصل إلى نتيجة أنَّ: العروبة لغةً وشعبًا ودينًا هي أساسًا نصرانيّة، غربيَّةٌ فُراتيَّة، وشماليّة. مطعَّمةٌ بحرف نبطي؛ وبمعانٍ سريانيَّة غربيَّة آراميَّة. ثمّ أصبحت في مكَّة حاملة لهجات من كلِّ صوب: من الحبشيَّة، ومن الروميَّة، واليونانيَّة، والعبريَّة، والسريانيَّة، والقبطيَّة، وذلك لتلوُّن السكَّان في مكّة.[4]

ثمَّ تأتي الشبهات الأخرى المتعلِّقة بنقد لغة القرآن الكريم – والعياذ بالله- وزعمُ الأخطاء اللغويّة والإملائيّة فيه؛ واضطراب ضبط قراءاته، ونحوها من الأمور بشكلٍ يدعو إلى الغثيان.

٣ / تقويم الدراسات القرآنيَّة في الرَّد على الشبهات التَّنصيريَّة.

الدراسات القرآنيَّة في حقيقتها لا تتوجَّه إلى شبهة دون أخرى، إذ كلُّ سهم موجَّه إلى القرآن العظيم فإنَّها تردُّها، سواء كانت الشبهة إلحاديَّةً، أم كتابيَّةً، أم وثنيّة؛ وهذا ما ينبغي أن يكون عليه خطُّ سيرها. وإنَّ استلهامات الباحثين فيها واستمداداتُهم لهي من القرآن العظيم، الذي هو منبع الكتابة فيها. وإذا ما تدبَّرنا القرآن الكريم في هذا المجال فإنّنا نجد أنّه حكى الله تعالى قول المشبِّهين ونصَّ شبهاتهم؛ ثمَّ حدّثنا عن دحضها. وبيَّن لنا أنَّ الشبهات لها أصول تعود إليها؛ وأرشدنا تعالى إلى أنَّ مقالات الناس – ومنها التشبيهيّة- تتكرَّر.

وإنَّ الدراسات القرآنيَّة في ذلك: بعضُها يعتمد العرضَ والإجابة عن الإشكالات ابتداءً، بعيدًا عن سماعه للشبهات التَّنصيريَّة من عدمه. وبعضها يردُّ على الشُّبهة من دون تحديد

(١) - انظر: المرجع نفسه، ص٨٤.
(٢) - انظر: المرجع نفسه، ص١٨٤.
(٣) - انظر: المرجع نفسه، ص١٩٧.
(٤) - انظر: المرجع نفسه، ص١٩٨.

مصدرها - فالفكرة مقدّمةٌ على قائلها- وآخرون يردُّون على كتبٍ ومؤلِّفيها وفق ما تضمّنته من شبهاتٍ.

وننطلق ههنا في عرض وتقييم الدراسات القرآنيَّة في الردِّ على الشبهات التَّنصيريَّة بالقولِ: إنَّ الردود على تلك الشُّبهات - وغيرها- قد تُضُمنت في كلِّ كتب علوم القرآن ابتداءً؛ إذ إنّ أولى الخطوات في مواجهة الشُّبهة هو التمهيد لبيئة علميّة من شأنها أن لا تكون مرتعًا لنموِّ الشبهات ولا لحياتها. وقد تحقَّق ذلك بكتب علوم القرآن وغيرها فبيَّنوا كلّ ما يمكن أن يتسبَّب في وقوع المرء في شبهاتٍ قد تُلبِّس عليه الفهم.

وعلى سبيل المثال فتاريخ الإسلام ومنذ بداياته عامرٌ بالكتب التي تتحدّث عن مشكلات القرآن الكريم في مختلف المسائل المتعلِّقة به: وحيًا وإنزالاً ورسمًا وقراءةً، وإعراباً وبيانًا، وأحكامًا، وغيرها.

وإنَّ المتتبِّع لشبهات النّصارى لا يجدُ لهم مزيَّةً في الانتباه إليها أصلًا؛ كأنَّهم وقعوا على ما لم يتفطّن له الأوَّلون — مؤمنين وكفَّارًا-؛ أو كأنّهم وقعوا على مصادر لم يضطلع عليها الأوَّلون. وإنّما ما يثيرونه مأخوذٌ أكثره من كتب المشكلات؛ مشكل القرآن العظيم، أو مشكل الحديث، ونحوها؛ غير أنَّهم يأخذون الأمور المشكلات، مبتورةً عن بيانها، أو يزوِّروا بيانَها؛ ثمّ يلقونها إلى العامَّة.

ومن أشهر من تكلَّم في المُشكِل والمُتشابه، وتصدَّى له: جملةٌ من الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين وأتباعهم؛ ومن أشهرهم ابن عبَّاس كما في سؤالات نافع بن الأزرق؛ والحسنُ البصري، ومقاتل بن سليمان الذي رُويت عنه آثارٌ في التوفيق بين الآيات التي قد يُتوهّم من ظاهرها التعارض؛ رواها عنه أبو الحسين محمَّد بن أحمد الملطي في كتابه: "التنبيه والردُّ على أهل الأهواء والبدع"؛ وأبو العباس بن سريج، ذكره الزركشي في البرهان.[1]

(١) - سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي: مقدِّمة تحقيق كتاب "باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن" — تأليف العلاَّمة محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي الملقّب بـ "بيان الحق"-؛ رسالة ماجستير مطبوعة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلميَّة وإحياء التُّراث الإسلامي، ١٩٩٧م، ص١٧٠-١٧٢؛ بتصرُّف.

وممَّا أُفرد فيه من الكتب من القرن الثاني إلى الخامس الهجريَّين فقط:[1]

- " جوابات القرآن"؛ لسفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي؛ وهو غير التفسير المطبوع.
- " الردُّ على الملحدين في متشابه القرآن"، لمحمَّد بن المستنير الشهير بقطرب.
- " بـاب بيـان ما ضلَّت فيه الزنادقـة من متشابه القرآن"؛ ضمن كتاب أحمد بن حنبل: " الردُّ على الزنادقة والجهميَّة"؛ ذكر فيه اثنتين وعشرين مسألةً في ذلك.
- " مشكلات القرآن"، لأبي داود سليمان بن أشعث السجستاني.
- " تأويل مشكل القرآن"، لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدَّينوري.
- " ضياء القلوب من معاني القرآن وغريبه ومُشكله"؛ للمفضَّل بن سلمةَ اللغوي النحوي.
- " توضيح المشكل في القرآن"، لسعيد بن محمَّد بن صبيح الغسَّاني ابن الحدّاد المغربي.
- " المشكل في معاني القرآن"، لأبي بكر محمَّد بن القاسم بن محمَّد المعروف بابن الأنباري.
- " معـاني القـرآن وتفسـيره ومشكله"، لأبي الحسن علي بـن عيسى بن داود بن الجرَّاح الوزير؛ أعانه على عمله أبو بكر ابن مجاهد المقرئ.
- " الموضح في معاني القرآن وكشف مشكلات الفرقان"، لعبد العزيز الصيدلاني المرزباني.
- " تنزيه القرآن عن المطاعن"، و" متشابه القرآن"، للقاضي عبد الجبّار بن أحمد الهمذاني المعتزلي.
- " درَّة التّنزيـل وغرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز"، لأبي عبد الله محمَّد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي.
- " مشكل إعراب القرآن"، و" تفسير المشكل من غريب القرآن"، كلاهما لأبي محمَّد مكِّي بن أبي طالب القيسي.

وإنَّ غيرَهُـم كثـيرٌ؛ وإذا كانت كتب العقائد وعلم الـكلام تتناول الشبهات على اختلاف وتنـوُّع القائلين بها؛ فإنّــه قد ضمَّ الكثيرُ منها مباحث تعدُّ دراسات قرآنيَّة؛ ومنها ما يتنازعُهُ الحقـلان المعرفيّـان؛ من مثل كتاب الباقـلّاني: " الانتصار للقـرآن"؛ أو الأمور المبثوثات في كتـب التفسير المختلفة. وثمَّة منذ البدايات ردودٌ إسلاميَّـةٌ في كتب منفصلة في الردِّ تحديدًا على كتب نصارى حَوَتْ سؤالاتٍ متضمِّنَّةً لشبهاتٍ تتعلَّق تحديدًا بالقرآن الكريم؛ ككتاب شيخ

(١) - المرجـع نفسـه، ص١٧٢- ١٨٥؛ باختصار، وقـد رتَّبت الباحثةُ الكتب ترتيبًا زمانيًّا ابتـداءً من القرن الهجريِّ الثاني؛ وقد سردت ٣٣ كتاباً تقريبًا من القديم إلى الحديث.

الإسـلام: " الجـواب الصَّحيح لمن بدّل دين المسيح" ؛ الـذي هو ردٌّ على كتابٍ ورد من قبرص من بولس الراهب، أسقف صيدا الأنطاكي؛ فيه الاحتجاج لدين النَّصارى بما يحتجُّ به علماء دينهـم من الحجـج السمعيَّة والعقليّة. وقـد اشتملت تلك الرسالةُ علـى اعتراضات ودعاوَى محاولةٍ لحصر رسالة محمَّدٍ ﷺ؛ وقصرِها على العرب وحدَهم؛ مع الاستشهاد لذلك بآياتٍ من القرآن الكريم.[1]

ولم يخـلُ زمانٌ من مثل تلـك الدراسات والردود في الذبِّ عن القرآن العظيم والردِّ على الشبهـات؛ وفي زماننا المعاصر انبرى علمـاء أجلاَّء في مواجهة جيوش التنصير المندمجة في جيوش الاستعمار الحديث؛ والذين سخّروا الطباعة، والتنظيم المؤسَّسي في محاولة القضاء علـى الإسلام وأهلـه. ومن التأليفات المتميِّـزة في ذلك ما قام به علمـاء الهند وعلى رأسهم رحمـت الله الهنـدي صاحب كتاب: " إظهار الحق" والذي من المحال أن نلخِّص مضامينه في هذه الدراسة لعدم كفاية الصفحات.

ومنهـم كذلـك الشيخ عبد الرحمـن الجزيري، صاحب كتـاب: " أدلَّة اليقـين في الردِّ على مطاعن المبشِّرين" وهو يقع في ٥١٣ صفحة، فيه الردُّ على أدلة النصارى في زعمهم عدم تحريف التوراة والإنجيل؛ والمسائل التي يُقرُّها القرآن من التوراة من المسائل التي يتعلَّق بها النصارى أنّ القـرآن الكريم يوافقهم عليها مع سوق الأدلـة في تحريف التوراة والإنجيل، وممَّا يعترفون به هم أنفسهم؛ والأدلَّة على وقوع نسخ التوراة والإنجيل؛ وإبطال التثليث وزيف الثالوث؛ وأدلَّة صدق رسالة نبيِّنـا ﷺ؛ وشبهات المنصِّرين حول القرآن العظيم من تناقضات زعموها، وأخطاء ونحوها من التُّرهُّـات. وهو يأتي بأوجه المقارنة بأشنع ممَّا زعمـوه في الإسلام إذ لا يرقى إلى أدنى الشناعات الموجودة في كتبهم.[2]

وفي مصـر نجـد الشيخ محمَّد رشيد رضـا؛ والذي جعل من مجلة المنار ومـا جُرِّد منها من التفسـير أداةً في ردِّ الشبهـات، وبيـان محاسن القرآن؛ وقد جرَّد من ذلـك كتيِّبًا قيِّمًا، عنوانه: "

(١) – أبـو العبَّاس تقـيّ الدِّين أحمد بن عبـد الحليم ابن تيميَّة الحـرَّاني: الجواب الصحيح لمن بـدَّل دين المسيح؛ تحقيـق علـي بـن حسن بن ناصـر، عبد العزيـز بن إبراهيـم العسكر، حمدان بـن محمَّد الحمـدان؛ ط٢، دار العاصمة: الرياض- المملكة العربيّة السعوديَّة، ١٩٩٩م، (١/ ٢٩، ٣٠، ٣١)؛ من كلام المحقِّقين.

(٢) – عبد الرحمن الجزيري: أدلَّة اليقين في الردِّ على مطاعن المبشِّرين – دحض لـ: ميزان الحق، وتنوير الأفهام، ومقالة في الإسلام، وغيرها-؛ (دط)، منشورات أسمار: باريس- فرنسا، ٢٠٠٧م.

شبهات النَّصارى وحجج الإسلام": جزءٌ منه قد ضمّنه في كتابه: "الوحي المحمَّدي" - والذي هو بدوره كتاب رائع في بيان صدق الوحي، وتفنيد الشبهات خاصة شبهة الوحي النّفسي- والكتاب الأوَّل يتضمّن ست عشرة مقالة؛ منها: المقالة الأولى: في سبب الردِّ وبيان المراد بالتوراة والإنجيل عند المسلمين؛ وذكر ثلاثة أقسام لشبهات عرضت لأحد المسلمين المطالعين لكتب المنصِّرين، أحدها: مخالفة بعض نصوص الدِّين الإسلامي لما ورد في كتب اليهود والنَّصارى؛ ثانيها ورود أشياء في القرآن لم ترد في تلك الكتب – وإن تعجب فعجبٌ اشتباه هذا المسلم في هذا النوع، فإنَّ السكوت عن الشيء لا يعدُّ إنكارًا له، فكيف يُشتبه بما يعتقد أنَّ الله أخبر به، لأنَّ هؤلاء المؤرِّخين لم يذكروه؟- ثالثها: ورود أشياءَ في الكتاب والسنَّة مخالفة للواقع، أو لما ثبت في العلوم الحديثة بزعم من تلقَّى عنهم. والخامسة: في الردِّ على كتاب: " أبحاث المجتهدين" استدلالَه بالقرآن على صحّة التَّوراة والإنجيل. والرابعة عشرة: في ردِّ مطاعن مجلَّة الجامعة في الإسلام.(1)

ومن الكتب الجيِّدة كذلك: "الأجوبة الجليَّة في الردِّ على الأسئلة المسيحيَّة – شبهات النَّصارى حول الرسول ﷺ-"؛ للحسيني الحسيني معدِّي؛ وعلى الرُّغم من كون الكتاب في الشبهات التَّنصيريَّة حول الرسول ﷺ؛ إلاّ أنّها في أغلبها شبهاتٌ متعلِّقة بالقرآن الكريم؛ وهو المقصود منها. وقد ضمَّ الجزء الثاني منه الردَّ على خمس وثمانين شبهة؛ فمنها ما يتعلّق بالحكم المتَّفق عليه وهو ظاهر القرآن الكريم كحدِّ السرقة؛ ومنه ما يتعلّق بالسيرة النبويَّة المذكورة في الآيات القرآنيَّة كقصَّة الغرانيق، وهل كان ينسى رسول الله صلَّى الله عليه الوحيَ؟ أو ما ورد فيه من الغيبيّات كشبهة تصوير القرآن الكريم للجنَّة أنّها للخمر وللزواج فقط؛ أو بصفات الله تعالى المذكورة في محكم التَّنزيل كالمكر بمن يمكر؛ أو استشكالات علميَّة كغروب الشمس في عين حمئَة، أو كرويَّة الأرض؛ أو عن الحديث عن النَّصرانيّة في القرآن الكريم (مع محاكمتها لتعاليمهم المحرفّة بالأساس) كالتثليث: هل له وجودٌ في الإسلام؛ وأيُّ تثليث حاربه القرآن؟ وأمور تتعلَّق بإثبات صحة القرآن الكريم؛ كالردِّ على دعوى تحريف القرآن الكريم، وجمع القرآن وكتابته، والسؤال عن إعراب بعض الآيات

(1) - محمَّد رشيد رضا: شبهات النَّصارى وحجج الإسلام، (أصله ستة عشر بحثًا نشروا في المجلَّدين الرابع والخامس من مجلَّة المنار، مجموعها معًا مائة وصفحة في الردِّ على كتاب " أبحاث المجتهدين"، ومجلَّة " بشائر السلام"، ومجلّة " الجامعة")؛ ط2، دار المنار، 1367هـ.

القرآنيَّــة؛ واستفهامــات يراد بها الإعجاز، كالاستفسار عــن الإسكندر ذي القرنين: هل كان عبدًا صالحًا؟ أم من عبدة الأوثان؟...الخ.(١)

ومنها كذلك كتاب: " عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشِّرين" لإبراهيم عوض الذي يردُّ فيه على كتاب صدر في النمسا سنة ١٩٩٤م بعنوان: "هل القرآن معصومٌ؟" لعبد الله عبد الفادي؛ الفصلُ الأوَّلُ منه: في "الشبهات اللُّغويَّة" حيث أراد المشبِّه أن يُلقَى في روع القرَّاء أنّ بالقرآن الكريم أخطاءٌ لغويّةٌ وهذا دليلٌ على أنَّه لا يمكن أن يكون من عند الله. وأمَّا الفصل الثاني فعنوانه: "شبهاتٌ خاصّةٌ بالمضمون".(٢)

ومنهــا كتــاب جيِّدٌ لمحمَّد جمعة عبــد الله، عنوانه: "ردُّ افــتراءات المبشِّرين على آيات القــرآن الكريم" يردُّ فيه على المنصِّرين الذيــن يستدلُّون بالقرآن العظيم على باطلهم، وأنّه يشهد لهم لا عليهم؛ من خلال نماذجَ لكتب صدرت عنهم.(٣)

ومنهــا الكتاب الرائع لأحمد عمــران: "الحقيقة الصعبة في الميزان – مناقشةٌ وردودٌ-" وهــو في الــردِّ على سلسلــة " أبي موســى الحريري" المعنونة بــ: " الحقيقــة الصَّعبة"؛ التي شرعــت كتُبهــا في الظهــور منذ أواخــر سبعينــات القرن الماضــي؛ وركَّــزت اهتماماتها على القضايــا الإسلاميَّة؛ فطرحت أبحاثًا، ودراسات حول القــرآن وصلته بالإنجيل؛ وحول النبيِّ ﷺ وعلاقتــه بورقــةَ بــن نوفل. منها الكتب التَّاليــة: "قسٌّ ونبيٌّ"، "أعربــيٌّ هو؟"، و"كتاب عالم المعجزات"، و" نبيُّ الرحمة وقرآن المسلمين". وكنيتُهُ ونسبتُهُ كلاهما مبهمان لشخصيَّةٍ غامضة.(٤)

والكتــاب القيِّــم لفضل حســن عبَّاس: "قضايــا قرآنيَّة في الموسوعــة البريطانيَّة – نقد مطاعــن، وردُّ شبهــات-" وممّا قال صاحبــه في مقدِّمته: جاءت مادة " قــرآن" في الموسوعة البريطانيّــة في الجزءٍ الخامســ عشر صفحة ٣٤١-٣٤٥. ومن حقِّ القارئ أن يتساءل: أكانت

---

(١) الحسينــي الحسيني معــدِّي: الأجوبة الجليَّة في الردِّ علــى الأسئلة المسيحيَّة – شبهــات النَّصارى حول الرسول ﷺ-؛ (ط١)؛ دار الكتاب العربي: دمشق- سوريا؛ القاهرة- نصر، ٢٠٠٧م.

(٢) إبراهيــم عوض: عصمة القــرآن الكريم وجهالات المبشِّريــن، (دط)، مكتبة زهراء الشــرق: القاهرة- مصر، ٢٠٠٥م.

(٣) محمَّد جمعة عبد الله: ردُّ افتراءات المبشِّرين على آيات القرآن الكريم، ط١، (لا معلومات أخرى)؛ ١٩٨٥م.

(٤) انظــر: أحمد عمــران: الحقيقة الصعبــة في الميــزان – مناقشــةٌ وردودٌ-؛ ط٢، مؤسَّسة الأعلمــي للمطبوعات: بيروت- لبنان، ١٩٩٥م.

هـذه الصفحات الأربع بحاجة إلى مثل هذا الكتاب في مساحتـه وحجمه؟ وهو تساؤلٌ وجيهٌ؛ ذلـك أنّه ما كان يدور بخلدي أن تكون مناقشة هذه الصفحات القليلة تستحقُّ أكثرَ من بحث صغير؛ ولكن حينما بدأتُ بمناقشة هذه المادَّة وجدتُ أنَّ كلَّ جملة يمكن أن تشكِّل قضيّةً ذاتَ خطرٍ وأهميّة.[1] وفي اعتقادي أنّ ما ورد في الموسوعة البريطانيَّة يعدُّ زبدة الفكر الاستشراقي ومحصِّلَتُه فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم.

والكتـاب المنهجي لشوقي أبو خليل: " الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشِّرين" الذي قـام فيه بتحديد المنهج الإسقاطـي المعتمد لدى المستشرقـين والمنصِّرين في المحاور الكبرى لشبهاتهم ونظرياتهم الشُبَهِيّة بحيث تكون المشكلة عندهم وفي صميم ديانتهم ومفصليَّاتها، فيصدِّرونهـا إلى الإسلام ونبيِّـه وكتابه؛ وقد ساق المؤلِّف عشرين إسقاطًا بأدلّته؛ تقريبا هي كلُّ مـا تدور عليـه الشبهات ضدَّ القـرآن الكريم وتعاليمـه؛ وكلُّها تعبيرٌ عـن سيِّئات التاريخ النَّصراني، وفكر رجالاته.[2]

وكتاب عبد الرحمن دمشقيَّة: "الردُّ على شبهات حول أخطاء إملائيَّة في القرآن الكريم"، الـذي من ميزَته أنَّه قبل أن يناقشهم في الأخطاء اللُّغويَّة والإملائيَّة يجادلهم بما عندهم قبل ذلك من مصائبَ تضمَّنها كتابهم، هي بتعبيره لا يقبلها إلاَّ مجنونٌ، أو متعصِّبٌ بلغ به تعصُّبه إلى الجنون.[3] ومن ذلك ما ساقه من نصوصٍ بلاغتها مضحكةٌ من الكتاب المقدّس.

وكتاب عمر بن أحمد بن موسى التميمي الداري النابلسي الفلسطيني: "السيف الصقيل في الـردّ علـى شبهـات اليهـود والمسيحيِّين حـول الإسلام – وهـو ردٌّ على الرسالـة المسمّاة بالبرهـان الجليل على صحَّة التّوراة والإنجيـل-" والذي أهداه مؤلِّفه إلى السلطان العثماني عبد الحميد خان.[4]

---

(١) فضـل حسن عبَّاس: قضايا قرآنيَّة في الموسوعـة البريطانيَّة – نقد مطاعن، وردُّ شبهاتٍ-؛ (دط)، دار البشير: عمّان- الأردن، (دت)، ص٦.

(٢) شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشِّرين، دار الفكر المعاصر: بيروت- لبنان، ١٩٩٨م، ص٤٢.

(٣) عبـد الرحمـن دمشقيَّة: الردُّ على شبهاتٍ حـول أخطاءٍ إملائيَّة في القرآن الكـريم، ط١، دار المسلم: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديّة، ٢٠٠٣م؛ ص٧.

(٤) عمـر بـن أحمد بن موسى التميمي الـداري النابلسي الفلسطينـي: كتاب السيف الصقيل في الـردّ على شبهات اليهود والمسيحيِّين حول الإسلام – وهو ردٌّ على الرسالة المسمّاة بالبرهان الجليل على صحَّة التّوراةَ والإنجيل-؛ تحقيق نادي فرج درويش العطار، مركز ابن العطّار للتُّراث: القاهرة- مصر، ٢٠٠٤م.

وعبـد الرحمن حسن حبنكّه الميداني، له كتاب: "أجوبـة الأسئلة التشكيكيَّة الموجَّهة من قبـل إحدى المؤسَّسات التبشيريَّة العاملة تحت تنظيـم الآباء البِيض"؛ والأسئلة المجاب عنها تتعلـق بالحريـة والمساواة وعدم توافرهمـا في تعاليم الإسلام من خلال نمـاذج مختارة.(١) ويمكننـا أن نقول إنّ التعاليـم المستهدفة هي التعاليم المتضمَّنـة في النص القرآني بالدرجة الأولى.

ومنهـا: "فضيحـة المبشِّريـن في احتجاجهـم بالقرآن المبيـن" لعبد الله كنـون مطبوع بالمطبعـة المهديَّـة بتطوان ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م؛ في ٦٣ صفحة. وقد أُعيـد طبعُهُ تحت إشراف المنظّمة الإسلاميَّة للتَّربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو- ويوزَّع ضمن منشوراتها.(٢)

و" أصـول المسيحيَّة من القرآن الكريم" إعداد الباحـث داود على الفاضل؛ قُدِّمت لنيل دبلـوم الدراسات الإسلاميّة العليا من دار الحديث الحسنيَّة بالرباط؛ تحت إشراف العلاَّمة العباس الامراني، في شعبان ١٣٣٩هـ - ١٩٧٣م.

و" القـرآن وتُرُّهات بعضـ المستشرقين"، لعبد الله العمراني. مجلة دعوة الحق، عدد٣، السنـة الحادية عشر؛ شوال ١٣٨٧هـ- ينايـر ١٩٦٨م.(٣) و" البرهان على سلامة القرآن من الزيـادة والنُّقصـان" لمحمّد سعـدي ياسين، مطبعة الوفاء: بيروت- لبنـان، ١٩٣٣م. يقع في ٣٢ صفحـة. و" تنزيـه القرآن الشريف عن التّغيـير والتَّحريف" وهو كتابٌ في الردِّ على بعض المبشّريـن؛ لعبد الباقي سرور (ت ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م) مطبوعٌ في القاهرة. و" تنوير الأذهان في الـردِّ علـى دوائر تحريف القرآن الكريم"، لمحمّد زكيّ الدِّيـن سند؛ مطبوعٌ في مصر سنة ١٣١٣هـ، المطبعـة المحروسة، يقـع في ٣٦٥ صفحة. و" الجواب المَنيـف في الردِّ على مدَّعي التَّحريـف في الكتاب الشريف"، ليوسـف الدجوي، مطبعة النّهضة الأدبيّة: القاهرة- مصر، سنة ١٩١٣م، يقع في ٢٧٧ صفحة. و" الدفاع عن القرآن ضدّ النحويِّين والمستشرقين"، لأحمد مكِّـي الأنصاري، دار المعـارف: القاهرة- مصر، ١٩٧٥م. ألَّفه بسبـب أنّ بعض النحاة أنكر

(١) عبـد الرحمن حسـن حبنكّه الميداني: أجوبـة الأسئلة التشكيكيَّة الموجَّهـة من قبل إحدى المؤسَّسـات التبشيريَّة العاملة تحت تنظيم الآباء البِيض، ط١، مكتبة المنارة: مكة المكرمة- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٩٩١م.

(٢) إبراهيـم الوافي: الدراسـات القرآنيَّة بالمغرب في القـرن الرابع عشر الهجري، ط١؛ مطبعـة دار النجاح: الدار البيضاء- المملكة المغربيّة، ١٩٩٩م، ص١٥٤ إلى ١٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥٤ إلى ١٧٦.

بعض القراءات السَبعيَّة لأنّهم تسرَّعوا بوضع قاعدة قبل التعمُّق في البحث، وفيه الردُّ على المستشرقين الذين اعتمدوا على الجانب الهدّام من آراء بعض النَحْويِّين؛ ودعا إلى تعديل بعض القواعد النحويَّة التي تتعارض مع القرآن الكريم، ممثّلاً في قراءاته السبعيَّة المحكمة. و" القرآن والمبشِّرون" لمحمَّد عزة دروزة، طبع المكتب الإسلامي في ٤٧٦ صفحة. و" القراءات في نظر المستشرقين والملحدين" لعبد الفتاح القاضي، القاهرة ١٩٧٢م. و" محمَّدٌ رسول الله المصطفى في التّوراة والإنجيل والقرآن"، لإبراهيم خليل أحمد؛ دار الطباعة القوميَّة: القاهرة- مصر، ١٩٦٤م.[١]

والأمر يطول في تقصِّي الكتب الكثيرة في الدفاع عن القرآن العظيم ضدّ شبهات المنصِّرين؛ إذ حقُّها أن تفرد بالتأليف، ولا تفي بها هذه الورقات؛ ويكفي ما مضى من التَّمثيل.

(١) علي شواخ إسحاق: معجم مصنّفات القرآن الكريم، (٣/ ١٧٣-٢٧١).

المبحث الثالث

الآفاق المستقبليَّة للدِّراسات القرآنيَّة في مواجهة الشُّبهات التَّنصيريَّة

ينبنــي هذا المبحث على النتائج المتوصَّــل إليها في المبحث السابق؛ بحيث يُثمّن الإيجابي ويُزاد عليه؛ ويُنظر في السلبيِّ فيُخطُّ له منهج التلافي، من أجل ثمرات زكيَّة متطابقة – قدر المستطــاع- مع مراد الله تعــالى فيما ضمَّنه لنا من الهداية في القرآنٍ العظيم؛ وعليه نرى في ضوء ذلك الآتي:

١ - الاعتناء بتعليم علوم القرآن، والسيرة النبويَّة وتاريخ الإسلام وعلومه:

تعلُّــم علوم القرآن كفيــلٌ بوأد الشبهات في مهادها؛ إذ الأصلُ في نشوء الشبهاَت الجهل، أو قلَّــة التعمُّق في العلــوم، أو عدم التمكُّن مــن أدوات القراءة والبحــث ووسائلهما المنهجيَّة. والســيرة النبويَّة هــي الصورة العمليَّة التّطبيقيَّة لتعاليم الإســلام؛ فقد كان رسول الله ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض.

وإنَّ الذيــن قاموا ببثِّ الشُّبهات بالإضافة إلى تنــوُّع المجالات المعرفيَّة التي ينتمون إليها ويحسنونهــا؛ فإنّهــم جميعًا لهم معرفةٌ – تتفاوت في العمق والدقَّــة- بالقرآن الكريم وبتاريخ الإســلام وتاريــخ علومــه؛ إذ قد قــرأوا ذلك قــراءة المستفيد؛ ثــمّ انقلبوا علــى ذلك لاعنين مشوِّهــين. والشبهــات التَّنصيريَّــة في مهاجمتها للسيرة هي تهاجم القــرآن الكريم كمصدرٍ ألَّفه محمَّدٍ ﷺ. وأمَّا محاولات إثبات عدم أصالة العلوم الإسلاميَّة فالغرض منه إثبات فقرٍ القرآن الكريم، وعدم كفايته في التأصيل للعلوم ورسم حدودها... الخ. ولا يمكن بحالٍ متابعة المنصِّرين في شبهاتهم والردُّ عليها إذا أبدى الباحثون ضعفًا في علوم الشريعة الأَصليّة.

٢- الاعتناء بتعليم اللغة العربيَّة:

وذلــك كمفتــاح في تشكُّل الشُّبهة وفي دحضهــا؛ وقديمًا كان لمز القــرآن العظيم في لغته مثــارًا للسخريَّة؛ وأمَّــا عصرنا فهو حافلٌ بتلك الشُّبهات؛ والمشكلةُ هي في عدم معرفة النشء الجديد للغة العربيَّة؛ ومن ذلك ما نبَّه عليه إبراهيم عوض بقوله: " صحيحٌ أنَّنا الآن نميل إلى

إجراء إعرابٍ واحد في كثيرٍ من الحالات؛ لكن الأسلوب القديم الأصيل يتمتَّع بمرونةٍ تفتقدها أساليبنا الحديثةُ التي تراعى فيها القواعد العامَّة عادةً". [1] وأمّا من ناحية البيان، فقد انتهى بنا الزمان إلى من يعظِّم قمامَةً يسمِّيها أدبًا وشعرًا؛ متحرِّرًا من ضوابط اللغة جميعِها التي هي معايير الإبداع حين التأليف فيما بينها؛ ثمّ يأتي بعد ذلك ينتقد لغة القرآن الكريم؛ وقد حضرت في إحدى المرّات جلسةً في مؤتمر دولي؛ تحدَّث فيها أحدهم عن ضرورة التجديد في الشِّعر؛ وجعل ينتقد شعراء من الفحول، و يتعامل معهم كأنَّهم صبيةٌ، وببعض الألفاظ الفظَّة؛ ولكن ما يثير الألم، والسخرية معًا، أنَّه في جميع النماذج الشعرية لأولئك الفحول، كان عاجزًا عن قراءتها من حفظه؛ بل أشنع من ذلك كان عاجزًا عن ضبط الكلمات بإعرابٍ وتصريفٍ سليمَيْن؛ فنحر العربيّة وهو يرى أنَّه يحسن صنيعًا.

وإنَّ الضعف في علوم اللِّسان العربي لدى العامَّة – وأحيانًا لدى الخاصَّة- من شأنه أن يجعل كلَّ شبهةٍ تروج رواجًا عظيمًا؛ وكم من شبهةٍ راجت في زماننا؛ ما كان يمكنُ لأبي جهلٍ وحِزبِه أن يفكِّروا فيها، لعلمهم بوضوح بطلانها.

٣- تحقيق التكامل والتواصل مع جهود السابقين:

إذ لا خير في دارسٍ ولا دراسة، لا تشكر جهد السابق، ولا تستخلص منها الإيجابيَّات لتتمِّمها من بعد تمحيصها وتدبُّرها. ولقد وقفتُ أكثرَ ما وقفتُ على ثمرات ذلك في منهج الشيخ رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي الهندي؛ في كتابه الفريد: " إظهار الحق"؛ حيث قام رحمه الله تعالى قبل مناظرة النَّصارى، وقبل الردِّ على شبهاتهم بالاضطلاع على كلِّ ما وصلت له يداه من كُتُبِ الأوَّلين إلى كتب معاصريه من المسلمين ممَّن تصدّوا للردِّ على المنصِّرين؛ وهو ما أكسب كتابَهُ قوَّةً علميَّةً بارزةً؛ إضافةً إلى خصائص منهجيَّة قام بتوظيفها.

ويلحق في هذا المضمار الإفادةُ من الذين هداهم الله تعالى إلى الإسلام بعد تجارب مع النّصرانيّة أو التنصير؛ كمحمَّد علي صاحب كتاب: " الأقوال الجليّة في بطلان كتب اليهوديَّة والنَّصرانيَّة" وممَّا قاله فيه: إنِّي أحمد الله فإنَّه كفل لي بهذه المدَّة أن علمتُ ودرستُ عن كثبٍ مراوغةَ المبشِّرين، ورجال الكنيسة – ولا يُنبِّئُك مثلُ خبيرٍ- وقرأتُ كثيرًا من كتبهم، وتعاليمهم؛

(١) – إبراهيم عوض: عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشِّرين، ص٤٣.

واشتغلتُ بهذه المهنة – مهنة التَّبشير- وقتًا طويلًا في أَسوانَ وغيرها من البلدان؛ وإنِّي أصارحُ حضرات القرّاء بأنّها كانت ضربًا من التّمويه والتَّضليل، لا أقلّ ولا أكثرَ.[1]

٤- توجيه الجهود نحو رصد المُنتَج التّنصيري في مختلف أشكاله.

إذ إنّه إذا كان الردُّ على الشبهات واجبًا؛ فلا إمكانيَّة للردِّ على مجهول؛ بل ينبغي رصد الشُّبهات، ودراسة أسباب تشكُّلها، ومختلف مظاهرها؛ ودراسة البيئة التي ظهرت فيها أو أظهرتها؛ ولغة عرضها وأسلوبه؛ ومنهج الاحتجاج لها... الخ.

ولا بدَّ من أخذ شبهاتهم على محمل الجديَّة؛ فالشبهة بالنِّسبة إلى العالم غير الشبهة عند العامِّيِّ؛ يقول الشيخ محمّد رشيد رضا: قد كنّا نهزأ بما ينشُرُهُ دعاةُ النّصرانيَّة من الطعن في الإسلام؛ إذ كنَّا نرى المسلمين لا يُلقون له بالًا. وما لبثنا أن سُئلنا عن بعض شبهاتهم من أحد المطّلعين على منشوراتهم، فوجب علينا شرعًا أن نجيب.[2] ومن قَبْله عبدُ الرحمن الجزيري قال: إنّي قد كنت أمرُّ على هذه المطاعن بدون اكتراث ولا مبالاة، لأنَّني لم أظفر منهم برجلٍ مفكِّرٍ أتى بنظريات تستحقُّ العناية، أو تستفزُّ عاقلاً إلى البحث فيها، والردِّ عليها. على أنَّ هذه المؤلّفات قد طغت في العهد الأخير طغيانًا كبيرًا؛ وخرج بعضها عن الأدب في جرأة تُثير غضب الحليم.[3] وإذا كانت النار من مستصغر الشرر؛ فإنَّه من المقرَّر "أنَّ كثافة المعلومات - بغضِّ النَّظر عن مصداقيَّتها- وأسلوبَ الكاتب يؤهِّلان آراءَهُ للرواج لدى القرّاء ذوي الثقافة الإسلاميَّة المحدودة".[4]

٥- الاعتناء بتتبِّع تاريخ الجدل التّنصيري.

فتتبُّع المنتج التّنصيري يَكمُل بتتبُّع الحركات التَّنصيريَّة وتاريخها؛ لأنَّه يُبيّن لنا كيف يقوم المنصِّرون بتغيير خِططهم، وأساليبهم، وتوظيف معارفهم؛ كما يُساعدنا ذلك في

(١) - محمَّد علي (المبشِّر الإنجيليُّ سابقًا) : الأقوال الجليّة في بطلان كتب اليهوديَّة والنَّصرانيَّة؛ ط١، مطبعة المنار: القاهرة- مصر، (دت)، ص٧.

(٢) - محمَّد رشيد رضا: شبهات النَّصارى وحجج الإسلام؛ ط٢، دار المنار، ١٣٦٧هـ؛ ص د.

(٣) - عبد الرحمن الجزيري: أدلَّة اليقين في الردِّ على مطاعن؛ ص٨.

(٤) - منذر الأسعد: إسلام آخر الزمن – تفنيدٌ علميٌّ شامل لأباطيل المستشرقين والمتغرِّبين التي سرقها حسين أحمد أمين-؛ ط٢، مكتبة العبيكان: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٩٩٧م، ص٧. ومن ميزات ردوده أنَّه يبيِّن السلف في القول بالشبهة؛ وعدم أصالتها في فكر الكاتب.

الوقـوف على إفادة بعضهم من بعض في تتبُّعهم للدراسات القرآنيَّة وإلقاء الشُّبهات. ويمكن القـول عن هـذا التاريخ بأنّـه لا خلافَ على ريادة يوحنـا الدمشقي للجـدل التَّنصيري ضدَّ الإسـلام؛ وجدليّاتُـهُ ضد القرآن هي الأهـمُّ في تاريخ الجدل التَّنصيري ضـدَّ القرآن؛ حيث وضع الدمشقيُّ آراءَهُ في قوالب جدليَّةٍ مكثَّفة، أصبحت ركيزة الجدل التَّنصيري في كلِّ أدواره ومراحله التالية.[١]

وأوَّلُ هجوم مفصَّلٍ على القرآن كان في أعمال "نيكيتاس البيزنطي" في مقدِّمة كتاب: " نقـد الأكاذيب الموجودة في كتاب العرب المحمَّديِّـين"... ولكن أكبر هجوم جدليٍّ على القرآن والإسـلام هـو ما قام بـه إمبراطور بيزنطـة: " جان كنتاكوزيـن" في كتابَيْـه: " ضدَّ تمجيد الملَّـة المحمَّديَّة" و" ضدّ الصَّلوات والتراتيـل المحمَّديَّة"؛ كان هذا الهجوم في الشرق، وباللغة اليونانيَّة.[٢]

وبفتـح القسطنطينيَّـة، توقَّف الهجـوم البيزنطي على القـرآن والإسـلام؛ وتولَّت أوربا المسيحيَّـة الأمـر من بعـدُ. فبدأ الكاردينـال " نيقولا دي كـوزا" (١٤٠١م- ١٤٦٤م) مسيرة الهجـوم الجديدة؛ وكان بتوجيه من البابا " بيوس الثـاني". كتب نيقولا كتاب: " نقد وتفنيد الإسـلام"؛ وكذلـك رسالـة هجاءٍ في القـرآن، تحت عنـوان: " غربلة القـرآن". وقسم هذه الرسالة إلى ثلاثة كتب: في الكتابِ الأوّل زعم إثبات حقيقة الإنجيل استنادًا إلى القرآن؛ وفي الكتاب الثاني عرضٌ وتوضيحٌ للمذهب الكاثوليكي؛ وفي الكتاب الثالث زعمٌ بعض التناقضات في القرآن. وقد نَشَرت هذه الكتب مطبعة بلياندر في بال بسويسرا سنة ١٥٤٣م.[٣]

ولكـن أشدُّ الكتب هجومًا على القـرآن والإسلام، ما كتبه " لوودفيجو مراش" (١٦١٢-١٧٠٠م) في كتاب: " عالم النّص القرآني" نُشر في بادوا سنة ١٦٩٨م.[٤]

(١) عبـد الراضي بـن محمَّد عبد المحسن: الغـارة التَّصيريَّة على أصالـة القرآن الكـريم، (لا معلومات أخرى عن النشـر، والظاهـر أنّـه مطبوعٌ مع بحثٍ آخر، لأنَّـه يبتدئ من ص١١٤ وينتهي عند صـ ٢٦٩؛ حيث اعتمدتُ على نسخةٍ مصوَّرة). ص١٣٧.

(٢) عبـد الرحمن بـدوي: دفاعٌ عن القرآن ضدّ منتقديـه، ترجمة كمال جاد الله، ط، الـدار العالمية للكتب والنشر، ص٥.

(٣) المرجع نفسه، ص٥-٦.

(٤) المرجع نفسه، ص٦. بتصرُّفٍ بسيط.

وفي رأيي كذلك أنّ من الكتب ذات الأثر التّنصيري البارز في عالمنا المعاصر، كتاب "ميزان الحق"؛ وهو كتابٌ قديمٌ ألَّفه قسِّيسٌ يقال له الدكتور: "فندر". ولعلَّ هذا الكتاب هو الينبوع الذي منه يستقي المبشِّرون مطاعنَهم في الإسلام.[1] وكتاب رحمت الله الهندي: "إظهار الحق"، هو في الردِّ على هذا الكتاب.

٦- توجيه الدراسات القرآنيّة وضبطها منهجيًّا:

إذ إنّ الجهود التَّنصيريّة تمتاز بالتنظيم والتوجيه والانضباط بخطط؛ بغضّ النظر عن نبل الغاية أو حقارتها؛ فلا بدّ أن تكون الدراسات القرآنيّةُ المنشغلة بردِّ الشّبهات التّنصيريّة منضبطةً منهجيًّا؛ ويمكن أن نوجه بعض الملاحظات في ذلك كالآتي:

- إذا كان المرء يريد أن يجعل لنفسه ولغيره مناعةً فكريَّةً ضدَّ الشُّبهات، فعليه أن يكون بعيداً عن العمومات، وعن الإبهامات، وعن إطلاق الاتِّهامات جزافاً؛ وعن الإطنابات والتَّطويلات المملَّة، التي تترك جوهر الشُّبهة، وتطيل النَّفَسَ في هوامشها. حتَّى إنَّنا لنجد كلاماً في ردِّ شبهة معيَّنة تكون نتيجتُه تثبيت الشُّبهة في ذهن من وقعت فيه؛ أو إثارة لشبهاتٍ أخرى لم تكن واردةً أصلاً في الشُّبهة محلِّ الرَّدِّ.

- ضرورة ردِّ فروع الشبهات على أصولها: إذ لا يمكن الردُّ على المهاجمين كتابًا كتابًا؛ بل ينبغي ردُّ فروع الشبهات على أصولها؛ واعتماد التنظير، ومناقشة الشبهة لتصدق على نظريات عديدة؛ ونوافق تمامًا قول عبد المجيد النجّار: "رأيتُ أنَّ ما أُثير بالأمس من قبل المسيحيِّين ممَّا فيه انتصارٌ لعقيدتهم، وانتقاصهم للإسلام، هو الذي يُثار اليوم، وإن تغيّر الأسلوب، وتطوَّر المنهج".[2]

- ضرورة التنبُّه لخبث الشبهات التّنصيريّة؛ التي ترتضي للمسلم أن يصير كائنًا لا صلة له بالدِّين والأخلاق، على أن يبقى على إسلامه إن لم يختر النّصرانيَّة. وفي هذا يقول الشيخ محمَّد رشيد رضا: ولا أخاف على المسلم أن يكون نصرانيًّا؛ وإنّما أخاف أن يشكّ في أصل الدِّين

---

(١) - عبد الرحمن الجزيري: أدلَّة اليقين في الردِّ على مطاعن المبشِّرين، ص٨.

(٢) - أبو عبد الله محمّد بن عمر فخر الدِّين الرَّازي: مناظرةٌ في الرّد على النَّصارى، تحقيق عبد المجيد النجَّار، (دط)، دار الغرب الإسلامي: بيروت- لبنان، ١٩٩٦م، ص١١. والمناظرة طرفٌ منها مبثوثٌ في التفسير الكبير.

المطلقِ، فيكونَ إباحيًّا؛ فإنَّه مهما عبثت به رياح الوثنيَّة، لا يصرِّح كالنَّصارى لغير الله بالألوهيَّة.[1] ولذلك يحتاج المناقش لشبهاتهم إلى الترفُّق في الخطاب؛ وتقدير عواقب الأمور.

– ضرورة أن تكون الردود على الشبهات متوافقةً مع بيانها والتوضيحات المتعلِّقة بها؛ فلا ينبغي أن يكون عرض الشبهات تفصيليًّا، والردود مختصرةً؛ ومن أمثلته ما انتقده كثيرٌ على الجاحظ في كتابه: " المختار في الردِّ على النّصارى" من توضيح الشبهة واختصار الإجابة، والسكوت عن بعض معالم الشبهة. كما ينبغي أن لا تُشهّر الشبهةُ؛ بل ينبغي معالجتها بحسب البيئات التي ظهرت فيها. فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي رحمهما الله تصنيفه في الردِّ على المعتزلة؛ فقال الحارث: الردُّ على المبتدعة فرضٌ. فقال أحمد: نعم؛ ولكن حكيت شبههم أوَّلاً، ثمَّ أجبت عنها؛ فبم تأمن أن يطالع في الجواب، أو ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟ وما ذكره أحمد رضي الله عنه حقٌّ، ولكن في شبهة لم تشتهر ولم تنتشر؛ فأمّا إذا انتشرت فالجواب عنها واجبٌ، ولا يمكن الجواب عنها إلاَّ بعدَ الحكاية. نعم ينبغي أن لا يتكلَّف لهم شبهةً لم يتكلَّفوها[2].

٧- الاعتناء بعلم مقارنة الأديان بضوابطه الإسلاميَّة:

حيث إنّ دراسة الديانات، سواء منها الكتابية أو الوثنيَّة دراسةً علميَّة موضوعيّة، من شأنه أن يزوِّد الباحث في الدراسات القرآنيَّة بمادَّة علميَّة غزيرة ونافعة إلى أبعد حدٍّ في مجادلة الآخر بالتي هي أحسن. وتفيدنا كذلك تحديدًا في بيانٍ صدق ما ورد في القرآن الكريم للنَّاس؛ فيزداد الذين آمنوا إيمانًا؛ ويهتدي غيرهم أو يهلكَ عن بيِّنة. ومن جهة ثالثة نبيِّن لكلِّ من يروم التشكيك في كلِّ ما يتعلَّق بالقرآن الكريم، أنَّه أبعد النَّجعة؛ ولو وجّه عُشرَ ما وجَّهه في شبهاته إلى كتاب أهل ملَّته لزال من الوجود.

٨- تنظيم الجهود نحو المعجمات والموسوعات:

إذ لها منهجيّةٌ خاصَّةٌ؛ وجهدٌ متكاثفٌ بين العديد من الباحثين الأخصَّائيِّين؛ كما تكون الإفادة من قراءتها عظيمة؛ ومن النماذج الناجحة: " موسوعة بيان الإسلام – الردُّ على الافتراءات

(١) – محمَّد رشيد رضا: شبهات النَّصارى وحجج الإسلام؛ ط٢، دار المنار، ١٣٦٧هـ؛ ص ج.

(٢) – أبو حامد محمد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق سعد كريم الفقي، (دط)؛ دار ابن خلدون: الإسكندرية–مصر، (دت)، ص٢٨.

والشُّبهات-" ويمكن القول إن نصف مجلَّداتها حول الشبهات التّنصيريّة القرآنيّة؛ وفي الجزء الأوَّل من الموسوعة حديثٌ عن الشُّبهات التي تولى الإجابة عنها القرآن أصالةً، كدعوى اتِّخاذ الله الولد، وأنَّ الملائكة بنات الله، أو أنّ في ضرب الله الأمثال بالشيء المحتقر كالبعوضة والذباب مُنقصةٌ من قدره ونحوها؛ ومجموع ما سيق في هذا ثنتان وسبعون شبهةً. وفي الجزء الثاني الكلام عن الشُّبهات المتعلِّقة بلغة القرآن العظيم، وفيه إحدى وستُّون شبهةً مع ملحقٍ في دعوى ضرورة إحلال اللهجات العاميّة محلّ اللغة العربيّة الفصحى لعجزها عن مواكبة مستحدثات العصر؛ وملحقٍ آخر في كمال اللغة العربيَّة؛ وهما ملحقان تمّما الفائدة والانتفاع والمقصود. وفي الجزء الحادي عشر معالجة الشبهات المتعلّقة بتاريخ القرآن الكريم: حول مصدره وجمعه؛ وحول النَّاسخ والمنسوخ منه؛ والمكِّي والمدني؛ وتعدُّد القراءات فيه؛ وأمورٍ تتعلَّق بأسلوبه كالقصص القرآني؛ وخُتمت الشبهات السبع والثلاثون بالكلام عن دعوى تشابه مضامين القرآن مع التّوراة والإنجيل. ثمّ فيما يشبه الملحق تحدَّثوا عن: "قالوا عن القرآن" فيه شهاداتٌ لمستشرقين، أو مهتدين إلى الإسلام بعد التعمُّق في درس القرآن العظيم (كالقسِّ المبشِّر إبراهيم خليل أحمد – أسلم سنة ١٩٥٩م-)؛ ونحوهم؛ وهي اقتباساتٌ من كتاب "قالوا عن القرآن" للدكتور عماد الدِّين خليل. ثمّ في الجزء الثاني عشر حديث عن شبهاتٍ حول عصمة القرآن الكريم وكماله؛ محصِّلها ستٌّ وثمانون شبهةً.(١)

(١) - نخبة من كبار العلماء بإشراف عام من داليا محمّد إبراهيم: موسوعة بيان الإسلام – الردُّ على الافتراءات والشُّبهات-؛ ط١، دار نهضة مصر: القاهرة- مصر، ٢٠١٢م.

خاتمة

في ختـام هذا البحث؛ يجمُلُ بنـا التذكير بأهمِّ النتائج التي تضمَّنها هذا البحث، وذلك كالآتي:

- القرآن الكريم حبل الله المتين، صدقٌ كلُّه، لا يأتي الثقلان بمثله؛ ولا يثبُتُ أمامَهُ التّشغيبُ والتَّشبيه والتلبيس، وإن كان بعض الخلق لبعض ظهيرًا؛ وليس فيه لَبْسٌ؛ وما يعتقده بعضهم كذلك فهو باعتبار فهم الخلق، لا باعتبار بيان الخالق.

- التَّنصير نشاطٌ كنسيٌّ امتزجت فيه مختلف الأغراض بين الدِّينيَّة والدنيويَّة؛ وهو ذو نهج عمليٍّ أكثر منه علمي؛ ولذلك يستمدُّ مادَّته العلميَّة في إثارة الشبهات اتُّجاه الإسلام مـن كتب المستشرقين على اختلاف مللهم ونحلهم ومذاهبهم؛ مع العلم أنَّ الاستشراق في منشئـه كان في أحضان الكنيسة، ومن قِبَـلِ رجالاتها؛ ولذلك في أغلب الأحيان يكون الجواب عن الشبهات التَّنصيريَّة، جوابًا عن الشبهات الاستشراقيَّة.

- مجمل الشبهات التي يثيرها النَّصـارى حول القرآن الكريم غايتها إنكار الإسلام: دينًا وكتابًا ونبيًّا؛ وهي تدور حول الطعن في الوحي وصدقه؛ فيشكِّكون – وغرضهم الإنكار – في أن يكون المنزل للوحي الله رب العالمين، ويشكِّكون في الـمُنزَلِ عليه؛ ويشكِّكون في الـمُنزَل وهو القرآن العظيم شكلاً ولغةً وتعاليمَ.

- عنـد التدقيق والتمحيص للشبهات التّنصيريَّة – بل وغيرهَـا كذلك – نجد مادَّتها في الكتب الإسلاميَّة مع أجوبتها؛ فما يقومون به هو فقط إظهار التساؤل وتزيينُهُ في شبهة أو شبهـات؛ مع قطع السبيل عن أجوبتها ومناقشتها؛ وبخاصَّة أنَّهم يجادلون في الغالب الأعمِّ عامَّةَ المسلمين لا خاصَّتَهم؛ بعكس علماء المسلمين حين خاطبوا ويخاطبون الأكفاء من نظرائهم.

- المؤلّفات من الدراسات القرآنيَّة قديمها وحديثها ممَّن عالجت شبهات تنصيريَّة تدعوا إلى الرضـا إلى حـدٍّ بعيدٍ؛ وندعـوا الله أن يجزي أصحابها خـير الجزاء، ويثيبهم بما

عملـوا جنَّات وأنهارًا. فكتب علوم القرآن والدراسـات التابعة لها مهّدت لكلِّ إجابة عن أيِّ شبهـة تتعلَّق بالقرآن العظيم. والكتبُ التي وُضعت في الردود على النَّصارى ودينهم عالجـت الشبهات وعالجت أمراض مطلقيها؛ وبيّنت أنَّ النّصارى أولى أن تصدق أكثر تلك الشبهات على دينهم الـذي بدَّلوه. والدراسات التي عالجت شبهات بعينها مزجت بين عرض ما هو في كتب علوم القرآن ابتداءً، وإزالة الإلباس ثانيًا، والردِّ على المشبِّهين ودينهم ثالثًا.

- استشرافنا ونظرتنا إلى آفاق الدراسات القرآنيّة حول الشبهات التَّنصيريَّة؛ قائمةٌ على تثمـين الدراسات السابقـة، والإفادة منها إلى أبعد حدٍّ، مع تتميمها، وذلك بالتكيُّف مع المعطيات التي يمكن أن نحصل عليها من خلال تتبُّع المنتج التّنصيري في أشكاله كافَّةً: ورقيًّـا، وإلكترونيًّا، وسمعيًّا وبصريًّا؛ ووفق مختلف اللغات التي يكتب بها أصحابها. مع الدعوة إلى ضرورة إيجاد مؤسّسات ترعى تلك الجهود، وتوحِّد بينها لتحقيق الأهداف المشتركـة. وكذا نوصي بالاهتمام بإصدار الموسوعات العامَّـة والخاصَّة في هذا المجال؛ ووضع المختصرات، ومفاتيح البحث في الردود الإسلاميّة قديمها وحديثها؛ حتَّى تُذَلل كلُّ السبل أمام من وقع في شبهات المنصِّرين – وما أكثر منافذها– بحيث يجد الطريق إلى تبديدها وإزالتها.

قائمة المصادر والمراجع

١. الشاهد البوشيخي: أولويَّات البحث العلمي في الدراسات القرآنيّة؛ نُشر بواسطة الجمعية العلميَّة السعوديَّة للقرآن الكريم وعلومه "تِبيان"؛ اللقاء العلمي ٥٧.

٢. ابن منظور: لسان العرب، (دط)، دار المعارف (دب)، (دت).

٣. مجد الدّين الفيروزآبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز؛ (دط) المكتبة العلمية: بيروت- لبنان، (دت).

٤. بدر الدِّين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر، (دب)، ١٩٨٠م.

٥. جلال الدين السيوطي :الإتقان في علوم القرآن (وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني)، (دط)، دار المعرفة: لبنان، (دت).

٦. أبو عبد الله الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (لا معلومات أخرى للنشر).

٧. عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، ط١، دار سعد الدّين: دمشق – سوريا، ٢٠٠٠م.

٨. إسماعيل بن حمّاد الجوهري: الصّحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، ط٣، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ١٩٨٤م.

٩. محمّد بخيت المطيعي: سلّم الوصول لشرح نهاية السّول؛ (مطبوعٌ مع نهاية السول في شرح منهاج الأصول للبيضاوي).

١٠. علاء عبد العزيز بن أحمد البخاري: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، (دط)، دار الكتاب الإسلامي: القاهرة- مصر.

١١. موسى إبراهيم الإبراهيم: بحوث منهجية في علوم القرآن؛ ط٢، دار عمّار: عمّان- الأردن، ١٩٩٦م.

١٢. غازي عناية: هدى الفرقان في علوم القرآن، (دط)، دار الشهاب: باتنة- الجزائر؛ ١٩٨٨م.

١٣. شعبان محمّد إسماعيل: دراسات حول القرآن والسنّة، ط١، مكتبة النّهضة المصرية: القاهرة- مصر، ١٩٨٧م.

١٤. مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ت خليل مأمون شيحا؛ (ط٢)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، ٢٠٠٧م.

١٥. عبد الحميد الفراهي: مفردات القرآن - نظراتٌ جديدة في تفسير ألفاظ قرآنيَّة-؛ تحقيق محمد أجمل أيوب إصلاحي، (ط١)، دار الغرب الإسلامي: بيروت- لبنان، ٢٠٠٢م.

١٦. صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، أعاد النظر فيه من النَّاحية المسكونيَّة الأب جان كوربون، (ط١)، دار المشرق: بيروت- لبنان، ١٩٩٤م.

١٧. أحمد بن محمّد بن علي الفيُّومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، ١٩٨٧م.

١٨. جوناثان هيل: تاريخ الفكر المسيحي؛ ترجمة سليم اسكندر، ومايكل رأفت، ط١، مكتبة دار الحكمة: القاهرة- مصر٢٠١٢م.

١٩. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم المقاييس في اللغة؛ ت شهاب الدّين أبو عمرو؛ (دط)، دار الفكر: بيروت- لبنان، (دت).

٢٠. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزَّمخشريُّ: أساس البلاغة؛ تحقيق محمَّد باسل عيون السُّود، (ط١)، دار الكتب العلميَّة: بيروت- لبنان، ١٩٩٨م.

٢١. علي بن محمَّد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، مكتبة لبنان: بيروت- لبنان، ١٩٨٥م.

٢٢. محمّد علي التهانوي: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ت علي دحروج، ترجمة فارسية: عبد الله الخالدي، ترجمة أجنبية جورج زيناتي، إشراف ومراجعة: رفيق العجم؛ (ط١)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ١٩٩٦م.

٢٣. محمَّد رشيد رضا: شبهات النَّصارى وحجج الإسلام؛ ط٢، دار المنار، ١٣٦٧هـ.

٢٤. محمَّد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنيّة، ط١، دار المؤرِّخ العربي: بيروت- لبنان، ١٩٩٩م.

٢٥. روث أ. تكر: إلى أقصى الأرض – تاريخ الكرازة بالإنجيل بدايةً من عصر الرسل حتَّى وصولها إلى أقصى الأرض-؛ (دط)، ترجمة وجدي وهبه، ومريانا كتكوت، رؤية للطباعة، (دب)، ٢٠١٣م.

٢٦. علي شواخ إسحاق: معجـم مصنّفات القرآن الكريم، ط١، دار الرفاعي: الرياض- المملكة العربيّة السعوديَّة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢٧. عبـد الرحمـن بدوي: دفـاعٌ عن القرآن ضـدّ منتقديـه، ترجمة كمال جـاد الله، ط، الدار العالمية للكتب والنشر.

٢٨. أبو موسى الحريري: أعربيٌّ هو؟ بحثٌ في عروبة الإسلام، بيروت- لبنان، ١٩٨٤م.

٢٩. عبـد الراضي بن محمَّد عبـد المحسن: الغـارة التَّصيريَّة على أصالة القـرآن الكريم، (لا معلومات أخرى عن النشر).

٣٠. عبـد الرحمن الجزيـري: أدلَّة اليقين في الـردِّ على مطاعن المبشِّريـن – دحض لـ: ميزان الحـق، وتنوير الأفهام، ومقالة في الإسلام، وغيرهـا-؛ (دط)، منشورات أسمار: باريس- فرنسا، ٢٠٠٧م.

٣١. عمـر بن أحمد بن موسى التميمي الداري النابلسـي الفلسطيني: كتاب السيف الصقيل في الردّ على شبهات اليهود والمسيحيِّين حول الإسلام – وهو ردٌّ على الرسالة المسمّاة بالبرهان الجليـل على صحَّة التّوراة والإنجيل-؛ تحقيق نادي فرج درويش العطار، مركز ابن العطَّار للتُّراث: القاهرة- مصر، ٢٠٠٤م.

٣٢. سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي: مقدِّمة تحقيق كتاب " باهر البرهان في معاني مشكلات القـرآن" – تأليف العلَّامة محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري الغزنوي الملقّب بـ " بيـان الحـق"-؛ رسالة ماجستـير مطبوعة: جامعـة أم القرى، معهد البحـوث العلميَّة وإحياء التُّراث الإسلامي، ١٩٩٧م.

٣٣. أبو العبَّاس تقيّ الدِّين أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة الحرَّاني: الجواب الصحيح لمن بدَّل ديـن المسيـح؛ تحقيق علي بن حسن بن ناصر، عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، حمدان بن محمَّد الحمدان؛ ط٢، دار العاصمة: الرياض- المملكة العربيّة السعوديَّة، ١٩٩٩م.

٣٤. الحسينـي الحسينـي معـدِّي: الأجوبـة الجليَّة في الـردِّ علـى الأسئلة المسيحيَّـة – شبهات النَّصـارى حول الرسـول ﷺ-؛ (ط١)؛ دار الكتـاب العربي: دمشق- سوريـا؛ القاهرة- نصر، ٢٠٠٧م.

٣٥. إبراهيـم عوض: عصمة القرآن الكريم وجهـالات المبشِّرين، (دط)، مكتبة زهراء الشرق: القاهرة- مصر، ٢٠٠٥م.

٣٦. محمَّد جمعة عبد الله: ردُّ افتراءات المبشِّرين على آيات القرآن الكريم، ط١، (لا معلومات أخرى)؛ ١٩٨٥م.

٣٧. أحمد عمران: الحقيقة الصعبة في الميزان – مناقشةٌ وردودٌ–؛ ط٢، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات: بيروت– لبنان، ١٩٩٥م.

٣٨. أبو عبد الله محمّد بن عمر فخر الدِّين الرَّازي: مناظرةٌ في الرّد على النَّصارى، تحقيق عبد المجيد النجَّار، (دط)، دار الغرب الإسلامي: بيروت– لبنان، ١٩٩٦م.

٣٩. فضل حسن عبَّاس: قضايا قرآنيَّة في الموسوعة البريطانيَّة – نقد مطاعن، وردُّ شبهاتٍ–؛ (دط)، دار البشير: عمّان– الأردن، (دت).

٤٠. عمر بن أحمد بن موسى التميمي الداري النابلسي الفلسطيني: كتاب السيف الصقيل في الردِّ على شبهات اليهود والمسيحيِّين حول الإسلام – وهو ردٌّ على الرسالة المسمّاة بالبرهان الجليل على صحَّة التّوراة والإنجيل–؛ تحقيق نادي فرج درويش العطار، مركز ابن العطَّار للتُّراث: القاهرة– مصر، ٢٠٠٤م.

٤١. إبراهيم الوافي: الدراسات القرآنيَّة بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري، ط١؛ مطبعة دار النجاح: الدار البيضاء– المملكة المغربيّة، ١٩٩٩م.

٤٢. مصطفى بن عبد الله: الدراسات القرآنية في عصر العولمة، ورقة مقدّمة في المؤتمر الدولي حول: دور الدراسات الإسلاميَّة في المجتمع العولمي (٢١–٢٣ ديسمبر ٢٠١٠م) كلِّية الدراسات الإسلاميَّة– جامعة الأمير سونجكلا، فرع فطاني/ جنوب تايلند.

٤٣. شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشِّرين، دار الفكر المعاصر: بيروت– لبنان، ١٩٩٨م.

٤٤. عبد الرحمن دمشقيَّة: الردُّ على شبهاتٍ حول أخطاءٍ إملائيَّة في القرآن الكريم، ط١، دار المسلم: الرياض– المملكة العربيَّة السعوديّة، ٢٠٠٣م.

٤٥. عبد الرحمن حسن حبنكَّه الميداني: أجوبة الأسئلة التشكيكيَّة الموجَّهة من قبل إحدى المؤسَّسات التبشيريَّة العاملة تحت تنظيم الآباء البِيض، ط١، مكتبة المنارة: مكة المكرمة– المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٩٩١م.

٤٦. منذر الأسعد: إسلام آخر الزمن – تفنيدٌ علميٌّ شامل لأباطيل المستشرقين والمتغرِّبين التي سرقها حسين أحمد أمين-؛ ط٢، مكتبة العبيكان: الرياض- المملكة العربيَّة السعوديَّة، ١٩٩٧م.

٤٧. نخبة من كبار العلماء بإشراف عام من داليا محمّد إبراهيم: موسوعة بيان الإسلام – الردُّ على الافتراءات والشُّبهات-؛ ط١، دار نهضة مصر: القاهرة- مصر، ٢٠١٢م.

٤٨. أبو حامد محمد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق سعد كريم الفقي، (دط)؛ دار ابن خلدون: الإسكندرية- مصر، (دت).

٤٩. محمَّد علي (المبشِّر الإنجيليُّ سابقًا): الأقوال الجليّة في بطلان كتب اليهوديَّة والنَّصرانيَّة؛ ط١، مطبعة المنار: القاهرة- مصر، (دت).

٥٠. l-cl. FILLION، Sainte Bible، Letouzey et Anne editeurs، Paris- France، 1901.

٥١. La Grande Encyclopedie، Librairie Larousse ،paris- France 1982.

٥٢. Encyclopedia Universalis، France 1996.

٥٣. L'abbé H. LESETRE، La Clef Des Evangiles، Lethielleux libraires – editeur، Paris-France.

٥٤. R.P.DECARRIERE Sainte Bible (et les commentaires de Menochius Jouby، Libraire (et autres)، Pari- France.

٥٥. Jean- Yves Lacoste Editor، Encyclopedia of Christian Thelology ، Routledge، New York، London، 2005.

٥٦. Voir، Encyclopedia Universalis، "MISSION" ، Article ecrit par ، Jean BAUBEROT، Henry DUMERY، Antonin Marcel Henry، (CD).

٥٧. Publié sous la direction de A. Robert et A.Tricot، Initiation Biblique، Introduction a l› étude des sainte écritures، société de Saint Jean l ‹ evangiliste imprimeurs du saint siége et de la sacrée congregation des rites ، Paris- France.

الإرهاب الفكري وعلاجه في ضوء القرآن الكريم

المحور الخامس: توظيف الدراسات القرآنية في علاج مفهوم الإرهاب وتطوره

المؤتمر الدولي القرآني حول توظيف الدراسات القرآنية

في علاج المشكلات المعاصرة

الدكتور محمد إقبال فرحات

كلية الشريعة جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرع لنا مايحفظ أمننا وعقلنا، نحمده سبحانه وتعالى الحمد كله، ونستغفره ونستعينه، فهو أهل الحمد وأهل المغفرة. ونصلي ونسلم على عبده ورسوله سيد المرسلين محمد بن عبد الله الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فإن الإرهاب الفكري تظهر خطورته في أنه يهدد الأمة في أساس وجودها واستمرارها في أداء رسالته في الشهادة على الناس، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٧٨].

ولاشك بأن نقيض الإرهاب-الأمن- من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده، وتكفل له به لمن أخذ بالإسلام وطبقه بالسعادة، والعزة، والنصرة والتمكين فرداً كان أم جماعة، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[النور: ٥٥]

ولا يمكن علاج بذرة الإرهاب إلا بالوقوف على أسبابه، ومعرفه دوافعه ومحاضنه، ولذا ارتأيت المشاركة بورقة بحثية في مؤتمركم العامر بعنوان الإرهاب الفكري وعلاجه في ضوء القرآن الكريم، خاصة ونحن نشهد في هذه الأيام استفحال وتعملق ظاهرة الإرهاب في كل أنحاء العالم؛ من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، ولم تعد هذه الظاهرة تصيب الدول الرخوة أمنياً؛ كالعالم العربي والإسلامي، بل صارت الدول المتقدمة والمحصنة أمنياً عرضة لهذه الظاهرة من مثل أسبانيا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وتركيا وقبلهما تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا.

ولاشك بأن" ظاهرة الإرهاب قديمة قدم العلاقات الإنسانية على وجه الأرض، وقد سجل القرآن الكريم أول عمل إرهابي ظهر على وجه الأرض وهو ما حصل بين ابني آدم،

عندما قتل قابيل أخيه هابيل بسبب الغيرة والحسد، قال تعالى:﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[المائدة: ٢٧ - ٣١]، فهذه أول حادثة يتمثل فيها أول عمل يحتسب من الإرهاب في مفهومه الواسع، فالارهاب مرتبط بوجود علاقات اجتماعية بين بني البشر، ويزداد وينقص حسب اتساع دائرة العلاقات الإنسانية أو تقلصها، وحسب احتدام الصراع بين الخير والشر، والحق والباطل. ولم يخل زمن من الأزمان، أو عصر من العصور، من شذوذ في تصرفات الإنسان وسلوكه، فردا كان أم جماعة، بل وجد من يتمرد على السلطة ويبغي على السلطان من الناقمين على المجتمع الذي يعيشون فيه، وذلك بالخروج على نظمه وقوانينه، لأسباب شتى وأهداف متعددة، تسوغ لهم- من وجهة نظرهم- ما يقولون وما يفعلون، ويعتبر إبليس أول مخلوق يمارس الإرهاب الفكري عندما رفض السجود لآدم المخلوق من طين، ومارسه مع آدم وذريته بالاحتناك[1] كماقال تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾[الإسراء: ٦١ - ٦٥].

ومن المعلوم أن هذه الظاهرة العالمية بدايتها بذرة فكرية، تلاقحت عبر سلسلة من التفاعلات والمطارحات الفكرية إلى أن أصبحت عقيدة لها أنصار ومعتنقين يدافعون عنها، ويبذلون أرواحهم وأموالهم في سبيل نشرها.

ومن هنا تأتي أهمية عقد المؤتمرات والندوات لرصد هذه الظاهرة، وتقديم الحلول الناجعة، التي تساهم في وأدها في مهدها، قبل أن تستفحل ويصعب مكافحتها وإخمادها.

(١) أيْ أُغْوِيهِمْ كُلَّهُمْ، كَمَا يُسْتَأْصَلُ الشَّيْءُ، إلاَّ قَليلًا. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ص ٢٨٦، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، طبع دار الفكر، بيروت، ط١ ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

ولا شك بأن الإرهاب الفكري هو المنطلق للإرهاب المادي، وقد عانى المسلمون منذ الخلافة الراشدة من هذا الفكر وعطل الخوارج[1] بإرهابهم الذي بدأ فكرياً، الفتوحات الإسلامية لفترات زمنية طويلة، بإشغال المسلمين بحربهم.

ومن الطبيعي أن يكون الإرهاب الفكري ظاهرة معقدة ومركبة، من أسباب نفسية، وشخصية، وثقافية، واجتماعية وسياسية، واقتصادية وبيئات وظروف، تعين على نموه وترعرعه وازدهاره، وقد تكون هذه الأسباب داخلية ذاتية، وقد تكون أسبابا خارجية، وسوف أحاول بهذ الورقة الانطلاق من القرآن الكريم في تقديم العلاج لمحاربة هذ الظاهرة.

وسوف يتمحور البحث حول المباحث الآتية :

المبحث الأول: التعريف بالإرهاب الفكري

- المطلب الأول: تعريفه لغة
- المطلب الثاني: تعريفه اصطلاحا
- المطلب الثالث: مرادفاته
- المطلب الرابع: تاريخه وصوره

المبحث الثاني: أسبابه

- المطلب الأول: التطرف والغلو في فهم الدين
- المطلب الثاني: الظلم وانحسار حكم الشريعة الإسلامية
- المطلب الثالث: الفقر والبطالة

المبحث الثالث: علاجه

- المطلب الأول: نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة
- المطلب الثاني:تحكيم الشريعة الإسلامية
- المطلب الثالث: معالجة المشكلات الاقتصادية
- المطلب الرابع: التصدي لمختلف صور الفساد في المجتمعات الإسلامية

---

(١) الخوارج: الطائفة الخارجة عن طاعة الامام. وهي فرقة من الفرق الاسلامية، خرجوا عن طاعة علي بن أبي طالب- رضي الله عنه - ، ومعاوية ابن أبي سفيان وشكلوا فرقة مستقلة، ثم صارت لهم عقائد مختلفة عن عقائد أهل السنة والجماعة، ثم صاروا فرقا عديدة. انظر: معجم لغة الفقهاء ص٢٠١ ، للدكتور محمد رواس قلعجي ، طبع دار النفائس، ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

المبحث الأول

التعريف بالإرهاب الفكري

المطلب الأول: تعريفه لغة:

الإرهاب الفكري مكون من كلمتين الأولى كلمة إرهاب والثانية كلمة فكري.

أولاً: الإرهاب: مادة " رهب " تدور حول معنيين: الخوف، والدقة والخفة.

وعند ابن فارس "الراء والهاء والباء أصلان: أحدهما يدلُّ على خوفٍ، والآخَر على دِقّة وخِفَّة[(١)].

وأمـا كلمـة "إرهاب" فمشتقة من الفعـل المزيد "أرهب" ؛ تقول أرهـب فلانا: أي خوَّفه وفزَّعـه، وهو المعنى نفسه الذي يدل عليه الفعل المضعَّف "رَهّبَ". أما الفعل المجرد من المادة نفسهـا "رَهِبَ"، يَرْهـبُ رَهْبَةً ورَهْبًا ورَهَبًا فيعني خاف، تقـول: رَهبَ الشيءَ رهبا ورهبة أي خافـه. والرهبة: الخوف والفـزع. أما الفعل المزيد بالتاء "تَرَهَّـبَ" فيعنـي انقطع للعبادة في صومعتـه، ويشتـق منه "الراهب" و"الراهبة" و"الرهبنـة" و"الرهبانية"، ويستعمل الفعل "ترَهَّبَ" بمعنى توعد إذا كان متعديا فيقال ترهب فلانا: أي توعده. وأرهَبَه ورهَّبَه واستَرْهَبَه: أخافَه وفزَّعه. وتَرَهَّب الرجل: إذا صار راهباً يخشى الله. والراهب: المُتَعَبِّد في الصومعة[(٢)]

والإِرْهَـابُ بالكَسْـر؛ الإزعـاجُ والإخَافَةُ تقُـولُ: ويَقْشَعِرُّ الإِهَـابُ إِذَا وَقَعَ مِنْـهُ الإِرْهَابُ والإِرْهَابُ أَيْضاً: قَدْعُ الإِبِلِ عَن الحَوْضِ وذِيَادُهَا[(٣)].

(١) انظـر: معجـم مقاييس اللغة، لابن فارس: صـ ٤٢٦، تحقيق شهاب الدين أبو عمـرو، طبع دار الفكر، بيروت، ط١ ١٤١٥ه- ١٩٩٤م.

(٢) انظر: لسان العرب: ١/٤٣٦-٤٣٩١، طبع دار صادر ودار بيروت: بيروت، ١٩٥٥م / ١٣٧٤ هـ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي: ص ١١٨، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م،،

(٣) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ٢ /٥٤١، تحقيق مجموعة من المحققين، طبع دار الهداية.

ثانياً: الفكـري: الفكـري، مشتق من الفكر، يقول ابن فارس "الْفَـاءُ وَالْكَافُ وَالرَّاءُ تَرَدُّدُ الْقَلْبِ فِي الشَّيْءِ. يُقَالُ تَفَكَّرَ إِذَا رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا. وَرَجُلٌ فِكِّيرٌ: كَثِيرُ الْفِكْرِ "(١). والفكر "إعمال الخاطر في الشيء"(٢).

ويقول صاحب أضواء البيان:" التفكر: التأمل، والنظر العقلي. وأصله: إعمال الفكر"(٣).

ويقـول صاحب المفـردات "الْفِكْرَةُ: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلـوم، والتَّفَكُّرُ: جولان تلك القـوّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: "تَفَكَّرُوا في آلاء الله ولا تَفَكَّرُوا في الله" (٤) إذ كان الله منزّها أن يوصـف بصـورة. قال تعـالى:﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الـروم: ٨]. ورجـل فَكِيرٌ: كثـير الْفِكْرَةُ، قال بعض الأدباء: الْفِكْرُ مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها (٥).

فكأن الفكر هو جهد عقلي صرف يتم عبر الانتقال والتردد بين المطالب والمباديء بهدف الوصـول إلى الحقائـق. ولا يوصف الفكر بأنه نافع أو ضار لأنـه جهد ذهني إلا بعد الوصول بصاحبه إما إلى بر الأمان أو إلى الإرهاب.

المطلب الثاني: تعريفه اصطلاحا:

لاشـك بـأن من يطالع الـتراث الإسلامي السياسـي والفقهي والفكري لـن يجد تعريفاً لمصطلح الإرهاب الفكري على الرغم من ورود مادته ومشتقاتها في المعاجم العربية القديمة والقـرآن الكـريم في١٢ آية من القرآن الكـريم وكلها في معاني مختلفة حسـب السياق الذي

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ص ٧٩٣.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ٦٥/٥.

(٣) أضواء البيان، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، ١٦٨/٦، طبعة ١٤١٥هـ، طبع دار الفكر، بيروت.

(٤) رواه الطـبراني في المعجـم الأوسـط:٢٥٠/٦، حديث ٦٣١٩، والبيهقـي في شعـب الإيمان:٢٦٢/١،حديث ١١٩، وأورده الألباني في السلسة الصحيحة، برقم ١٧٨٨.

(٥) مفـردات الراغب الأصفهـاني مادة " فكر" تحقيق صفـوان داوودي، طبع دار القلـم دمشق،الطبعة السادسة، ٢٠١٤م.

وردت فيه، وكلها تدور حول الفزع والخوف والخشية والرهبة والخشوع لله. ومن المعلوم أن أول ظهور لمصطلح " الإرهاب" كان في أثناء الثورة الفرنسية بين الأعوام (١٧٨٩م إلى١٧٩٩م)، وأغلب من عرَّفه لم يرجع إلا إلى المعاجم الأجنبية أو المراجع العربية المعاصرة، والتي اعترف أغلب من تكلموا فيها عنه على صعوبة تعريفه بتعريف متفق عليه[١]. ويعود السبب الرئيس في ذلك اختلفهم في الغاية من الفعل فما يعدُّه بعضهم إرهابًا، يراه الآخرون دفاعاً عن الحقوق الشرعيَّة المسلوبة وسواها، بل يعدُّه البعض جهادًا ودفاعًا عن الدين والعرض والمال والنفس.

ولا شك بأن العلاقة بين الفكر والإرهاب كالعلاقة بين البذرة والشجرة وكلما كانت البذرة بعيدة عن المؤثرات الكيمائية التي تعبث بأصل خلقتها، كلما كانت الشجرة أقرب إلى الطبيعية ومنسجمة مع الخلقة الأصلية التي خلقها الله عليها، وكلما عبثت بها يد الإنسان فإنها ستؤثر على الشجرة، والإرهاب الفكري يمكن أن يُعرَّف بأنه:

" جهد يستهدف التأثير في الأفكار والمعتقدات والأعراف ونمط الحياة باستخدام أساليب ووسائل معنوية بهدف الإخلال بالأمن العام ".

ولا يشترط في المعتقد أن يكون دينا، بل قد يكون فلسفة، أو عرفاً، أو تعصباً لعرق، أو جنس، أو أمة، أو بلد، أو حزب، أو فرقة، أو توجهها فكرياً، ويستخدم وسائل متعددة في نشره وذيوعه.

المطلب الثالث: مرادفات الإرهاب:

ذكر الراغب في تفسيره[٢] بعض المترادفات لمصطلح "الإرهاب" كالفرق بين "الخوف" و"الفزع" و"الحذر" و"الرهبة" و"الهيبة" و"الخشية" و"الوجل" و"الشفقة": فـ"الخوف":

(١) بعضهم أوصل تعريف الإرهاب إلى مئة تعريف انظر على سبيل المثال كتاب "الإرهاب تعريفه وآليات مكافحته" لعبد المجيد مبلغي وآخرون، ص ١٦٨، ومابعدها، طبع مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي وما بعدها، بيروت. وانظر: مفاهيم الإرهاب والعنف، واختلاف وجهات النظر حولها، أ.د. محمد على الهرفي، ص٤. (من ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر موقف الإسلام من الإرهاب، المنعقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، في الفترة ٢-٣/٣/١٤٢٥هـ).

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني لسورة البقرة آية رقم ٣٨، بتحقيق الدكتور محمد إقبال فرحات، رسالة دكتوراة غير مطبوعة، مقدمة لجامعة الزيتونة ١٩٩٨م.

توقع مكروه عن أمارة وذلك للمذنب، ولهذا قال أمير المؤمنين – عليه السلام – : " لا يخافن امرؤ إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه "[1].و" الفزع" : اضطراب عن وهم كمن سمع هدة فاضطرب. و" الحذر" : خوف مع احتراز.و" الرهبة" : خوف مع اضطراب واحتراز.و" الهيبة" : رهبة مع استشعار تعظيم. و" الشفقة" : خوف مع محبة.ولذلك قيل: الخوف والحذر للمذنب، والرهبة للعابد، والخشية للعالم، والهيبة للعارف. وذكر القرآن بعض المصطلحات التي يمكن أن تتقاطع مع الإرهاب المادي، ومن أهمها:

أولاً: البغي:

هو التجاوز بشكل عام، ولكنه تجاوز في المذموم أكثر منه في المحمود، يقول ابن فارس في معجم مقاييس اللغة [2] الباء والغين والياء أصلان: "أحدهما طَلَب الشيء، والثاني جنسٌ من الفَساد. فمن الأوّل بَغَيْتُ الشيء أبْغيه إذا طلبتَه.

الأصل الثاني: قولهم بَغَى الجرح، إذا تَرامَى إلى فساد، ثم يشتقّ من هذا ما بَعْدَهُ. فالبغيّ الفاجرةُ، تقول بَغَتْ تَبْغي بغاءً، وهي بَغيّ. ومنه أن يبغي الإنسانُ على آخَرَ. ومنه بَغْيُ المَطَر، وهو شِدّتُه ومُعْظَمُه والبغي في أكثر المواضع مذموم" .

ومن استعراض الآيات التي ورد فيها مفهوم البغي في القرآن سنجد أنه شر كله، وهو تعدّ وظلم وإفساد، ومنها:

١- ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص:٧٦]

٢- ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾[ص:٢٢]

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠١/٧،حديث ٣٤٥٠٤.وأخرجه البيهقي في السنن:١٩٥/١٢،حديث ٩٢٦٧، وأخرجه معمر بن راشد في جامعه:٤٦٩/١١،حديث ٢١٠٣١. وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله:٣٨٢/١،حديث ٥٤٧، موقوفا على عكرمة قال: قَالَ لي عَليٌّ: " خَمْسٌ احْفَظُوهُنَّ لَوْ رَكِبْتُمُ الْإِبِلَ لَأَنْضَيْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلَ أَنْ تُصِيبُوهُنَّ: لَا يَخَافُ عَبْدٌ إِلاَّ ذَنْبَهُ وَلَا يَرْجُو إِلاَّ رَبَّهُ وَلَا يَسْتَحِي جَاهِلٌ أَنْ يَسْأَلَ وَلَا يَسْتَحِي عَالِمٌ إِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ أَعْلَمُ، وَالصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ لَهُ، وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ "

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ص ١٤٤.

٣- ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات:٩]

٤- ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧]

٥- ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: ٢٤]

٦- ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠]

ومن هنا نلاحظ أن البغي قد يكون مادياً وقد يكون معنوياً.

ثانياً: الفساد:

الفاء والسين والدال كلمةٌ واحدة، فَسَدَ الشَّيءُ يَفْسُد فساداً وفُسوداً، وهو فاسدٌ وفَسيد[1].وعرَّف الراغب الأصفهاني الفساد بأنه: "خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضادّه الصّلاح، ويستعمل ذلك في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فَسَدَ فَسَاداً وفُسُوداً "[2] ومن استعراض الآيات التي ورد فيها مفهوم الفساد في القرآن سنجد أنه شر كله، وهو خروج عن حد الاعتدال، ومنها:

١- ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[البقرة: ٣٠]

٢- ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١]

٣-﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[المؤمنون:٧١]

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ص ٨٣٦.

(٢) مفردات الراغب مادة " فسد ".

٤- ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل:٣٤]

٥- ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء:١٥١-١٥٢]

٦- ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٥].

المطلب الرابع: تاريخه وصوره

ممـا لاشـك فيه أن الإرهاب الفكري هو أول ماوُجهت به دعـوة الأنبياء والمصلحين، ولو استعرضنـا تاريخ الأنبياء مع أقوامهم وتاريـخ الرسول مع قريش سنجد أن الإرهاب الفكري هو أول ماتقوم به الأمم المكذبة للرسل.

ولذلك حتى لا يطول البحث سنكتفي بذكر أنواع الإرهاب الفكري الذي استخدمته قريش بعـد جهر النبي ﷺ بدعوته وكان ذلـك قبل موسم الحج، عندما خافت قريش من إسلام وفـود العرب التي ستقدم عليهم، اجتمعت قريش للاتفاق على كلمة يقولونها للعرب، في شأن محمـد ﷺ حتى لا تحـدث دعوته أثراً في العـرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغـيرة وَكَانَ ذَا سـنّ فيهـمْ وَقَدْ حَضَرَ فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش، إنّهُ قَدْ حَضَرَ هَذَا الْمَوْسِمُ، وَإِنّ وُفُودَ الْعَرَب سَتَقْـدَمُ عَلَيْكُمْ فيه، وَقَـدْ سَمعُوا بأَمْر صَاحبكُمْ هَذَا، فَأَجْمعُوا فيـه رَأْيًا وَاحداً، وَلَا تَخْتَلفُوا، فَيُكَذّبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَرُدّ قَوْلُكُمْ بَعْضُهُ بَعْضًا، قَالُوا: فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْد شَمْس، فَقُلْ وَأَقمْ لَنَا رَأْيًـا نَقُـولُ به، قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا أَسْمَعُ، قَالُوا: نَقُولُ كَاهنٌ، قَالَ: لَا وَاَللّه مَا هُوَ بكَاهن، لَقَدْ رَأَيْنَـا الْكُهّانَ فَمَا هُوَ بزَمْزَمَة الْكَاهن وَلَا سَجْعه، قَالُوا: فَنَقُولُ: مَجْنُونٌ، قَالَ: مَا هُوَ بمَجْنُون، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ، فَمَا هُوَ بخَنْقه وَلَا تَخَالُجه وَلَا وَسْوَسَته، قَالُوا: فَنَقُولُ: شَاعرٌ، قَالَ: مَـا هُـوَ بشَاعر، لَقَدْ عَرَفْنَا الشّعْرَ كُلّـهُ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَريضَهُ وَمَقْبُوضَـهُ وَمَبْسُوطَهُ، فَمَا هُوَ بالشّعْر، قَالُوا: فَنَقُولُ سَاحرٌ، قَالَ: مَا هُوَ بسَاحر، لَقَدْ رَأَيْنَا السّحّارَ وَسحْرَهُمْ فَمَا هُوَ بنَفْثهمْ وَلَا عَقْدهـمْ، قَالُوا: فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْد شَمْس؟ قَالَ: وَاَللّه إنّ لقَوْله لَحَلَاوَةً، وَإِنّ أَصْلَهُ لَعَذَقٌ وَإِنّ فَرْعَهُ لَجَنَاةٌ – قَالَ ابْنُ هشَام: وَيُقَالُ لَغَدَقٌ – وَمَا أَنْتُمْ بقَائلينَ منْ هَذَا شَيْئًا إلّا عُرفَ أَنّهُ بَاطلٌ وَإِنّ أَقْرَبَ الْقَوْل فيه لَأَنْ تَقُولُوا: سَاحرٌ جَاءَ بقَوْلٍ هُوَ سحْرٌ يُفَرّقُ به بَيْنَ الْمَرْء وَأَبيه وَبَيْنَ

الْمَرْءِ وَأَخيه وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجَته وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَعَشيرَته. فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ بذَلكَ فَجَعَلُوا يَجْلسُونَ بِسُبُلِ النَّاسِ حِينَ قَدِمُوا الْمَوْسِمَ لَا يَمُرّ بِهِمْ أَحَدٌ إلّا حَذَّرُوهُ إيّاهُ وَذَكَرُوا لَهُمْ أَمْرَهُ[1]

وتفيـد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه، فقال لهم: أمهلونى حتى أفكر في ذلك، فظل الوليد يفكر ويفكر حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفًا.

وفي الوليـد أنـزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المدثر:١١-٢٦]

وبعـد أن اتفـق المجلس علـى هذا القرار أخـذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبـل الناس حين قدمـوا للموسـم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهـم أمره. أما رسول الله ﷺ فخرج يتبـع النـاسـ في منازلهم وفي عُكاظ ومَجَنَّـة وذى المَجاز، يدعوهـم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب.

ولمـا فرغت قريش مـن الحج فكَّرت في أساليب تقضى بها علـى هذه الدعوة في مهدها. وتتلخص هذه الأساليب فيما يلي:

١ـ السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

أ- اتهـام الرسـول بالجنـون: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر: ٦].

ب- وصـم الرسول بالساحـر الكـذاب: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤].

(١) الروض الأنـف للسهيلي:٣/ ٢٠، تحقيق عمر عبد السلام السلامـي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

ج- نظرهم للنبي بحسد: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم: ٥١].

د- الاستهزاء بالنبي وأصحابه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣]﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[المطففين: ٢٩: ٣٣].

وقد وصف القرآن العلاج من هذا الإرهاب وهو التسبيح والسجود بعد أن أكثروا من السخرية والاستهزاء حتى أثر ذلك في نفس رسول الله r، كما قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[الحجر: ٩٧]، ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨، ٩٩]، وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦]، وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم فقال: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠].

٢ـ إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

وكان الهدف من إثارة الشبهات هو صرف الناس عن التفاعل مع القرآن:

أ- وصفهم القرآن بأنه أضغاث أحلام:﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الأنبياء: ٥] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار.

ب- وصفهم القرآن بأنه مفترى من عند نفسه، أو من عند غيره وكانوا يقولون:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[النحل: ١٠٣]وقالوا:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٤]، أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥]

ج- زعمهم بأن الجن أو الشياطين تتنزل عليه بالقرآن كما تتنزل على الكهان: فقال تعالى ردًا عليهم: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾[الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جرّبتم عليّ كذبًا، وما وجدتم في فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان ؟وأحيانًا قالوا عن النبي ﷺ: إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعانى، ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر. قال تعالى ردًا عليهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾[الشعراء: ٢٢٥: ٢٢٦] فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ليست واحدة منها في النبي ﷺ، فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون في دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شئونهم، ثم النبي r لا يهيم في كل واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء ؟ وأين الشعر والشعراء منه.

فكان القرآن يرد على جميع الشبه التي كانوا يثيرونها حول النبي ﷺ والقرآن.

٣ ـ الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن[١]، ومعارضته بأساطير الأولين:

(١) جاء في سيرة ابن هشام: ٢ / ٢٣، طبعة طه عبد الرءوف سعد، طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة: " كَانَ الطُّفَيْل بْنُ عَمرو الدَّوْسيّ يُحَدِّثُ: أَنَّهُ قَدمَ مكة وَرَسُولُ اللَّهِ r بهَا، فَمَشَى إلَيْه رجَالٌ منْ قُرَيْش، وَكَانَ الطُّفيل رَجُلًا شَرِيفًا شَاعرًا لَبيبًا، فَقَالُوا لَهُ: يَا طُفَيْلُ، إنَّكَ قَدمْتَ بلادَنا، وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أعضل بنَا، وَقَدْ فرَّق جمَاعَتَنَا، وشتَّت أَمْرَنَا، وَإنمَّا قَوْلُهُ كالسحرِ يفرِّق بَيْنَ الرجل وبينَ أبيه، وبينَ الرجلِ وَبَيْنَ أَخيه، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زوجته، وَإنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ وَعَلَى قومك مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلَا تكلمنَّه وَلَا تسمعنَّ منه شيئًا. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بي حَتَّى أجمعتُ ألا أَسْمَعَ منْهُ شَيْئًا وَلَا أُكَلِّمَهُ، حَتَّى حشوتُ في أُذُنَيَّ حينَ غَدَوْتُ إلَى المَسْجد كُرْسُفًا٢ فَرَقًا منْ أَنْ يَبْلُغَني شَيْءٌ منْ قَوْله، وَأَنَا لَا أُريدُ أَنْ أسمعَه. قَالَ: فغدوْت إلَى المسجد، فَإذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قائمٌ يُصَلِّي عنْدَ الْكَعْبَة. قَالَ: فَقُمْتُ منْهُ قَريبًا، فَأَبَى اللَّهُ إلاَّ أَنْ يُسْمعَني بعضَ قوله. قَالَ: فَسَمعْتُ كَلَامًا حَسَنًا. قَالَ: فقلتُ في نَفْسي: واثُكْلَ أُمِّي، وَاَللَّهِ إنيِّ لَرَجُلٌ لَبيبٌ شَاعرٌ مَا يَخْفَى عليَّ الحسنُ منَ الْقَبيح، فَمَا يَمْنَعُني أَنْ أسمعَ منْ هَذَا الرَّجُل مَا يَقُولُ! فَإنْ كَانَ الَّذي يَأْتي بهِ حَسَنًا قَبلْتُهُ، وَإنْ كَانَ قبيحًا تركته. قَالَ: فَمَكَثْتُ حَتَّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ r إلَى بَيْته فَاتَّبَعْتُهُ، حَتَّى إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْه، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، إنَّ قومَك قَدْ قَالُوا لي كَذَا وكذا، للذي قالوا؛ فوالله مابَرحوا يخوِّفونني أمرَك حَتَّى سَددت أُذُنَيَّ بكُرْسُف لئَلاَّ أسمعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ أَبَى اللَّهُ إلاَّ أَنْ يُسمعني قولَك، فَسَمعْتُهُ

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦] فكان المشركون يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلي ويتلو القرآن. حتى إن النبي r لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني. وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ ﴾[لقمان: ٦][1].

قَـوْلًا حَسَنًـا، فَاعْرِضْ عليَّ أمرَك. قَالَ: فَعَرَضَ عليَّ رَسُولُ اللَّهِ r الإسلامَ، وَتَلَا عليَّ الْقُرْآنَ، فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قطُّ أحسنَ مِنْهُ، وَلَا أَمْرًا أعدلَ مِنْهُ. قَالَ: فأسلمتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الحقِّ".

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢/٧، والرحيق المختوم، للمباركفوري: من ص ٦٢-٦٥. طبع دار الهلال - بيروت (نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع) -بتصرف كبير-.

المبحث الثاني

أسبابه

لاشك في أن الإرهاب له أسباب عديدة، منها الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية، ولايمكن بحال -في هذ العجالة- التطرق إليها جميعاً، ويجب أن نعلم أن المسلمين اليوم -ماعدا الأقليات المسلمة- يتوزعون على ٥٧ دولة منضوية تحت سقف منظمة التعاون الإسلامي، ويبلغ تعدادهم مايقارب المليار وسبعمائة مليون مسلم، ويعاني البعض من ظروف معيشية صعبة تشكل بيئة حاضنة للإرهاب، ولا يخفى أن هذه الدول تتفاوت في الظروف السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية، فبعض الدول تعتبر أن مجرد الذهاب لأداء الصلاة وصيام رمضان إرهاباً، وبعض الدول تمارس أفظع أنواع الإرهاب بحق شعوبها، كما هو الحاصل في سوريا والعراق، وبعض الدول ترعى الإسلام وتطبق الشريعة في بلادها،كما هو الحال في المملكة العربية السعودية، ولو أردنا أن أكثر دقة وموضوعية، فكل بلد إسلامي يستحق أن يفرد بدراسات مُعمَّقة لمعرفة أسباب الإرهاب فيها، وما قد يوجد فيها ليس بالضروة أن يوجد ويتكرر في غيرها، ولكن يمكن وضع اليد على أهم الأسباب التي يتولد عنها الإرهاب الفكري اليوم في العالم الإسلامي بشكل عام:

المطلب الأول: الغلو في الدين:

الغُلُو: هو الارْتفَاع فِي الشَّيْء ومجاوزة الحدّ فِيهِ وَمِنْه،أَي: لَا تجاوزوا الْمِقْدَار[1]. ولاشك أن الغلو في الدين نشأ مع نشأة الإسلام في المدينة المنورة، ولكن الرسول انبرى له وحذر منه، والمثال الصارخ هو قصة الرهط الثلاثة[2]، ثم بعد الفتوحات في عصر الخلافة الراشدة

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد:٢/٩٦١، تحقيق رمزي منير بعلبكي، طبع دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

(٢) عن أَنَسَ بْنَ مَالك، يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْط إِلَى بُيُوت أَزْوَاج النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عبادَة النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ منَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ منْ ذَنْبه وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغبَ عَنْ سُنَّتي فَلَيْسَ منِّي" أخرجه البخاري في صحيحه:٧/٢ ، حديث ٥٠٦٣، بتحقيقمحمد زهير بن ناصر الناصر، نشردار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

ظهـرت طبقة من العباد الجهلة في فهم الدين، وتجمع حولهم أصحاب الأهواء، وأهل النفاق وبعض الزنادقة، ووقع ضحيتهـم بعض الغيورين من (حدثاء الأسنـان)[1] الذين ينقصهم الرجوع لأهل الذكر؛ ليفهم دين الله كما أمر الله ورسوله.

ومـن هذه البذرة الأولة نبتـت فرقة الخوارج الأولى الذين قاتلوا الصحابة، ونبتت فرقة التشيـع، ثم تحول الزهـاد الأوائل إلى متصوفة، لهم طرق في العبـادة فيها الكثير من البدع التـي لم يعرفهـا الصحابة في العصـور الأولى، ثم تشظى التشيع بعد ذلـك إلى فرق باطنية وغلاة، ووصل ببعضهم الغلو إلى تأليه على بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسين بن علي، وأحدثوا في الإسلام مالم يأذن به الله إلى أن صار ما أحدثوه ديناً لا يمت إلى الإسلام بصلة.

وأمـا الخوارج فكانوا يظهرون في الفترات التي يضعـف فيها الحكم الإسلامي وينحسر ظلـه، ولذلك رأينـا ظهورهم القوي في خلافة علي بن أبي طالـب، وبعد ذلك اتسعت ظاهرة التكفـير نتيجـة الحكم بغير مـا أنزل الله[2] بعـد سقوط الدولـة العثمانيـة في بعض البلاد

(١) عـن علـي بن أبي طالب سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُـولُ: "يَأْتِي فِي آخِـرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَـاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَـاءُ الأَحْـلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَـوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِـنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِـنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَـاوِزُ إِيمَانُهُـمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ" أخرجه البخاري في صحيحه:٤/ ٢٠٠، حديث ٣٦١١.

(٢) لقـد أساء الكثير من الخوارج ومن أحسن من فسرها من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ".. يُرْوَى أَنَّ حُذَيْفَةَ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ، أَهِيَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: نَعَمْ هِيَ فِيهِمْ، وَلَتَسْلُكُنَّ سَبِيلَهُمْ حَـذْوَ النَّعْـلِ بِالنَّعْـلِ، وَقِيلَ: الْكَافِرُونَ لِلْمُسْلِمِـينَ، وَالظَّالِمُونَ لِلْيَهُودِ، وَالْفَاسِقُـونَ لِلنَّصَارَى، وَهَذَا اخْتِيَارُ أَبِـي بَكْـرِ بْنِ الْعَرَبِيِّ، قَالَـهُ: لِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْآيَاتِ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَجَابِرِ بْـنِ زَيْدٍ، وَابْنِ أَبِي زَائِدَةَ، وَابْـنِ شُبْرُمَـةَ، وَالشَّعْبِيِّ أَيْضًا قَالَ طَاوُسٌ وَغَـيْرُهُ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَلَكِنَّـهُ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ. وَهَذَا يَخْتَلِـفُ إِنْ حَكَـمَ بِمَا عِنْدَهُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهُوَ تَبْدِيلٌ لَهُ يُوجِـبُ الْكُفْرَ، وَإِنْ حَكَمَ بِهِ هَوًى وَمَعْصِيَةً فَهُـوَ ذَنْبٌ تُدْرِكُهُ الْمَغْفِـرَةُ عَلَى أَصْلِ أَهْلِ السُّنَّـةِ فِي الْغُفْرَانِ لِلْمُذْنِبِينَ، قَالَ الْقُشَـيْرِيُّ: وَمَذْهَبُ الْخَوَارِجِ أَنَّ مَـنِ ارْتَشَـى، وَحَكَمَ بِحُكْمِ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَعَزَا هَذَا إِلَى الْحَسَـنِ، وَالسُّدِّيِّ، وَقَالَ الْحَسَنُ أَيْضًـا: أَخَـذَ اللَّهُ عَلَى الْحُـكَّامِ ثَلَاثَةَ أَشْيَـاءَ: أَلَّا يَتَّبِعُوا الْهَوَى، وَأَلَّا يَخْشَـوُا النَّاسَ وَيَخْشَـوْهُ، وَأَلَّا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًـا قَلِيـلًا، انْتَهَى كَلَامُ الْقُرْطُبِيِّ. قَالَ مُقَيِّدُهُ – عَفَا اللَّهُ عَنْهُ –: الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَاتِ أَنَّ آيَةَ فَأُولَئِـكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، نَازِلَةٌ فِي الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَـالَ قَبْلَهَا مُخَاطِبًا لِمُسْلِمِي هَذِهِ الْأُمَّةِ: فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ،

الإسلاميــة فصــار التكفير يوجه للحاكــم والمحكوم، خاصــة بعد أن دخل الكثـير منهم إلى السجون والمعتقلات، ومورس بحقهم صنوف رهيبة من التعذيب، كجماعة التكفير والهجرة، وجماعة التوقف والتبين في مصر فيخرج أحدهم من السجن وهو ناقم على مجتمعه، مسيء الظن بحكامه، متهيئ لتلقف الأفكار الغالية، والأعمال الإرهابية، لما في نفسه من الغيظ وحب الانتقام.

ولا شــك أن المخطــئ يجب أن يعاقب ويــؤدب، زجرًا له وحماية للمجتمــع من شره، وفق الضوابـط الشرعية، والحقوق الإنسانية من الجميع وعلى اختلاف الأحوال، فالأصل البراءة حتــى تثبت التهمة والإدانة، والعقوبة يجب أن تكون بقدر الجرم، كما يجب حماية المسجونين والموقفــين من صــور التجاوز، والاعتداء غير المشــروع، والتي تعج بها السجــون العربية وهي الأسوأ على مستوى العالم.

وذلــك أن العدل وفق مــا جاء به الشرع هو الكفيل وحده بإصــلاح الفرد ورده إلى جادة الصــواب، وإعادتــه - وإن أدب أو عــذب - إلى أن يعيش حياة طبيعيــة في مجتمعه بعيدًا عن الانعــزال والنفــرة والسلبية، أو الغلو والحقــد والسعي في الأرض بالفســاد.. ومن أشهر هذه الجماعــات التي تكفــر المسلمين اليوم "تنظيــم الدولة الإسلامية في العــراق والشام" والتي يطلــق عليها اختصاراً " داعش "، والتي لعبت دوراً كبيراً في دعم النظام النصيري الباطني في سوريــا، ودعــم النظام الطائفــي الرافضي في العــراق، وكانت أفعالهــا الإجرامية مبرراً للتدخـل الأمريكي والروسي والإيراني في سوريا والعراق، هذا بالإضافة إلى دورها الكبير في تشويه صورة الإسلام والمسلمين في العالم.

فَالْخِطَابُ لِلْمُسْلِمِينَ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مُتَبَادِرٌ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَعَلَيْهِ فَالْكُفْرُ إِمَّا كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فَعَلَ ذَلِكَ مُسْتَحِلًّا لَهُ، أَوْ قَاصِدًا بِهِ جَحْدَ أَحْكَامِ اللَّهِ وَرَدَّهَا مَعَ الْعِلْمِ بِهَا. أَمَّا مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ، وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّهُ مُرْتَكِبٌ ذَنْبًا، فَاعِلٌ قَبِيحًا، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْهَوَى فَهُوَ مِنْ سَائِرِ عُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَسِيَاقُ الْقُرْآنِ ظَاهِرٌ أَيْضًا فِي أَنَّ آيَةَ: فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فِي الْيَهُودِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَهَا: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. فَالْخِطَابُ لَهُمْ لِوُضُوحِ دَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُ ظَاهِرٌ أَيْضًا فِي أَنَّ آيَةَ: فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ فِي النَّصَارَى ؛ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَهَا: وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ". انظر : أضواء البيان للشيخ الشنقيطي:١/٤٠٧، طبع دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ،١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ

ولاشك بأن كل دعوة اصلاحية كان يصحبها شيء من التشدد والغلو، بسبب قلة الفقه، والجهل بمقاصد الإسلام، وتحميل النصوص مالا تحتمل من الفهوم.

المطلب الثاني: الظلم وانحسار حكم الشريعة الإسلامية

لا شك بأن كل من يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في أيامنا هذه تسلط عليه كل أنواع الإرهاب الفكري، من أن تطبيق الشريعة في وقتنا الحاضر سوف يؤدي إلى كارثة تحل بكل من يفكر بها، بل من يفكر بمجرد التفكير بها هو لا يعيش الواقع، وهذا كله من ضغط الغزو الفكري لعقول المسلمين، ناهيك عن التشكيك بصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، ومن يستعرض واقع العالم اليوم سوف يفاجأ بالكم الهائل والمتصاعد من الجرائم على الأنفس والأعراض والأموال والعقول في أغلب دول العالم، مع كثرة وجود المحاكم بدرجات التقاضي المختلفة، والتي تحكم بغير ماشرع الله، والسبب الرئيس في كل هذه المظالم هو عدم تطبيق الشريعة الإسلامية، التي هي خير كلها ومصالح كلها وعدل كلها، فلم تَدَعْ خيرًا إلاَّ دلَّت عليه، ولا شرًا إلاَّ حذَّرت منه؛ وقد جاءت بأصلين عظيمين هما: " تقرير المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما ترك النبيﷺخيرًا إلا دلنا عليه ولا شرًا إلا حذرنا منه، فلا تجد فعلاً أو قولاً فيه مصلحة إلا والشريعة قد أمرت به أمر إيجاب أو استحباب، ولا فعلاً أو قولاً فيه مفسدة إلا والشريعة قد نهت عنه إما نهي تحريم أو كراهة فالواجب إذًا هو فعل المصالح كلها، واجتناب المفاسد كلها، بحيث لا يقر الإنسان على ترك مصلحة ولا فعل مفسدة، لكن هذا عند عدم تعارض المصالح والمفاسد "[1].

وعملًا بهذه القاعدة يقول الشاطبي في الموافقات[2] " لَا يَجُوزُ سَبُّ الْأَصْنَام حَيْثُ يَكُونُ سَبَبًا فِي سَبِّ اللَّهِ، عَمَلًا بِمُقْتَضَى قَوْله تَعَالَى:﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]،

(١) انظر: تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية، لوليد بن راشد السعيدان:٣/ ١٠ ، راجعه وعلق عليه: الشيخ سلمان بن فهد العودة.

(٢) انظر الموافقات للشاطبي:٥/ ١٨٥ ، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، طبع دار ابن عفان، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

ومن الأدلة على ذلك أيضاً ما أشير على النبي ﷺ بقتل من ظهر نفاقه فقال: " أخاف أن يقول الناس: إن محمداً يقتل أصحابه "[1]، فلم يرغب النبي ﷺ في قتل المنافقين مع قيام الداعي لذلك، وذلك سداً للذرائع؛ حيث إنه سيقال: إن محمداً بدأ يقتل أصحابه، فيوجب ذلك النفور عن الإسلام ممن دخل فيه، وممن لم يدخل فيه، "ومفسدة التنفير أعظم من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل"[2].

ومن مقاصد الشريعة تحصيل المنافع وتعطيل المضار وعمارة الأرض على أساس العدل والأمن والسلام وحماية بناء المجتمع وعقيدته، للحفاظ على الكليات الخمس (الدين والنفس والعقل والعرض والمال).

ويمكن أن نلخص مقاصد تطبيق الشريعة الإسلامية بالآتي:"

١- حفظ حقوق الناس المادية والمعنوية، وصيانتها من الضياع والإتلاف والتهميش والتشويش. قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]

٢- إقامة العدل والمساواة بين كل الناس، دون تفرقة أو تمييز بسبب الدين أو العرق أو الجنس أو الجاه أو النسب أو الحسب أو غير ذلك، والعدل أساس العمران وسبب الاستقرار والارتياح، وطريق الأمن والأمان، والسلامة والإسلام، قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾[النساء: ٥٨]

٣- زجر المنحرفين وازدجار غير المنحرفين، وقمع الجناة والبغاة والطغاة، وصد عدوانهم وأذاهم وترويعهم للناس والحيوان والبيئة والمحيط.

٤- رد المظالم إلى أهلها، ومنع أخذ المال أو المتاع بغير حق، ومنع انتهاك حق الغير أو عرضه أو كرامته أو عفته، وتمكين النظام والأمن من الاستقرار والتواصل والانضباط على وفق أخذ الحق المشروع، وأداء الواجب المطلوب سواء فيما تعلق بالحقوق والواجبات المادية والحسية، أو الحقوق والواجبات الأدبية والمعنوية.

(١) أخرجه البخاري في صحيح:٦/ ١٥٤، حديث ٤٩٠٥.

(٢) انظر المهذب في علم أصول الفقه المقارن، لعبد الكريم النملة:٣/ ١٠١٧، طبع مكتبة الرشد بالرياض، ط١ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٥- الإصلاح بين الناس، والعمل ما أمكن على إزالة الخلاف والتشاجر والخصام بين الزوجين أو الجارين أو المتبايعين أو الدولتين أو غير ذلك.

٦- الإسهام في إنجاح سياسة الدولة، ومسيرتها الحضارية والتنموية، بإبداء النصح والتوجيه، والمشاركة في وضع الخطط والبرامج، وعون القادة والساسة على مهامهم ووظائفهم بلا إفراط ولا تفريط، وعلى وفق ميزان العدل والمساواة، وإرادة الخير والنهوض للأمة قاطبة.

٧- المقصد الكلي الجامع لكل تلك لمقاصد، وهو تحقيق استقرار النظام واستمراره، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان"(١).

المطلب الثالث: الفقر والبطالة:

يقول الراغب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦] " الفقر أربعة: فقر الحسنات في الآخرة، وفقر القناعة في الدنيا، وفقر المقتني، وفقرها جميعا، والغني بحسبه، فمن حصل له في الدنيا فقد القناعة والمقتني فهو الفقير المطلق على سبيل الذم، ولا يقال له غني بوجه وهو المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام " كاد الفقر أن يكون كفراً "(٢)، ومن فقد القناعة دون القنية، فهو الغني بالمجاز فقير بالحقيقة،ولهذا قال: قد يكثر المال والإنسان مفتقر(٣)، وقيل لبعضهم: أفلان غني ؟ فقال: لا أدري غناه، ولكنه كثير المال، ومن فقد القنية دون القناعة، فإنه يقال له فقير وغني، وكلاهما يقالان على طريق المدح، فقد قيل: ليس الغني بكثرة العرض وإنما الغني غني القلب "(٤)، والمشهور

(١) انظر: علم المقاصد الشرعية للدكتور نور الدين الخادمي، ص ١٨٦، طبع مكتبة العبيكان، ط١،١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب :٢٤٧/١، حديث ٦٦١٢، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول،ط١، دار الكتب العلمية — بيروت.

(٣) هذا عجز بيت وصدره: [العيش لا عيش إلا ما قنعت به].وهو في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ٨٥؛ تحقيق عبد الفتاح الحلو ، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

(٤) أصل الحديث عن أبي ذر ، أن رسول الله ﷺ قال: " يا أبا ذر ، أترى كثرة المال هي الغنى ؟ " ، قال: قلت: نعم يا رسول الله هي الغنى. قال: " وترى أن قلة المال هي الفقر ؟ " ، قال: قلت: نعم يا رسول الله هي الفقر. قال: "

مـن الفقر عند العامة الحاجـة وأصله كثير الفقار ومن قولهم: فقرتـه نحو كبدته، وبطنته، وبهذا النظر سمى الحاجة والداهية فاقرة، نحو:﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة: ٢٥][1].

ويعتبر الفقر هو الأخطر في الثالوث المتمثل في الفقر والمرض والجهل،، ولخطورته أفرد له القرآن مساحة كبيرة لعلاجه ووضع نظاماً متكاملاً لمحاربته، فمن ذلك تحديد المصارف التي يجب أن تتوجه لهـا الزكاة﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠]، ولا يمكن للشيطان أن يتمكن من الإنسان إلا بالوعد فيحصل الاطمئنان إليه، فإذا اطمأن إليه وخاف الفقر تسلط عليه بالأمر، إذ الأمر استعلاء على المأمور.

لاشك في أن الفقـر والبطالة من أخطر المشكلات التي تواجه الشعوب وحكومات البلاد العربيـة والإسلامية والتي تقع تنتمـي معظمها إلى الدول النامية بل تشكل النسبة الأكبر من الدول النامية، وفي مثل هذه البيئات من السهل أن يترعرع الإرهاب بكل صنوفه وعلى رأسه الإرهاب الفكري، فالفقر من أخطر الحلقات التي يتسرب من خلالها كل المصائب التي تحل بالدول والمجتمعات والأفراد.

ولا شـك بـأن عدم تطبيـق الإسـلام في مناشط الحيـاة المختلفة، وتعطيـل دور الزكاة والصدقـات، ومحاربـة اللجـان الخيرية، وعـدم الاهتمـام بالأوقـاف، وإغفـال الاقتصاد الإسلامـي، وعدم إدارة مـوارد الدول بشكل صحيـح، والفساد السياسي والمـالي، لعب دوراً كبـيراً في الوصـول بالمجتمعات العربيـة إلى ماهي عليـه اليوم من تخبط اقتصـادي وأمني وعلمي وسياسي وفكري.

ويذهـب بعض الباحثـين[2] إلى أن العوامل الاقتصاديـة كالفقر والبطالـة من أسباب اختيـار طريق العنف والإرهاب؛ لكون الفرد غير قادر على الوفاء بحاجاته الأساسية، وفاقد

ليس كذلـك ، إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب " أخرجه النسائي في الكبرى:١/ ٢٧٠، حديث ١١٧٨٥. والبيهقي في الشعب :١٢ /٥٤٥،جديث ٩٨٦١.

(١) انظر تفسير الراغب لسورة البقرة الرسالة غير مطبوعة ، لمحمد إقبال فرحات.

(٢) انظـر: بحث أسباب ظاهرة الإرهـاب في المجتمعات الإسلامية رؤيـة ثقافية،للدكتورعبد الله بن محمد العمرو ص ٢٢.

الأمل في المستقبل. مما يحمله على النقمة على المجتمع ومؤسساته، ويبعثه على تبني العنف.

والذي يظهر أن الفقر والبطالة والضغوط الاقتصادية بعامة ليست أسبابًا كافية لسلوك طريق العنف والإرهاب، لأن هذه الظواهر لم تغب عن المجتمعات الإسلامية منذ دهر طويل وإن تفاوتت في درجات الفقر ونسب البطالة، ومع ذلك لم تحمل الناس على أعمال إرهابية منظمة كما يجري اليوم.

والذي يمكن التسليم به أن الفقر والبطالة، وعدم وجود فرص وظيفية، تثير في النفوس مشاعر الحقد والبغضاء، وتجعل من الذين يعانون من ذلك هدفًا لأصحاب التوجهات الغالية، يمكن استدراجهم باستغلال حاجتهم، وتوظيف نقمتهم للالتحاق بركب الغالين وسلوك سبيلهم.

المبحث الثالث

علاجه

سبق أن ذكرنا أن ظاهرة الإرهاب ظاهرة معقدة؛ لأنها نتاج لعدد من الأسباب النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية، ولذلك يجب أن تتضافر جهود الجميع لمعالجة جادة لهذه الظاهرة التي تسهم في تفريخ المتطرفين والإرهابيين. ويجب لفهم ظاهرة الإرهاب في أي مجتمع، إدراك الواقع الاجتماعي حتى يتسنى معرفة العوامل التي تنتج هذه الظاهرة.

وغالباً فإن المجتمعات التي تعيش في وضع اقتصادي وسياسي واجتماعي وديني مستقر، والتي يكون فيها نصيب كبير من المساواة والعدالة، وتتسع فيها المشاركة في تقاسم الإنتاج والثروة، وفي تقاسم السلطة، يصعب فيها وجود ظاهرة العنف والإرهاب.

وسبب فشل معالجة الإرهاب في أغلب الدول التي تحاربه، أنها اعتمدت المقاربة الأمنية في علاج الإرهاب، وأغفلت الأسباب الحقيقية والموضوعية التي سببته. ولا يمكن أن يكون العلاج بزيادة قمع الرأي الآخر، أومصادرة الحريات، أوإنفاق المزيد من الثروات على تسليح قوات مكافحة الإرهاب بأحدث معدات القتال.

ولا يمكن أن يقضى على الإرهاب والعنف في عالمنا الإسلامي إلا بقيام الدول الإسلامية بتطبيق شرائع الإسلام التي ترتكز على مؤسسات دستورية، تحترم حقوق الإنسان، وتشركه في القرارات التي تهمه وتهم أبنائه وأحفاده، وترفع من مستواه المعيشي والاجتماعي والثقافي والديني.

ومن المؤسف أن يكون الحل الأمني هو المدخل الوحيد السائد في مواجهة الإرهاب في العالم الإسلامي، إذ تبدو المواجهة بين أجهزة الدولة والجماعات المتطرفة كما لو أنها صراع بين طرفين لا ينتهي إلا بقضاء أحدهما على الآخر. ومن المهم في علاج هذه الظاهرة أن لا تتكرر وتنقل وتطبق بحذافيرها على جميع المجتمعات المسلمة، لأن مايصلح لمجتمع قد لا

يصلح لمجتمع آخر، ولكن هناك جلول تصلح لجميع المجتمعات الإسلامية وسنشرع في ذكر أهمها:

المطلب الأول: نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة

" الثقافة الإسلامية " مصطلح حديث شائع الاستخدام في لغتنا وكتابتنا وفي وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وبخاصة على ألسنة المفكرين والأدباء وأساتذة الجامعات وفي الأوساط الاجتماعية والفنية.

ومصطلح الثقافة ليس جديداً في اللغة العربية، فقد عرفه العرب في الجاهلية والإسلام بمشتقاته، ولكن هذا المصطلح بالمعنى الاصطلاحي جديد كل الجدة، فلم تذكره المصادر الفقهية والكلامية والفلسفية العربية التي حوت بين طياتها جميع المعارف الإنسانية التي خُلِّدت باللغة العربية، لغة العلم في العصور الوسطى.

وصارت للعلوم في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية مصطلحاتها الخاصة بها، ولم يرد مصطلح الثقافة ضمن المصادر والمراجع كمصطلح له تعريف محدد، وخير دليل على ذلك خلو كتب مصطلحات الفنون من ذكر هذا المصطلح [١].

إن الحاجة اليوم إلى إعادة الاعتبار للثقافة الإسلامية حاجة ملحة خاصة ونحن نعيش

(١) (١) مثال على ذلك الكتب التالية :

١ ــــ الفهرست (لابن النديم ــــ ت ٣٨٥ هـ ــــ محمد بن إسحاق).

٢ ــــ معجم ماستعجم (للبكري ــــ ت ٤٨٧ هـ ــــ عبد الله بن عبد العزيز).

٣ ــــ الفائق (للزمخشري ــــ ت ٥٨٣ هـ ــــ محمود بن عمر).

٤ ــــ الألفاظ المؤتلفة (للجياني ــــ ت ٦٧٢ هـ محمد بن عبد الملك).

٥ ــــ التعريفات (للجرجاني ــــ ت ٨١٦ هـ ــــ علي بن محمد).

٦ ــــ الحدود الأنيقة (للأنصاري ــــ ت ٩٢٦ هـ ــــ زكريا بن محمد).

٧ ــــ التعاريف (للمناوي ــــ ت ١٠٣١ هـ ــــ محمد بن عبد الرؤوف).

٨ ــــ كشف الظنون للرومي (لحاجي خليفة ــــ ت ١٠٦٧ هـ ــــ مصطفى بن عبد الله).

٩ ــــ الكليات (للكفوي ــــ ت ١٠٩٤ هـ ــــ أبي البقاء أيوب بن موسى).

١٠ ــــ أبجد العلوم (للقنوجي ــــ ت ١٣٠٧ هـ ــــ صديق بن حسن).

في عصر ثورة المعلومات وانفتاح الفضاءات أمام ثقافات التغريب التي اجتاحت في طريقها الكثير من الثقافات العالمية والتي كانت إلى وقت قريب متماسكة أمام الثقافات الغربية الوافدة كالثقافة الصينية واليابانية والهندية والتي بدأت تفقد الكثير من خصائصها ومقوماتها أمام الثقافات الغربية الجارفة.

ومن هنا كانت الحاجة ملحة إلى تضافر الجهود لمراجعة مايقدم للمسلمين من ثقافةإسلامية بثوب جديد يتناسب وتحديات العصر التي أصبحت بحاجة إلى تكاتف الجهود للمحافظة على ما تبقى من معالم وجودنا وهويتنا المهددة. وتتلخص أهمية نشر الثقافة الإسلامية في عدة أمور، ومن أهمها:

١. تحديد شخصية الأمة والفرد المسلم، وذلك من خلال إبراز معالمها، وتحديد خصائصها ومقوماتها، وتقرير عقائدها وعباداتها وقوانينها وأخلاقها وقيمها ومثلها التي حوتها رسالة محمد ﷺ، وتخطيط طريقها في الحياة الإنسانية بما تمثله من دين ودنيا وماض وحاضر ومستقبل.
٢. المحافظة على الهوية الإسلامية في عصر " ثقافة العولمة وعولمة الثقافة "، في الوقت الذي يتحول فيه العالم اليوم إلى قرية كونية بكل ماتحمله كلمة قرية من محدودية في المكان والزمان.
٣. سد النقص في ما تلقاه المسلمون عن الثقافة الإسلامية.
٤. الاعتماد على نصوص القرآن وصحيح السنة النبوية ما أمكن مع الاستئناس بأقوال الصحابة والصدر الأول ومن جاء بعدهم في فهم النصوص الشرعية دون التقيد بوجهة نظر مذهب بعينه.
٥. تقديم صورة عن الثقافة الإسلامية مبرأة من الشوائب والتشويه شاملة لجميع جوانبه وأجزائه مع ترابطها وحفظ نسبها.
٦. تمكين المسلم من وزن جميع المعارف والثقافات والأحداث والمواقف التي يعايشها بميزان الثقافة الإسلامية.
٧. صبغ شخصية المسلم وفق طبيعة الإسلام بأسلوب مقنع يستجيب له ويحمله على الاعتزاز بدينه وتاريخ أمته.
٨. الربط بين المسلمين وعلماء الأمة المشهود لهم بالصلاح والعلم، وذلك من خلال تمكين العلماء من وسائل الإعلام.

٩. صياغة الثقافة الإسلامية وفق منهجية تتناسب مع شرائح المجتمع المسلم، فما يقدم للعوام غير مايقدم لطلبة العلم من حيث طريقتهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير، مع الحفاظ على المفاهيم الإسلامية دون انتقاص أو تحريف.
١٠. إظهار حماية الإسلام للحريات الدينية، واعتبار الدفاع عنها واجباً مفروضاً على المسلم في الوطن الإسلامي.
١١. إبراز العدالة والتي هي المقصد الأساس الذي ميز النظام الإسلامي عن غيره من النظم الذي لايميل ميزانه الحب أو البغض ولا تغير قواعده المودة والشنآن.
١٢. تعويد المسلمين على الانفتاح على الآخرين من أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة، وذلك بعد حقنه بالعلم الشرعي، وذلك من خلال معرفة الأصول والضوابط في التعامل معهم.
١٣. تعريف المسلمين على أهم الحقوق التي عرض لها الإسلام وغفل عنها الكثير من المسلمين اليوم.
١٤. تمكين العلماء من دحض الشبهات التي تثار حول الإسلام في وسائل الإعلام.
١٥. تبصير المسلمين بالعوامل التيي لعبت دوراً كبيراً في تراجع المسلمين الحضاري وسبل النهوض.
١٦. توضيح المقدَّس وغير المقدَّس، مع بيان لأهمية بيت المقدس بالنسبة للمسلمين.
١٧. تبيين وثاقة العلاقة بين الإسلام والإبداع العلمي.
١٨. خلق المحيط أو مايسمى بالبيئة أو الوسط الذي يشكل فيه الفرد المسلم الصفات الخُلُقيّة والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقَة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.
١٩. محاولة الوقوف على تعليل الآراء وحكمة الأحكام التشريعية من النصوص الشرعية الثابتة.

ولو تتبعنا تاريخ المصطلح لوجدناه مر بالمراحل التالية:

مفهوم الثقافة قبل الإسلام:

كانت الثقافة قبل الإسلام محصورة بفنون محدودة كالعلم بأنساب العرب ورواية الشعر والأخبار، وما اختلفت فيه العرب، وكانوا يسمون من يتعاطى هذه الفنون " علاَّمة " ودليل ذلك:

١. ما أخرجه الطبراني في وصف عائشة أم المؤمنين زوجة رسول الله ﷺ وابنة علامة الناس[١].
٢. وماروي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عنه أن النبي ﷺ دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجل، فقال: ما هذا ؟. قالوا: يارسول الله رجل علاَّمة، قال: وما العلاَّمة ؟. قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب وأعلم الناس بعربية وأعلم الناس بالشعر وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب[٢].

وذكر البلاذري [٣] أن عدد الكاتبين من قريش عند ظهور الإسلام كان سبعة عشر رجلاً. وقد سمت المصادر بعض الكاتبين مثل أمية بن أبي الصلت الذي نظر في الكتب وقرأها في الجاهلية [٤]، وكذلك قيس بن نشبة الذي كان يتأله في الجاهلية وينظر في الكتب [٥]، وكان كردوس بن عمرو يقرأ الكتب وينقل عبارات من الإنجيل[٦].

ولا شك أن ورود مصطلحات الكتابة وأدواتها في القرآن الكريم: كاللوح والقرطاس والقلم والمداد يدل على معرفة المخاطبين بها. وكذلك فإن المستوى البياني والفكري للقرآن الكريم يبين المستوى الثقافي للعرب وقت نزوله، فما فيه من أوجه البلاغة ومعاني الحكمة، والمحاجات والأقيسة العقلية كل ذلك يحتاج فهمه إلى مستوى ثقافي وذوق لغوي وقدرة عقلية.

ثم إن القرآن معجزة بيانية أولاً – وإن ظهرت للبعض فيه أوجه أخرى للإعجاز – تحدى الله بها العرب لعنايتهم الفائقة بفن القول، حتى صار شغلهم الشاغل في ندواتهم، بل في سائر حياتهم.

ولا غرابة أن يزداد الاهتمام بالثقافة مع قلة عدد الكاتبين، وذلك لاعتماد العرب على

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ٢٣ / ١٨٢ ، حديث ٢٩٥.
(٢) الحديث في لسان الميزان : ٣ / ١٠٣ في ترجمة سليمان بن محمد الخزاعي ، والمغني عن حمل الأسفار في الأسفار : ١ / ٢٥ ، حديث رقم ٨٠ ، وضعَّفه.
(٣) البلاذري : فتوح البلدان : ٦٦٠ ـــ ٦٦١.
(٤) البلاذري : فتوح البلدان : ٥ / ٥٠٤.
(٥) ابن حجر : الإصابة : ١ / ٢٥٠.
(٦) ابن حجر : الإصابة : ٥ / ٦٤٠.

حفظ الصدر وكانت القبيلة تنقل التراث الثقافي عن طريق السمار في مجالس القبيلة والذي يحضره الشعراء والنسابون والأخباريون، ثم صارت بعد ذلك الأسواق الأدبية التي تجتمع فيها القبائل تتناشد الأشعار وتتفاخر بالأحساب والأنساب، وتزهو بأخبار الكرم والشجاعة والمروءة، وقد لعبت الأسواق دوراً كبيراً في التلاقح الثقافي واللغوي وتوحيد المقاييس النقدية والذوقية، وتقريب اللغات العربية بعضها إلى بعض، وكل هذا كان تمهيداً للقرآن الكريم الذي نزل بلغة قريش(١).

مفهوم الثقافة في عصر الصحابة والتابعين:

لقد كان لنزول القرآن الكريم الأثر الأكبر في جميع مراحل العصور الإسلامية التي انبثقت ثقافتها من هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكان الصحابة يتعلمون من الرسول ﷺ العلم والعمل.

و كانت " الثقافة " في المفهوم النظري تطلق على العلم بالقرآن.

وقد أخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: من أراد العلم فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين (٢).

وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله.

وقال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها حقيقة، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه ذلك معظم سادات الصحابة وأعلامهم ؛ مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم (٣).

وكانت الثقافة في المفهوم العملي تطلق على الأدب، كما جاء في حديث سعيد بن العاص عن أبيه عن جده قال رسول الله ﷺ: " ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن ".

(١) أكرم ضياء العمري ، عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٦٦ ــــ ٢٦٨ ــــ بتصرف

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير : ٩ / ١٣٦ ، حديث ٨٦٦٦.

(٣) محمد عبد الحي الكتاني ، نظام الحكومة النبوية : ٢ / ١٢٢.

وفي حديث عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله عز وجل لهما: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤] كنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار "[١]. وأيضاً حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: " إذا أدب الرجل أَمَتَهُ فأحسن تأديبها وعلَّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران "[٢].

والأدب هو اجتماع خصال الخير في العبد وهو على ثلاثة أنواع:

- أدب مع الله سبحانه.
- وأدب مع رسوله ﷺ .
- وأدب مع خلقه.

وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم[٣].

وسئل الحسن البصري عن أنفع الأدب، فقال: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك[٤].

الثقافة في العصر الحديث:

يشير مصطلح " الثقافة " في العصر الحديث إلى ضروب النشاط في مختلف الميادين مثل: الفكر، واللغة، والأدب، والفن، والمعتقدات، والأعراف، والتقاليد، والتقنية.

وباختصار شديد هي: أسلوب الحياة سواء كان بسيطاً أم معقداً.

---

(١) الحديث معناه صحيح وإسناده ضعيف أخرجه البخاري في التاريخ الكبير : ١ / ٤٢٢ ، والحاكم في المستدرك : ٤ / ٢٦٣ ، وقال البخاري مرسل ، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بقوله : بل مرسل ضعيف، في إسناده عامر بن صالح الخزاز واهٍ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : ٢ / ٨٧١ ، حديث ٢٣٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه : ٢ / ٨٧١ ، حديث ٢٣٣٦.

(٤) الرسالة القشيرية:٤٤٧/٢، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، طبع دار المعارف، القاهرة. ومدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية:٣٥٦/٢، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦ ، طبع دار الكتاب العربي – بيروت.

المطلب الثاني:تحكيم الشريعة الإسلامية:

إن المصاعب، والأزمات التي حلت بالأمة الإسلامية داخليًا وخارجيًا سببها الابتعاد عن العقيدة والشريعة وهي هدي الله وذكره، وإن طول الأمد باستبعاد الشريعة الإسلامية يزيد من الفجوة بين الحكومات وشعوبها، ويزيد من الاجتهادات الخاطئة، والانحرافات الفردية والجماعية في الفكر والسلوك.

ومن المعلوم أن أول واجب على من يلي أمور المسلمين تطبيق شريعة الله فيهم، وسيبقى هذا الواجب المطلب الأول للشعوب الإسلامية، فمنذ سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، على يد غلاة العلمانيين الطورانيين بالتعاون مع الدول الغربية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، والغرب يضغط بكل قواه لمنع تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع الدول التي وقعت تحت نير الاستعمار الغربي، تارة بحجة عدم ملائمة الشريعة للأحوال المستجدة في حياة الناس، وتارة بحجة تعارض أحكام الشريعة مع مقتضيات الحضارة الحديثة ووجوب الأخذ بمعايير الحضارة دون الشريعة، وتارة بسبب وجود الأقليات غير المسلمة في الدول الإسلامية بسبب وجود الحدود كقتل القاتل ورجم الزاني المحص وقطع يد السارق.

وقد تناسى هؤلاء أن تدهور وانحطاط المسلمين، كان من أكبر أسبابه عدم تطبيق الشريعة في حياة المسلمين، ولم يعد يطبق اليوم من الشريعة إلا ما يتعلق في جانب الأحوال الشخصية في أغلب البلاد العربية والإسلامية، وأصبحت الشريعة قاصرة على جانب العبادات وداخل المساجد، وتحري رؤية هلا رمضان وشوال وذو الحجة.

ولعب تعطيل الشريعة الدور الأكبر في نشأة الإرهاب، بحجة أن الإسلام غير مطبق فنشأت أغلب الجماعات الإسلامية لأجل إعادة تطبيق الشريعة الإسلامية المعطلة. وتعتبر " جماعة الإخوان المسلمين " من أكبر الجماعات الإسلامية اليوم التي نشأت عام ١٩٢٨م على يد مؤسسها حسن البنا، والسبب الأول في نشأتها هو سقوط الخلافة الإسلامية، ومحاولة استعادة تطبيق الشريعة الإسلامية، بعد أن تسللت القوانين والتشريعات والدساتير الغربية إلى بلاد المسلمين.

وصارت الجماعات الإسلامية المعتدلة والمتطرفة تبرر وجودها بغياب الشريعة، وأنها ماجاءت إلى لتقيم الدولة الإسلامية، ورفعت شعار "الإسلام هو الحل"، وأما الجماعات

المتطرفة والتي ترعرت في غياهب السجون، فرفعت شعارات تكفير الحكام الذين لا يحكمون بشرع الله، وتكفير المجتمعات، وإطلاق وصف الردة على جميع المسلمين الذين يتحاكمون إلى القوانين الوضعية، بل وصل الحال ببعضها إلى عمل خلافة كتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام " داعش " وقامت بتنصيب أبو بكر البغدادي خليفة للمسلمين، وفعلت من المنكرات مابرر اجتياح العراق وسوريا من قبل الدول الغربية بالإضافة إلى إيران وميليشياتها الرافضية.

ولا شك اليوم بأن تطبيق الشريعة يستلزم تهيئة الأمة وتربيتها حتى تكون على مستوى هذه الشريعة الغراء، وتتحمل تبعات تطبيقها، وأول خطوات هذه التهيئة:

١. تربية الأمة تربية شاملة روحية وجسدية ونفسية لإعداد أمة تليق بالإسلام.
٢. تصحيح مفهوم الأخلاق وإعادة الاعتبار للأخلاق للتسع وتشمل جميع مناشط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية وغيرها من مناشط.
٣. تصحيح مفهوم العلوم الذي بقي منحصراً في العلوم الشرعية، واللغوية، ليشمل العلوم الدينية من طب وهندسة ورياضيات وكيمياء وفيزياء ورياضيات وأحياء وفلك واقتصاد...الخ.

وذكر الدكتور وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته[1] القرار رقم (١٠) بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية والصادر عن مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الخامس بالكويت من ١ إلى ٦ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ/ ١٠ إلى ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٨م. القرار رقم (١٠) بشأن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية:

وجاء فيه: " بعد اطلاعه على البحوث المقدمة من الأعضاء والخبراء في موضوع (تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية) واستماعه للمناقشات التي دارت حوله. وبمراعاة أن مجمع الفقه الإسلامي الذي انبثق عن إرادة خيّرة من مؤتمر القمة الإسلامية الثالثة بمكة المكرمة، بهدف البحث عن حلول شرعية لمشكلات الأمة الإسلامية وضبط قضايا حياة المسلمين بضوابط الشريعة الإسلامية، وإزالة سائر العوائق التي تحول دون تطبيق شريعة الله وتهيئة جميع السبل اللازمة لتطبيقها، إقراراً بحاكمية الله تعالى، وتحقيقاً لسيادة شريعته، وإزالة للتناقض القائم بين بعض حكام المسلمين وشعوبهم وإزالة لأسباب التوتر والتناقض والصراع في ديارهم وتوفيراً للأمن في بلاد المسلمين.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية:٢/٣٥٦

قرر:

أن أول واجب على من يلي أمور المسلمين تطبيق شريعة الله فيهم، ويناشد جميع الحكومات في بلاد المسلمين المبادرة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وتحكيمها تحكيماً تاماً كاملاً مستقراً في جميع مجالات الحياة، ودعوة المجتمعات الإسلامية أفراداً وشعوباً ودولاً للالتزام بدين الله تعالى وتطبيق شريعته باعتبار هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكاً ونظام حياة.

ويوصي بما يلي:

١. مواصلة المجمع الأبحاث والدراسات المتعمقة في الجوانب المختلفة لموضوع تطبيق الشريعة الإسلامية ومتابعة ما يتم تنفيذه بهذا الشأن في البلاد الإسلامية.
٢. التنسيق بين المجمع وبين المؤسسات العلمية الأخرى التي تهتم بموضوع تطبيق الشريعة الإسلامية وتعد الخطط والوسائل والدراسات الكفيلة بإزالة العقبات والشبهات التي تعوق تطبيق الشريعة في البلاد الإسلامية.
٣. تجميع مشروعات القوانين الإسلامية التي تم إعدادها في مختلف البلاد الإسلامية ودراستها للاستفادة منها.
٤. الدعوة إلى إصلاح مناهج التربية والتعليم ووسائل الإعلام المختلفة، وتوظيفها للعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، وإعداد جيل مسلم يحتكم إلى شرع الله تعالى.
٥. التوسع في تأهيل الدارسين والخريجين من قضاة ووكلاء نيابة ومحامين لإعداد الطاقات اللازمة لتطبيق الشريعة الإسلامية.والله الموفق.

والمجمع تأسس عام١٩٧٧ م الموافق ١٣٩٧هـ وهو عبارة عن هيئة علمية إسلامية ذات شخصية اعتبارية مستقلة، داخل إطار رابطة العالم الإسلامي، مكونة من مجموعة مختارة من فقهاء الأمة الإسلامية وعلمائها،

ومن أهداف المجمع:

- ـ بيان الأحكام الشرعية فيما يواجه المسلمين في أنحاء العالم من مشكلات ونوازل. وقضايا مستجدة من مصادر التشريع الإسلامي المعتبرة.
- ـ إبراز تفوق الفقه الإسلامي على القوانين الوضعية وإثبات شمول الشريعة

واستجابتها لحل كل القضايا التي تواجه الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان.

- ـ نشر التراث الفقهي الإسلامي وإعادة صياغته، وتوضيح مصطلحاته وتقديمه بلغة العصر ومفاهيمه.
- ـ تشجيع البحث العلمي في مجالات الفقه الإسلامي.
- ـ جمع الفتاوى والآراء الفقهية المعتبرة للعلماء المحققين، والمجامع الفقهية الموثوقة في القضايا المستجدة، ونشرها بين عامة المسلمين.
- ـ التصدي لما يثار من شبهات وما يرد من إشكالات على أحكام الشريعة الإسلامية.

المطلب الثالث: معالجة المشكلات الاقتصادية:

مشكلة الفقر والفقراء والبطالة من المشكلات التي اهتم بها الإسلام اهتماماً كبيراً بحسب حجمها، ووضع من التشريعات ماقلل من حجمها بل جعل أغلب الكفارات في علاجها، واعتبر الغنى بعد الفقر نعمة يمتن الله بهاعلى عباده: قال تعالى:﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[الضحى: ٨]، وقال تعالى:﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾[قريش: ٤]، وريط بين الإيمان والتقوى من جانب والرزق الوفير، فقال تعالى﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وربط بين زيادة الرزق وزيادة العمر وصلة الرحم حتى يمنع الإنسان من الطغيان بالمال كما قال تعالى:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾[العلق: ٦-٧] وقال رسول اللهﷺ" من أحب أن يُبسط له رزقه وينسأ له أثره فليصل رحمه"[(١)] . وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه و سلم قال:" من سره أن يعظم الله رزقه وأن ينسأ له في أجله فليصل رحمه "[(٢)]، وجعل من أسباب الفقر الكفران بأنعم الله:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَـٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[النحل: ١١٢، ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الحسن: " أن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه" [(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه:٥٦/٣،حديث ٢٠٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه:٣ /٤١ ، حديث ٣٤١١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، حديث:١٣٣٤/٢،حديث ٤٠١٢.

وجعل بعض الكفارات في سد حاجة الفقراء،

فكفارة اللغو في اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾[المائدة: ٨٩].

وقتل الصيد للمحرم كفارته إطعام مسكين﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) ﴾ [المائدة: ٩٥].

و كفارة الظهار إطعام ستين مسكيناً﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

ورتب الأجر العظيم على إطعام الناس أيام المجاعات﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ﴾[البلد: ١١-١٦].

وفرض الزكاة وقرنها بالصلاة في ست آيات ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [البقرة: ٤٣، ١١٠، ٨٣،والنساء ٧٧،والنور ٥٩، والمزمل ٢٠].

وشن أبو بكر الصديق حرباً على الذين امتنعوا عن أدائها، فقال: " والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول اللهﷺلقاتلتهم على منعها قال عمر t فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر t عنه فعرفت أنه الحق"[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه:١٠٥/٢، حديث ١٤٠٠.

ورغب بالصدقات وحث عليها: قال تعالى:﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧١]،﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾[البقرة: ٢٧٦] ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠]

وشرع الوقف كمورد اقتصادي دائم ومستقل:

وتكمن أهمية الوقف في أنه مورد اقتصادي فاعل، يسهم في تلبية حاجات المسلمين وغيرهم الضرورية والحاجية والتحسينية من الإطعام والتعليم والدعوة من خلال بناء المساجد والمدارس والمعاهد، وإنشاء المشفيات وغير ذلك وإقامة هذا المورد العظيم بأفرعه وأصنافه في سائر بلاد المسلمين وغيرهم يسعى إليه الإسلام؛ لتكتفي الأمة المسلمة بما ليدها من موارد اقتصادية بدل أن تستدين من غيرها، أو تنتظر إحسان غيرها عليها، بل إن الأمة الإسلامية بأفرادها وجماعاتها حين تضع هذا المقصد أمام ناظريها، وترسم له الخطط الاستراتيجية السبعية تستطيع - بإذن الله تعالى وفضله الاكتفاء ذاتيًا في المراحل الأولى، ثم تصبح من الدول ذات الإنفاق والإحسان على غيرها مسلمين كانوا أو غير ذلك. ولقد عاشت الأمة المسلمة قرونًا وعقودًا سابقة لديها الدخل الكبير، والموازنات العالية دائمًا بسبب كثرة الأوقاف[1].

وحث على العمل وهي من أكبر الأسباب التي يستغلها المنظرون للإرهاب، وتشير الدراسات[2] إلى أن الفقر يشكل الحاضنة الأوسع لزرع الأفكار التي تؤدي لجنوح الشباب إلى الإرهاب والتطرف والعنف والإجرام بسبب الحرمان، واتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء بشكل مطرد ومتسارع.

اعتبر الإسلام الفقر مصيبة وآفة، يتعوذ بالله منها وقدم حلولاً جذرية عملية من خلال القرآن والسنة الإسلام على التكسب ذا نجد أن الإسلام - من خلال نصوص القرآن والسنة - له تصوره المتميز لهذه القضية، حيث :يعتبر أن الفقر مصيبة وآفة خطيرة توجب التعوذ

(١) المقاصد الشرعية والأبعاد المصلحية للنظام الوقف في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية: ص٨ ، من إعداد د. عبد الرحمن بن جميل بن عبد الرحمن قصاص

(٢) انظر على سبيل المثال : بحث العنف الفكري كشكل من أشكال الإرهاب، لمحمد محمود عبده صالح مع آخرين، مج جامعة الطائف ،س ١٤ ، ع٧٣، أكتوبر ٢٠١٣م.

منها ومحاربتها، وأنه سبب لمصائب أخرى أشد وأنكى.

وأنكـر النظـرة الجبرية التقديسية للفقـر والحرمان، فكيف تُقدَّس الآفات ذات الأثر السيئ علـى دين الأمـة ودنياها؟ وكيف ينظـر إلى الفقر على أنه قـدر الله المختوم، ولا يُعدُّ الغنى كذلك قدرٌ يدفع به الفقر لتصلح الأوضاع وتعتمر الأرض ويتكافل الناس؟

ورغـب الإسلام بالدعـاء بطلب الغنى: فقد أخـرج مسلم في صحيحه مـن دعاء رسول اللهﷺ: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى" .[1]

وجعل من علامات حب الآخرين الدعوة لهم بتكثير المال: كما أخرج البخاري في صحيحه أن رسول اللهﷺدعا لصاحبه وخادمه: " اللهم أكثر ماله"[2].

وقـدّم حلولاً عملية واقعية يأخذ بها الناس ليدرؤوا عـن أنفسهم شبح الفقر والحرمان وما ينجم عنه، ومن ذلك:

١- العمل والسعي في طلب الرزق:

ويعتـبر العمـل المصدر الأساس في التكسـب، وكان أغلب الصحابـة الأوائل يعملون في التجـارة وقـد اشتغل رسـول الله ﷺ بالتجارة، واشتغل صحابته الكـرام بذلك ومنهم: أبو بكـر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عـوف، وطلحة بن عبيد الله – رضي الله عنهم – وغيرهم، وقد تواصى السلف فيما بينهم ومع تلامذتهم أن: "الزموا السوق" وفي كتب الفقه تُخَصَّص كتـب للبيوع وما يتعلق بها وغيرها من الكتب حـول التجارة ومعاملاتها. وحثهم الرسول على الزراعة وإحياء الموات.

٢. الجهاد: من الوسائل التي شرعها الإسلام لمحاربة الفقر والحاجة الجهاد بالضوابط الشرعية.

٣- كفالـة المجتمع: لأن يوجـد في كل مجتمع بشري أيتام وأرامـل وعجائز لا عائل لهم، وعجزة بسبب الحوادث واللأمراض الخلقية.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه:٢٠٨٦/٤، حديث٢٧٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٧٣/٨، حديث ٦٣٣٤.

المطلب الرابع: التصدي لمختلف صور الفساد في المجتمعات الإسلامية

ومن أبرز صور الفساد:

١. عدم التحاكم إلى الشريعة ومحاولة انتقاصها والتحقير من شأنها.
٢. الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي.
٣. الانتهاك المنظم لبلاد المسلمين من قبل الكفار وأعداء الإسلام، وتقصير الحكام في هذا الجانب
٤. فساد التعليم بشكل عام وتدني مستواه.
٥. احتلال اليهود لفلسطين، وعدم التحرك الجاد لتحريرها، بل وصل الأمر إلى التضييق على أهلها والوقوف مع اليهود ضد المسلمين.
٦. تفرج الحكام على المذابح التي تجري في البلاد العربية والإسلامية للشعوب إما من قبل الدول الإقليمية كإيران في سوريا والعراق واليمن، أو من قبل المليشيات التابعة لها كحزب الله في لبنان، وجماعة الحوثي في اليمن.
٧. الإباحية وتفشي الزنا والعري.
٨. إهمال الشباب من قبل المسؤلين، وعدم إشراكهم في مايخص شؤونهم
٩. محاربة الدعاة الصادقين والتضييق عليهم، وفسح المجال أمام الدعاة المتملقين.
١٠. إضعاف وتفريغ المساجد من الدور الحقيقي الذي كانت تلعبه فيما مضى.
١١. دعم الفساد في الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، وعدم فسح المجال للإعلام الإسلامي، للوقوف أمامه والرد عليه.
١٢. الاهتمام الزائد بالرياضة، وبالبرامج التلفزيونية التي تقدم أسوأ الشباب بحجة اكتشاف مواهب الرقص والغناء على حساب القيم والأخلاق الإسلامية.
١٣. غياب فرص العمل وانسداد الأفق في عمل يضمن الحياة الكريمة.
١٤. عدم شغل أوقات الشباب بالمفيد والنافع.
١٥. غياب نظام الحسبة عن أغلب بلاد المسلمين.
١٦. هجرة العقول والشباب من البلاد العربية والإسلامية إلى الدول الأجنبية.
١٧. الفساد الأخلاقي.

قائمة المصادر والمراجع

١. الإرهاب تعريفه وآليات مكافحته، لعبد المجيد مبلغي وآخرون، طبع مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي وما بعدها، بيروت.

٢. الإصابة لابن حجر، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض،ط١، طبع دار الكتب العلمية – بيروت.

٣. أسباب ظاهرة الإرهاب في المجتمعات الإسلامية رؤية ثقافية، للدكتورعبد الله بن محمد العمرو.

٤. أضواء البيان، لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، طبعة ١٤١٥هـ، طبع دار الفكر، بيروت.

٥. تاج العروس، للزبيدي تحقيق مجموعة من المحققين، طبع دار الهداية.

٦. التاريخ الكبير، للبخاري، طبع دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن.

٧. تفسير الراغب الأصفهاني، بتحقيق الدكتور محمد إقبال فرحات، رسالة دكتوراة غير مطبوعة، مقدمة لجامعة الزيتونة ١٩٩٨م.

٨. تلقيح الأفهام العلية بشرح القواعد الفقهية، لوليد بن راشد السعيدان، راجعه وعلق عليه: الشيخ سلمان بن فهد العودة.

٩. التمثيل والمحاضرة للثعالبي، تحقيق عبد الفتاح الحلو، مكتبة عيسى البابي الحلبي.

١٠. جامع معمر بن راشد، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، نشر المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠٣ هـ.

١١. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، ط١، طبع دار ابن الجوزي، السعودية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

١٢. جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق رمزي منير بعلبكي، طبع دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٣. الرحيق المختوم، للمباركفوري. طبع دار الهلال - بيروت (نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع)

١٤. الرسالة القشيرية، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، طبع دار المعارف، القاهرة

١٥. الروض الأنف للسهيلي، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٦. سنن ابن ماجه، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومجموعة،ط١، طبع دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

١٧. سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط٣،طبع دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٨. سنن النسائي الكبرى، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، ط١،طبع مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

١٩. سيرة ابن هشام، طبعة طه عبد الرءوف سعد، طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة.

٢٠. شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول،ط١، دار الكتب العلمية — بيروت.

٢١. صحيح البخاري، بتحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٢. عصر الخلافة الراشدة أكرم ضياء العمري، ط١، طبع مكتبة العبيكان بالرياض، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٣. علم المقاصد الشرعية للدكتور نور الدين الخادمي، طبع مكتبة العبيكان، ط١،١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٢٤. العنف الفكري كشكل من أشكال الإرهاب، لمحمد محمود عبده صالح مع آخرين، مج جامعة الطائف، س ١٤، ع٧٣، أكتوبر ٢٠١٣م.

٢٥. فتوح البلدان للبلاذري، طبع دار ومكتبة الهلال- بيروت ١٩٨٨ م.

٢٦. القاموس المحيط للفيروزآبادي، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م،،

٢٧. لسان العرب، لابن منظور، طبع دار صادر ودار بيروت: بيروت، ١٩٥٥م / ١٣٧٤ هـ،

٢٨. لسان الميزان لابن حجر، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط١، طبع دار البشائر الإسلامية ٢٠٠٢ م

٢٩. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية،تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، ١٤١٦ه، ١٩٩٦، طبع دار الكتاب العربي — بيروت.

٣٠. المستدرك للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، طبع دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ — ١٩٩٠.

٣١. مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، طبع مكتبة الرشد – الرياض، ١٤٠٩هـ.

٣٢. المعجم الأوسط: ٦٣١٩، والبيهقي في شعب الإيمان:١/٢٦٢،حديث ١١٩، وأورده الألباني في السلسة الصحيحة، برقم ١٧٨٨.

٣٣. المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، طبع مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

٣٤. معجم لغة الفقهاء، للدكتور محمد رواس قلعجي، طبع دار النفائس، ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٥. معجم مقاييس اللغة لابن فارس،تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، طبع دار الفكر، بيروت، ط١ ١٤١٥ه- ١٩٩٤م.

٣٦. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار للحافظ العراقي، ط١، طبع دار ابن حزم، بيروت – لبنان ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥،

٣٧. مفاهيم الإرهاب والعنف، واختلاف وجهات النظر حولها، أ.د. محمد على الهريفي. (من ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر موقف الإسلام من الإرهاب، المنعقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، في الفترة ٢-١٤٢٥/٣/٣هـ).

٣٨. مفردات الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، طبع دار القلم دمشق،الطبعة السادسة، ٢٠١٤م.

٣٩. المقاصد الشرعية والأبعاد المصلحية للنظام الوقف في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية: ص٨، من إعداد د. عبد الرحمن بن جميل بن عبد الرحمن قصاص.

٤٠. المهذب في علم أصول الفقه المقارن، لعبد الكريم النملة، طبع مكتبة الرشد بالرياض، ط١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٤١. الموافقات للشاطبي، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، طبع دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

٤٢. نظام الحكومة النبوية لمحمد عبد الحي الكتاني، تحقيق عبد الله الخالدي، ط٢،طبع دار الأرقم – بيروت.

د. حمادي هواري

- الاسم : هواري Hammadi
- اللقب :حمادي Houari
- تاريخ الازدياد: ٢٤-٠١-١٩٧٥ باستيدية، مستغانم، الجزائر.
- العنوان: قدادرة، فرناكة، مستغانم، الجزائر.
- رقم الهاتف: ٠٧٧٢٩٣٣٥٨٧/ خاص بالجزائر: ٢١٣.

الشهادات:

- بكالوريا –آداب وعلوم إنسانية- جوان ١٩٩٤.
- ليسانس فلسفة ،جوان ١٩٩٨.
- ماجستير في الفلسفة أفريل٢٠٠٧ الموسومة بإشكالية الواحد والمتعدد بين أفلوطين وابن عربي.
- شهادة الدكتورة علوم، ٢٦ جوان ٢٠١٣، الموسومة بالنص القرآني وآليات الفهم المعاصر-.
- شهادة التأهيل الجامعي، ١٥-٠١-٢٠١٥.

المقالات:

١. المشاركة في مجلة المواقف عدد٤، ٢٠٠٩، بمقال حول الهجرة والإدماج والترجمة.
٢. المشاركة في مجلة لوغوس، العدد التجريبي، أفريل ٢٠١١، بمقال إشكالية الواحد والمتعدد عند المتصوفة.
٣. المشاركة في مجلة إيقونات، عدد ٠٢- ٢٠١١، بمقال بعنوان سيميائيات المنطق اليوناني.
٤. المشاركة في مجلة المواقف عدد ٦، سنة٢٠١١ بمقال بعنوان إشكالية القراءة في النص القرآني.
٥. المشاركة في مجلة-الأصالة والمعاصرة- ع ٢أفريل ٢٠١١، بمقال: إشكالية التراث اليوم.
٦. مقال إلكتروني بعنوان: صراع الحضارات الوهم الخطير.

المؤتمر الدولي القرآني: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة

التشكيك في الثوابت-الوحي القرآني أنموذجا-

الدكتور
حمادي هواري
جامعة معسكر، الجزائر

مدخل:

عندما نتتبع توظيف القرآن الكريم في معالجة مختلف المشاكل عبر العصور، ندرك أنه سواء أُوظف في المشاكل المتعلقة بالعقيدة أو تلك التي ترتبط بالشريعة، قد وُظف بصورتين متباينتين بل ومتناقضتين، واحدة تؤكد كماله وتعاليه وإلاهيته تبلورت في الفهم الكلاسيكي له مع الصحابة والتابعين...، وأخرى تمس بقداسته وتقع في الانحراف في فهمه وجدت عند رواد القراءات الجديدة و المجددين لفهمه في إطار مناهج الغرب، وهما ما ترتب عنهما أثرا وانعكاسا في توظيفه في فهم مختلف القضايا، حيث أصبح القرآن الكريم يخضع لتأويلات وتفكيكات من أجل فهمه هو ذاته، ناهيك عن المسائل الناتجة عنه تلك التي ترتبط بطرحه لمسائل التوحيد والتكفير...، هذا التطور الذي عرفه مفهوم ومميزات القرآن الكريم بين الأمس واليوم، بين تصوره بين الصحابة والتابعين وتابيعهم ماضيا ودعاة القراءات الحداثية اليوم كانت ذريعته الكبرى توظيف النص القرآني في مواكبة مشكلات اليوم، وعليه نطرح الإشكال: كيف تطور النظر للقرآن الكريم لدى دعاة القراءات الحداثية للقرآن الكريم؟ وما أثر ذلك على فهم قضايا العقيدة والفكر في الفترة الراهنة؟ وما السبيل إلى تجاوز تلك الرؤى؟

من أجل معالجة هذا الإشكال، سنبحث في تصور حقيقة القرآن الكريم بين الفترتين الكلاسيكية والمعاصرة، وإثارة مسألة التشكيك في ثباته وتعاليه في القراءات المعاصرة له، وأثر ذلك على فهم المشاكل المعاصرة في الفترة الراهنة وذلك في النقاط التالية:

١. مفهوم القرآن الكريم وآليات فهمه من التصورات الكلاسيكية إلى المعاصرة.
٢. التشكيك في قدسية القرآن الكريم والثورة على الموروث في القراءات الحداثية.
٣. نظرة نقدية تحليلية للقراءات الحداثية.
٤. نقد توظيف القرآن الكريم لدى الحداثيين في فهم قضايا العقيدة والفكر.
٥. رؤى واستشرافات في توظيف القرآن الكريم في فهم تحديات الراهن.

١-مفهوم القرآن الكريم وآليات فهمه من التصورات الكلاسيكية إلى المعاصرة:

إن طبيعة التصور الذي يحمله المتعامل مع القرآن الكريم، يحمل صدى بليغا في كيفية توظيفه في معالجة مشكلات الواقع المعيش، لذلك وجب في البداية أن نشير إلى أن التشكيك في قدسية القرآن الكريم، نابعة من التصور الملحق به الذي يصنع نمطا من الفهم لمختلف المسائل المطروحة فيه، والتغير الحاصل في مفهومه هو أول نقطة وجب أن تثار، فما طبيعة التغيير الحاصل في النظر إلى القرآن الكريم بين الفترتين الكلاسيكية والمعاصرة،وكيف يعكس تشكيكا في ثباته وتعاليه؟

أ-مفهوم القرآن وآليات قراءته في الفترة الكلاسيكية: في اللغة يصرح›الزركشي› في أحد التعريفات "وأما القرآن فقد اختلفوا فيه فقيل هو اسم غير مشتق من شيء، بل هو اسم خاص بكلام الله، وقيل: مشتق من القري وهو الجمع، ومنه قريت الماء في الحوض أي: جمعته، قاله الجوهري وغيره"[١]، ويذهب السيوطي(٩١١ه) على لسان الراغب أنه: "لا يقال لكل جمع: قرآن، ولا لجمع كل كلام، قرآن. قال وإنما سمي قرآنا، لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها" [٢].

في الاصطلاح: هو " كلام الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ باللفظ والمعنى، بواسطة جبريل، المتعبد بتلاوته، وإعجاز الخلق عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، المنقول إلينا نقلا متواترا وهو كلام الله منزل غير مخلوق، منذ بدأ وإليه يعود، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مسموع بالآذان"[٣].. أي هو كلام الله وحده دون غيره من الإنس والجن والملائكة، والمنزل على محمد ﷺ يخرج عن كل ما أنزل على الأنبياء من قبله، والمتعبد بتلاوته أي المأمور بقراءته في الصلاة على وجه العبادة.

(١) لزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٤. ص ٣٤٧.

(٢) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر،الإتقان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، د ط، ٢٠٠٥، ص١٣٧.

(٣) دربالة إسلام محمود ، موسوعة علوم القرآن، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر ط١، ٢٠٠٧، ص ١١.

وهــو " الكتاب المنزل على نبيه المكتوب بين دفتــي المصحف، فهو مصدر إلهي بحت، لم يمســه تصحيـف أو تحريـف "إنا نحن نزلنا الذكـر وإنا له لحافظـون" (١)، وذلك دليل على توجيه إلهي وإرشاد سماوي، شعر المسلم أنه لن يضل أبدا إن اهتدى بهدي ذلك الكتاب حتى غدا القرآن الدستور الروحي للمسلمين، ومن ثم حرص علماء البلاغة على الدلالة على أوجه إعجــازه وقد انبثــق عن القرآن الكريم معظم العلوم الدينية كالقــراءات، والتفسير، والفقه، والنحو، والبلاغة، والكلام، والتصوف" (٢).

من خلال المفهومين السابقين، البحث في معنى القرآن الكريم لدى الصحابة والتابعين، يــدرك في تصور القرآن الكريم في ســوره وآياته لنفسه ككتاب ووحي سماوي متعال منزه عن الخطـأ وكلام معجــز يعجز البشر عن الإتيــان بمثله، يقرأ ويفهم بواسطــة التفسير كمنهج أنسب لتحديد معانيه.

ومن خصائص الوحي القرآني:

-الوحــي القرآني يمثل كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، يمثل الرسالة الإلهية الوحيدة الصحيحــة والمطلقــة والكاملــة والنهائية التي صححــت كل ما ورد من تحريفــات في الكتب السماوية الأخرى.

-الوحــي القــرآني يمثل المصدر النهائــي والوحيد لكل العقائد والشرائــع في الكون، هو الجامــع لكل ما ورد في الكتــب السماوية باعتباره ثمرتها، وهو المصــدر لمختلف العلوم دينية ودنيوية تقرأ نصوصه بالتفسير الذي هو المنهج الوحيد المناسب لفهمه .

-الوحي القرآني هو من أنباء الغيب يمثل ما هو متعال على الواقع وما يخرج عن التاريخ، طبقــا لقوله تعــالى: في الآية ٤٤ من سورة آل عمران" ذلك من أنبــاء الغيب نوحية إليك وما كنــت لديهم إذ يلقــون أقلامهم ، أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهــم إذ يختصمون" فهو من قبيــل المقدس الــذي يمكن المقارنة بينه وبين البشري بأي وجه، ولا يمكن أن تبلغالعقول فهمه مهما أتيحت لها من آليات وأدوات.

(١) قرآن كريم، سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) صبحــي أحمد محمــود، وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفــة الحضارة- اليونانيــة ،الإسلامية، الغربية- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦، ص ٥٥.

-الوحي القرآني يساوي ما ورد في المصحف العثماني المدون يفهم في إطاره، وباعتماد علوم القرآن الكريم كما وجدت في عهد النبي والصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

الوحي القرآني هو معجزة الإسلام الكبرى الذي تحدى بإعجازه اللغوي والعلمي ما أبدعه العرب من شعر ونثر ونظريات علمية ومذاهب فلسفية.

-الوحي القرآني كتاب مقدس يمثل المصحف كأداة للتبرك ودرء الشرور والأمراض ومباركة العمر ...تكون الحياة في ظله، لأن " الحياة في ظل القرآن نعمة، ترفع العمر وتباركه، وتزكيه، وحمد الله الذي من عليه الحياة في ظلال القرآن فترة من الزمن ذاق فيها من نعمته ما لم يذق قط في حياته" [١].

فالوحي القرآني هو من قبيل الغيب والمقدس والمتعالي والمطلق والكتاب الصحيح والنهائي والوحيد، يمثل ما ورد في المصحف المدون يجب التسليم به دون أشكلته أو التفلسف في ميدانه، مهما تتوفر لنا من آليات للدراسة والبحث في ميدانه، لأنها تمس بقداسته.

آليات قراءة القرآن الكريم: -التفسير والتأويل-

التفسير: يمثل قراءة الرسول ﷺ والتابعين... للنص ، والتفسير كشف المراد عن لفظ المشاكل، ويرتبط به الاستفسار وهو السؤال عن التفسير، كما يرتبط بالفسر كذلك وهو نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التفسره وهي البول الذي يستدل به على المرض وينظر فيه الأطباء ويستدلون بلونه على علة العليل [٢]، فمعنى التفسير في اللغة هو البيان والكشف والإيضاح لما هو مغطى أو غير واضح وإظهار ما هو خفي، وفي الاصطلاح: يفهم كمنهج للتعامل مع النصوص القرآنية، وهو" علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها"[٣] ، وهو كذلك: " اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع "[٤] و يمكن القول أن التفسير

(١) الخالدي صلاح عبد الفتاح ، مدخل إلى ظلال القرآن، دار الشهاب للطباعة الجزائرية، الجزائر ، د ت، د ط، ص ٨٤.

(٢) ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم،لسان العرب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١ ، ٢٠٠٥، ج١، ص ٦٣٢.

(٣) الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ١٤٦.

(٤) كافي منصور، مناهج المفسرين، دار العلوم للنشر، عنابة الجزائر، د ط، ٢٠٠٦، ص ١٨.

عند علماء الدين منهج لفهم القرآن يقوم على المعرفة بعلوم اللغة العربية وعلوم القرآن ككل، كمنطلق لتحديد المعاني الواردة في الآيات والسور القرآنية لكي تكون سندا لفهم مسائله المتعلقة بالعقيدة والشريعة.

التأويل: هو بدوره أقدم المناهج يربط الباحثون وجوده بشخصية الصحابي ‹ابن عباس› (ت١١٥ه) ، الذي علمه الله التأويل بدعاء النبي ﷺ، وهو "في اللغة من الأول، ومعنى قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ أي: إلام تؤول العاقبة في المراد به؟ كما قال تعالى:› يوم يأتي تأويله› (سورة الأعراف آ٣٥) أي تكشف عاقبته، ويقال: آل الأمر إلى كذا، أي صار إليه، وقال تعالى: ‹ذلك تأويل ما لم تسْطع عليه صَبرا[(١)]" [(٢)]، و هنا يتبين أن التأويل مشتق مما يؤول إليه الأمر، وأصله من المآل، وهو العاقبة والمصير، كما يرتبط كذلك "بالأيالة، وهي السياسة انطلاقا من أن "المؤول للكلام يسوي الكلام، ويضع المعنى في موضعه"[(٣)]، أما في الاصطلاح فهو "تصفية الظاهر والباطن"[(٤)]، حيث يرتبط بتجاوز ظاهر اللفظ إلى معناه الباطني، وهو في اصطلاح علماء الدين لا يختلف عن التفسير بالرأي، "فهو ليس بعلم لكونه يتبع علم التفسير من حيث العموم ويتميز عليه من حيث الخصوص"[(٥)]، فعلى الرغم مما كتبه ‹الزركشي› و›السيوطي› بصدد الحديث عن التفرقة بين التفسير والتأويل، (*[(٦)])

---

(١) قرآن كريم، سورة الكهف،الآية: ٨٢.

(٢) الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ١٦٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) بوعرفة عبد القادر وآخرون، التأويل والترجمة، مقاربات لآليات الفهم والتفسير، نقلا عن: ابن جزي، التسهيل في علوم القرآن ص ١٠ ، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١ ، ٢٠٠٩، ص ٢٢٦.

(٥) المرجع نفسه

(٦) في كتابيهما ("البرهان" (ص١٦٥،١٦٤)و الإتقان(٨٤٩،٨٤٨) يميز كل من السيوطي والزركشي بين التفسير والتأويل في المفهوم حسب أوجه مختلفة بالاستناد إلى أقوال العلماء كما يلي:
التفسير أكثر استعمالا في الألفاظ ويرتبط بمعانيها الظاهرة، بينما التأويل أكثر استعمالا في المعاني والجمل وفي الكتب الإلهية ويرتبط بالباطن.
التفسير يستعمل في غريب الألفاظ وفي وجيز مبين، وإما في كلام مضمن لقصة لا يمكن تصويره إلا لمعرفتها، أما التأويل فيستعمل مرة عاما ومرة خاصا.
التفسير بيان وجه واحد للمعنى بصورة قطعية أما التأويل فترجيح لأحد معانيه.
التفسير يتعلق بالرواية والإتباع والسماع بين التأويل يتعلق بالدارية والاستنباط.

إلا أن تلك التفرقة ارتبطت بالمعنى لا بالاستخدام المنهجي لهما، الذي عكس وجهة نظرة خاصة هيمن فيها طابع التفسير كمنهج مشروع وجوهري، في مقابل اعتبار التأويل تابع له و يستخدم تحت مظلته، في إطار ما يسمى بالتأويل المحمود الذي يكمل التفسير و يكون ملتزما بقواعده، وهذا الرفع من قيمة التفسير عن التأويل هو الذي عبر عن مسألة جوهرية في إشكالية قراءة النص القرآني، تجسدت في معارك تاريخية بينهما، كان الانتصار فيها في الغالب للتفسير، باعتباره منهج الصحابة والتابعين يحترم قدسية القرآن الكريم.

التشكيك في قدسية القرآن الكريم والثورة على الموروث في القراءات الحداثية:

تمثل هذه القراءات، تأويلات وتفكيكات ... تسعى إلى التحرر من كل الخطوط الحمراء التي أقامها رجال الدين حول النص القرآني التي تصطلح عليها بالسياجات الدوغمائية والأرثوذكسية، وباختصار هي تتحرر " من الهيبة الساحقة للنص"[1] [2]. حيث أن جوهرها نزع القداسة عن النص أو التعامل معه بحرية لا تحدها حدود أو قيود، فكيف شككت في قدسية القرآن الكريم؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال من جانبين، أولا: البحث عن المفهوم الجديد للقرآن الكريم واعتباره مجرد نص وخطاب وظاهرة مثل ما هو طبيعي وما هو بشري، ثانيا: نقد اهمية التفسير في قراءته ونقد كل ما هو موروث في فهمه، وكلاهما غايته زحزحة وزعزعة القداسة التي يتصف بها .

-اعتبار القرآن الكريم ظاهرة ونصا وخطابا:

إن أهم المصطلحات التي أصبحت تطلق على الوحي القرآني عند فلاسفة العرب المعاصرين المشتغلين على الخطاب القرآني، مصطلح الظاهرة القرآنية، تلك التي تجعله لا يختلف عن غيره من الظواهر القابلة للدراسة العلمية الموضوعية، كالظواهر طبيعية، و ويعتبرون ذلك شرطا لدراسته دراسة موضوعية ومنطلقا لتطبيق الآليات المعاصرة في ميدانه، تبعا لما تحمله الكلمة –ظاهرة- من واقعية وتاريخية وتجاوز للتعالي والاطلاقية، أما البحث في القرآن نصا فإنه يرتبط بما هو مدونا، ويعتبره جزءا من الوحي ومن الظاهرة

(١) – أركون محمد، د س، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ط٣، ٢٠٠٦ ، دار الساقي بيروت لبنان، ص ١٣ .
(٢)

القرآنيــة وليســ مماثلا لهمــا، ويعتبر›أركــون› من أكــبر الفلاسفة الذيــن اشتغلوا بذلك، وتكلمــوا عن القرآن الكريم كنص من خلال زوايا مختلفة في إطار فهمه لظاهرة الوحي التي طرحنــا تصوراته حولهــا فيما سبق، حيث يصــرح "إني أقول بأن القرآن ليســ إلا نصا من جملة نصوص أخرى تحتوي على نفس التعقيد والمعاني الفوارة الغزيرة: كالتوراة، والأناجيل، والنصوص المؤسسة للبوذية والهندوسية. وكل نص تأسيسي من هذه النصوص الكبرى حظي بتوسعــات تاريخيــة معينة وقد يحظــى بتوسعات أخرى" (١)، هنا يكــون النص القرآني نصا دينيــا مثل النصوص الأخرى مؤسســا لجملة من المبادئ تقبل التوسع والتشكل عبر التاريخ، و›أركــون› كعادته انطلــق من نظرة نقدية للتصور الكلاسيكي للنصــ القرآني، الذي يعرف عنــد العامــة والخاصة بالمصحف، حيث يسميــه بالمصحف الرسمي كمــا جمع منذ الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويطلق عليه "المدونة الكبرى" مؤكدا أنه ليس مطابقا للوحي القرآني،باعتبــاره لا يعــبر عن الوقائع المصاحبة لتشكل النصــ ويتجاوز ، أما وصف القرآن الكريم بالخطاب، فيصرح به الكثير من فلاسفة العرب المعاصرين،حيث يؤكدون أنه بصدد قراءتهــم للنصــ القرآني، يتجاوزون اعتبــاره نصا إلى النظر إليه كخطــاب أي كسلسلة من العمليات الفكرية تعبر عنها عبارات متسلسلة، التي يصف بها أركون الآيات التي تمثل عنده مجرد عبارات لغوية ونفس الموقف يتضح لدى أبو زيد الذي يعتبر الآيات والسور مجرد تعبير عن الثقافة العربية..،وبالتالي يعتمد مختلف رواد الآليات المعاصرة في مجال النص القرآني علــى أن المفهوم الأنسب له هو وصفه بالخطــاب القرآني، من أجل استعمال الأدوات التقنية والمنهجية المعاصرة في فهمه، والتي تدخل في منهج تحليل الخطاب على وجه الخصوص.

-نقد الاجتهاد التقليدي: القراءات المعاصرة للقرآن الكريم قبل أن تكون دعوة لتطبيق المناهــج الجديدة في فهمه، تمثل نقدا لاذعا للمناهــج الكلاسيكية المطبقة في قراءة القرآن الكــريم، وتعــبر عن خطاب ديني جديد يتخــذ طابعا نقديا حين "يعتــبر الأدبيات التاريخية الكلاسيكيــة التــي تتحــدث عن الإســلام، تطرح لنا الأمــور بطريقة لم تعــد مقبولة من قبل المفكر المعاصر، حيث أضاف العلم مجموعة من الأدوات الجديدة في البحث واتسعت أرضية

(١) أركون محمد، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل،نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، تر: هاشم صالح دار الساقي، بيروت لبنان،ط٣، ٢٠٠٧، ص٣٦.

العلـوم لتشمل عددا مذهلا من المناهج"(١)، في نظر الفلاسفة القراءات الكلاسيكية أسست لفهـم يجمد النص القرآني في" فكر لا زمـاني ولا تاريخي لأنه تفكير في نص مقدس، تفكير خـارج الزمن، لا ينال منه الزمن، مهما حدث في تاريخ البشر من تغيرات وأحوال" (٢)يترتب عنـه ما يمكن أن نسميه بالقـراءة الثابتة الواحدة المطابقة المطلقة المبنية على قداسة النص تتنكـر للتاريخ والواقع وتعدد القراءات وتعدد المعنى، إذ اعتبر ‹أبو زيد› أن الخطاب الديني الكلاسيكي حينما يذهب إلى أن الوحي القرآني ظاهرة متعالية، فإنه يتجاهل ربطه بالسياق الـذي وجـد فيه الذي يمكن أن يؤول أو يفهم على منواله، كما ان فهمها يرجع لآليات وأدوات ضعيفة، جوهرها الاعتماد على الدراسة اللغوية الأسلوبية البلاغية، وتجاهل التطور الحاصل في مياديـن العلوم من جهـة وعلى مستوى الوقائع من جهة أخـرى، إذ يؤكد مالك بن نبي أن الظـروف المستجـدة "تقضي بتعديل منهـج التفسير القديم تعديلا ينـاسـب في حكمة وروية مقتضيـات الفكر الحديـث،"(٣) باعتبار أن المنهج القديم المعتمد في قـراءة القرآن الكريم، ليـس مناسبا للتطـور العقلي للشباب اليـوم، باكتفائـه بالدراسة الأسلوبيـة اللغوية، التي لا يستسيغهـا الشباب اليوم، يذهب رواد القـراءات الفلسفية المعاصرة إلى أن ثنائية إن لم نقل معركـة، -الإيديولوجـي والمعرفي- هي أهم مـا تحكم في قراءة النص القـرآني عند العلماء الكلاسيكيـين، إذ يعبر المعرفي في نظرهم عن نمط من الفهم الموضوعي والعلمي، هو الغائب أو المغيـب بفعل عائـق الإيديولوجي الذي يقف حجر عثرة أمام بلوغـه في مجال فهم القرآن الكريم، لابد من الكشف عن قناعه وألاعيبه عند المفسرين التقليديين من جهة وحسب علاقته بالراهـن اليوم مـن جهة أخـرى، إذ يؤكد ‹أركون› أن فهـم النص القرآني وقـع في السياج الدوغمائـي المغلق الذي يعتبر بمثابة "السـور المسيج بالأسلاك الشائكـة للعقيدة الرسمية، بالتـالي فـلا يمكن أن الخروج منـه ما أن تدخلـه أو تندمج فيه، ويصبح العقـل فيه خاضعا للـتراث الأرثوذوكسـي أو الرسمي المقدس" (٤)الذي يطلب مـن المؤمنين التقليديين الخضوع

(١) عبـد الهادي عبـد الرحمن، سلطة النص، قـراءات في توظيف النص الديني، سينا للنشـر –الانتشار العربي، بيروت لبنان ط٢، ١٩٨٨. ص ٢٠٢.

(٢) أومليل علي، سؤال الثقافة -الثقافة العربية في عالم متحول-المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥، ١٢٠.

(٣) بن نبي مالك ،الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق سوريا، د ط، ١٩٨٢.، ص٥٧.

(٤) أركـون محمد ، قضايا في نقد العقـل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟ تر:/ هاشم صالح، دار الطليعة بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٢، ص٢٣٣

للنظام السياسي والاجتماعي، إضافة إلى ذلك يسعون إلى نقد المناهج الكلاسيكية ويعيبون عليها التقليد والتكرار وغياب التجديد والفعالية وروح الإبداع، بحيث يبين ‹الجابري› " أن ما يميز الثقافة العربية منذ عصر التدوين إلى اليوم هو أن الحركة داخلها لا تتجسم في إنتاج الجديد، بل في إعادة إنتاج القديم، وقد تطورت عملية الإنتاج هذه منذ القرن السابع إلى تكلس وتقوقع واجترار، فساد فيها ما سبق أن عبرنا عنه بالفهم التراثي للتراث"[(١)].

نظرة نقدية تحليلية للقراءات الحداثية:

نظرا لتعدد الكتابات في القراءات الحداثية للقرآن الكريم في الفترة المتأخرة لدى أساطين الفكر العربي المعاصر، فإنها قد أثارت اهتمام الكثير من الباحثين سواء أكانوا علماء في الشريعة الذين انتقدوها في النقاط التالية:

إنها قراءة إشكالية غيرواضحة الأبعاد والمقاصد:

لا يتواني رواد القراءات المعاصرة في طرح الأسئلة المختلفة حول القرآن الكريم دون أي حدود، ولا تهمهم الأجوبة عليها والتدليل فيها ومقاصد البحث منها، بقدر ما تهم المناقشة والإثارة والنقد لا العلم المقرون من العمل الذي يحقق الاعتقاد السليم، لأنها كما يقول طه عبد الرحمن "تفسيرات لآيات القرآن تخرج عن هذه الصفة الاعتقادية وتتصف بضدها وهو الانتقاد"[(٢)]، هذا ما يجعلهم أفكارهم كثيرا ما تكون جعجعة دون طحين، فهم يفتقرون إلى ما تسمى بالقراءة المقاصدية، من منطلق أنهم يعتبرون تصوراتهم نموذجا لأشكلة مفاهيم الوحي والقرآن إلى أبعد الحدود، وكثيرا ما يؤكدون أن التشكيك هو منهجهم، والنقد وسيلتهم المثلى، ولا يهمهم الاعتقاد والإيمان، " وبالتالي فهو حسب المفكر الإسلامي جمال البنا يعود إلى "ديكارت وفكرة الشك وقد تأثر بصوره مباشرة كأستاذ للأدب العربي بالدكتور طه حسين الذي يعتبره دون مواربة مثله الأعلى"[(٣)] باعتباره متشككا في معطيات التراث، وطارحا لأسئلة تصل إلى طريقة اللاأدريين الرافضين للحقيقة، وبعد تحليل هذه الآراء يمكن القول أن قراءات هؤلاء للقرآن قراءة إشكالية هدفها التشكيك، متحججة بأنه

(١) المرجع السابق، ص ١٥.

(٢) طه عبد الرحمن،٢٠٠٥، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٢ ، ص ١٧٦.

(٣) البنا جمال، ٢٠٠٣، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، د ط، ٢٠٠٣، دار الفكر الإسلامي، القاهرة مصر ، ص ٢٢١.

طريق اليقين، لا تستقر على سؤال محدد واضح وهادف.

٣- إنها قراءة انتقائية وذاتية ومقلدة:

أ- إنها تنتقي من التراث ما يخدمها: تنتقي من التراث آراء المتشككة في العقيدة وفي القرآن الكريم وتلك التي تفلسفه بالبحث عن مصادره وأصوله دون حدود ككل، كآراء المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة وتحاول إعادة تأسيس آرائهم في مقابل نقد ومهاجمة آراء الفقهاء وعلماء الدين، لأنها تختار آراء المتكلمين والفلاسفة على أنها قدمت أفكارا و مناهج صحيحة مناسبة للقرآن والعقلنة والتنوير الإسلامي، وفي مقابل ذلك تنقد الأفكار والمناهج الكلاسيكية التي وجدت عند الفقهاء والأصوليين وتعتبر نموذجا للدوغمائية والإيديولوجية، وتذهب إلى أبعد من ذلك حين تعتبرها غير صحيحة وغير مناسبة وسببا للركود والتخلف الذي يعانيه المسلمون ، بينما يشددون اللهجة على قراءة أصحاب المأثور وأتباع السلف كابن حنبل وابن تيمية وحتى أصحاب الوسطية كالشافعي و الغزالي، لأن الكثير من دعاة القراءات المعاصرة حسب الدكتور محمد عمارة "يسيئون الظن بحجة الإسلام الغزالي، ويزعمون أنه كان رجعيا، مثل جناية على الفلسفة العقلانية..بينما يدعون أن ابن رشد كان قمة الفلسفة والعقلانية بل ونهايتها في التاريخ الحضاري"[١].

فعندما نطالع ونقرأ مختلف كتب وأبحاث ومقالات رواد القراءات المعاصرة، نجدها تنتصر لأصحاب التفسير بالرأي في شكله الفلسفي كالمعتزلة، ابن عربي، وابن رشد... و تعتقد دائما أن القراءات التأويلية للقرآن التي كانت ثائرة على قراءات الفقهاء والأصوليين هي الصواب الذي وجب أن يحتذى، وينقدون في غالب الأحيان قراءة الفقهاء في مجال فهم وقراءة النص القرآني، كما هو الحال مع أركون حين ينتقد الطبري لأنه كان من أصحاب المأثور في قوله عنه أنه "انتقى وانتخب وحذف ونظم معلوماته طبقا لمواقفه السياسية والدينية"[٢] وفي مقابل ذلك يصف الرازي بالكبير لأنه من أصحاب التفسير بالرأي ويرى

(١) عمارة محمد، ٢٠٠٦قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، ط١، ٢٠٠٦، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة مصر ،ص ٨٢.

(٢) أركون محمد، ٢٠٠١، القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني، ط١، ٢٠٠١، ط٢، ٢٠٠٥، دار الطليعة بيروت لبنان، ص ١٥١.

أن تفسيره " يشهد على عمق ديني وثقافة علمية وفلسفية قل نظيرها"(١)، كما يشيد بنظرية المعتزلة في قوله: " ينبغي الاعتراف بأن منهجية المعتزلة كانت تحتوي إمكان نظرية كامنة وواعدة" (٢)ويقصد هنا نظرية القول بخلق القرآن كإشكالية تمس بقداسته تندرج ضمن الممنوع التفكير رغم تبني الخطاب الرسمي لها، والذي لم ينقده في القول بها ولم يصرح باضطهاده للحنابلة كعادته، بل يسعى في خطه عند ذمه موقف الحنابلة واصفا حجتهم بالمبدأ اللاهوتي الذي كرس له الخطاب الرسمي وفرضه فيما بعد تغير اتجاه الخلافة، متغاضيا عن الفتن والانزلاقات المترتبة عن نظرية المعتزلة.

ب-التأثر بأفكار المستشرقين: إذا كان هؤلاء يمثلون "الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"(٣)فإننا لا يمكن أن ننكر الدور الذي لعبه رواد القراءات المعاصرة في دحض الكثير من آرائهم المسيئة للقرآن الكريم، ونقد أتباعهم والتنبيه على خطورة أفكارهم، كما يظهر ذلك في نقد كل ابن نبي وأركون لتصورات طه حسين المستمدة من آرائهم حول القرآن، في كتابه الشعر الجاهلي، بحيث يقول ابن نبي في هذا الصدد "ومن العجيب أن نذكر ما تتمتع هذه الأفكار الحمقاء من مجاملة ولاسيما في مصر عندما تصدرها جامعات الغرب، وأصدق مثال على ذلك وبلا جدال الفرض الذي وضعه المستشرق مرجليوث عن الشعر الجاهلي، فقد نشر هذا الفرض في يوليو عام١٩٢٥في إحدى المجلات الاستشراقية، وفي خلال عام ١٩٢٦نشر طه حسين كتابه المشهور في الشعر الجاهلي، فهذا التسلسل التاريخي معبر تماما عن تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين"(٤)، وفي نفس هذا الاتجاه يقول أركون عنه "أنه قدم تنازلات مسرفة لصالح الغرب تارة، ولصالح العاطفة الدينية تارة أخرى"(٥)، وبالتالي لا يمكن دور إيجابية بعض الأفكار والردود التي قدمها رواد القراءات المعاصرة في الرد على تصورات المستشرقين، ويجب الإقرار كذلك أن مواقفهم كانت سبيلا أمثلا لدحض آرائهم ولا مفر من الأخذ بها.

(١) - المرجع نفسه ص ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه ص١١.

(٣) - ابن نبي مالك، ١٩٦٤، القضايا الكبرى، ط٩، ٢٠٠٩، دار الفكر، ص ١٦٨.

(٤) ابن نبي مالك،١٩٧٩، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، ط١٩٨١، ص ٥٦

(5) Arkoun Mohammed , 1975 La pensée Arabe Presse Universitaires de France , première édition, p 105106- .

لكـن تبقى الكثـير مـن آراء رواد القراءات المعاصـرة حول القرآن الكـريم تعتمد على أفكارهـم بصورة مفرطة بحجة حياديتهـا وموضوعيتها، لدرجة أصبحت تستشهد بها حتى في قـراءة النصوص الأصلية والتشكيك في نظرة المأثور لها، بحيث يشيد بهم أركون في أكثر من مناسبة، ويتشهد بهم في العديد من المواقف، و يرى أنه "لا يمكن إنكار أن الاستشراق قد اهتم بشكل واسع في إعادة تنشيط الفكر العربي – الإسلامي"[(١)]، وهنا قد نستطيع الحكم بأن هنـاك آراء مقبولة من طرف المستشرقين، ونوافق أركون في هذا وفي نقده لبعض تصوراتهم مـن ناحيـة أخرى كما أشرنا سابقـا، لكن عندما نكتشف حقيقة النقـد الذي يقدمه، والذي يرتكز بالتحديد حول منهجهم الفللوجي، نجده نقدا ليس موجها للمستشرقين في ذاتهم بل للفقهاء، لأن سبب تهافت ونقص آرائهم يرجع في نظره إلى أنها حصرت "اهتمامها بدراسة الإسـلام من خـلال كتابات الفقهـاء المتطلبة من قبـل المؤمنين" [(٢)]، وهو مـا يبين أن سبب نقده لها هو اعتمادها على فهم القرآن والإسلام، من مدونات الفقهاء على أنها صحيحة في حـين أنها غير ذلك، والأدهى والأمر من ذلك أن رواد القراءات المعاصرة كثيرة ما يستندون في تبريـر مواقفهـم وشرح حتى بعضـ النصوص، القدح في مآثر السلـف والاتكاء على آراء المستشرقـين بدلها بإعطائها مصداقية علمية أكثر، بحجـة حياديتها وموضوعيتها، وهو ما أشـاد به أركـون في أكثر من مناسبة، وبينه أبو زيد في عدة أمثلـة منها، قوله السابق الذكر، الـذي جعل فيه الصحابـي مجاهد من أهل الاعتزال من منطلق دعوتـه إلى التأويل، مؤكدا ذلـك بشهـادة مستشـرق في قوله: " حتى ليعده جولـد تسيهر رائدا لهـم في مسائل كثيرة في التأويـل"[(٣)]، أما الجابري فيستند على آرائهم بدوره في شرح الكثير من الخصائص المتعلقة بالوحـي القـرآني، كما هو الحال في النبوة التي رأى أنها ليسـت من معهود العرب مستشهدا بـآراء بعضـ المستشرقـين، في قوله" ارتأى بعضـ المستشرقين أن لفظ النبـي في الاصطلاح الإسلامـي مأخوذ من العبرية نابي(nabi) وهو يدل علـى الرائي قارئ المستقبل"[(٤)] رغم أن العـودة إلى لغـة وثقافة العرب لا تخلو مـن هذه الكلمة التي ترتبط عندهـم بعدة كلمات، إذ تمثل "النبوة: الجفوة، والنبوة: الإقامة، والنبوة: الارتفاع. ابن سيده النبو العلو والارتفاع، وقد

---

(١) أركون محمد، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ط٢، ١٩٩٦المركز الثقافي العربي، ص ٥٤

(٢) – المرجع نفسه ص ٥٢

(٣) – أبو زيد نصر حامد، الاتجاه العقلي في التفسير، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٦،ص ٩٧.

(٤) – الجابري محمد عابد، المدخل إلى القرآن الكريم، ص، ١١٤.

نبـا. والنبوة والنبـاوة والنبي:ما ارتفع من الأرض"[1]، وبالتالي لمـاذا القول بأنها غريبة عن الثقافـة العربية، والاتكاء علـى آراء المستشرقين في فهمها؟، من خـلال هذه الآراء يمكن أن ننتهي إلا أن وفاء رواد القراءات المعاصرة لآراء المستشرقين قد يتجاوز الحدود، ويكون نابعا مـن تكوينهم الغربي، ويخفي أغراضا إيديولوجية كإرضاء الآخر ومحاربة الأصولية وغيرها أكثر منها الأغراض العلمية التي يدعونها.

ج-الدعوة إلى تطبيق المناهج الغربية :

لا يمكن إنكار عودة بعض رواد القراءات المعاصرة إلى آراء السلف والصحابة والمفسرين والتابعين وما توصلوا إليه من علوم القرآن وعلوم اللغة ومحاولة ربطها بالتاريخ الحي وتفعيلها حسـب في العصـر في مجال المنهـج، لكن نجدهم يتأثـرون إلى حد بعيـد بمؤسسي المناهج الغربيـة، كدوسوسـير ونيتشه ودريدا ودولوز وميشـال فوكو، ويطبقـون مناهجهم كالبنيوية والهرمينوطيقا والسميائية والتفكيكيـة والدراسة الأركيولوجية بحذافيرها في قراءة القرآن الكـريم، منكريـن ومتنكرين للأرضية التـي ونمت وترعرعت فيها وطبيعـة النصوص التي طبقـت فيهـا، وهو ما يجعلها حسب قول محمد عمارة تمثـل ذلك "الذي ينقل كل هذا العبث الغربي، الذي صنعته الهرمينوطيقـا الغربية مع اليهودية والنصرانية إلى الميدان الإسلامي ..أي أنـه مجرد ناقل ومقلد، حـذوك النعل بالنعل..ولا علاقة لها بأي فقـه أو إبداع" [2] لأن مختلـف أفكار رواد القراءات المعاصرة للقرآن تبين أنهم ينهلون وبنهم وشغف ودون تحفظ، مما أفرزه تقدم العلوم الإنسانية والاجتماعية والفلسفات المعاصرة من آليات ومناهج قراءة النصوص التي أبدعها الفكر البشري في الفترة الراهنة ويحاولون تطبيقها في قراءة القرآن والـتراث الإسلامي مما يجعلهـم مقلدين لا مبدعين، وهنا تطرح من ناحية أخرى مشروعية وأسسـ وغايات نقل المفاهيـم وتبيئتها في غير حقلها الأصلي عند أركون وأبو زيد والجابري، وكمثـال ذلك ينقل كل من الجابري وأركون مفهـوم الابستيمي وهو النظام المعرفي والفكري المشـترك بين العقول في فترة مـا لتحليل بعض فترات التفكـير الإسلامي من حقل الخطاب الفلسفـي الغربي عنـد ميشال فوكو بالتحديـد، إلى الخطاب الإسلامـي أو القرآني تحديدا

(١) – ابـن منظـور جمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم،٢٠٠٥ د س، لسـان العرب، ج٨، ط١، ٢٠٠٥دار الكتب العلمية، ص٧٢٧

(٢) عمارة محمد، قراءة النص الديني، ص ٧٧.

رغم الاختلاف في طبيعة الخطابين في مرجعيتهما وأسسهما، التي تجعل الكثير من الباحثين يتساءل الكثير من الباحثين عن مدى طبيعة ومشروعية وفعالية وقواعد التوظيف والنقل للكم الهائل من المفاهيم والمناهج من حقل إلى حقل عند رواد القراءات المعاصرة من أمثال الجابري كالابستيمي والخطاب والسلطة، ليبينوا أنها في غالبها " مفردات ليست دقيقة ولا متفقا عليها ولا يمكن أن تكون بريئة" [1]، وهنا كيف يمكن الاتفاق عليها في تحليل الخطاب القرآني الذي يتباين في سياقه عن الخطابات التي طبقت فيها؟ ولابد أن تطرح مسألة تبيئة المفاهيم والمناهج التي تعتبر لب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم من حيث مشروعيتها وفعاليتها، حيث لا يخلوا نقلها من حقلها الأصلي إلى حقل خطاب آخر كالقرآن الكريم من مزالق عدم المشروعية واللاجدوى الاعتبارات الإيديولوجية، ولا يمكن أن تسلم من تهمة فصلها عن السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي والديني الذي نشأت فيه، وبالتالي لا يخلوا أن يكون نقلها تعسفيا وتحكميا من حقل إلى حقل يفتقر إلى طابع العلمية والموضوعية الذي يتبجح به رواد القراءة المعاصرة.

ننتهي من خلال هذه الوجهة النقدية للقراءات المعاصرة أنها قراءات مقلدة وليست مبدعة كما يبدوا لروادها وكما يحلوا للبعض تسميتها، وهي لا تقلد الغرب في الأخذ بالمناهج الجديدة فحسب، كما يرى بعض المفكرين من أمثال طه عبد الرحمن، حين صرح أنها تسعى إلى أن تحقق "قطيعة معرفية بينها وبين ما يمكن أن نطلق عليه اسم القراءات التراثية، وهذه على نوعين أحدهما القراءات التأسيسية وهي التي قام بها المتقدمون، مفسرين كانوا او فقهاء أو متكلمين أو صوفية والثاني القراءات التجديدية وهي التي قام بها المتأخرون سلفيين إصلاحيين أو سلفيين أصوليين أو إسلاميين علميين" [2] بل تنهل من قراءات المتكلمين والفلاسفة وبعض المتصوفة وتدافع عنهم وتتأثر بهم في بناء منهج التأويل الذي يعتبر أهم آليات القراءة عندهم، وهي على الرغم من أنها تجعل النقد صلب مهمتها وليس الاعتقاد، فهي لا تنفصل بصورة مطلقة عن الاعتقاد بمصداقية وعلمية وعقلانية نوعا معينا من القراءات التراثية تسعى من خلالها إلى التمرد وإحداث القطيعة مع قراءة الفقهاء ومآثر السلف من علماء الدين على وجه التحديد، وبالتالي أليست قراءة هؤلاء الرواد وعلى

(١) بغورة الزواوي، د س، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، ط١، ٢٠٠١، دار الطليعة للطباعة والنشر، ص ٤٩.

(٢) طه عبد الرحمن روح الحداثة، ص ١٧٦.

رأسهـم أركـون وأبو زيـد اصطفائية تختار مـا يناسبها من التراث ومـا يناسبها من مناهج ومـا يناسبها مـن مرجعيات لتدعم آرائها؟ أليست ذات إيديولوجيـة تنتصر لما هو عقلي ولو كان استشراقيـا مغرضا، على ما هـو نقلي ولو كان نقليا مأثورا؟ هنا يمكن أن نفكك خطاب أصحابهـا حسب لغتهـم، لنكتشف أغراض متعددة الاتجاهات، جعلتهـم ينحون هذا النحو، وهو ما يستحق الاكتشاف في النقاط الموالية.

٤- المساس بقداسة القرآن الكريم:

لا تميـز القـراءات المعاصرة القرآن الكـريم، ميزه عن النصوص الدينية المحرفة، و النصوص البشرية بمختلف أنواعها، مما يجعله تشكك فيه كثابت مقدس باطلاق الصفات التي لا تليق به، ويمكن أن نحدد أهمها في النقاط التالية:

أ-اعتبار القرآن ظاهرة ونصا عاديا كما اشرنا سابقا، القرآن ظاهرة: ونصا وحادثا، حيـث يؤكـد أركون أنهـا "حادث لغوي وثقافي وديـني" [1]،و منطلقـه الأول في دراسة القرآن الكـريم زحزحة فكرة القداسـة مستفيدا من الفلسفة الظواهرية مـع ادموند هوسرل والتي يرجـح بعض النقاد استفادة رواد القـراءات منها لفظ الظاهرة التـي أطلقوها على القرآن الكـريم، والتي تتعارض في نظرهم مع سموه وتعاليـه، ووجب أن يميز عن الظواهر الطبيعية التي تفهم بالفيزياء والكمياء وغيرهما، وعن الظواهر الإنسانية التي تفهم بعلم النفس وعلم الاجتمـاع، وحتى أن أطلق هؤلاء هذا الوصف على القـرآن بغية إخضاعه لتلك العلوم التي لا تتعارض معه في الأصل، كما يبدوا عند جميعهم بما فيهم مالك بن نبي لذا احتفظ بالغيبية والقداسـة، فإنهم يتفقون في نقـد الآليات الكلاسيكية وإعطاء الأولوية لتلك العلوم في فهمه، وهـو ما أدى بهم إلى الخلـط بين القرآن وغيره من الظواهـر في الكثير من الحالات، والذي يجـب أن لا يوضع في مرتبتها لأن مصطلح الظاهرة عند الجابري وغيره، كما يرى الناقدين عبـد السـلام البكاري و الصديق بوعلام "يوهم القارئ بأن الأمر يتعلق بكتاب عادي من بين الكتـب التي أدرج موضوعاتها في تلك الظاهـرة، وليس الأمر كذلك في الحقيقة إذ شتان بين كلام الله وكلام البشـر شتان بين الوحي ومحاولة الفهم"[2] فمصطلح الظاهرة قد يتناسب

(1) Arkoun Mohammed , La pensée Arabe Presse Universitaires de France , première édition, 1975p7

(٢) البكاري عبد السلام والصديق بوعلام، الشبه الاستشراقية في كتاب لمدخل إلى القرآن الكريم، ص ٢٩- ٣٠.

مـع القرآن لكريم عندما يكون مسوغا لعدم التمييز بين القرآن وغيره من الظواهر الطبيعية والكونيـة، ولا حتى الظواهر الغيبية التي ترقـى إلى مرتبته والتي لم يميزه بعض الرواد عنها كالرؤيا الصادقة التي انطلق منها أبو زيد ليؤكد أن الوحي يمكن أن يكون ضربا من الإلهام يتلقـاه النبـي في القلب ثم يحوله إلى رسالة لغوية، مستنـدا في ذلك على آراء السيدة عائشة التـي روت أن الرسول ﷺ كان يتلقى الرؤيـا الصادقة في بداية الوحي، وهي مما لاشك فيه فكرة تساهم في تدخل الرسول البشر في الوحي.

ب- عدم التمييز بين القرآن الكريم والنصوص البشرية :

لا يميـز رواد القـراءات المعاصرة بين القرآن وغيره من النصوص سواء أكانت دينية ملحقـة أو فلسفيـة وأدبية غير دينية، بحيث يشتركون في نعـت القرآن بالنص، وعلى رأسهم نصـر حامـد أبو زيد الذي ينتقد تصور الأسلاف للوحي القرآني ويرى أن "مفهوم الوحي هو المفهـوم المركزي للنص عن ذاته حيـث يشير إلى نفسه بهذا الاسم في كثير من المواضع وإذا كان ثمة أسماء أحرى للنص وردت بها الإشارة مثل القرآن والذكر والكتاب، فإن اسم الوحي يمكـن أن يستوعبهـا حميعـا بوصفه مفهومـا دالا في الثقافة سواء قبل تشـكل النص أم بعد تشكله،"[1]ليؤكـد بعد ذلك أن الزركشي والسيوطي قـد بالغا في تعدد أسمائه وأخلطا بينها، وهـو يريد بذلك اختصاره في مجال مجرد نص لغـوي وحطاب يتعلق بالإعلام ويمثل علمية اتصـال بين مرسل ومستقبل، بحيث يجعل من القرآن نصا عاديا محايثا، وخطابا لا يختلف عـن الخطابـات التي توجههـا النصوص البشريـة، كونها تتضمن عناصـر الخطاب المرسل والمتلقـي والشفـرة والرسالة، وتنتهـي إلى أن الوحي ظاهرة ثقافيـة لا تختلف عن الظواهر البشريـة الأخرى، يقول أبو زيد: "ظاهرة الوحـي –القرآن– لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع أو تمثـل وثبـا عليه وتجاوز لقوانينه، بل كانت جزءا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضيعها وتصوراتهـا" [2] ، و يبرر صحة هـذا التصور الذي قد يعتبر مساسا بقداسة الوحي باعتباره ينفـي عنه عنصر المفارقة للواقع وقوانينه، عن طريق تحليل بينته ودراسة مكوناته وعناصره الثقافيـة في مختلف الميادين، ورده لمفهومـه اللغوي المتمثل أساسا في ربطه بمعنى "الإعلام" لكـي يكـون هذا الأخير مفهوما مركزيا يؤسس به تصوره الـذي يعتبر الوحي إعلام في خفاء

(١) أبو زيد نصر حامد، مفهوم النص، ٣١.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢.

في إطـاره اللغـوي، باعتباره يمثل" علاقة اتصـال بين طرفـين تتضمن إعلاما-رسالة- خفيا سريا" [1] والإعلام يحقق الاتصال بشفرة مشتركة بين المرسل والملتقي كطرفي لعملية الوحي تـؤدي إلى التفاهـم بينهم، هذا التصور يترتـب عنه حسب أبوريد أن الوحـي عملية اتصال في جوهرهـا لا تختلف عن عمليات الاتصال الأخـرى الموجودة عند البشر وحتى عند الطيور والحيوانات، من حيث بنيتها ومكوناتها من عناصر: المرسل والمتلقي والشفرة، وهو ما يجعلها مفهومـا عامـا متغلغلا في الثقافة العربيـة وليس غريبا عنها بأي شكل مـن الأشكال فتصور الوحي له نفس المدلول في نظره في الشعر العربي وفي القرآن بنفس المعنى أو المدلول.

وبهذا فهو ينتهي أن "هذا مفهوم للوحي ينمكن أن نجده في الشعر كما نجده في القرآن نفسـه" [2] ويمكـن أن يقـرأ بنفس طـرق قراءته ويحلـل كمنتج ثقافي لا غير وهـو ما يجعله يعتبره نصا لغويا يفهم بالتأويل القائم على أسس ثقافية واجتماعية تتعارض تماما مع تعاليه وغيبيته في كونها تجعله خطابا إنسانيا لا أكثر ولا أقل وبالتالي تنتهك قداسته.

ويصـرح أركـون بأن مفهوم الوحي في السياق القرآني قبـل انتشار "المصحف الرسمي المغلق" كما يسميه، كان أكثر اتساعا من حيث الأفاق والرؤية الدينية مما يوجد في المصحف الرسمي المتداول، ويجب إعادة اكتشافه لبلوغ تصور أدق وأشمل له، حيث يدعوا تفكيك مسبق لكلمـة قرآن، ويرى أنه يعبر عن كلمة مشحونة أو معبأة بجرعات زائدة جعلتها مخل قداسة، تحتـاج إلى كشف دلالتها الخفية التي " طمست وكبتت ونسيت من قبل التراث التقوي الورع، ...منـذ أن تم الانتقال من المرحلـة الشفهية إلى المرحلة الكتابيـة ونشر مخطوطة المصحف بنساخـة اليـد أولا ثـم طباعـة الكتاب ثانيـة" [3] هنا يمكـن أن نقول حسـب تصوراته، أن التفاصيل الكلية للوحـي أوسع من المعطى والمضمون في النصوص القرآنية التي دونها البشر في عهـد الخليفـة عثمان حسب تصورهـم ، ولاسيما إن كانت هناك الكثـير من الوقائع غير مدونـة فيهـا، والتي تمثل التراث الشفهي غـير المكتوب والذي لا يمكن إنـكار صلته بالوحي، هـذا الأخـير أصبح حسب أركون يترادف مع المصحف المكتوب بعـد انغلاق الفكر الإسلامي في تفسـير المصحف العثماني المـدون في الإطار التقليدي منذ القديم و إلى يومنا هذا، فبعد

(١) المرجع نفسه ص"٣١- ٣٢.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٩.

انتشــار المصحــف العثماني ف نظر أركــون أصبح الوحي القرآني محصــورا في مجال ضيق ومحــدود، عندمــا جعله الكثير من الفقهاء وإلى يومنا هذا منحصــرا فيما ورد في مكتوبا في الســور القرآنية فقط، ومرتبطا بقراءة لا هويته أرثوذوكسيــة، تتجاهل القراءة التاريخية له في مختلف المذاهب سنية أو شيعية، وغيرها من المذاهب التي مارست تأثيرا كبيرا في تشكيل الفكر الإسلامي ماضيا وحاضرا.

ج- عدم التمييز بين الديانات والأقوام:

عندمــا نرجــع إلى الأرضيــة التي تتحرك فيها الدعــوة إلى التطبيق الآليــات المعاصرة في قــراءة القرآن الكــريم، عند مختلف روادها، نجدها تتحرك في إطــار ما تسميه بالتراث الكلي، وتسعى إلى قراءة القرآن في ما يعرف عندهم بالظاهرة الدينية، وتتنكر لخصوصياته واختلافه عن والتوراة،الإنجيل، بحيث تنتهي حسب طه عبد الرحمن إلى جعل "القرآن نصا دينيــا مثــل أي نص دينــي آخر توحيديا كان أم وثنيا" [(١)]، وهو مــا يظهر عند أركون في عدة تصريحــات، منهــا قولــه: " إن بنية الميثــاق في القرآن كما في التــوراة والإنجيل تمثل الإطار والطريق الإجباري من أجل تحقيق شروط النجاة في الآخرة" [(٢)]، بحيث يتعامل مع الديانات ولاسيمــا السماوية منها، على أنها تشترك في المنطلقــات، والمرجعيات، والأهداف، وبموجب ذلــك لا يميز بــين المسلمين والنصارى واليهــود، إذ يجعل اهتمامهــم بالإسلام كدين كامل ونهائــي ومقدســ لا يختلف عن واقع مــتردي عاشه الغرب في القــرون الوسطى، بحيث يرى المترجــم الخاصــ لأركون هاشم صالح أنه ينطلق من أن: " ا العــرب والمسلمون فلم يتجاوزوا بعــد المرحلة اللاهوتية القروسطية" [(٣)] وهــم بلغة أوجست كونت ما زالوا يعيشون في المرحلة اللاهوتية التي عاشتها أوربا في العصور البدائية والمتخلفة، وذلك لاهتمامهم بظواهر الدين والتعــالي والتقديس، ويبين أنه يدعو إلى تحقيق نفس القطيعة الابستيمولوجية التي أحدثتها أوربا مع العقل اللاهوتي في العصور الوسطى، كسبيل لتحقيق النهضة والحداثة، وكأن هناك تجانس بين الإسلام والديانات الأخرى، والمسلمين والأقوام الآخرين.

---

(١) طه عبد الرحمن، روح الحداثة، مصدر سابق، ص ١٨٣.

(٢) أركون محمد، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ص ٨٣.

(٣) أركــون محمد،٢٠١٠، الهوامل والشوامل حول الفكر الإسلامــي المعاصر، ط١، ٢٠١٠، دار الطليعة بيروت، ص ١١.

والجابري بدوره أثناء حديثه عن الوحي القرآني يقيم في الكثير من المناسبات مقارنات بينه وبين النصوص الواردة في التوراة والإنجيل دون مراعاة كونها محرفة، كما هو الحال في عرضه لقصة آدم وإبليس التي اعتمد عليها في قراءة سورة الأعراف، كما يتجلي في تعليقه في آخر الصفحة ٢٩٣من كتاب المدخل إلى القرآن الكريم حيث يصرح أن " اسم إبليس لم يرد في التوراة بل ورد اسم الحية أو التنين فهي التي أغوت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس أو الشيطان على أنه هو الحية ذاتها، على أني لم أعثر في التوراة والأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم" (١) وبالتالي يعتمد عليها كأنها تصورات متماثلة ويتحاشى التصريح ببشريتها أو تحريفها.

د- وصف القرآن بالأسطورة وعدم تمييزه عن ظواهر الكهانة والشعر: انطلاقا من العلاقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة التي يتأسس عليها القرآن الكريم، ينطلق رواد القراءات المعاصرة في بنائها على علاقة مماثلة للتي يقيمها الناس العاديون مع العالم الآخر، إذ يرى أركون أن النص القرآني، ذو بنية أسطورية متعالية، ومما لاشك فيه أن هذه الفكرة استقاها من الفكر الأوروبي، وقد لا تنسجم مع النص القرآني لأنها بها كما يرى المفكر جمال البنا"يضع نفسه في خندق واحد مع المشركين الذين قالوا عن القرآن أساطير الأولين وعندما تنبه إلى ذلك حاول بجدع الأنف أن /يخلص نفسه محملا المسؤولية لإساءة الترجمة ومفرقا بين .mythأي الأسطورة وما بين mythology وهي الخرافة" (٢) لأن القرآن يحتلف في مجال القصص عن مفهوم الأسطورة في تصورها الغربي، كقصة إلهية أبطالها الآلهة وأنصاف الآلهة تعبر عن واقع معين، أما أبو زيد فيحلل ظاهرتي الشعر والكهانة والنبوة وكأنها ظواهر متماثلة، لبين أن كلاها تعبر عن الاتصال بين البشر والعالم الآخر، حيث يقارن بين النبوة والكهانة ليؤكد أن كلاهما عملية اتصال بين مستويين وجوديين مختلفين يؤديان إلى معرفة بالغيب، والاختلاف فقط في طبيعة الاتصال الذي يقوم على اصطفاء إلهي عند النبي ويكون تلقائيا عنده دون الاستعانة بطقوس أو تعويذات أو غير ذلك، بينما يعتمد على أدوات ووسائل عند الكاهن، ويكون إراديا يعتمد في الكثير من الحالات على الاستعانة بوسائط تحررهم من

(١) الجابري محمد عابد، المدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ص ٢٩٣.

(٢) البنا جمال، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، دار الفكر الإسلامي، القاهرة مصر، دط، ٢٠٠٣، ص ٢١٧.

العالم المحسوس وتربطهم بالعالم الآخر لكي يحصلوا على معرفة يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة عكس النبي الذي ينبئ باليقين والحقائق التي لا تقبل الشك، ويتخذ هذه المقاربة للدفاع عن موقفه في أنسنة الوحي وجعله ظاهرة ثقافية غير متعالية ومما لاشك فيه أنه هناك اختلاف عميق بين الوحي الذي هو ليس بقول شاعر أو كاهن كما ورد في النصوص المنزلة، وأخيرا الجابري بدوره حين ينفي عن القصص القرآني التاريخية هو بدوره لا يميزه عن الأسطورة التي قال بها أركون.

٥- القول بالتاريخية:

يذهب مختلف رواد القراءات المعاصرة على القول بتاريخية النص القرآني، وباعتباره حدثا أو مجموعة من الحوادث والوقائع، تدخل في إطار لظواهر التاريخية الأخرى، إذ يرى أركون أنه مؤرخ ممتاز للوحي ويبحث في تاريخ شامل للوحي، يربط القرآن بغيره من الديانات كما أشرنا سالفا، ويطرح مسألة القراءات، دون تفريقها عن النص القرآني الأصلي حين يجعل تعددها منطلقا لتعدده، ويبين أن الطبري هو من سعى إلى "التوفيق بين مختلف نسخ النص القرآني"[(١)] وتحدث من ناحية أخرى عن أسباب النزول وبين أنها هي من تعكس تاريخية النص القرآني وتفهم الآيات حسب الوقائع، لينتهي أن بعض المفسرين فيما بعد جعلوها "مضللة وخادعة كليا، لماذا؟ لأنها تنتمي إلى السياقات الجديدة المبلورة من أجل تلبية حاجات الذاكرة الجماعية (المدعوة بالتراث الحي) لكل فرقة إسلامية"[(٢)] فهي في نظره تتماشى وفق إيديولوجية المفسرين، وينتهي بموجب ذلك إلى رفض أفكارهم والإلحاح إلى العودة إلى الفترة الأولى للوحي، وإعادة اكتشافها بالتركيز على المهمش وغير المدون أو الشفهي الذي يعكس حقائق مبعدة تعسفا، تجعل فيلسوفنا يتشكك حتى في النص الأصلي وهو المصحف، وهنا تكون إعادة البحث في الوقائع باسم التاريخية تمردا على القداسة والتعالي كمميزات جوهرية للوحي القرآني.

هذه بعض الخصائص التي ميزت القراءات المعاصرة التي انطلقت من التعامل مع القرآن كظاهرة لا تختلف عن الظواهر الأخرى، وكنص لا يختلف عن النصوص البشرية من جهة والنصوص الدينية المحرفة يخضع لتاريخ الحوادث وغيرها من الخصائص التي تمس

(١) أركون محمد، القرآن من التفسير الموروث، دار الطليعة بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٥، ص ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧.

القرآن كوحي إلهي يمثل كلام الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ باللفظ والمعنى، بواسطة جبريل، المتعبد بتلاوته، وإعجاز الخلق عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، المنقول إلينا نقلا متواترا وهو كلام الله منزل غير مخلوق، منذ بدأ وإليه يعود، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء بالألسنة، مسموع بالآذان" [(١)]، ويعتبر الكتاب النهائي والشامل للحقائق المنزه عن الغفلة والنسيان دستور المسلمين في حياتهم الدنيوية والأخروية.

٤-نقد توظيف القرآن الكريم لدى الحداثيين في فهم قضايا العقيدة والفكر:

إن توظيف القرآن في فهم قضايا العقيدة لدى الحداثيين لقي نقدا لاذعا من جوانب مختلفة أهمها:

-انتهاك قداسة القرآن الكريم والدعوة إلى زحزحتها بوضوح وبصراحة كما أشرنا فيما سبق، والمعضلة أكثر أن ذلك الفعل يؤسس لقداسة بديلة وهي قداسة للقول البشري، أي النصوص والأقوال الفلسفية الأوربية حيث توضع في نفس مرتبة القرآن الكريم، فمما لاشك فيه، "أن رسوخ قدسية القول القرآني في المجال التداولي العربي سهل على المتفلسف العربي تقبل هذا المسلك حيال القول الفلسفي الأصيل، فلما كان قد نشأ على هذه القدسية الدينية واشرب قلبه بها جاز أن ينقلها من حيث يشعر أو لا يشعر إلى ما تجب له من الأقوال ويتعامل مع هذه الأقوال غير الدينية كما يتعامل مع القول الديني"[(٢)]، فالقداسة للأقوال البشرية من السهل اضفائها عند الفلاسفة على كل ما هو بشري دون تمييز عن القرآن الكريم وهو ما يزحح ثباته وتعاليه وكماله.

-آثر الفلاسفة الحداثيون الانتقاد على الاعتقاد في فهم قضايا القرآن الكريم، حيث فضلوا النقد على التدبر الذي يقول به القرآن الكريم منها آيات صريحة في الدعوة إلى التدبر مثل قوله تعالى في الآية ٢٤من سورة محمد : "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"، أو غير صريحة كما هو الحال في الآيتين ٩٠-٩١من سورة آل عمران: " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلق هذا باطلا سبحناك

(١) إسلام محمود دربالة،٢٠٠٧، موسوعة علوم القرآن، مرجع سابق ص ١١ .

(٢) طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط ٢، ٢٠٠٩، ص ١١٩.

فقنا عذاب النار" حيث أن الوسيلة الأمثل لقراءة وفهم القرآن الكريم كما وردت في مختلف آياته، حيث الذهاب إلى ما توحي إليه الآيات من معان تساهم في تقوية عقيدة المسلم وزيادة إيمانه، وليس ممارسة الانتقاد في حقله دون حسيب أو رقيب ودون خطوط حمراء، وهي من شأنها أن تمس به وبعقيدة المسلم المؤمن به ككتاب منزه عن الخطأ منزل من السماء لا يدخله الباطل لا من خلفه ولا من بين يديه.

كما أن محاولة فهم قضايا العصر في القرآن الكريم من منظور تأويلي وتفكيكي وبنيوي، كما ورد في القراءات الحداثية، يحمل عدة مؤخذات أهمها:

إذا رجعنا إلى الهرمينوطيقا أو التأويلية الحداثية نجد أنها قد سعت إلى أنسنة الدين وتأليه ما هو بشري وهو ما يجعلها تمس بالقرآن الكريم بجعل فهمه ووجوده على حد سواء بشريا خالصا، ولاسيما عندما سعت إلى "إحلال القارئ محل الوحي، وجعل الوحي –في النص الديني– هو ما توحيه القراءة الذاتية للقارئ، وما توحيه كينونة عالم قارئ إلى النص –بدلا من العكس– كما سعت هذه لهرميونوطيقا إلى عزل القيم والأخلاق والأحكام الدينية عن مصدرها الالهي"(١) حيث تعبر عن التأويل الواسع دون حدود وتعطي السلطة مطلقة للقارئ في فهم النص، فوجود النص بمنظورها لا يتحقق إلا بوجود قارئ له، وهو ما يجعلها تعزل القيم والأخلاق وكل ما يروم إليه الدين لتعوضه بما هو بشري، فلا تميز الهرمينوطيقا بين محكم ومتشابه وتنزل من الوحي إلى العقلنة أو الفهم دون حدود، وتجعل للقرآن معان لا حصر لها تصل إلى التناقض فيما بينها، كما تجعل القرآن الكريم نصا بشريا، وخطابا تاريخيا، لا يحمل معان ثابتة وتحعله على حد تعبير نصر حامد أبو زيد الذي يعتبر من أكبر روادها منتجا ثقافيا، فغايتها الكبرى تأليه الإنسان والقرآن الكريم والوحي والنبوة وعالم الغيب ووضع الدين البشري محل الدين الإلهي الذي يصبح خاضعا له حين يكون تحت رحمة أفهامه وتأويلاته .

إذا عدنا للتفكيك الذي دعا إليه ‹محمد أركون› و›علي حرب› دون حدود، نجد أنه لا محالة مساسا بالثوابت وعلى رأسها القرآن الكريم، ولاسيما أنه يعتبر استنطاقا للمهمش والمكبوت والمسكوت عنه دون خطوط حمراء في جميع النصوص دون تفرقة وتمييز بما فيها

(١) محمد عمارة، قرءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة مصر، ط١، ٢٠٠٦.

النص القرآني، كما أن غايته إلغاء المقاصد الإلهية لأنه ينفي قائل النص ويركز على النص ذاته، حين يقوم على موت المؤلف أي موت الله بما هو مصدر القرآن، فالتفكيك يعتبر أن منشئ النص ليس له وجود سابق على النص بل إنه يولد معه ويموت معه مباشرة بعد إنجازه. وما يريده التفكيكيون بموت منشئ النص انتفاء أي قصدية للنص وهذا يعني أن المقصود بموت الله عدم وجود أية أهداف أو مقاصد للنص القرآني"[١]، كما يقوم التفكيك على "أن يتواصل القرآن لا ككتاب مرجعي موحد للمؤمنين به، بل ككتاب مشتت ومفرق للجماعة، لأن تدخل القارئ وحده دون معطيات اللغة والبلاغة ومقاصد منشئ النص في تحديد المعنى ينتج لا محالة تعدد القراءات بل لا نهائيتها كما يرى التفكيكيون مما يعني تعدد النص القرآني بتعدد قرائه"[٢]، وهو ما يؤدي إلى قراءة النص بأشكال متناقضة وفوضى من المعاني ويفهم حسب الأهواء والميول، وينتهي التفكيك كذلك إلى ربط القرآن الكريم بالبين نصية حيث يصبح منتجا من خلال نصوص أخرى يجب الإقرار بأنه استفاد منها وعلى رأسها التوراة والانجيل والأشعار، وعلى هذا الأساس "يصبح من الطبيعي القول إن القرآن ليس صادرا عن الله بل هو نتاج عقلية جبارة للنبي ﷺ استطاع من خلالها الاستفادة من كل التراث السابق وإخراجه في منظومة عقيدية وإيديولوجية محكمة[٣].

من منظور بنيوي كما استخدمه -الجابري- انتهى إلى تساؤلات لا تناسب معنى القرآن الكريم أدت به إلى التشكيك في ترتيب النزول للسور القرآنية، ولاسيما في تعرضه لمسألة تكوين أو بناء القرآن الكريم، عن التعريف اختار الفيلسوف من الآيات ما يناسب توجهه البنيوي، الذي يفهم القرآن في إطار تساؤلات عميقة لا تقبل الحسم والتحديد، ويضرب صفحا عن مجموعة من الخصائص الجوهرية المحددة له، منها "أن القرآن متواتر، أنه خاتم الكتب، أنه منزل باللغة العربية الفصحى، أنه محكم، أنه معجز، أنه وحي من الله سبحانه" [٤]

(١) قاسم شعيب، تحرير العقل الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٧، ص ٤٥.

(٢) المرجع نفسه ص نفسها.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٤) البكاري عبد السلام والصديق بوعلام، الشبه الاستشراقية في كتاب لمدخل إلى القرآن الكريم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١١، ص ٢٨.

رؤى واستشرافات في توظيف القرآن الكريم في فهم تحديات الراهن:

في هـذا العنصر الأخير من بحثنا أردنا ان نبين رؤى واستشرافات حول توظيف القرآن في معالجـة مشكلات العصـر وفق رؤية لا تمس بالجانب العقدي وبالقـرآن الكريم ذاته كما لا حظنـاه في القراءات الحداثية، فمعطيات عصر الحداثة وما بعد الحداثة التي كانت غاية الحداثيـين في فهمه لا تشترط المساس بـه أو التشكيك فيه، بل لابد من مراعاة خصوصياته في فهـم قضايـا العصر فالانسنـة والعقلنة كمعطيـات ومتطلبات للحداثـة، والإسلاموفوبيا والتطـرف والإلحـاد والإرهـاب ومختلـف إفـرازات العلم والتقنيـة لا تقتضـي التشكيك في القرآن الكريم من أجل مواكبتها، وبالتالي الحديث عن القرآن الكريم والراهن، ليس شرطا للتشكيك فيه أو المساس به، لأنه يحمل مختلف مشاكل العصر برؤى متميزة لا يمكن ان تفهم بمرجعيـات وآليات غربية من شأنها المساس به، كما هو متداول، حسب هذا المدخل نتساءل: مـا منطلقات توظيف القـرآن في معالجة مشـكلات العصر: وكيف يتم ذلـك اليوم ولاسيما في استثمـار القـرآن الكريم في فهم ومعالجـة معالجة مشكلات التخلـف والحداثة و صدام الحضارات والتطرف الديني...؟

بصـدد الحديث عن مقومـات ومنطلقات القـرآن الكريم في التعامل مـع الراهن، فإن الشرط الجوهري لذلك مراعاة خصوصياته كوحي سماوي متعال لا يدخله الباطل من خلفه ولا مـن بين يديه، حيـث لا يمكن التشكيك فيه، انطلاقا من قوله تعـالى في الآية ٢ و٣و٤ من سورة البقرة:" ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين-الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممـا رزقناهـم ينفقون – والذين يؤمنـون بما أنزل إليك وما أنزل مـن قبلك وبالآخرة هم يقنون" فالمعنى هنا كما ورد في تفسير الإمامين الجليلين المحلي والسيوطي[١] أن الكتاب الذي يقـرأه محمد ﷺ لاشك فيه هو من عند الله وجملـة النفي خبر للتعظيم و-هدى- خبر ثان بمعنـى أن الكتاب هاد للمتقين الصائرين للتقوى بامتثـال الأوامر واجتناب النواهي، ويجب علـى المؤمنين احترام الغيبية والتصديـق بها أما في الآية الرابعة من السورة نفسها "والذين يؤمنـون بمـا أنزل إليك وما أنزل مـن قبلك وبالآخرة هم يوقنـون" فمعناها ضرورة الإيمان بـكل الكتب وقـد سبق القرآن الكريم عليهـا ألا وهي التوراة والإنجيل وغيرهمـا لأنه أشملها

(١) العلامـة جـلال الدين محمد بن أحمد المحلي، والعلامة جلال الدين عبـد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ج١، شركة الشهاب الجزائر.

وأكملهـا، فالمنطلق الأول لتوظيف القـرآن الكريم توظيفا صحيحا هو الإيمان لا الانتقاد لكي يكون أنسب لفهم وعلاج مشكلات الراهن.

وإذا كانـت العولمة هي سمة العصر والتي في إطار معطياتها كثيرا مات فهم القرآن الكـريم فهما منحرفا، فهـي خاصية لا تتعارض مـع القرآن الكريم وليسـ مسوغا للتشكيك فيـه، لأننـا إذا عدنا لقوله تعـالى في الآية ٢٨من سورة سبـأ "وما أرسلنـاك إلا كافة للناس بشـيرا ونذيـرا" وإذا عدنا لقوله تعالى كذلـك في الآية ١٥٨من سورة الأعـراف "قل يا أيها الناسـ إني رسول إليكم جميعا" نـدرك أن النبي ﷺ لا ولن إلى غاية اليوم حكرا على الأمة الإسلاميـة، بل جـاء للناس كافة لأنه جاء رحمة للعالمين ومرسلا مـن رب العالمين، وبالتالي سيكون القرآن مـن خلاله للجميع، وللإنسان بمعناه الكوني، والرسول ﷺ ذاته "يرفض أن يحشـر في خانة من خانات المجتمع الموجـود، فهو لا يحب أن يعد من تلك الطبقة او ضد تلك الطبقـة، فهو للناس جميعا، لإيمانه أن الفطرة التي تستجيب لداعي الإيمان ونداءات الروح مشتركـة بين جميع النـاس" (١) ، لأنه يخاطب البشريـة جمعاء في فلك واحد ألا وهو الإنسان العالمي والكوني.

ومـن التحديات الكبرى التـي تواجه الاستخدامات البشرية للقـرآن الكريم، تدخل العامـة في تفسير القرآن والاستشهاد به حسـب أهوائهم على الرغم من أن الواجب والأصح هـو تعلم التفسير على يد أهلـه لأن أسلافنا كان يتعلمون القرآن لفظـا ومعنى حتى يتعلمون العمـل وفق المراد منـه، كما يرى الشيخ العثيمين عن الشيخ ابن تيمية يؤكد أنه من الواجب علـى أهل العلم أن يعلموا المعاني الواردة في القرآن للناس بالكتابة والمشافهة مصداقا لقوله تعـالى في الآيـة ١٨٧من سـورة آل عمران "وإذا أخـذ الله ميثاق الذين أوتـوا الكتاب لتبيننه للناسـ ولا تكتمونـه"، و"ينبغي أن يجعل للعامة مجلس لتفسير القـرآن الكريم، وكان شيخنا عبـد الرحمـن بن سعدي رحمـه الله يفعل ذلك، كان بـين العشاءين يفسر القـرآن من أوله لآخـره، لكنها قراءة عامة يكـون في المحراب ويقرأ عليه أحد الطـلاب ويشرح الآيات فيبين ويحضر العامة فيفهمون، وهذا طيب لو جعل طالب العلم مثلا في مسجده الخاص لو جعل له

(١) عبـد الله عيسـى لحيلح، الجدلية التاريخيـة في القرآن الكريم، منشورات زين، بـيروت لبنان، ط١، ٢٠١١، ص ٤٤٦.

درسا في تفسير القرآن لانتفع ونفع"[١]، حيث من عادة السلف تعلم التفسير والعمل به ولابد للإنسان اليوم أن يتعلم هذه العادة حيث يدرك معاني السور والآيات التي يحفظها ويعمل بها للفلاح في العاجل والآجل.

يقوم استشراف توظيف القرآن الكريم في فهم مستجدات الراهن، يتبع سكته الواضحة دون زيف وانحراف، في ما يعرف بمقاصده السامية التي ينشدها وجوهرها دعوة العباد إلى عبادة رب العباد، الواحد الأحد الفرد الصمد، لأن "سر القرآن، ولبابه الأصفى، ومقصده الأقصى، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى، رب الآخرة والأولى، خالق السموات العلى، والأرضين السفلى، وما بينهما وما تحت الثرى، فلذلك انحصرت سور القرآن وآياته في ستة أنواع: ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهمة. وثلاثة: وهي الروادف والنوابع المغنية المتمة."[٢]حيث تمثل الأصول الأولى للقرآن الكريم التعريف بالخالق وبالطريق المستقيم الموصل له، والحال المرجوة عند ذلك، أما ما هو متمم فيقوم على عدة مقومات وأهمها التعريف بالمؤمنين والجاحدين وحكاية أحوالهم...

بالتالي توظيف القرآن الكريم اليوم ينطلق من الإيمان المطلق به ككتاب نهائي وشامل مطلق لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، ويختلف اختلافا كليا عن الكتب المحرفة ونصوص البشر، تخشع له حتى الجبال ناهيك عن البشر مصداقا لقوله تعالى في الآية ٣٢ من سورة النحل : "لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" ، والقرآن الكريم يتماشي مع قضايا العصر ولا يمكن اتخاذها مسوغا وذريعة للمساس به، فهو من ذكر بكرامة الإنسان، والدعوة إلى العلم والتدبر، وحارب التطرف والارهاب.

---

(١) محمد بن صالح العثيمين، أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن الجوزي القاهرة مصر، ط ٢٠٠٥، ص ١٩٧.

(٢) الغزالي أبو حامد، جواهر القرآن ودرره، دار الفكر بيروت لبنان، ط٢٠٠٣، ص ١٣.

الخاتمة

نستنتج أن مفهوم القرآن الكريم وآليات فهمه، عرفا تطورا كبيرا من التصورات الكلاسيكية إلى المعاصرة، ترتب عنه في بعض القراءات المنحرفة والحداثية مساسا بقداسته وتشكيكا فيه كثابت وكمصدر أول للعقيدة والتشريع، حيث كان في تراثنا مرادفا للمطلق والنهائي والكامل والصحيح يفهم عن طريق التفسير بالدرجة الأولى، ولكن مع ظهور القراءات المعاصرة له ظهر التشكيك في قدسية القرآن الكريم والثورة على الموروث وهو ما ترتب عنه مساسا به كثابت وكنص صالح لكل زمان ومكان، وهو ما ترتب عنه نظرة نقدية تحليلية للقراءات الحداثية ترفض أن تضع القرآن الكريم في منزلة النصوص والكتب والأخرى وترفع عنه سمات التاريخية والأنسنة والعقلنة التي شككت فيه، لتجعل منها وحيا يوحى مطلقا منزها عن كل ما هو بشري باعتباره من أنباء الغيب يجب فهمه والعمل به كما ورد عند أسلافنا دون توظيف مخل في فهم قضايا العقيدة والفكر على وجه الخصوص، . ولا يمكن التذرع بمواكبة الراهن وتحدياته حيث أن القرآن منذ فجر وجوده ومنذ فهم وتدبر السلف له يواكب تحديات الراهن، وينبذ التطرف الديني والارهاب ويدعوا إلى التسامح والعفو عن المقدرة والتضامن مع البشرية...فقط يجب العمل على توظيفه توظيفا مناسبا هادفا حسب مكانته التي جعلته آخر الكتب السماوية ومرسلا للناس كافة.

مصادر البحث ومراجعه

١. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم،لسان العرب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ج١.

٢. البنـا جمال، ٢٠٠٣، تفسير القرآن الكريم بين القدامى والمحدثين، ، دار الفكر الإسلامي، القاهرة مصر د ط، ٢٠٠٣.

٣. الزركشـي بـدر الدين محمد بـن عبد اللّه، البرهـان في علوم القرآن، تـق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

٤. السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر،الإتقان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، د ط، ٢٠٠٥،.

٥. العلامـة جلال الدين محمد بن أحمد المحلـي، والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ج١، شركة الشهاب الجزائر.

٦. الجابـري محمد عابد، المدخل إلى القـرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ص ٢٩٣.

٧. الخالـدي صلاح عبد الفتاح ، مدخل إلى ظلال القـرآن، دار الشهاب للطباعة الجزائرية، الجزائر ، د ت، د ط .

٨. دربالة إسلام محمود ، موسوعة علوم القرآن، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر ط١، ٢٠٠٧.

٩. أركـون محمد، الفكـر الأصولي واستحالـة التأصيل،نحو تاريخ آخر للفكـر الإسلامي، تر: هاشم صالح دار الساقي، بيروت لبنان،ط٣، ٢٠٠٧.

١٠. أركـون محمـد، د س، أين هو الفكـر الإسلامي المعاصـر، ط٣، ٢٠٠٦ ، دار الساقي بيروت لبنان.

١١. أركون محمد ، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟ تر:/ هاشم صالح، دار الطليعة بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٢.

١٢. -أركون محمد، ٢٠٠١، القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني، دار الطليعة بيروت لبنان ط١، ٢٠٠١، ط٢، ٢٠٠٥،.

١٣. - أركون محمد، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان ط٢، ١٩٩٦.

١٤. أبو زيد نصر حامد، الاتجاه العقلي في التفسير، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٦،.

١٥. أومليل علي، سؤال الثقافة -الثقافة العربية في عالم متحول-المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥.

١٦. ابن نبي مالك ،الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق سوريا، د ط، ١٩٨٢.

١٧. ابن نبي مالك، ١٩٦٤، القضايا الكبرى، دار الفكر. ط٩، ٢٠٠٩،

١٨. بغورة الزواوي، د س، ميشال فوكو في الفكر العربي المعاصر، ، دار الطليعة للطباعة والنشر ط١، ٢٠٠١.

١٩. بوعرفة عبد القادر وآخرون، التأويل والترجمة، مقاربات لآليات الفهم والتفسير، نقلا عن: ابن جزي، التسهيل في علوم القرآن ص ١٠، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠٠٩.

٢٠. صبحي أحمد محمود، وصفاء عبد السلام جعفر، في فلسفة الحضارة- اليونانية ،الإسلامية، الغربية- دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٦.

٢١. كافي منصور، مناهج المفسرين، دار العلوم للنشر، عنابة الجزائر، د ط، ٢٠٠٦.

٢٢. عبد الهادي عبد الرحمن، سلطة النص، قراءات في توظيف النص الديني، سينا للنشر -الانتشار العربي، بيروت لبنان ط٢، ١٩٨٨. ص ٢٠٢.

٢٣. عمارة محمد، ٢٠٠٦قراءة النص الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي، ، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة مصر ط١، ٢٠٠٦.

٢٤. طه عبد الرحمن،٢٠٠٥، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٩٢.

٢٥. طـه عبـد الرحمن، الحق العربـي في الاختلاف الفلسفـي، المركز الثقـافي العربي، بيروت لبنان، ط ٢، ٢٠٠٩.

٢٦. محمـد عمارة، قرءة النص الديني بين التأويل الغربـي والتأويل الإسلامي، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة مصر، ط١، ٢٠٠٦.

٢٧. قاسم شعيب، تحرير العقل الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٧.

٢٨. محمـد بـن صالح العثيمـين، أصول التفسـير لشيخ الإسـلام ابن تيميـة، دار ابن الجوزي القاهرة مصر، ط ٢٠٠٥.

٢٩. الغزالي أبو حامد، جواهر القرآن ودرره، دار الفكر بيروت لبنان، ط٢٠٠٣.

- Arkoun Mohammed، 1975 La pensée Arabe Presse Universitaires de France، première édition، p 105 -106 .

د. حسن بن علي بن منيع الشهراني

- رئيس قسم القرآن الكريم وعلومه وأستاذ مشارك– كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد بأبها.
- **التخصص:** القرآن وعلومه.
- **جوال:** ٠٥٠٣٧٥٠٢١٧
- **البريد الإلكتروني:** hasan-almanea@outlook.sa

المؤهلات العلمية :-

١. البكالوريوس في السنة ، كلية الشريعة وأصول الدين فرع جامعة الإمام محمد بن سعود بأبها بتقدير ممتاز .
٢. الماجستير في القرآن وعلومه ، كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بتقدير ممتاز .
٣. الدكتوراه في القرآن وعلومه ، كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

المؤلفات والبحوث:-

١. اليسر في القرآن الكريم – دراسة موضوعية (رسالة الماجستير) .
٢. الإتحاف لطلبة الكشاف للمقبلي – من أول سورة الإسراء إلى آخر سورة الناس – دراسة وتحقيقا (رسالة الدكتوراه).
٣. منهج الشيخ ابن عثيمين في تفسير غريب القرآن.
٤. القبر في القرآن الكريم – دراسة موضوعية .
٥. صفة قراءة النبي – ﷺ – عرض ودراسة .
٦. البكاء عند قراءة القرآن الكريم – أحكامه وآدابه .
٧. مختصر أحكام الإسلام في العقيدة والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات .

منهج الشيخ ابن عثيمين
في توظيف التفسير لعلاج المشكلات المعاصرة

عرضاً ودراسة

إعداد

د. حسن بن علي بن منيع الشهراني

رئيس قسم القرآن وعلومه بجامعة الملك خالد
والأستاذ المشارك بالقسم

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي القرآني الأول
لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة
المنعقد بجامعة الملك خالد – كلية الشريعة وأصول الدين
في الفترة من ١٥-١٧ / ١ / ١٤٣٨هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

فإن القرآن الكريم كلام الله – سبحانه – أودع فيه الهدى والنور، وأبان فيه العلم والحكمة، وجعله تبياناً لكل شيء، وهو معجزة الإسلام الخالدة والمتجددة في العطاء في كل زمان ومكان.

ونظراً لتجدد الأحداث ، وتنوع القضايا والمشكلات التي تمر بها الأمة في كل عصر ، فإن القرآن جاء بالحل والعلاج لتلك القضايا والمشكلات ؛ ولذا نجد أن المفسرين كانت لهم عناية بتناول ما يقع من ذلك في أزمنتهم التي عاشوها، ومنهم الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – فقد كانت له عناية بالقضايا والمشكلات التي عاصرها أو كانت قريبة من عصره ، فقد تناولها في التفسير مشخصاً ومحذراً ومبيناً ما يتعلق بها من أحكام مع بيان العلاج الشافي في ضوء كتاب الله تعالى وما جاءت به سنة رسول الله – ﷺ – ولكثرتها وتنوعها وتناول الشيخ لها في ضوء الدليل فقد عزمت على كتابة هذا البحث - مستعيناً بالله المعين - والذي عنونت له بـ "منهج الشيخ ابن عثيمين في توظيف التفسير لعلاج المشكلات المعاصرة – عرضاً ودراسة".

وذلك للمشاركة به في المؤتمر الدولي القرآني الأول لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، والذي تنظمه جامعة الملك خالد بأبها ممثلة بكلية الشريعة وأصول الدين.

سائلاً الله تعالى القبول والتوفيق والسداد ، وللقائمين على المؤتمر العون والتوفيق والثواب الجزيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره :

يمكن إجمال أهمية الموضوع وأسباب اختياره في النقاط التالية:

المكانـة العلميـة البـارزة للشيخ ابن عثيمـين – رحمه الله تعالى – كعـالم موسوعي في التفسير وعلوم القرآن واللغة والفقه وغيرها من علوم الشريعة.

أن الشيـخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – قـد تناول في تفسيره الكثير من المشكلات والقضايـا التـي مرت بها الأمـة في عصره مع بيان أحكامها وطـرق علاجها في ضوء القرآن الكريم.

تنوع القضايا والمشكلات التي تناولها الشيخ – رحمه الله تعالى – في تفسيره مما يجعل جمعها في مكان واحد يحقق فوائد كثيرة.

أن في المنهـج الـذي اتبعـه الشيخ – رحمـه الله تعالى – في توظيـف التفسير لحل تلك المشكلات فائدة كبرى للعلماء وطلبة العلم حتى يستفيدوا من هذا المنهج ، لاسيما أنه اعتمد على التفسير بالقرآن والسنة وما يتبعهما من لغة وآثار وغيرها.

× **أهداف البحث:**

يهدف البحث إلى تحقيق ما يلي:

١. إبراز دور الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – كعالم من علماء الأمة في معالجة المشكلات التي ظهرت في عصره من خلال تفسيره للقرآن الكريم.
٢. إيضـاح منهج الشيـخ في توظيفه لتفسير القرآن الكـريم في معالجة المشكلات التي برزت في عصره.
٣. المشاركـة في هذا المؤتمـر الدولي والذي تنعقد عليه آمـال كبيرة في الخروج بنتائج وتوصيـات معتمدة على مثـل هذه الدراسـات القرآنية في معالجـة مشكلات الأمة المعاصرة.
٤. إثـراء المكتبة القرآنية بمثل هذه الموضوعات المهمة التـي تعالج الكثير من القضايا والمشكلات المعاصرة.

× **خطة البحث:**

يتكـون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وسبعـة مباحث، وخاتمة، وفهارس ، وذلك كما يلي:

المقدمـة : وقد اشتملت على بيان أهمية الموضـوع وأسباب اختياره ، وأهدافه ، وخطته ، وطريقة تناوله.

التمهيد: وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : ترجمة موجزة لابن عثيمين.
- المطلب الثاني: لمحة موجزة عن تفسير ابن عثيمين.

- المبحث الأول: البدع في الدين.
- المبحث الثاني: الدعوات والتيارات المنحرفة.
- المبحث الثالث: النظريات الشائعة.
- المبحث الرابع: الغزو الفكري والأخلاقي.
- المبحث الخامس: ضعف المسلمين وعدم انتصارهم على أعدائهم.
- المبحث السادس: الألفاظ والعبارات الخاطئة.
- المبحـث السابع: الملامـح العامة لمنهج الشيخ – رحمه الله تعالى – في معالجة هذه المشكلات.

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

الفهارس: ١- فهرس المصادر والمراجع
٢- فهرس الموضوعات .

× **منهج البحث :**

يتسم منهج البحث بالخطوات التالية :

التتبــع والاستقراء لأهم المشــكلات والقضايا التي تناولها الشيخ ابن عثيمين في تفسيره من خلال الأجزاء المطبوعة منه.

اعتماد إيراد كلام الشيخ عن المشكلة أو القضية بنصه إن كان موجزاً ، أو بتصرف يسير إن كان مسهباً ؛ لأن الغرض إبراز كيفية توظيفه للتفسير في علاج تلك القضايا والمشكلات.

عزو الآيات القرآنية إلى سورها في أصل البحث مع كتابتها بالرسم العثماني.

تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية والاكتفاء بتخريج الحديث من الصحيحين إذا وجـد فيهما أو في أحدهما ؛ وإذا لم يكن في أي منهما فإنني أخرجه من مصادره الأصلية مع بيان درجته من حيث الصحة وعدمها بقدر الإمكان.

توثيق المعلومات المنقولة من مصادرها.

شرح الألفاظ الغريبة الواردة في البحث.

ختم البحث بخاتمة موجزة تشمل أهم نتائجه وتوصياته.

هــذه أبرز معالم المنهج الــذي اتبعته في هذا البحث وأسأل الله تعــالى التوفيق والسداد والقبول وأن يجعله نافعاً مباركاً خالصاً لوجهه الكريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد : وفيه مطلبان

- المطلب الأول: ترجمة موجزة لابن عثيمين
- المطلب الثاني: لمحة موجزة عن تفسير ابن عثيمين

المطلب الأول: ترجمة موجزة لابن عثيمين

هو الإمام العالم المفسر اللغوي أبو عبد الله، محمد بن صالح بن سليمان بن عبد الرحمن بن عثمان من آل مقبل، من آل ريس الوهبي التميمي، وجده الثالث عثمان أطلق عليه عثيمين فاشتهر به.

ولد في مدينة عنيزة في ١٣٤٧/٠٩/٢٧هـ وقد نشأ في أسرة كريمة وعائلة معروفة بالدين والاستقامة ومنهم أهل علم وفضل، وقد حفظ القرآن صغيراً ثم اتجه إلى طلب العلم ، ولازم العلماء والمشايخ وتتلمذ عليهم وفي مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر عبد الرحمن بن ناصر السعدي ومنهم الشيخ ابن باز والشنقيطي صاحب "أضواء البيان" وغيرهم – رحمهم الله تعالى –.

وأما تلاميذه: فقد تتلمذ عليه خلق كثير لا يمكن حصرهم بدقة لكثرتهم في المعهد وفي الجامعة والمسجد والحرم وغيرها، وقد تنوعت مؤلفاته – رحمه الله تعالى – فمنها في العقيدة، ومنها في الفقه وأصوله، والحديث وعلومه، والتفسير وعلوم القرآن.

وكانت وفاته – رحمه الله تعالى – يوم الأربعاء ١٤٢١/١٠/١٥هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين عاماً قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين حتى آخر يوم من حياته حيث استمر في إلقاء الدروس رغم مرضه حتى ودع طلابه في اليوم التاسع والعشرين من رمضان ١٤٢١هـ وودعهم قائلاً : لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا.

وقد صلى عليه في المسجد الحرام، ودفن في مقبرة العدل بمكة بجوار شيخه ابن باز – رحمهما الله تعالى – وأسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة.(١)

---

(١) انظر ترجمته في : ابن عثيمين الإمام الزاهد ، وجهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ص ٢٣-٥٤ وقد ذكر فيه أهم الكتب التي ألفت في ترجمته ، وكذا أهم الرسائل والمجلات التي تعرضت لترجمته.

المطلب الثاني : لمحة موجزة عن تفسير ابن عثيمين

للشيخ – رحمه الله تعالى – عدة مؤلفات في التفسير ومنها :

الأول: تفسير آيات الأحكام وهو الكتاب الذي عنوانه "الإلمام بآيات الأحكام" وهو مقرر الدراسة في المعاهد العلمية.

الثاني: التفسير في المسجد ، وهو عبارة عن تفسير من المصحف مباشرة، وقد ابتدأه بسورة الفاتحة عام ١٤٠٧هـ. ومات عند تفسير الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

الثالث: تفسيره لأجزاء وسور متفرقة من القرآن الكريم وقد طبع عدة طبعات ، فمثلاً : سورة الفاتحة والبقرة في ثلاثة مجلدات ، وآل عمران في مجلدين ، والأنعام في مجلد والكهف في مجلد، وجزء عم في مجلد، وهكذا، وهذا التفسير هو الذي اعتمدته في بحثي هذا – والله الموفق والمعين-[١]

(١) راجع في ذلك جهود الشيخ ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن ، ص ٦١-٦٦

المبحث الأول

البدع في الدين

جاء في معجم مقاييس اللغة : الباء والدال والعين : أصلان : أحدهما : ابتداء الشي وصنعه لا عن مثال، والآخر : الانقطاع والكلال؛ فالأول قولهم: أبدعت الشيء قولاً أو فعلاً : إذا ابتدأته لا عن سابق مثال، والله بديع السموات والأرض، والأصل الآخر قولهم : أبدعت الراحلة إذا كلت وعطبت[١] ويقال : ابتدع فلان بدعة ، يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق، ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة.[٢]

وفي الاصطلاح : قال الشاطبي : عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه.[٣]

والبدع من المشكلات الخطيرة التي عانت منها الأمة وما زالت تعاني ، وقد بدأ فشوها في أواخر الخلافة الراشدة[٤] وما زالت مستمرة في الظهور والانتشار حتى عصرنا الحاضر.

ولخطورتها وضررها على دين المسلم نجد أن الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – تناولها بالبحث في مواضع متعددة من تفسيره للقرآن الكريم ، وتناول في كل موضع جانباً من جوانب هذه المشكلة ، وطريقة علاجها ، ويمكن تقسيم ذلك في المسائل التالية:

١) بيان حكم البدع وما يترتب عليها:

فعند تفسيره لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات : ١)

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ١١١

(٢) انظر : الاعتصام للشاطبي ١/٤٩

(٣) انظر الاعتصام للشاطبي ١/٥٠ وأنظر : موسوعة الأديان الميسرة ص ١٣٢

(٤) انظر فتاوى بن تيمية ١٠/٣٥٤

قال – رحمه الله تعالى – : ومن التقدم بين يدي الله ورسوله البدع بجميع أنواعها، فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله[(١)] بل هي أشد التقدم لأن النبي ﷺ قال : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وإياكم ومحدثات الأمور)[(٢)] وأخبر بأن "كل بدعة ضلالة" وصدق عليه الصلاة والسلام، فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات مما يدعي أنه شرع، كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل ، وأنه كملها بما أتى به من البدعة، وهذا معارض تماماً لقوله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (المائدة : ٣) ولقوله تعالى : (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ) (يونس : ٣٢) فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله ، وأنه ناقص.[(٣)]

فالشيخ – رحمه الله تعالى – بين حكم البدع ، وما يترتب عليها معتمداً في ذلك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٢) أنواع البدع، وبعض مظاهرها قديماً وحديثاً :

قال – رحمه الله تعالى – : والبدعة أنواع كثيرة : بدع في العقيدة ، وبدع في الأقوال ، وبدع في الأفعال ، ثم بيّن – رحمه الله تعالى – ذلك فقال : أما البدع في العقيدة فإنها تدور على شيئين : إما تمثيل أو تعطيل.

فالتمثيل : أن يثبت لله تعالى الصفات لكن على وجه المماثلة ، فإن هذا بدعة ؛ لقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى : ١١). ولقوله : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص : ٤) .

أما التعطيل: فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه ، فإن كان إنكار جحد وتكذيب فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل، فهو تحريف وليس بكفر إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب ... الخ.[(٤)]

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١٣٦/١٣ ، وتفسير ابن سعدي ٦٧/٥

(٢) أخرجه أبو داود في السنن – كتاب: السنة، باب : في لزم السنة ٢٠٠/٤ رقم ٤٦٠٧ والترمذي في سننه – كتاب : العلم – باب : ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ٤٣/٥ رقم ٢٦٧٦ وقال : حديث حسن صحيح . والحديث صححه الألباني كما في صحيح سنن أبي داود ٨٧١/٣

(٣) انظر : تفسير القرآن الكريم ٦/١٠

(٤) انظر : تفسير القرآن الكريم ٦/١٠

أما البدعة في الأقوال : فمثل أولئك الذين يبتدعون تسبيحات أو تهليلات أو تكبيرات لم ترد بها السنة، أو يبتدعون أدعية لم ترد بها السنة ، وليست من الأدعية المباحة.

وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر ، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبداً، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع ، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسحون بحجرة النبي – ﷺ – حجرة قبره الشريف ، وكذلك الذين يتمسحون بجدران مقبرة البقيع أو بغير ذلك ، ومنها ما يصنع في رجب كصلاة الرغائب التي تصلى ليلة أول جمعة من شهر رجب وهي صلاة يتعبدون لله بذلك(١)

وبعد أن بيّن – رحمه الله تعالى – هذه الأحكام وهذه الأنواع والمظاهر للبدع القديمة والمعاصرة ؛ بين أن هذا كله مما يندرج تحت تفسير هذه الآية الكريمة؛ فقال – رحمه الله تعالى – : والبدع كثيرة العقدية والقولية والفعلية ، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية لله ورسوله ؛ فإن الله يقول : (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (وإياكم ومحدثات الأمور)(٢)

وهذا من معالجة القضايا المعاصرة أو الممتدة على مر العصور من خلال تفسير القرآن الكريم مع الاعتماد في ذلك على تفسير القرآن بالقرآن والقرآن بالسنة ؛ فما أورده المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا يعد من التفسير بالقرآن من خلال إيراد الآيات القرآنية التي استدل بها الشيخ على بيان ما ذهب إليه ، وكذا الأحاديث التي أوردها فهي تعد من التفسير بالسنة، وهذه أحسن طرق التفسير التي قلما يخطئ من اعتمدها.

٣) شروط العمل الصالح:

وعند تفسيره لقوله تعالى : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ...)

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله عنها : الصلاة المبتدعة التي تسى الرغائب قاتل الله واضعها ومخترعها ، فإنها بدعة منكرة من البدع التي هي ضلالة وجهالة ، ومنها منكرات ظاهرة (شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٠). وقال ابن حجر : "أما صلاة الرغائب فإنها كالصلاة المعروفة ليلة النصف من شعبان بدعتان مذمومتان ، وحديثهما موضوع فيكره فعلهما فرادى وجماعات "فتاوى ابن حجر الهيتمي ٢١٧/١.

(٢) سبق تخريجه ص ٦. وانظر : تفسير القرآن الكريم ٧/١٠

(سبأ : ٤) قال – رحمه الله تعالى – وفي قوله تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني : عملوا الأعمال الصالحات. ثم بين – رحمه الله تعالى – أن العمل الصالح هو الذي جمع شرطين:

الأول: الإخلاص لله تعالى والثاني : المتابعة للرسول – ﷺ – ؛ [١] فإن فقد الإخلاص فليس بصالح وهو مردود على فاعله. قال الله سبحانه وتعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) [٢]

وإن فقد المتابعة فهو أيضا مردود غير مقبول ؛ لقول النبي – ﷺ – "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد". [٣] فهو – رحمه الله – بين شروط العمل الصالح ومتى يكون العمل مقبولاً ومتى يكون مردوداً ، وأنه إذا فقد المتابعة فهو مردود غير مقبول وأنه حينئذ يكون من البدع في الدين. [٤]

٤) تقسيم البدعة إلى حسنة وضلالة :

فعند تفسير قوله تعالى : (إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) (الأنعام : ٥٠) ذكر – رحمه الله – سبع عشرة فائدة منها: الفائدة الحادية عشرة: أن الشرائع توقيفية ، فلا يجوز لأحد أن يبتدع منها شيئاً لقوله : (إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) .

ولهذا قرر أهل العلم أن الأصل في العبادات المنع والحظر ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتعبد لله تعالى بشيء إلا ما أذن الله فيه شرعاً ، وهذا حق مستند إلى آيات متعددة وإلى قول النبي – ﷺ - : "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" [٥] ، وبذلك يبطل تقسيم من قسم البدعة إلى نوعين: ضلالة وحسنة أو إلى خمسة أنواع ، فإن هذا باطل لا شك فيه ؛

---

(١) انظر : تفسير البغوي ٣٦٩/٤

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب : الزهد – باب من أشرك في عمله غير الله ٢٢٨٩/٤ / حديث ٢٩٨٥

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب : الأقضية – باب : نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ١٣٤٣/٣ رقم ١٧١٨

(٤) انظر : تفسير سورة سبأ ص ٤٧-٤٩

(٥) رواه البخاري في صحيحه – كتاب : الصلح – باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود رقم ٢٦٩٧ البخاري مع الفتح ٣٥٥/٥ ومسلم في صحيحه – كتاب : الأقضية – باب : نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ١٣٤٣/٣ رقم ١٧١٨

لأن أعلـم الخلق بشريعة الله وأفصح الخلق وأنصح الخلق محمد – ﷺ – قال : "كل بدعة ضلالة" بصيغة العموم "كل" التي هي أعم صيغ العموم.[(١)]

٥) بعض المحدثات في المساجد :

الإحداث: الابتداع، كما فسره النبي – ﷺ – بقوله : "وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة"[(٢)]

هناك أمور تعد من المحدثات في المساجد قديماً وحديثاً ومنها :

أ) المحاريب في المساجد :

والمحاريـب : جمـع محراب – قال ابـن عاشور : والمحراب : بناء يتخـذه أحد ليخلو فيه بتعبـده وصلاتـه، وأكثر ما يتخذ في علو يرتقى إليه بسلـم أو درج وهو غير المسجد. قال : ثم أطلق المحراب عند المسلمين على موضع كشكل نصف قبة في طول قامة ونصف يجعل بموضع القبلـة ليقف فيه الإمام للصلاة ، وهو إطلاق مولد وأول محراب في الإسلام محراب مسجد الرسـول – ﷺ – صنـع في خلافة الوليد بن عبدالملك ، مدة أمارة عمر بن عبدالعزيز على المدينـة[(٣)] ، وبما أن المحراب من الأمور المحدثة ؛ فقد ناقش – رحمه الله تعالى – هذا الأمر وبيّن وجه مشروعيته، ورد على من ذهب إلى أنه من البدع المحرمة فقال – رحمه الله تعالى – : لو قال قائل : محاريب المساجد هذه بدعة لابد أن نهدمها ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنها بقوله محذراً : "إياكم ومذابح النصارى"[(٤)] فالجواب :

أولاً: إن النبي – ﷺ – قيد فقال : "كمذابح النصارى"[(٥)] فإذا كان المحراب على غير الشكل النصراني فلا بأس به، هذا إن صح الحديث مع أن الحديث فيه مقال.

ثانيــاً: أن نقـول : إذا انتفى أن تكون هذه المحاريب كمحاريـب النصارى ، بقى أن يقال:

---

(١) انظر : تفسير سورة الأنعام ص ٢٥٣-٢٥٤

(٢) سبق تخريجه ص ٦

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٣/٢٣٧

(٤) أخرجـه ابـن أبي شيبة في المصنف – كتاب : الصلاة – باب : الصلاة في الطاق ٢/٤٦٨ رقم ٤٧٣٢ ونحوه عند عبدالـرزاق في المصنـف باب : صلاة الإمام في الطاق ٢/٢٧٥ رقـم ٣٩١٥ والحديث ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١/٩٣٦ رقم ٤٤٨

(٥) المذابح : المحاريب. انظر : ترتيب القاموس المحيط ٢/٢٤٩ والنهاية ٢/١٥٤

هــل فيهــا مصلحة أم لا ؟ الجواب : فيها مصلحة ، منها : أنهــا تغني عن صف كامل. وثانياً: الدلالة على القبلة.

فإذا كان فيها مصلحة ، فكيف يقال : إنها بدعة محرمة يجب هدمها ؟!(١)

ب) كتابة (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ) (آل عمران : ٣٧) على بعض المحاريب :

وقد بيّن – رحمه الله تعالى – خطأ ذلك ، وأنه من تحريف الكلم عن مواضعه، وأن من فعل ذلك أخطأ من وجهين :

الوجه الأول: أنه ليس بالمراد بالمحراب في الآية محراب القبلة.

والوجه الثاني: أن زكريا لم يدخل على مريم في هذا المحراب.(٢)

ولكــن هذا هو الجهــل الفاضح؛ ولذلك يجب علــى وزارة الشــؤون الإسلامية والأوقاف والدعــوة والإرشــاد أن تتتبع المساجد التي كتب فيها هذا وتطمسه ؛ كيف يحرف كلام الله في قبلة المسلمين ؟!(٣)

ج) بعض المساجد يكون مكتوباً فوق محرابها على اليمين (الله) وعلى اليسار (محمد):

قــال – رحمه الله تعالى - : هــذا أصلاً بدعة ، وما كان السلف يفعلون هذا، ولو فرضنا أن إنسانــاً لا يعــرف هذه العبارة (الله) (محمد) يعرف فقــط : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمــداً رسول الله) وكتب أمامه على خط مستــوٍ (الله محمد) فإنه يفهم أنهما متساويان ، فيجب على المسؤولين إزالة هذه الكتابة ، لكن لو لم يفعلوا فلا يزيلها الأفراد ...(٤)

٥) حال المبتدعة وحال المشركين :

عنــد تفســير قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتَكُـمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُـمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) الآيتين (الأنعام ٤٠-٤١)

(١) انظر : تفسير سورة الأنعام ص ٢٥٧ وانظر : عمدة الحفاظ ١/٤٤٤-٤٤٥

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٤/٧١ ، وقد جاء فيه : أنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها بسلم

(٣) انظر : تفسير سورة الأنعام ، ص ٢٥٨

(٤) انظر : تفسير سورة الأنعام ص ٢٥٨ وأنظر : معجم المناهي اللفظية ص ١٢٦

قال – رحمه الله تعالى – : والجملة الاسمية (أغير الله تدعون) في محل نصب المفعول الثاني، يعني : أخبروني إذا وقعتم في شدة أتدعون غير الله ؟ الجواب : لا ، وهذا تفسير بالمعنى، أما التفسير المطابق للفظ: أعلمتم هذا فأخبروني. قال تعالى : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (لقمان : ٣٢) أي : إذا وقعوا في الشدة عرفوا الله، والعجب أن المشركين إذا وقعوا في الشدة دعوا الله، وأن بعض طوائف المبتدعة في هذه الأمة إذا وقعوا في الشدة دعوا غير الله، إذا وقعوا في الشدة دعوا عبدالقادر الجيلاني – رحمه الله – دعوا علي بن أبي طالب أو الحسين – رضي الله عنهما – وما أشبه ذلك ؛ فصار حال المشركين خيراً من حال هؤلاء.[١]

(١) انظر : تفسير سورة الأنعام ص ٢١٣-٢١٤

المبحث الثاني

الدعوات والتيارات المنحرفة

هنـــاك تيارات ودعوات منحرفة تموج بالأمة موج البحر الهائج، وقد تصدى لها العلماء والأئمـــة والدعاة وبينوا بطلانها وما فيها مـــن خطورة على الدين والأمة ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – في تفسيره وغيره من مؤلفاته.

ومـــن هذه الدعـــوات والتيارات التي تصدى لها – رحمـــه الله تعالى – وبين بطلانها ما يلي:

١) الدعوة إلى القومية العربية :

والقومية العربية : هي حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولـــة موحـــدة لهم ، على أساس رابطة الدم والقربى واللغـــة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الديـــن[١] . وهـــي من المشاكل الشائكة التي مرت بها الأمـــة في العصر الحاضر ، وقد تصدى الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الدعوة الضالة ، والحركة المنحرفة ، وحذر منها ، وبيّن خطورتها وبطلانها مع بيان البديل لها.

فعنـــد تفسيره لقوله تعـــالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ...) الآية (البقرة : ١٧١) .

ذكر من فوائد الآية :

أن لهـــؤلاء أمثـــالاً يدعون بدعـــوى الجاهلية ، كأولئـــك الذين يدعـــون إلى القومية ، فإن مثلهـــم كمثـــل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، وهذه الدعـــوى لا يفكر الدعاة لها فيما يترتـــب عليهـــا من تفريق المسلمين ، وتمزيـــق وحدتهم ، وكونهم يجعلـــون الرابطة هي اللغة ، أو القوميـــة ، فيدخـــل فيها غير المسلم ممن تشملهم القوميـــة ، ويخرج منها مسلمون كثيرون

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ١/ ٤٤٤

ممـن لا تشملهم القومية ؛ لكـن الرابطة الدينية التي قال الله سبحانـه وتعالى فيها : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات : ١٠) هذه تدخل جميع المؤمنين ولو من غير العرب، وتخرج من ليس بمؤمـن ولو كان عربياً ... إلى أن قال – رحمه الله تعـالى - : فكون الناس انجرفوا في هـذه الدعوى الباطلة – دعـوى القومية – هو داخل في هذه الآية : أنهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ... الخ.[١]

فالشيـخ – رحمـه الله تعالى – شخّص المشكلة ، وبيّن العلاج لهـذه الدعوى المنحرفة ، وإن كانـت هـذه الحركة تعيش فترة انحسار أو جمود على الأقـل[٢] إلا أن هناك من يحاول بعثها الآن من خلال الدعوة إلى بعض الأمور التي هي في الأصل من معتقدات وأفكار ومبادئ القومية العربية.

٢) الدعوة إلى تحرير المرأة :

وهي حركة علمانية، نشأت في مصر في بادئ الأمر ثم انتشرت في أرجاء البلاد العربية والإسلاميـة، تدعوا إلى تحرير المرأة من الآداب الإسلامية ، والأحكام الشرعية الخاصة بها ، مثل : الحجاب ، وتقييد الطلاق ، ومنع تعدد الزوجات، والمساواة في الميراث ، وتقليد المرأة الغربية في كل أمر.[٣]

وهـي مـن أخطر الدعوات والحركات علـى الأمة الإسلامية ؛ لأن فيهـا حمل المرأة على التمرد من دينها وحجابها وسترها وعفافها؛ وهي نشطة في العصر الحاضر وبقوة من خلال الوسائل المتنوعة المساعدة على نشرها في شتى البلاد العربية والإسلامية.

وهذه الدعوة المنحرفة والخطيرة ، قد تناولها الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – في تفسـيره وبيّن بطلانها وخطورتها ومن ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا......) الآية (البقرة :١٣٥) ذكر لها سبع فوائد ومنها:

أن كل داعٍ إلى ضـلال ففيـه شبـه من اليهـود والنصارى ؛ دعاة السفـور الآن يقولون :

(١) انظر : تفسير سورة البقرة ٢/٢٤٥ – ٢٤٦

(٢) انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ١/٤٤٥

(٣) انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ١/٤٥٣

اتركـوا المـرأة تتحرر ، أتركوها تبتهج في الحياة ، لا تقيدوهـا بالغطاء ، وترك التبرج ، ونحو ذلـك ، أعطوهـا الحرية ؛ وهكذا كل داع إلى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود والنصارى.(١)

فالشيـخ – رحمه الله تعالى – بيّن خطورة هذه الدعوة وأنها قد تنطلي على الغر البليد ؛ ولـذا يجـب على المؤمن والمؤمنـة التيقظ والحذر مما يراد به من أعدائـه وأنه قد يؤتى من حيث لا يشعر.

٣) الدعوة إلى تحديد النسل:

وقـد بـين – رحمه الله تعالى – بطلان هـذه الدعوة وانحرافها ومَـنْ وراءها ، كما بين علاجهـا مـن خلال تفسيره للقرآن الكـريم الذي اعتمد فيه على كتـاب الله وسنة رسوله – ﷺ – .

فعنـد تفسيره لقوله تعالى : (نِسَاؤُكُـمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّـى شِئْتُمْ... ...) الآية (البقرة الآية ٢٣) ذكر للآية ثماني عشرة فائدة ومنها:

أنـه ينبغي للإنسان أن يحـاول كثرة النسل، لقوله تعالى (حرث لكـم) وإذا كانت حرثاً فهل الإنسان عندما يحرث أرضاً يقلل من الزرع أو يكثر من الزرع؟

فالجـواب : الإنسان عندما يحرث أرضاً يكـثر من الزرع ، ويؤيد هذا قول النبي – ﷺ – "تزوجوا الودود الولود"(٢)

وأمـا القـول بتحديد النسل فهـذا لا شك أنه مـن دسائس أعداء المسلمـين يريدون من المسلمـين ألا يكـثروا ؛ لأنهـم إذا كثروا أرعبوهـم واستغنوا بأنفسهم عنهـم ، حرثوا الأرض ، وشغلّـوا التجـارة ، وحصـل بذلك ارتفاع للاقتصـاد ، وغير ذلك من المصالـح ، فإذا بقوا مستحسريـن قليلـين صاروا أذلة ، وصاروا محتاجين لغيرهـم في كل شيء ، ثم هل الأمر بيد

(١) انظر تفسير سورة البقرة ٨٥/٢

(٢) أخرجـه أبـو داود في السـنن – كتاب النكاح – باب : النهي عن تزويج مـن لم تلد من النساء ٢٢٧/٢ رقم ٢٠٥٠ والنسائي في سننه – كتاب : النكاح – باب : كراهية تزويج العقيم ٦٥/٦ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٣٨٦/٢ وقال : حسن صحيح وفي صحيح سنن النسائي ٦٨٠/٢ رقم ٣٠٢٦

الإنسان في بقاء النسل الذي حدده ؟ !! فقد يموت هؤلاء المحدَّدون فلا يبقى للإنسان نسل.(١) والشيخ – رحمه الله تعالى – بين أن هذا من دسائس أعداء المسلمين حتى في البلاد التي يعيش فيها غير المسلمين مع المسلمين ؛ ولهذا ورد في "الموسوعة الميسرة" أنه حصل اجتماع للبابا شنودة في ١٩٧٣/٣/٥م مع القساوسة والأثرياء في الكنيسة المرقسية بالإسكندرية طرحوا بعض المقررات وقد كان منها: تحريم تحديد النسل أو تنظيمه بين شعب الكنيسة ، وتشجيع الإكثار من النسل بوضع الحوافز والمساعدات المادية والمعنوية ، مع تشجيع الزواج المبكر بين النصارى، وفي المقابل تحديد النسل وتنظيمه بين المسلمين خاصة ، علماً بأن أكثر من ٦٥٪ من الأطباء وبعض القائمين على الخدمات الصحية هم من شعب الكنيسة. (٢)

فهذه دسائس أعداء الإسلام والمسلمين ، وهذه من دعواتهم المنحرفة لإضعاف المسلمين ، ونجد أن الشيخ – رحمه الله تعالى – وظف التفسير في علاج هذه القضية وأمثالها من القضايا التي كانت في عصره – رحمه الله تعالى – العصر الحاضر.

٤) محاربة إقامة الحدود الشرعية :

فإن هناك دعوات متكررة فيها تحذير البلدان الإسلامية من إقامة الحدود الشرعية بزعم أن في ذلك وحشية وإزهاقاً للأنفس.

وقد تناول الشيخ – رحمه الله تعالى – هذه المزاعم في تفسيره للقرآن الكريم وبيّن بطلانها ، ورد على من يدعو إليها بأنهم دعاة ضلال وانحراف ، وحرب لدين الله تعالى وللإنسانية جمعاء فعند تفسيره لقوله تعالى : (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ...) الآية (المائدة الآية ٣٨) ذكر للآية ثلاث عشرة فائدة ومنها:

الرد على كل ناعق يقول : إن قطع الأيدي وحشية ، وأن ذلك يستلزم أن يكون نصف الشعب أشل ، ليس له إلا يد واحدة لقوله (والله عزيز حكيم) فيقال : بل هذه هي عين الحكمة ، وعين الصواب ؛ لأنه لو ترك الناس لحصلت الفوضى وابتزاز الأموال، والسطو على الآمنين ، فكان قطع اليد لا شك أنه هو الحكمة، وانظر إلى الشعوب التي تطبق هذه الحدود الشرعية كيف تقل فيها الجريمة ، وعلى العكس الشعوب التي لا تطبقها وهذا كقول القائل :

(١) انظر : تفسير سورة البقرة ٨٨/٣

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٦٧٤/٢

إن قتل القاتل يعني كثرة إزهاق النفوس ، وهذا أيضاً مصادم تماماً لقول الله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) (البقرة ١٧٩) فالقصاص هو الحياة في الواقع لنا فيه حياة ؛ لأن من هم بالقتل ثم ذكر أنه سيقتل امتنع وكف عن القتل.[١]

٥) الدعوة إلى فصل العبادات والأحوال الشخصية والمواريث عن المعاملات ، وأن الدين خاص بالأولى وأما المعاملات فهي خاضعة للعصر والحال.

فعند تفسيره لآية الدين ٢٨٢ من سورة البقرة ذكر فوائد كثيرة للآية ومنها : دحر أولئك الذين يقولون: إن الإسلام ماهو إلا أعمال خاصة بعبادة الله – عز وجل – وبالأحوال الشخصية كالمواريث وما أشبهها ، وأما المعاملات فيجب أن تكون خاضعة للعصر ، والحال؛ وعلى هذا فينسلخون من أحكام الإسلام فيما يتعلق بالبيوع والإجارات وغيرها إلى الأحكام الوضعية المبنية على الظلم والجهل.[٢]

ومثل هذا عند تفسيره لقوله تعالى : (قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...) الآية (الكهف ٢٦) . قال: وفيه دليل على وجوب الرجوع إلى حكم الله الشرعي وأنه ليس لنا أن نشرع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات ، وأما من قال: إن لنا أن نشرع في المعاملات ما يناسب الوقت، فهذا قول باطل ؛ لأنه على قولهم لنا أن نجوز الربا ولنا أن نجوز الميسر ولنا أن نجوز كل ما فيه الكسب ولو كان باطلاً ؛ فالشرع صالح في كل زمان ومكان ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها... الخ[٣]

(١) انظر : تفسير سورة المائدة ٣٦٩/١ وفتح القدير ٢٧١/١ وابن سعدي ١٤١/١ وقبس من نور القرآن الكريم ٤٧/١-٤٩

(٢) انظر : تفسير سورة البقرة ٤١٠/٣ – ٤١١

(٣) انظر : تفسير سورة الكهف ص ٥٤-٥٥

المبحث الثالث

النظريات الشائعة

هناك نظريات شاعت وانتشرت في العصور المتأخرة وتلقاها الكثير من الناس بالتسليم ، ولكن علماء الشريعة كان لهم موقف آخر يستند إلى الدليل من الكتاب والسنة ، ومن هؤلاء العلماء الإمام ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – فقد تطرق للكثير من تلك النظريات في تفسيره للقرآن ، وعمل على مناقشتها وتوظيف التفسير لمعالجة الخطأ فيها وبيان الحق والصواب. ومن أهم تلك النظريات :

١) نظرية تطور الخلق:

وهي ما عرفت باسم نظرية داروين ، وهي نظرية تقوم على أن الوجود قام بدون خالق ، وأن الإنسان قد تطور من القرد ... الخ.[١]

وقد انتشرت بين الناس ، وتلقاها الكثير بالقبول، بل قُررت على طلاب المدارس في بعض البلاد الإسلامية وكأنها حقيقة علمية.

ولكن علماء الشريعة بينوا بطلان تلك النظرية وفسادها وخطورتها على دين المسلم ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – فعند تفسيره لقوله تعالى : (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران ٣٤) قال – رحمه الله تعالى - : (بعضها من بعض) في جنس الخلقة أو بعضها من بعض في الآداب والأخلاق والديانات ، والظاهر الشمول[٢] يعني: أن الآدميين كلهم من جنس واحد، وليس فيه آدمي كان بالأول قرداً كما يقوله إخوان القردة ومن أقروا على أنفسهم بأنهم قردة ، فالآدمي أصله آدمي، خلق الله أباه بيده ابتداء لكن هؤلاء أبوا إلا أن يجعلوا أنفسهم من القرود.[٣]

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٩٢٥/٢

(٢) انظر : زاد المسير ٣٢٠/١ ، وفتح القدير ٥٠٣/١

(٣) انظر : تفسير سورة آل عمران ٢٠٧/١

وعنـد ذكر الفوائد من الآية : ذكر منهـا: الرد على من زعم أن البشر متطور من جنس لآخـر ، من القـردة إلى الآدميين إلى البشر وجدير بأن نسمي هـذا القائل قرداً ؛ لأنه رضي لنفسـه أن يكـون أصله القرد ، أمـا نحن فنقول : إن أصلنـا آدم – عليه الصلاة والسلام – الذي خلقه الله بيده من تراب وأنه جنس مستقل بنفسه لا متطور.[1]

٢) نظرية إمكانية العيش في بعض الكواكب غير كوكب الأرض :

وهـذه النظرية الباطلة قائمـة في عصرنا الحاضر وبقوة بزعـم البعض أنه قد يصعب العيشـ في كوكب الأرض نتيجة الحـروب ولا سيما إن قامت الحـروب النووية؛ ولهذا شهدت الأعـوام الماضيـة بعض المبادرات من قبل بعض الأفراد للسفـر إلى المريخ واستيطانه ، وكان آخرهـا مبادرة شركة هولندية دعت مجموعة من البشـر للسفر إلى كوكب المريخ في رحلة لا عودة منها ، وقد تقرر أن تنطلق الرحلة البشرية الأولى إلى الكوكب الأحمر في العام ٢٠٢٠م بالتنسيق مع وكالة ناسا لعلوم الفضاء الأمريكية.[2]

وهـذه الدعوات والنظريـات الباطلة تصدى لهـا العلماء ومنهم الشيـخ ابن عثيمين – رحمـه الله تعـالى – في تفسيره حيث بين بطلانهـا واستحالة تحققها معتمـداً في ذلك على ما في كتاب الله تعالى.

فعند تفسيره لقوله تعالى : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ...) الآية (البقـرة ٣٦) . قـال – رحمه الله تعالى – وهو يعدد فوائد الآية : ومنها : أنه لا يمكن العيش إلا في الأرضـ لبنـي آدم لقولـه تعالى : (ولكم في الأرض مستقر ومتـاع إلى حين) ويؤيد هذا قولـه تعـالى : (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) (الأعراف ٢٥) . وبناء على ذلك نعلـم أن محاولـة الكفار أن يعيشـوا في غير الأرض إمـا في بعض الكواكـب أو بعض المراكب محاولة يائسة ؛ لأنه لابد أن يكون مستقرهم الأرض.[3]

٣) نظرية : أن الشمس ثابتة لا تدور :

فعنـد تفسـيره لقوله تعالى : (وَالشَّمْسُ تَجْـرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيـرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

(١) انظر : تفسير سورة آل عمران ٢١١/١

(٢) كما نشر في بعض الصحف وفي وسائل الإعلام المتنوعة وعبر وسائل التواصل المتعددة

(٣) انظر : تفسير سورة البقرة ١٣٣/١

(يس : ٣٨) بعد أن فسر الآية ذكر فوائد عدة منها: أن الشمس تجري أي : تسير ، وهذا هو الواقع، وظاهر القرآن الكريم أن سيرها ذاتي وليس المراد أنها تجري برأي العين، وأن الذي يدور هو الأرض، والواجب إجراء القرآن الكريم على ظاهره حتى يقوم دليل صريح يكون لنا حجة أمام الله عز وجل إذا خرجنا عن ظاهر القرآن ؛ لأن الذي تكلم بالقرآن هو الله الخالق عز وجل وهو العليم بخلقه فإذا قال : (والشمس تجري) وجب أن نقول: إن الشمس تجري ، ولا يجوز أن نقول : إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.(١)

وعند تفسيره لقوله تعالى : (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس : ٤٠) ذكر من فوائدها : الرد على قول من يقول : إن الشمس ثابتة وأنها لا تدور ، والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة وأن القمر يدور على الأرض ، وهذا غلط ؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل الحكم واحداً قال : (وكل في فلك يسبحون) فإذا فسرنا السبح بالدوران ، وأثبتنا ذلك للقمر ، فلنثبته أيضا للشمس.(٢)

(١) انظر تفسير سورة يس ص ١٣٩

(٢) انظر تفسير سورة يس ص ١٥٠

المبحث الرابع

الغزو الفكري والأخلاقي

لقد تنوعت أساليب الأعداء في محاربة الأمة وغزوها ؛ فهناك الغزو المسلح ، وهناك الغزو الفكري ، وهناك الغزو الأخلاقي ، والأخيران أخطر من الأول لأنهما يتعلقان بدين الأمة وعقيدتها وأخلاقها ، فإذا غزيت في ذلك وأبعدت عن دينها لم يبق لها قيمة بين الأمم ، ولخطورة السلاحين الأخيرين الفكري والأخلاقي نجد أن الشيخ – رحمه الله تعالى – قد تناول الحديث عنهما في تفسيره في مواضع عدة كاشفاً ومحذراً ومبيناً ما يترتب عليهما من خطورة مع بيان وسائل المعالجة والمواجهة وذلك كما يلي:

١) التحذير من خطورة الغزو الفكري والأخلاقي وأنه أشد خطراً من الغزو السلاحي:

فعند تفسيره لقوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ......) الآية (البقرة : ٢١٧) ، ذكر – رحمه الله تعالى – من فوائد الآية :

حرص المشركين على ارتداد المؤمنين بكل وسيلة ولو أدى ذلك إلى القتال ؛ لقوله تعالى : (وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ...) ولهذا كان الغزو الفكري والغزو الأخلاقي أعظم من الغزو السلاحي ؛ لأن هذا يدخل على الأمة من حيث لا تشعر وأما ذاك فصدام مسلح ينفر الناس منه بالطبيعة؛ فلا يمكنون أحداً أن يقاتلهم، أما هذا فسلاح فتاك يفتك بالأمة من حيث لا تشعر ؛ فانظر كيف أفسد الغزو الفكري والخلقي على الأمة الإسلامية أمور دينها ودنياها ، ومن تأمل التاريخ تبين له حقيقة الحال.[1]

٢) بعض مظاهر الغزو الفكري والأخلاقي وبيان خطورتها ومَنْ وراءها :

فعند تفسيره لقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا) (النساء : ٧١) . قال – رحمه الله تعالى – قوله : (خذوا حذركم) من أعدائكم من المنافقين ومن الكافرين المصرحين بالكفر ، ومن الفاسقين الذين يغزونكم في الوقوع

(١) انظر : تفسير سورة البقرة ٦٠/٣

في المعاصي التي دون الكفر ، ومن كل أحد يصدكم عن دين الله فعلينا أن نأخذ الحذر من غزو هؤلاء لنا ، سواء كان بالسلاح أو كان بالفكر ، أو كان بالخلق ، ومعلوم أن أعداء المسلمين يغزون المسلمين بكل سلاح ، وينظرون السلاح المناسب للأمة فيغزونها به ؛ فإذا كان من المناسب للأمة أن يغزوها بالسلاح فعلوا وقاتلوا وهاجموا ، وإذا كان من غير الممكن فإنهم يغزون بالأفكار فيأتون بأفكار منحرفة إلحادية[١] إذا أمكنهم ذلك ، وإذا لم يمكن بأن كانت الأمة على جانب كبير من الوعي والتوحيد والارتباط بالله عز وجل قالوا: إذاً نغزوا بطريق ثالث وهو الخلق، فسلطوا عليها كل ما يفسد أخلاقها من المجلات والإذاعات وغير ذلك؛ ولهذا انظر الآن ماذا فعلوا بالناس بواسطة المحطات الدولية التي تلتقط عن طريق الدشوش، فالأقمار مرسلة والدشوش مستقبلة ، وهذه الأشياء التي يبثونها لاشك – كما سمعنا ولم نشاهد والحمد لله – أن فيها شراً عظيماً وهم يجعلون فيها أشياء مفيدة ؛ لأنهم يعلمون أنها لو كانت مفسدة بكامل عناصرها ما قبلها الناس ، إلا من زاغ قلبه –والعياذ بالله – لكن يجعلون فيها أشياء مفيدة من أجل أن يضعوا الحب للصيد فأقول : هذا الغزو الآن غزو خلقي ، وربما يكون فيه غزو فكري وأنا أسمع أحياناً إذاعة عالية صافية من أحسن ما يكون من إذاعات العالم التي نسمع وتبث الدعوة إلى النصرانية ، لكن الحمد لله كل شيء تدعو إليه وهو خير نجد أن شريعتنا متضمنة له ، وأنه لا حاجة إلى دعوتهم هذه ؛ لأن الشريعة الإسلامية والحمد لله قد تضمنت أكثر مما عندهم.[٢]

٣) وسائل المعالجة والمواجهة :

بعد أن عرض – رحمه الله تعالى – فيما سبق مظاهر الغزو بأنواعه ، وبيّن خطورتها ووسائلها ، انتقل – رحمه الله تعالى – إلى بيان وسائل المعالجة والمواجهة فقال – رحمه الله تعالى – قوله : (خذوا حذركم) يشمل كل ما يكون سلاحاً علينا ، ومعلوم أننا نأخذ لكل سلاح ما يناسبه؛ فالذي يناسب السلاح الخلقي أن يبصر الناس ، وتبين لهم العاقبة السيئة في دمار الأخلاق ، وأنه كما قيل :

---

(١) الإلحاد : هو مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى (انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة) ٢/٨٠٣

(٢) انظر : تفسير سورة النساء ص ١/٥١١-٥١٢

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا[1]

ويبين لهم المضار في سوء الأخلاق والفواحش وغير هذا ، وفي الأفكار : يبين للناس العقيدة السليمة التي تصلهم بالله وتجعل الإنسان دائماً مع الله – عز وجل – يذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه قائماً وقاعداً وعلى جنب.

والغزو المسلح بالسلاح ، لابد أن نعدله العدة ؛ لأن الله قال : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (الأنفال: ٦٠) .[2]

(١) قائله : أحمد شوقي – رحمه الله تعالى –

(٢) انظر: تفسير سورة النساء ١/٥١٢-٥١٣

المبحث الخامس

ضعف المسلمين وعدم انتصارهم على أعدائهم

إن مشكلة ضعف المسلمين وعدم انتصارهم على أعدائهم تعتبر من المشاكل الكبرى التي تعاني منها الأمة بأجمعها في عصرنا الحاضر، ونجد أن الشيخ – رحمه الله تعالى – لم يترك هذا الأمر العظيم هملاً بل أولاه عناية كبيرة، وضرب فيه بسهم من حيث تشخيص المشكلة، وبيان أهم مظاهرها، وأسبابها، ثم ذكر العلاج لها أخذاً من تفسيره لكتاب الله تعالى، ومن أهم الأسباب لهذه المشكلة مع علاجها ما يلي:

١) عدم تطبيق الشريعة الإسلامية :

فعند تفسيره لقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) (البقرة : ١٣).

بيّن – رحمه الله تعالى – مدافعة الله تعالى عن المؤمنين بالقول والفعل، والتأييد لهم بإنزال الجنود من السماء لقتل أعداء المؤمنين، ولكن ذلك كله يحتاج إلى إيمان قوي بخلاف ما يعيشه المسلمون في عصرنا الحاضر من ضعف إيمان؛ ولهذا قال – رحمه الله تعالى - : ولهذا صرنا نخشى الناس أكثر مما نخشى الله عز وجل، وهذه هي المصيبة، والطامة العظيمة التي أصابت المسلمين اليوم؛ ولذلك تجد كثيراً من ولاة المسلمين – مع الأسف – لا يهتمون بأمر الله، ولا بشريعة الله؛ لكن يهتمون بمراعاة فلان وفلان، أو الدولة الفلانية والفلانية، ولو على حساب الشريعة الإسلامية التي من تمسك بها فهو المنصور، ومن خالفها فهو المخذول وهم لا يعرفون أن هذا هو الذي يبعدهم من نصر الله، فبدلاً من أن يكونوا عبيداً لله أعزة؛ صاروا عبيداً للمخلوقين أذلة؛ لأن الأمم الكافرة الكبرى لا ترحم أحداً في سبيل مصلحتها لكن لو أننا ضربنا بذلك عرض الحائط وقلنا: لا نريد إلا رضى الله، ونريد أن نطبق شريعة الله سبحانه وتعالى على أنفسنا وعلى أمتنا؛ لكانت تلك الدول العظمى تهابنا...[١]

---

(١) انظر تفسير سورة البقرة ١/٥١-٥٢

٢) قلة الإخلاص ، وكثرة المعاصي من كبائر وصغائر :

فعند تفسيره لقوله تعالى : (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ... ...) الآية (البقرة : ٦١) .

ذكر ست عشرة فائدة من الآية ومنها :

أن بنـي إسرائيـل لا يقومون للمسلمـين لو حاربوهم من قبل الإسـلام؛ لأن ضرب الذلة بسبـب المعصية ، فإذا حوربوا بالطاعة والإسلام فلا شك أنه سيكون الوبال عليهم، وقد قال الله تعالى : (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ) (الحشر : ١٤).

وما يشاهد اليوم من مقاتلة اليهود للعرب فإنما ذلك لسببين :

الأول: قلـة الإخلاص لله تعـالى ، فإن كثـيراً من الذين يقاتلـون اليهـود أو أكثرهم لا يقاتلونهـم باسـم الإسلام، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، وإنما يقاتلونهم باسم العروبة فهو قتال عصبي قبلي ؛ ولذلك لم يفلح العرب في مواجهة اليهود.

والسبب الثاني : كثرة المعاصي من كبيرة وصغيرة ، حتى إن بعضها ليؤدي إلى الكفر ؛ وقد حصل للمسلمـين في أحـد ما حصـل بمعصية واحدة مع ما انضـم إليها من التنازع والفشـل كما قال تعالى : (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ) (آل عمران : ١٥٢) [(١)]

٣) طلب النصر من غير الله تعالى :

فعنـد تفسيره لقوله تعالى : (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِـنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ...) (الأنعام : ٣٤) ذكر من فوائد الآية :

ألا يرجـى النصـر إلا من عنـد الله تعالى لقوله : (حتى أتاهـم نصرنا) ولم يقل : حتى نصرهـم فلان أو فلان ، فإذا علمنا أن النصر لا يكون إلا من عند الله، فممن نطلب النصر إلا منـه عـز وجل ، ولهذا اختصر النبي – ﷺ – في عريش له يـوم بدر ، يناشد ربه تبارك وتعالى النصر حتى نصره والحمد لله[(٢)] فلا تطلب النصر إلا من الله ... [(٣)]

---

(١) انظر : تفسير سورة البقرة ٢١٩/١ – ٢٢٠

(٢) أخرجـه مسلـم في صحيحـه – كتاب : الجهاد والسير – بـاب : الإمداد بالملائكة في غزوة بـدر وإباحة الغنائم ١٣٨٣/٣ رقم ١٧٦٣

(٣) انظر تفسير سورة الأنعام ص ١٨١ – ١٨٢

٤) عدم تحقيق الأمة لأسباب النصر والتمكين الخمسة وهي : (التوحيد ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر)

وقد جاءت هذه الأسباب في قوله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...) (النور : ٥٥)

وفي قوله تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج : ٤٠-٤١).

قال – رحمه الله تعالى – : أسباب النصر الذي وعد الله به خمسة : عبادة الله بدون إشراك الذي أعلاه التوحيد ، ثم إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فهذه هي أسباب النصر الحقيقية التي بها ينصر الله عباده ، ما عدا ذلك فليس بسبب من أسباب النصر ، ويلاحظ أن إعداد القوة داخل في ضمن هذه الأشياء ؛ لأنه من جملة عبادة الله حيث أمر الله به ، وكل ما أمر الله به فهو من العبادات. أما رجل يقول : أنا أتمنى النصر لكن لا يقيم الصلاة من أين يأتيه النصر ؟ يقول : يتمنى النصر لكنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، لابد من الأمر بمعروف ونهي عن منكر ، ثم ثقوا أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنهم إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر لزم ولابد التفرق بينهم؛ لأنه هل مشرب الناس واحد ، وهدفهم واحد ؟ لا ، هذا أمر بالضرورة فإذا لم يقم هذا الذي شذ عن الإسلام، إذا لم نقمه ، صار مفارقاً لنا ، يسلك غير ما نسلك، ولذلك قال الله تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران ١٠٤ – ١٠٥) فدل هذا على أن بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون التفرق ، وهو أمر واضح طبيعي[1]

(١) انظر : تفسير القرآن الكريم ٥/٢٨٣-٢٨٤

المبحث السادس

الألفاظ والعبارات الخاطئة

هنــاك كثير مــن الألفاظ والعبارات الدارجة على ألسنة كثير مــن الناس ، وعبر وسائل الإعــلام المتنوعــة وفي كثير من المؤلفــات ؛ كل لفظ منها أو عبارة يعــد مشكلة ؛ لأنه مخالف للديــن ، أو فيــه شبهة مخالفة ، ولو من وجه ، وبما أن الشيخ – رحمه الله تعالى – قد وظف التفســير لعلاج القضايــا والمشاكل المعاصرة له؛ فقد أولى هذه الألفــاظ والعبارات عناية في تفســيره، وبــين أوجه الخطأ فيها وما هو الصــواب من الألفاظ أو العبــارات أو المصطلحات البديلة ، ومن أهم تلك الألفاظ والعبارات التي عالجها في تفسيره :

١) التبشير وإطلاقه على دعاة النصرانية ، وتسمية النصارى بالمسيحيين.[١]

فعند تفسيره لقوله تعالى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ... الآية) (البقرة : ٢١٣) ، ذكر – رحمه الله تعالى – من فوائد الآية :

أن من يوصف بالتبشير إنما هم الرسل ، وأتباعهم ، وأما ما تسمى به دعاة النصرانية بكونهم مبشرين فهم بذلك كاذبون ، إلا أن يراد أنهم مبشرون بالعذاب الأليم كما قال تعالى : (فبشرهم بعذاب أليم) (آل عمران ٢١) . وأحق وصف يوصف به هؤلاء الدعاة أن يوصفوا بالمضللــين أو المنصريــن ، وما نظير ذلك إلا نظير من اغتر بتسميــة النصارى بالمسيحيين ؛ لأن لازم ذلك أنك أقررت أنهم يتبعون المسيح ، كما إذا قلت : "فلان تميمي" إذاً هو من بني تميــم ، والمسيــح ابن مريم يتبرأ من دينهم الذي هم عليه الآن كما قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَــا عِيسَى ابْنَ مَــرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...) الآيتين (المائدة : ١١٦-١١٧) ولأنهــم ردوا بشارة عيسى بمحمد – ﷺ – وكفروا بها ؛ فكيف تصح نسبتهم إليه ؟!.

(١) انظر : معجم المناهي اللفظية ص ٩٣

والحاصـل : أنه ينبغي للمؤمن أن يكون حذراً يقظاً لا يغتر بخداع المخادعين فيجعل لهم من الأسماء والألقاب ما لا يستحقونه.[1]

٢) دين الإسلام "دين المساواة" :

فعند تفسير قوله تعالى : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...) الآيتين (النساء : ٩٥-٩٦) ، ذكر من فوائد الآيتين :

نفـي التسـاوي بـين الناس ، والعجـب : أننا نسمع من يدنـدن كثيراً ، فيقـول : إن دين الإسـلام ديـن المساواة ، وهذا غلـط على دين الإسلام ، فدين الإسـلام ليس دين المساواة ، ولكنـه ديـن العدل ، والعدل: هو إعطاء كل أحد ما يستحقـه ؛ ولذلك تجد أكثر ما في القرآن نفـي المساواة وليس إثباتها كقوله تعالى : ((قُلْ هَلْ يَسْتَـوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ...) (الرعد : ١٦) وكقولـه : (قُـلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِيـنَ لَا يَعْلَمُونَ ..) (الزمر : ٩) وقوله : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ...) (الحديد : ١٠) وهلم جرا.

فالقول بأن دين الإسلام دين المساواة في الحقيقة قد يبنى عليه مبدأ خطير وهو :

أولاً: تسويـة الذكـور مـع الإنـاث ، وأن تفضيل الذكـور على الإناث يعتـبر مخالفاً لدين الإسلام.

ثانياً: الاشتراكية بتسوية الناس في الرزق بحيث نأخذ من مال الغني ونعطيه الفقير؛ لأن الدين دين المساواة ولو قالوا : الدين دين المواساة لكان صحيحاً...[2]

وعنـد تفسـيره لقوله تعـالى : (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّـى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَـةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ..) الآية (البقرة : ٢٢١) ، ذكر ما يتعلق بإطلاق المساواة على دين الإسلام ثم قال: والحاصل أن كلمة المساواة أدخلها أعداء الإسلام على المسلمين ؛ وأكثر المسلمين – ولا سيما ذوو الثقافة العامة – ليس عندهم تحقيق ، ولا تدقيق في الأمور، ولا تمييز بين العبارات ولهذا تجد الواحد يظن هذه الكلمة كلمة نور تحمل على الرؤوس (الإسلام دين مساواة) ونقول : لو قلتم : الإسلام دين العدل لكان أولى ، وأشد مطابقة لواقع الإسلام.[3]

(١) انظر : تفسير سورة البقرة ٨٠/٣

(٢) انظر : تفسير سورة النساء ١٠٣/٢

(٣) انظر : تفسير سورة البقرة ٨٠/٣

٣) قول بعض الإعلاميين والمذيعين : أيها السيدات والسادة أو أيها الأخوات والإخوة .. بتقديم النساء على الرجال في الذكر فعند تفسيره لقوله تعالى : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ...) الآية (النساء : ٧) ، ذكر – رحمه الله تعالى – ست فوائد مأخوذة من الآية ومنها:

تقديم الرجال على النساء حتى في الأمر الذي يشتركون في الاستحقاق فيه ، ووجه الدلالة قوله : (للرجال نصيب) (وللنساء نصيب) وهذا هو المشروع والمعقول والفطري أن يكون الرجال مقدمين على النساء ، وقد عكس ذلك من عكس الله قلوبهم من الكفرة والمبهورين بهم حيث قدموا النساء على الرجال فيقولون مثلاً : أيها الأخوات والإخوة ! أيها السيدات والسادة ! وهذا خطأ عظيم؛ لأن الرجال مقدمون على النساء وهم قوامون عليهن.(١)

٤) قول بعض العوام : يا أبا الأفراج

فعند تفسيره لقوله تعالى : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ...) الآية (الأنعام : ١٩) . قال – رحمه الله تعالى – لو قال قائل : ما حكم قول العوام في بعض أشعارهم : يا أبا الأفراج ؟ فالجواب : هذه مشكلة ؛ لأننا لو أخذنا بظاهرها فقد جعلوا الإله أباً ، لكني أعلم أنهم يريدون بمعنى "يا أبا الأفراج" أي : يا صاحب الأفراج.

فنقول : قولوا : يا صاحب الأفراج ، وأحسن من هذا أن تقولوا : يا مفرج الكربات.(٢)

٥) قول بعض الخطباء "الصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد ﷺ"

فعند تفسيره لقوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ...) (الأنعام : ٣٨) . قال – رحمه الله تعالى – وهو يعدد فوائد الآية : لو قال قائل : يرد كثيراً على ألسنة الخطباء وفي مقدمة بعض الكتب "والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد – ﷺ – " هل هذا جائز ؟

الجواب : هذا غلط ، وإن كان بعضهم أطلق فقال :

وأفضل الخلق على الإطلاق
نبينا فَمِلْ عن الشقاق(٣)

(١) انظر : تفسير سورة النساء ٥١/١

(٢) انظر : تفسير سورة الأنعام ص ١١٢

(٣) البيت من جوهرة التوحيد في عقيدة الأشاعرة لبرهان الدين بن إبراهيم وانظر: تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد ص ١١١

ولكن يجب أن يقيد الخلق ببني آدم ؛ لأن الرسول – ﷺ – قال : "أنا سيد ولد آدم "[(١)] وأما ما جاء في الحديث (خيرته من خلقه)[(٢)] المراد : خلق الآدميين[(٣)] هذا رأي الشيخ – رحمه الله تعالى – في هذه المسألة وهو يتوقف فيها على الدليل وعلى فهم الدليل ثم ما يتبع ذلك من مسألة تفضيل الآدميين على الملائكة وهي من المسائل المطروقة في كتب العقائد، والرأي الآخر يرى أفضلية النبي ﷺ على جميع الخلائق ، قال النووي – رحمه الله تعالى – معلقا على حديث "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ..." الحديث : وهذا الحديث دليل لتفضيله – ﷺ – على الخلق كلهم ؛ لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أي أهل الطاعة والتقى أفضل من الملائكة وهو – ﷺ – أفضل الآدميين وغيرهم ...[(٤)]

٦) قول البعض (إن الله على ما يشاء قدير)

فعند تفسيره لقوله تعالى : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ...) الآية (النساء : ١٣٣) قال – رحمه الله تعالى – ويعبر بعض الناس بقوله : "إن الله على ما يشاء قدير" وهذا التعبير غير صحيح ؛ لأنه يقيد القدرة بما شاءه الله، وما لم يشأه فهو – غير – قادر عليه ، ومفهوم هذا الكلام أنه ليس بقادر ، وعلى هذا نقول : أولاً: هذه الكلمة لم ترد لا في القرآن ولا في السنة ... الخ وعلى كل حال يجب التقيد بما جاء في القرآن والسنة ، فنقول (إن الله على كل شي قدير) وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك معنى مستحيلاً أو غير مستحيل فليقل : "إن الله على كل شي قدير" ويسكت ونحن نبين لطلبة العلم وسيفهمون، لكن العامي قد لا يفهم هذا الكلام فلا نخاطبه به[(٥)]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب : الفضائل – باب : تفضيل نبينا على جميع الخلائق ١٧٨٢/٤ رقم ٢٢٧٨

(٢) ذكره الألباني في إرواء الغليل من حديث أم سلمة رضي الله عنها برقم ١٨١٤ وقال : حديث ضعيف

(٣) انظر : تفسير سورة الأنعام ص ٢٠٩

(٤) انظر : شرح صحيح مسلم للنووي ٣٦/١٥ وقد بوب : باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق

(٥) انظر : تفسير سورة النساء ٣١٧/٢ – ٣١٨ وقال الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله تعالى –: إطلاق هذا اللفظ له حالتان: الأولى : على وجه العموم فهذا ممتنع لثلاثة وجوه:

١) لأن فيها تقييدا لما أطلقه الله

٢) لأنه موهم بأن ما لا يشاؤه لا يقدر عليه.

٣) لأنه موح بمذهب القدرية

والثانية : على وجه التقييد كما ذكر – يعني كقوله تعالى : (وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) (الشورى: ٢٩) فهي معلقة بالجمع. للاستزادة معجم المناهي اللفظية ص ٥٥٥-٥٥٦

المبحث السابع

الملامح العامة لمنهج الشيخ في معالجة هذه المشكلات

اتسم منهج الشيخ – رحمه الله تعالى – في معالجته لتلك المشكلات في تفسيره بما يلي:

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن:

وهذه أحسن طرق التفسير وأفضلها قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : إن أصح الطريق في ذلك – أي التفسير – أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر.[1]

ولهذه الأهمية لتفسير القرآن بالقرآن نجد أن الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – قد اعتمدها في تفسيره عموماً ومن ذلك تفسيره للآيات التي عالج من خلالها هذه القضايا والمشكلات ، كما مر معنا في المباحث السابقة ، وانظر الصفحات : ٦ – ١٠ – ١٥ – ١٨ – ٢٠ – ٢١.

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة :

قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى – "فإن أعياك ذلك – يعني تفسير القرآن بالقرآن – فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له"[2] وقد كان للتفسير بالسنة مكانته البارزة في تفسير ابن عثيمين ومن ذلك تفسيره للآيات التي تناول من خلالها القضايا والمشكلات المعاصرة؛ فهو أحياناً يعتمد عليها في التفسير مباشرة ، وأحياناً يورد الدليل من السنة مع الدليل من القرآن ، كما أنه لا يورد الأحاديث هكذا بلا خطام ولا زمام بل إنه يخرج الحديث، ويبين درجته؛ فيعتمد على الصحيح كثيراً، وأحياناً يورد الحديث ويبين درجته فيقول : ضعيف ، أو فيه مقال ، أو أحاديث حسان ، وانظر الصفحات: ٦ – ٧ – ٨ – ٩ – ١٢ – ٢٣.

(١) انظر: مقدمة التفسير بشرح ابن عثيمين ص ١٢٧

(٢) انظر : مقدمة التفسير بشرح ابن عثيمين ص ١٢٧

ثالثاً: معالجة القضايا والمشاكل المعاصرة له – رحمه الله تعالى – عند ذكر الفوائد من الآيات – غالباً – وفي هذا تنزيل للآيات على القضايا المعاصرة ومعالجتها في ضوء تلك الآيات مع الاعتماد على التفسير بالقرآن سواء من خلال الآية التي يتناولها بالتفسير ، أو من خلال ما يستحضره من آيات في المعنى نفسه عند ذكر الفوائد في ضوء ذلك ، وكذلك يعتمد على السنة ، والسمة الغالبة إيراد الأحاديث الصحيحة، وإن أورد غير ذلك فإنه يبين درجته فيقول : ضعيف ، أو فيه مقال، أو أحاديث حسان.

رابعاً: معالجة المشكلة من خلال بيان خطرها وضررها على الأمة من الناحية المتعلقة بدينها أو عقيدتها، وانظر الصفحات : ٦ – ١٦ – ٢٢.

خامساً: معالجة المشكلة من خلال ذكر من وراءها من أعداء الإسلام من يهود أو نصارى أو منافقين أو من فجرة وفاسقين، وانظر الصفحات : ١١ – ١٢ – ١٤ – ١٦ – ٢١.

سادساً: معالجة المشكلة عملياً من خلال توجيه الخطاب إلى الجهة المختصة لإزالة ما خالف الدين مما يتعلق بصلاحية تلك الجهة، وأن هذا خاص بها، مع تحذير الأفراد من تولي ذلك، وانظر صفحة ٩.

سابعاً: معالجة المشكلة من خلال توجيه الخطاب لطلبة العلم بالخصوص دون غيرهم؛ لأهليتهم لفهم ذلك، وكيفية التعامل الصحيح مع المشكلة في ضوء الدليل ، وانظر صفحة ٢٣.

ثامناً: أن معالجته لتلك المشكلات كان مبثوثاً في تفسيره ولم يكن في موضع واحد ؛ بل كان يكرر بعض القضايا ويتناولها بالمعالجة وبيان الحق فيها في أكثر من موضع ، مع تباين المواضع من خلال التوسع أو الاختصار والإيجاز ، وقد تجد في موضع ما لا تجده في الموضع الآخر ، وبذلك يتم الإلمام بالموضوع من جميع جوانبه ، كما في المباحث الأول ، والرابع ، والخامس.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وفي ختام هذا البحث نصل إلى النتائج التالية:

تنوع المشاكل التي تمر بها الأمة في عصرها الحاضر فمنها ما هو في جانب العقيدة، ومنها في جانب الأخلاق ومنها في جانب السلوك والعلاقات الاجتماعية ...الخ.

حرص أعداء الأمة على إبعادها عن دينها والإلتزام بأحكامه وتعاليمه في شتى المجالات ، وبشتى الطرق والوسائل ؛ ولذا يجب الحذر منهم.

الدور الكبير للشيخ ابن عثيمين – رحمه الله تعالى – حيث سلط الضوء على الكثير من تلك المشكلات والقضايا مع العمل على معالجتها ، وبيان أحكامها ، وما يترتب عليها من خلال تفسيره لكتاب الله تعالى.

انفراد الشيخ – رحمه الله تعالى – عن علماء التفسير المعاصرين له في إيراد هذا الكم الكبير من تلك المشكلات و القضايا وبأساليب متنوعة ، وفي مواضع متعددة من تفسيره للقرآن الكريم ، وهذا يدل على إلمام الشيخ واطلاعه على ما يدور في عصره من مشكلات وقضايا تمس الأمة في دينها وعقيدتها وأخلاقها.

اعتماد الشيخ على أحسن طرق التفسير وأفضلها في تفسيره للقرآن وفي تناول تلك القضايا ومعالجتها.

توظيف التفسير وغيره من علوم القرآن لمعالجة قضايا الأمة ومشاكلها مما ينبغي أن يحرص عليه علماء الأمة ومفسروها في كل عصر.

التوصيات

١. جَمّع تلك المشكلات والقضايا التي تناولها الشيخ في تفسيره في مؤلف واحد ودراستها بشكل أوسع وأعمق.

٢. لعل علماء الأمة من مفسرين وغيرهم يكون لهم عناية أكبر بالمشكلات والقضايا التي تمر بها الأمة في العصر الحاضر، وما قد يستجد من ذلك مع تشخيصها وبيان أحكامها وطرق علاجها أثناء تناولهم لتفسير القرآن الكريم.

٣. وفي الختام أسال الله تعالى للقائمين على هذا المؤتمر التوفيق والسداد، وأسال الله أن يجزيهم خيراً وأن ينفع بهذا المؤتمر الأمة بأجمعها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للشيخ الألباني تحقيق زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢. الاعتصام للشاطبي – تحقيق سليم الهلالي – دار ابن عفان – مصر – الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٣. ترتيب القاموس المحيط – للأستاذ الطاهر أحمد الزاوي – دار الفكر – الطبعة الثالثة.

٤. تفسير البغوي – المسمى معالم التنزيل – للإمام البغوي – تحقيق: خالد العك ومروان سوار – دار المعرفة – بيروت – لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥. تفسير الطاهر ابن عاشور – التحرير والتنوير – دار سحنون – تونس.

٦. تفسير القرآن الكريم – للشيخ ابن عثيمين – دار النجاح للكتاب – ٢٠١٢م.

٧. تفسير القرآن الكريم – سورة الفاتحة والبقرة – للشيخ ابن عثيمين – دار ابن الجوزي – الطبعة الثانية محرم ١٤٣١هـ.

٨. تفسير القرآن الكريم – سورة آل عمران – للشيخ ابن عثيمين – دار ابن الجوزي – الطبعة الأولى رمضان ١٤٢٦هـ.

٩. تفسير القرآن الكريم – سورة النساء – للشيخ ابن عثيمين – دار ابن الجوزي – الطبعة الأولى رمضان ١٤٣٠هـ.

١٠. تفسير القرآن الكريم – سورة المائدة – للشيخ ابن عثيمين – دار ابن الجوزي – الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ.

١١. تفسير القرآن الكريم – سورة الأنعام – للشيخ ابن عثيمين – دار ابن الجوزي – الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ.

١٢. تفسير القرآن الكريم – سورة الكهف – للشيخ ابن عثيمين – دار ابن الجوزي – الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ.

١٣. تفسير القرآن الكريم – سورة سبأ – للشيخ ابن عثيمين – مؤسسة الشيخ محمد العثيمين الخيرية – الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.

١٤. تفسير القرآن الكريم – سورة السجدة – مؤسسة الشيخ محمد العثيمين الخيرية ١٤٣٦هـ.

١٥. تفسير القرآن الكريم – سورة يس – للشيخ ابن عثيمين – دار الثريا – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٦. تفسير القرآن الكريم – سورة الزمر – للشيخ ابن عثيمين – مؤسسة الشيخ محمد العثيمين الخيرية – الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.

١٧. تفسير القرآن الكريم – جزء عم – للشيخ ابن عثيمين – دار الثريا - الرياض – الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٨. تفسير القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري.

١٩. تفسير ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – تحقيق مصطفى السيد وآخرين – دار عالم الكتب – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٠. تقريب البعيد إلى جوهرة التوحيد للصفاقسي – تحقيق : الحبيب بن طاهر – مؤسسة المعارف – بيروت – الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

٢١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لابن سعدي – تقديم : محمد زهري النجار – دار المدني بجدة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٢. جهود ابن عثيمين وآراؤه في التفسير وعلوم القرآن – د/ أحمد البريدي – مكتبة الرشد – الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٣. زاد المسير في علم التفسير – لابن الجوزي – تحقيق: محمد عبدالرحمن عبدالله – دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٤. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ الألباني – مكتبة المعارف – الرياض – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٥. سنن أبي داود – دار الحديث – القاهرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٦. سنن الترمذي – المسمى "الجامع الصحيح" تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي – دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٧. سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي – دار الجيل – بيروت – دار الحديث – القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٨. شرح صحيح مسلم للنووي – دار الريان للتراث – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م القاهرة.

٢٩. صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٣٠. صحيح سنن أبي داود – للشيخ الألباني – مكتب التربية العربي لدول الخليج – زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٣١. صحيح سنن الترمذي – للشيخ الألباني – مكتب التربية العربي لدول الخليج – بإشراف زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٢. صحيح سنن النسائي – للشيخ الألباني – مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض – بإشراف زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٣. ابن عثيمين الإمام الزاهد – د. ناصر الزهراني – دار ابن الجوزي – الطبعة الأولى صفر ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٣٤. عمدة الحفاظ – للسمين الحلبي – تحقيق د/ محمد التونجي – عالم الكتب – بيروت – الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٣٥. فتاوى ابن حجر الهيتمي – طبعة دار الفكر.

٣٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني – المكتبة السلفية – الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

٣٧. فتح القدير للشوكاني – تحقيق : سعيد محمد اللحام – دار الفكر ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٣٨. قبس من نور القرآن الكريم – للشيخ محمد الصابوني – دار الجيل – الطبعة الأولى ٢٠٠١م.

٣٩. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلوني – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الثالثة ١٩٨٨م – ١٤٠٨هـ.

٤٠. الكليات للكفوي – مقابلة د. عدنان درويش ومحمد المصري – مؤسسة الرسالة – بيروت

– الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٤١. مجموع فتاوى ابن تيمية – جمع ابن قاسم – مكتبة ابن تيمية.

٤٢. المصنف للحافظ أبي بكر بن أبي شيبة – تحقيق : حمد الجمعة ومحمد اللحيدان – مكتبة الرشد – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤٣. المصنف للإمام عبدالرزاق الصنعاني ، تحقيق : أيمن الأزهري – دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢١–٢٠٠٠م.

٤٤. معجم مقاييس اللغة لابن فارس – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٤٥. معجم المناهي اللفظية للشيخ بكر بن عبدالله أبوزيد – دار العاصمة الرياض – الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٦. المعجم الوسيط – المكتبة الإسلامية – استانبول – تركيا.

٤٧. مقدمة التفسير لابن تيمية بشرح ابن عثيمين – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م – دار الوطن – الرياض.

٤٨. موسوعة الأديان – دار النفائس – الثالثة ١٤٢٦–٢٠٠٥م.

٤٩. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي – الطبعة الخامسة ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م.

٥٠. النهاية في غريب الحديث والأثر – لابن الأثير – تحقيق : طاهر الزاوي ومحمود الطناحي – المكتبة العلمية – بيروت – لبنان.

محمد أمين مقراوي

- الدرجة العلمية: طالب دكتوراه - تخصص الفقه وأصوله - الجزائر.
- ماجستير فقه مالكي.
- ليسانس في أصول الفقه- كلية الشريعة - جامعة الجزائر١.
- ليسانس في القانون- كلية الحقوق — جامعة الجزائر١.
- شهادة الدراسات التطبيقية في اللغة الإنجليزية- قسم اللغات- جامعة الجزائر١
- الرتبة:أستاذ معيد بكلية الشريعة وأصول الدين- جامعة الجزائر١.
- أستاذ مادة قانون العمل بكلية الحقوق - جامعة الجزائر١.
- أستاذ مادة الشريعة الإسلامية بالتعليم الثانوي.
- إمام مكلف بالدروس بالعاصمة.
- إمام مسجد وداعية متطوع بشرق أوكرانيا (صيفا) ، ونائب بمركز إسلامي ثقافي في أوكرانيا سابقا.
- عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
- كاتب وباحث بمركز البيان للدراسات والبحوث-الرياض.
- نشـرت للباحث عدة بحوث ودراسات شرعية وسياسية ومقالات في مجلات ومواقع ومراكز دراسات.
- المشاركة في ندوات وملتقيات وطنية ودولية.
- المشاركة في التحليل السياسي الدولي باذاعة الجزائر الدولية.
- ثلاث كتب مخطوطة في طور التحضير للطبع.

محور البحث

توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات السياسية

معالجة مشكلة الاستبداد في ضوء الدراسات القرآنية

محمد أمين مقراوي

ملخص البحث

قعّد الإمام مالك قاعدة كلية إصلاحية كبرى، تعتبر الحل الأنجع لكل مشكلات الأمة الإسلامية المعاصرة، حيث يقول: "لن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، وقد وعى السلف هذه الحقيقة، فسعدوا وسادوا العالم، وتخلف عنها الخلف فنالهم من الشقاء الكثير، ولهذا كانت الدعوة إلى الرجوع إلى القرآن الكريم، وتحكيمه بحق في حياتنا فريضة شرعية، وضرورة حضارية.

لقد كانت العرب في الجاهلية تعيش في ظلمات الجهل والاستبداد، حتى صار من المألوف أن يئد الأب ابنته، وأن ينكح الرجل أمه، وأن يُقتل الرجل في الشيء التافه، حتّى نزل فيهم الوحي، الذي أخرجهم من ظلمات التوحش، إلى نور التوحيد والتحضر السامي، ومن رعي الإبل إلى رعي الأمم.

وكان الاستبداد بكل صوره وقتها، من أبشع ما عانته البشرية قبل مجيء الإسلام، فنزل القرآن الكريم يفكك الدعامات التي قام عليها الاستبداد، وأبرزها أرضية الجهل، التي تقتل في الإنسان إنسانيته، وتخرجه من الفطرة السليمة، إلى طبيعة العداون والظلم، كما عالج آثار الاستبداد، والتي على رأسها الفساد بكل مظاهره، فتغير حال الإنسان الجاهلي من القسوة إلى الرحمة، ومن العدوانية إلى التواصل الحضاري، ومن نفسية الهدم إلى رحابة البناء، ومن الذاتية والأنانية إلى البحث عن المصلحة العامة.

وجمع القرآن الكريم بين معالجة أسباب الاستبداد، وبين معالجة أثاره، فوضع آليات إجرائية للقضاء على آثاره، ووضع كليات تحسم مادته وأسباب ظهوره في الحاضر والمستقبل، فكان العلاج وقائيا وإجرائيا، حيث أمر بالتوحيد، الذي من معانيه أن يكون العبد حرا لله، متحررا من عالم الأشياء، وربط الإنسان بعالم القيم والأخلاق، فأمر بالعدل ليعم الاستقرار وتزدهر الحضارة، وينتشر التعمير، وحضّ على الشورى ليعم التراضي وتنتشر الثقة بين الراعي والراعية، وجعل التقوى معيار التفاضل، وأزاح بذلك صنميات كثيرة طالما استعبدت

البشـر، ودعا إلى الأخوة والتعـاون، ليقضي على الأمراض الداخليـة للمجتمعات، وأبرزها: التعصب للحزبيات والعرقيات.

وكان الاستبـداد المالي مما عالجه القرآن، فأمر بالعدالة في توزيع الثروات، ومنع الربا والرشـوة والاحتكار، وحض على رعاية الضعفاء، وأوصى باليتامى، كما رعى شؤون السفهاء والمجانين.

أمـا الاستبـداد الفكـري، فقـد كان القـرآن واضحا في الحث علـى القـراءة والكتابة، فالمجتمع المتعلم والمثقف، أبعد عن الشركيات والخرافات والتناحر، إذا رُبط العلم بالخشية، وبالتقـرب إلى الله، وجُعـل سبيلا لعمـارة الأرض، وتكريم الإنسان؛ ولذلـك نهى القرآن عن تعلم العلم لاحتقار الناس وإذلالهم، وحذر من كتمه، وتوعد من تعلم ثم لم يفعّل العلم لإزالة الفساد والظلم والشرك.

أمّا الاستبداد الاجتماعي فقد عالجه القرآن بتكريم الإنسان رجلا وامرأة، وتعظيم أمر الـزواج والطلاق، وأعطى للأطفال حقوقهم، وجعل للوالدين مكانة عظيمة، ورتّب المعاملات التـي قد يجرّ الاختلاف فيهـا إلى ظهور الخصومات الاجتماعية، فرتّب مثلا مسائل الميراث ليحسم مادة الخلاف، ويغرس الاستقرار في الأسرة والمجتمع.

لقـد التفت الكثير من المفسرين إلى معالجة القرآن لظاهرة الاستبداد، التي تشكل أس المشـكلات الأخرى، فنبهـوا إلى ضرورة الأخذ بوصايـاه، والتمسك بأحكامـه، والدوران مع شريعته، فتوارث المسلمون بذلك كنزا من الدراسات القرآنية المبنية على منهج السلف، والتي تعـد بحق مصـدرا هاما للنظر في حلول وعلاج المشكلات المعاصـرة، وعلى رأسها الاستبداد بكل أنواعه، السياسي، والاجتماعي، والأسري، والمالي، والعلمي.

إن هدف هذا البحث بناء تصور سليم عن الاستبداد، واستخراج المنهجية القرآنية التي من خلالها يمكن القضاء على مشكلة الاستبداد، من خلال الدراسات القرآنية. التي وضحت المنهج السليم، وبيّنت الرؤية الصحيحة، والنموذج الأصلح.

أهمية الدراسة :

- تنبـع أهميـة دراسـة موضوع الاستبداد من خـلال العناية كبيرة التـي أولاها إياه القـرآن، ويتجلى هذا في المادة العلميـة الغزيرة التي نجدها في الآيات الكثيرة التي تناولت هذا الموضوع، حتى إننا نجد فيها من التفاصيل - التي تتحدث عن بواعثه، وصوره، وآثاره - ما لا نجده في كل الدراسات التي تناولته من خارج القرآن الكريم، بالإضافة إلى تقرير القرآن علاجا ربانيا شاملا وخالدا لظاهرة الاستبداد.

- هذه الدراسة خطوة لبناء تصور سليم لظاهرة الاستبداد، من خلال المنهج القرآني لأن أغلـب الدراسـات التي تناولته كانـت قاصرة عن الإلمام بـه -ربطته بالسياسة فقـط - بسبـب اعتمادها على المنهـج والكتابات الغربية غالبـا، أو ربطته بأهداف مشبوهة، أو كانت انتصارا لحزبية أو مذهبية.

- انتشـار الاستبداد بـين مختلف فئات المجتمـع الإسلامي، وسيطرتـه على مختلف المعامـلات اليومية بين الأفراد وداخـل الأسر والمؤسسات وغيرهـا، يهدد استقرار وحاضـر ومستقبل المجتمعـات الإسلامية؛ مـا يوجب تفعيل العـلاج القرآني لرفع البلاء والشقاء الذي نتج عن الابتعاد عن كتاب الله تعالى.

أهداف الدراسة :

- تكويـن تصـور إسلامـي لظاهرة الاستبـداد انطلاقا مـن القرآن بـدل الدراسات الغربيـة التي تناولته منذ الثـورة الفرنسية؛ وجعلت الدين أهـم أسبابه ثم حاولت إسقاط ذلك على المجتمعات الإسلامية.
- الرجوع إلى هدي القرآن في ضبط مشكلة الاستبداد وعلاجها؛ لأنه مصدر الهداية والسعادة والعز.
- تعزيـز دور الدراسات القرآنية في علاج مشكلات الحياة ومعضلاتها ومنها مشكلة الاستبداد.
- إبـراز دور القرآن الكـريم في نشر السعـادة والأمن والرخـاء في المجتمع السعودي بفضل تحكيم الشريعة.

المنهجية المتبعة :

اعتمدت في كتابة هذا البحث على منهج التفسير الموضوعي، مستعينا بأدوات الاستقراء والتحليل، حيث عملت على استقراء النصوص القرآنية التي تناولت ظاهرة الاستبداد أولا، ثم رصد المادة العلمية ثانيا، ثم عرجت على تحليل المادة العلمية التي رصدتها من مختلف الآيات ذات الصلة بالموضوع وتفسيرها من خلال الدراسات القرآنية، لكشف المعاني والصور وربط الأسباب بالنتائج، وكشف العلاقة بين مختلف عناصر الموضوع، وصولا لتقرير العلاج القرآني ومقاصده. مع استعمال منهج المقارنة؛ لأجل الموازنة والترجيح بين مختلف التفسيرات ذات الصلة بالموضوع.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإنّ الاشتغال بالدراسات القرآنية بحثا عن التصورات، ورصدا للمشكلات، وكشفا للحلول من أشرف ما يشتغل به المسلم، ومن أبرز المشكلات الحياتية والحضارية التي جاء القرآن لعلاجها مشكلة الاستبداد، وقد رجعت في ذلك إلى كتب التفسير المعتمدة، وخرجت بهذه المادة، وفق الخطة الآتية:

الخطة

- مبحث تمهيدي: المفردات ذات الصلة بالموضوع.
- المبحث الأول: حقيقة الاستبداد وأسبابه في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: صور الاستبداد من خلال القرآن الكريم.
- المبحث الثالث: آثار الاستبداد على الفرد والمجتمع من خلال الدراسات القرآنية.
- المبحث الرابع: منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الاستبداد -وقاية وإجراءً.

خاتمة.

مبحث تمهيدي

المفردات ذات الصلة بالموضوع

إنّ من إعجاز القرآن الكريم تناوله لموضوعات عدة باستعمال ألفاظ مختلفة، بحيث يفيد كل استعمال مدلولا جديدا لم يكن في الاستعمال الآخر، ما يعطي المواضيع التي عالجها القرآن شمولية كبرى، وعمقا أكبر، باعتبار كل لفظ من الألفاظ مصطلحا متفردا عن الألفاظ الأخرى بما جاء فيه من معنى زائد عن المصطلح الآخر، ما يجعل الموضوعات واضحة الصورة، ترتبط فيها الأسباب بالنتائج، مع غناها بالفوائد والعبر، ومن المواضيع الهامّة التي جاء القرآن الكريم لعلاجها موضوع الاستبداد، والذي فصّل فيه القرآن تفصيلا دقيقا، من حقيقة الاستبداد إلى أسبابه وصوره، وصولا إلى آثاره الخاصة والعامّة، وانتهاء بذكر العلاج الرباني.

ولم يرد لفظ الاستبداد صريحا في كتاب الله تعالى، لكنه ورد بألفاظ أخرى لها نفس المعنى، ومنها الطغيان والظلم، وسوف نبيّن مدى التداخل بين الاستبداد والطغيان والظلم في ما يلي:
المطلب الأول: الطغيان: جاءت مادة " طغى " في القرآن في تسع وثلاثين موضعاً، ووردت بهذا اللفظ وباصطلاحات أخرى نذكر منها: " طغى، يطغى، أطغى، تطغوا، طغوا، أطغيته، طغيان، طغوى، طاغية، طاغوت، طاغين، طاغون".[1] طغى: أي ترفع وعلا حتى جاوز الحد أو كاد".[2]

ومجاوزة الحد هو المعنى اللغوي المشترك الجامع لهذه الألفاظ، مع تفرد بعض منها بمعانٍ إضافية أفادها السياق الذي جاءت فيه، ومن هنا جاء الإعجاز القرآني في علاج ظاهرة الاستبداد الضاربة في عمق التاريخ، وسيتبين ذلك عند الحديث عن صور الاستبداد في القرآن الكريم، وقد ذكر المفسرون عدة معاني للطغيان من خلال السياقات القرآنية المتنوعة التي وردت فيها لفظة طغى ومشتقاتها، منها:

- ذكر الطاهر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: "وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ".[3] الطغيان

---

(١) الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية، بيروت. ج٢ص٣٧٤. مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ط١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج٣ص ٤١٢.

(٢) المصري: شهاب الدين، أحمد بن محمد الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق: فتحي أنور الدابولي، طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة، ١٩٩٢م. ج١ ص٢٨٧.

(٣) البقرة، الآية: ١٥.

مصدر بوزن الغفران والشكران، وهو مبالغة في الطغي وهو الإفراط في الشر والكبر[١]. ".

- ذكر يحي بن سلّام استعمالين قرآنيين لمادة طغى هما: الطّغيان بمعنى الكفر، والطغيان بمعنى العصيان كما جاء عن السّدي[٢]، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: " اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى " [٣].

- وذكر الإمام الطبري معنىً آخر للطّغيان– بعد أن ذكر بعضا من المعاني السابقة – في تفسيره لقوله تعالى: " إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ".[٤] فقال: هو: الارتفاع والتّكثّر." . [٥]

- الطّغيان بمعنى الظّلم[٦]، وذلك كما في قوله تعالى: " مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى "[٧].

-التجاوز، ذكر السّعدي في تفسيره لقوله سبحانه: " أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ "[٨]،أيأي: أي: " أنزل اللّه الميزان؛ لئلا تتجاوزوا الحد في الحقوق والأمور، فإنّ الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم لحصل من الخلل ما اللّه به عليم، ولفسدت السموات والأرض ومن فيهنّ. "[٩].

وعليه فالطغيان يحمل معنى: تجاوز الحد والحق، والإفراط، ما يصطلح عليه اليوم بالاستبداد.

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد١، ج١، ص ٢٩٥.

(٢) تفسير يحي بن سلّام، ج١، ص٢٢٥، الطبعة والسنة والدار غير مذكورة.

(٣) طه، الآية: ٢٤.

(٤) الحاقة، الآية: ١١.

(٥) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمد أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، سنة الطبع غير مذكورة. ج٢٣، ص ٥٧٩.

(٦) ذكر هذا المعنى يحي بن سلام، نقلا عن خالد رمضان أحمد، الطغاة والطغيان في القرآن الكريم، دراسة منشورة بمجلة البيان، العدد ٢٩٤، بتاريخ: ٢٠١١/١١/٢٢.

(٧) النجم، الآية: ١٧.

(٨) الرحمن، الآية: ٨.

(٩) السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م، ص٦٠٩.

المطلب الثاني: الظّلم:

الظّلم مشتق من مادة: "ظَلَم، يَظلِم، ظُلماً، ومظلِمة، والظّلُمُ: مصدر، والظُّلْمُ: اسم"[1]، ومن الألفاظ التي تشترك مع لفظة الاستبداد في نفس المعاني، لفظة ظلم ومشتقاتها.

ومن معاني الظلم في اللغة: "وضع الشيء في غير موضعه" وأيضا: ما ذكره الجواهري: " وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد"[2]، وذكر الفراهيدي أن من معانيه: أخذ حق الغير، والشرك. "[3].

وقد وردت في القرآن في مئتين وتسعة وثمانين مرّة. وهذا يدل على خطورة الاستبداد ؛ لأنّ من فوائد التكرار في القرآن التأكيد، والتقرير، ولفت الأذهان إلى المعاني الهامّة المتضمنة في الموضوع المعالج.

وقد ذكر بعض المفسرين معاني كثيرة للظلم، من أهمّها ما ذكره الراغب الأصفهاني: " .. والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصّغير"[4].

ومما سبق ذكره من معاني الظلم في اللغة وعند أهل التفسير، يتضح اشتراك لفظ الاستبداد مع لفظ الظلم في معانٍ تجمعهما، وهذا دليل على أنّ القرآن أولى ظاهرة الاستبداد عناية خاصّة، بدليل العدد الكبير من المواضع القرآنية التي ذكرت فيه معاني الاستبداد، من خلال لفظ طغى، وظلم.

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج٣، ٤٦٩.

(٢) لسان العرب، مادة ظلم، ج ١٢ص ٣٧٣ وانظر مختار الصحاح،مادة ظلم ص١٧٠.

(٣) الفراهيدي: الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الهجرة، ج٨، ص١٦٢.

(٤) الأصفهاني: الحسين بن محمد، غريب مفردات ألفاظ القرآن، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م. ص٣٥٢، ٣٥٤.

المبحث الأول

حقيقة الاستبداد وأسبابه في القرآن الكريم.

المطلب الأوّل: حقيقة الاستبداد

إنّ تتبـع نصوص القرآن الكريم التي تناولت الحديث عن معاني الاستبداد تتيح للمسلم بناء تصور واضح عن ماهيته الحقيقية، فالخطاب القرآني يمثل منبع التصورات الصحيحة عـن الحياة وظواهرها، ومصدر التصورات بالنسبة للإنسان ودوائر حياته؛ ولذلك انحرفت الكثـير من المفاهيم عندما لم تنـل حظها من التوجيه القرآني، وقـد كان ظاهرة الاستبداد مـن الظواهر التـي تشوهت معانيهـا، بفعل القـراءات التجزيئية لنصوص القـرآن الكريم، فاختصرت مفهومه في الجانب السياسي فقط، بينما يشمل الاستبداد وفق الخطاب القرآني معـاني عديـدة، ترجـع في أصلها إلى الخروج عـن طاعة الله، والتجبر، وتحـدي شرائع الله سبحانـه وتعـالى - التي جاءت لتنظيم مختلـف دوائر الحياة - والتماهي مـع دواعي الهوى والتجـبر. وهذا يعني أن الاستبداد كل ما يضاد أمر الله تعالى في شؤون الحياة، سواء أكانت المحاربـة والمعارضـة من فرد أو من جماعـة، وسواء أكان الاستبداد فعـلا جديدا، أو عادات مكينة. وليتضح هذا المفهوم بشكل دقيق فإنّنا نعرض تعريفات الاستبداد الآتية:

الاستبـداد في اللغـة مأخـوذ من: مادة بـدد واستبدّ: " يقـال استبد بالأمـر، يستبد به استبدادا، إذا انفرد به دون غيره، واستبد برأيه انفرد به"[1]، وأيضا: " استبد بالأمر انفرد به من غير مشارك له فيه"[2].

وعرّفـه الزمخشري فقال: " الاستبداد: افتعال من الأمـر كأنه نفسه أمرته، فأتمر أي: امتثل، أي: لا يأت برشد من قبل نفسه، ولا يقبل قول غيره"[3].

(١) لسان العرب، مادة بدد، ج٣، ص٨١.

(٢) الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، مادة " بدد"، ص١٨.

(٣) الزمخشـري: محمـود بن عمـر، الفائق في غريب الحديـث، تحقيق علي محمـد البجاوي، ومحمـد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، لبنان، ج٤، ص١٢٣.

وذكـر السعدي لفـظ الاستبـداد في تفسيره لقولـه تعالى: "مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْـرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ"(١). فقال أي: " ما كنت مستبدة بأمر، دون رأيكم ومشورتكم. "(٢).

ويعرفـه الكواكبي بقوله: " غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النّصيحة أو الاستقلال في الـرأي وفي الحقـوق المشتركة .. ثم تصرف فرد أو جمع في حقـوق القوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة"(٣).

إنّ الحقيقـة الكبرى للاستبـداد من خلال هذه التعاريف: أنه محـاداة الخالق، ورفض شريعته، فإنّ الهوى مذموم لأنه يصادم أوامر الله، وإنّ الاستبداد بالرأي يعني: رفض ألوهية الله وربوبيته وعدم التسليم بها، أو التسليم الصوري بها، مع الكفر فعلا بآثار التصديق بها، أمّـا الغـرور بالرأي والاستقلال به فهو: اعتقاد المخلوق أنّ ما يصل إليه من أحكام أنسب من أحـكام الله تعالى، أمّا رد النّصيحة، فلأنّ الدين هو: النّصيحة، ورفضها بمعناها الوارد في الكتـاب والسنّة، وكما ورد عن سلف الأمّة هو: عـين الاستبداد، سواء أكان ردها على مستوى الأفراد، أو الأسر، أو المجتمع، أو الحكم كما سنبين لاحقا.

وعليـه فإنّ أهمّ ما يمكن الخروج به بعـد تقرير حقيقة الاستبداد هو: نفي الضيق الذي لصق به، فقد جهد الكثيرون لأجل إلصاقه بفئة معينة، وتميّع حتى صار استبداد الأفراد في الحيـاة مقبولا ومسكوتا عنه، رغم أن استبـداد الأفراد بعصيان الله تعالى في كيفية التعامل مـع الخلـق ودوائر الحياة في المجتمـع يشكل في الأخير الصـورة الشنيعة لـه، يقول السعدي في تفسـير قولـه تعالى: " اذْهَـبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّـهُ طَغَى ".(٤) أي: فانهه عـن طغيانه، وشركه، وعصيانـه"(٥)، وهي لفتة عميقة، تجعل الاستبداد متحققا بـكل من عصى وعاند، أو أشرك وحـاد، أو كفر وكابر، هـذه الصورة الواسعة للاستبداد هي التي جـاءت الشريعة الإسلامية لتنفيهـا عن الحياة، وتُحـلّ محلها التعايش بين النّاس وفق منهـج رب العالمين، وليحل العدل والرحمـة والتضامـن والتكافل مكان الظلـم والاستعباد والقهر والقسـوة والأنانية والعداوة،

(١) سورة النّمل، الآية: ٣٢.

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص٤٣٧.

(٣) الكواكبي: عبد الرحمن، ص١٦، الدار والسنة والطبعة غير مذكورة.

(٤) النّازعات، الآية: ١٧.

(٥) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٥٦٦.

ولهـذا نفـى الله سبحانه وتعـالى في القرآن صفـة الاستبداد والتجبر عـن الأنبياء ووصفهم بالهـدى والرحمـة وأثبت لهم الخيرية فقال عن يحـي عليه السلام: "وَبَـرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا "[1]أأكاأأ

، يقول السعدي: " أي : لم يكن متجبرا متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا علـى والديه، فجمع بـين القيام بحق الله، وحق خلقه؛ ولهذا حصلت له السلامة في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها؛ لهذا ثنّى بقوله: " وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا "[2]، ونفـي الجـبروت صفة تكررت بحق عيسى عليه السلام أيضـا، وبحق نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

المطلب الثاني: أسباب الاستبداد من خلال القرآن الكريم

مـن خلال استقراء نصوص القرآن الكريم التـي تحدثت عن الطغيـان والظلم، فإنّنا نخلص إلى الأسباب الكبرى لظاهـرة الاستبداد، المنافية للتوحيـد ولوازمه، فكل ما ينافيه ويضـاده هـو: من الأسباب المؤديـة للاستبداد، وهذا ضابط هام في تقريـر بواعثه ودوافعه، وفيما يلي نستعرض أهم أسبابه وبواعثه:

الفـرع الأول: الكِبْر: والكبر من أهم بواعث الاستبـداد، وقد وُصف به أعداء الأنبياء في عـدة مواضع قرآنية، وقـد جاء تعريفه في الحديث: " الكبر بطر الحـق وغمط النـاس ".[3]، أي احتقـار النّاس والتعـالي عليهم، وأخذ حقوقهـم. وقد وصف الله تعـالى إبليس وفرعون بصفـة الاستكبار، وهما أبـرز مثال يمكن الاستدلال به عند الحديث عن الاستبداد وبواعثه، يقـول الله تعـالى في وصـف رفض إبليس لأمر السجـود: " وَإِذْ قُلْنَـا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُـدُوا لِآدَمَ

---

(١) مريم، الآية:١٤.

(٢) السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ص٣٤٧.

(٣) النيسابـوري: أبـو الحسين مسلـم بن الحجاج، صحيح مسلـم، المحقق:نظر بن محمد الفاريابـي، الناشر: دار طيبـة، سنـة النشر: ١٤٢٧-٢٠٠٦، عدد المجلدات: ٢، رقم ط١، كتـاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، ص: ٥٥، حديـث رقـم: ٩١./ أبو داود: سليمان بـن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: شعيـب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، سنة النشر: ١٤٣٠-٢٠٠٩، ط:١، ج: ٦، كتاب اللباس، باب: ما جاء في الكبر، ص: ١٩١، حديث رقم: ٤٠٩٢.

فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" [١]، قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية:"واستكبر الاستكبار : الاستعظام، فكأنه كره السجود في حقه واستعظمه في حق آدم، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته. ولذلك قال الله تعالى: " مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ[٢]" أي: استكبرت ولا كبر لك، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدي والكبر لي "[٣].

كما وصف الله تعالى فرعون بالاستكبار فقال:" وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ "[٤] يقول الألوسي في تفسير الآية: "رأوا كل من سواهم حقيرا بالإضافة إليهم، ولم يروا العظمة والكبرياء إلّا لأنفسهم."[٥].

الفرع الثاني: العلوّ: إنّ من أبرز بواعث الاستبداد الاستعلاء، وقد قرنه الله تعالى في بعض المواضع من القرآن مع الاستكبار، ما يعني زيادته عنه في المعنى، فإن كان الكبر احتقار النّاس، ورد الحق، فإنّ العلو هو الشعور: " بالعظمة والتجبر، يقال علا فلان في الأرض: إذا استكبر وطغى، ويقال لكل متجبر قد علا وتعظّم"[٦]. وقد وصف الله به فئات كثيرة في القرآن نذكر منها:

ووصف الله إبليس بالعلوّ فقال: " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ" [٧] قال الإمام الطبريّ: " أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك"[٨]. ووصف الله عزّ وجل الكفّار بالعلوّ فقال جلّ من قائل:" وَجَحَدُوا بِهَا

---

(١) البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) ص، الآية: ٧٥.

(٣) القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لآيات الأحكام، إعداد المكتب الثقافي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م، ج١، ص٢٩٧،٢٩٦. وانظر البغوي: الحسين بن مسعود، تفسير البغوي، دار طيبة، ج١، ص ٨٤،٨٣،٨٢.

(٤) القصص، الآية: ٣٩.

(٥) الألوسي: محمود شكري بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، تاريخ الطبعة غير مذكور.

(٦) لسان العرب، لابن منظور، مادة " علا " ج ١٥، ص٨٥.

(٧) ص، الآية: ٧٥.

(٨) تفسير الطبري، ص٢٤٠.

وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" [(١)]. قال الطبري: "ظلما وعلوا" يعني بالظلم : الاعتداء، والعلو : الكبر، كأنّه قيل : اعتداء وتكبرا. وعن ابن جريج: "تعظما استكبارا" [(٢)].

ووصف القرآن فرعون بصفة الاستعلاء في مواضع عدة، منها قوله تعالى: " وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ " [(٣)].قال ابن كثير: "لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو" [(٤)].

ووصف الله تعالى اليهود بالاستعلاء فقال سبحانه: "وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا " [(٥)]. قال الإمام ابن كثير في تفسيره للآية: " أي : تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس" [(٦)].

ومن خلال التأمّل في هذه النّصوص وتفسيراتها يتضح: أن الاستعلاء صفة نفسية لصيقة بالمستبدين مهما كانت صفتهم ومراكزهم الاجتماعية، وهي صفة تبعث على اعتبار النّفس أفضل من الجميع، وأحق بتقرير مصير الغير، فهي نظرة فوقية مليئة بالدونية، وغير طبيعية ولا سويّة، بل هي دليل على أمراض نفسية معقدة تسكن المستبد المتجبر، فإبليس كان يرى العظمة في نفسه؛ ولذلك رد أمر الله، بعد تسفيهه لآدم واصل خلقته، وردّ الكفار الحق والآيات، بعد أن تعالوا عن اعتبار أنفسهم عبيدا لله تعالى ومحكومين بأمره، أمّا فرعون فلما تعاظمت نفسه بين عينيه وتجبّر، بعد أن دانت له مصر أرضا وبشرا، وجمع في يديه المال والبطش، رأى أنّ من حقه أن يهب أو ينزع الحياة عمّن يشاء بزعمه، يبعثه مرض العظمة على أن يعتقد أنّ له صفات الربوبية فيقول: " أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [(٧)] أمّا اليهود فإن

(١) النمل، الآية، ١٤.

(٢) تفسير الطبري، ص٤٣٧.

(٣) يونس، الآية، ٨٣.

(٤) ابن كثير: اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ج٤، ص٢٨٨.

(٥) الإسراء، الآية، ٤.

(٦) تفسير ابن كثير، ج٥، ص٤٨.

(٧) النّازعات، الآية، ٢٥.

الباعث على إفسادهم نفسية أخرى تفارق ما عند إبليس وفرعون، وهذا من إعجاز القرآن، فالباعث على فساد اليهود هو: نفسيتهم المريضة بعقد حقيرة كثيرة مثل: الغدر، والخوف، والجبن، والحرص، فتصرفاتهم وعداوتهم للحق نابعة من هذه النفسية الحقيرة، ما يعني أنّ الاستبداد قد يكون بسبب الشعور بالعظمة، وقد يكون بسبب الشعور بعقدة النقص والدونية، والدليل على ذلك أن الطغيان والإفساد والاستبداد الذي كان عليه فرعون واليهود واحد، رغم اختلاف الباعث، وهذا دليل آخر على أنّ تفسير السلوكيات في ضوء القرآن الكريم هو التفسير الأسلم والأحكم.

وهنا لفتة هامة يجب الانتباه لها وهو أن العلاقة بين اليهود علاقة أساسها الشحناء والكراهية والبغضاء، ما يعني أن المجتمعات التي تترك الشريعة الربانية تفقد الرحمة والعدل والمودة بينها، وتؤول نفسيتها إلى العداوة، وينتشر فيها الاستبداد، يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: " تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ "(١) يخبر تعالى أنّ الدّار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوا في الأرض، أي : ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم، ولا فسادا فيهم، كما قال عكرمة : العلو : التجبر "(٢).

الفرع الثالث: الجهل: من مادة جهل : الجهل : نقيض العلم، وهو من أعظم الأسباب التي تدفع الإنسان إلى تجاوز الحدود، والتعدي على الحقوق، وقد وردت لفظة جهل ومشتقاتها في القرآن الكريم أربعا وعشرين مرّة، منها قوله تعالى: " قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ " (٣)، وقوله تعالى: " قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ "(٤)، وقوله عزّ وجلّ: " وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ "(٥)، وقوله سبحانه: " أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ "(٦)، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: " أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ

(١) القصص، الآية: ٨٣.
(٢) تفسير ابن كثير، ج٦، ص٢٥٩.
(٣) الزمر، الآية: ٦٤.
(٤) الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٥) الأحقاف، الآية: ٢٣.
(٦) النّمل، الآية: ٥٥.

يُوقِنُونَ"(١) ،والمعنى: أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضيع؛ كما تقدم في غير موضع، وكانت اليهود تقيم الحدود على الضعفاء الفقراء، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء؛ فضارعوا الجاهلية في هذا الفعل"(٢)، فالجهل سبب لاستبداد القوي، واستضعافه للناس، وباعث على الظلم، وهو ما فصّلته نصوص الوحيين، وهذه الصورة التي ذكرها القرطبي أحد أبرز صوره، فالمستبد يجعل النّاس طبقات، أغلبها تحت التسخير الظالم، فهم في السّلم عبيد في يد القويّ، وفي الحرب وقودها، ولهذا حارب الإسلام الجاهلية وفكك دعامتها بالعلم، فكان أن فرض على النّاس طلب العلم، لأنّ العلم يرفع الوعيّ، وهو قرين التوحيد، فلا توحيد بلا علم.

الفرع الرابع: الطغيان والظلم: وقد فصلّنا في هذين الباعثين في المبحث التمهيدي.

الفرع الخامس: الهوى والغرور: الهوى من أسباب الاستبداد الفردي والعام، يقول الراغب فيه: " يهوى بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية"(٣). وهو الميل إلى إرضاء النّفس، وتلبية شهواتها البدائية الحيوانية. أمّا الغرور فهو: " سكون النّفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع"(٤). وقد حذّر القرآن من الغرور، وبيّن أن من أسباب استبداد الإنسان اغتراره بنفسه فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ"(٥)، فهو باعث على محاربة شرعة الله، سواء أكان ذلك من الحاكم، كفرعون الذي أدّاه غروره إلى أن يستبد ويقول: " مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ "(٦).

(١) المائدة، الآية: ٥٠.
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ص١٥٦.
(٣) الراغب الأصفهاني، المفردات ألفاظ القرآن، ص٨٤٩.
(٤) لسان العرب، ج٥، ص١٢.
(٥) الانفطار، الآية: ٦.
(٦) غافر، الآية: ٦.

المبحث الثاني

صور الاستبداد من خلال القرآن الكريم.

ظلّ مفهوم الاستبداد حبيس مفهوم ضيّق حصره في مجال السياسة، وهو ما يسقط أمام المعاني التي جاء بها، حيث ذُكرت له صورٌ عديدة منها:

المطلب الأوّل: الاستبداد العقدي والاجتماعي:

الفرع الأوّل: الاستبداد العقدي:

وهو الاستبداد بحق الله تعالى، عند تجاوز الإنسان لقدره، وأمر ربه، ونبذه عقيدة التوحيد، ويكون ذلك بالكفر والشرك، وهو أصل لكل انحراف وجور واستبداد، ومصدر للباطل والخرافات والجهالات، يقول الله تعالى: " وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "[١]. قال قتادة: "يلحدون "يشركون. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدل عن القصد، والميل والجور والانحراف"[٢]، والشرك تجاوز عظيم من العبد في حق الله؛ ولهذا جاء النّص القرآني مشنعا على الشرك والمشركين، فقال تعالى: "إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"[٣]، يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: "تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق،وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها"[٤]، وأعظم الظلم أن يستبد المخلوق بحق خالقه تعالى، فيشرك بالله ويجعل له أندادا، وينسب لنفسه حق التشريع بدلا عن الله عزّ وجل، كما فعل الجبابرة والفراعنة والأحبار والقساوسة،

---

(١) الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٥١٦.

(٣) لقمان، الآية: ١٣.

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١، ص١٥٥.

ويتحصل مما سبق أن الاستبداد العقدي منبع كل الشرور والفساد في العالم.

الفرع الثاني: الاستبداد الاجتماعي:

وهو الذي يكون بين النّاس، وقد أشارت إليه الآية الكريمة: " إِنَمَّا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"(١) .وقد سبق تفسيرها، وهي أصل في تقرير الاستبداد الذي يقع بين البشر، ولأن دوائر التعامل بين الناس كثيرة ومتنوعة، فإننا نحصي صورا كثيرة للاستبداد الاجتماعي، غير أننا سنقتصر على أهمّها وهي:

أ- الاستبداد بحق الإناث: وقد جاء القرآن محاربا للاستبداد في حق المرأة، وهذه فيه رد على دعاوى أهل الباطل الذين ينسبون الاستبداد الواقع على المرأة إلى الإسلام، يقول الله تعالى:" وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا "(٢)، عن مسروق : " وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا " قال: يطلقها، حتى إذا كادت تنقضي عدتها راجعها، ثم يطلقها، فيدعها، حتى إذا كادت تنقضي عدتها راجعها، ولا يريد إمساكها : فذلك الذي يضار ويتخذ آيات الله هزوا"(٣) . فنهى الزوج عن الاستبداد في استعمال حقه في الطلاق منعا لإلحاق الضرر بها. ونهى عن الاستبداد بحق الأرملة فقال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا "(٤)، قال ابن عباس في هذه الآية: " قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها(٥)، .. وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الرجل إذا مات وترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه،

(١) الشورى، الآية: ٤٢.

(٢) البقرة، الآية: ٢٣١.

(٣) تفسير الطبري، ج٥، ص٩.

(٤) سورة النّساء، الآية: ١٩.

(٥) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، سنة النشر ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، عدد الأجزاء ٧. كتاب تفسير القران، سورة النساء، باب لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن. ج٤، ص ١٦٧١. رقم الحديث: ٤٣٠٣

فمنعها من الناس. فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها. فنزلت هذه الآية في ذلك."[1]، ونهى ولي المرأة عن الاستبداد في استعمال ولاية التزويج فقال سبحانه: " فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ "[2] قال البغوي[3] : " أي لا تمنعوهن عن النكاح والعضل: المنع وأصله الضيق والشدة .. وعن الحسن قال: حدثني معقل بن يسار قال زوجت أختا لي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها فقلت له : زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها؟ لا والله لا تعود إليك أبدا وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فأنزل الله تعالى: " فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ " فقلت: الآن أفعل يا رسول الله قال : فزوجتها إياه"[4]، ونهى سبحانه عن التجاوز في أعراض العفيفات فقال سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ "[5] قال القرطبي: "قال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى"[6]، ونهى عن الاستبداد في حق الزوجة ومولودتها فقال: " وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ "[7]، قال ابن عاشور: " وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم، إذ يعاملون المرأة معاملة من لو كانت ولادة الذكور باختيارها، ولماذا لا يحنق على نفسه إذ يلقح امرأته بأنثى"[8].

ب- الاستبداد في الدماء:

وهو من أخطر أنواع الاستبداد الاجتماعي؛ لأنه ضد إرادة الله وحكمته من خلق البشر، فالله هو الواهب للحياة، وهو وحده من يملك نزعها، ولا حق لأحد في هذا إلا بما شرعه، والبغي على هذا الحق موجب للفساد في الدنيا والعذاب في الآخرة، بل إنّ قتل فرد واحد يعادل قتل البشرية كلها ،يقول سبحانه: " مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، ص٢٤٠.
(٢) البقرة، الآية: ٢٣٢.
(٣) تفسير البغوي، ج١، ص ٢٧٦.
(٤) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من قال لا نكاح إلا بولي. رقم الحديث: ٤٧٦٠.
(٥) النّور، الآية: ٢٣.
(٦) تفسير القرطبي، ج١٢، ص ١٩٤.
(٧) النّحل، الآية: ٥٨.
(٨) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج ١٥، ص ١٨٥.

قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا "(1)، ونهى عن الإسراف في القتل، وقد كانت العرب في الجاهلية لا تعرف قانونا ولا حدا للقتل، وهذا من الاستبداد الذي جاء الإسلام لمحاربته ونفيه، يقول تعالى:" مَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا "(2)، يقول الشنقيطي: " الإسراف في القتل هنا شامل ثلاث صور :الأولى : أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد، كما كانت العرب تفعله في الجاهلية، الثانية أن يقتل بالقتيل واحدا فقط ولكنه غير القاتل؛ لأن قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل، الثالثة : أن يقتل نفس القاتل ويمثل به، فإن زيادة المثلة إسراف في القتل أيضا"(3)، وأمر الله بالعدل في القصاص فقال:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى "(4)، يقول ابن كثيرا: "العدل في القصاص أيها المؤمنون حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا، كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم"(5)، ويقول رشيد رضا عن استبداد العرب في الدماء: "تتحكم في ذلك على قدر قوّة القبائل وضعفها، فربّ حرّ كان يقتل من قبيلة فلا ترضى قبيلته بأخذ القاتل به بل تطلب به رئيسها، وأحيانا كانوا يطلبون بالواحد عشرة، وبالأنثى ذكرا، وبالعبد حراً، فإن أجيبوا وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة، وهذا إفراط وظلم عظيم"(6).

لقد حرّم الله الاستبداد المتعلق بالدماء، وجعل حفظ النّفس من أعظم الكليات التي جاءت الشريعة الإسلامية بحفظها من جهة الوجود ومن جهة العدم، فنهى عن القتل العمد العدوان، ونهى عن الانتحار، ونهى عن تعذيب النّاس، بل والحيوانات؛ لأن هذا الاستبداد في الدماء والنّفوس يسبب فساد الحياة، فبالقتل تنهار الأسر بين يتيم وأرملة وثكلى وموجوع، وبالانتحار تشيع التهمة حول أسرته ودائرته، أما التعذيب الذي يهين النّفس، أو يتلف عضوا منها فإنه سبب لانتشار الثأر والعنف والجرائم.

(1) المائدة، الآية: ٣٢.
(2) الإسراء، الآية: ٣٣.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان، ج ٣، ص ٨٨.
(4) البقرة، الآية: ١٧٨.
(5) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٤٩٠.
(6) رضا: محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، دار المعرفة، بيروت، ط ١٩٩٣م.ج ١، ص١٢٣.

المطلب الثاني: الاستبداد المالي والسيّاسي:

الفرع الأوّل: الاستبداد المالي:

أولى القرآن الاستبداد المالي عناية واضحة، حتّى جعله من أعظم أسباب دخول النّار، وجعل النّجاة منه من أسباب دخول الجنّة، ولأنّ المال عصب الحياة، فقد ضلت أمم وأقوام في المنهج الذي يحفظ المال من الباطل، وقد كانت الاشتراكية والرأسمالية أكبر مثالين في عصرنا على الاستبداد المالي، الذي أضاع حقوق النّاس، وجعل حياة الملايير من النّاس ملوّنة بالتعاسة، ومربوطة بالفقر والشقاء، ما أدّى إلى استفحال كل أنواع الجرائم، وظهور الحروب والهرج والمرج، يقول محمد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا "[(١)]. " وهو من البطل والبطلان أي الضياع والخسار، فقد حرمت الشريعة أخذ المال بدون مقابلة حقيقية يعتد بها، ورضا من يؤخذ منه، وكذا إنفاقه في غير وجه حقيقي نافع"[(٢)]. ثم قال كلاما عميقا في نبذ الاستبداد المالي الذي جاءت به الأنظمة الوضعية قائلا " إن مثل هذه الإضافة قد قررت في الإسلام قاعدة الاشتراك التي يرمي إليها الاشتراكيون في هذا الزمان،ولكنهم لم يهتدوا إلى سنة عادلة فيها، ولو التمسوها في الإسلام لوجدوها، ذلك بأن الإسلام يجعل مال كل فرد من أفراد المتبعين له مالا لأمته كلها، مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها، فهو يوجب على كل ذي مال كثير حقوقا معينة للمصالح العامة، كما يوجب عليه وعلى صاحب المال القليل حقوقا أخرى لذوي الاضطرار من الأمة، ومن جميع البشر، ويحث فوق ذلك على البر والإحسان والصدقة الدائمة والمؤقتة والهدية. فالبلاد التي يعمل فيها بالإسلام لا يوجد فيها مضطر إلى القوت والستر قط، سواء كان مسلما أو غير مسلم ؛أن الإسلام يفرض على المسلمين فرضا قطعيا أن يزيلوا ضرورة كل مضطر، كما يفرض في أموالهم حقا آخر للفقراء والمساكين ومساعدة الغارمين الذين يبذلون أموالهم للإصلاح بين الناس، ولغير ذلك من أنواع البر، ويرى كل من يقيم في تلك البلاد أن مال الأمة

(١) النساء، الآية: ٢٩.

(٢) رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار)، ج٥، ص٣٥.

هو ماله؛ لأنه إذا اضطر إليه يجده مذخورا له، وقد يصيبه منه حظ في غير حال الاضطرار، وقد جعل المال المعين المفروض في أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة من الأمة؛ لئلا يمنعه بعض من يمرض الإيمان في قلوبهم، وترك إلى أريحية الأفراد سائر ما أوجبه الشرع عليهم أو ندبهم إليه، وحثهم بإطلاق النصوص عليه، ورغبهم فيه، وذمهم على منعه؛ ليكون الدافع لهم إلى البذل من أنفسهم، فتقوى ملكات السخاء والنجدة والمروءة والرحمة فيها، ولم يبح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيديهم بدون إذنهم ومرضاتهم؛ لأن في ذلك مفسدتين: مفسدة قطع أسباب تلك الفضائل، وما في معناها، ومفسدة اتكال الكسالى على كسب غيرهم، ومن وراء هاتين المفسدتين انحطاط البشر وفساد نظام الاجتماع، فإن الناس خلقوا متفاوتين في الاستعداد، فمنهم المغمول المخلد إلى الكسل والخمول، ومنهم محب الشهرة والظهور وتذليل صعاب الأمور، فإذا أبيح للكسالى البطالين، أن يفتاتوا على الكاسبين المجدين، فيأخذوا ما شاءوا أو احتاجوا من ثمرات كسبهم بغير رضاهم ولا إذنهم، أفضت هذه الإباحة إلى الفوضى في الأموال، والضعف والتواني في الأعمال، والفساد في الأخلاق والآداب، كما لا يخفى على أولي الألباب، فوجب ألا يأخذ أحد مال أحد إلا بحق، أو يبذل صاحب المال ما شاء عن كرم وفضل."[1].

والقرآن حافل بقصص الاستبداد، وفي ذلك تنبيه للبشرية إلى حقيقة خطيرة وهي: أن المال سبب للحياة والسعادة إن أحسن استعماله، وهو سبب للخراب البشري والمادي، وفساد الذمم، وذهاب الأخلاق، وسفك الدماء، وهلاك الحضارات، إن نال منه الاستبداد، وهو ما نراه في عصرنا الحالي، حيث تعدد صور أكل المال بالباطل؛ بسبب تعقد الحياة، واتساع التعامل بالمال، وتطور مفهوم الغصب والسرقة والرشوة والرّبا والجحد، وبسبب ظهور التجارات والصناعات الكثيرة، وسيطرة البنوك الربوية على المشهد المالي العالمي، والشركات المتعددة الجنسيات العابرة للقارات، التي صارت تتحكم في مصير ملايير البشر، حتّى أن اثنين من أغنياء العالم يملكان ميزانية واحد وخمسين دولة، وخمسة بالمئة من سكان الأرض يسيطرون على ثروات وأموال العالم، بينما يغرق الكثير من البشر في ظلمات الفقر، وهذا قمّة الاستبداد المالي، وقد حكى القرآن صورا مشابهة له، كاستبداد قارون، واستبداد أصحاب الجنّة في سورة القلم، ذلك الاستبداد الذي يشبه استبداد الشركات العابرة للقارات.

---

(١) رضا: محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (المنار)، ج ٥، ص٣٣، ٣٤.

يقـول الله تعالـى: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "(١).قال ابـن كثير: "فأهلكه البغي لكثرة ماله."(٢)، وقال ابـن عاشور: " والبغي: الاعتداء، والاعتداء علـى الأمـة الاستخفاف بحقوقها، وأول ذلك خـرق شريعتها"(٣). وفي موضـع آخر قرن الله استبـداد قـارون بالمـال بالاستبداد السياسـي لفرعـون، والاستبداد العسكـري لهامان، مع وصفهـم بالاستكبار، وهذا دليل على شناعة ظاهرة الاستبـداد المالي على المجتمعات، فقال تعـالى: " وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ "(٤). وقد كانت عاقبته الهلاك، لاستبداده بماله واغتراره بكثرته.

إنّ الحديث عن الاستبداد المالي يحتاج مساحة بحثية كبيرة، خاصّة أنّ نصوص القرآن الكريم تناولت الكثير من صوره، كأكل الميراث، والسرقة، والرّبا، وخيانة الأمانة، وأكل أموال اليتامى بالباطل، هذه الصورة الأخيرة تحتاج لوحدها لدراسات مستقلة كثيرة، لكثرة ما ورد فيها من النّصوص.

الفرع الثاني: الاستبداد السياسي:

وهو أشهر صور الاستبداد، وقد استفاض الحديث فيه، لكن الكثيرين ينطلقون في تحرير مفهومـه من الفلسفـة اليونانية، والغربية، بعيدا عن الخطاب القـرآني المعجز، ما جعل أهل هذا الفكر يستبدون، ويرفضون الشريعة الخاتمة، ومن أبرز أقوالهم الدالة على استبدادهم قولهـم: " دع مـا لله لله ومـا لقيصر لقيصر، هـذه المقولة هي عين الاستبـداد، الذي معناه التجـاوز والاستعلاء والاستكبار، وما دمنا قد أشرنا في هـذا البحث إلى فرعون واستبداده، فإننّا ومن باب التنويع، نشير إلى استبداد النمرود، أحد رموز الاستبداد السياسي في القرآن، يقول الله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

(١) القصص، الآية: ٧٦.
(٢) تفسير ابن كثير، ج٦، ص٢٥٤.
(٣) التحرير والتنوير، ج٢١، ص١٧٧.
(٤) العنكبوت، الآية: ٧٦.

بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "[١]، قال حافظ الحكمي: "هذا المحاج هو ملك بابل، واسمه نمرود بن كنعان، ذكروا أنه استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغى وبغى، وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه الخليل إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الخالق – جلّ وعلا – عنادا ومكابرة ، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية"[٢]، وكان الاستبداد السياسي هنا يمثل أشد صور الاستكبار، حينما ادّعى النمرود الأمر والحكم، وله القدرة على الإنشاء والإماتة والبعث، وسبب ذلك تجاوزه لحده، واغتراره بملكه: يقول ابن كثير: "وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك"[٣]، والاستبداد مانع من نور التوحيد، وبركة الشريعة، يقول ابن عاشور: "وإنما انتفى هدى الله القوم الظالمين؛ لأن الظلم حائل بين صاحبه وبين التنازل إلى التأمل من الحجج وإعمال النظر فيما فيه النفع إذ الذهن في شاغل عن ذلك بزهوه وغروره."[٤].

وقد جاءت نصوص القرآن محذرة من الاستبداد السياسي، الذي يحارب الشريعة الربانية، ويرتضى الهوى وأحكام البشر قانونا يسوس به النّاس، لأنّ عاقبة ذلك الفقر بكل أنواعه وصوره، وقيام الحروب، وانتشار الفساد، وذهاب الأمن والاستقرار، ولا يختلف المستبدون المعاصرون من العلمانيين والتغريبيين المحاربين للشريعة الإسلامية، الطاعنين في التوحيد ونوره، والمشككين بقدرة الإسلام على قيادة البشرية، لا يختلفون عن النمرود، فقد اتفق كلاهما على إقصاء الرسالة، وتحكيم العقل والهوى، وكما حلّ بالنمرود وجنده وقومه الهلاك، فإنّ الخوف والجوع والهلع والقلق والخراب مآل الاستبداد السياسي المحارب لنور الإسلام وشرعته.

---

(١) البقرة، الآية: ٢٥٨.

(٢) الحكمي: حافظ بن أحمد، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، دار ابن القيم، ط ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج ١، ص ١٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير،ج ١، ص٦٨٦.

(٤) التحرير والتنوير ج،٣ ص ٣٤.

المطلب الثالث:الاستبداد العلمي:

وقد يؤدي العلم إلى الاستبداد، إذا لم يكن باسم الله، وإذا لم يكن أهله من أهل التقوى، والقرآن حافل بالآيات التي تتحدث عن الاستبداد بالرأي، وهو المعبر عنه بالظن النابع عن الهوى، الباعث على الاستكبار، ويتجلى في صور شتّى، منها: المجادلة بالباطل، المراء لدحض الحق، رد الحق بالظن الكاذب، يقول سبحانه: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ "[1]. قال ابن كثير: " أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى .. عن زيد بن أسلم: " ثَانِيَ عِطْفِهِ "، أي: لاوي عنقه، وهي رقبته،يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثني رقبته استكبارا"[2]، ومن الاستبداد الفكري: التعصب للرأي الذي يجعل التحزّب المقيت نتيجته الحتمية، وأخطر صوره التي حكى عنها القرآن الكريم هي: الاستبداد بالرأي الباعث على التحليل والتحريم، يقول الله تعالى: " وَمَا تَفَرَّقُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ "[3]. يقول البقاعي: " الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله لقبولهم منهم التحليل والتحريم"[4]. ويقول الطبري: " وما تفرق المشركون بالله في أديانهم فصاروا أحزابا، إلا من بعد ما جاءهم العلم"[5].إنّ صور الاستبداد في القرآن كثيرة، وتفصيلاتها كثيفة، ما يجعل التصورات عنه واضحة في عقل ونفس المسلم، وهذا يغنيه عن اللجوء للكتب الغريبة عن عقيدته وهويّته الإسلامية، ولحجم البحث فإننا نكتفي بهذا القدر من الصور والتفاسير المصاحبة لها.

(١) سورة الحج،الآية: ٨.
(٢) تفسير ابن كثير، ج ٥، ص٤٠٠.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٤.
(٤) البقاعي: إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، ج١٧، ص٢٦٨.
(٥) تفسير الطبري، ج ٢١، ص٥١٥.

المبحث الثالث

آثار الاستبداد على الفرد والمجتمع من خلال الدراسات القرآنية

إنّ عواقب الاستبداد على الأفراد والأمم كثيرة، قد جاءت في صور مختلفة في نصوص القرآن، لكنّها تتحد في أنّ الحكمة منها رد الإنسان إلى طريق الحق، وإلا باغته الهلاك بعد أن يطبع على قلبه ويختم عليه، ولكثرتها نكتفي بذكر أشد الآثار.

المطلب الأوّل: زوال النعم وذهاب الأمن الاجتماعي والنّفسي:

الفرع الأول: زوال النّعم:

فقد ربط الله تعالى الحياة الطيبة بطاعته؛ لأنّ النعمة هبة ربانية، تستوجب من العبد حفظها بالشكر والانقياد لمولاه، ورتّب على الاستبداد والاستكبار زوالها ،يقول تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ "(١)، يقول أبو زهرة: "جعل حال قرية مثلا مصورا لمن يكون في رغد العيش والأمن والاستقرار، ثم يكفر بنعمة الله لينزل عليه البلاء فيحرم نعمة الاطمئنان، ويستبدل بها خوفا، أو يحرم رغد العيش، ويستبدل به جورا، وجعل المثل حال قرية – وهي المدينة الكبيرة لمكة – الدنيوي خسفا أو زلزالا، أو أمطار الحجارة فقط، بل قد يكون العقاب الدنيوي ضيقا في الرزق بعد السعة، وخوفا بعد أمن"(٢).

ومن أبرز النعم التي تزول بالاستبداد: منع القطر من السّماء؛ ولأنّ الماء ضروري لاستقامة الحياة، فإنّ غيابه، يؤدي إلى الاختلال الشديد في الضروريات والحاجيات، وانهيار القدرة على الحياة، ولحاق الشدة والمشقة الحياة البشرية لانتشار الفقر والأوبئة.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١٣.

(٢) أبو زهرة: محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، ج٨، ص٤٢٨٥.

الفرع الثاني: ذهاب الأمن الاجتماعي والنّفسي:

فقد جاءت الآيات منبهة النّاس إلى فضل الأمن، وخطر غيابه؛ لأنّ الحركة البشرية بكل أنواعها لا تقوم إلّا بالأمن، الذي هو سبب الاستقرار والرخاء والازدهار، وهو باعث على التفرّغ لكافة النشاطات الحياتية، يقول سبحانه:" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ "(١).قال ابن عاشور في تفسير الآية: " ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة فإنّ أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة : الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة. "(٢). والاستبداد سبب لزوال الأمن النّفسي بين أفراد المجتمع، قال تعالى:" الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ "(٣).يقول السيوطي: "ولم يلبسوا يخلطوا إيمانهم بظلم أي: شرك كما فسر بذلك في حديث الصحيحين" (٤). وذكر الشرك لأنّه أعظم أنواع الاستبداد، وهذا لا ينفي زوال الأمن بما دونه من أنواع الاستبداد، وعند زوال الأمن النّفسي، تنتشر الظنّون السيئة بين النّاس، وتختفي الثقة، ويسود الخوف، فتبور الحياة، وتضطرب المعيشة، وتغيب السعادة، ويتمزق النسيج الاجتماعي، ويسود التربص والترصد روح العلاقات؛ لأنّ الخوف يسكن النّفوس ويلبسها ولا يفارقها، فتستمر هذه الحالة ما استمرّ التجاوز بحق الله وعباده، ولذلك يُكثر النّاس إلصاق كل مصائبهم بالنّاس، وتجد كل فرد يتهم الآخرين بتهمة حسدهم له، وتعيينهم له– من العين – والتآمر عليه، بدل أن يربط شقاءه بالذنوب والاستكبار.

المطلب الثاني: الحرمان من الحق ومحو البركة وسيادة الأشرار

إنّ من أخطر آثار الاستبداد في حياة الأفراد والمجتمعات، الغرق في الضلال والجاهلية، وارتفاع اليُسر والأرزاق، وضيق الدنيا، وانحباس المنافع، وسيادة الأنذال والأراذل.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، ج ١، ص ٧١٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٤) السيوطي: جلال الدين،تفسير الجلالين، دار ابن كثير، ط١٤٠٧هـ. ص٨٢.

الفرع الأول: الحرمان من الحق:

إذا استبداد البشر وكلوا إلى أنفسهم، فحرموا الصلاح والهداية، وهذا ما تعيشه البشرية اليوم، التي وصلت إلى قاع الحضيض، حتّى شرّعت زواج الشواذ، وقنّنت إتيان الدواب، يقول سبحانه" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[1]، يقول الطبري: "إن الله لا يوفق لإصابة الحق، وهدى الطريق المستقيم القوم الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بإيجابهم لها سخط الله بكفرهم به"[2].

الفرع الثاني: محو البركة:

إنّ البركة سبب لانتفاع النّاس بالأموال، والعمر، والذريّة، والعلم، ورفعها سبب للمحق الذي يصيب الحياة،وهذا ما تعيشه البشرية اليوم بعد أن ابتعدت عن شرع ربها، فصار العلم أداة للشر والحروب، وانتشر القلق الذي يذهب السّلام، ويجعل الإنسان لا يشعر بحياته؛ لكثر الشقاق بين الأقارب والأباعد، وانتشار العقوق، يقول الله تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ "[3]. يقول أبو زهرة: "ربطَ الكفر والعصيان بهلاك الأمم، وربط فتح الأرزاق بالتقوى والإيمان"[4]، ويقول السّعدي: "ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيمانا صادقا صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرا وباطنا بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات"[5].

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٠.

(٢) تفسير الطبري، ج ٢٢، ص ١٠٨.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٤) زهرة التفاسير، ج ٦، ص ٢٩٠٨.

(٥) تفسير السّعدي، ص ١٩٦.

الفرع الثالث: سيادة الأشرار:

إنّ سيادة الاستبداد في المجتمع يؤدي إلى تسلط الفجرة على الحياة، فتعمّ الفوضى، ويتمزق النّسيج الأخلاقي والقيمي، يقول تعالى: " قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ "[(١)]. يقول رشيد رضا: "مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم تشايع إماما في الدين، أو تتعصب لملك أو رئيس، ويذيق بعضكم بأس بعض وهو ما عنده من الشدة والمكروه في السلم والحرب"[(٢)].

المطلب الثالث: ظهور الأزمات الاقتصادية والصحيّة وهلاك الأمم

الفرع الأول: الأزمات الاقتصادية: يقول جلّ جلاله: " وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا × وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا × أَنْ لَو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا × لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا "[(٣)]، يقول القرطبي: " لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق"[(٤)]، يقول الشنقيطي: "وما أشبه الليلة بالبارحة فيما يعيشه العالم الإسلامي اليوم بين الاتجاهين المتناقضين الشيوعي والرأسمالي .. وهكذا الدول الإسلامية التي تأخذ في اقتصادياتها بالمذهب الاشتراكي المتفرع من المذهب الشيوعي؛ فإنها بعد أن كانت تفيض بإنتاجها الزراعي على غيرها، أصبحت تستورد لوازمها الغذائية من خارجها، وتلك سنة الله في خلقه" فالاستبداد مؤذن بالفقر والأزمات الاقتصادية، وهذا ما تعيشه الأمة الإسلامية اليوم. "[(٥)].

الفرع الثاني: الأزمات الصحيّة: إذا شاع الاستبداد ابتليت الأمم بأمراض مستعصية، وهو ما نشهده اليوم، فلا تمرّ سنة إلّا وتشهد انتشار عديد الفيروسات القاتلة، التي تؤثر على الحياة كلّها، فتعطل الأسفار، وتحبس التجّار، يقول الله تعالى: "فأنزلنا على الذين ظلموا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٢) تفسير المنار، ج ٧، ص ٤٠٨

(٣) سورة الجنّ، الآية: ١٦.

(٤) تفسير القرطبي، ج ١٩، ص ١٨.

(٥) أضواء البيان، ج ٨، ٣٢٠، ٣٢١.

رجزا من السماء "[1]. يقول الطبري[2]: " الرجز السقم، عن أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ قال : " إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عذّب به بعض الأمم قبلكم "[3].

الفـرع الثالث: الهـلاك: إنّ الهلاك نتيجة لعـدم اعتبار الناس بالمصائـب التي سلّطها عليهـم قبل حلوله، وقـد ذكرنا رؤوس المصائب التـي سببها الاستبداد، والتـي تكون تنبيها للنّاس على ضلالهم؛ حتّى يرجعوا إلى ربهم،يقول تعالى: " كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ "[4]. يقول أبو زهرة: "بذنوبهم أي: أخذهـم بالعقاب بسبب ذنوبهم التي ارتكبوها في حق النـاس من تأله، ومن تعذيب، وإفساد للعقـول بالضلال، والنفوس بالإرهـاق والأذى .. وإنما ينزل بالطغاة من أخـذ لهم إنما هو مـن نفوسهم التـي غيروها، وشوهوا فطرتهـا بمظالمهم"[5]. وما كـثرة الأزمات الاجتماعية والاقتصادية إلا صورة من صور العقاب والهلاك الناتج عن الاستبداد.

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٧.
(٢) تفسير الطبري، ج٢، ص١١٧.
(٣) صحيح مسلم،كتاب السلام، باب لطاعون والطيرة والكهانة ونحوها. ص١٧٣٩. رقم الحديث:
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٥٢.
(٥) زهرة التفاسير، ج٦، ص ٣١٦٢، ٣١٦٣.

المبحث الرابع

منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الاستبداد - وقاية وإجراءً

المطلب الأوّل: المنهج القرآني الوقائي من الاستبداد

وأهميّة هذا المنهج في: عصمته للأمّة من الضلال، وأهم عناصره الواردة في القرآن:

الفرع الأول: التمسك بالقرآن والسنّة: إنّ الالتزام بالقرآن والسّنة عاصم من الاستبداد الذي يجرّ إلى الفساد، فحياة الفرد والمجتمع في التمسك بما جاء فيهما من عقيدة وشرائع، قال سبحانه: " يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ "[1]. فهو مصدر والرخاء، والسّلام النفسي والاجتماعي، يقول تعالى: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا "[2]، يقول الشنقيطي: " وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها ، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخر"[3].

الفرع الثاني: الدعوة إلى التوحيد: إنّ التوحيد ضد الاستبداد، فهو يقرّر أنّ النّاس عبيد لله وحده، يحيون في الدنيا وفق إرادته.يقول ابن رجب في تفسيره: "وكلمة التوحيد هي كلمة التقوى، وكلمة الإخلاص، وشهادة الحق، ودعوة الحق، وبراءة من الشرك، ونجاة هذا الأمر، ولأجلها خلق الخلق، ولأجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب"[4]، قال الله: " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ "[5]، يقول القرطبي: " أي اتركوا كل معبود دون

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) أضواء البيان، ج ٣، ص ١٨.

(٤) ابن رجب: عبد الرحمن، تفسير ابن رجب، دار العاصمة، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ج٢ ص٢٧٤.

(٥) سورة النّحل، الآية: ٣٦.

الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال "[1]، إنّ الكثير من دعاوى التحرر التي نسمعها اليوم ما هي إلا صورة أخرى من صور الاستبداد، فكل ما يخالف التوحيد، إنما هو دعوة للاستكبار، دعوة مآلها الخسران المبين.

الفرع الثالث: تطبيق الشريعة الإسلامية:

إنّ النّجاة في تطبيق شرع الله، فهو الذي خلقنا، وهو أعلم بما يصلحنا، يقول تعالى: " وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ "[2]، يقول السّعدي: " الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك"[3]، ويحذر من الاستماع للمعترضين يقول صاحب المنار: " وإننا نرى في عصرنا بعضا من هذا الصنف، يقولون: إن التشدد في الأخذ بأحكام القرآن وما جاء به محمد- عليه السلام- ينفر الناس من الإسلام .. فمنهم من ينفر من تحريم الإسلام للربا، لأنه ضد الاقتصاد، ومنهم من يمنع إقامة حدود الله، ويقولون: إن ذلك يتنافى مع الحضارة، "[4].

المطلب الثاني: المنهج الإجرائي في معالجة ظاهرة الاستبداد

وفيه عناصر عديدة، أهمها:

الفرع الأول: العلم النافع:

إن القراءة أوّل ما جاء به الوحي لمحاربة الجهل والجاهلية، لأنّ الاستبداد يجد أسباب قيامه في الجهل، ولهذا عمل على تجفيف منابعه، فنزل قول الحق : " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"[5] وقد جاء أمر القراءة كلمة "يطغى"، وهذا من إعجاز القرآن، فالاستبداد وليد الجهل، يقول جمال الدين القاسمي: " لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات. فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم، وكسر تلك الأبواب التي غلقها عليهم

---

(١) تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٩٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٣) تفسير السّعدي، ج ٢ـ ص ٤٢٥.

(٤) تفسير السّعدي، ج ٢ـ ص ٤٢٥.

(٥) سورة العلق، الآية: ١.

رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات من الجهل، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع، فلا أرشدهم الله أبد."[1].

الفرع الثاني: إقامة الحدود:

إنّ تطبيق الحدود يحفظ الكليات الخمس من جهة العدم، ومن جهة الوجود، وفي تطبيقها ضمان استقرار المجتمع وأمنه، فإن عُطّلت ذهب الأمن وساد والإجرام، والواقع اليوم خير دليل على هذا، فالدول المسلمة التي عطّلت الحدود نالها شرّ عظيم؛ ولهذا حذّر القرآن من تعطيل الحدود، قال الله تعالى: " تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "[2]، ويقول تعالى: " تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ "[3]، يقول القاسمي: " تلك الأحكام حدود الله أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها"[4]، يقول ابن تيمية بعد سرده للآيات التي ذكرت حد السرقة، والزنا والقذف: " لقد شرع الله تعالى الحدود للانزجار عما يتضرر به العباد، وصيانة دار الإسلام عن الفساد والطهر من الذنب؛ ليست بحكم أصلي لإقامة الحد؛ لأنها تحصل بالتوبة لا بإقامة الحد، ولهذا يقام الحد على الكافر ولا طَهرة له". [5].

الفرع الثالث: التوبة:

إنّ التوبة وظيفة العمر بالنسبة للأفراد والأمم، وهي تعني الإصلاح المستمر للنفوس والمجتمعات، ويعرف العبد ذلك بجبلته؛ لأجل ذلك حثّ عليها القرآن، يقول تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ". وقد أمر الله بالتوبة وهي: " فرض على الأعيان في كل الأحوال وكلّ الأزمان"[6]؛ لأنّها: " توبة ترقع الخروق، وترتق الفتوق، وتصلح الفاسد، وتسد الخلل"[7].

---

(١) القاسمي: محمد جمال الدين، تفسير القاسمي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م، ج١٧، ص ٦٢١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٣) سورة النّساء، الآية: ١٣.

(٤) تفسير القاسمي، ج٥، ص١١٥١، ١١٥٢.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ١٣٨.

(٦) تفسير القرطبي، ج١٨، ص١٨٣.

(٧) تفسير القاسمي، ج ١٦، ص ٥٨٦٨.

النتائج والتوصيات

- أنّ الاستبداد اسم واسع يشمل صورا كثيرة، يحتاج كل منها إلى بسط وتحرير، لخطورتها على الأمّة.
- أنّ الجهل والنفسيات المنحطة من أعظم أسباب الاستبداد بكافة صوره.
- القرآن مركز التصورات الصحيحة للحياة وظواهرها؛ ما يلزم الباحث على الرجوع إليه لاستقاء تصوراته، ودراسة المشكلات على ضوء منهجه، واستخراج الحلول والعلاج منه.
- اضطررت لحذف عدة مباحث لكثافة المادة، وكان منها مبحث: دور القرآن والشريعة في سعادة واستقرار بلاد الحرمين، وهو مبحث هامّ يُرجى من الباحثين الالتفات إليه.
- ضرورة إقامة المؤتمرات عن صور الاستبداد في القرآن الكريم، وهذا من نشر الوعي الذي أمرنا به.

مراجع البحث

١. ابن رجب: عبد الرحمن، تفسير ابن رجب، دار العاصمة، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

٣. ابن كثير: اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

٤. أبـو السعود: محمد بن محمـد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القـرآن الكريم، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان. سنة النشر غير مذكورة.

٥. أبـو داود: سليمـان بن الأشعث، سـنن أبي داود، تحقيـق: شعيب الأرنـاؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، سنة النشر: ١٤٣٠-٢٠٠٩، ط:١، عدد الأجزاء: ٦.

٦. أبو زهرة: محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.

٧. الأصفهـاني: الحسين بن محمد، غريب مفردات ألفـاظ القرآن، ضبط وتصحيح إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤مـ.

٨. الألوسي: محمود شكري بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، تاريخ الطبعة غير مذكور.

٩. البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، سنة النشر ١٤١٤ه/١٩٩٣م، عدد الأجزاء ٧.

١٠. البغوي: الحسين بن مسعود، تفسير البغوي، دار طيبة. سنة النشر والطبع غير مذكورة.

١١. البقاعي: إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي.

١٢. تفسير يحي بن سلّام، الطبعة والسنة والدار غير مذكورة.

١٣. الحكمـي: حافظ بن أحمد، معـارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علـم الأصول، دار ابن القيم، ط ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٤. خالـد رمضان أحمد، الطغـاة والطغيان في القرآن الكريم، دراسـة منشورة بمجلة البيان، العدد ٢٩٤، بتاريخ ٢٠١١/١١/٢٢.

١٥. الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٦. رضا: محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، دار المعرفة، بيروت، ط ١٩٩٣م.

١٧. الزمخشري: محمود بن عمر، الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، لبنان.

١٨. السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ٢٠٠٢م.

١٩. السيوطي: جلال الدين، تفسير الجلالين، دار ابن كثير، ط١٤٠٧هـ.

٢٠. الشنقيطي: محمد الأمين،أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

٢١. الطبري: محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمد أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، سنة الطبع غير مذكورة.

٢٢. الفراهيدي: الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الهجرة.

٢٣. الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري،المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، المكتبة العلمية، بيروت.

٢٤. القرطبي: محمد بن أحمد، الجامع لآيات الأحكام، إعداد المكتب الثقافي، دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

٢٥. الكواكبي: عبد الرحمن، الدار والسنة والطبعة غير مذكورة.

٢٦. مسلم: أبو الحسين بن الحجاج القشيري النّيسابوري، فهرسة محمد بن نزار تميم، دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٩م.

٢٧. مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، المحقق:نظر بن محمد الفاريابي، الناشر دار طيبة، سنة النشر ١٤٢٧-٢٠٠٦، عدد المجلدات ٢، رقم ط١. (نسخة ثانية محملة من موقع المكتبة الوقفية).

٢٨. المصري: شهاب الدين، أحمد بن محمد الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق: فتحي أنور الدابولي، طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا، القاهرة،١٩٩٢م.

٢٩. مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ط١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

عبد المحسن أحمد محمد على

الاســـــــــــم :	عبد المحسن أحمد محمد على
مكان الميلاد وتاريخه :	جمهورية مصر العربية – محافظة أسيوط – قرية درنكـــة. تاريخ الميلاد : ٣٠ / ٩ / ١٣٩١هـ ، الموافق : ١٨ / ١١ / ٩٧١ م
رقـــم الجـــوال :	٠٥٩١٥٢٨٦٧٦
البريد الإلكتروني :	dr-ali72@hotmail.com
المؤهل العلمي :	العالمية (الدكتوراه) .
مكان الحصول عليه :	جمهـورية مصـر العربيـة - جامعة الأزهر – فرع أسيوط – كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية - قسم التفسير وعلوم القرآن .
الدرجة العلمية :	أستـاذ مساعـد .
التخصص العلمي العام :	أصـول الديـن .
التخصص العلمي الدقيق :	التفسيـر وعلـوم القرآن .
جهة العمل الأصلية :	جمهورية مصر العربية - جامعة الأزهر – فرع أسيوط – كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية - قسم التفسير وعلوم القرآن .
جهة العمل الحالية :	المملكة العربية السعودية - جامعة نجران – فرع شرورة – كلية العلوم والآداب – قسم الدراسات الإسلامية
الأبحاث والمنشورات :	١- نجران ومكانتها العلمية بين الماضي والحاضر ٢- رحمـة الرسول - ﷺ - بالمخـالفين أثناء الحرب . ٣- جهود الحافظ ابن رجب الحنبلي في التفسير . ٤- أهم الأسس للقيادة الناجحة في ضوء القرآن الكريم .
المشاركة في المؤتمرات :	الحضور والمشاركة في المؤتمر الدولي الأول عن الرحمة في الإسلام والذي عقدته جامعة الملك سعود بالرياض في : ٢٨ ، ٢٩ / ٤ / ١٤٣٧ هـ الموافق : ٧،٨ / ٢ / ٢٠١٦ م ، ببحث عنوانه : رحمة الرسول - ﷺ - بالمخالفين أثناء الحرب .

دور القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري
في ضــوء القــرآن الكــريـم

تابــع
للمحور الأول وعنوانه :
توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاعتقادية والفكرية
مقدم لقسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد للمشاركة به في
المؤتمر الدولي القرآني الأول :
توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة

إعــــداد
د / عبد المحسن أحمد محمد علي
أستاذ مساعد بجامعة نجران – فرع شرورة
كلية العلوم والآداب - قسم الدراسات الإسلامية

المقـــدمـــــة

الحمد للّه المحمود بكل لسان، المعبود في كل زمان ، الذي لا يخلو من علمه مكان، ، والذي أنــزل قرآنه هدى للإنس والجان ، ووصى فيه العباد باتبــاع صراطه المستقيم ليفوزوا بنعيم الجنــان ، ونهاهم عن اتباع غيره من السبل والأديان، حتى ينجوا من عذاب النيران، وأشهد أن لا إلــه إلا اللّه وحــده لا شريك له الرحيم الرحمن ، وأشهــد أن محمدا عبده ورسوله سيد ولد عدنان، فاللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد

فلقــد مــنَّ اللّه – سبحانه وتعالى – على نبيه محمد ﷺ ، وأرشده إلى الطريق القويم، وهــو دين اللّه – سبحانــه وتعالى – المتضمن للعقائــد النافعة، والشرائــع الكافية الشافية ، و الأعمــال الصالحــة، وهو الدين الحنيف المائل عــن كل دين غير مستقيم، مــن أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركين ، فقال – سبحانه وتعالى – :﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًــا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام /١٦١) ، وأخـبر – سبحانــهً وتعالى – بأن مهمتــه ﷺ هي هداية الناس إلى هــذا الطريق القاصد والصراط المستقيم ، فقال:﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(المؤمنون/٧٣) وقال – سبحانــه وتعــالى – :﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾(الفتــح/٢٠) ، وقد أدى رسول اللّه ﷺ مهمته العظيمة على أكمل وجه، فأمر الناس بالسير على نهج هذا الطريق القويم والصراط المستقيم وبلغهم قول اللّه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَــنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَــى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِــي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(الملــك/٢٢) ، فاهتدى إلى هذا الصراط المستقيم، وإلى عقائده، والالتزام بأوامره ونواهيه من أراد اللّه له الهداية ، وضل، وانحــرف عــن الصراط الســوي بالإلحاد والردة عن هــذا الدين، أو الابتداع فيــه، أو بالغلو والتطرف وغير ذلك من أراد اللّه له الغواية ، وكان لزاماً ألا يُترك هذا المنحرف في انحرافه وضلالــه، بل لابد من تقويمه وعلاجه من هذا المرض، وهذا في المقام الأول دور القيادة التي تتــولى تدبير شئون المسلمين، وتنظيم أمورهم، سواء أكانت قيــادة عامة أو خاصة رسمية أو غير رسمية، من منطلق المسئولية الملاقاة على عاتقهم والتي كلفهم بها رسول اللّه في قوله "

"كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته" [1] ؛ لذا اخترت موضوع بحثي هذا وأسميته: " دور القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري في ضوء القرآن الكريم " ؛ لأبين السُبُل والإجراءات التي يجب على القائد اتباعها لهداية هذا المنحرف إلى الصراط السوي ، وعلاجه من هذا المرض الخطير الذي إذا تفشى دمَّر البلاد والعباد ، وبالله التوفيق وعليه التكلان .

وفيما يلي بيان أسباب اختياري لهذا الموضوع ، ومدى أهميته ، ومنهج البحث فيه ، وخطة البحث :

أسباب اختياري لموضوع الدراسة :

١. المشاركة به في المؤتمر الدولي القرآني الأول وعنوانه : توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة .
٢. كثرة الانحرافات الفكرية التي ظهرت على الساحة، خاصة في وسائل الإعلام المختلفة .
٣. غياب دور القادة في بعض الدول الإسلامية عن مواجهة هذه الانحرافات، وتركها حتى تفشت وتفحشت: إما إهمالاً منهم، أو انشغالاً عنها بأمور أخرى .
٤. تفصيل السبل والاجراءات التي إذا اتبعها القادة حصنوا رعيتهم من هذا الداء، وعالجوا من أصيب به – بعد توفيق الله - سبحانه وتعالى - وإرادته .

أهمية الدارسة :

ترجع أهمية هذه الدراسة إلى ما يلي :

١. تأصيل مفهوم القيادة والانحراف الفكري من كتب اللغة والتعريفات .
٢. بيان دور القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري .
٣. الإشارة إلى خطورة الانحرافات الفكرية على الدين والوطن ، خاصة إذا وصلت

(١) صحيح الإمام البخاري ، كتاب في الاستقراض وأداء الديون - باب: العبد راع في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه : ٣ / ١٢٠ حديث رقم : ٢٤٠٩ ، صحيح الإمام مسلم ، كتاب الإمارة- باب فضيلة الإمام العادل : ٣ / ١٤٥٩حديث رقم : ١٨٢٩.

بصاحبها إلى التكفير والإرهاب .

٤. إبراز أهمية الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ، وترسيخ مبدأ الوسطية في نفوس الرعية في معالجة ظاهرة الانحراف الفكري .

٥. بيان قيمة الحسبة والتوجيه والنصح والإرشاد والحوار البناء في مواجهة الانحرافات الفكرية .

٦. الحث على تفعيل دور المسجد ، والمؤسسات التعليمية، والمجتمعية الأخرى للقضاء على وباء الانحراف الفكري .

٧. دعوة القادة إلى تنمية التفكير العلمي والناقد لدى رعيتهم حتى لا يقبلوا كل ما يعرض عليهم من علوم وأفكار إلا إذا عرضوها على ميزان الشرع والعقل .

٨. الوقوف على مصادر الانحرافات الفكرية ومنابعها ووسائلها، والتصدي للمصادر وتجفيف المنابع وإزالة الوسائل.

٩. بيان التوجيه والنصح والإرشاد ، و المراقبة الواعية والمحاسبة الرادعة في مواجهة الانحرافات الفكرية .

منهج الدراسة في هذا البحث :

اتبعت – بفضل الله ومنِّه – في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي الاستنباطي، وذلك عن طريق جمع الآيات القرآنية التي أشارت إلى طرق معالجة الانحرافات الفكرية، ثم قمت بتحليل هذه الآيات، وتفسيرها تفسيراً موجزاً مستعيناً في ذلك – بعد الله عز و جل – بكتب التفسير المعتمدة ، ثم استنبطت سبيل العلاج من هذه الأمراض الفكرية، التي إذا استعان بها القادة قضوا على هذه العلل ، وحصنوا رعيتهم ضد هذا الوباء .

خطة البحث :

اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ثم فهارس شاملة :

أما المقدمة ففيها بيان أسباب اختياري لهذا الموضوع، وأهميته، ومنهج البحث فيه ، وخطة البحث .

– أما المبحث الأول فجعلته بعنوان : مفهوم القيادة والانحراف الفكري ، وهو ينقسم إلى مطلبين :

المطلب الأول : مفهوم القيادة .

المطلب الثاني : مفهوم الانحراف الفكري .

- أما المبحث الثاني فسطرته بعنوان : دور القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري في ضوء القرآن الكريم، وقد تمثل هذا الدور وتلك المهمة في عدة طرق وإجراءات أهمها ما يلي :

- أولاً : الحرص على الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله .
- ثانياً : الحكم بما أنزل الله في جميع جوانب الحياة .
- ثالثاً : الحرص على تلقي العلم النافع من مصادره المعتبرة .
- رابعاً : ترسيخ مبدأ الوسطية والاعتدال في النفوس .
- خامساً : إنشاء نظام الحسبة للقيام بدورها في معالجة الانحراف الفكري .
- سادساً : التوجيه والنصح والإرشاد للمنحرفين فكرياً .
- سابعاً: الحرص على تنمية مهارة التفكير العلمي .
- ثامناً : الحرص على تنمية مهارة التفكير الناقد .
- تاسعاً : تفعيل دور المسجد في معالجة الانحراف الفكري .
- عاشراً : تفعيل دور العلماء الربانيين في معالجة الانحراف الفكري .
- حادي عشر : تحديد مصادر الانحراف الفكري والتحذير منها .
- ثاني عشر: الحوار الهادف،وإقامة الحجة على أصحاب العقول الضالة والأفكار المنحرفة .
- رابع عشر : التحذير من آثار الانحراف الفكري وعواقبه .
- خامس عشر : توفير فرص عمل للشباب .
- سادس عشر : المراقبة الواعية والمحاسبة الرادعة .

- أما الخاتمة فعدَّدت فيها أهم النتائج التي تكشفت لي من خلال إعداد هذه الدراسة ، وأهم التوصيات التي يوصي بها الباحث؛ لتفعيل دور القادة والقيام بواجبهم نحو مواجهة الانحراف الفكري والتصدي له ، ثم ذيلت البحث بثبت المراجع والمصادر ، ثم فهارس الموضوعات .

المبحث الأول

مفهوم القيادة والانحراف الفكري

المطلب الأول مفهوم القيادة :

أولا : مفهوم القيادة في اللغة :

القيادة في اللغة : هي مصدر من قاد يقود فهو قائد وهو خلاف السائق و القود - بفتح القاف وسكون الواو - نقيض السوق، فهذا من الخلف وذاك من الأمام يقال : قاد فلان الدابة أي من أمامها وساقها أي من خلفها ، وعلى هذا فمكان القائد في المقدمة كالدليل والقدوة والمرشد ، وانقاد مطاوع قاد أي خضع وذل ويقال : فرس قَؤُودٌ: سلس مُنْقاد وبعير قَيد : إذا كان ذلولاً ينقاد وينساق [(١)].

ونخلص مما سبق أن القيادة تطلق في اللغة ويراد بها معنيان :

- الأول : أنها خلاف السوق .
- الثاني : الخضوع والإذعان .

ثانياً : القيادة في الاصطلاح :

لقد ذكر علماء الإسلام عدة تعريفات للقيادة نكتفي منها بما يلي :

١. أنها تحمل مسئولية أمر المسلمين وتدبير شئونهم الدنيوية والأخروية [(٢)] .
٢. هي قيادة ربانية موجه وفق تشريع رباني يرشد سلوكها ومبنية على أسس وقواعد إيمانية ملزمة لمن يقوم بها أن يكون قوياً وأميناً ومدركاً يقظاً مستعيناً بمن حوله لتحقيق نجاح العمل الموكل إليه [(٣)] .

---

(١) انظر العين للخليل بن أحمد :٥ / ١٩٦مادة قود ، ولسان العرب لابن منظور :٣ / ٣٧٠مادة قود

(٢) القيادة والجندية في الإسلام لمحمد السيد الوكيل ص : ٧ .

(٣) مدى توافق السمات القيادية مع المعايير الإسلامية في اختيار القائد التربوي للحاج طاهر محمد ص :٦١ .

وهـذا التعريـف أعم وأشمل من التعريف السابق ، حيث إنـه يشمل جميع أنواع القيادة، سـواء القيادة العامة، كتولي الخلافة والرئاسة ، أو الخاصة مثل تولي قيادة الأسرة ، وقيادة دور العلم من مدارس ومعاهد وجامعات ، ودور العبادة كالمساجد ، وقيادة المؤسسات الإدارية و والانتاجية والصناعية وغير ذلك ، وسواء أكانت قيادة رسمية أم غير رسمية .

وعليـه فالقائد هو الذي : " هو الذي يقـود الناس أي يقدمهم فيسلك بهم طريق الهدى ويعـدل بهـم عن سبيل الردى.. " (١) ، وقد أثنى الله علـى إبراهيم بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّـةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِـينَ ﴾ (النحل/١٢٠) .. " (٢) يعني : " إمامًا في الخير يُقتـدى بـه، ويُتَّبع عليه " (٣) " فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد " (٤) .

المطلب الثاني : مفهوم الانحراف الفكري

أولاً : مفهوم الانحراف الفكري في اللغة :

الانحراف الفكري مركب من كلمتين : الانحراف والفكري، وبتعريفهما يتضح المراد بهما :

فالانحـراف في اللغـة : هو الميل والعدول عن الشـيء (يقال انحرف عن الشيء أي مال عنه وعدل) (٥) ، ومنه قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ [الأنفال: ١٦] " أي إلا مائلاً لأجل القتال لا مائلاً هزيمة " (٦) .

والفكـري في اللغـة : نسبة إلى الفِكر: وهو " إِعْمَـال الخاطر في الشَّيْء " (٧) وقيل : (هو تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني ....، ويقال الفكر ترتيب أمور في الذهن يتوصل بها إلى مطلوب يكون علمًا أو ظنًا) (٨) .

---

(١) سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد ، لمحمد بن يوسف الصالحي : ١ / ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

(٢) القائد الفعال للعدلوني ص : ١٧ ، ومهارات القيادة وصفات القائد للعساف ص : ٣

(٣) تفسير الطبري : ٤ / ٢٧٦ .

(٤) في ظلال القرآن ، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي : ٤ / ٢٢٠١.

(٥) انظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري : ٤ / ١٣٤٣ .

(٦) المصباح المنير للفيومي ، ص : ١ / ١٣٠ ، مادة (حرف) .

(٧) المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده : ٧ / ٧ .

(٨) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي الفيومي : ٢ / ٤٧٩

" والمراد بالفكري في هذه الدراسة الرؤية والصورة الذهنية لتصور الإسلام في عقل الفرد وتفكيره ، سواء كان في الناحية الاعتقادية أو العملية " [١] .

هـذا هـو معنى لفـظ الانحراف، والفكـري في اللغـة، كل منهما على حـدة، أما تعريف الانحراف الفكري كمركب إضافي فهو كما يلي :

ثانياً : مفهوم الانحراف الفكري في الاصطلاح :

نظـراً لحداثة اللفـظ ومعاصرته فقد اختلفت وجهات نظر العلمـاء في تعريفه إلى عدة تعريفات نقتصر منها على ما يلي:

١. أن الانحـراف الفكري هو : " الميل إلى غير الحـق في أصول الدين فيما ينتجه عقل الإنسان من رأي " [٢] .
٢. يقـال هـو : " الخروج عن الحـد الشرعي الذي حـده الله في كتابـه، أو على لسان رسولـه محمد ، وأجمع العلماء على حرمته، مثل الإلحاد والتكفير بغير علم والبغي وإجازة المحرمات وغيرها " [٣] ،

وقيـل : " الانحـراف الفكري هو ذلك الفكـر الذي لا يلتزم بالقواعـد الدينية والتقاليد والأعـراف والنظم الاجتماعيـة "[٤] ، " أي أنه الفكر الشاذ الذي يحيد بالمجتمع عن تقاليده الحميدة، ويخالف تعاليم الإسلام الحنيف والقيم السمحة ويكون الانحراف الفكري باختلال في فكـر الإنسان وعقله، والخروج عن الوسطية والاعتدال في فهمه وتصوراته للأمور الدينية والسياسية وغير ذلك " [٥].

---

(١) الانحراف الفكري مفهومه –أسبابه– علاجه في ضوء الكتاب والسنة ، طه عابدين طه ص : ٩ .

(٢) حمايـة المجتمـع المسلم مـن الانحراف الفكـري للدكتور / عبد الله بـن عبد العزيز الزايـدي ، مجلة البحوث الإسلامية : ٧٧ / ٢٣٩ .

(٣) الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم للدكتور / عبد الحميد السحيباني بحث منشور بمجلة وزراة العدل العدد ٤١ لسنة ١٤٣٠ هـ ، ص : ١٢ .

(٤) العوامل المسببة للانحراف الفكري وعلاقتها بالإرهاب للدكتور علي فايز الجحنى ، بحث منشور في مجلة وزارة العدل العدد : ٣٩ رجب ١٤٢٩ هـ ، ص : ٢٠٦ .

(٥) التخطيـط الاستراتيجى لتحقيق الأمن الفكرى بالمملكة العربية السعودية دكتور مهندس/ سعيد بن على حسن القليطى ص :٥

المبحث الثـــانـي

دور القيادة الناجحة في معالجة الانحراف الفكري في ضوء القرآن الكريم

مما لا شك فيه أن القيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري والوقاية منــه يتمثل هذا الدور في كثير من المبادئ والواجبات والإجراءات التي لابد من التزام القائد بها، حتى يقي رعيته ويعالجهم من هذا الداء العضال نقتصر فيما يلي على أهمها :

أولاً : الحرص على الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله :

المــراد بالاعتصام بكتاب الله هــو التسمك به و" تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهــم، وأذواقهــم، وكشوفاتهــم، ومواجيدهــم، فمــن لم يكن كذلك، فهــو منسل من الاعتصـــام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً واستعانة، ومتابعة، واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة " [١] ، وإن من أسباب الانحرافات الفكرية العدول عن القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم والإعراض عنهما وعدم التحاكم إليهما لذا " فإن علاج تلــك الانحرافات هو بالــرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وسبيل الوقاية من تلك الانحرافات هــو أيضاً في الاعتصـــام بكتاب الله وسنة رسوله ، وإذا تأمــل الناظر إلى حال السلف علموا أنهــم مــا سلموا من الخطل والزلــل إلا باعتصامهم بكتاب الله وسنة رسولــه "[٢] ، وقد أمر الحــق - سبحانه وتعــالى - بالاعتصام بكتابه والتمسك به والتحصن بما فيه من هدى ونور فقال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران/١٠٣) . : ومعنى " وَاعْتَصِمُوا " أي استمسكــوا وتحصنــوا " [٣] ، " و الحبــل في التفســير: هــو القرآن، وإنمــا سمي به لأن المعتصم به في أمور دينه يتخلص به من عقوبة الآخرة ونكال الدنيا، كما أن المتمسك بالحبل ينجــو مــن الغرق والمهالك " [٤] ، والآية الكريمة تأمر المسلمــين " بأن يجتمعوا على التمسك

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية : ٣ / ٣٢٣ .

(٢) الأمن الفكري في ضوء السنة النبوية لعبد الرحمن بن معلا اللويحق ص : ٩٣٢ .

(٣) البحر المحيط في التفسير ، لأبي حيان الأندلسي : ٣ / ٢٨٦ .

(٤) انظر مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، للفخر الرازي : ٢ / ٢٦٢ .

بدين الإسلام أو بالقرآن، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين ، وعن الفرقة، لأن كل ذلك عادة أهل الجاهلية "[١]، وقد وصى - سبحانه وتعالى - باتباع القرآن الكريم، والسير على نهجه لأنه طريق الهدى والاعتدال والتوزان، ونهى - سبحانه وتعالى - عن اتباع سبيل غير سبيل القرآن لأنه طريق الضلال والميل عن الحق والانحراف عنه فقال :﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام/١٥٣) ، وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - في آية أخرى بالتسمك بالقرآن الكريم المنزل على النبي العظيم ، وعدم الميل عنه والانحراف عن تعاليمه ، لأنه يفضي إلى الصراط المستقيم ويوصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٣ ، ٤٤) ، و بيَّن ثمرة الاعتصام بكتابه فقال : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران/١٠١) . ، معنى قوله : " وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ " أي ومن يتمسك بحبل الله، وهو القرآن. " [٢]،والآية تفيد أن " الاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد "[٣].

وقد أمر الحق - سبحانه وتعالى - في آيات كثيرة باتباع سنة رسوله والتمسك بها والسير على نهجها من ذلك قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر / ٧) . " أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر " [٤] ، و" هذا يوجب أن كل ما أمر به النبي أمر من الله - سبحانه وتعالى - "[٥] يجب اتباعه ، إذ أن " الهدي كل الهدي في اتباع كتاب الله وسنة رسول الله فهي المبنية لمراد كتاب الله إذا أشكل ظاهره أبانت السنة عن باطنه وعن مراد الله منه ، والجدال في ما تعتقده الأفئدة من الضلال " [٦] .

---

(١) فتح القدير ، لمحمد بن علي الشوكاني : ١ / ٤٢١ ، .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) : ٤ / ١٥٧ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ) : ٢ / ٨٥ ، ٨٦ .
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٨ / ٦٧ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٨ / ١٧ .
(٦) الاستذكار لابن عبد البر (المتوفى: ٤٦٣هـ) : ٨ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

هـذا والقيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري واقتلاعه من جذوره مـن هـذا الناحية ، وذلك عن طريق حرص القائد على أن يعصتم هـو أولاً بالكتاب والسنة تطبيقـاً وسلـوكاً وعمـلاً بهما في حياتـه وحكمه وقيادته ، ثـم يحرص علـى أن تلتزم رعيته بالاعتصـام بكتـاب الله وسنة رسوله قـولاً وفعلاً وتطبيقاً في حياتهـم ، لأن الاعتصام بهما هـدى ونور واعتـدال، والعدول عنهما ضلال وظلمـة وانحراف ، ولا يقتصـر هذا الأمر على القـادة من الولاة والحـكام، بل أيضاً يشمل كل قائد في موقعه، سـواء أكان في الأسرة، أو في المؤسسات الإدارية والتعليميـة والمجتمعية، وغير ذلك، الكل يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله ، والسـير علـى نهجهما واتباع ما جاء فيهما من أوامر ونواهـي ، ويُلزم الموقودين بذلك حتى يهتدي الجميع ويتحصنوا من الانحرافات العقدية والفكرية ويسعدوا في الدنيا والآخرة .

ثانياً : الحكم بما أنزل الله في جميع جوانب الحياة :

" لا ريـب أن الحكـم بما أنـزل الله في جميع جوانب الحياة يحقـق للمجتمع صلاحاً في عقيدتـه، وتحقيقـاً لإيمانه قال : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِـدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْـتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(النساء/٦٥)، فالمجتمع المحكوم بشـرع الله أقرب إلى التمسـك بالدين، والمحافظة عليه والتمسـك بثوابته، وعدم الانحراف عنه، وكلما كان المجتمع محكوماً بالشرع متحاكماً إليه، قلَّت فيه دواعي الانحراف وأسبابه ، وإن كان ذلـك لا يختفـي مطلقاً، ولكن تكون نسبته أقل، كما هو الشأن في عصر علي – رضي الله عنـه – حيث ظهرت الخوارج والرافضة، مع أن المجتمـع كان محكوماً بالشرع ومتحاكماً إليه.

إذ المجتمـع المسلـم المحكوم بالشـرع لا يسمح بالدعـوة إلى العقائد الضالـة والمذاهب المنحرفـة، والفكـر المنـاوئ للحق والمعـادي له، فيقل تبعًـا لذلك من يبحث عنهـا ويعتنقها ، وكذلـك مصادر هذه الأفـكار والعقائد تكون معدومـة، أو لا يتسع نطـاق تداولها، فيقل تبعا لذلـك التأثـر بهـا " [١]؛ لذا نجد الحـق – سبحانه وتعـالى – أمر بإقامة شرعـه وتطبيقه، والحكـم بما أنزل في كتابه، وذلك لأن الحكم بما أنزل الله غاية في العدل والهداية ، والحكم بغير ذلك حكم بالهوى وهو غاية في الظلم والضلال والانحراف عن الصراط المستقيم فقال

(١) حماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري ، لعبد الله الزايدي : بحث منشور بمجلة البحوث الإسلامية – ٧٧ / ٣٢١ – ٣٢٣

- سبحانه وتعالى - : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ .. ﴾ (المائدة/٤٨) ، ومعنى : " فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ " أي : فاحكم يا محمد بين الناس: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله؛ ولهذا قال: ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء"[1]، ثم قال - عز وجل - : مؤكداً على هذا الأمر ومقرر له : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴾ (المائدة : ٤٩- ٥٠) (فقد أخبر في هذه الآية أن كل حكم خالف حكمه الذي أنزله على رسوله، فهو من أحكام الهوى لا من أحكام العقل، وهو من أحكام الجاهلية لا من حكم العلم والهدى ، فليس وراء ما أنزله إلا اتباع الهوى الذي يضل عن سبيله، وليس وراء حكمه إلا حكم الجاهلية، وكل هذه الآراء والمعقولات المخالفة لما جاء به الرسول هي من قضايا الهوى وأحكام الجاهلية وإن سماها أربابها بالقواطع العقلية والبراهين اليقينية كتسمية المشركين أوثانهم وأصنامهم آلهة وتسمية المنافقين السعي في الأرض بالفساد وصد القلوب عن الإيمان إصلاحاً وإحساناً وتوفيقاً)[2] ، وأخبر - سبحانه وتعالى - في آية أخرى عن غاية من غايات إنزال هذا الكتاب الكريم وهي الحكم بين الناس، والفصل بينهم طبقاً لأحكامه وتشريعاته فقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (النساء /١٠٥). (أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن، لتقضي بين الناس فتفصل بينهم " بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ " أي بما أنزل الله إليك من كتابه)[3]

ومن خلال ما سبق ندرك أن الحكم بما أنزل الله - سبحانه وتعالى - هو سبيل الهدى والرشاد، والحكم بغير ذلك من أحكام الجاهلية والقوانين الوضعية التي مصدرها هوى النفس هو طريق الضلال والحيرة والتخبط ، وأن المجتمع الذي يسوده الحكم بما أنزل الله

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣ / ١٢٨ ، وراجع تفسير الطبري : ١٠ / ٣٨٢ .
(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ، لابن قيم الجوزية : ٣ / ١٠٤٦ .
(٣) راجع تفسير الطبري : ٩ / ١٧٦ .

ا هـو مجتمع آمن علـى الأرواح والأجساد آمن على الأعراض آمن علـى العقول والفكر ، لأنه مجتمع يسوده العدل وحماية الحقوق والواجبات لذا قال - عز وجل - : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المائدة/٤٥) .

والقيادة الناجحة لكي تعصم رعيتها وتحفظها من الانحراف الفكري والضلال العقلي، وتعالـج مـن وقع في هذا الانحراف والضلال، لابد وأن يسـود في حكمها وقيادتها التشريعات الإلهيـة التـي أنزلها الله في كتابه، والهدي النبوي الذي بينـه لأمته في جميع جوانب الحياة، وليسـ في القصاص والحدود فقـط ، حتى يتحقق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع ويتحقق – أيضـاً – الأمـن والأمان، ويحصـل كل صاحب حق على حقه ، ويشعـر المقودون بذلك فلا ينحرفـوا يمينـاً أو يسـاراً ، وإذا كان هناك في الرعية من انحرف فكـره، وضل عقله ، وشعر بالعدل والأمن، وسيادة شرع الله – سبحانه وتعالى – في الحكم، فلا شك أنه سيراجع نفسه فيما هو عليه من انحراف فكري أو سلوكي ، أو ضلال عقلي ويعود إلى صوابه .

ثالثاً : الحرص على تلقي العلم النافع من مصادره المعتبرة :

إن " العلـم النافـع نور يهدي إلى الحق، وينير الطريـق للسالكين ، وبه يُميَز بين الإيمان والكفر والمصلحة والمفسدة والخير والشر ، بل يعرف خير الخيرين وشر الشرين، وعلى قدر علم الإنسـان وفقهه، وقوة بصريته، وسعة أفقه، ومعرفته بواقعه، يكون حكمه على الأحداث من حوله، وإدراكه لكيفية التعامل معها، ونظره إلى عواقبها ومآلاتها، ومتى يقدم ومتى يحجم ؟ ومن يعادي، ومن يسالم ؟ ولهذا أمرنا ربنا بالرجوع إلى العلماء الربانين في الأمور التي تهم الأمـة وتمسـ مصالحها العامة فقال – سبحانه وتعـالى – : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَـوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء/بب٨٣) .. "[١] و " أُوْلِي الأَمْـرِ مِنْهُـمْ " هم أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم، ... " لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ " أي: يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم. "[٢] .

---

(١) أثر العلم الشرعي في مواجهة العنف والعدوان إعداد د: عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان ص: ٨ ، ٩ .

(٢) فتح القدير للشوكاني : ١ / ٥٦٧ .

و تلقي العلم النافع من مصادره المعتبرة " ضابط علمي قرآني كبير يؤكد على أن يتلقى الباحث المسلم المعرفة من مصادرها الصحيحة سواء كانت هذه المصادر هي كتاب الله - سبحانه وتعالى - أو سنة نبيه أم من كلام البشر [المهتدين] على اختلاف العلوم والتخصصات والمعارف ، فإن لكل معرفة شرعية– على اختلاف فروعها – مصادرها التي تؤخذ منها ، ولكل معرفة مادية بشرية – على اختلاف فروعها – مصادرها التي تؤخذ منها ، وقد أكد القرآن الكريم على سؤال المتخصصين في أي فرع من فروع المعرفة شرعية كانت أو غير شرعية فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء/٧).. وهي تأكيد على تلقي المعرفة من مصادرها الصحيحة "[١]، و" هذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم ، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها ، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم، والإجابة عما علموه ، وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك "[٢] .

ولعظم دور العلماء وقيمة العلم النافع في القضاء على الانحراف الفكري، والميل عن الحق وبخ الله - سبحانه وتعالى - علماء اليهود والنصارى، وأنكر عليهم عدم القيام بدورهم في معاجلة هذا الباطل فقال- سبحانه وتعالى - : ﴿ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة/٦٣) ، والمعنى " أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة -عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .. "[٣].

والقيادة الناجحة خاصة القيادة العامة لها دور كبير في معالجة الانحرافات الفكرية، والوقاية منها من هذا الجانب عن طريق حث الرعية، أو المقودين وإلزامهم بتلقي

(١) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم للحدري ص : ١٩٥ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص : ٥١٩ .

(٣) المراجع السابق ص : ٢٣٧ .

العلم من مصادره المعتبرة، وتفعيل دور العلماء في نشر العلم الصحيح ، و إتاحة الفرصة لهم للقيام بدورهم في ذلك، وتدريب الكوادر العلمية على مواجهة الانحرافات الفكرية والعقائد الضالة ،كل ذلك يؤدي إلى تحقيق الأمن الفكري، ونشر العقائد الصحيحة الموافقة للقرآن والسنة بعيداً عن الإفراط أو التفريط ، ، وأيضاً القيادات الأخرى لها دور مهم في معالجة الانحراف الفكري من هذه الناحية، فقائد الأسرة مثلاً لا يرسل أبناءه للتعلم على أيدي علماء الفتنة والضلال، وإنما يحرص على أن يتلقى أولاده العلم من مصادره المعتبرة من قرآن وسنة ومأثور عن سلف الأمة ، وعلى أيدي العلماء الربانيين المعتدلين في الفكر والعقيدة والمذهب ، وكذا أرباب القيادة الأخرى خاصة التعليمية يحرصوا على أن تتلقى رعيتهم العلم من مصادره المعترف بها ، وعلى أيدي أهل العلم الذين ورثوه عن رسول الله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم جميعاً .

رابعاً : ترسيخ مبدأ الوسطية والاعتدال في النفوس :

" الوسطية تعني : الاستقامة على المنهج، والبعد عن الميل والانحراف، فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة/٦) ، هو كما عبر أحد المفسرين الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب [(١)] ، فإذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة ، والانحراف الفكري ما هو إلا انحراف عن الوسطية والتوازن نحو الإفراط والتفريط، أو الغلو والتقصير ، ولتعديل هذا الانحراف الفكري يجب العودة به وبمن يحمله إلى جادة الوسطية ، فالوسطية في الإسلام هي العدل بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما، أي الموازنة بين هذه الأطراف بحيث يعطى كلاً منها حقه دون بخس ولا جور عليه ، والتعدد والاختلاف الفكري يكون حتماً كلما وجد التطرف، وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف ، أما الوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها ، ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلاف بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة " [(٢)] .

(١) انظر مفاتيح الغيب ، للفخر الرازي: ١ / ٢١٨ .
(٢) الانحراف الفكري دراسة وتحليل – طالب الخير – بتصرف .

لـذا قال – سبحانه وتعالى – معلماً المسلمـين أن يدعوا الله أن يهديهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيـم، وهو الطريق الوسط بين الإفراط والتفريط : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧] " ووجه دلالـة الآيـة : أنه – سبحانه وتعـالى – وصف الصراط المستقيم بأنـه غير صراط المغضوب عليهم، وهم اليهود أهل الغلو في الدين، وغير صراط النصارى، وهم أهل الغلو في الرهبانية والتعبـد، حتى خرجوا عـن حدود الشرع، ليس فقط في العبادة ، بـل حتى في الاعتقاد، يقول – سبحانـه وتعـالى – : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ ..... ﴾ الآيـة (النسـاء: ١٧١) ، فإذا كان الصـراط المستقيم غير صراط اليهـود والنصارى، وكان صـراط اليهود والنصارى صراط غلو في الدين، دل ذلك على أن الصراط المستقيم صراط لا غلـو فيه، فهو بين طرفين: إفراط وتفريط، وهذا هو معنى الوسطية التي هي منهاج الدين الإسلامي." [(١)].

والوسطيـة من " أنجح الوسائـل لتحقيق الأمن الفكري وذلك بإظهار وسطية الإسلام واعتدالـه، وترسيخ ذلـك المعنى لدى الشباب، وبيان مساوئ الغلـو والتشدد، وكذلك مساوئ التهاون والتفريط؛ ولذلك أمر الله – عز وجل – بالوسطية وامتدح بها أمة الإسلام – ونص عليهـا – فقـال– سبحانه وتعـالى – : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقـرة/١٤٣)... " [(٢)]، فمعنى ﴿ وَسَطًا ﴾ " أي: عـدلاً خيـاراً ، وما عـدا الوسط، فأطراف داخلة تحـت الخطـر " [(٣)] ، (وإنما وصف الله – سبحانـه وتعـالى – الأمة بأنهـا " أُمَّةً وَسَطًا " ، لتوسطهم في الديـن، فلا هُم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه – ولا هُم أهل تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها) [(٤)].

---

(١) بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو ، لمجموعة من العلماء ، ص : ٢٠ .

(٢) مجلـة البحـوث الإسلامية : ٩٤ / ١٥٧ بحـث بعنوان : وسائل القرآن الكريم في تحقيـق الأمن الفكري ، لهانم محمد عبده عوض.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص : ٧٠.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري : ٣ / ١٤٢

هذا هو مبدأ الوسطية والاعتدال في الإسلام وقيمته في القضاء على الانحراف الفكري، والقائد الناجح لابد وأن يقوم بدروره في ترسيخ هذا المبدأ العظيم في نفسه أولاً، ثم يعمل على نشره وترسيخه في نفوس رعيته والموقودين له، حتى يستطيع أن يعالج الرعية من مرض الانحرافات الفكرية، وتسقر الدولة ويستقر الوطن على المستوى العام، ويخلوا من الإرهاب والتطرف والغلو والتشدد والتفريط، وتسقر كذلك الأسرة والإدارة ومركز القيادات الأخرى من تعليمية وانتاجية وإدارية وغير ذلك على المستوى الخاص ، وقد عمل خير القادة سيدنا محمد على ترسيخ هذا المبدأ في نفوس المسلمين قولاً وعملاً فقال : " "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا" [١] فليكن للقادة في رسول الله أسوة حسنة وقدوة طيبة .

خامساً : إنشاء نظام الحسبة للقيام بدورها في معالجة الانحراف الفكري :

الحسبة هي : " ولاية دينية يقوم وليُّ الأمر – الحاكم – بمقتضاها بتعيين من يتولى مهمة الأمر بالمعروف إذا أظهر الناسُ تركه ، والنهي عن المنكر إذا أظهر الناس فعله ، صيانة للمجتمع من الانحراف ، وحماية للدين من الضياع ، وتحقيقاً لمصالح الناس الدينية والدنيوية وفقاً لشرع الله – سبحانه وتعالى – " [٢] ، وعرفت أيضاً بأنها : " وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الّذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعيّن لذلك من يراه أهلا له، فيتعيّن فرضه عليه ويتّخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات ويعزّر ويؤدّب على قدرها، ويحمل النّاس على المصالح العامّة في المدينة) إلخ [٣] ، و"المحتسب [هو] من نصبه الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية، والكشف عن أمورهم ومصالحهم " [٤] ، وقد " أجمع أهل العلم على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يجب على الأمراء، ويُعين على ذلك المؤمنون إذا احتيج إليهم ، وبعض الناس يحمله عن بعض: كالجهاد" [٥] .

(١) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب : الدين يسر : ١ / ١٦ ، حديث رقم : ٣٩ .

(٢) الحسبة لابن تيمية تحقيق علي بن نايف الشحود ص: ٢ مقدمة المحقق وص : ١٢ .

(٣) ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون : ١ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٤) الرتبة في طلب الحسبة لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي ، ص : ٦٣ .

(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية ، لمكي بن أبي طالب القيسي : ٣ / ١٩٠٦ .

ولأهمية الحسبة في المجتمع المسلم، ودورها في القضاء على الانحرافات العقدية والفكرية والسلوكية والأخلاقية أمر – سبحانه وتعالى – بها فقال : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران/١٠٤) " والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه "[١] ، والمعنى : " أي ولتكن منكم أيها المؤمنون جماعة مستقيمة " يَدْعُونَ " الناس " إِلَى الْخَيْرِ " ، وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾، وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، أي الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب) [٢]، " ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان، إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفي والتغريب، فينصب في كل بلدة رجلاً صالحاً قوياً عالماً أميناً ويأمره بذلك ، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة قال الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج/٤١) ... " [٣] .

والحسبة لها دور كبير في " هداية الإنسان فرداً كان أم مجتمعاً، هداية تجعله يحكّم مفاهيم الإسلام وقيمه في عقله وقلبه وإرادته ؛ لتكون الأفكار والعواطف والممارسات العملية مطابقة للمنهج الإلهي في الحياة، عن طريق إقامة فرائض الدين لقويم وشريعته السمحاء "[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٩١ .

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية ، لمكي بن أبي طالب القيسي : ٢ / ١٠٨٨ ، تفسير السعدي ص : ١٤٢ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ٤٧ .

(٤) المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب المجلد ٣١ العدد : ٦١ - الرياض : ١٤٣٦ – ٢٠١٤ م ، ، مقال بعنوان : إسهام الأسرة في تحقيق الأمن الفكري رؤية تربوية إسلامية...د. علي بن عبده أبوحميدي ، ص : ١٣٢ – ١٣٥ .

والقيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري، خاصة القادة من الحكام وولاة الأمر من هذا الجانب، وذلك عن طريق تطبيق نظام الحسبة، وتفعيل دورها بتكوين مجموعات من رجال الشرطة المدربين على الاحتساب، ويكونون على علم وبصيرة بأمور الدين ولا يقتصر دورهم على محاربة الفساد المتعلق بالآداب والأخلاق والأموال فقط، بل لابد وأن يكون لهم دور كبير في معالجة الانحرافات الفكرية والقضاء عليها : سواء أكان بالخطاب المباشر والمتابعة والمراقبة المباشرة ، أو عن طريق وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وكذا شبكة المعلومات الدولية بنشر الفكر المعتدل، ومصادرة المواقع والبرامج التي تنشر الانحراف الفكري، مثل : التطرف والغلو في الدين والتنجيم والسحر والكهانة، والإرهاب الجسدي والنفسي، والأفكار والمذاهب التي لا تتفق مع منهج القرآن الكريم والسنة النبوية ، أما عامة القادة فيقومون بأنفسهم بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمعالجة الانحرافات الفكرية بزجر رعيتهم ونهييهم عن تلك الانحرافات والضلالات، وبيان خطرها وآثارها السيئة على الفرد والمجتمع ، وبيان قيمة الاعتدال والسير على الصراط السوى والهدى، حتى تتحقق فيهم الخيرية التي نص الله عليها في قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ (آل عمران/ ١١٠) " وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله "[١]، ويتحقق فيهم قوله – عز وجل – : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١) ، ولا مانع من أن يطبق عامة القادة نظام الحسبة في مؤسساتهم التي يقودونها بتعين مجموعة ممن عندهم خبرة ودراية بأمور الدين عامة وشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة لمتابعة المقودين وتقويم سلوكهم وأفكارهم

سادساً : التوجيه والنصح والإرشاد للمنحرفين فكرياً :

إن من دعائم الدين الإسلامي الحنيف بذل النصيحة من المسلم لأخيه المسلم وتوجيهه وإرشاده إلى ما فيه الخير إن رأي منه معصية أو انحرافاً ، أو غلواً، أو تفريطاً أو ابتداعاً في الدين، أو مظهراً من مظاهر الشرك، أو تطرفاً أو إرهاباً ، أو غير ذلك ، فعن عن تميم الداري أن النبي قال: "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[٢] .

(١) المحرر الوجيز لابن عطية : ١ / ٤٨٩ .

(٢) صحيح الإمام مسلم : كتاب الإيمان – باب بيان أن الدين النصيحة : ١ / ٧٤ حديث رقم : ٥٥ ..

ولا شك أن للنصح والتوجيه والإرشاد إلى الطريق المستقيم أثرهم البالغ : " في تصحيح مسارات الأفراد، ومنع انحرافاتهم الفكرية والسلوكية، قال بعض الحكماء: " إذا غرست من المعروف غرساً، فأحسن تربية غرسك؛ فإنَّ حصاد من يزرع المعروف اغتباط وثواب في المعاد" [١] وقد اتبع النبي أرقى الأساليب التربوية وأجمعها، وما أن يعلم عن انحراف أو سلوك خاطئ إلا ويبادر إلى التعليم والتوجيه "[٢] خاصة إذا كان هذا الانحراف متعلقاً بالعقيدة فقد دعا رسول الله إلى اجتناب الشرك ونصح بعبادة الله وحده لا شريك، منذ أن بعثه الله- سبحانه وتعالى - ووجد الانحراف العقدي مستشرياً في المجتمعات الإنسانية إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، والقرآن الكريم ملئ بهذه النصائح القيمة وتلك الدعوات المفيدة ، فقد قال ا مبيناً أن النبي حارب الشرك بكل صوره الذي هو مظهر من مظاهر الانحراف الفكري ودعا إلى توحيد الله في الاعتقاد والعبادة ونصح بذلك وحرص عليه : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾(طه/٩٨) وقال- سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.... ﴾ الآية (الأنعام/١٥١). وقال- سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾(الزخرف/٦٤) ، وقال - عز وجل - آمراً النبي أن ينهى عن مظهر من مظاهر الانحراف الفكري وهو الغلو في الدين وينصح بالاعتدال والتوسط فيه بلا إفراط ولا تفريط ، وأمر بالاستقامة على منهج الله وعدم الميل عن سبيله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة / ٧٧) ، وقال- سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت/٦).. وقال - سبحانه وتعالى - مخبراً أن النبي م بلغ العباد وصية ربه بالسير على الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام / ١٥٣) ، وقال - عز وجل - مبيناً دعوة النبي للناس إلى توحيد الله - عز وجل - والاستقامة على منهجه ونصحهم وإرشادهم إلى ذلك : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت/٦). ومعنى قوله - سبحانه وتعالى - : " فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ " .. " أي : فاستووا إليه

(١) المجالسة وجواهر العلم لأحمد الدينوري المالكي: ٦ / ٢٨٣ .

(٢) الهدي النبوي في معالجة الانحراف الفكري ،لعبد الرحمن بن صالح الذيب ، و إبراهيم حامد أبو صعيليك ص : ٦ .

بالتوحيد وإخلاص العبادة غير – معوجين ولا – ذاهبين يميناً ولا شمالاً ولا ملتفتين إلى ما يسول لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ من الشرك " [1] .

والتوجيه والنصح والإرشاد للمنحرفين والضالين كانت مهمة القادة من الأنبياء – عليهم السلام – وقد صرح بهذه المهمة كثير منهم من ذلك قوله – سبحانه وتعالى – عن نبيه نوح – عليه السلام – : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٦١ ، ٦٢) ، وقال – عز وجل – عن قول نبي الله هود لقومه بعد اتهامهم له بالسفاهة : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (الأعراف : ٦٧ ، ٦٨) .

والقيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري عن طريق النصح والتوجيه والإرشاد والدعوة بالموعظة الحسنة ، فالقائد الناجح هو الذي يقدم النصح والإرشاد للمنحرفين فكرياً ممن هم تحت قيادته، سواء أكانت هذه القيادة خاصة أم عامة مباشرة، أو عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ويبين لهم الحق من الباطل وينذرهم بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة إن هم استمروا على ما هم عليه من انحراف فكري وضلال عقلي ، وليقتدي بأول ناصح وقائد لهذه الأمة وهو رسول الله وليقتدي – أيضاً – بالأنبياء السابقين الذي بذلوا قصارى جهدهم وكل ما في وسعهم في محاربة الانحرافات الفكرية والعقدية بالنصح والتوجيه والإرشاد قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ .. ﴾ (الأنعام/٩٠) ، فإن أبت الرعية إلا الانحراف والضلال فليلجأ إلى المحاسبة والردع بالعقوبة – كما سيأتي إن شاء الله – سبحانه وتعالى –

سابعاً : الحرص على تنمية مهارة التفكير العلمي :

" لقد حث الإسلام على التفكير وأعلى شأنه في كتاب الله وسنة نبيه ، وتحقيق الأمن الفكري بالتفكير السليم المبني على أسس علمية في كل ما يحدق بالنفس والمجتمع والأمة الإسلامية " [2]

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي : ٣ / ٢٢٦ .

(٢) المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب. المجلد ٣١. العدد (٦١)١١٧– ١٥٦ مقال بعنوان :إسهام الأسرة في تحقيق الأمن الفكري ، د. علي بن عبده أبوحميدي ص : ١٢٧ .

ومما حث عليه القرآن الكريم من أنواع التفكير : التفكير العلمي والذي يعني : "العملية الذهنيــة التي ينظم بهــا العقل خبرات ومعلومــات الإنسان من أجل اتخاذ قــرار معين إزاء مشكلــة أو موضــوع محدد" [(١)] ، والتفكـير العلمي السليم " يعصم صاحبــه - بتوفيق الله - مــن الانحراف والضلال، ويحميه من الوقوع في البــدع والمحدثات، و الشركيات والضلالات، ويحملــه على تعظيم الشعائر والحرمات، والتجــافي عن المنكرات والموبقات ، وهو نور يهدي إلى الحــق، وينــير الطريــق للسالكين ، وبه يُميَــز [الإنسان] بين الإيمــان والكفر والمصلحة والمفســدة والخــير والشر ، بل يعــرف خير الخيرين وشــر الشرين، وعلى قــدر علم الإنسان وفقهــه، وقــوة بصريته، وسعة أفقــه، ومعرفته بواقعه، يكون حكمه علــى الأحداث من حوله، وإدراكــه لكيفية التعامــل معها، ونظره إلى عواقبها ومآلاتها، ومتى يقدم ومتى يحجم ؟ ومن يعادي، ومن يسالم ؟ ولهذا أمرنا ربنا الرجوع إلى العلماء الربانين في الأمور التي تهم الأمة وتمســ مصالحها العامة فقال- سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُــوا بِــهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُــولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِيــنَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النسـاء/بب٨٣).."[(٢)] .

" ولقــد حث الله الإنسان على التفكير في الكــون ، والنظر في الظواهر الكونية المختلفة وتأمــل بديع صنعه ومحكــم نظامه ، كما حثه على تحصيل العلــم ومعرفة سنن الله وقوانينه في جميــع ميادين العلــوم المختلفة ، ونحن نجد هذه الدعــوة إلى الملاحظة والتفكير والبحث والتحصيــل العلمــي في أكـثر من موضع في القــرآن الكريم ،قــال - سبحانه وتعــالى - : ﴿ قُــلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْــقَ ﴾ (العنكبوت/٢٠) ، وقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُــلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَــاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (يونس :١٠١) : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَــاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِــنْ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف/١٨٥) ففي هــذه الآيات وأمثالها دعوة صريحة إلى النظر والملاحظة والتفكير والبحث العلمي ، ويتضح حرص القرآن الكريم علــى دعــوة النــاس إلى التفكير من ورود كثــير من الآيات التــي تتضمن مثل هــذه العبارات ﴿ أَفَــلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة/٧٦) ، ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام/٥٠) ، وقد بين القرآن أهمية

(١) مجلــة البيــان عــدد : ١٣١ — ص : ١١٤ مقال لعبــد الله بن عبــد الرحمن البريــدي بعنوان : التفكـير العلمي والإبداعي.

(٢) أثر العلم الشرعي في مواجهة العنف والعدوان إعداد د: عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان ص: ٨ ، ٩ .

التفكير في حياة الإنسان ، ورفع من قيمة الإنسان الذي يستخدم عقله وتفكيره، وقد حط من شأن من لا يستخدم عقله وتفكيره بأنه جعله أدنى درجة من الحيوان .قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال/٢٢) ..." [١] .

فمن خلال ما سبق ندرك أن القرآن الكريم أمر بالتفكير العلمي السليم ورفع من شأنه وأعلى من قدره وذم أولئك الذين عطلوا عقولهم وأفكارهم ، وذلك لأن التفكير العلمي الصحيح وسيلة من وسائل التمييز بين الحق و الباطل والضلالة من الهدى والطريق المستقيم من الطريق المائل المعوج، ووسيلة – أيضاً – من وسائل العلم والمعرفة واليقين وله دور كبير في تعميق الإيمان بالله – سبحانه وتعالى – في نفس العبد كما قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج/٥٤) ، والتفكير العلمي الصحيح وسيلة من وسائل معاجلة الانحرافات الفكرية والعقدية والوقاية منها، خاصة التي تتعلق بالإلحاد والردة عن الإسلام فإن هذا المنحرف إذا أمعن النظر في نفسه وما خلق الله في السموات والأرض لأيقن أن لهذا الكون خالقاً موجوداً ، وأنه قادر حكيم .

والقيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري من هذه الناحية وذلك بالحث على التفكير العلمي السليم وتذليل العقبات، وتوفير الوسائل اللازمة لذلك من مكتبات ووسائل إعلام تبث الحق وتدمغ الباطل وإلقاء دروس علمية مفيدة، وعقد ندوات ومحاضرات تؤدى مباشرة أو عن طريق وسائل الإعلام أو شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) ودورات تدريبية لتنمية هذه المهارة وتقرير مناهج دراسية مفيدة للطلاب في المدارس والجامعات، تعمل على تنمية الفكر ووقايته من الانحرافات بأنواعها .

ثامناً : الحرص على تنمية مهارة التفكير الناقد :

التفكير الناقد هو : " ذلك النوع من التفكير الذي يكشف خطأ معلومة ما ، أو تناقضها مع غيرها من خلال الأدلة والبراهين العقلية والنقلية " [٢]..

(١) انظر : الدماغ والتعلم والتفكير "ذوقان عبيدات" ، سهلية أبو السميد – ص : ٨٣ – ٨٥ ، منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم وتطبيقاتها التربوية في المؤسسات الجامعية المعاصرة لخليل عبد الله الحدري ص : ٩٨ – ١٠٩، ، بتلخيص .

(٢) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم وتطبيقاتها التربوية في المؤسسات الجامعية المعاصرة لخليل الحدري ص : ١٢٨ .

والقــرآن الكــريم شجع التفكـير الناقد ورفضـ " طريقتي التفكير السطحــي والسلبي ، ودعــا إلى التعمــق في النظــر والفكــر للوصــول إلى الحقيقــة دون التقليد الذي يــؤدي إلى إهمــال العقل وتغييب الفكر ، ووضــع المنهج الصحيح للنظر العقلي ، فهــو يبدأ أولا بتفريغ العقـل مــن كل المقررات السابقــة التي لم تقـم علــى يقين ؛ وإنما قامت علــى مجرد التقليد والظــن ، فينعــى المقلديــن الذين يقولــون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَــا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّــةٍ وَإِنَّا عَلَــى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الزخـرف/٢٢) ﴿ وَإِذَا قِيـلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَـلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة / ١٧٠) ..وينعي الذين يتبعون الظن ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (النجم/٢٨) ، ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّــنَّ وَمَــا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾ (النجم/٢٣) ، ثم هو يأمــر بالتثبت في كل أمر قبل الاعتقاد بــه واقتفائــه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْـمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُــؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (الإســراء/٣٦) ..." [١] ، "وقد اشتمل القــرآن الكريم على هذا النوع من التفكير في مواطــن متعــددة ، منها عند مجادلة المشركين في تفنيــد معتقداتهم ، أو تقرير تناقضهم ، أو تبيــين فســاد أحكامهم ، ففي بيان ضلال معتقدات المشركــين وبطلانها – كجانب واحد مــن جوانب حمل النــاس على العقيدة الصحيحة – جاءت الآيــات في كتاب الله أكثر من أن تحصــر وأشهر مــن أن تذكر ، تبين أن المشركين الذين يعبــدون مع الله غيره لا يملكون – في هذه القضية – مثقال ذرة من عقل ، لأنهم يساوون بين الخالق والمخلوق ، وبين السيد والعبد ، وبــين الــذي يملك كل شيء والــذي لا يملك مثقال ذرة ، إنهم يعبــدون آلهة عاجزة لا تسمع ولا تبصــر ولا تملــك موتاً ولا حياة ولا نشوراً " [٢] ولهذا قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُــوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُــوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَــهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِــذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج/٧٣) وقال – عــز وجـل – : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأعراف : ١٩٤) .

وحكــى – سبحانــه وتعالى – انتقاد إبراهيم – عليــه السلام – لما يعبده أبوه وقومه من أصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر وسفه أحلامهم في ذلك، وذم عقولهم وأفكارهم

(١) منهج التربية الإسلامية وأصوله وتطبيقاته لعلي أحمد مدكور ص : ٢٢٤ ، بتصرف يسير .

(٢) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم ، لخليل عبد الله الحدري ص : ١٢٩ .

لقبولهم هذه العبادة من دون الله فقال – عز وجل – : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (مريم :٤٢) ، وقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٦٦ ، ٦٧) ، وانتقد – سبحانه وتعالى – أحكام المشركين الجائرة في حقه – عز وجل – فقال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الأنعام/١٣٦) ، ففي هذه الآية " ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله جزءاً من خلقه، وهو خالق كل شيء ا عما يشركون؛ ولهذا قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾، أي: مما خلق وبرأ ﴿ مِنْ الْحَرْثِ ﴾، أي: من الزروع والثمار ﴿ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾، أي: جزءاً وقسماً "[١] ، حيث " كانوا يسمون لله جزءاً، ولشركائهم يعني لأوثانهم جزءاً، فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه، وقالوا: الله غني عن هذا، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله ردوه، وأما الأنعام فالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام "[٢] ، وانتقد – سبحانه وتعالى – أحكام مشركي العرب في التحليل والتحريم بغير علم فقال :﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس : ٥٩) .

" إن هذه الآيات وغيرها في كتاب الله ا واضحة في كونها تربي المسلم على التفكير الناقد الذي يربط بين الأحوال والأحكام والقضايا من خلال ذلك بحكم صحيح وموقف مهتد ، متفق مع الفطرة والعقل حين تكون القضايا شرعية بالحلال والحرام ، أو متفقة مع العقل حين تكون القضايا مادية يسوغ فيها الاجتهاد البشري المجرد "[٣] .

والقيادة الناجحة لكي تقي الرعية من الانحرافات الفكرية ،وتعالجها منه لابد وأن تعمل على تعليم المقودين هذا النوع من التفكير الناقد البناء ، وتدربهم عليه حتى لا يتقبل الفرد كل ما يعرض عليه أو يبث له من سموم قاتلة للفكر والقلب والعقل، وتتيح لهم الفرصة في

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣ / ٢٤٤ .

(٢) تفسير مجاهد بن جبر ، ص : ٣٢٨

(٣) منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم للحدري ص : ١٣١.

النقد البناء، المبني على أسس علمية صحيحة حتى ولو كان هذا النقد للقائد نفسه أو للناقد نفسه ، وتسعى إلى نشر هذا المفهوم في أوساط الرعية، ولا يحجر على آرائهم وأفكارهم إذا كانت موافقة للشرع، حتى تنمو هذه الملكة في نفوس المقودين، فيقوا أنفسهم من الانحراف الفكري، ويعالجوها منه إذا تسللت إليهم ، بإعادة النظر فيما تأثروا به من أفكار منحرفة أو آمنوا به من معتقدات باطلة ، ثم يجتنبون هذا الفكر ويبعدون عنه .

تاسعاً : تفعيل دور المسجد في معالجة الانحراف الفكري :

لا شك أن " بناء المساجد والعناية بها – وتفعيل دورها المنوط بها – من أسباب الوقاية من الانحراف الفكري – والعلاج منه – إذا أقيمت رسالة المسجد على الوجه المطلوب، فإن خطبة الجمعة، ودروس العلم في المسجد، والكلمات التي تلقى أدبار الصلوات لها أبلغ الأثر بإذن الله في حفظ المجتمع ووقايته من الفكر المنحرف، وكان المسجد في العهد النبوي مصدر الاعتقاد الصحيح والفكر السليم، وفي نفس الوقت قلعة التحصين تجاه الاعتقادات الباطلة والأفكار المنحرفة، ففيه تتلى آيات الله التي تبين زيف شبهات اليهود، وشكوك المنافقين ، ولا يزال المسجد المكان المناسب حقاً للتصدي للفكر المنحرف وكشف زيفه وإزهاق باطله لثقة المسلمين بعلمائهم وأئمتهم، ولذا كان واجباً على المسلمين، سيما أهل العلم والسلطة العناية برسالة المسجد، وتفعيل دوره بالدروس، والدورات، والكلمات والبرامج النافعة، باستمرار وتجديد " (١) .

لذا نجد القرآن الكريم قد اهتم بالمساجد و بعمارتها بالتشييد والبناء ، وبالعبادة والعلم ، وبينَّ أن عمَّارها هم المهتدون إلى الصراط المستقيم بعيداً عن أي فكر منحرف أو عقيدة ضالة فقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (التوبة/١٨) ، وذلك لما لها من دور كبير في ترسيخ العقيدة الصحيحة، ونشر العلم النافع ، وأثنى – سبحانه وتعالى – على عمارها بالعبادة فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (النور : ٣٦ ، ٣٧) ، ومدح

(١) حماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري للدكتور / عبد الله بن عبد العزيز الزايدي : ٧٧ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

- عز وجل - أهلها ووصفهم بالطهارة الحسية والمعنوية كالطهارة من الشرك وغيره فقال : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة/١٠٨) .

والمساجد ليست دوراً لأداء الصلاة فقط بل أيضاً هي مقر للعلم وتلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه وترسيخ العقيدة الصحيحة في القلوب، والقيادة الناجحة هي التي تفعل هذا الدور، بتشييد المساجد، وتعيين العلماء الأكفاء في هذه المساجد، وعمل برنامج عام لنشر الفكر المعتدل، والفقه الوسطي بعيداً على الغلو والتطرف، أو التفريط والتقصير وذل عن طريق أداء الخطب والدروس، وعقد المحاضرات والندوات والدورات التدريبية العلمية في المساجد، وعقد حلق لتحفيظ القرآن الكريم ومجالس علم لتفسيره ، وهذه مهمة القيادة العامة، أما القيادات الخاصة فلها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري والوقاية منه من هذه الناحية ، فمثلاً قائد الأسرة يحرص أن يرتاد أبناؤه المسجد ليتعلم ما ينفعه من أمور دينه فيحصن نفسه من الانحراف الفكري، ويعالج منه إن كان قد تسرب إليه شيء من هذا المرض بطريقة أو بأخرى ، وكذلك قادة المؤسسات والهيئات التعلمية والإدارية والصناعية والتجارية وغيرها لها دور كبير في تفعيل دور المسجد للعلاج من الانحراف الفكري عن طريق الاهتمام ببناء المساجد داخل كل مؤسسة من هذه المؤسسات؛ ليقيم فيها الرعية الصلوات ويتعلموا فيها أمور دينهم بعيداً عن الغلو والتطرف وسائر الانحرافات الفكرية .

هذا والمؤسسات التعليمية والمجتمعية الأخرى لا يقل دورها عن دور المسجد في الوقاية والعلاج من الانحراف الفكري خاصة التعليمية، فلو حرص القائمون عليها على تقرير مناهج دينية وتربوية تنمي الفكر المعتدل وتنشر العلم الشرعي الصحيح بالتوازي مع العلوم الأخرى التطبيقية، وليس تكثيف المقررات التطبيقية، وتقليل المقررات الشرعية وإضافة الأولى إلى المجموع الكلي للطالب وعدم إضافة مجموع الأخرى إليه كما يحدث في بعض الدول الإسلامية .

عاشراً : تفعيل دور العلماء الربانيين في معالجة الانحراف الفكري :

إن (للعلماء أثر كبير في مسيرة الأمة ونهضتها وتوجيه أفرادها - ومواجهة الانحرافات الفكرية - وقد جاءت نصوصٌ عدةٌ لتقرر هذا المعنى، ومن ثم كان الرجوع إلى العلماء الموثوقين من أهم الأمور التي يجب تقريرها والدعوة إليها، وقد جاء تقرير هذا المعنى في

قولـه - سبحانـه وتعالى - :﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣] قال قتادة في تفسير قولـه - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]: إلى علمائهم[١]، وقال مجاهد وعطاء رحمهما الله: " هم أهل الفقه والعلم "[٢]، و " هـذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرزاً من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته ،لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾، أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة ، وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولىَّ مَنْ هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيُقْدِم عليه الإنسان ؟ أم لا فيحجم عنه ؟ "[٣] .

" ولا يخفى أثر العلماء الموثقين في ترسيخ معالم الوسطية والدعوة إلى الاعتدال، بخلاف أهل البدع والانحراف الذين يريدون أنّ يخرقوا سفينة الأمة بأنواع من الأفكار المنحرفة غلواً أو تفريطاً؛ ولذا جاءت الأحاديث النبوية محذرة من تلك الدعوات المشبوهة والمرجعيات الضالّة، فعن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- ، قال: " خط لنا رسول الله خطاً ثم قال : " هذا سبيل الله "، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثم قال: " هذه

(١) تفسير القرآن العظيم ، لابن أبي حاتم : ٣ / ١٠١٥.

(٢) راجع تفسير الطبري : ٨ / ٥٠٠- ٥٠٢ .

(٣) تفسير السعدي ص : ١٩٠ .

سبل - قال يزيد [١] : متفرقة - على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه "، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] " [٢] ، وبه يتبيّن خطورة ترك الزمام لتلك المرجعيات المشبوهة التي تريد أن تُضل الأمة عن سبيل الحق والاعتدال، ومكمن الخطورة أنَّ هؤلاء يتشبهون بأهل العلم مما يلبس الأمور على الأغرار فلا يعرف الناصح من المضل، والصادق من الكاذب، والموثوق من المتهم، وأعظم ما يميز بين هذا وذاك هو نشر العلم الصحيح) [٣] .

فالقائد الناجح في حكمه أو المؤسسة التي يقودها هو من يُفَعِّل دور العلماء في معالجة هذا الداء العضال والمرض الخطير وهو الانحراف الفكري ، بإعطاء العالم فرصة في التقويم والاستقامة ومناقشة الأفكار الهدامة والقضاء عليها بالحجة والبرهان ، فغياب العالم أو الداعية في المجتمع وفي المؤسسات سبب كبير من أسباب الانحراف الفكري، فمن يسأل العامل أو الموظف في المؤسسة التي يعمل بها، ومن يزيل ما بداخله من حيرة وريبة سوى العالم الرباني، وإلا لوقع فريسة في أيدي دعاة الفتن والغلو والتطرف والفرق الضالة وفقهاء الإجرام والمذاهب الهدامة، فما المانع من وجود عالم جليل معتدل الفكر في كل مؤسسة يجيب عن أسئلة المقودين واستفساراتهم ويحاضرهم بين الحين والآخر يبين لهم أمور دينهم، حتى لا تتخطفهم أيادي أصحاب الأفكار الهدامة كالملحدين والعلمانيين وغيرهم ، من دعاة الأفكار المنحرفة .

حادي عشر : تحديد مصادر الانحراف الفكري وتجفيف منابعه :

" إن الكشف عن مصادر الفكر المنحرف ومحاولة تجفيف منابعه أحد الطرق الفعالة في القضاء على الانحراف الفكري خاصة ذلك الانحراف المتعلق بالدين ...ولابد من تعريف الشباب بالأفكار المضللة وأخطائها [ومصدرها] قبل وصولها إليهم منمقة مزخرفة فيتأثرون بها، وتحصين الشباب ضدها والوصول بهم إلى التحصين الذاتي. لأن الفكر

(١) هو يزيد بن هارون أحد رواة الحديث .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند : ٧ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، حديث رقم : ٤١٤٢ ، وقال المحقق (شعيب الأرنؤوط) : إسناده حسن .

(٣) الهدي النبوي في معالجة الانحراف الفكري ص : ١١ .

المنحـرف سريع العـدوى.." [١] ، و" إن من أخطر التحديـات التي تواجه الأمن الفكري في هذه المرحلة من تاريخ أمتنا ما يخطط له أعداء المسلمين من أجل احتواء المسلم وصرفه عن مفهوم الإسلام، ودفعه إلى مهاوي الخداع والإغراء، وإخراجه من أصول عقيدته ومفهومها الأصيـل الجامع المتميـز في العقيدة والثقافـة إلى الثقافات الوافـدة " [٢] ، فمصدر معظم تلك الانحرافات الفكرية، ونشر الفرقة والاختلاف بين المسلمين وتشويه عقيدتهم هم أعداء الإسـلام مـن المشركـين وأهل الكتاب المنحرفـين ، ليس هؤلاء فقط بـل – أيضاً – أصحاب الفـرق الضالة والمذاهب المنحرفة كالخوارج وغلاة الشيعـة الخارجين عن الدين وغيرهم ، وكتبهـم المليئة بالخرافات والترهات الباطلة ، و من مصادر الانحرافات الفكرية – أيضاً – علمـاء السوء من أصحاب الفكر المنحرف الذيـن يفتون الشباب بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطـان ، كتحليل دم المسلمين وقتالهم بحجة أنهم كفار ، وبعض أبناء الإسلام الذين تأثروا بأفـكار الأعـداء من غير المسلمين التي تخالـف تعاليم الإسلام ومبادئـه وسعوا على نشرها في المجتمعـات الإسلاميـة مثل العلمانيـة والعولمة الثقافية والحداثة، وغـير ذلك من الأفكار المنحرفـة ، وقد حـذر الله – سبحانه وتعالى – من اتباع هـؤلاء الضالين المضلين المنحرفين عـن الصـراط المستقيم، وبـين خطر اتباعهم والسـير على نهجهم فقـال – سبحانه وتعالى – :﴿ وَإِنْ تُطِـعْ أَكْـثَرَ مَـنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيـلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّـنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُـونَ ﴾ (الأنعـام/١١٦) ، ففي هذه الآية : " يقـول – سبحانه وتعالى – ، لنبيه محمد محـذراً لـه من طاعة أكثر الناس: ﴿ وَإِنْ تُطِـعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّـوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فـإن أكثرهم قـد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم، وعلومهـم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهـم، وعلومهم ليسـ فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق ، بـل غايتهم أنهم يتبعون الظـن، الـذي لا يغني من الحق شيئاً، ويتخرصون في القول علـى الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحرى أن يحذِّر الله منه عبادَه، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا –وإن كان خطاباً للنبي فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه " [٣]

---

(١) الانحراف الفكري دراسة وتحليل – طالب الخير .

(٢) المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب المجلد ٣١ العدد : ٦١ – الرياض : ١٤٣٦ – ٢٠١٤ م ، ص : ١٤١ ، مقال بعنوان : إسهام الأسرة في تحقيق الأمن الفكري رؤية تربوية إسلامية...د. علي بن عبده أبوحميدي .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص : ٢٧٠ .

وحـذر - سبحانه وتعـالى - من طاعة أهل الكتاب واتبـاع عقائدهم الباطلة وأفكارهم المنحرفـة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُـمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَـى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١) .

والقيـادة الناجحـة لكي تقي رعيتها من هذا المرض العضـال وهو مرض الانحراف الفكري، وتعالجهم منه لابد وأن تحدد المصادر أولاً وتقف عليها، ثم تبين لرعيتها خطر هذه المصادر و ما يسعى إليه أعداء الإسلام من إضلال وإفساد وتشويه ، وأنهم لا يريدون الخير أبـداً للمسلمين ولن يرضـوا عنهم إلا إذا صاروا ضالين منحرفين مثلهم كما أخبر الحق ا في قولـه : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْـكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُـلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ (البقرة / ١٢٠) ، وقـد بـين ا ما يريده أعداء الإسلام للمسلمين، وما يدبرون ويسعون إليه وهو الصد عـن الإسـلام والانحراف عن الحق فقال : ﴿ الَّذِيـنَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيـلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُـمْ بِالآخِرَةِ كَافِـرُونَ ﴾ (الأعراف/٤٥) ، " أي يريدونها ملحفـين في ذلك أن تكون معوجة بـأن يلين معهم في عبادة الأوثان وتحريم ما أحل اللَّهُ ويرضى بما يرضون، أو يريدون ويبغون أن يكـون أتباعـه معوجين منحرفـين عن الحق وأن يرتـدوا عن دينهم الـذي ارتضوا " [٤] ، وتعمل أيضاً القيادة الناجحة على تجفيف منابع الانحراف الفكري بالتصدي المباشر لهؤلاء الضالين الذين يسعون إلى نشر أفكارهم الضالة وبث سمومهم القاتلة والحيلولة بينهم وبين تنفيذ مخططهم الخبيث هذا ، و بمصادرة الكتب والصحف والمجلات التي تحوي في بطونها الأفكار المنحرفة ، وكل ما من شأنه أن يتسبب في إثارة الشبهات والشهوات بين المسلمين .

ثاني عشر: الحوار الهادف وإقامة الحجة على أصحاب العقول الضالة والأفكار المنحرفة :

" مـن طـرق معالجـة التطـرف والغلو و [غيرهمـا مـن] الانحرافـات الفكرية فسح المجـال للرأي الآخر، وقبول الحوار معه بل الدعوة إلى هذا لحوار، واستخدام سلاح الحجة والبرهان والإقناع، سواء كان هذا الآخر مغايراً في السياسة أم في الفكر أم في الدين " [٥] إذ أن الحوار" وسيلة يتوصل بها إلى مقصد عظيم متمثل بتحقيق فوائد ثلاث :

(٤) زهرة التفاسير ،محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (ت :١٣٩٤هـ) : ٧ / ٣٦٩١ .

(٥) الانحراف الفكري دراسة وتحليل – طالب الخير .

الأولى : كشف شبهات المنحرفين التي أوقعتهم في الانحراف. **الثانية :** إظهار عوار المنحرفين للناس ، حتى لا يصغوا إليهم أسماعهم ، فيشاركوهم في الانحراف ، **الثالثة :** إرجاع من انحرف إلى جادة الحق والصواب "[1] .

ولقيمة الحوار والمجادلة في مواجهة الانحرافات الفكرية أمر القرآن الكريم بمحاورة المنحرفين فكرياً من المشركين ومجادلتهم بالتي هي أحسن فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل /١٢٥ فقد " ذكر - سبحانه وتعالى - في هذه الآية مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو فإنه إما أن يكون طالباً للحق راغباً فيه محباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه فهذا يدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق ولكن لو عرفه وآثره واتبعه فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن فلمناظرة المبطل فائدتان :

أحدهما : أن يرد عن باطله ويرجع إلى الحق ، الثانية: أن ينكف شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهماً فيه، وحججه ... وأقرب شيء تناولاً وأوضح دلالة وأقوى برهانا وأبعد من كل شبهة وتشكيك."[2]. ، وقد بين ا في آية أخرى طريقة محاورة المنحرفين من أهل الكتاب ومجادلتهم فقال : ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ (العنكبوت/٤٦) .

والقيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحرافات الفكرية، والضلالات العقدية بالحوار الهادف، والجدال بالتي هي أحسن ،كما أمر الله ا، فالقائد الناجح هو الذي يقضي على هذه الانحرافات الفكرية، والأفكار الضالة والعقائد الفاسدة ، ويعاجلها قبل أن تشيع في المجتمع الذي يقوده ،أو في أسرته التي تحت قيادته، أو في المؤسسة التي يقودها بالحوار

---

(١) الأمن الفكري في ضوء السنة النبوية لعبد الرحمن بن معلا اللويحق ص : ٩٥٠ .

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة ، لابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) : ٤ / ١٢٧٦ .

والمناقشة مع هؤلاء المرضى فكرياً، وإبطال أفكارهم المنحرفة واعتقاداتهم الباطلة، والعمل على تثبيت العقيدة الصحيحة في النفوس وإزالة الانحرافات الفكرية من العقول والعقائد الفاسدة من القلوب بالحجج والأدلة والبراهين .

ثالث عشر : التحذير من حضور المجالس الحاضنة للانحراف الفكري :

المقصود بالمجالس الحاضنة للانحراف الفكري هي كل مجلس للمنحرفين ، سواء أكان مجلس علم مباشر، أو عن طريق وسائل الإعلام من الإذاعة، أو التلفاز، أو المسارح، أو الصحف والمجلات، أو شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) - خاصة مواقع التواصل الاجتماعي - التي يبث فيها المنحرفون سمومهم من إلحاد وردة وعبادة غير الله وتأويلات باطلة للقرآن والسنة، وتشكييك فيهما، والدعوة إلى مذاهب وأفكار معاصرة مخالفة للقرآن والسنة، مثل الحداثة والعولمة الفكرية والعلمانية والكهانة والسحر والتنجيم وادعاء علم الغيب، وغير ذلك من الانحرافات الباطلة ، ولما لهذه المجالس من أثر خطير على العقل والفكر والعقيدة نهى القرآن الكريم عن الجلوس في هذه المجالس، والاستماع لأصاحبها فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء/ ١٤٠) ، " ففي هذه الآية دليل قوي على وجوب تجنب أهل البدع وأهل المعاصي، وأن لا يجالسوا " [(١)] ، وفيها – أيضاً " دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية، كما يقع كثيراً من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة، ولم يبق في أيديهم سوى: قال إمام مذهبنا كذا، وقال فلان من أتباعه:كذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه .... بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيه الفائل [(٢)] ، واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل، مقدماً على الله وعلى كتابه وعلى رسوله، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المقلدة إليهم برآء من فعلهم، فإنهم قد صرحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم " [(٣)] ، " والذي أحيل عليه في

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي : ٢ / ١٢٥ .

(٢) أي : فاسِدُ الرأي وضَعيفه ، انظر تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي : ١ / ٩٣ .

(٣) انظر فتح القدير : ١ / ٦٠٧ .

هـذه الآيـة من النهـي في ذلك، هو قوله ا في سـورة الأنعام، وهي مكيـة : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُـونَ فِي آيَاتِنَـا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام/٦٨) ..." [١] ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما : " قوله - سبحانه وتعـالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُـونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ دخل فيها كل مُحـدث في الديـن وكل مبتـدع إلى يوم القيامة " [٢]، " وفي هـذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمـح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردون ذلـك إلى أهوائهـم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه، فأقل الأحـوال أن يـترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير، وقـد يجعلون حضوره معهم مع تنزهـه عما يتلبسون بـه شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر"[٣].

وللقيـادة الناجحة دور كبير في مواجهة الانحـراف الفكري ومعالجته من هذه الناحية، وذلك بالتحذير من مجالسة أهل الانحرافات الفكرية أو الاستماع لهم ومراقبة ذلك ومتابعته ومعاقبـة مـن يفعل ذلك ، و غلق القنوات و البرامج التي تبث هـذه الأفكار الضالة المضلة في وسائـل الإعلام وغيرها، واستبدالهـا ببرامج أخرى مفيدة تنشر الأفـكار المعتدلة والعقيدة الصحيحـة بعيداً عن الغلو والتطرف والابتداع في الدين ، هـذا بالنسبة للقيادة العامة ، أما القيادات الأخرى فدورها لا يقل أهمية عن دور القيادة العامة في التحذير من مجالسة أهل الفسق والابتداع والانحراف .

رابع عشر : التحذير من آثار الانحراف الفكري وعواقبه :

إن للانحـراف الفكري آثار خطـيرة، وعواقب وخيمة في الدنيا والآخرة لابد وأن يتعرف عليها المنحرف فكرياً لعله يرجع إلى صوابه، من هذه الآثار والعواقب :

١- استحقاق العقوبة في الآخرة ، والحيرة والضلال في الدنيا لأنه معصية لله - سبحانه وتعالى - ، ولرسوله وتعدي لحدود الله قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢ / ٤٣٥ .

(٢) التفسير البسيط للواحدي (المتوفى: ٤٦٨هـ) : ٧ / ١٥٥ .

(٣) راجع فتح القدير للشوكاني : ٢ / ١٤٦ .

وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (النساء/١٤)، وقال - سبحانه وتعالى - :﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (الأحزاب / ٣٦) .

٢- أن بعض صوره تحيل بينها وبين أصحابها من دخول الجنة، وتؤدي إلى حبوط العمل وعدم غفران الذنوب ، مثل الشرك والإلحاد والردة عن الإسلام، وقد قال - سبحانه وتعالى - :﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة/٧٢)، وقال - سبحانه وتعالى - :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء/١١٦)، وقال - عز وجل - :﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة/٢١٧).

٣- بغض الله للعبد وعدم حبه له لأنه تعدي على شرائع الله من أوامر ونواهي، خاصة الانحراف الذي يصل بصاحبه إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال قال - سبحانه وتعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (المائدة / ٨٧).

٤- أنه طريق إلى الهلاك والضياع؛ لأنه إيثار لهوى النفس على طاعة الله - عز وجل - لذا قال - سبحانه وتعالى - :﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ (طه/١٦)، (أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أي: تهلك وتعطب)[1]، وقال - سبحانه وتعالى - :﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف/٢٨)، (قال: مجاهد: ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أي ضياعاً. وقيل معناه: ندامة. وقيل هلاكاً. وقال: ابن زيد معناه: مخالفة للحق، وهو من قولهم أفرط فلان في كذا، إذا أسرف فيه وجاوز قدره فيكون معناه وكان أمره سرفاً في كفره وافتخاره وتكبره"[2] .

٥- تعجيل العقوبة في الدنيا؛ لأنه إعراض عن كتاب الله - سبحانه وتعالى - وسنة

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٥ / ٢٧٨ .

(٢) تفسير القرآن للسمعاني : ٦ / ٤٣٦٧ .

رسولـه وعـدم الاعتصام بهما، وقد توعد الله من يعرض عـن كتابه بضيق العيش في الدنيا والعذاب الأكبر في الآخرة فقال- سبحانه وتعالى - : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] .وغير ذلك من الآثار والعواقب .

والقيادة الناجحة هي التي تنذر المنحرفين من رعاياها بهذه الآثار والعواقب الخطيرة، حتى يعودوا إلى صوابهم ويعدلوا عن انحرافهم، ويستوى فكرهم ويشفوا من مرضهم ويتبعوا الصراط المستقيم فيسعدوا في الدنيا والآخرة .

خامس عشر : توفيرفرص عمل للرعية خاصة للشباب :

إن البطالـة وعـدم وجـود فرص عمـل للرعية، خاصـة الشباب منهـم سبب خطير من أسبـاب الانحـراف الفكري، إذ أن الفراغ وعدم العمل يجعـل بعض الشباب يسعون إلى شغل فراغهم بأي شيء والحصول على المال بأي وسيلة ولو كانت غير مشروعة ، ويصبحون عرضة للاستقطـاب مـن أعداء الاسلام وأصحـاب المذاهب والآراء المنحرفة، عـن طريق إغرائهم بالمـال وتجنيدهم لقتال المسلمين بحجة أنهم كفـار يجب جهادهم ، والتأثر بأي فتوى تصدر عن علماء السوء وفقهاء الإجرام، وذلك لما للعمل من قيمة كبيرة في سد الفراغ لدى الإنسان، لـذا نجد القرآن الكريم قد حث العباد علـى العمل وأمرهم بالسعي في الأرض لطلب الكسب والأكل مـن رزق الله - عـز وجل - وما عملته أيديهم فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك /١٥) ، وقال - عـز وجل - : ﴿وَجَعَلْنَـا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِـنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَـرِهِ وَمَـا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ (يـس : ٣٤ ، ٣٥). ومعنى " وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ " أي : " وليأكلـوا مما عملته أيديهم مما يحرثـون ويزرعون ويغرسون " [(١)] ، وحث القرآن الكريم علـى الإنفـاق والأكل من طيب الكسب والعمـل فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُـمْ مِنْ الأَرْضِ﴾ (البقرة/٢٦٧) ، يعني (زكوا من طيّب مـا كسبتم بتصرفكم إما بتجارة، وإما بصناعة من الذهب والفضة ، ويعني بـ"الطيبات" : الجياد، أي: زكوا أموالكم التي اكتسبتموها حلالاً وأعطوا في زكاتكم الذهبَ والفضة، الجيادَ منها دون الرديء " [(٢)] ، وقد بين رسول الله فضل أكل الإنسان من عمل يده فقا ل : "ما أكل

(١) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (المتوفى: ٤٨٩هـ) : ٤ / ٣٧٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٥ / ٥٥٥ .

أحـد طعامـاً قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبـي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده" "[1]

وهذا كله يدل على قيمة العمل، وأهميته في تحصيل الرزق وفي القضاء على وقت الفراغ لدى الناس خاصة الشباب منهم ، والقيادة الناجحة هي التي تعمل على القضاء على البطالة بتوفـير فرص عمل للشباب، بعـد إنشاء المصانع والمتاجر والمزارع ودور العلم، وغير ذلك من المؤسسـات الخدمية والانتاجية والإداريـة والتعليمية؛ حتى تسطيـع أن تقضي على البطالة، وبالتـالي تحصن رعيتها من الوقوع في الانحراف الفكري وتعالج من تسرب إليه هذا المرض ، لأنـه إذا قضى على أهم سبب من أسباب الانحـراف الفكري وهو البطالة، فلا يجد أعداء الإسـلام إلى الشبـاب سبيلاً؛ لأنهم لن يجدوا شباباً فارغاً عرضة للتأثر بالأفكار المنحرفة ، وتقل الهجرة إلى بلاد غير المسلمين للعمل فتقل نسبة الاستقطاب وإفساد العقول .

سادس عشر : المراقبة الواعية والمحاسبة الرادعة :

إن مراقبـة المنحرفـين فكريـاً ومتابعـة وسائلهم لهـا دور كبير في معالجة مـا هم عليه مـن انحـراف وفساد وضلال والوقاية من ذلك كله ، لأنـه إذا علم المنحرف أنه مراقب، وأن تصرفاته محسوبة وتحركاته مرصودة، فإنه قد يرجع عن انحرافه ولا يتفاقم حتى يصل إلى القتل والإرهاب، أو إفساد الغير وإضلاله ، ولا يقتصر الأمر على المراقبة فحسب، بل لابد من النصح والإرشاد لهؤلاء الضالين المنحرفين؛ لتقويم فكرهم وتصحيح عقيدتهم، ثم تأتي بعد ذلـك مرحلة المحاسبة وذلك " إذا استنفذت كل الوسائل في تعديل الأفكار المنحرفة للأفراد أو الجماعـات، فإنـه لابد مـن تطبيق القانون العادل علـى العـابثـين في الأمـن والمنتهكين لحقـوق المجتمـع والدولة، وذلك امتثـالاً لقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ مَنۡ يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ (النساء /١٢٣) .. ، والتطبيق العادل والحازم يكون بعد التحري والتثبت حتى لا يؤخـذ البريء بجرم المذنب ولا تهـدر حقوق أو أموال أو ممتلكات أو دماء بسبب وشاية ظالمة أو بلاغ كيدي مكذوب ، والحزم والقوة يجب أن لا تعني سوء المعاملة للمواطن العادي، واتخاذ الوضع الراهن ذريعة لإزعاج المواطنين " [2] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب البيوع – باب كسب الرجل وعمله بيده : ٣ / ٥٧ ، حديث رقم : ٢٠٧٢ .

(٢) الأمن الفكري في ضوء السنة النبوية لعبد الرحمن بن معلا اللويحق ص : ٩٧٨ .

وتأمل تطبيق النبي الملك القائد الحكيم سليمان لمبدأ المراقبة والمحاسبة في مملكته، حيث تفقد الطير وتتبع أحواله وبحث عنه فلم يجد فرداً من أفراده وهو الهدهد، فظن أنه قد خرج عن طوعه وانحرف عن طاعته فتوعده بالعذاب ما لم يفصح عن سبب غيابه ويقيم الحجة على ذلك وهذا ما حكاه الله - سبحانه وتعالى - في قوله : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (النمل/٢٠) ،هذه مراقبة ، ثم قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ (النمل/٢١) هذا تخطيط للمحاسبة ، و" في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك ، ثم قال : فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان " (١)، وقد دلت الآية أيضاً على : " أن سليمان- عليه السلام- كان بجانب تعهده لشئون رعيته، يمثل الحاكم الحازم العادل، الذي يحاسب المهمل، ويتوعد المقصر، ويعاقب من يستحق العقاب، وفي الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذراً مشروعًا ومقنعًا ، انظر إليه وهو يقول- كما حكى القرآن عنه- عند ما تفقد الهدهد فلم يجده: " لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ " .." (٢)

و المراقبة " والموعظة والتحذير لا يجديان — أحياناً - في بعض الجبلات المطبوعة على الشر ، وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس ، كان لابد له من آلية تقوم على استئصال شأفة الفساد وتوقيع العقوبة والنكال على كل مستحقة " لذا قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة : ٣٢ ، ٣٣) ، و" قد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك، وقيل: قطع الطريق ، وظاهر النظم القرآني أنه ما يصدق عليه أنه فساد

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ١٧٨ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، لمحمد سيد طنطاوي : ١٠ / ٣٣٢ .

في الأرض، فالشرك فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء، وهتك الحُرَم، ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض، وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض، وهكذا الفساد الذي سيأتي في قوله: " وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا " [المائدة : ٣٣]

يصدق على هذه الأنواع "[١].

و"دلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفًا مكافئًا، ليس بوالد للمقتول ، وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل ، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم "[٢] ، وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إنمَّا جَزَاءُ الَّذينَ يُحَارِبُونَ اللّهَّ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْض فَسَادًا ... ﴾ (المائدة : ٣٣) " بيان من الله – عز ذكره – عن حكم " الفساد في الأرض"، الذي ذكره في قوله : " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ " أعلم عباده : ما الذي يستحق المفسدُ في الأرض من العقوبة والنكال، فقال – سبحانه وتعالى – : لا جزاء له في الدنيا إلا القتلُ، والصلب، وقطعُ اليد والرِّجل من خلاف، أو النفي من الأرضِ، خزيًا لهم. وأما في الآخرة إن لم يتبْ في الدنيا، فعذاب عظيم "[٣] .

ومحاسبة المنحرفين فكرياً وردعهم وتقويمهم تكون على حسب الجُرم الذي يرتكبونه ، فيقاتلوا إن نصبوا هم للقتال وتجهزوا له وعاثوا في الأرض فساداً مثل العلويين الذين شنوا الحرب على أهل السنة في سوريا ، والصفويين الذين يُقتِّلون في أهل السنة في العراق ، والحوثيين الذين طغوا وبغوا في اليمن وغيرهم ، والأصل في هذا قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهَّ الَّذينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللّهَّ لاَ يُحبُّ الْمُعْتَدينَ﴾ (البقرة/١٩٠) ، ويطبق عليهم القصاص إن وصل بهم انحرافهم إلى القتل ، والأصل في هذا قوله – سبحانه

(١) (١) فتح القدير للشوكاني : ٢ / ٣٩ .
(٢) (٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص: ٢٢٩ .
(٣) تفسير الطبري : ١٠ / ٢٤٣ .

وتعـالى - :﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَـى بِالأُنْثَى .. ﴾ (البقـرة/١٧٨) ، و تطبق الحدود على المنحرفين فيما عقوبته الحد من الفساد والانحراف ، كحد الردة وهو القتل إن لم يتب المرتد والأصل في هذا : قول رسول الله : " لا يحـل دم امـرئ مسلم، يشهد أن لا إلــه إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة " [١] ، وقد " أجمع أهل العلم على وجوب قتل المرتد " [٢] .

ويطبق عليهم عقوبة التعزير وهو " تأديب دون الحد على معصية لا حد فيها ولا كفارة مـن العـزر وهو الزجـر والمنع " [٣] ، وهـو " عقاب غير مقـدر الجنس ولا الصفـة ولا القدر والمرجـع فيه إلى اجتهاد الوالي " [٤] وهـو " أجناس، فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ، ومنــه ما يكـون بالحبس، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطـن.... ومنه ما يكون بالضرب دون أقل الحدود..... والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والـزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحشـ والداعي إلى البدع المخالفة للكتـاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع " [٥] ، ومن الانحرافات الفكرية – أيضاً – التي تستحق عقوبة التعزيـر : الخوض في متشابه القرآن وهو من صفات أهل الزيغ والضلال كما قال – سبحانه وتعـالى - : ﴿ فَأَمَّـا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْــهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (آل عمران/٧) ، فقد ضرب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – صبيغ بن عسل العراقي تعزيراً حتى وقعت عمامته ، بسبب سؤاله عن تأويل القرآن وفي رواية عن متشابه القرآن [٦] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الديات ، باب قول الله ﷻ: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ....﴾ (المائدة/٤٥) : ٩ / ٥ حديث : ٦٨٧٨ ، صحيح مسلم ، كتاب باب القسامة – باب ما يباح به دم المسلم : ٣ / ١٣٠٢ حديث رقم : ١٦٧٦ ،

(٢) ((المغني لابن قدامة المقدسي : ٩ / ٣ .

(٣) الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لابن تيمية ص : ٥٧٨ ، ، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي القاهري ، ص : ١٠١ ، التعريفات للجرجاني ، ص : ٦٢ .

(٤) مجموع الفتاوى ، لأحمد بن تيمية : ٢٠ / ٥٦٥ .

(٥) المرجع السابق : ٢٨ / ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٠٥ .

(٦) راجـع القصـة في : سلسلة الآثـار الصحيحة أو الصحيح المسند مـن أقوال الصحابة والتابعـين ، للداني : ٢ / ١٩٦ – ١٩٨ .

ولا شك أن القيادة الناجحة لها دور كبير في معالجة الانحراف الفكري من هذه الناحية ، فمثلاً قائد الأسرة يتابع أسرته ويراقبهم ليعرف مخرجهم ومدخلهم وتصرفاتهم وأصدقاءهم، وأين يقضون أوقات فراغهم، وماذا يقرأون، وماذا يسمعون ويشاهدون من وسائل الإعلام ، و أي الصفحات والقنوات يتابعون على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) ، فإن وجد انحرافاً فكرياً منهم قوَّمه وعدله بالنصح والإرشاد أو بالضرب والتعزير ، وكذا قادة المؤسسات التعليمة والإدارية والإنتاجية وغيرها لابد وأن يتابعوا من هم تحت قادتهم؛ حتى لا ينحرفوا عن الصراط المستقيم ويقدموا لهم النصح والموعظة والإرشاد، ثم المحاسبة في حدود سلطتهم ، أما القادة من الحكام وولاة الأمور فلهم الدور الأكبر في ذلك، خاصة في عقاب المنحرفين ومحاسبتهم بعد المراقبة وتقديم النصح والإرشاد لهم، لأن من سلطتهم تطبيق القصاص والحدود والتعزير ، فلا يتقاعسوا عن دورهم المهم في هذا حتى لا يتفشى مرض الانحراف الفكري في بلادهم، وحتى لا يسألوا عن ضياع رعيتهم يوم القيامة، فلابد لهم من مراقبة المنحرفين ومتابعتهم، ومراقبة وسائلهم في ذلك من كتب ومصادر تنشر تلك الانحرافات الفكرية ووسائل إعلامية وشبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، ومتابعة ذلك كله ومعاقبة من يصر على انحرافه وضلاله بتطبيق حد أو تعزير أو قصاص أو قتال إن وصل الأمر إلى ذلك ، ومصادرة كتبهم أو تحريقها وغلق قنواتهم وصفحاتهم على شبكة المعلومات الدولية إن أمكن ذلك .

الخاتمة

الحمـد لله الهادي إلى سبيله القويم ، الداعي إلى الاعتصام بكتابه الكريم ، وسنة نبيه العظيـم عليـه أفضل الصـلاة وأتم التسليم ، وأشهد ألا لا إلـه إلا الله وحده لا شريك القائل في محكـم كتابه : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُـدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾ (آل عمران/١٠١) ، وأشهـد أن محمـداً عبده ورسله الداعي إلى الطريق القويم فاللهـم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه الغر الميامين .

أمـا بعـد : فهذا بحثي قد سطرته بيدي وبذلت فيه قصـارى جهدي فإن كنت قد أصبت فهـذا من توفيق الله ربي، وإن كنت قد أخطأت فمن الشيطان ونفسي ، وحسبي أني اجتهدت قـدر استطاعتـي ، والله أسـأل أن يجعـل هذا العمل خالصـاً لوجه ربـي ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وميزان حسنات والِديَّ رحمهما الله رحمة واسعة وأسكنهما فسيح جناته

هـذا وقـد تكشفت لي كثير مـن النتائج من خـلال كتابتي لهذا البحـث ، ولي كثير من التوصيات، أهمها ما يأتي :

أولاً : أهم نتائج البحث :

لقد توصلت إلى من خلال الدراسة في هذا البحث إلى أن :

١. ظاهـرة الانحـراف الفكري ظاهرة خطـيرة تودي أحيانـاً إلى التكفـير والإرهاب والابتداع في الدين، لابد من التصدي لها

٢. القيـادة الناجحة لها دور كبير ، ومهـم في الوقاية من الانحراف الفكري والقضاء عليه لابد من تفعيله .

٣. ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، والائتمار بما فيهما من أوامر، والانتهاء عما ورد فيهما من نواهي لأنهما سبيل الوقاية من الانحراف الفكري والعلاج منه .

٤. إذا ساد الحكم بما أنزل الله في كتابه في جميع شئون الحياة، قلَّ الانحراف الفكري

و سهل العلاج منه إذا وقع.

٥. كثيراً من سائل الإعلام المختلفة سبب من أسباب الانحراف الفكري، وسيلة من وسائله لابد من مراقبتها وتقويمها ، أو إغلاقها ، أو تغيير نشاطها إلى نشر الفكر المعتدل، والفهم الصحيح لعلوم الدين ، بعيداً عن الغلو والتطرف .

٦. المصدر الرئيس للانحراف الفكري هم أعداء الإسلام : سواء أكانوا من غير المسلمين أم من المنسوبين إلى الإسلام – وهو منهم براء - من أصحاب الفرق الضالة والمذاهب المنحرف كالخوارج وغلاة الشيعة والمبتدعين وغيرهم ، يجب على القادة أخذ الحذر منهم والتصدي لهم بكل قوة .

٧. المنحرف الفاسد الذي وصل به انحرافه إلى الإلحاد، أو الردة، أو القتل ولا يرجى شفاؤه يجب على ولي الأمر بتره تماماً كالعضو الفاسد في الجسد إذا فُقد الأمل في علاجه فإن الطبيب يقطعه .

٨. الحسبة لها دور كبير في القضاء على الانحرافات الفكرية والوقاية منه سواء أكان بالحوار والتوجيه والإرشاد والجدال بالتي هي أحسن ، أو بتقديم المنحرف للمحاكمة، لابد من تفعيل هذا الدور .

ثانياً أهم التوصيات :

١. عقد مزيد المؤتمرات التي تهتم بالانحراف الفكري ومظاهره وأسبابه وسبل علاجه.

٢. فتح قنوات فضائية إسلامية تهتم بمحاربة الانحراف الفكري، وتفنيد الشبهات العالقة بعقول المنحرفين .

إعداد الأبحاث التي تهتم بمكافحة الانحرافات الفكرية ونشرها على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، ليستفيد منها المنحرفون وغيرهم .

المراجـع والمصـادر

١. أثر حفظ القرآن الكريم في تنمية مهارات التفكير الناقد ، سنة الطبع : ٤٢٨ هـ – ٢٠٠٨ م .

٢. أثـر العلم الشرعي في مواجهة العنف والعـدوان إعداد د: عبد العزيز بن فوزان بن صالح الفوزان ،متاح على هذا الرابط .

https://www.islamhouse.com/ar/books/116862

٣. الاستـذكار ، يوسف بن عبـد الله بن عبد البر القرطبي (ت : ٤٦٣هـ) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .

٤. استراتيجيـة تعزيز الأمـن الفكري، متعب بن شديد الهماش بحـث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري ٢٥ جماد الأول ١٤٣٠ ، ٢٢ جامعة الملك سعود .

٥. إسهام الأسرة في تحقيق الأمن الفكري رؤية تربوية إسلامية، د / علي بن عبده أبوحميدي، بحـث منشور في المجلـة العربية للدراسات الأمنية والتدريب ، المجلـد ٣١ ، العدد (٦١) – الرياض ٢٠١٤م – ١٤٣٦هـ .

٦. الأمن الفكري في ضوء السنة النبوية لعبد الرحمن بن معلا اللويحق الطبعة الأولى : ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م

٧. الانحراف الفكري دراسة وتحليل – طالب الخير - متاح على هذا الرابط

http://www.assakina.com/studies/5304.html#ixzz43YOSNhEc.

٨. الانحـراف الفكري مفهومـه –أسبابه– علاجه في ضوء الكتاب والسنة ، طه عابدين طه ، الناشر معهد إحياء التراث، .

٩. الانحراف الفكري وأثره في الأمن في ضوء القرآن الكريم ، عبد الحميد السحيباني - مجلة وزراة العدل العدد ٤١ لسنة ١٤٣٠ هـ

١٠. البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت :٧٤٥هـ) : ٣ / ٢٨٦ ، الناشر: دار الفكر – بيروت

١١. بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو ، مجموعة من العلماء ، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف –

١٢. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، ، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، الناشر: دار الهداية .

١٣. التخطيط الاستراتيجى لتحقيق الأمن الفكرى بالمملكة العربية السعودية ، سعيد القليطى – المؤتمر الوطني للأمن الفكري ١٤٣٠ ه

١٤. التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت :٨١٦هـ) ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان

١٥. التفسير البسيط ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري (ت :٤٦٨هـ) ، الناشر: عمادة البحث العلمي

١٦. تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء الدمشقي (ت :٧٧٤هـ) ،الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع .

١٧. تفسير القرآن العظيم ، لعبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم (ت :٣٢٧هـ) الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز .

١٨. تفسير القرآن ، منصور بن محمد المظفر السمعاني (ت :٤٨٩هـ) ، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية .

١٩. تفسير مجاهد ، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي (ت :١٠٤هـ) الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر .

٢٠. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، وهبة مصطفى الزحيلي ، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق .

٢١. التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، مجموعة من العلماء ، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

٢٢. التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– القاهرة .

٢٣. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي القاهري (ت :١٠٣١هـ) ، الناشر: عالم الكتب – القاهرة

٢٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت :١٣٧٦هـ) ، الناشر: مؤسسة الرسالة .

٢٥. جامع البيان في تأويل القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الناشر: مؤسسة الرسالة .

٢٦. الجامع لأحكام القرآن ،أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت :٦٧١هـ) ، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة .

٢٧. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه ، محمد بن إسماعيل البخاري ، ، الناشر: دار طوق النجاة .

٢٨. الحسبة ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي (ت :٧٢٨ هـ) ، تحقيق علي بن نايف الشحود .

٢٩. حماية المجتمع المسلم من الانحراف الفكري للدكتور / عبد الله بن عبد العزيز الزايدي : بحث منشور بمجلة البحوث الإسلامية - تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

٣٠. الدماغ والتعلم والتفكير "ذوقان عبيدات" ، سهلية أبو السميد – الناشر مركز ديبونو لتعليم التفكير – الأردن .

٣١. دور أعضاء هيئة التدريس في تعزيز الأمن الفكري لدى طلاب جامعة حائل ، د / مسلم الشمري ، و د/ : محمود خالد الجردات ، بحث منشور في المجلة العربية للدراسات الأمنية والتدريب تصدرها جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، المجلد٢٧ العدد ٥٧

٣٢. ديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون الإشبيلي (ت :٨٠٨هـ) ، الناشر: دار الفكر، بيروت .

٣٣. الرتبة في طلب الحسبة ، علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠ هـ) ، الناشر : دار الرسالة – القاهرة .

٣٤. زهــرة التفاســير ،محمــد بن أحمد بــن مصطفى المعــروف بأبي زهــرة (ت :١٣٩٤هـ) : ، الناشر: دار الفكر العربي .

٣٥. سبــل الهدى والرشاد، في ســيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوتــه وأفعاله وأحواله في المبــدأ والمعاد ، محمد بن يوسف الصالحــي (ت : ٩٤٢هـ) ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

٣٦. سلسلــة الآثار الصحيحــة ، أو الصحيح المسند من أقوال الصحابــة والتابعين ، الداني بن منير آل زهوي ، الناشر: دار الفاروق .

٣٧. الصــارم المسلــول على شاتم الرســول ، أحمد بن عبد الحليم بن عبــد السلام ابن تيمية ، الناشر: الحرس الوطني السعودي.

٣٨. الصحــاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت :٣٩٣هـ) ، دار العلم للملايين – بيروت .

٣٩. الصواعــق المرسلــة في الرد على الجهميــة والمعطلة ، محمد بن أبي بكر بــن أيوب ابن قيم الجوزية ، الناشر: دار العاصمة، الرياض.

٤٠. العوامل المسببة للانحراف الفكري وعلاقتها بالإرهاب ، علي فايز الجحنى ، - مجلة وزارة العدل العدد : ٣٩ رجب ١٤٢٩ هـ .

٤١. العــين ، الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيــدي (ت : ١٧٠هـ) ، تحقيق : مهدي المخزومي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال .

٤٢. فتــح القدير ، محمد بن علي بن محمد الشــوكاني (ت :١٢٥٠هـ) ، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت .

٤٣. في ظــلال القــرآن ، لسيــد قطب إبراهيــم حسين الشاربــي (ت :١٣٨٥هــ) ، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة .

٤٤. القيادة والجندية في الإسلام ، محمد السيد الوكيل ط : دار الأنصار ١٤٠٠- ١٩٨٠.

٤٥. لســان العرب ، محمد بــن مكرم ، أبو الفضل، ابن منظور (ت :٧١١هـ) ، الناشر: دار صادر بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤

٤٦. المجالسة وجواهر العلم ، أحمد بن مروان الدينوري (ت : ٣٣٣ هـ) ، الناشر دار ابن حزم – بيروت – لبنان سنة : ١٤١٩ هـ

٤٧. مجلة البحوث الإسلامية – مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

٤٨. مجلة البيان – تصدر عن المنتدي الإسلامي عدد : ١٣١ مقال لعبد الله البريدي بعنوان : التفكير العلمي والإبداعي.

٤٩. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت :٧٢٨هـ) ، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

٥٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، ط : دار الكتب العلمية – بيروت

٥١. المحكم المحيط الأعظم ، علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده [ت: ٤٥٨هـ] ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت .

٥٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ابن قيم الجوزية ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت .

٥٣. مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت :٧١٠هـ) ، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت .

٥٤. مدى توافق السمات القيادية مع المعايير الإسلامية في اختيار القائد التربوي، الحاج طاهر محمد ، منشورة بجدة ١٤١٠ه.

٥٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت :٢٤١هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة .

٥٦. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن النيسابوري (ت :٢٦١هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٥٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد الفيومي (ت :نحو ٧٧٠هـ) ، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت .

٥٨. المغنـي ، موفـق الديـن عبد الله بن أحمـد بن محمد بـن قدامة المقدسـي (ت :٦٢٠هـ) ، الناشر: مكتبة القاهرة : ١٣٨٨هـ .

٥٩. مفاتيـح الغيـب = التفسـير الكبـير ، أبو عبد الله محمـد بن عمر ، فخر الديـن الرازي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت

٦٠. منهج التربية الإسلامية وأصوله وتطبيقاته، علي أحمد مدكور ، مكتبة الفلاح – الكويت .

٦١. منهجيـة التفكـير العلمي في القـرآن الكريم وتطبيقاتهـا التربويـة في المؤسسات الجامعية المعاصرة ، خليل عبد الله الحدري : ١٤٢٢ ه

٦٢. الهدايـة إلى بلـوغ النهاية ، مكي بن أبي طالب القرطبـي ، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة - جامعة الشارقة

٦٣. الهـدي النبوي في معالجة الانحراف الفكري ،لعبد الرحمـن بن صالح الذيب ، و إبراهيم حامد أبو صعيليك .

٦٤. الوسيـط في تفسـير القرآن المجيد ، علي بن أحمد الواحـدي، النيسابوري (ت :٤٦٨هـ) ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

أ.د. محمد رشيد بوغزالة

- **الاسم:** محمد رشيد **اسم الأب:** علي **اللقب:** بوغزالة
- **الدرجة العلمية:** بروفسور
- **تاريخ الميلاد:** ٠٣/ ٠١/ ١٩٧٧.
- **البريد الالكتروني:** bougrachid@gmail.com
- **الهاتف الجوال:**- ٠٠٢١٣٦٦٣٣١١٥٧٨

الشهادات:

- شهادة الدكتوراه في الفقه الإسلامي وأصوله من كلية الدعوة الإسلامية - فرع بيروت – لبنان/ ٢٠٠٧.
- شهادة الدكتوراه في علوم التربية – كلية الدعوة الإسلامية – بيروت- لبنان (في طور التحضير).
- شهادة الماجستير في الاقتصاد الإسلامي - كلية الدعوة الإسلامية في بيروت - لبنان/ مارس ٢٠٠٤.
- شهادة الليسانس في الشريعة الإسلامية شعبة الفقه وأصوله من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة / جويلية ١٩٩٩.
- شهادة البكالوريا في الآداب والعلوم الشرعية - جوان ١٩٩٥.
- شهادة البكالوريا اللبنانية شعبة الآداب – بيروت ٢٠٠١.

المؤلفات:

١. عقد القرض ومشكلة الفائدة - دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون ومدى تطبيقهما في معاملات البنوك الربوية والبدائل الشرعية- / دار الريان للطباعة والنشر- بيروت – لبنان، ٢٠٠٧.
٢. العقائد الإسلامية (الكبرى والصغرى) في عقائد أهل السنة والجماعة للعلامة محمد المكي بن عزوز البرجي المالكي، شرح وتحقيق- دار الريان للطباعة والنشر – بيروت ٢٠٠٧.
٣. سيرة النبي ﷺ لأبي الحسين ابن فارس – دراسة وتحقيق، دار الريان للطباعة والنشر ٢٠٠٧.

مقاصد القرآن في رعاية المال العام وأثر ذلك في علاج الفساد المالي

أ.د. محمد رشيد بوغزالة

المدير المساعد لما بعد التدرج والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

جامعة الوادي- الجزائر

bougrachid@gmail.com

مقدمة

الحمــد لله رب العالمــين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آلــه وصحبه والتابعين، وسلم تسليما كثيرا، وبعد؛

فــإن الله - عــز وجــل - منّ على الخلائــق بنعم وافــرة، ظاهرة وباطنــة، وأمرهم أن يستوفــوا حقهــم منها، ويعبــدوه حق العبادة، وليســ أدل على ذلك مما سلكــه من السبل في الأرضــ، وما أجرى فيها مــن أودية وأنهر، وما فجر فيها من ينابيع، وما أنبت فيها من حرث وشجر، مختلفا أكله وألوانه، فسبحانه من علي قدير.

وهذه النعم لا يستيسر منالها إلا بالضرب في الأرض، ولا يطول بقاؤها إلا بالأخذ والترك منها بالعدل؛ يأخــذ منها الحاضر، ويدع ليحفظ منها حق الوافد؛ ليتسلسل العيش، وتتحقق سنة الإعمار في الأرض، التي أرادها الباري - جل جلاله - للخلق.

ومن حِكم الله - سبحانه وتعالى - في خلقه أنه لم يترك الخلق يتصرفون في هذه النعم علــى هواهم، بل أحكم زمامها بواجبات وسنن، أنزلها في الكتب، وبعث لأجلها الرسل، وألزم خلقــه بالإذعــان لما سنّ من سنن، وما أحّكم من حكم، كل ذلــك لينتظم عيش البشر ويبسط العدل في الأرض.

وإذا عرفنــا أن مــا بــين أيدينا من هــذه النعم وما يتولــد عنها إنما نتمولهــا ليتيسر لنا العيشــ؛ فهي أموال لا محالة؛ منها مــا يختص به المالك لنفسه وتحفظ له فيه حرمته إذا آل إليه بما يشرع من الأسباب، ومنها ما لا يختص به أحد من البشر، وإنما هو لهم جميعا؛ منه مــا ينالــوه بإذن الله - عز وجل - ورسوله ﷺ فيه، ومنه ما ينالــوه بإذن السلطان، لأنه راع على تلك الأموال، يحفظ بها معايش الناس، ويخلف أمر الله ورسوله فيها.

وعليــه فإن مــا كان هذا شأنه من الأموال إنما تعرف في عــرف الشرع بالمال العام، وهو على خلاف المال الخاص مــن حيث الحرمة، والحقيقة، والموارد، والمصارف، وجهة الملك... وأحكامه مبسوطة في الكتاب والسنة تمام البسط والبيان.

وإننـــا إذا قلبنا في ظاهر آي القرآن الحكيم النظـر، وتدبرنا في معاني تلك الآي بالفكر لاحـت لنا معـاني جليلة، عكف على بيانهـا المجتهدون، وانفرد بتأويلهـا العالمون الراسخون، وتلك المعاني هي المقاصد، راعى فيها القرآن مصالح المكلفين وجودًا وعدمًا.

ومن أعظم تلك المقاصد هي مقاصد الأموال لأن بها ينتظم عيش الناس، وتتحقق عمارة الأرض، وأعظم مقاصـد الأموال هي مقاصد المال العام، فإن عمـوم مصالح الناس مرعية فيه، فلذلك يعظم شأنه لفضيلة العام على الخاص.

وإن جانبًـا كبيرًا مـن مقاصد القرآن في جانب المال إنما راعت المال العام لتحفظ بقاءه وتقطع دابر الفساد فيه، وقد انبرى العلماء والمفسرون لبيان تلك المعاني.

ومـن هنا كانت الرغبة ملحـة في كشف تلك الجهود التي اختزنتهـا مصنفات العارفين بمعـاني القرآن المبين، فاجتهدنـا في كشف ما استيسر لنا سبيله، ونتبيّن: كيف راعى القرآن الكـريم في مقاصده المال العام وجودا وعدما، لينبثـق عن هذا التساؤل الكبير عدة تساؤلات فرعية:

- ماذا يعني مفهوم مقاصد القرآن
- ما المقصود بالمال العام
- كيف راعى القرآن المال العام من حيث الوجود
- ما أثر تلك المقاصد في علاج فساد المال العام

وقد بسطنا هذه الدراسة في مبحثين تتفرع عن كل مبحث عدة مطالب:

- المبحث الأول: مقاصد القرآن الكريم في رعاية المال العام
- المبحث الثاني: أثر مقاصد القرآن في حماية المال العام من الفساد.

وقـد كانـت طبيعـة الدراسة في هـذه الورقـة تقتضي المنهـج الوصفي في بيـان المعاني والمفاهيـم، والمنهج التحليلـي والاستقرائي في الكشف عن جهود العلمـاء والمفسرين في بيان مقاصد القرآن باستقراء مصادرهم.

واجتهدت في الاعتماد بقدر كبير على المصادر التفسيرية لأنها أخصّ بمثل هذه الدراسة.
ونسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وله الحمد في الأولى والآخرة.

المبحث الأول

مقاصد القرآن الكريم في رعاية المال العام

المطلب الأول: بيان المفاهيم والمعاني لـ "المقاصد" و"المال العام"

أولا- تعريف مقاصد القرآن:

تعريف المقاصد:

- لغة: المقاصد جمع مقصد من القصد، وهو استقامة الطريق قَصَد يَقْصِدُ قصداً فهو قاصد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النَحل: ٩]، أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاءُ إليه بِالحجج والبراهين الواضحة، ويأتي القصد بمعنى العدل، والتوسط في الأمور، والاعتمادَ والأمّ.[١]

- اصطلاحا: مصطلح المقاصد من الاصطلاحات التي شاعت عند المتأخرين من الأصوليين، وإن كان معناه قد توارد ذكره عند بعض الأولين إلا أنهم لم يوردوا له تعريفا اصطلاحيا يميزه عما قد يشاكله من الاصطلاحات.

ويعدّ الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور هو أول من وضع تعريفا اصطلاحيا لعلم المقاصد فقال: مقاصد التشريع العامة هي: المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة[٢].

وعرفها بعض المتأخرين بأنها: الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد. [٣]

---

(١) - الفراهيدي، كتاب العين، حرف القاف، باب القاف والصّاد والدّال معهما، مادة "قصد"، ج٥ ص ٥٤.و ابن منظور، لسان العرب، ج٣ ص٣٥٣.

(٢) - ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، مقاصد الشريعة الإسلامية، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٣٦٦هـ، ص ٥٠.

(٣) - الريسوني، أحمد، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٧.

مصطلح مقاصد القرآن:

اصطلاح "مقاصد القرآن" هو مندرج في الأصل ضمن "مقاصد الشريعة" لأن الشريعة عامة متضمنة للقرآن والسنة، ومن هنا فإن مصطلح "مقاصد القرآن" هو أخصّ من مصطلح "مقاصد الشريعة"، لذلك أفرده بعضهم بتعريف خاص فقال: - هي الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقا لمصالح العباد"[1].

وقيل: هو إدراك مراد الله تعالى من إنزال القرآن الكريم[2].

الفرق بين مصطلح "مقاصد القرآن" و"التفسير الموضوعي":

تعريف التفسير الموضوعي: هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع[3].

وقيل: هو جمع الآيات المتفرقة في سورة القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظًا أو حكمًا وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية[4].

وعليه يتقاطع "التفسير الموضوعي" مع "مقاصد القرآن" في أن كلا منهما يطرق موضوع مقاصد القرآن، إلا أن التفسير الموضوعي يبحث مقاصد القرآن من خلال موضوع معين في القرآن كالصبر، والأخلاق، وَالْجِهَاد ...مثلا، وَيجمع مَا يتَعَلَّق بِه من سور الْقُرْآن الْكَرِيم، ليردَّ متشابهه إِلَى محكمه، ومنسوخه إِلَى ناسخه، وَيبين الْخُصُوص والعموم، وَالْإِطْلَاق وَالتَّقْيِيد.. وَغير ذَلِك، حَتَّى يَسْتَوِي الْمَوْضُوع على سُوقه: متكاملاً، مرعيَّ الجوانب كلهَا[5].

---

(١) - عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن الكريم من تشريع الأحكام، ص ٢٩.

(٢) - علي البشر الفكي التجاني، مقاصد القرآن الكريم وصلتها بالتدبر، ص ٦.

(٣) - عواض، زاهر، دراسات في التفسير الموضوعي، دار الألمعي، ص ٧.

(٤) - مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دمشق، دار القلم، ط ٤، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص١٦.

(٥) - أبو العلا، عادل بن محمد، مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ، ص ٢٧.

وانظر: الجديع، عبد الله بن يوسف، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ليدز - بريطانيا، مركز البحوث الإسلامية، ط ١، ١٤٢٢هـ، ص ٣٨٩.

أما مقاصد القرآن فيبحث المعاني والغايات العامة التي نزل لأجلها القرآن الكريم، إذن فالتفسير الموضوعي يبحث في موضوعات جزئية بينما مقاصد القرآن يبحث في المقاصد الكلية.

٣- أهمية المعرفة بمقاصد القرآن:

إن معرفة مقاصد القرآن لها أهمية كبيرة كونها ذات ارتباط وثيق بالجانب العملي للقرآن الكريم، ولا يختلف المختلفون في أن معرفة قصد المتكلم من كلامه أدعى إلى فهمه وتطبيقه واقعا عملا، فإذا كان هذا الحال مع غير كلام الله I فهو بالنسبة لقرآنه المعصوم أدعى وأوكد، ولهذا أجمع أهل الأصول أن من آلات استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها لا بد له من أمور، أهمها: - تمام المعرفة بلغة العرب لأن بها نزل الشرع.

معرفة مقاصد الشرع وأسراره من تشريع أحكامه[١].

وقد اشترط بعض أهل العلم في المفسر أن يكون على واسع العلم بالمقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها[٢].

كما أن "غرض المفسر بيان ما يصل إليه ، أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ، ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن ، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم ، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفريعاً .. مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء ، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل ، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله ، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ ، وللتنزيل اصطلاح وعادات"[٣].

من هنا استوجبت المعرفة بمقاصد القرآن لما ينبني عليها من العمل، وهذه الأهمية تتلخص في عدة أمور:

---

(١) - الجويني، إمام الحرمين بد الملك بن عبد الله بن يوسف، البرهان في أصول الفقه، القاهرة، مكتبة المنصورة، ط ٤، ١٤١٨هـ، ج ٢ ص ٨٦٩.
وانظر: النملة، عبد الكريم بن محمد بن علي، المهذب في أصول الفقه، الرياض، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ج ٥ ص ٢٣٢٦.

(٢) - ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م، ج ١ ص ٣٩.

(٣) - ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ١ ص ٤١ — ٤٢.

أولا- أن معرفـة مقاصد القـرآن الكريم هي المدخل السليم إلى فهـم الرسالة القرآنية الإسلامية على وجهها الصحيح، بلا زيادة ولا نقصان، ولا إفراط ولا تفريط.

ثانيـا- معرفة هـذه المقاصد العامـة، واستحضارها عند قراءة القـرآن وتدبره، تمكن قارئـه من الفهـم السليم للمعـاني التفصيلية والمقاصـد الخاصة لأمثالـه وقصصه ووعده ووعيده، ولكل آية وكل لفظ وكل حكم ورد فيه.

ثالثـا- أنـه بمعرفة مقاصد القرآن يتسـدد الفهم السليم لمقاصد السنـة النبوية جملة وتفصيلا، ومن خلال ذلك يتسدد النظر الفقهي، والاجتهاد الفقهي.

رابعـا- مقاصد القرآن هـي الميزان والمعيار الذي يجب أن توزن به تصرفات المكلفين في حياتهم العامة والخاصة، إذ يجب الاهتداء بتعاليم القرآن في كل التصرفات سواء الظاهرة أم الباطنـة، وكذا في كل المجالات سواء العبادة أم الأخـلاق أم المعاملات على اختلافها، بل ومع الغير في أحوال السلم والحرب.

خامسـا- مقاصـد القـرآن هي الميـزان والمعيـار الذي لا بـد منه كذلـك للمفسرين في مناهجهـم وتفسيراتهـم؛ فبمعرفتهـا ومراعاتها يضمن المفسـر لنفسه ولتفسـيره أن تكون اهتماماتـه ومقاصـده واستنباطاته في نطـاق مقاصد القرآن، بلا زيـادة ولا نقصان. وهذا ضرب من "تفسير القرآن بالقرآن" الذي هو أرقى أنواع التفسير.(1)

ثانيا – تعريف المال العام:

١- مفهوم المال: المال في اللغة:

قال ابن فارس: الميم والواو واللام كلمة واحدة، هي تَمَوَّلَ الرّجُل: اتخذَ مالاً(2).

والمال ما ملَكْتَهُ من كُلِّ شيء، وأصله من "المَوَل"، وجمعه "أَموال".

وتَمَوَّلْـتَ واسْتَمَلْـتَ: كَثُرَ مالُكَ. ورجـلٌ مالٌ: ذو مالٍ أو كثيره(3). وَيقـال: امْرَأَةٌ مَالَةٌ مِن نِسْوَةٍ مَالَةٍ وَمَالاتٍ.

(١) – الريسوني، أحمد، مقاصد المقاصد، ص ٥٠.

(٢) – ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، بيروت – لبنان، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، كتاب الميم، باب الميم والواو وما يثلثهما، ج ٥ ص ٢٨٥.

(٣) – الزبيدي، تاج العروس، ج ٣٠ ص ٤٢٨.

قَـالَ ابنُ جنِّيٍّ: وَحَكَـى الفَرَّاءُ عنِ العَرَبِ: رَجُلٌ مَئِلٌ إذَا كانَ كثـيرَ المَالِ، وَأَصْلُهَا "مَولٌ" بوَزْنِ "فَرِق" وَ"حذِر" ثُمَّ انْقَلَبَت الوَاوُ أَلفًا لتَحرُّكِهَا وانفتَاح مَا قَبْلَهَا فَصَارَتْ "مَالٌ" ثُمَّ إنَّهُم أَتَوا بِالكَسْرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي وَاوِ "مَولٍ" فَحَرّكُوا بِهَا الألِفَ فِي "مَالٍ" فانقَلَبَتْ هَمْزَةً.(١)

وقـال ابـنُ الأثير : المـالُ في الأصلِ : مـا يُمْلَكُ من الذَّهَـبِ والفضَّة ، ثـمَّ أُطْلِقَ على كُلِّ مـا يُقْتَنَـى ويُمْلَكُ من الأعيـانِ، وأكثرُ ما يُطلَقُ المالُ عندَ العربِ على الإبـلِ ، لأنَّها كانت أكثرَ أموالِهِمْ(٢).

وقال الخليل: المال : معروف وجمعه أموال وكانت أموال العرب أنعامهم(٣).

المـال في الاصطلاح: المال في اصطلاح الفقهاء يتجاذبه مذهبان في تحديد معناه، وهذا التجاذب أحدث خلافا جوهريا انبنى عليه الكثير من العمل في مسائل الخلاف؛

المذهـب الأول: تعريـف الحنفية: المال اسْمٌ لِغَـيْرِ الْآدَمِيِّ خُلِـقَ لِمَصَالِحِ الْآدَمِـيِّ وَأَمْكَنَ إحْرَازُهُ وَالتَّصَرُّفُ فيه على وَجْهِ الاخْتِيَار(٤).

وعرفـه بعضهـم بقوله: المال ما يميل إليـه الطبع ويمكن ادخاره لوقـت الحاجة والمالية تثبت بتمول النـاس كافة أو بعضهم(٥).

والحنفية أخرجوا من معنى المالية المنافع حيث لم يعتبروها أموالا في الأصل إلا في بعض الاستثناءات، وقد صرح جمهور أئمتهم بذلك فقالوا: المنفعة ليست بمال على أصلنا(٦).

---

(١) – ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ط ١، ١٩٨٥م، ج ١ ص ٩١.
– المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٠م، باب الثلاثي المعتل، مقلوب "ل م و"، ج ١٠ ص ٤٤٠.

(٢) – ابن منظور، لسان العرب، مادة "مول"، ج ١١ ص ٦٣٦.

(٣) – الفراهيدي، كتاب العين، حرف اللام، باب اللام والميم و (و ا ي ء) مهعما ،مادة "مول"، ج ٨ ص ٣٤٤.

(٤) – ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم الحنفي، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، بيروت – لبنان، دار المعرفة، ج ٥ ص ٢٧٧.

(٥) – ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م، ج ٤ ص ٥٠١.

(٦) – انظر على سبيل المثال: السرخسي، أبو بكر شمس الدين محمد بن أبي سهل، المبسوط، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٤٢١هـ، ج ٢٧ ص ٣٣٦.
– ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، ج ٦ ص ٦٩٢.
– العيني، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد، البناية شرح الهداية، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ، ج ١٣ ص ٤٨٦.

وعليــه أثبت متأخروهم هذا المعنى في تعريفهم للمال كما فعل الأستاذ مصطفى الزرقا إذ عرفه بقوله: هو كل عين ذات قيمة مادية بين الناس[1].

المذهـب الثاني: تعريف الجمهور: عرفـه الشاطبي بأنه: المال ما يقع عليه الملك، ويستبدّ به المالك عن غيره إذا أخذه من وجهه[2].

وعند الشافعية: المال ما له قيمة يباع بها وتلزم متلفه، وإن قلّت[3].
وعند الحنابلة: ما فيه منفعة مباحة لغير ضرورة[4]

وهــذه التعريفات وإن اختلفـت مبانيها فهي متفقة في معانيها في كون المال المعتبر شرعا ما يمكن دخوله في الملك وأن يكون مشروعا ومنتفعا به في العادة.

تعريف المال العام: عند التأمل في معايير الملكية في النظام الإسلامي نجد أنّ المال العام الذي هو موجه نفعه لعموم الأمة تتقاسمه جهتان:

٢-أ- المال المملوك ملكية العامة : أو ملكية الأمة:

وقد عرفه بعض الباحثـين المحْدثين بأنه: المال المخصص للانتفاع المباشر لأفراد الأمة كالطـرق والأنهار ونحوهـا، أو للمنفعة العامة المباشرة كالحصون، أو غير المباشرة كالمعدات اللازمة لها[5].

وعرفـه آخـر بأنه: المال الذي يكـون صاحبه مجموع الأمة أو الجماعـة منها دون النظر لأشخاص أفرادها على التعيين، بحيث يكون الانتفاع بالأموال التي تتعلق بها لهم جميعا دون

(١) - الزرقا، مصطفى أحمد، المدخل الفقهي العام، دمشق، مطبعة الحياة، ١٣٨٣هـ، ج ٣ ص ١٣٦.

(٢) - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات، ج ٢ ص ٣٢.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الأشباه والنظائر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ، ص ٣٢٧.

(٤) - ابـن مفلـح، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بـن عبد الله، المبدع في شرح المقنع، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ، ج ٤ ص ٩.

(٥) - أوهاب، نذير بن محمد الطيب، حماية المال العام في الفقه الإسلامي، الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، مركز البحوث والدراسات، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٢٢ — ٢٣.

اختصاص بها من أحد، فهي أموال محجوزة عن التداول[١].

بمعنى أنه المال المباح الذي يشترك فيه عموم الناس ولا يتاح تخصيصه لأحد، وليس لأحد أن يمنع أحدا منه، قال السرخسي في بيانه لمعنى حديث: " الناس شركاء في ثلاث..."[٢] ... فيه إثبات الشركة للناس كافة المسلمين والكفار في هذه الأشياء الثلاثة وهو كذلك. وتفسير هذه الشركة في المياه التي تجري في الأودية والأنهار العظام كجيحون وسيحون وفرات ودجلة ونيل فإن الانتفاع بها بمنزلة الانتفاع بالشمس والهواء ويستوي في ذلك المسلمون وغيرهم وليس لأحد أن يمنع أحدا من ذلك وهو بمنزلة الانتفاع بالطرق العامة من حيث التطرق فيها ومرادهم من لفظة الشركة بين الناس بيان أصل الإباحة والمساواة بين الناس في الانتفاع لا أنه مملوك لهم فالماء في هذه الأودية ليس بملك لأحد"[٣].

وزاد الكاساني: "وكذلك أرض الملح والقار والنفط ونحوها مما لا يستغني عنها المسلمون لا تكون أرض موات حتى لا يجوز للإمام أن يقطعها لأحد؛ لأنها حق لعامة المسلمين وفي الإقطاع إبطال حقهم وهذا لا يجوز"[٤].

وكذا نص المالكية أن المعادن على اختلافها سواء الظاهرة أم الباطنة ولو وجدت في أرض الخاصة فالإمام أن يرصدها للعامة هي من المال العام عند جمهور أهل العلم وأمرها إلى السلطان يتصرف فيها لمصالح الأمة[٥].

---

(١) - العبيدي، إبراهيم عبد اللطيف إبراهيم، الملكيات الثلاث؛ دراسة عن الملكية العامة والملكية الخاصة وملكية الدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي، دبي، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ص ٥١.

(٢) - ورد بلفظ: "المسلمون شركاء في ثلاث..."، رواه أحمد في المسند بسند صحيح، ج ٣٨ ص ١٧٤، ح "٢٣٠٨٢"، وأبو داود، أبواب الإجارة، باب في منع الماء، ج ٣ ص ٢٧٨، ح "٣٤٧٧".
ورواه ابن ماجة من حديث ابن عباس ﷺ، كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، ج ٢ ص ٨٢٦، ح "٢٤٧٢"، وصححه الألباني.

(٣) - السرخسي، المبسوط، ج ٢٣ ص ٢٩٠ – ٢٩١.

(٤) - الكاساني، علاء الدين أبو بكر، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٠٦هـ، ج ٦ ص ١٩٤.

(٥) - مالك بن أنس، المدونة الكبرى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ج ٣ ص ١٩٥.
- ابن شاس، جلال الدين عبد الله بن نجم، عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة، بيروت، دار الغرب، ط ١، ١٤٢٣هـ، ج ٣ ص ٨٣.

ويمكن من خلال هذه النقول أن نميز بين قسمين من الأموال العامة:

مال مباح إباحة عامة؛ كالفيافي والغابات والبحار والأنهار ...

مال محجور للمصالح العامة كالطرق والجسور والحدائق وكذا آبار النفط ومناجم المعادن ....

٢-ب- المال المملوك لبيت المال أو ملكية الدولة:

هي الأموال التي هي حق لعامة المسلمين والتدبير فيها للإمام[١].

بمعنى أنها الأموال المرصودة لمصالح الأمة، والنبيﷺوالإمام من بعده هو المخوّل في تحديد المصلحة فيها على وفق ما تقتضيه حاجة الناس.

وتتعدد الأموال التي يشملها بيت المال مثل الأراضي الأميرية والفيء والغنائم والجزية والخراج وأموال الزكاة والعشور والضرائب التي تقتضيها مصالح المسلمين... ويدخل فيها المباني التابعة للدولة كالإدارات والبنوك والمدارس والجامعات ونحو ذلك...

الفرق بين المال العام ومال الدولة: بالرغم من أن المال العام ومال الدولة في النظام الإسلامي إنما موجهان لمصالح الأمة، وترعاهما في الأصل يد واحدة هي يد الإمام، إلا أن بينهما بعض التباين:

أن الأموال العامة لا يجوز لولي الأمر أن ينقل ملكيتها إلى الأفراد ببيع أو هبة ونحو ذلك، بخلاف أموال الدولة فإنه يحق له بمقتضى المصلحة أن ينقل ملكيتها للخاصة عن طريق التعاقد.

من حيث أوجه الاستثمار والدور الذي تؤديه هذه الأموال فالأموال العامة يجب أن تستثمر وأن يوجه ريعها لإشباع حاجات الأمة، بينما أملاك الدولة فيجوز أن توجه للصالح العام، كما يجوز أن توجه لمصالح فئة معينة من المجتمع.

أن الأموال العامة تتعلق بها مصالح الأمة بطريق مباشر، بخلاف أموال الدولة فإن مصالح الأمة إليها غير مباشرة[٢].

(١) – العبيدي، الملكيات الثلاث، ص ١١٥.

(٢) – نذير أوهاب، حماية المال العام في الفقه الإسلامي، ص ٥٩ وما بعدها.

المطلب الثاني: رعاية المال العام في مقاصد القرآن

أفرد القرآن الكريم جانبا كبيرا من نصوصه للكلام عن المال العام وضبط التصرفات المتعلقة به تصريحا وتلميحا، وإذا عرفنا بأن هناك معاني وغايات مقصودة للشارع الحكيم احتوتها نصوص القرآن انبرت لرعاية المال العام لما له من المكانة في حفظ معايش المسلمين؛ وهذا كله لحفظ المال العام من جانب الوجود، وتتضح هذه المقاصد من عدة جوانب:

الفرع الأول: المال العام هو مال الله - جل جلاله -

حق الله – عز وجل – في المال العام: إذا كانت الأرض ومَن عليها من الخلائق هي لله – عز وجل – يتصرف فيها كما يشاء وكيف يريد، والله – سبحانه وتعالى – اختصّ كثيرا من خلقه بسعة في المال والرزق وأمرهم أن يتصرفوا فيه وفق تعاليمه على سبيل الوكالة، فإذا كان هذا حال المال الخاص المملوك لأفراد الناس، فإن حال المال العام أعظم وأخطر، لأنه منوط لرعاية مصالح عموم الأمة، ومنسوب لله – سبحانه وتعالى – وهذا يضفي على المال العام قدسية في قلوب الخلق فيحاط بالرغبة والرهبة؛ الرغبة في صونه وتنميته، ورهبة من تضييعه في غير ما رُصد لأجله، وقد ورد القرآن الكريم بهذا المعنى في مواضع، منها :

قوله – سبحانه وتعالى – :﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١]، يعني أن خمس ما يغنم إنما يفرز حقا لله – جل جلاله – يُحفظ في بيت المال ويُرصد لمصالح المسلمين، قال البغوي: وإنما أضاف الله – عز وجل – هذا المال إلى نفسه لشرفه.[١]

وقال الماتريدي في تفسيره للآية: تحتمل إضافة المال إلى نفسه – جل جلاله – لما جعل ذلك لإقامة العبادات وأنواع البر والخير والقرب التي هي لله، فأضيف إليه على ما أضيفت المساجد إليه والكعبة إليه لما جعلها لإقامة العبادات وأنواع القرب.[٢]

(١) – البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ، ج ٢ ص ٢٩٢.

(٢) – الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، تأويلات أهل السنة، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ، ج ٥ ص ٢٠٧.

وكما في قوله I أيضا:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[الحشر: ٧].

وقد صرّح القرآن بمقصد "التداول" أو ما يعرف بـ "الرواج" في الآية :﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الحشر: ٧] فالمعنَى كيلا يكونَ ذَا تداولٍ بينَهُم –أي الأغنياء- أو كيْلا يكونَ إمساكُهُ تداولاً بينَهُم لا يخرجونَهُ إلى الفقراءِ[١].

وقد فهم الصحابة هذا المعنى في نسبة المال العام لله I لما قال عمر – رضي الله عنه – : "إنيِّ أَنْزَلْتُ نفسي من مال الله بمنزلة مال اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإنْ افتقرتُ أكَلْتُ بالمعروفِ، فَإذا أيْسَرْتُ قضيتُ"[٢].

٢- تسخير الله المال العام لجميع الخلق:

قد أسبقنا القول في المفاهيم معنى المال العام، وهذا ما سخره الله I لجميع الخلائق، وامتنّ عليهم بذلك؛ قال تعالى:﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾[سورة الرحمن: ١٠]، قال بعضهم بأنّ الله دحا الأرض وسخرها لمنفعة الإنسان، وقيل لكل ما يدب على الأرض، فهو مال عام لعموم الخلق[٣]. وامتّن الله على خلقه كذلك بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[سورة البقرة: ٢٩]، قال في البحر المحيط: "وهنا امتن بخلق ما فيها لنا وانتصب جميعاً على الحال من المخلوق ، وهي حال مؤكدة لأن لفظة ما في الأرض عام ،

---

(١) – العمادي، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت، دار إحياء التراث، ج ٨ ص ٢٢٨.

(٢) – رواه البيهقي في السنن الكبرى، ج ٦ ص ٤، ح "١١٣٢١"، وابن أبي شيبة في المصنف، ج ٦ ص ٤٦٠، ح "٣٢٩١٤"، قال ابن كثير في تفسيره، ج ٢ ص ٢١٨، إسناده صحيح.

(٣) – الألوسي، أبو الفضل محمد، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د ت، ج ٢٧ ص ١٠٣.

– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٧ ص ١٥٥.

ومعنى جميعاً العموم"[1].

كما أن عموم الآيات في القرآن الكريم متضمن لكل ما قد يستجد من الأموال التي لم تعهد عند السابقين، فهي جميعا مسخرة لجميع الخلق، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧]، قال في ظلال القرآن: وهو نداء عام للذين آمنوا- في كل وقت وفي كل جيل- يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيديهم. تشمل ما كسبته أيديهم من حلال طيب، وما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبترول. ومن ثم يستوعب النص جميع أنواع المال، ما كان معهوداً على عهد النبي- ﷺ- وما يستجد. فالنص شامل جامع لا يفلت منه مال مستحدث في أي زمان[2].

الفرع الثاني: وظائف السلطان في رعاية المال العام

بما أن المال العام ملكيته غير متعينة لأحد من الخلق فيقوم عليه تنمية وصرفه في مصالحه، فإن ما كان هذا شأنه من الأموال فإن أمره إلى السلطان، إذْ هو المخاطب بمثل هذه الأمور، وقد حدد القرآن وظائف السلطان في رعاية المال العام:

إدارة السلطان للمال العام: من مقاصد القرآن في رعاية المال العام أن أوكل أمره إدارة وتنظيما للنبي ﷺ ولمن يقوم مقامه من بعده من الخلفاء وولاة الأمور لأنه مال الله – عز وجل – أمر التصرف فيه موكول للرسول ﷺ وولاة الأمور من بعده[3]؛ لأنهم الأقدر على صونه ورعايته بما يخدم مصالح المسلمين، ذلك أنهم المخاطبون بالقيام على مصالح العامة والخاصة، ولا يُتصور أن يكلف آحاد الرعية بذلك فيقع التنازع والاضطراب ويضيع بذلك المال العام وتتخلف مصالح الخلق، وقد خاطب الله ا المؤمنين بهذا المعنى في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ

(١) – الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ج ١ ص ٢٨٠.

(٢) – سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، بيروت – القاهرة، دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢هـ، ج ١ ص ٣١١.

(٣) – ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨ ص ٨٠.

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾[سورة النساء: ٥٩]، لأن الطاعة لهم هي مظهر نفوذ العدل الذي يحكم به حكامهم، فطاعة الرسول تشتمل على احترام العدل المشرع لهم وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور تنفيذ للعدل، وأشار بهذا التعقيب إلى أن الطاعة المأمور بها هي الطاعة في المعروف، إذْ إنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده[1]، ومن مظاهر الطاعة لأولي الأمر قبول أمرهم ونهيهم فيما يتعلق بالأموال العامة، فهذا كذلك أمر مقصود من عموم الأمر في الآية الكريمة.

ويدل صراحة لهذا المعنى قوله تعالى مخاطبا نبيه ومن يخلفه من ولاة الأمور من بعده: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، وهذا النص حكمه عام وإن كان سببه خاصا، عام في الآخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين، وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون[2]. قال ابن عطية: وهذا الخطاب يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها[3].

أخذ السلطان المال العام بحقه وصرفه في حقه: ومن وظائف السلطان في القيام على المال العام أن يأخذه من حقه الذي حدده الله - عز وجل - ولا يتعدى به ذلك، وقد حددت الشريعة موارد المال العام من الزكاة والغنائم والجزية والخراج والعشور.. وقد ذم الله - سبحانه وتعالى - أقواما تولوا أمور العامة فأكلوا أموالهم بغير حق باسم المال العام؛ قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤]. فقيل: إنهم كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وقروضا باسم الكنائس والبِيَع وغير ذلك، ومعلوم أن أموال الكنائس والبِيَع من

(١) - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٥ ص ٩٦.

- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ه، ص ١٨٣.

(٢) - الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج ١١ ص ١٩.

(٣) - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٣ ص ٧٨.

الأمـوال العامة، مما يوهمونهم أن النفقة فيه من القيام على الشرع وحماية الدين والتزلف إلى الله تعالى، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال(١).

وكـذا يجـب على الإمام أن يصرف المال العام في حقـه؛ وأسمى مصارف المال العام ما كان لنصـرة الديـن، وصون بيضة الإسلام، والـذود عن حباض المسلمـين، وهذا من أسمى المقاصـد التـي جاء القرآن لحفظهـا؛ وفي الصحيح عن أنس بن مالـك - رضي الله عنه - ، أن رجـلا سأل النبي ﷺ غنما بين جبلين، فأعطـاه إياه، فأتى قومه فقال: "أي قوم أسلموا، فـوالله إن محمدا ليعطـي عطاء ما يخاف الفقر" فقال أنس: "إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"(٢). ذلك أن الشريعة حـددت بعض مصـارف المال العام كمصارف الزكاة والإعداد للقـوة في الذود عن الإسلام، وتركـت لاجتهـاد الحاكم سعة من الأمر يصـرف المال العام وفق ما تقتضيـه المصلحة، لأن القاعـدة توجـب أن "تصرف الإمـام على الرعية منـوط بالمصلحـة"(٣) في أمورهم الدينية والدنيوية، وقد فهم أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذا المقصد لما قال: "... وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق، ويعطى في الحق، ويمنع الباطل؛..."(٤).

يراعـي به المصالح العامة قبل الخاصة: إن مـن كبريات مقاصد الشريعة التي تواترت في معناها النصوص هو "تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة" وهذه القاعدة هي مقصود قرآني منصورة بحجج العقل ودلائل النقل، وأكثر ما يتعيّن تطبيقها في شؤون الأموال العامـة لأنها مضنة التنازع بين مصالح الخلق، وقد اشتهرت في السير قصة أرض السواد لما افتتحـت في عهـد عمر t وأراد الفاتحون قسمتها على المعهـود في قسمة المغانم فاستلهم عمر t مقصـود القرآن في سورة الحشر لما قال لهـم : إني أمرتكم أن تجتمعوا لهذا المال فتنظروا

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج ٨ ص ١٢٢.

(٢) - رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا وكثرة عطائه، ج ٤ ص ١٨٠٦، ح "٢٣١٢"، وابن حبان في صحيحه، ج ١٠ ص ٣٥٤، ح "٤٥٠٢".

(٣) - الزركشـي، أبـو عبـد الله بدر الدين محمد بن عبـد الله، المنثور في القواعد، الكويـت، وزارة الأوقاف، ط ٢، ١٤٠٥هـ، ص ج ١ ص ٣٠٩.

(٤) - أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، القاهرة، المكتبة الأزهرية، د ت، ص ١٣٠.

لمن ترونه وإني قرأت آيات من كتاب الله فكفيتني؛ سمعت الله يقول: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الحشر: ٨]، فقال: والله ما هو لهؤلاء وحدهم. ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحشر: ٩]، فقال: والله ما هو لهؤلاء وحدهم. ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[سورة الحشر: ١٠]، فقال: والله ما أحد من المسلمين إلا له حق في هذا المال أعطي منه أو منع عنه حتى راع بعدن[١].

وفي رواية أخرى أنه قال: "ما أحد من المسلمين إلا له في هذا المال حق، أعطيه أو منعه"[٢].

ويوضح لنا القاضي أبو يوسف في خراجه كيف فهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مقصد القرآن في رعاية المصلحة العامة قبل الخاصة في المال العام فيقول: "والذي رأى عمر رضي الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان ذلك توفيقًا من الله كان له فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين. وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن وقوفًا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقوَ الجيوش على السير في الجهاد ولما أمن من رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة. والله أعلم بالخير حيث كان"[٣].

وقد مال مالك بن أنس إلى اجتهاد عمر فيما يغنم من أراضي العدوّ فقال: يقسمها الإمام إن رأى ذلك صوابا كما فعل النبي ﷺ بخيبر، ولا يقسمها إن أداه اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر بأرض مصر وسواد الكوفة[٤].

---

(١) رواه البيهقي، السنن الكبرى، ج ٦ ص ٣٥١، ح "١٢٧٨١"، وابن أبي شيبة، المصنف، ج ٦ ص ٤٧١، ح "٣٣٠١٧".
- وذكره السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣م.

(٢) - الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، بيروت، دار الفكر، د ت، ص ٢٧٢.

(٣) - أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٥٢هـ، ص ٢٤.

(٤) - الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ، ج ٢ ص ٥٢٩.

الفرع الثالث: مسؤولية الرعية في رعاية وتنمية المال العام

لقد من الله - عز وجل - على الخلق بهذه النعم الوافرة، وطلب إليهم أن يستوفوا حقهم منها، وأن يرى - سبحانه وتعالى - أثر هذه النعم على عباده ويعبدوه حق العبادة، قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[الملك: ١٥]، وكذا قوله - جل جلاله -:﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[طه: ٥٣ - ٥٤].

أي إن ربكم هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق- والسعي في الأرزاق لا ينافى التوكل على الله[1].

وهذه المنة والتنعم بما خلق الله - عز وجل - إنما في مقابل المسؤولية والحرص على هذه النعم من جهة المتنعم حتى تستمر الحياة وتتسلسل النعم فيأخذ منها الأول، ويحفظ منها للآخر.

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد منّ على عموم الخلق باغتنام ما بسطه في الأرض من الخيرات المباحة، إلا أن هذا التنعم لن يستمرّ لو لم يتجه الخلق إلى تنمية المال العام، لأن تنمية المال العام مقصد قرآني مستوفَى من آيات كثيرة، ودلائل الدعوة إلى تنمية المال العام في القرآن الكريم كثيرة جدا؛ منها: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾[سورة هود: ٦١]. قال الزمخشري قوله تعالى :﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: أمركم بالعمارة، والعمارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار، وعمروا الأعمار الطوال، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا، فسأل نبيّ من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: إنهم عمروا بلادي فعاش فيها عبادي[2].

(١) - المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط ١، ١٣٥٣هـ - ١٩٤٦م، ج ٢٩ ص ١٥.

(٢) - الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،بيروت، دار الكتاب

وقد فتحت الشريعة أبوابا مختلفة من شأنها أن تسهم في تنمية المال العام ومن أوسعها باب الوقف على المصالح العامة؛ لأنه ليس هناك شيء أعظم أجرا من الانفاق الذي ينتفع به عموم الناس، فكلما اتسعت فئة المنتفعين كلما زاد أجر المنفق والواقف، والتحبيس في المصالح العامة كذلك مقصد قرآني من أوضح دلائله قوله - سبحانه وتعالى - في محكم تنزيله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فالآية دعت إلى الانفاق في المصالح العامة بأسلوب محفّز وبعبارة أبلغ من الأمر المجرد، ومن الأمر المقرون ببيان الحكمة، والتنبيه إلى الفائدة، والوجه في اختيار هذا الأسلوب هنا – كما قال في تفسير المنار- أن الأمور الداعية إلى البذل في المصالح العامة ضعيفة في نفوس الأكثرين، والرغبة فيه قليلة؛ إذ ليس فيه من اللذة والأريحية ما في البذل للأفراد، فاحتيج فيه للمبالغة في التأثير... ولذلك يقل في الناس من يبذل المال في المصالح العامة لوجه اللّه تعالى، فلهذا كان المقام يقتضي مزيد التأكيد والمبالغة في الترغيب، وليس في الكلام ما يدرك شأو هذه الآية في تأثيرها، ولا سيما موقعها هذا بعد بيان سنة اللّه تعالى في موت الأمم وحياتها(١).

وقد صرح القرآن الكريم بأمر السطان بأخذ الزكاة من الأغنياء، ومقصد القرآن من هذا الأمر بما صرح به في الظاهر بأنه طهرة وتزكية للمال وصاحبه، وهناك مقصد باطن وهو وجوب تنمية حساب الفقراء في بيت مال المسلمين وتقوية شوكة الإسلام. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. قال الجصاص: قوله تعالى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً ﴾ يحتمل أن يريد به أموال المؤمنين... فإن دلالته ظاهرة على وجوب الأخذ من سائر المسلمين لاستواء الجميع في أحكام الدين إلا ما خصه الدليل وذلك لأن كل حُكم حَكَم اللّه ورسوله به في شخص أو على شخص من عباده أو غيرها فذلك الحكم لازم في سائر الأشخاص إلا قام دليل التخصيص.(٢)

وقد نقل في التفسير الكبير عن كثير من أهل العلم أن هذه الآية كلام مبتدأ، والمقصود

العربي،ط٣، ١٤٠٧هـ، ج٢ ص٤٠٧.

(١) - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢ ص ٣٦٦ – ٣٦٧.

(٢) - الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي، أحكام القرآن، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ، ج ٤ ص ٣٥٥.

منهـا إيجـاب أخذ الزكاة من الأغنيـاء وعليه أكثر الفقهاء إذ استدلـوا بهذه الآية في إيجاب الزكـوات... ومما يدل على أن المراد الصدقـات الواجبة. قوله:﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ والمعنى تطهرهـم عـن الذنب بسبب أخذ تلك الصدقات، وهذا إنما يصح لو قلنا إنه لو لم يأخذ تلك الصدقة لحصل الذنب، وذلك إنما يصح حصوله في الصدقات الواجبة[1].

وقـد كشـف الإمام الطبري عن المقصد القرآني في الآية فقـال: والصواب من القول في ذلـك عندي: أن الله جعـل الصدقة في معنيين أحدهمـا: سدُّ خَلَّة المسلمـين، والآخر: معونة الإسـلام وتقويته. فمـا كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنه يُعطاه الغني والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين. وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهـاد في سبيـل الله، فإنه يعطى ذلـك غنيًّا كان أو فقـيرًا، للغزو، لا لسـدّ خلته. وكذلك المؤلفـة قلوبهم، يعطون ذلك وإن كانوا أغنيـاء، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده.

(١) – الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب المعروف بـ "التفسير الكبير"، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٤٢٠هـ، ج ١٦ ص ١٣٤.

المبحث الثاني

أثر مقاصد القرآن في حماية المال العام من الفساد

المطلب الأول: ماهية الفساد في اللغة والقرآن والفكر الاقتصادي

أولا- تعريف الفساد في لغة العرب :

الفَسادُ نقيضُ الصَّلاح فَسَدَ يَفْسُدُ ويَفْسِدُ وفَسُدَ فَسَاداً وفُسوداً فهو فاسدٌ وفَسيدٌ فيهما وقومٌ فَسْدَى على وزن هلْكى[1]. ومعنى فسد: بطل واضمحل ، ويكون بمعنى تغير[2].

والفساد: تغير عما كان عليه من الصلاح. وقد يقال في الشيء مع قيام ذاته. ويقال فيه مع انتقاضها. ويقال فيه إذا بطل وزال[3].

ثانيا- مفهوم الفساد في القرآن الكريم:

اصطلاح الفساد في القرآن الكريم: ذكر أهل التفسير أن الفساد في القرآن على سبعة أوجه[4]: -

أحدها: المعصية. ومنه قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة البقرة: ١١].

والثاني: الهلاك. ومنه قوله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢].

(١) - ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، باب السين والدال والفاء، مادة فسد، ج٨ ص٤٥٦. والفراهيدي، كتاب العين، مادة "فسد"، ج٧ ص ٢٣١.

(٢) - الزبيدي، تاج العروس، فصل الفاء مع الدال المهملة، مادة "فسد"، ج ٨ ص ٤٩٦.

(٣) - ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، باب الفساد، ص ٤٦٩.

(٤) - ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص ٤٧٠ – ٤٧١.

والثالث: قحط المطر (وقلة النبات). ومنه قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الروم: ٤١].

والرابع: القتل. ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾[سورة الكهف: ٩٤] أي: بقتل الناس.

والخامس: الخراب. ومنه قوله تعالى:﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل: ٣٤].

والسادس: الكفر. ومنه قوله تعالى:﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة هود: ١١٦].

والسابع: السحر. ومنه قوله تعالى:﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[سورة يونس: ٨١].

والفساد في المال العام عند التأمل نجد أن بعض ما سبق ذكره من المعاني تدلّ عليه؛ فهو سليل المعصية، وهو هلاك للاقتصاد والأمة وإهلاك للمال، وهو سبب للقحط وقلّة النبات، وهو كفر بنعمة الله - عز وجل - التي أسبغها على عباده، وهو خراب وأيّ خراب.

٢- ما يتعلّق بفساد المال العام من الاصطلاحات في القرآن الكريم:

أ- الترف: لغة من ترف يترف أي يتنعّم، والترُّفة النعمة. والمُتْرف هو الذي يُتْرك يصنع ما يشاء لا يُمنع منه؛ أي هو المتنعّم الذي يتوسّع في ملاذ الدنيا وشهواتها حتى يبطر ويطغى. واستترف: تغتّرف وطغى[1].

وفي المنظور الإسلامي الترف ملازم للفساد في مؤسسات الحكم، يقول الشوكاني في قوله تعالى:﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾[سورة هود: ١١٦]: "

(١) - الزبيدي، تاج العروس، فصل التاء مع الفاء، مادة "ترف"، ج ٢٣ ص ٥٣. والمطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، مادة "ترف"، ج ١ ص ١٠٣.

والمعنى أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهي عنه ما أترفوا فيه ، والمترف : الذي أبطرته النعمة ، يقال : صبي مترف: منعم البدن ، أي صاروا تابعين للنعم التي صاروا بها مترفين من خصب العيش ورفاهية الحال وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة ، واستغرقوا أعمارهم في الشهوات النفسانية "[١].

يقول ابن خلدون إن الملك يخلقه الترف وهو الذي يذهبه[٢].

ويقول في موضع آخر بأن طبيعة الملك تقتضي الترف، وإذا لم تفِ الأعطيات بحاجاتهم المترفة وفسادهم الكبير انكبوا وانتزعوا مما في أيدي الناس بالجباية والمكوس والسلب[٣].

ب- التبذير: التبذير من بَذَرَ، والباء والذال والراء أصلٌ واحد، وهو نَثْرُ الشيءِ وتفريقُه. يقال بذرْتُ البَذْرَ أَبْذُرُهُ بَذْراً، وبذَّرت المالَ أَبَذِّرُه تبذيراً[٤]. وقد عرفه ابن مسعود - رضي الله عنه - بأنه: إنفاق المال في غير حقه.[٥]

وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله، وفي غير الحقّ وفي الفساد[٦].

وجاء في تفسير القرطبي: "قال الشافعي: التبذير إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير ، وهذا قول الجمهور ، وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه وهو الإسراف "[٧].

ويفهم من ذلك أنه لا فرق عند مالك - رحمه الله - بين التبذير والإسراف .

غير أن بعضهم يفرق بينهما؛ فالإسراف : هو صرف الشيء فيما لا ينبغي زائدا على ما ينبغي، بخلاف التبذير فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي، والإسراف: تجاوز في الكمية، فهو

---

(١) - الشوكاني، فتح القدير، ج ٢ ص ٦٠٥.
(٢) - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (المقدمة)، ج ١ ص ١٨٣.
(٣) - ابن خلدون، المصدر نفسه، ج ١ ص ٢١١.
(٤) - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، كتاب الباء، باب الباء والذال وما يثلثهما، ج١ ص٢١٦.ابن منظور، لسان العرب، مادة "فسد"، ج ٤ ص٥٠.
(٥) - الطبري، جامع البيان، ج ١٧ ص ٤٢٩.
(٦) - الطبري، الصدر نفسه، ج ١٧ ص ٤٢٩.
(٧) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠ ص ٢٤٧.

جهل بمقادير الحقوق، والتبذير: تجاوز في موضع الحق، فهو جهل بمواقعها، يرشدك إلى هذا قوله ا في تعليل الإسراف: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٧] وفي تعليل التبذير قال – جل جلاله –: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء: ٢٧] ، فإن تعليل الثاني فوق الأول "[١].

ج- الإسراف: السَّرَف والإِسْراف مُجاوزةُ القَصْد وأَسرفَ في ماله عَجِلَ من غير قصد[٢]. قال ابن فارس: السرف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعدِّي الحدّ والإغفالِ أيضاً للشيء. تقول: في الأمر سرَفٌ، أي مجاوزَةُ القدر[٣].

وقال الراغب: السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر[٤].

وقد يطلق على السرف إضاعة المال فقد نقل الحافظ ابن حجر عن جمهور أهل العلم بأن المراد بإضاعة المال السرف في إنفاقه. وعن سعيد بن جبير قال: إنفاقه في الحرام "[٥].

وقال في موضع آخر : "إنه ما أنفق في غير وجهه المأذون فيه شرعا، سواء كانت – أي النفقة – دينية أو دنيوية ، فمنع منه لأن الله تعالى جعل المال قياما لمصالح العباد" [٦] ، فالإضاعة إذن من الإسراف .

وقد ورد النهي عن إضاعة المال بهذا اللفظ في قوله ﷺ في الحديث: " . . . وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال "[٧].

٣- فساد المال العام مقترن بظاهرة الخلْق:

---

(١) – الكفوي، الكليات، ص ١١٣.

(٢) – ابن منظور، لسان العرب، مادة "سرف"، ج ٩ ص ١٤٨.

(٣) – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، كتاب السين، باب السين والراء وما يثلثهما، مادة "سرف"، ج ٣ ص ١٥٣.

(٤) – الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، ج ١ ص ٤٧٣.

(٥) – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ٥ ص ٦٨.

(٦) – ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠ ص ٤٠٨.

(٧) – رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما يُنهى عنه من إضاعة المال، ج ٢ ص ٨٤٨، ح"٢٢٧٧"، ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، ج ٢ ص ٩٥.

ورد اصطلاح الفساد وما اشتقّ منه في القرآن الكريم حوالي ٤٧ مرة كلها مرتبطة بالسلوك الإنساني[١]، لكن لو تأملنا في آيات الكون والخلق نجد ورود اصطلاح الفساد الاقتصادي في حوار الاستخلاف الإنساني في الأرض الذي جرى بين الله - جل جلاله - وملائكته، يدلّ لذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]. فلو تأملنا في قوله - عز وجل - :﴿ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ نجد فيها دلالة قوية على أن مصطلح الفساد في الآية متضمّن لفساد المال العام بدليل العطف على إهلاك الإنسان؛ فالإفساد في الأرض إهلاك للمال وسفك للدماء إهلاك للإنسان، وقد علمْتَ أن الحياة لا تقوم إلا على المال والإنسان.

كما نفهم من الآية الكريمة أن الفساد في المال العام ليس عرضا منفردا بنفسه وإنما هو ناشئ عن فعل غير سوي يصدر من الإنسان، ولا يرتبط الفساد إلا بالإنسان وحده.

قال القرطبي: قيل إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء؛ وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال، فمن حينئذ دخلته العزة، فجاء قولهم :﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾على جهة الاستفهام المحض هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم الجن أم لا؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب.

وقال ابن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة؛ إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفعلين جميعا الاستخلاف والعصيان[٢].

٤- فساد المال العام من معالم معركة الخير والشرّ في القرآن: من مقتضيات الحكمة

(١) - عبد الله محمد الجيوس الفساد-مفهومه-أسبابه-أنواعه وسبل القضاء عليه-رؤية قرآنية، الرياض، مركز الدراسات والبحوث، قسم الندوات واللقاءات العلمية، المؤتمر العربي الدولي لمكافحة الفساد، الرياض، ١٠ – ١٢/٠٨/١٤٢٤هـ - ٠٦ – ٠٨/١٠/٢٠٠٣، ص ٥.

(٢) - القرطبي، تفسير القرطبي، ج١ ص ٢٧٤.

الإلهيـة في الخلـق والكون استمرارية الصراع بين الخـير والشرّ، وذلك لعـدم إمكان عالم المثـل، وهـذا الذي اقتضى بعثة الأنبياء –عليهم السلام- ومـا الفساد في المال العام إلا أحد أوجـه الصـراع بينهما، والذي يعنينا هنا هـو الفساد المتعمد المقصـود، المنطلق من الباعث السيّئ لا الفساد العرضي الذي هو نتاج الخطأ والغفلة، نستشفّ كلّ ذلك من عموم كثير من نصوص القرآن والسنـة؛ لأنّ الفساد خطيئة كغيرها من الخطايا، مقتضية للتوبة النصوح ، والاستغفـار من الفاعـل، إلا أنها إن كانت متعلقة بحقوق النفـس اقتصر أمرها على الإقلاع عـن الفعـل، والعزم على عدم العـوْد، وإن تعلّق الفساد بحقوق العامـة أو الخاصة من الغير، وجـب جـبْر الفساد بما يصلحـه أو بطلب العفو والصفح، قال تعـالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الزمر: ٥٣].

وفي الحديـث الصحيـح عن أبي هريرة - رضي الله عنـه - قال: قال رسول الله ﷺ: " والـذي نفسـي بيده لو لم تذنبوا لذهـب الله بكم ولجاء بقوم يذنبـون فيستغفرون الله فيغفر لهم "[1].

ثالثا: مفهوم الفساد في فكر الاقتصاد الوضعي: يكاد يُجمع الباحثون في الفكر الاقتصادي الوضعـي على حلقة جوهرية يرتكز عليها تعريفهم للفسـاد في المال العام فبعضهم قد يوسّع النطاق حول هذه الحلقة في حين يضيّق البعض ذلك النطاق، ومن تلك التعريفات[2]:

---

(١) - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة، ج ٤ ص ٢١٠٦، ح"٢٧٤٦"

(٢) - البنك العالمي للإنشاء والتعمير، تقرير عن التنمية في العالم ١٩٩٧، الترجمة العربية، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ص ١١٢.

-François Philippe Montigny ,L’entreprise face à la corruption internationale, Preface de Périgot , Ellepses edition marketing 2006.

وانظـر: محمد عبه الفضيل، مفهوم الفساد ومعاييره، مجلة المستقبـل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد: ٣٠٩ ، نوفمبر ٢٠٠٤، ص ٣٤.

إمنصـوران سهيلـة، الفسـاد الاقتصادي وإشكالية الحكـم الراشد وعلاقتهمـا بالنمو الاقتصـادي –دراسة اقتصادية تحليلية- حالة الجزائر-، مذكرة تخرج ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير، قسم العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦ ، ص٠٤ .

١. تعريف البنك العالمي: الفساد هو إساءة الوظيفة العمومية العامة للكسب الخاص.
٢. تعريف البنك الآسيوي للتنمية: الفساد هو إساءة الوظيفة العمومية أو الخاصة لصالح الخواص.
٣. تعريف البنك الإفريقي للتنمية: هو استعمال العون العمومي لقوة منصبه، وذلك للبحث عن الامتيازات.
٤. تعريف منظمة الشفافية الدولية: الفساد هو استخدام السلطة من أجل تحقيق مكسب خاص، أو أنه السلوك البيروقراطي المنحرف الذي يستهدف تحقيق منافع ذاتية بطريقة غير شرعية وبدون وجه حق.
٥. تعريف البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة: الفساد هو إساءة استعمال السلطة العمومية أو الوظيفة للمنفعة الخاصة، سواء عن طريق الرشوة أو استغلال النفوذ أو المحسوبية أو الغش أو الإكراه للتعجيل بالخدمات أو عن طريق الاختلاس(١).

ونلاحظ من خلال هذه التعاريف التي تبناها الفكر الاقتصادي هو اتفاقها على مرتكز "الوظيفة العمومية" في الفساد في المال العام، واستغلالها لتحقيق الامتيازات أو الأغراض الخاصة. وزاد تعريف البنك الآسيوي إمكانية استغلال الوظيفة الخاصة لتحقيق ما ذكرنا، وبهذا الاتفاق تُلقي هذه التعاريف المسؤولية الكبيرة على القطاع العمومي بكونه المباشر الأكبر للفساد في المال العام، وأن ظاهرة الفساد الاقتصادي منطلقة من خلل واقع في إدارة الدولة(٢).

وإن إساءة استخدام الوظيفة العامة للكسب الخاص ليس بالضرورة أن تكون لمنفعة الموظف الخاصة، بل قد تكون لمنفعة حزبه أو قريبه أو عشيرته أو أصدقائه أو عائلته(٣).

(١) - برنامج المم المتحدة الإنمائي UNDP))، مكافحة الفساد لتحسين إدارة الحكم، شعبة التطوير الإداري وإدارة الحكم ،مكتب السياسات الإنمائية، ١٩٩٨ ، ص ٩.
(٢) - مكتب السياسات الإنمائية، الفساد والحكم الرشيد، شعبة التطوير الإداري وإدارة الحكم، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، نيويورك تموز/يوليه ١٩٩٧ ورقة مناقشة رقم "٠٣"، ص ٨.
(٣) - مفيد ذنون يونس وعدنان دهام أحمد، أثر الفساد في النمو الاقتصادي في ظل تباين مؤسسة الحكم، جامعة الموصل، تنمية الرافدين، العدد ١٠٩، مجلد ٣٤، السنة ٢٠١٢، ص ١٨٩.

وعليه فإن هذه التعاريف تفيد بأن الفساد في المال العام في الفكر الاقتصادي ينطلق من ظاهرتين:

دفع الرشوة و العمولة المباشرة إلى الموظفين والمسؤولين في الحكومة، وفي القطاعين العام والخاص لتسهيل عقد الصفقات، وتسهيل الأمور لرجال الأعمال و الشركات الأجنبية.

وضع اليد على المال العام و الحصول على مواقع متقدمة للأبناء والأصهار والأقارب في الجهاز الوظيفي، وفي قطاع الأعمال العام والخاص[1].

وقد يكون الفساد أحياناً حالة عرضية لبعض الأفراد السياسيين أو الموظفين العموميين ، أو مؤقتاً وليس منتظماً.

وفي حالات أخرى يكون الفساد موجوداً في مؤسسة بعينها، أو في قطاعات محددة للنشاط الاقتصادي دون غيرها من القطاعات الأخرى، وذلك كوجود بعض الموظفين الرسميين الفاسدين في بعض الوزارات والقطاعات المختلفة.

ويكثر الفساد في القطاعات التي يسهل جني الريع منها ، حيث يسود الضعف في النظام، وتضعف الرقابة والتنظيم في هذه القطاعات[2].

رابعا: أوجه المفارقة بين المفهوم القرآني ومفهوم الفكر الاقتصادي الوضعي للفساد في المال العام:

من خلال ما سبق من بيان مفاهيم الفساد في الفكر الإسلامي وفكر الاقتصاد الوضعي تتبيّن لنا الفجوة الكبيرة بينهما في تحديد مفهوم الفساد الاقتصادي من خلال المفارقات الآتية:

(١) - الشهابي أنعام وداغر منقذ، العوامل المؤثرة في الفساد الإداري، المجلة العربية للإدارة، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، القاهرة، العدد ٣، ديسمبر ٢٠٠٠ ، ص ١١٠، وانظر: بوزيد سايح، سبل تعزيز المساءلة والشفافية لمكافحة الفساد وتمكين الحكم الراشد في الدول العربية، مجلة الباحث، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد: ١٠، ٢٠١٢، ص ٥٦.

(٢) - الجابري، عبد الله بن حاسن، الفساد الاقتصادي أنواعه أسبابه، جامعة أم القرى، المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي، ص ٩.

١- أن الفساد في الفكر الاقتصادي الوضعي لا يتعدى نطاق استغلال الموظف العمومي منصبه لتحقيق مآرب شخصية، وهو كذلك وأكثر وأقلّ في المفهوم القرآني.

٢- أن سوء التسيير المؤسسي لا يعدو عن كونه سوء تسيير في منظور الاقتصاد الوضعي ما دام الموظف أو المسيّر لم يستغل منصبه ذاك لتحقيق مآرب خاصة، بينما هو فساد من أعظم الفساد في المفهوم القرآني.

٣- أنَّ أيّ كسْب لا يأتي بطريق شرعه الإسلام يعدّ فسادا في المفهوم القرآني، كما أنّ أيَّ صرف للمال في غير منفعة عامة أو خاصة يُعدّ فسادا، فما يُطلق عليه رفاهية في الاقتصاد الوضعي قد يكون إسْرافا وترفا ممقوتا في منظور القرآن؛ مما يعني أنه فساد اقتصادي، ومما يُسمى في الاقتصاد الوضعي فائدة وريْعا وربحا في المداينات هو ربا وفساد وحرْب على الله - عز وجل - ورسوله ﷺ، ومما يسميه الاقتصاد الوضعي ادخارا قد يكون اكتنازا في منظور القرآن، مما يعني أنه فساد، وكثيرا مما يسميه الاقتصاد الوضعي حوافز ومسابقات إنما هو قمار وميْسر وفساد اقتصادي محرّم بقواطع نصوص الوحي.

المطلب الثاني: العلاج القرآني للفساد في المال العام

الفرع الأول: السبل الوقائية من الفساد في المال العام في القرآن الكريم

أولا- تفعيل مفهوم قداسة الخدمة العامة لدى الموظف العمومي: لعله من أهم المقاصد التي دارت عليها كثير من آي القرآن الكريم هي تفعيل الاستشعار بالمسؤولية في أذهان متقلدي الولاية على المال العام في الدولة الإسلامية وخطورة المهمة الموكولة إليهم في رعاية المال العام، وأن مصالح المجتمع الإسلامي مرتبطة بوظائفهم، وأن يستشعروا عواقب هذه المهمة دنيويا وأخرويا إنْ بالحسنى فبالحسنى، وإنْ كان غير ذلك فغير ذلك، ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة جليا كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ، فالموظف العمومي ومَنْ أوكل إليهم تسيير المال العام هم من الخلائف في الأرض ومُكّنوا على الخلق الذين هم تحت وصايتهم درجة، وهذا من ابتلاء الله لهم هل يوفوا بما كلفوا به من المسؤولية أم يقصروا ولكلّ جزاءه. ويدل على هذا المعنى كذلك عموم قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة: ٢]، قال السعدي: "أي: ليعن

بعضكم بعضا على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين. والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكلُّ خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك. ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾وهو التجرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويحرج.﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ وهو التعدي على الخَلْق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه[1].

لذا لم يُغفل النبي ﷺ هذا المعنى القرآني بتوجيه الخطاب إلى هؤلاء ويضعهم في دور الراعي الحريص على شأن رعيته كما في حديث ابن عمر مرفوعا : " ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... "، ومن حكم حديثه هذا ﷺ أنه أطلق لفظ المسؤولية عن كل قيد، فالمتبادر أن المقصود به المسؤولية الأخروية وهي راجحة لكن هذا لا يلغي المسؤولية الدنيوية أمام السلطان والمجتمع والضمير السوي، قال المناوي: أي كل حافظ لشيء يسأله الله عنه يوم القيامة هل أصلح ما تحت نظره وقام بحقوقه أم لا ؟[2]

وقال الطيبي في هذا الحديث: إن الراعي ليس مطلوبا لذاته وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك فينبغي أن لا يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه[3]. وفي هذا المعنى القرآني ورد حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - أنّ النبي ﷺ قال : " أحب الناس إلى الله - عز وجل - أنفعهم للناس "[4]، فكأن النبي ﷺ من خلال جوامع كلمه في هذا الحديث رسم للمسلم المبادئ الأخلاقية للخدمة العامة في المجتمع الإسلامي باعتماد أسلوبيّ الترغيب

---

(١) - السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢١٨.

(٢) - محمد عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ط ١، ١٣٥٦ هـ، ج ٥ ص ٢٠.

(٣) - أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ٥ ص ٢٩٥.

(٤) - رواه الطبراني في "المعجم الكبير"، ج ١٢ ص ٤٥٣، ح "١٣٦٤٦"، و"المعجم الأوسط"، ج ٦ ص ١٣٩، ح "٦٠٢٦"، وحسن الشيخ الألباني إسناده في "صحيح الترغيب والترهيب"، ح "٢٦٢٣".

والترهيب، وجعْل الخدمة العامة من مظاهر الاستخلاف في الأرض، كل ذلك مما يُنبئ على قداسة الوظيفة العامة في النظام الإسلامي، وإنه إذا ترسخ في ذهن الموظف العام هذا المفهوم كان ذلك واقيا له عن الوقوع في الفساد الوظيفي، وعن النيل مما تحت يده من المال العام.

ثانيا: تولية الكفاءات المسيرة للمال العام: مما أكد عليه القرآن الكريم من الآليات لأجل حماية المال العام من الفساد هو النص على تولية الكفاءات التي يخول إليها الوصاية والتسيير للمال العام، كما نص على ما يجب أن تتصف به هذه الكفاءات من مؤهلات التسيير للمال العام:

أ- القوة والأمانة: فشرط القوة عند أهل العلم : الاهتداء إلى التصرف فيما هو ناظر فيه[1]. وبعضهم يعبر عنها بالكفاية أي الكفاءة.

وشرط الأمانة مطلوب في كلّ متولّ على مال أو منصب؛ وهو أشد توكيدا في المتولي للمال العام حفظا لحق الله تعالى وحقوق العباد، لأن بالأمانة تحفظ الأموال[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فأما استخراج الأموال وحفظها فلا بد فيه من قوة وأمانة فيولي عليها شاد قوي يستخرجها بقوته وكاتب أمين يحفظها بخبرته وأمانته"[3].

وقد دل القرآن الكريم على وجوب استيفاء المتولي للمال العام لهذين الشرطين لأن عليهما المعوّل في الوقاية من الفساد؛ قال تعالى على لسان يوسف u :﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة يوسف: ٥٥]. قال النسفي في معنى الآية: ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ عالم بوجوه التصرف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونه[4].

(١) – أبو بكر بن السيد الدمياطي، إعانة الطالبين على حل ألفاظ الفتح المعين، بيروت، دار الفكر، ج ٣ ص ١٨٦، وانظر في معناه: ابن نجيم الحنفي، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، ج ٤ ص ٢٣٩.

(٢) – الحطاب، مواهب الجليل، ج ٨ ص ٩٥، ابن قدامة، المغني، ج ٥ ص ٣٧٧.

(٣) – ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١٩.

(٤) – أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٥ م، ج ٢ ص ٢٣٥.

وفي قصة موسى - عليه السلام - مع صاحب مدين يذكر القرآن الكريم اعتبار الأمانة فيما يولىَّ عليه الناس من الولايات : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة القصص: ٢٦]. قال ابن عباس - رضي الله عنه - : أمين فيما وُلّي أمين فيما استودع[١].

قال الموصلي في حسن السلوك[٢]: "وإن كانت الحاجة إلى الأمانة أشد قدم الأمين مثل حفظ الأموال ونحوها، فأما استخراجها وحفظها فلا بد فيه من قوي أمين".

وفي السنة الشريفة نجد التأكيد على هذا المعنى القرآني في أن القوة شرط لتولي الولايات العامة، لذا اعترض النبيﷺعلى طلب أبي ذرّ الغفاري - رضي الله عنه - للولاية لأنه فاقد لشرط القوة، فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال: " يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها "[٣].

قال الإمام النووي رحمه الله: هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية[٤].

قال في "تهذيب الرياسة"[٥]: من قُلِّد مع العجز والخيانة ضيَّع أعماله وماله.

ب- العدالة: العدالة في اللغة من العَدْل: وهو ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم، وهو ضِدُّ الجَوْر. و العَدْلُ: الحُكْم بالحق. و العَدْلُ من الناس: المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه[٦].

والعدالة عند أهل الفقه: هي الصلاح في الدين والمروءة باستعمال ما يجمله ويزينه

---

(١) - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢٠ ص ٦٣.

(٢) - محمد بن محمد الموصلي الشافعي، حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، الرياض، المملكة السعودية، دار الوطن، ط ١، ١٤١٦ هـ، ص ١٠١.

(٣) - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ج ٣ ص ١٤٥٧، ح"١٨٢٥".

(٤) - أبو زكريا يحي بن شرف النووي، شرح صحيح مسلم، بيروت - لبنان، ط٢، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢ هـ، ج ١٢ ص ٢١٠.

(٥) - محمد بن علي القلعي، تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، الزرقاء، الأردن، ط ١، مكتلة المنار، ص ١٤٢.

(٦) - ابن منظور، لسان العرب، مادة "عدل"، ج ١١ ص ٤٣٠.

وتجنب ما يدنسه ويشينه[١].

والعدالـة ظاهـرة وباطنـة، فالعدالة الظاهـرة هي التـي لم يعرف لصاحبهـا مفسق. والعدالة الباطنة هي التي يرجع فيها إلى قول المزكين.

قال ابن شاس في الجواهر: "ينبغي له –يعني الحاكم- أن يستبطن أهل الخير والأمانة والعدالة ليستعين بهم على ما هو بسبيله، ويقوى بهم على التوصل إلى ما ينوبه، ويخففوا عنه ما يحتاج فيه إلى الاستنابة فيه؛ كالنظر في الأحباس والوصايا والقسمة وأموال الأيتام وغير ذلك، قال: والأقرب عندي أنه إن كان عاجزا عن ذلك إلا بهم فهو واجب وإلا فمستحب"[٢].

فالعـدل أساس كلّ ولايـة ووظيفة، وقد اتفق العلماء على اشـتراط عدالة الموظف العام كمعيار لاختياره لتولي الوظيفة فتلك عدالته في نفسه، وهذه عدالته مع غيره، والأولى أساس هـذه؛ فمن كان عدلًا في نفسه دعاه ذلـك للعدل مع غيره؛ لأن العدل مطلب أخلاقي دعا إليه القـرآن الكريم في مواطن شتى وهو أساس التقوى، وأكبر حصن من الفساد المالي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ ﴾ [سـورة المائـدة: ٨]. قـال المفسـرون والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكـم للمشركين على ترك العـدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقـوى بعـد ما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين[٣].

وفي آيـة أخـرى يؤكد القرآن علـى أهمية العدل في الولايـات: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ ﴾[سورة الحجرات: ٩]. قال السعدي: أي يحب العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات، التي تولوها، حتى إنه، قد يدخل

(١) – ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١١٦ – ١١٧.

(٢) – الحطاب، مواهب الجليل، ج ٨ ص ٩٥.

(٣) – البيضاوي، أنوار التنزيل، ج ٢ ص ١١٧. والنسفي، مدارك التنزيل، ج ١ ص ٤٣٢.

في ذلك عدل الرجل في أهله، وعياله، في أدائه حقوقهم.[1]

وهناك أحاديث كثيرة تصب في هذا المعنى القرآني من الحثّ على العدل في الوظيفة العامة منها الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : " إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن - عز وجل - وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا "[2]. ومن كمال العدل في الوظيفة المسيرة للمال العام القيام على مصالح العامة، وعدم الاحتجاب عن حاجاتهم لما في الحديث الصحيح : " مَنْ ولاَّه الله - عز وجل - شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره "[3].

قال الأمير الصنعاني: والحديث دليل على أنه يجب على من ولي أمرا من أمور عباد الله أن لا يحتجب عنهم أن يسهل الحجاب ليصل إليه ذو الحاجة[4].

ثالثا- الرقابة الذاتية لراعي المال العام:

وهي من أهم السبل الوقائية لظاهرة الفساد، فقد تظافرت نصوص الوحي بالدعوة إلى الورع والخشية من سوء العاقبة، والحذر من الشبهات، وعدم أكل المال بالباطل ،كلّ ذلك في سياق آيات وأحاديث الوعد والوعيد بقصد تأسيس قواعد التربية الروحية وتفعيل دور الضمير السليم في الرقابة على أفعال صاحبه، ولأن المتولي على العام تعلّقت في ذمته حقوق الله وحقوق العباد كان جديرا بأن يكون رقيبا على نفسه، وحسيبا على أفعاله وأقواله، وهذه الرقابة الذاتية تتولد في النفس بالرغبة والرهبة؛ أي بالرغبة في الأجر في الآخرة على ما يتقرب به العبد من الطاعات التي من أعظمها حفظ المال العام، أو بالرهبة من العذاب وسوء العاقبة لمن ضيعه وأفسده، ومن أعظم النصوص الموصية بضرورة الرقابة على النفس

---

(١) - السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٠٠.

(٢) - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية...، ج ٤ ص ١٤٥٨، ح"١٨٢٧".

(٣) - رواه أبو داود بلفظه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب فيما يلزم الإمام من أمر الرعية والحجبة عنه، ج ٣ ص ١٣٥، ح"٢٩٤٨"، والترمذي، كتاب الأحكام، باب ما جاء في إمام الرعية، ج ٣ ص ٦١٩، ح"١٣٣٢"، والحاكم، ج ٤ ص ١٠٥، ح"٧٠٢٧".

(٤) - محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، سبل السلام شرح بلوغ المرام، بيروت - لبنان، ط ٤، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٩ هـ، ج ٤ ص ١٢٤.

مـن الجـور في التصرفات لكل من حمل عبء المسؤولية ومنهـا المسؤولية على المال العام قول الله – سبحانـه وتعـالى – :﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[المدثر: ٣٨]. أي كل نفس مأخوذة بعملها مرتهنة بكسبها عند الله غير مفكوكة عنه، كافرة كانت أو مؤمنة، عاصية أو طائعة(١).

ومن أوضح النصوص المتوعدة للفاسدين من أصحاب الولايات على المال العام وغيرهم قولـه تعـالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧]. ومن أعظم خيانة الأمانات وأشدها جرما هي أكل المال العام كالغلول في المغانم، أي السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو غيره(٢).

كمـا توعـد القرآن من يغلل من الغنيمة بسوء العاقبة يـوم القيامة فقال:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [سـورة آل عمـران: ١٦١]. أي يأتي به حاملا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فيفضحه بين الخلائق، وهذه الآية تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد ويطلع عليها أهل المحشر وهي مجيئه يـوم القيامة بما غله حاملا له قبـل أن يحاسب عليه ويعاقب(٣). وهذا الترهيب يجعل المتولي علـى المال العـام يرقب تصرفاته في وصايته عليه. فقوله – عـز وجل – : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ ﴾ هو من الغلول؛ وهو أخذ الشيء خفية من المغانم وغيرها.(٤)

وكثـير من الأحاديث النبوية الصحيحة سلكت سبيـل القرآن في تربية نفس المتولي على المـال العـام على الرقابة الذاتية؛ منهـا ما صح عن عدي بن عميرة سنـان – رضي الله عنه – قال سمعت رسول اللهﷺيقول : " من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوقه

(١) – القنوجـي، أبو الطيـب محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن، صيـدا- بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ج ١٤ ص ٤١٨. والمراغي، تفسير المراغي، ج ٢٩ ص ١٤٠.

(٢) – القاسمـي، محمـد جمال الدين بن محمـد سعيد، محاسن التأويل، بيروت، لبنـان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨ هـ، ج ٥ ص ٢٧٩.

(٣) – القنوجـي، أبـو الطيب محمد صديق خان، نيل المـرام من تفسير آيات الأحكام، بـيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ص ١٢٤.

(٤) – الغرناطـي، أبـو القاسم أحمـد بن محمد بن أحمد بن جـزي، التسهيل لعلوم التنزيل، بـيروت – لبنان، دار الأرقم، ط ١، ١٤١٦هـ، ج ١ ص ١٧٠.

كان غلولا يأتي به يوم القيامة ... "[1].

ولما صحّ في حديث أبي حميد الساعدي - رضي الله عنه - قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلا على صدقات بني سليم يدعى ابن اللتبية فلما جاء حاسبه قال: هذا مالكم، وهذا هدية. فقال رسول الله ﷺ: " فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا " ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أمَّا بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولأّني الله فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة... "[2].

المطلب الثالث: السبل العلاجية من فساد المال العام في القرآن الكريم

عالج القرآن ظاهرة الإثراء بلا سبب التي تطرأ على حالات مخصوصة من متوليي المال العام في المجتمع الإسلامي، لما في ذلك من مظنة الفساد، وكان أشد حرصا على علاج ذلك في بيئة الوظيفة العامة لتعلّق ذلك بالمال العام، وهذا بطبيعة الحال يُثير الاهتمام بضرورة تفعيل قاعدة المساءلة الوظيفية القاضية عن الفساد الاقتصادي "من أيَن لك هذا"، ويتبيّن أن كلّ ثراء غير معتاد في حال الوظيفة برهان على فساد الموظف العام واعتداء منه على ما تحت يده من المال العام.

ومن بين سبل العلاج التي أقرها القرآن لردّع المعْتدين على المال العام تشريعه لعقوبات مختلفة تتناسب مع مختلف مستويات جرْم الفساد المرتكب في حق المال العام:

١- حدّ السرقة:

وهو من العقوبات المقدّرة الثابتة بالنصّ القرآني التي تعالج مشكلات الفساد الاقتصادي فيما يتعلّق بسرقة المال العام وكلّ ما ينطبق عليه وصف السرقة من تحويل المال

(١) - رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ج ٣ ص ١٤٦٥، ح"١٨٣٣"، وأبو داود، كتاب الأقضية، باب في هدايا العمال، ج ٣ ص ٣٠٠، ح"٣٥٨١"، وأحمد، ج ٤ ص ١٩٢.

(٢) - البخاري، كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدي له، ج ٦ ص ٢٥٥٩، ح"٦٥٧٨"، ومسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ج ٣ ص ١٤٦٣، ح"١٨٣٢".

مـن الحسابات العامة إلى الخاصة وما في حكمها، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة المائدة: ٣٨]. والسرقة من المـال العام من أعظم الجـرم لكونه يتعلق بحقوق الله - جل جلاله - وحقوق عامة المسلمين، ولذلـك استحق السارق قطـع يده جزاء ونكالا؛ و "ليس ذلك التغليظ في عقوبة السرقة قسوة مـن الإسلام، واستخفافا بالإنسـان، واسترخاصا لوجوده كما يقول ذلك- زورا وبهتانا- من يكيـدون للإسلام، ويبيّتون له مالا يرضى من القـول.. وإنما ذلك العقاب هو الجزاء العادل الرحيـم، إزاء هذا الجرم الشنيع، الذي يعدّه الإسلام من أشنع الجرائم، إذ هو اعتداء على حرمة الإنسان، في أعزّ ما يحرص عليه، وهو المال"[(١)].

٢- حدّ الحرابة:

وآية الحرابة من أظهر الآيات الداعية للقضاء على الفساد في المال العام، لأنه من أعظم الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[سـورة المائدة: ٣٣]. فالعقوبات في الآية عند مالك إنما هي للتخيير؛ يختار الإمام لكلّ جرم ما يناسبه من العقوبة[(٢)].

وإننـا نقـول إنّ مـن جرائـم الحرابـة مـا يتعلّـق بالفسـاد في المـال العـام، وقـد أوقع النبيﷺعقوبة الحرابة على المعتدين على المال العام -وهي إبل الصدقة- لما صح أن ناسا مـن عرينـة قدموا على رسـول الله - ﷺ - المدينة فاجتووها، فقال لهـم رسول الله - ﷺ -: "إن شئتـم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة فتشربون من ألبانها وأبوالها" ففعلوا فصحوا ثم مالوا على الرعاء فقتلوهم واستاقوا ذود رسول الله - ﷺ -، فبلغ ذلك النبي - ﷺ - فبعث في إثرهم، فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا[(٣)].

---

(١) - عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج ٣ ص ١٠٩٤.

(٢) النفراوي، الفواكه الدواني، ج ٢ ص ٢٠٤. وابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس، ج ٦ ص ١٨٥.

(٣) - رواه مسلـم بلفظه، كتـاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكـم المحاربين والمرتدين، ج ٣ ص ١٢٩٦، ح "١٦٧١"، والبخاري، كتاب الزكاة، باب استعمال إبل الصدقة، ج ٢ ص ٥٤٦، ح "١٤٣٠".

التعزير:

نظـرا لتشـوّف الشريعـة الإسلامية لتحقيق العدالـة في المجتمع الإسلامـي، ومواكبتها لتغـيّرات المكان وتقلّبات الزمـان، فبموازاة العقوبـات المقدرة للجرائـم المنصوصة شرّعت عقوبـات اجتهادية تعزيرية، يقدّرها الحاكم بما ينـاسـب حجم الجرّم غير المنصوص عليّه، وإنّ الكثير من جرائم الفساد في المال العام من الاختلاسات والرشى وتضييع الأموال العامة وكثـير منها جرائـم واحتيالات لا عهد بها لمن مضـى من القرون هي معنيّـة بعقوبة التعزير التـي أوكلتهـا الشريعة للحاكم، وقد قرر القـرآن الكريم في عموم آياتـه تعزير المفسد للمال العام بمثل ما أفسد، قال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]. قال في مفاتيح الغيب: هذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها وذلك لأن الإهـدار يوجب فتح باب الشـر والعدوان، لأن في طبع كل أحد الظلـم والبغي والعدوان، فإذا لم يزجـر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلـم يبـق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أخـر، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [غافر: ٤٠]....[١].

(١) – الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٧ ص ٦٠٥.

خاتمة

الحمد لله الذي وفقني لتمام هذا العمل مع ما فيه من الخلل والزلل، وقد تراءت لنا فيه بعض النتائج التي هي حقيقة بالذكر؛

مقاصد القرآن الكريم هي الغايات التي أنزل القرآن لأجلها، وقد انفرد القرآن الكريم بكثير من المقاصد المتعلقة بالأموال، ومنها الأموال العامة، إما في عموم الآيات أو فيما اختصت بالأموال.

المال العام هو الذي يكون صاحبه مجموع الأمة أو الجماعة منها دون النظر لأشخاص أفرادها على التعيين، بحيث يكون الانتفاع بالأموال التي تتعلق بها لهم جميعا دون اختصاص بها من أحد، وهو يختلف عن المال الخاص من عدة وجوه، سواء من حيث الحقيقة، أو الحرمة، أو الموارد أو المصارف.

من مقاصد القرآن في المال العام، أنه مال الله – جل جلاله – فيحفظ حق الله فيه، وهو مسخر لجميع الخلق.

من مقاصد القرآن في المال العام أن أوكل شأنه إلى السلطان؛ فيرعى حق الله U فيه، فيأخذه بحقه ويصرفه في حقه، ويراعي فيه مصالح العامة قبل الخاصة.

من مقاصد القرآن في المال العام أن للرعية مسؤولية في حفظه وتنميته.

راعى القرآن الكريم في مقاصده المال العام من حيث العدم بتشريع سبل وقائية لحفظ المال العام من الفساد، وأخرى علاجية ترفع ضرر الفساد.

من مقاصد القرآن الكريم في الوقاية من الفساد في المال العام أنه عظم شأن المسؤولية للمتولين على المال العام، والدعوة إلى تولية الأكفاء ذوي القوة والأمانة والعدالة على المال العام.

من مقاصد القرآن في علاج الفساد في المال العام أنه شرع الحدود والتعزيرات لتطهير الوظيفة من الفساد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المصادر والمراجع

١. ابـن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، ط ١، ١٩٨٥م.

٢. ابـن شاس، جلال الديـن عبد الله بن نجم، عقـد الجواهر الثمينـة في مذهب عالم المدينة، بيروت – لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٣. ابـن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختـار، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

٤. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

٥. ابـن عاشور، محمد الطاهـر بن محمد، مقاصـد الشريعة الإسلاميـة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٣٦٦هـ.

٦. ابـن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.

٧. ابـن مفلـح، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المبدع في شـرح المقنع، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ.

٨. ابن منظور، محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، بيروت، (د ت).

٩. ابـن نجيم، زين الدين بن إبراهيم الحنفي، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، بيروت – لبنان، دار المعرفة، د ت.

١٠. أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، بيروت، دار النفائس، ٢٠٠٥ م.

١١. أبـو العلا، عـادل بن محمـد، مصابيح الدرر، الجامعـة الإسلاميـة بالمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

١٢. أبو بكر بن السيد الدمياطي، إعانة الطالبين على حل ألفاظ الفتح المعين، بيروت، دار الفكر.

١٣. أبوزكريا يحي بن شرف النووي، شرح صحيح مسلم، بيروت، ط٢، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢ هـ.

١٤. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، القاهرة، المكتبة الأزهرية، د ت.

١٥. الألوسي، أبو الفضل محمد، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

١٦. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

١٧. الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ.

١٨. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ١٩٩٢م.

١٩. البستي، أبو حاتم بن حبان ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤ه.

٢٠. البغدادي، أبو الفرج ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢١. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢٢. البنك العالمي للإنشاء والتعمير، تقرير عن التنمية في العالم ١٩٩٧، الترجمة العربية، القاهرة، مركز الأهرام.

٢٣. البيضاوي، أبو سعيد عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت،دار إحياء التراث،ط١، ١٤١٨ه.

٢٤. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار الفكر، بيروت، (د ت).

٢٥. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، السنن، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢ هـ.

٢٦. الجابري، عبد الله بــن حاسن، الفساد الاقتصادي أنواعه أسبابه، جامعة أم القرى، المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي، ٢٠٠٣م.

٢٧. الجديع، عبد الله بن يوسف، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ليدز، مركز البحوث الإسلامية، ط١، ١٤٢٢ه.

٢٨. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي، أحكام القرآن، بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ.

٢٩. الجوينــي، إمام الحرمين عبد الملك بن عبــد الله، البرهان في أصول الفقه، القاهرة، مكتبة المنصورة،ط٤، ١٤١٨هـ.

٣٠. الحــراني، شيــخ الإسلام أبــو العباس أحمــد، السياسة الشرعيــة في إصلاح الراعي والرعية، دار المعرفة، بيروت.

٣١. الحسيني، محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم "تفسير المنار"، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٠م.

٣٢. الحطــاب، أبــو عبد الله محمد بن محمد، مواهب الجليــل، دار الفكر ، بيروت، ط ٣، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٣٣. الــرازي، أبو عبــد الله فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيــب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

٣٤. الراغــب، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات، دمشق- دار القلم- بيروت، الدار الشامية، ط ١، ١٤١٢هـ.

٣٥. الريســوني، أحمــد، مقاصــد المقاصد، الغايــات العلميــة والعملية لمقاصــد الشريعة الإسلامية، دار الكلمة، ط١، ٢٠١٤م.

٣٦. الريســوني، أحمــد، نظريــة المقاصــد عند الإمــام الشاطبي، الــدار العالميــة للكتاب الإسلامي، ط ٢، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٣٧. الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، القاهرة، (د ت).

٣٨. الزرقا، مصطفى أحمد، المدخل الفقهي العام، دمشق، مطبعة الحياة، ١٣٨٣هـ.

٣٩. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله، المنثور في القواعد، الكويت، وزارة الأوقاف، ط ٢، ١٤٠٥هـ.

٤٠. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت،دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٤١. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، السنن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

٤٢. السرخسي، أو بكر شمس الدين محمد بن أبي سهل، المبسوط، بيروت – لبنان، دار الفكر، ط ١، ١٤٢١هـ.

٤٣. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تيسير الكريم الرحمن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠ه.

٤٤. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٤٥. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣م.

٤٦. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات، بيروت، لبنان، دار المعرفة، ط ٥، د ت.

٤٧. الشهابي أنعام وداغر منقذ، العوامل المؤثرة في الفساد الإداري، المجلة العربية للإدارة، القاهرة، العدد ، ٢٠٠٠م.

٤٨. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فنَّيّ الرواية والدراية، بيروت- دار الكلم الطيب، ١٤١٤ هـ.

٤٩. الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ.

٥٠. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.

٥١. الطـبري، أبو جعفر محمـد بن جرير، جامع البيان عن تأويـل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

٥٢. العبيـدي، إبراهيم عبد اللطيف إبراهيم، الملكيـات الثلاث؛ دراسة عن الملكية العامة والملكية الخاصة وملكية الدولة في النظام الاقتصادي الإسلامي، دبي، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٥٣. العسقـلاني، أبـو الفضل بن حجر، فتح البـاري شرح صحيح البخـاري، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٣٧٩ هـ.

٥٤. العمـادي، أبو السعود محمد، إرشاد العقـل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٥٥. العيني، أبو محمد بدر الدين محمود، البناية شرح الهداية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٦. الغرناطـي، أبـو القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن جـزي، التسهيل لعلوم التنزيل، بيروت، دار الأرقم، ط١، ١٤١٦هـ.

٥٧. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال، د ت.

٥٨. القاسمـي، محمد جمال الدين بـن محمد سعيد، محاسن التأويل، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨ هـ.

٥٩. القرطبـي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامـع لأحكام القرآن، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٦٠. القزوينـي، أبو عبد الله محمـد بن ماجة، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، (د ت).

٦١. القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب المصري، القاهرة، (د ت).

٦٢. القنوجـي، أبـو الطيب محمد صديـق خان، فتح البيـان في مقاصد القـرآن، صيدا- بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٢هـ.

٦٣. القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، بيروت،دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

٦٤. الكاساني، علاء الدين أبو بكر، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٠٦هـ.

٦٥. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، كتاب الكليات، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ.

٦٦. الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، تأويلات أهل السنة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦هـ.

٦٧. المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية، د ت.

٦٨. المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط ١، ١٣٥٣هـ - ١٩٤٦م.

٦٩. المرسي، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

٧٠. المقدسي، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، المغني شرح مختصر الخرقي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ.

٧١. النفراوي، أحمد بن غنيم، الفواكه الدواني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د ت).

٧٢. النملة، عبد الكريم بن محمد بن علي، المهذب في أصول الفقه، الرياض، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٢٠هـ.

٧٣. النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ت).

٧٤. الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، بيروت، دار الفكر، د ت.

٧٥. إمنصوران سهيلة، الفساد الاقتصادي وإشكالية الحكم الراشد وعلاقتهما بالنمو الاقتصادي– دراسة اقتصادية - حالة الجزائر-، مذكرة تخرج ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير، قسم العلوم الاقتصادية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦ .

٧٦. أوهـاب، نذيـر بن محمد الطيـب، حماية المال العـام في الفقه الإسلامـي، الرياض، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، مركز البحوث والدراسات، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧٧. برنامـج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)، مكافحة الفسـاد لتحسين إدارة الحكم، شعبة التطوير الإداري وإدارة الحكم ،مكتب السياسات الإنمائية، ١٩٩٨ م.

٧٨. بوزيـد سايح، سبل تعزيز المساءلـة والشفافية لمكافحة الفساد وتمكين الحكم الراشد في الدول العربية، مجلة الباحث، جامعة ورقلة، الجزائر، العدد: ١٠، ٢٠١٢.

٧٩. سيـد قطـب، إبراهيم حسـين الشاربـي، في ظلال القـرآن، بـيروت – القاهرة، دار الشروق، ط ١٧، ١٤١٢هـ.

٨٠. عبـد الكريم حامدي، مقاصد القرآن الكـريم من تشريع الأحكام، بيروت، لبنان، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٨م.

٨١. عبـد الله محمـد الجيوسـ الفساد-مفهومه-أسبابه-أنواعـه وسبـل القضاء عليه- رؤيـة قرآنية، الرياض، مركز الدراسـات والبحوث، قسم الندوات واللقاءات العلمية، المؤتمـر العربـي الدولي لمكافحـة الفساد، الرياضـ، ١٠ – ١٢/٠٨/١٤٢٤هـ - ٠٦ – ٠٨/١٠/٢٠٠٣.

٨٢. عواضـ، زاهر الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي، الرياض، مطابع الفرزدق، ط ١، ١٩٨٥م.

٨٣. مالـك بـن أنس، المدونة الكبرى، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٨٤. محمـد بـن إسماعيل الأمير الصنعاني، سبل السلام شـرح بلوغ المرام، بيروت، ط٤، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٩ هـ.

٨٥. محمـد بن علي القلعـي، تهذيب الرياسة وترتيـب السياسة، الزرقـاء، الأردن، ط ١، مكتبة المنار.

٨٦. محمد بن محمد الموصلي الشافعي، حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، الرياض، دار الوطن، ط ١، ١٤١٦ هـ.

٨٧. محمـد عبد الـرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامـع الصغير، مصـر، المكتبة التجارية الكبرى، ط ١، ١٣٥٦ هـ.

٨٨. محمد عبد الفضيل، مفهوم الفساد ومعاييره، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد: ٣٠٩ ، نوفمبر ٢٠٠٤ .

٨٩. مسلـم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دمشق، دار القلم، ط ٤، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٩٠. مفيـد ذنون يونس وعدنان دهام أحمد، أثر الفساد في النمو الاقتصادي في ظل تباين مؤسسـة الحكـم، جامعـة الموصل، تنميـة الرافدين، العـدد ١٠٩، مجلـد ٣٤، السنة ٢٠١٢م.

٩١. مكتب السياسـات الإنمائية، الفساد والحكم الرشيد، شعبـة التطوير الإداري وإدارة الحكم، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، نيويورك تموز/يوليه١٩٩٧ ورقة مناقشة رقم "٠٣".

-François Philippe Montigny ,L'entreprise face à la corruption internationale, Preface de Périgot , Ellepses edition marketing 2006.

د.عبد الشافى أحمد على أحمد الشيخ

- مصرى الجنسية
- تاريخ الميلاد ٢٨/ ٧ / ١٩٧٣ م
- الوظيفة / أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك بكلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر بالقاهرة
- المؤهل / دكتوراه فى التفسير وعلوم القرآن الكريم .
- الدرجة العلمية / أستاذ مشارك
- وعضو لجنة فحص التأليف والنشر بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

المؤهلات العلمية :

- الماجستير من جامعة الأزهر بتقدير امتياز بعنوان : " ملا على القارى ومنهجه فى تفسير القرآن الكريم "
- الدكتوراة من جامعة الأزهر مع مرتبة الشرف الأولى بعنوان : " تفسير سورة البقرة بين الزمخشرى وأبى حيان دراسة مقارنة "
- الترقية لدرجة أستاذ مشارك فى ذات التخصص .

المؤتمرات :

- مؤتمر " التفسير الموضوعى واقع وآفاق " بالإمارات العربية المتحدة والذى نظمته "جامعة الشارقة " عام ٢٠١٠ م .
- مؤتمر عن انتشار ظاهر التكفير بالمدينة المنورة ٢٠١١م
- ندوة عن الإنسان فى القرآن نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامى.٢٠١١م
- مؤتمر الإسلام والسلام بجامعة الدمام ٢٠١٢م .
- مؤتمر عن المرأة في السيرة النبوية والمرأة المعاصرة بجامعة القصيم ٢٠١٢م
- الأبحاث والدراسات : أكثر من ثلاثين دراسة منها
- مؤانسة أولى الألباب بشرح مائة فائدة من سورة الأحزاب
- التفسير الموضوعى فى الرسائل الجامعية .
- الأسباب التربوية لانتشار ظاهرة التكفير بين طلاب الجامعة .
- الدعوة وإدارة الأزمات تطبيقات من القرآن الكريم .

التصحر مشكلة تصدى لها القرآن الكريم

إعداد

د/ عبد الشافي أحمد علي الشيخ

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

جامعة الأزهر

مقدم للمؤتمر القرآني الدولي الأول لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة

المقدمة

الحمـد لله وكفى ، وصلاة وسلامـا على عباده الذين اصطفى ، محمـد وآله والصحب والتابعـين ومن اقتفـى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . سخر بقدرتـه الشمس والقمر والنجـوم والجبـال والشجر والدواب وغيرها لتكون في خدمة الإنسـان واستعمره في الأرض، وجعله سيدا مؤتمنا على ما في الكون لينظر ماذا يفعل .

أمـا بعـد: فيحتفل العالم يوم السابـع عشر من يونيو كل عام باليـوم العالمي لمواجهة ما يعرف بظاهرة "التصحر والجفاف" . وما هذا إلا لإدراك العالم عن يقين مدى خطورة هذه الظاهرة التي تهدد أمن الإنسان على هذه البسيطة، وإذا أردنا الوقوف على حقيقة التصحر فيمكننا القول :

إن ظاهـرة التصحـر ليس المقصود بها مجـرد اتساع للصحراء علـى حساب الأراضي الزراعية المجاورة وانكماش الرقعة الخضراء الخصبة فحسب .

ولكنـه يتجـاوز هذا المفهوم ليُقصدَ بـه وقوع تدهور في التربة والنبـات الطبيعي وموارد المياه بما يؤثر سلبًا على صحة الحيوان والإنسان ويحرمهما من فرص الحياة.(١)

وعلـى خـلاف ما قـد يظنه الكثـيرون مـن أن التصحر مشكلـة طبيعيـة يسببها نقص الأمطار، بات من المؤكد أن التصحر نتاج عملية متصلة من تدهور الأرض يلعب الإنسان فيها دورًا أساسيـا، ويُتّهمُ الإنسـان بضلوعه في وقوع تدهور التربة والنبات والمياه الجوفية بأفعاله غير المسئولة .

والإسـلام – كعادته – لا يقـف مكتوفا أمام ما يتعلق بسلوك البشر أو ما يمس مقومات حياتهم ،

ومن هنا تنامت فكرة دراسة ظاهرة التصحر من منظور إسلامي - من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية - ، للوقوف على منهج الإسلام في مواجهة هذه الظاهرة . التي

(١) البيئات والتصحر التلوثى د محمد ابراهيم حسن جامعة الأسكندرية ٢٠٠٤ م ص ٧ .

يُتهم فيها الإنسان بفعله بالدرجة الأولى ، ومعلوم أن كل ما يتعلق بفعل الإنسان فقد وضع فيه الإسلام بصمة صريحة تميزه عن غيره من التشريعات ، ومشكلة التصحر من هذا النوع الذي له عظيم ارتباط وصلة بسلوك الإنسان ، ومن ثمَّ لم يغفل الإسلام -ممثلا في نصوصه وتشريعاته- علاج هذه الظاهرة بمنهج وقائي وآخر علاجي أدهش الدراسات الحديثة كما سيتضح في ثنايا الدراسة .

وجاءت الدراسة في تمهيد ومبحثين وخاتمة كالآتي :

التمهيد : وفيه تعريف بالتصحر وبعض المصطلحات ذات الصلة .

المبحث الأول : أحكام الأرض والنبات في الإسلام وفيه :

- الأرض الموات وأحكامها وحرمة الاحتجاز فوق ثلاث بدون استخدام .
- الأراضي في البلاد المفتوحة وهي في يد غير المسلمين .
- الإسلام وسياسة الأرض
- حكم إهلاك النبات في الحج وغيره .

المبحث الثاني: البيئة النموذجية في القرآن وفيه :

- دعوة الإسلام للتخضير واستثمار البيئة بالزراعة .
- مجابهة التصحر في القرآن .
- حسن التخطيط في الزارعة يقاوم التصحر .
- منع الزكاة سبب في التصحر .
- الخاتمة: وفيها ما تتوصل إليه الدراسة من نتائج وتوصيات .

والله وحده أسأل أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

التمهيد

عندما يمر أمامنا مصطلح" التصحر " يهجم على خاطرنا صورة مساحات من الأراضي المتشققة أو أرض صحراوية قاحلة ، لينطبع في مخيلتنا أن التصحر ليس إلا عملية تحول للأراضي المنتجة إلى أراض صحراوية مع مرور الزمن .. وهذا المفهوم وإن كان صحيحا إلا أنه غير دقيق حيث إنه لم يستوعب جميع حالات التصحر .

فالتصحر يطلق على حدوث عملية هدم أو تدمير للطاقة الحيوية للأرض (التربة والنبات الطبيعي وموارد المياه) و التي يمكن أن تؤدي في النهاية إلى ظروف تشبه ظروف الصحراء وهو مظهر من التدهور الواسع للأنظمة البيئية الذي يؤدي إلى تقلص الطاقة الحيوية للأرض المتمثلة في الإنتاج النباتي والحيواني بما يؤثر سلبًا على صحة الحيوان والإنسان ويحرمهما من فرص الحياة للوجود البشري .

ورغم أن تناقص الإنتاجية الزراعية ومن بعدها الحيوانية يعد مظهراً أساسيا للأراضي المتصحرة، فإن النتيجة قد لا تكون بالضرورة تحول الأرض إلى شكل الصحراء برمالها الصفراء وخلوها من النباتات، كما هو متخيل لدى غالبية الناس. (١)

ويؤثر التصحر تأثيرًا مفجعًا على الحالة الاقتصادية للبلاد، حيث يؤدي إلى خسارة تصل إلى ٤٠ بليون دولار سنويًّا في المحاصيل الزراعية وزيادة أسعارها ، وفي كل عام يفقد العالم حوالي٦٩١ كيلومتر مربع من الأراضي الزراعية نتيجة لعملية التصحر، بينما حوالي ثلث أراضي الكرة الأرضية معرضة للتصحر بصفة عامة.

من هنا يتبين إن التصحر أحد المشاكل البيئية الخطيرة ، التي تواجه العالم حاليا و هو يتطور في أغلب أرجاء المعمورة وعند معدلات متسارعة (٢).

حالات التصحر :

تختلف حالات التصحر ودرجة خطورتها من منطقة لأخرى ، ويرجع ذلك لعدة عوامل يتضمنها البحث في مقامها ، وهناك أربع درجات للتصحر وهي كالآتي :

---

(١) إبراهيم نحال ، التصحر في الوطن العربي ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م ص ١٣ وما بعدها بتصرف.

(٢) محسن عبد الحميد توفيق ، الإدارة البيئية في الوطن العربي ، تونس ، ١٩٩٣م ص ٤٣

١. **تصحر خفيف :** وهو حدوث تلف أو تدمير طفيف جدا في الغطاء النباتي والتربة ولا يؤثر على القدرة على ممارسة الزراعة وإنتاج المحاصيل .
٢. **تصحر معتدل :** وهو تلف بدرجة متوسطة للغطاء النباتي وتكوين كثبان رملية صغيرة أو أخاديد صغيرة في التربة وكذلك تملح للتربة . وتأثيره على التربة يمكن التعامل معه .
٣. **تصحر شديد :** وهو انتشار الحشائش والشجيرات غير المرغوبة وذلك على حساب الأنواع المرغوبة والمستحبة ويزداد نشاطها بزيادة نشاط التعرية .
٤. **تصحر شديد جدا :** وهو تكوين كثبان رملية كبيرة عارية ونشطة وتكوين العديد من الأخاديد والأودية وتملح التربة ويؤدي إلى تدهور التربة وهو الأخطر في أنواع التصحر .

والوطن العربي نظرا لاتساع رقعته الزراعية وأطرافه المترامية ، فإنه الناظر في جغرافيته يدرك أن جميع أنواع التصحر موجودة في الوطن العربي لكن تختلف ودرجتها من مكان إلى مكان ، وهو ما يفسر وجود مناطق عديدة في الوطن العربي غير مأهولة بالحياة فضلا عن السكان [1] .

العوامل الطبيعية لانتشار ظاهرة التصحر :

إن التصحر من المشكلات والظواهر التي تتفاقم خطورتها يوما بعد يوم ، وكان لابد من رصد للعوامل التي تساعد على تزايد هذه الظاهرة للعمل على الحد منها ومواجهتها ، وإليك بعضا من هذه العوامل .

غزو الكثبان الرملية للأراضي الزراعية .

تدهور الأراضي الزراعية بسبب انخفاض كمية المياه خاصة تلك الأراضي المعتمدة على الأمطار والمياه الجوفية .

تملح التربة بسبب سوء الصرف أو عدم صلاحية المياه المستخدمة في الري .مما يسبب انخفاض خصوبة الأراضي الزراعية .

تدهور المراعي ، فللنباتات والحيوانات دورها بتفاعلها مع بيئتها فهي تساهم بصورة

---

(١) محسن عبد الحميد توفيق ، الإدارة البيئية في الوطن العربي ، تونس ، ١٩٩٣ ص ٥٣ .

رئيسية في الحفاظ على توازن البيئة ، فالإفراط الرعوي يؤدي إلى سرعة إزالة الغطاء النباتي وما ينتج عنه من تدهور للمراعي .

زيادة نشاط التعرية المائية والهوائية ،التي يقصد بها إزالة الطبقة الخصبة منها الحاوية على المواد العضوية و المعدنية . فالرياح تؤدي إلى سرعة جفاف النباتات وذبولها الدائم خاصة إذا استمرت لفترة طويلة. هذا بالإضافة إلي أنها تمزق النباتات وتقتلعها وخاصة ذات الجذور الضحلة مما يؤدي إلي إزالة الغطاء النباتي. كما أن الأمطار الغزيرة والسيول تسبب انجراف التربة وهو من أخطر العوامل التي تهدد الحياة النباتية والحيوانية في مختلف بقاع العالم .

وفي جانب العوامل البشرية فقد أكدت عدة دراسات أن سلوك الإنسان له ارتباط وثيق بعملية انتشار التصحر ويبين هذا من خلال المجالين التاليين :

- **المجال الأول:** يتمثل بالضغط السكاني الذي ينتج عنه مزيد من التوسع الزراعي وزيادة أعداد الماشية
- **المجال الثاني :** يتمثل في نمط استخدام الأرض الذي تختلف نوعيته وكثافته من مكان إلى أخر.

وهناك عامل أخر يتمثل بالضغط الزراعي الذي يقصد به تكثيف استخدام الأرض بالزراعة أو تحميل التربة أكثر من طاقتها حيث يؤدي ذلك إلى حدوث تدهور في التوازن البيئي و انتشار التصحر .[1]

الأرض والتربة الزراعية :

أولا الأرض: وتطلق على عدة مكونات وهي :" اليابسة والماء والهواء "

والأرض تتنوع من حيث المناخ والطبيعة والتربة تنوعا يخضع للعوامل الجوية والجفاف وغير ذلك مما يسهم بشكل ملحوظ في تشكيل الأرض .

ثانيا التربة : ويقصد بها : الوسط الذي تنبت فيه النباتات وتثبت جذورها وتحصل منه

---

(١) مشكلة التصحر في الوطن العربي ، أسبابها ، أبعادها ووسائل مكافحتها ، هاشم نعمة ، الملتقى الجغرافي الثاني ، جامعة قار يونس ، بنغازي ، ليبيا ، ١٩٩٤م ص ٢٢

على ما تحتاج لنموها من ماء وغذاء .

وقد أكد القرآن الكريم أن الأراضي تختلف من نوع إلى نوع فقال تعالى (وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [1]، ثم بين الله أن هذا الاختلاف في نوعية التربة له تأثير مباشر على مستوى الإنتاج. فقال: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) [2]

سمى الله في هذه الآية التربة بالبلد، وهو أمر له وجاهته . إذ أن التربة بمكوناتها وكائناتها الحية تشبه البلد. فهي تحتوي على مليارات الحشرات الصغيرة وعلى مليارات الكائنات المجهرية كالفطريات والبكتيريا التي تتغذى على المواد العضوية وتحولها إلى مواد معدنية.

كما تحتوي التربة على قنوات مياه السيلان والتبخر وتحتوي على الهواء والأكسجين للتهوية وتحتوي على مساكن تؤوي هذه الكائنات (حبيبات الرمل والطين) . إذن بكل هذه الشبكات من العلاقات والأنشطة الحيوية بين الكائنات ومحيطها تمثل التربة بلدا بأتم معنى الكلمة.[3]

أصل التربة وكيفية تكوينها :

التربة نتاج عوامل مختلفة أثرت على صخور اليابسة وعملت على تكسيرها وتفتيتها وطحنها وهذا الفتات الصخري إما أن يكون قد استقر في مكانه أو انتقل بواسطة الرياح والمياه الجارية فيتم ترسيبها في أماكن أخرى .

(١) الرعد ٤

(٢) الأعراف ٥٨

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٩٠ م ٨ / ٤٢٩ . بتصرف كبير .

المبحث الأول

أحكام الأرض والنبات في الإسلام

الإســلام منهج متكامل ولذلك لم يغفل أحكاما تتعلـق بالأرض وزراعتها ونتاجها وطرق التعامـل معها كعنصر أساسـي في الحصول على الغذاء على وجـه البسيطة ،وهو تأكيد من الإســلام على أهمية الأرض كمقوم مـن مقومات الحياة ، فهي مصدر الخيرات الذي يلمسه الناسـ ، ولا ينقطـع عطاؤها علـى مر الأزمان والعصـور ، ويستطيع القـارئ أن يتلمس هذا الاهتمام البالغ بالأرض وأحكامها في كتب الفقه المنوطة بهذا المجال .

وفيمـا يلـي بعض الأحكام من خلال كتب الفقه الإسلامـي ، تؤكد مدى اهتمام الإسلام بالأرض ونتاجها ، وأنها حظيت في الإسلام بفلسفة أخّاذة .

أولا : الأرض الموات :

وهـو المصطلـح الذي يدرس الفقهاء من خلاله استصـلاح الأراضي ، وسنعرض له بما يلي :

تعريف إحياء الموات ومشروعيته والترغيب فيه شرعاً :

الإحيـاء لغـة: جعل الشيء حيـاً ، والموات: مـا لا روح فيه ، أو الأرض التـي لا مالك لها ، والمـراد بإحياء الموات : التسبب للحياة النامية . وهو تشبيه للعمارة بالحياة ، وتعطيل الأرض بالموت .

وشرعاً: الإحياء: إصلاح الأرض الموات بالبناء أو الغرس أو الحرث أو غير ذلك. والموات: الأرض التي لا عمارة ولا ماء فيها، ولا يملكها ولا ينتفع بها أحد[1]

ويمكـن القول بأن إحياء المـوات في الغالب: يعني استصلاح الأراضي الزراعية أو جعلها صالحة للزراعة، باستخراج الماء، وتهيئة التربة ، وإقامة الأسوار عليها ونحوه .

(١) مغنـي المحتـاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج محمد الخطيـب الشربيني ط دار الفكر / بيروت ٢ / ٣٦١ وما بعدها بتصرف

مشروعيته: ثبتت شرعية إحياء الموات بالسنة النبوية في أحاديث كثيرة منها:قول النبيﷺ: "من أحيا أرضاً ميتة فهي له"(١) ، "من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لعرق ظالم حق"(٢) "من عمر أرضاً ليست لأحد، فهو أحق بها"(٣)

وهذه الأحاديث تتضافر على إباحة إحياء الأرض الميتة التي لا مالك لها، ولم ينتفع بها أحد ، فيرغّب الشارع في إحيائها وذلك لحاجة الناس إلى موارد الزراعة ، وأثرها في عمارة الكون لا يخفى .

هل كل أرض ميتة قابلة للإحياء ؟

لا تصلح كل أرض للإحياء، وإنما منها ما يقبل الإحياء، ومنها ما لا يقبل. وقد اتفق الفقهاء على أن الأرض التي لم يملكها أحد، ولم يوجد فيها أثر عمارة وانتفاع، تملك بالإحياء ، كما اتفقوا على أن الأراضي التي لها مالك معروف بشراء أو عطية ولم ينقطع ملكه لا يجوز إحياؤها لأحد غير أصحابها.

كيفية الإحياء وطرقه :

إحياء الأرض الموات: يكون باستصلاحها للزراعة بحسب عرف الناس وعاداتهم، كما قرر الشافعية، ويكون بالبناء أو الغرس أوالحراثة، أو إقامة السد ، أو شق النهر، أو إلقاء البذور، أو السقاية مع حفر الأنهار ونحوه مما هو معهود عند الناس . (٤)

هل يحصل الإحياء بالتحجير؟

التحجير أو التحويط: هو الإعلام بوضع الأحجار حول الأرض، أي وضع سور من الأحجار والأشواك ونحوها على جوانب الأرض، وقد اتفق الفقهاء على عدم صلاحيته للإحياء، لكن المتحجر يكون أحق بها من غيره.

---

(١) رواه الترمذي وصححه عن جابر بن عبد الله ،٣/ ٦٦٣ برقم ١٣٧٩ ، وقال الشيخ الألبانى صحيح .

(٢) رواه الترمذي باب ما ذكر فى إحياء الموات ٣/ ٦٦٢ برقم ١٣٧٨ وقال: هذا حديث حسن.وأبو داوود فى سننه باب فى إحياء الموات ٣/ ١٤٢ برقم ٣٠٧٥ من حديث سعيد بن زيد .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث عائشة برقم ٢٤٩٢٧وقال المحقق حديث صحيح ط مؤسسة قرطبة تحقيق شعيب الأرنؤوط

(٤) مغني المحتاج: ٤/٣٦٥

قال الفقهاء: إن حجر شخص الأرض، لا يملكها بالتحجير؟ لأنه ليس بإحياء في الصحيح؛ لأن الإحياء جعلها صالحة للزراعة، والتحجير للإعلام مشتق من الحجر: وهو المنع للغير بوضع علامة من حجر أو نحوه ، وكل ذلك لا يفيد الملك، فبقيت مباحة على حالها.

لكن المتحجر أولى بها من غيره ويصير أحق الناس بها لحديث : "من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم، فهو أحق به"[١] ، ولا تؤخذ منه إلى ثلاث سنين، فإذا لم يعمرها في خلال السنوات الثلاث، أخذت منه إلى غيره. والتقدير بثلاث سنين مأخوذ من قول عمر رضي الله عنه: "ليس لمتحجر بعد ثلاث سنين حق"[٢] لكن هذا حكم ديانة، أما قضاء: فإذا أحياها غيره قبل مضيها، ملكها لتحقق سبب الملك منه، دون الأول أي المتحجر. [٣]

شروط الإحياء :اشترط الفقهاء شروطا فى عملية الإحياء حتى تكتمل أسسها وهو متنوعة فهناك

شروط في المحيي ، وأخرى في الأرض المحياة ، وكذا في إجراء الإحياء شروط .

شروط المحيي :

المحيي: هو الذي يباشر الإحياء الذي هو من أسباب الاختصاص أو التملك، ولا يشترط عند الجمهور كون المحيي مسلماً، فلا فرق بين المسلم والذمي في الإحياء ، لعموم قول النبيﷺ: "من أحيا أرضاً ميتة، فهي له" ، ولأن الإحياء أحد أسباب التمليك، فاشترك فيه المسلم والذمي، كسائر أسباب الملكية . [٤]

شروط الأرض المحياة :

يشترط في الأرض المحياة شروط تتعلق بملكيتها والارتفاق بها ومكانها، وهي ما يأتي:

(١) رواه الطبراني فى الكبير ١/ ٢٨٠ برقم ٨١٨ من حديث أسمر بن مضرس ط مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ١٤٠٤هـ

(٢) رواه أبو يوسف في كتاب الخراج عن سعيد بن المسيب بلفظ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين» لكن في سنده الحسن بن عمارة ضعيف، وسعيد عن عمر فيه كلام راجع نصب الراية للزيلعى ط دار الحديث ١٣٥٧ هـ تحقيق محمد يوسف البنورى ٤/ ٣٤٨

(٣) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعى ط دار الكتب الإسلامى ١٣١٣هـ القاهرة ٦/ ٣٥

(٤) المغني لابن قدامة المقدسى ط دار الفكر / بيروت ١٤٠٥ هـ ٦/ ١٦٤ .

١ – ألا تكون ملكاً لأحد مسلم أو ذمي، وليست من اختصاص أحد.

٢ – ألا تكــون مرتفقــاً بها : أي مستعمله ارتفاقاً لأهل البلــدة، قريباً أو بعيداً، كمحتطب ومرعى [١].

شروط الإحياء الذي يثبت به الملك :

يشترط في الإحياء الذي يثبت به الملك شرطان في بعض الآراء :

١. أن يكون الإحياء بإذن الحاكم، لحديث: "ليس للمرء إلا ما طابت به نفس إمامه"[٢] ، فــإذا لم يــأذن لم تطــب نفسه به، ولأن هــذه الأراضي كانت في أيــدي الكفرة، ثم صــارت في أيدي المسلمين، فهي فيء، والإمام هــو المختص بتوزيع الفيء، كالغنائم، ومثل إعطاء السَّلَب للقاتل .

٢. يشــترط عند الحنفية في حالة التحجير: أن يتــم الإحياء خلال مدة أقصاها ثلاث سنــين. فــإذا لم يعمرها فيها أخذهــا الحاكم منه، ودفعها إلى غــيره؛ لأن البدء أو الشروع في استصلاحها يتطلــب تعميرها، فيحصل النفع للمسلمين بدفع العشر أو الخراج، فإذا لم يحصل المقصود، فلا فائدة في تركها في يده[٣]

ومــن تدبر التشريع الإسلامي يدرك بما لا يــدع مجالا للشك سمو الفكر الإسلامي على القانون الوضعي ففي القانون الفرنسي يكفي وضع اليد لمدة خمس عشرة سنه لتصبح الأرض مملوكة لواضع اليد سواء أحياها أم تركها موات [٤].

فيتفــوق الفكــر الإسلامي على غيره مــن النظم وذلك لأنه يبنــي أحكامه على المصلحة العامــة وترغيــب الأفراد في استصلاح الأرض و زراعتها بــدلا من تركها معطلة و إلا فلا حق لهم فيها .

كمــا يحســب للتشريــع الإسلامي أنه جعل بــاب الإحيــاء مفتوحا للجميع مــن المسلمين

---

(١) الفقه الإسلامى وأدلته وهبة الزحيلى ط دار الفكر دمشق ط رابعة ٦/ ٤١٧ .

(٢) رواه الطبراني فى مسند الشاميين ٤/ ٦٦ ، وفيه ضعف من حديث معاذ انظر نصب الراية: ٤/ ٢٩٠ .

(٣) تبيين الحقائق: ٦/ ٣٥ وما بعدها .

(٤) وهو ما يسمى بلغة التجار اليوم " التصقيع "

وغيرهــم من أهل الديانات الأخرى ممن تكون لديهم القدرة على الإحياء ، وفيه ما لا يخفى من الوسطية وتقديم المنفعة العامة ، وتقرير مصالح العباد .

هل يجوز العمل في مال الغير دون إذنه إذا كان في ذلك مصلحة ؟

يقــرر الإسلام مبدأ عظيما يبيح من خلاله تشغيل الـثروات وعدم تعطيلها و هذا المبدأ هو جواز الاستثمار بمال قوم بغير إذنهم مادام في ذلك صلاح لهم .

يــدل على ذلك ما رواه البخاري في حديــث الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فمنهم من قــال اللهــم إني استأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قــال اعطني حقي فعرضت عليه فرغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيَها فجاءني فقال اتق الله فقلت اذهب إلى ذلــك البقر ورعاتها فخذه فقــال اتق الله و لاتستهزئ بي فقلت إني لا استهزئ بك فخذه فأخذه[1] "

يقــول ابــن حجر في شرحــه للحديث : قــال ابن المنير أنــه قد عين له حقــه و مكنه منه فبرئت ذمته فذلك فلما تركه وضع المستأجر يده عليه وضعا مستأنفا ثم تصرف فيه بطريق الإصــلاح لا بطريــق التضييع فاغتفر ذلك و لم يعد تعديا و لذلك توسل به إلى الله عز وجل و جعله من أفضل أعماله و أقر على ذلك ووقعت له الإجابة .[2]

هذه هي تعاليم الإسلام السامية التي من شأنها الرقي بحياة الناس وتعاونهم على البر والتقــوى بدلا مــن شيوع السلبية التي تميت علــى المجتمع حياته وثرواتــه وتفقده خصائصه ومميزاته .

الأَرَاضي المَفْتُوحَةُ صُلْحًا ثَلاَثَةُ أَنْوَاعٍ :

الأَراضــى المفتوحة وهى ما زالت فــى يد غير المسلمين يجرى عليها أحكام المصالحة أى حســب مــا يصالحهم عليه الإمام مما يــرى فيه مصلحة عامة للمسلمــين ، فيقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ولا تخرج المصالحة أن تكون واحدة من ثلاث :

(١) صحيح البخارى باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم برقم ٢٢٠٨ من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) فتــح البــارى شرح صحيح البخارى لابن حجر تحقيق ابن باز ومحب الدين الخطيب ط دار الفكر ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ٥/ ١٦

الأُولَى : أَنْ يُصَالِحَهُمُ الإِمَامُ عَلَى أَنْ تَكُونَ الأَرْضُ لَنَا

الثَّانِية: أَنْ يُصَالِحَهُمُ الإِمَامُ عَلَى أَنْ تَكُونَ الأَرْضُ لَهُمْ وَيُؤَدُّوا عَنْهَا خَرَاجًا

الثَّالِثَة : أَنْ يَقَعَ الصُّلْحُ مُطْلَقًا أي يتركها لهم دون قيود [١]

إن التأميم في الإسلام ليس هدفاً، وإنما هو وسيلة. بخلاف الأمر في الفكر الماركسي الذي يعتبر أن الملكية العامة هي الأصل والملكية الخاصة هي استثناء .

في الاقتصاد الإسلامي الملكية الخاصة والملكية العامة كلاهما على السواء أصل. فإن الإسلام أقر الملكية الخاصة، وفرض عليها عدة قيود . فيقرر الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا قوانين في صالح التقدم الاقتصادي ، حيث من مبادئ الإسلام في الأرض المفتوحة تركها في يد أصحابها على أن يستفيد منها المجتمع بأسره عن طريق الجزية أو الخراج أو المصالحة ، وقد جسّد هذا عمر بن الخطاب عندما رفض تمليك الأراضي المفتوحة للفاتحين وحولها إلى ملكية عامة ، فترك الأراضي المفتوحة بيد أهلها على أن يدفعوا ضريبة الجزية والخراج، توفيراً لمورد عام للخزينة، ورعاية لمصلحة المسلمين العامة ، ويمكن فقهاً التوسيع من دائرة أي نوع من الملكية بحسب ظروف الزمان والمكان.[٢]

وما ذلك إلا لأن تكدس الثروات مكروه في الإسلام، وإن لم يصل إلى درجة التحريم، فهو لا يتفق مع الهدف الأمثل للشريعة، وللدولة أن تتخذ السياسة التي تمنعه، لما يؤدي إليه من ترف وفساد وسيطرة، كما فعل النبيﷺمن إقرار التوازن الاقتصادي بين المهاجرين والأنصار، وسار على نهجه الخلفاء الراشدون، فترك سيدنا عمر الأراضي المفتوحة في العراق والشام ومصر بيد أهلها، ولم يقسمها بين الفاتحين، حتى لا تنحصر الثروة بأيديهم، ولا يبقى شيء لمن يأتي بعدهم، واستدل على صحة فعله الذي وافقه عليه الصحابة بقوله تعالى: ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل

(١) مغني المحتاج ٤ / ٢٥٤ . المغنى لابن قدامة ١٠ / ٥٩٩

(٢) الفقه الإسلامى وأدلته وهبة الزحيلى ٧/ ٦

كيلا يكون دُولة بين الأغنياء منكم[1] ﴾.[2]

الأرض المحروقة :

لقد اهتمت الشريعة بحفظ الضرورات الخمس اهتماما بالغا، وأولى هذه الضرورات هو " الدين " فأوجب الإسلام على الناس حفظ الدين والعمل به، والدعوة إليه، والحكم به، ولهذا شُرِع الجهاد في سبيل الله حفاظا على الدين .

فالجهاد في الإسلام له فلسفته الخاصة التي تميزه عن غيره ، فليس الجهاد زريعة للفساد في الأرض أو التخريب أو الانتقام والتشفى ، فلم يكن الجيش الإسلامي جيشاً يتشفى بقتلِ خصومه، وإذلالهم لأن الجهادَ في الإسلام، لم يكن بدافع حقد يملأ القلوب، ولا رغبةً في الاستكبار في الأرض، ولم يكن يعرف سياسةَ الأرض المحروقة، بل كان جيشا نظيفا شجاعا.. لا ترضى له عدالةُ الإسلام، وشموخُه أن يقتلَ شيخاً كبيرا ، أو امرأةً ضعيفة ، أو يفجع أماً بوليدها ، أو يهدمَ صومعةً لعابد، روى الترمذي في سننه عن بريدة رضي الله عنه قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: ((اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا))[3]

ولما بَعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيدَ بنَ سفيان، قال له: (إني مُوصيكَ بعَشْر: لا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلا صَبِيًّا، وَلا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلاَ تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلا بَعِيرًا إِلاَّ لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلا تَجْبُنْ) [4]

فالإسلام لا يقر سياسة الأرض المحروقة ، ولا يفعل فعل هؤلاء الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجاثوا فيها خلال الديار ، وأهلكوا الحرث والنسل والله لا يحب المفسدين ،

---

(١) الحشر ٧

(٢) وهبة الزحيلى ٧ / ٤٥

(٣) رواه الترمذى وصححه فى باب النهى عن المثلة ٤/ ٢٢ برقم ١٤٠٨ من حديث بريدة وقال الألبانى حديث صحيح .وابن حبان فى صحيحه باب الخروج وكيفية الجهاد ١١/ ٤٢ برقم ٤٧٣٩ .

(٤) رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه باب من ينهى عن قتله فى دار الحرب ط مكتبة الرشد – الرياض الطبعة الأولى ، ١٤٠٩تحقيق : كمال يوسف الحوت٦/ ٤٨٣ ، والإمام مالك فى موطئه ٦/ ٦٣٦ ط مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان ط أولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

إن نظـرةَ الإسلام، لحفظ حياةِ الإنسان، تختلفُ عن النظـرةِ الغربية، والتي تدعي الحفاظَ علـى حقـوقِ الإنسان ، فالإسلام في تشريعه للجهاد بعيدا كل البعـد عن مبدأ الفساد ، وإنما لخصـ هذه الفلسفة قول ربعي بن عامر : " جئنا لنخـرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب النـاسـ ، ومن جور الأديان إلى عدل الإســلام " [1] الجهاد في الإسلام لحماية العقيدة ، وبنظـرة سريعة لحـال البلدان التي جاءها الفتح الإسلامي ومـا وصلت إليه من رفعة وتقدم ببركة دخول الإسلام والجيش الإسلامي فيها ندرك حقيقة الأمر ، بل يكفي أن يقال عنه فتح إسلامي وليس احتلالا .

حكم إهلاك النبات في الحج وغيره : [2]

إذا كان للنبات حرمة وقداسة في التشريع الإسلامي على وجه العموم فحرمته في الحج زمانـا ومكانا آكد ، وهي رسالة يبعث بها الإســلام لتجسيد معنى السلام مع البيئة" نبات- حيوان "في موسم الحج

فقـد اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَـى تَحْرِيم قَطْع أَوْ قَلْع نَبَات الْحَـرَم إِذَا كَانَ ممَّا لاَ يَسْتَنْبِتُهُ النَّاسُ عَادَةً وَهُوَ رَطْبٌ كَالْبَقْل وَنَحْوه ، سَوَاءٌ أَكَانَ شَجَرًا أَمْ غَيْرَهُ ، وَالأَْصْل فيه قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّـا جَعَلْنَا حَرَمًا آمنًا ﴾ [3] . وَلمَـا وَرَدَ فِي الْحَديث أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَـال : حَرَّمَ اللَّهُ مَكَّةَ إلَى قَوْله : لاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا " [4] أى قطعه بالمعْضَد: وهي حديدة تتخذ لقطعه.

وَيَسْتَـوِي فِي الْحُرْمَـة الْمُحرمُ وَغَيْرُهُ ، لأَنَّهُ لاَ تَفْصيل فِي النُّصُوصِ الْمُقْتَضيَة للأَْمْنِ وَلأَنَّ حُرْمَةَ التَّعَرُّضِ لأَجْل الْحَرَم ، فَيَسْتَوِي فيه الْمُحرمُ وَغَيْرُهُ بِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ

وَاسْتُثْنِـيَ منْ ذَلكَ الإِْذْخِـرُ ، لمَا وَرَدَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا قَال فِي الْحَديـث السَّابق : لاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَـا قَـال الْعَبَّاسُ رَضيَ اللَّهُ عَنْـهُ إلاَّ الإِْذْخرَ يَا رَسُـول اللَّه فَإِنَّهُ مَتَاعٌ لأَهْـل مَكَّةَ لحَيِّهِمْ وَمَيِّتِهِـمْ ، فَقَال النَّبيُّ ﷺ: إلاَّ الإِْذْخِـرَ . وَالْمَعْنَى فِيهِ مَا أَشَارَ إِلَيْه الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ

(١) البداية والنهاية لابن كثير ط مكتبة المعارف / بيروت ٧/ ٣٩

(٢) الفقه الإسلامى وأدلته ٣/ ٦٧٩

(٣) القصص ٥٧

(٤) . رواه البخاري باب لا ينفر صيد الحرم برقم ١٧٣٦ ، ومسلم باب تحريم مكة وصيدها وخلاها برقم ٣٣٧٢ من حديث أبى هريرة .

حَاجَةُ أَهْلِ مَكَّةَ إِلَى ذَلِكَ .

وَأَلْحَقَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ (الْمَالِكِيَّةُ) بِالإِذْخِرِ السِّنَّا وَالسِّوَاكَ وَالْعَصَا وَمَا أُزِيلَ مِنَ النَّبَاتِ بِقَصْدِ السُّكْنَى بِمَوْضِعِهِ لِلضَّرُورَةِ .[1]

وَيَجُوزُ قَطْعُ وَقَلْعُ مَا يَسْتَنْبِتُهُ النَّاسُ عَادَةً كَخَسٍّ ، وَبَقْلٍ ، وَكُرَّاتٍ ، وَحِنْطَةٍ ، وَبِطِّيخٍ ، وَقِثَّاءٍ وَنَخْلٍ وَعِنَبٍ ، وَإِنْ لَمْ يُعَالَجْ بِأَنْ نَبَتَ بِنَفْسِهِ ، اعْتِبَارًا بِأَصْلِهِ ، فَإِنَّ النَّاسَ مِنْ لَدُنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا يَزْرَعُونَهُ فِي الْحَرَمِ وَيَحْصُدُونَهُ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ مِنْ أَحَدٍ . وَلاَ فَرْقَ فِي الْجَوَازِ بَيْنَ الشَّجَرِ وَغَيْرِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ .

وَإِذَا كَانَ أَصْلُ الشَّجَرَةِ فِي الْحَرَمِ وَأَغْصَانُهَا فِي الْحِلِّ فَهِيَ مِنْ شَجَرِ الْحَرَمِ ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهَا فِي الْحِلِّ وَأَغْصَانُهَا فِي الْحَرَمِ فَهِيَ مِنَ الْحِلِّ اعْتِبَارًا لِلأَصْلِ [2]

المدينة المنورة :

والأمر في المدينة لا يختلف كثيرا عنه في مكة المكرمة فقد أجمع الفقهاء على تحريم صيد المدينة[3] وشجرها على الحلال والمحرم كمكة عند الجمهور،وإذا فعل استغفر الله ولاشيء عليه، ولا يضمن القيمة عند الجمهور ، لكن مكة يضمن صيدها وشجره

وهكذا ضرب لنا الإسلام أروع مثال يعيشه الإنسان مع بيئته ، ولو اجتمعت قوانين الأرض على أن تشرع أو ترسي قواعد السلام في بقعة ضيقة كمكة وزحام شديد يقدر بالملايين بهذه الصورة التي قررها الإسلام لما وجدت إلى ذلك سبيلا ، ولكلفها ذلك تمويلات باهظة لمتابعة أو تطبيق ما يسن من قوانين ، ولكن مع تشريع الله تعالى يعيش الإنسان تلك الحالة ونفسه مطمئنة ، وهو مستأمن على شرع الله ، بحيث لو حدثت منه مخالفة في هذا المجال لزمه بينه وبين ربه الفدية المقررة ، دون تدخل أو رقابة بشرية .

---

(١) المغني لابن قدامة المقدسى ٣ / ٣٥٠ .

(٢) مغني المحتاج ١ / ٥٢٧ ، والمغني لابن قدامة ٣ / ٣٤٩ – ٣٥٢ . بتصرف

(٣) الفقه الإسلامى وأدلته ٣/ ٦٨٦

المبحث الثاني

البيئة النموذجية في القرآن

أكد الإسلام على أهمية البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، فأرسى قواعدها ورسخ قوائمها ، إيمانا منه بالدور الفعال الذي تلعبه البيئة في تشكيل ثقافة الإنسان ،فالإنسان صدى بيئته ، ولا يخفى تأثيرها السلبي أو الإيجابي على سلوك الفرد في حياته.

إن البيئة التي نعيش فيها هي عطاء الله للإنسان ، ونحن أمناء وخلفاء لله على وجه الأرض، ولسنا مالكين لها ملكية حقيقية حتى نتصرف فيها دون ضوابط..

وعلى حين ينبهنا القرآن الكريم باستمرار إلى ذاك البعد الربانيّ للبيئة ، فإنه يؤكد على أن الإنسان الذي هو خليفة ومسئول عن كل أعماله الحسنة منها والسيئة سوف يحاسب يوم القيامة عن كل تصرفاته حيال هذه الأمانة. فالحساب يوم القيامة لن يكون على العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع وحسب؛ بل وعلى العلاقة بين الإنسان والبيئة أيضا. فالاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها مطلب شرعي .

وعليه فقد كان اهتمام الإسلام بالبيئة اهتماما بالغا - والمراد هنا البيئة الزراعية دون غيرها فهي محل الدراسة - بدءًا بربط المسلم بالأرض وما تنتجه وأنها رمز لعطاء الله في القرآن الكريم : " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " [١] فيربط القرآنُ الكريمُ المسلمَ بالأرض ومعطياتها وأنها دليل ونموذج لكرم الله تعالى مع العبد وهذا لا يخلو من فائدة وعبرة .

وكثيرا ما يوظّف القرآن الكريم البيئة النموذجية لضرب الأمثلة ، وكأنه يشير من طرف خفي إلى ما ينبغي أن تكون عليه البيئة الزراعية وإليك هذا المثل الذي ضربه الله تعالى في

(١) البقرة ٢٦١

سورة البقرة نص فيه على مبادئ البيئة النموذجية وإن جاء الخطاب بطريق غير مباشر إلا أن منعم النظر فيه يدرك أن القرآن يرسم نموذجا فريدا في البيئة الزراعية ، وذلك في قوله تعالى : " وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ × أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ "(١)

فهاتان الآيتان تحتويان على فوائد عظيمة نجملها فيما يلي :

١- حسن توظيف القرآن الكريم للأرض والبيئة الزراعية في جعلهما مثلا على كرم الله تعالى مع خلقه في مجازاتهم على الأعمال الصالحات ، وقد أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

٢- قوله تعالى : " جنة بربوة " يشير إلى أن أجود النباتات ما كان في مكان مرتفع عن الأرض ، وفيه من الفوائد ما فيه . وإليك بعضا من هذه الفوائد :

البُعدُ عن تملح التربة الذي يسبب نوعا من التصحر .

استقبالُ أشعة الشمس فلا يحجبه عن الشمس حاجب مما يساعد على اكتمال عملية البناء الضوئي للنبات بصورة جيدة .

استقبال الماء من جهة العلو أجود أنواع الري لأنه يغسل الأوراق التي هي بمثابة الرئتين للنبات ، وعندئذ تتنفس الأوراق فيعود لها نضارتها وحيويتها فتؤدي عملها بكفاءة واقتدار .

جودة الصرف ومعلوم أن الصرف للتربة الزراعية كالإخراج بالنسبة للآدمي فهي ولا شك من ضروريات العملية الزراعية ولا تستغني عنه أرض زراعية وإلا أصيبت بتملح التربة مما يؤثر سلبا على جودة المنتج من النباتات .

٣- قوله تعالى : " أصابها وابل " يشير إلى أن وفرة المياة مهم جدا لنمو النبات بطريقة صحية حيث يأخذ النبات الكمية التي يحتاجها ويطرح عنه ما لا يحتاجه دون أن يضطر

(١) البقرة ٢٦٥-٢٦٦

النبـات لعمليـات اختزان تحسبا من الجفاف وغـيره ، فهو نبات يضمن وفـرة المياة فيعطي بسخاء .

٤- قوله تعالى : " جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ "

بينـت هـذه الآية أن النظـام الزراعي في القـرآن مبني على تنـوع المحاصيل ،بما يحقق التـوازن في هـذا النظام البيئي ، وفيهـا أيضا تعريض غـير مباشر على مسـاوئ الزراعات الوحيـدة ، والتـي أظهرت التجارب الزراعية الحديثة بعضا منهـا مثل افتقار التربة ، وكثرة الأمراض والآفات النباتية والحشرات واكتسابها المناعة ضد المبيدات ، وغير ذلك مما يؤثر سلبا على منتج الأرض(١) .

وقـد أشـار الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمـه الله في تفسيره إلى جانب مما ذكرناه فقـال في تناولـه لهذه الآية الكريمـة : " وعندما تكـون الجنة بربوة عالية فمعنـى ذلك أنها محاطـة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها ، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التي توجد على ربوة؟ وقـد أخبرنا الحق بما يحدث لمثل هذه الجنة قبل أن يتقدم العلم الحديث ويكتشف آثار المياه الجوفية على الزراعة.

فهذه الجنة التي بربوة لا تعاني مما تعاني منه الأرض المستوية، ففي الأرض المستوية قد توجـد المياه الجوفية التي تذهب إلى جذور النبات الشعريـة وتفسدها بالعطن، فلا تستطيع هـذه الجذور أن تمتص الغذاء اللازم للنبـات، فيشحب النبات بالاصفرار أولا ثم يموت بعد ذلـك، إنّ الجنة التي بربوة تستقبل المياه التي تنزل عليها من المطر، وتكون لها مصارف من جميع الجهات الوطيئة التي حولها، وترتوي هذه الجنة بأحدث ما توصل إليه العلم من وسائل الـري، إنهـا تأخذ المياه من أعلى، أي من المطر، فتنزل الميـاه على الأوراق لتؤدي وظيفة أولى وهي غسل الأوراق.

إن أوراق النبـات ـ كمـا نعلم ـ مثل الرئة بالنسبة للإنسـان مهمتها التنفس، فإذا ما نزل عليها ماء المطر فهو يغسل هذه الأوراق مما يجعلها تؤدي دورها فيما نُسميه نحن في العصر

(١) راجع أهمية التنوع الأحيائي النباتي في البيئة مقال للدكتور عبدالبديع حمزة زللي مجلة الهيئة العالمية للإعجاز العلمى فى الكتاب والسنة – العدد السادس والعشرون ، هندسة البيئة، فاضل حسن أحمد، ص ٥٣٧

الحديث بالتمثيل الكلوروفيلي. وبعد ذلك تنزل المياه إلى الجذور لتذيب العناصر اللازمة في التربة لغذاء النبات، فتأخذ الجذور حاجتها من الغذاء المذاب في الماء، وينزل الماء الزائد عن ذلك في المصارف المنخفضة. وهذه أحدث وسائل الزراعة الحديثة، واكتشفوا أن المحصول يتضاعف بها.[١]

فانظر كيف رسم القرآن الكريم – عَرَضاً – صورة للبيئة النموذجية أو ما ينبغي أن يكون عليه الحال في البيئة الزراعية ، وقرر منذ أربعة عشر قرنا ما أكدته الدراسات الحديثة في سبق علمي معجز .

دعوة الإسلام للتخضير واستثمار البيئة بالزراعة :

خلق الله البيئة وذللها لخدمة الإنسان الذي استخلفه فيها قال تعالى : (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[٢]

والإسلام في مجمله دعوة للإصلاح وإعمار الأرض فمن أجلها خلق الله الخلق قال تعالى :(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)[٣] . وقال تعالى (هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها)[٤]

ومن هنا لا غرو أن نجد سياسة الإسلام في التعامل مع البيئة واضحة وصريحة ومتكاملة ، فينهى عن الفساد في الأرض والإضرار بما فيه مصالح العباد فقد نعى الله على هذا النموذج موضحا عظيم جرمه حيث قال:"وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد" [٥] وقد نزلت هذه الآية الكريمة في الأخنس بن شريق الذي أقبل على النبيﷺوأعلن إسلامه ، ثم خرج فمر بزرع فأحرقه ، وحمر فعقرها فذكر الله أمره ، ذلك أن ما فعله الاخنس يتعارض مع السلوك الإسلامي القويم .[٦]

(١) تفسير الشيخ الشعرواي / ٢٦٧ ط أخبار اليوم
(٢) الجاثية ١٣
(٣) البقرة ٣٠
(٤) هود ٦١
(٥) البقرة ٢٠٥
(٦) راجع تفسير ابن كثير تحقيق :سامي بن محمد سلامة ط دار طيبة للنشر والتوزيع ط ثانية ١٤٢٠هـ ١ / ٤٧٢

وقد أوضح القرآن الكريم أن سوء استغلال الأرض والعمل على سرعة استنزاف مواردها فيه ضرر بالغ للبشرية جمعاء ، فضلا عن كونه كفر بأنعم الله ، ولا ريب أن الكفر بأنعم الله مدعاة إلى المآسي والكوارث وسبب مباشر في الجوع والخوف يقول الحق تبارك وتعالى . (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)[(١)] فحذرنا من هذا النموذج الذي أساء استخدام نعم الله التي ذللها للإنسان فكان عاقبته ما حكاه القرآن عنهم من الدمار والخوف والجوع ، ولا يخفى ما لهاتين الحالتين من تأثير على حياة الفرد والمجتمع .

بل كانت دعوة الإسلام لإقامة بيئة خضراء مبادرة صريحة حشد فيها كمّاً من المحفّزات على هذا العمل من خلال أحاديث صحيحة وصريحة في بيان ثواب من يغرس غرسا ترغيبا لأصحابه ودعوة لهم إلى استزراع النباتات وحمايتها والمحافظة عليها ومن أحاديث الرسولﷺ في هذا المجال .

قولهﷺ: " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة "[(٢)] .

وروى الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله أن النبيﷺدخل على أم معبد حائطا فقال : " يا أم معبد من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر فقالت بل مسلم قال فلا يغرس المسلم غرسا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة "[(٣)]

وقولهﷺ: (ما من امرئ يحيي أرضاً فيشرب منه كبد حراء وتصيب منها عافية إلا كتب الله به أحراً)[(٤)]

وقوله ﷺ: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها

(١) النحل ١١٢

(٢) رواه البخارى باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه ٢/ ٨١٧ برقم ٢١٩٥ . من حديث أنس بن مالك .

(٣) رواه مسلم باب فضل الغرس والزرع ٥/ ٢٧ برقم ٤٠٥١

(٤) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير برقم ٩٤٩ من حديث أم سلمة ط مكتبة العلوم والحكم،ط ثانية ١٤٠٤ هـ تحقيق : حمدي السلفي

فليغرسها) [(١)]

وهكـذا تضافـرت الأحاديث الصحيحـة والصريحة علـى بيان هذا المنهـج الإسلامي الفريـد وهو الدعوة إلى بيئة خضراء من خلال الحث عليها والترغيب فيها ، وترتيب الثواب الجزيل على فعلها .

وعلـى الجانب الآخر كانت الأوامر تصدر صريحة إلى قـواد المسلمين تنهاهم عن قطع الأشجـار أو تدميرها وضرورة المحافظة عليها كما أعطي الإسلام لولي الأمر الحق في إقامة المحميات الحيوية إذا كان ذلك في صالح المسلمين .

وهـذه النصوص دعوة صريحـة تربي فينـا السلوكيـات الإيجابية نحو البيئـة ، ونشر الخضرة في كل مكان ، إنها دعوة للحياة الآمنة المستمرة المستقرة . وهو منهج إسلامي فريد في استثمار البيئة الزراعية .

مجابهة التصحر في القرآن :

من الأقوال المشهورة : " السلاح الأخضر أقوى سلاح ومن أمتلكه ربح المعركة" .

والوطـن العربـي بفضـل الله تعالى مؤهل أكثر مـن غيره أن يمتلك هـذا السلاح ، فكل العوامـل متوفرة: الأرض، الماء، اليد العاملة .... ولم يبـق إلا دور الإنسان بعزيمته الصادقة وعمله الدؤوب .

ويدفـع هـذا العمل ويزيد مـن تلك العزيمة ما زفـه النبيﷺمن بشـرى خاصة لبلاد العـرب ، حيث قـال ﷺ: " لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِـهِ فَـلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَـرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا "" [(٢)] فهذا الحديث فتيل حماسة ، ويبشر بمستقبل جيد لبلاد العرب ، ودافع لتحصيل ما وعد به رسول اللهﷺ، والمسلمون دأبوا بكل ما توفر لديهم من وسائل مادية وتجارب ميدانية على تحقيق هذه الغاية ، وأبلوا في هذا المجال بلاءً حسنا من خلال عدة محاولات قيّمة للاستصلاح الزراعي وتعمير الأراضي .

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد برقم ٤٧٩ من حديث أنس بن مالك ط دار البشائر الإسلامية – بيروت ط ثالثة ١٤٠٩هـ تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي . والإمام أحمد فى مسنده من حديث أنس أيضا برقم ١٢٩٨١

(٢) رواه مسلم باب الترغيب فى الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها ٣/ ٨٤ برقم ٢٣٨٦ من حديث أبى هريرة .

ومـن المقرر أنـه من الصعوبة بمكان أن تُعَادَ الحياةُ من جديـد إلى الأرض الصحراوية أو المتجهـة إلى تصحر الشامل ، لذلك يجـب المحافظة علي الأراضي الخصبة قبل تدهورها والعمل على إزالة أسباب التصحر الأكثر فاعلية.

وقـد سبق القرآن الكريم كل الدراسات الحديثة في هذا المجال فكافح التصحر بطريقة وقائيـة مـن خلال ما قدمنا له ، كالحـث على الزراعة والتشجير ، والدعـوة إلى التعايش مع البيئـة بشكل سلمـي ، والمحافظة على المياه كعنصر رئيسي في الزراعـة ، والتعامل مع البيئة مـن منطلق الإصلاح وليس الإفسـاد واستشعار الاستخلاف في الأرض ومهمة الإنسان فيها . وهذا يمثل الشق الوقائي لمنهج القرآن في مواجهته لهذه الظاهرة .

كمـا أن الشـق العلاجي العملي لم يهمله القرآن الكريم ولم يغفله ، وإن لم يتناول القرآن الكـريم جميـع الوسائل في مجابهة التصحـر إلا أنه أشار إلى أكثرهـا فاعلية وأسرعها حلا وأقلهـا تكلفة ، وهـي عملية إحداث سياجـا نباتيا حول الزرع ليمنع من زحـف الرمال عليها ، وتثبيـت الكثبـان الرملية وذلك بإنشـاء حواجز عمودية على اتجاه الريـاح ، فيحافظ على الزراعـة من هذا الامتداد الصحراوي المباشر عليهـا ، وهناك العديد من النباتات التي لها القـدرة على تثبيـت الرمال ، ولكن لابد من اختيار الأنواع النباتيـة المناسبة من حيث الطول والتفـرع وقوة الجذور ومقاومة الظروف البيئية القاسية.وهنـا يتجلى دور القرآن الكريم في هـذا السبـق الفريد حيث أشـار القرآن الكـريم إلى أن أجود ما يستخـدم كمصدات تحمي النبـات مـن التصحر هو النخيـل ، لما يمتاز به هـذا النوع من النبات مـن الصلابة والطول والصبر والمقاومة .كما يمكننا إدراك ذات المنهج " السياج النباتي " من خلال قوله تعالى في سـورة عبسـ : " فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ × أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا × ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا × فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا × وَعِنَبًا وَقَضْبًا × وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا × وَحَدَائِقَ غُلْبًا "(١)

فالمـراد مـن قولـه " حدائق غلبا " هـي الأشجار ذات الجـذوع الغليظـة الشديدة وهي تستعمـل في العمـل كمصدات للرمال والزحف الصحراوي : يقـول ابن عاشور في تفسيره : " والغُلْـب : جمـع غلباء ، ، يوصف به الإنسـان والبعير ، وهو هنا مستعار لغلـظ أصول الشجر فوصـف الحدائق به ؛ على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ

(١) سورة عبس الآيات ٢٤-٣٠

الأوداج والأعصاب فتكون استعارة ، وذلك من محاسن الحدائق [1] فهو منهج قرآني مطرد أكد عليه القرآن في أكثر من موطن كقوله تعالى : " وجنات ألفافا " [2] أي يلتف بعضها حول بعض مما يشكل مصدات طبيعية تحمي النبات من التصحر والزحف الرملي .

ولم يدرك الإنسان فائدة ودور الأحزمة الخضراء التي تحف المزارع والبساتين، ودورها في حماية الزرع والمحاصيل، وكيف تساهم في إعطاء محصول جيد بشكل واسع ودقيق، إلا في عصرنا الحديث، وذلك بعد أن توسعت علوم البيئة والزراعة، غير أن القرآن الكريم ومنذ أكثر من أربعة عشر قرناً قد أشار إلى هذه الحقيقة ودلَّ عليها قبل أن يقف علماء البيئة والزراعة على دور الأحزمة الخضراء والسياج النباتي ، فقد بَيَنَّ سبحانه وتعالى أنه قد أنعم على صاحب الجنتين ، فحفَّ بستانيه اللتين احتوتا على الأعناب وأنواع الثمر بالنخيل فقال سبحانه: (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ).

وقد اختفت الحكمة من جعل النخيل تحف البستانين عن كثير من الناس ، فجاءت نتائج الدراسات والأبحاث لتكشف النقاب عن شيء من جوانب هذه الحكمة [3] ، فعرف الناس فوائد تنوع النباتات في المزارع والغابات ، وعرف الناس أيضاً فوائد الأحزمة الخضراء ، الأمر الذي أدى إلى التوسع في استخدامها في هذا العصر، ليس لتحمي المزارع والبساتين وحسب، وإنما لتحمي المدن كذلك من زحف الرمال. وقد دلت التجارب المختلفة المتعلقة بحماية المدن والقرى من زحف الرمال المتحركة بواسطة وسائل وطرق مختلفة أن إقامة الأحزمة الخضراء والتشجير عموماً قد أثبت جدواه وفاعليته، وأن هذه الطريقة تتميز بفاعلية جيدة في وقف زحف الرمال على جميع الطرق الأخرى ، وتطبيقها يعتبر الأيسر مقارنة بالطرق الأخرى ، حيث ظهر من هذه التجارب أن الوسائل الأخرى لا تعتبر إلاَّ إجراءات مؤقتة تؤدي إلى تثبيت الكثبان الرملية المتحركة بشكل مؤقت، حيث إن التشجير وزراعة الكثبان الرملية المتحركة بالنباتات الرملية Psammophytes التي تشمل الأشجار والشجيرات والأعشاب المتميزة بقدرتها على ملاءمة ظروف التربة الرملية والمناخ المتطرف وفقر التربة بالأملاح المعدنية والمركبات العضوية، والتي تتميز أيضاً بجذورها التي تنمو عميقاً إلى الطبقة الرطبة

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور التونسى ط مؤسسة التاريخ العربى ١٤٢٠هـ بيروت / لبنان ٣٠/ ١١٧ .

(٢) النبأ ١٦

(٣) راجع أهمية التنوع الأحيائي النباتي في البيئة مقال للدكتور عبدالبديع حمزة زللي مجلة الهيئة العاملية للإعجاز العلمى فى الكتاب والسنة – العدد السادس والعشرون . ، التصحر في الوطن العربي لإبراهيم نحال ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٧ ص ٨٨

أو تنتشر على سطح الأرض، فتعمل بذلك على تماسك التربة.[١]

وبهذا يكون القرآن الكريم أرسى قواعد التصدي لظاهرة التصحر وذلك من خلال قوله تعالى في سورة الكهف حاكيا نموذجا يحتذى في الزراعة : " وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا × كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا "[٢]

بينت هاتان الآيتان طبيعة الاستصلاح الزراعي ورسمت الملامح العامة لنظام زراعي شامل ومتكامل خاصة للبيئة الصحراوية حيث العوامل القاسية، فأقرت الآيتان بأن النظام النموذجي للاستصلاح يتكون من ثلاثة عوامل أساسية الأعناب والنخيل والزرع[٣].

في الآن نفسه تمثل هذه الزراعات نسيج رائع متكون من ثلاثة طبقات نباتية مختلفة:

١) الأعناب : (أو الأشجار المثمرة بصفة عامة) الطبقة الجنبية .
٢) النخيل : الطبقة الشجرية
٣) الزرع : الطبقة العشبية

كما أن الآيتين لم تكتف بإيراد الأنواع الثلاثة هملا ، ولكنها بينت مواقع هذه الطبقات الثلاثة وعلاقتها مع بعضها البعض ، في إطار من التدرج المنطقي والانسجام منقطع النظير.

أقرت الآية بأن النظام الزراعي المقترح يتكون أساسا من جنتين من أعناب (الطبقة الجنبية) يحيط بها النخيل (الطبقة الشجرية) ، وبين هاتين الجنتين الزرع (الطبقة العشبية).

كما بينت الآية الكريمة النتيجة الحتمية لهذا الترابط بين الطبقات النباتية الثلاثة

(١) تعتبر المملكة العربية السعودية من الدول الرائدة في مكافحة زحف الكثبان الرملية حيث أقامت مشروعاً يعتبر من أهم مشاريع مكافحة الكثبان الرملية في الوطن العربي وهو مشروع مكافحة الكثبان الرملية في الأحساء بالمنطقة الشرقية ، الذي هدف إلى وقف حركة الكثبان الرملية وتثبيتها واستصلاح الأراضي التي فقدت أو تدهورت تربتها.

(٢) الكهف ٣٢، ٣٣

(٣) هاشم نعمة ، مشكلة التصحر في الوطن العربي ، أسبابها ، أبعادها ووسائل مكافحتها ،ص٣٨

وهـي الرفع من مستوى الإنتـاج (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أي أنه لا يوجد خسائر في الإنتاج نتيجة توفير كل العوامل الملائمة لإنتاج جيد كمّا وكيفا.

الفوائد والتأثيرات العامة لهذا النظام الزراعي[1] :

يعـد هذا النظام الزراعي تركيبـة نباتية فريدة من نوعها لها فوائـد وتأثيرات ايجابية على مستوى المناخ والتربة مما يساهم مساهمة فعالة في الرفع من مستوى الإنتاج من ناحية وتحقيق التوازن لجميع الكائنات المتواجدة بهذه المنطقة .

ويؤدي هذا النظام إلى عدة فوائد ومميزات منها :

إحداث مناخ مصغر ذات عوامل مناخية أقل حدة من المناخ العام السائد .

التخفيـف مـن حدة الريـاح ، ولا يخفى أن عامل الرياح يمثل أخطـر العوامل التي تهدد الإنتاج النباتي خاصة بالنسبة للطبقة العشبية (الزرع).

في هذا النظام يعدُّ النخيلُ جداراً أولياً من مصدات الرياح لحماية الأشجار المثمرة إذ أنه يمتاز بارتفاع له دوره ، ويتحمل الظروف القاسية والتي تفيد الزرع والمحاصيل الزراعية عنـد استخدامها كأحزمة خضـراء تحفُّ البساتين والمزارع في المناطق المكشوفة . في حين أن نفاذيـة منطقة الجـذع تعتبر أيضا هامة. فتأتـي الطبقة الجنبية (الأشجـار) لتكوّن جدارا ثانيا من مصـدات الرياح ذات نفاذية منخفضة وارتفاع منخفض وبالتالي فإن نسبة الرياح الواصلة إلى الطبقـة العشبية (الزرع) غير معتبرة وفاعليتها ضعيفة، علما وأن هذه الطبقة هي أكثر الطبقات حساسية ضد الرياح.

التخفيض من حدة جفاف الهواء: هذا النظام بتركيبته هذه وطبقاته النباتية يوفر جوًّا أكثر رطوبة.

التخفيض من نسبة التبخر وبالتالي اقتصاد أكثر في نسبة مياه الرّي.

تنويـع الإنتاج بالمناطق الصحراوية يـؤدي إلى الاكتفاء الذاتي الغذائي للسكان وبالتالي

---

(١) راجـع الموضـوع فى الموسوعة العربية العالميـة ٣/ ١٤٨ وما بعدها بتصرف كبير ، هندسـة البيئة، فاضل حسن أحمـد، صـ ١٢٢وما بعدها ، زين الدين عبد المقصود ، البيئـة والإنسان ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ص ٧٦، محسن عبد الحميد توفيق ، الإدارة البيئية في الوطن العربي ، تونس ، ١٩٩٣ ص ١٥٨وما بعدها .

توفير مصاريف النقل من أماكن بعيدة.

توزيع المحاصيل بالمزرعة يساهم في تخفيف الخسائر في حالة الكوارث الطبيعية والتقلبات المناخية والاقتصادية.

تناسق هذه الطبقات النباتية الثلاثة يعطي منظرا طبيعيا رائعا وظروف عيش أكثر رفاهية وجمالا.

استمرارية وديمومة النفع والعطاء فمن المعروف أن لكل نوع من النباتات موسماً ووقتاً محدداً يثمر فيه، وينضج ثمره في هذا الموسم ليستفيد منه البشر وجميع الكائنات الحيّة، لذا فإن اختلاف أنواع النباتات يعمل على استمرار العطاء طوال العام.

أن زراعة محصول واحد يستهلك الأملاح المعدنية والمواد العضوية الموجودة في التربة بينما زراعة أنواع مختلفة من المحاصيل في الحقل وفق جدول منتظم يتيح فرصة تعويض معظم الأملاح المعدنية والمواد العضوية المستهلكة، كما يساعد في الحد من أمراض النباتات ودورة حياة الحشرات .

إن تنوع النباتات لا يعمل على تساقط الأوراق على الأرض من جميع الشجر في زمن ووقت واحد، بل يختلف زمن سقوط أوراق النباتات حسب نوع النباتات، فلا تتراكم الأوراق وتتكدس بكميات كبيرة على الأرض. ووجود نوع واحد من النباتات في البيئة أو الحقل، يعني سقوط أوراقه في زمن واحد فيعمل ذلك على تراكم الأوراق بكثرة فيزيد ذلك من الجهد والعناء لمعالجة هذه المشكلة.

حسن التخطيط في الزراعة يقاوم التصحر :

إن كل أمر ذي بال لابد وأن تسبقه عمليات من التخطيط المنظم ، والذي يستهدف بلوغ الغاية من العمل ، وعلى قدر ما يكون التخطيط على قدر ما يعطي العملُ أكلَه ، فسبب النجاح في الأعمال هو مباشرة الأسباب بدقة مع التوكل على الله تعالى حق التوكل ، والزراعة من الأمور البالغة الأهمية والتي تقتضي أن يخطط لها الإنسان ، لارتباطها بمقومات حياته على هذه البسيطة ، والتخطيط في مجال الزراعة يجب التعامل معه بجدية وذلك من خلال النظرة الموضوعية والواقعية للإنتاج المتوقع لدينا، ودائماً لغة الأرقام هي الأقرب للحقيقة

والتخطيط الصحيح له صور وأشكال متعددة منها :

١. توفير موارد الري من مياة جوفية أو أمطار أو آبار صناعية وخلافه .
٢. حراثة الأرض وتهيأتها حتى تصير صالحة كتربة خصبة للإنبات .
٣. تنوع المحاصيل الزراعية بما يضمن حسن التصريف والتصنيع وإلا كان عبئا اقتصاديا.
٤. تهيئة المناخ الملائم لطبيعة النبات المراد إنتاجه ومعلوم أن العمل الزراعي يرتبط بشكل أو بآخر بظروف مناخية تؤثر في الإنتاج.
٥. الإسراع بعملية الحصاد وجمع المحصول لئلا يترتب على التأخير مخاطر فادحة .
٦. الحفاظ على المصادر الطبيعة والتعامل معها على أنها ملكية عامة للناس جميعا ، يشتركون في الحفاظ عليها ويشتركون أيضا في الانتفاع بها ، فيقول رسول اللهﷺ‹‹الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار››[1] وهذا يبرز حرص الرسولﷺعلى الحفاظ على المصادر الطبيعية ، فيشير الحديث النبوي إلى أهم هذه المصادر: الماء والعشب ‹‹المراعي الطبيعية›› ومصادر الطاقة" النار " ٠٠ كما نهى الرسول عن استنزاف الموارد أو المصادر الطبيعية.

استشعار أهمية الماء كمصدر أساسي للحياة ولهذا تضافرت الأدلة على بيان حفاظ النبيﷺعلى المياة والحث على ذلك قولا وعملا فقد كان في سلوكه اليومي نموذجا للتعامل الراشد مع هذا المصدر الطبيعي من خلال الاقتصاد في استهلاكه، والنهي عن التبذير في ذلك حتى لو كان الإنسان يتوضأ من نهر، فقد مرﷺبسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ، فقال ‹‹ما هذا السرف ؟ فقال: أو في الماء إسراف، فقال نعم وإن كنت على نهر››[2]

---

(١) رواه أبو دواود فى سننه باب فى منع الماء ، ط دار الفكر ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد٢/ ٣٠٠ برقم ٣٤٧٧وقال الألبانى صحيح ، ورواه ابن ماجة باب المسلمون شركاء فى ثلاث من حديث ابن عباس ط دار الفكر بيروت ٢/ ٦٨٢ برقم ٢٤٧٢

(٢) رواه أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو برقم ٧٠٦٥ ط مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ط ثانية ١٤٢٠هـ .

وإمعانا في الحفاظ على هذا المصدر الأساسي، حذر المسلمين من الوسوسة في الوضوء حتى لا يزيد استهلاكهم للماء فقالﷺ‹› للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء››.[1]

ومـن هنا جاء تحريم الإسـراف في استخدام المياه حتى في حالة الوضوء للصلاة، وهذا مثال دقيق لضرورة الحفاظ على عنصر من أهم عناصر البيئة•وهذا بدوره يسلمنا إلى عدم الإسراف .

مـن الأمور اللازمة في عملية التخطيط للزراعة هـو عدم الإسراف وقد جاء النهي عنه صراحة في القرآن الكريم في كل شيء إلا أنه في الزراعة له بعدٌ جديد يمكن تطبيقه كالآتي :

عدم الإسراف في الأسمدة واستعمالها ولا يخفى أثرها السيء في حالة الإسراف فيها .

عـدم الإسراف في استعمال الأدويـة والمبيدات: فهي تسبب تلوث التربة والمياه والهواء ، كمـا أنا تفقد الثمرة نفسها خصائصها وفوائدها المرجـوة ، وهو ما يفسر لنا اختلاف طعم الفواكه والخضروات اليوم عن الماضي ، وما هذا إلا للإفراط في استعمال المبيدات .

كمـا أن الاستعمـال المفـرط للمبيدات يؤدي إلى إبـادة كلية للحشرات التـي قد تستفيد منهـا الأرض ، فيختل التوازن البيئي بين هذه الكائنات.فضلا عن المناعة التي تأخذها بعض الحشرات ضد مبيد فيصبح لا جدوى له مهما كثرت كمياته .

" الإسراف في السقي: يؤدي إلى تعفن الجذور والتربة وتؤخر موعد النضج وانتشار الأوبئـة والحشـرات الضارة. وسبقت الإشارة إلى أهمية الاقتصـاد في استعمال المياة ، وفيه إشارة إلى الري بالتقطير .

عـدم الإسراف في استعمـال الآلات الميكانيكية والآليات الثقيلـة لأن ذلك يسبب ضغط التربة.

عـدم الإسـراف في الاهتمام بكمية الإنتاج على حساب نوعيـة المنتج كالمحاصيل المعدّلة جينياً ولا يخفى ما لها خطورة بيئية وصحية. [2]

---

(١) رواه أحمـد مـن حديث أبيّ برقم٢١٢٣٨ ، والحاكم فى مستدركه برقـم ٥٧٨ ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١١ هـ تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا .

(٢) راجع الإدارة البيئية في الوطن العربي ، محسن عبد الحميد توفيق ، تونس ، ١٩٩٣م ص ٦٨وما بعدها .

وقد جمع القرآن الكريم جملة من هذه الإعدادات والتخطيط من خلال آيات سورة "عبس"

حيث يقول الله تعالى " : فلينظر الإنسان إلى طعامه × أنا صببنا الماء صبا × ثم شققنا الأرض شقا × فأنبتنا فيها حبّا × وعنبا وقضبا × وزيتونا ونخلا × وحدائق غلبا × وفاكهة وأبّا × متاعا لكم ولأنعامكم " (١)

حيث تبرز هذه الآيات العوامل الأساسية والآليات التي يقوم عليها هذا النظام الزراعي وهي :

- العوامل المناخية: " أنّا صببنا الماء صبا: هنا إشارة إلى التأثيرات التي تساهم في إنزال الغيث وهي الرياح، والسحب، الحرارة، التبخر...

- عوامل التربة: ثمّ شققنا الأرض شقا: تشير الآية إلى دور التربة في النظام الزراعي ، وطرق وفوائد الحرث وقلب الأرض .

- الإنبات: فأنبتنا.. وهذا العامل الثالث الأساسي لتحديد مدى نجاح العملية الزراعية، ويشمل ظروف عملية الإنبات ونوع البذور المستعملة.

فهذه العوامل الثلاثة هي التي تحدد مدى نجاح أي عملية زراعية. فهي معادلة ذات ثلاث عناصر: المناخ، التربة والإنبات. وهذه الحقيقة التي أقرتها هذه الآيات منذ أربعة عشر قرنا، أصبحت الآن نظريات علمية جديرة بالدراسة والإفادة منها ، فقبل إنجاز أي مشروع زراعي لا بد من دراسة العوامل المناخية لتلك المنطقة وتحديد مصادر المياه. وتحليل التربة لمعرفة نسبة المواد العضوية والمعدنية وعلى ضوء هذه المعطيات نقوم باختيار النبات المناسب والدورة الزراعية المناسبة، ونوعية البذور.

كما وأشارت الآيات إلى أهمية تنوع المحاصيل الزراعية فذكرت الآيات أكثر من سبعة أنواع زراعية جميعها صالح للاستهلاك .

وبعد أن ذكرت الآية هذه الأصناف الكثيرة من الإنتاج النباتي، بينت مصير هذا الإنتاج:

(١) عبس الآيات ٢١-٣١.

متاعا لكم ولأنعامكم" فهو للإنسان ثم للحيوان الذي بدوره مسخر للإنسان ومصيره إليه.

إذن في دعوة المشرّع لعدم الإسراف رؤية جديدة لزراعة متطورة ومتوازنة في نفس الوقت. وهو من حسن التخطيط فى مجال الزراعة فيجدر العمل به وأخذه في الاعتبار سواء في المجال الزراعي أو في غيره من المجالات .

منع الزكاة سبب في التصحر :

قد يرد على الخاطر سؤال في محله : ما علاقة الزكاة بالتصحر ؟

إذا نظرنا للمسألة من منظور ديني وبإمعان النظر في إدراك البعد الديني في المسألة ندرك بسهولة علاقة الزكاة ومنعها بتصحر الأرض وهلاكها ، ومع كونه ليس سببا علميا يقوم على أدلة وبراهين علمية محسوسة ودراسات معملية مطردة .

إلا إنه سبب شرعي مع مسبب الأسباب وواهب النعم الأول وهو الله تعالى ، ومنع الزكاة سبب في إزالة النعم ، فالله تعالى خلق الخلق وأجرى عليه سننا لا تتبدل ولا تتغير : " ولن تجد لسنة الله تبديلا "(١) ومن هذه السنن : " لئن شكرتم لأزيدنكم "(٢) فشكر الله على النعم- الذي من مظاهره إخراج الزكاة كما شرع ربنا تعالى - يحفظ النعم .

كما أن كفر النعمة سبب مباشر في زوالها : " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ "(٣)

فهذه القرية كانت في رغد من العيش إلا أنها لم ترع فيه حق الله فكانت النتيجة والسنة التي لا تتبدل أن بدل الله رغدها إلى ضنك ، وأمنها إلى خوف ، وكان ذلك بسبب فعلهم وكفرانهم النعم .

وما ذكرناه من شكر النعم أو كفرانها وما يترتب عليه في عموم النعم ، والأمر في الزراعة أشد تأكيدا – لأنها تمثل العطاء المباشر من الله تعالى – حيث جاء الأمر صريحا صارما

(١) الأحزاب ٦٢

(٢) إبراهيم ٧

(٣) النحل ١١٢

في هذه القضية من خلال أمر الشارع بإيتاء الزكاة فور الحصاد في قوله تعالى : " وآتوا حقه يوم حصاده "[1] : حقه يعني زكاته التي هي سبب لحفظ النعم وتجنب زوالها . ولا يخفى ما في هذه الزكاة من فوائد اجتماعية واقتصادية يطول شرحها .

ولكن مما يسترعى الانتباه في قوله تعالى السابق هو لفظة : " يوم حصاده " فهي دعوة للإسراع وعدم التسويف في إخراج حق الله من الإنتاج . خاصة وأن الثمار سريعا ما تتلف خاصة التي تحتوي منها على نسبة عالية من الماء. وحتى تكون زكاة طيبة أمرنا أن نسرع بإخراجها قبل إتلافها. وفي هذا الإسراع أيضا إشارة إلى توفير تكاليف الخزن، ففي يومنا الحاضر صار هذا النشاط ذو أهميّة اقتصادية كتقنيات التبريد والتكييف وغيرها.

وقد أورد لنا القرآن الكريم لنا نموذجا يوقفنا على خطورة الأمر مبينا علاقة منع الزكاة بمشكلة التصحر وإهلاك الأرض وهو ما كان من أحداث أصحاب الجنة في سورة " ن " .

قال تعالى : " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) "[2]

يقول البغوي : " كان بستان باليمن يقال له الضّروان دون صنعاء بفرسخين، يطؤه أهل الطريق، كان غرسه قوم من أهل الصلاة، وكان لرجل فمات فورثه ثلاثة بنين له، وكان يكون للمساكين إذا صرموا نخلهم ، كل شيء تعداه المنجل فلم يجزّه وإذا طرح من فوق النخل إلى البساط ، فكل شيء يسقط على البساط فهو أيضا للمساكين، وإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين وإذا داسوه كان لهم كل شيء ينتثر أيضا ، فلما مات الأب

(١) الأنعام ١٤١
(٢) سورة ن الآيات ١٧ – ٣٣

وورثـه هؤلاء الإخوة عن أبيهم فقالوا: والله إن المال لقليل، وإن العيال لكثير ، وإنما كان هذا الأمر يفعل إذ كان المال كثيرًا والعيال قليلا ، فأما إذا قلَّ المال وكثر العيال فإنا لا نستطيع أن نفعل هذا فتحالفوا بينهم يومًا ليغدون غدوة قبل خروج الناس فليصرِمُنَّ نخلهم ولم يستثنوا يقول: لم يقولوا إن شاء الله فغدا القوم بسدفة من الليل إلى جنتهم ليصرموها قبل أن يخرج المساكين، فرأوها مسودة وقد طاف عليها من الليل طائف من العذاب فأحرقها فأصبحت كالصريم "[١]

فهؤلاء النفر أرادوا أن يحرموا الفقراء مما اعتادوا عليه فحرمهم الله ، وهى رسالة موجهة لكل من يضن بحق الله تعالى فيما رزقه الله إنه جرس إنذار بزوال النعم ، وقد جلب لهم ضنهم ومنعهم الزكاة من العواقب الوخيمة في الدنيا أصبحت أرضهم بورا بعد ما كانت جنة غناء .

فالمستفاد من القصة أن منع الزكاة وحرمان الفقراء مما تنتج الأرض الزراعية يجعلها عرضة للتصحر ، ويوقفها على عتبة الهلاك ، وليس مشروطا أن كل من منع الزكاة تصحرت أرضه ولكن شكر النعم يقتضي زيادتها في قانون الله تعالى ، وشكر النعم إهلاكها فيما شرع الله .

كما أوردت السنة نموذجا آخر يوضح أن فى الصدقة حفاظا على الأرض وحماية لها من الهلاك ، حيث يهيئ الله لصاحب الصدقة الأسباب كنزول المطر ، وقد يكون في وقت جدب أو نحوه ، ولكنه عطاء لدني لا يقف عند الأسباب المحسوسة ، فالله تعالى له طلاقة القدرة يمضيها وفق سنته في خلقه .

روي الإمام الطبراني في معجمه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: (بينما رجل يسير في أرض فلاة إذ سمع صوتاً في سحابة يقول: اسق أرض فلان. فتنحى ذلك السحاب في شرجة من شراج الحرة ، فاستوعبت الماء كله ، فذهب فإذا رجل يساعد هذا الماء بمسحاة له حتى يأخذ طريقه إلى بستانه، فقال له: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: ولم تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في سحابة يقول: اسق أرض فلان باسمك. قال

(١) معالم التنزيل المسمى بتفسير البغوى ط دار طيبة ١٤٠٧هـ تحقيق عثمان ضميرية وآخرون ٨/ ١٩٥ .

لـه: أمــا قد قلت ذلك فإني أنظر ما يخرج منها فأقسمه ثلاثة أثلاث ، فآكل أنا وعيالي ثلثه ، وأتصدق بثلثه ، وأردّ فيها ثلثه "(١)

وفي القصــة ما لا يخفــى من الدروس والعبر في شأن الحفاظ علــى النعم ومنها الأرض ونتاجهــا بتقــوى الله ومراعاة حــق الفقراء فيما تنتجــه الأرض .كما فيها إشــارة إلى حسن التخطيــط والاقتصاد في كل شيء ، فهذا الرجل الذي قيض الله له السحابة يرعى في أرضه حق الله وزيادة ، حيث يخرج الثلث والواجب في النتاج الزراعي لا يتجاوز نصف العشر ، وحق نفســه وأولاده فلــم يقتّر عليهم فثلث الإنتاج ليس بالقليل ، كما أنه لم يهمل حق الأرض فيوفر لها البذور الكافية ولا شك أنه يختار البذرة الجيدة الصحيحة حتى لا تكون عبئًا على التربة ويسهل رعايتها ويعظم عطاؤها .

إنهــا دروس كامنة في فعل هذا الرجل البسيط لكنه لحســن توكله على الله هيئ الله له الأسبــاب ، هــذا والمقام فيه العديد من النصوص المؤيــدة إلى ما ذهبنا إليه ولكن ما أوردناه فيه الدلالة .

والله من وارء القصد .

وفى النهاية أضع بين أيديكم جهد المقل ، فإن وفقت فمن الله ، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان وحسبي أني اجتهدت قدر الطاقة .

وصل اللهم على سيدنا محمد   والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث ابن مسعود برقم ٩٤٦٤ ، وعبد الرزاق فى مصنفه برقم ٤٩٠٥ ط الكتب الإسلامى / بيروت ١٤٠٣هـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى .

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة في بيان منهج الإسلام في مجابهته وعلاجه لظاهرة التصحر ، يجدر أن نضع بين يدي القارئ الكريم جملة مما توصلت إليه الدراسة من نتائج وتوصيات .

أولا النتائج :

القرآن الكريم لم يغفل الحديث عن الأرض والتربة ومنتجاتهما بأسلوب علمي معجز وفريد ، حتى بات ما قرره الإسلام نظريات علمية تدرس في الجامعات العالمية .

تفوق الفكر الإسلامي على غيره وذلك لأنه يبني أحكامه على المصلحة العامة وترغيب الأفراد في استصلاح الأرض و زراعتها بدلا من تركها معطلة حتى ولو كان المستصلح غير مسلم .

الجهاد في الإسلام له فلسفته الخاصة ، فليس هو زريعة للفساد في الأرض أو التخريب أو الانتقام والتشفي ، ولذلك أنكر الإسلام سياسة الأرض المحروقة .

الإسلام يرسم نموذجا تطبيقيا لما ينبغي أن تكون عليه الزراعة من خلال نصوصه ، كما أنه يدعو إلى التخضير والتشجير وهي دعوة سبق بها النظريات الحديثة .

سبق الإسلام من خلال نصوصه الشرعية العديد من النظريات الحديثة في مواجهة مشكلة التصحر ووضع لها حلولا وقائية وأخرى علاجية .

قررت الدراسة أن مفهوم التصحر أعمق من مجرد اتساع الصحراء على حساب الرقعة الزراعية ولكنه يعني أيضا تدهور التربة الزراعية لأسباب بعضها يرجع لعوامل طبيعية وأخرى تعود لاستخدام الإنسان .

قررت الدراسة أن التصحر له تأثيرات مفجعة على الاقتصاد حيث تتكبد البلاد المليارات جراء عمليات التصحر سواء في مواجهته أو ما يترتب عليه .

التصحر ليس كله بدرجة واحدة ولكن له أربع مستويات " خفيف – معتدل – شديد – شديد جدا "

أكدت الدراسة وجود علاقة وطيدة بين حسن التخطيط وبين مجابهة مشكلة التصحر .

أكدت الدراسة أن إيتاء الزكاة سبب في حفظ النعم واستمرارها .

ثانيا التوصيات :

١. توصي الدراسة بضرورة قراءة القرآن الكريم ونصوص الشريعة قراءة جديدة حتى يمكننا استنباط ما يغنينا عن استيراد النظريات الغربية والتي سبق إليها القرآن الكريم .

٢. توصي الدراسة بضرورة إصدار قوانين صريحة بعقوبات صارمة لكل من يمد يد العبث للبيئة التي هي ملك للجميع .

٣. استصدار قوانين تمنع حبس الأرض دون استعمارها بما يتفق مع ما جاء في النصوص الشرعية الناهية عن التحجير لأكثر من ثلاث سنوات .

٤. إحياء سنة " من أحيا أرضا مواتا فهي له " مما يساعد على توسعة الرقعة الزراعية وحث الناس على العمل وخلق فرص عمل جديدة للشباب .

٥. ضرورة تثقيف المزارعين بعمل دورات تدريبية على حسن التخطيط كما جاء في القرآن الكريم وسبقت الإشارة إليه .

٦. رصد المحفزات والجوائز لمن يساهم في خدمة البيئة الزراعية وزيادة نسبة الخضرة في العالم كانتخاب القرية النموذجية مثلا أو الشارع النموذجي في الخضرة أو ما شابه .

٧. تكليف كل بيت بزراعة شجرة واحدة أمامه مما يساهم في خلق جو صحي وبيئة نظيفة .

٨. إتاحة الفرصة أمام خريجي الشباب من الكليات المتخصصة لتخضير الصحراء وجعلها مشارع تخرج مفيدة ومنتجة .

المراجع والمصادر

١. الإدارة البيئية في الوطن العربي ، محسن عبد الحميد توفيق تونس ١٩٩٣ م .

٢. الأدب المفرد للبخاري ط دار البشائر الإسلامية – بيروت ط ثالثة ١٤٠٩هـ تحقيق : عبدالباقي.

٣. البداية والنهاية لابن كثير ط مكتبة المعارف / بيروت .

٤. البيئات والتصحر التلوثي د محمد ابراهيم حسن جامعة الأسكندرية ٢٠٠٤ م .

٥. البيئة والإنسان ، زين الدين عبد المقصود ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٦. تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي ط دار الكتب الإسلامي ١٣١٣هـ القاهرة .

٧. التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي ط مؤسسة التاريخ العربي ١٤٢٠هـ بيروت / لبنان.

٨. التصحر في الوطن العربي ، إبراهيم نحال ، معهد الإنماء العربي ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٩. تفسير ابن كثير تحقيق :سامي بن محمد سلامة ط دار طيبة للنشر والتوزيع ط ثانية ١٤٢٠هـ .

١٠. تفسير الشيخ الشعرواي / ٢٦٧ ط أخبار اليوم .

١١. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٩٠ م .

١٢. الجامع الصحيح المسمى سنن الترمذي ط دار إحياء التراث العربي بيروت تحقيق : أحمد شاكر .

١٣. سنن ابن ماجة ط دار الفكر بيروت .

١٤. سنن أبي داوود ط دار الفكر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

١٥. صحيح مسلم ط دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠٢م تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي .

١٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر تحقيق ابن باز ومحب الدين الخطيب ط دار الفكر .

١٧. الفقه الإسلامي وأدلته وهبة الزحيلي ط دار الفكر دمشق ط رابعة .

١٨. مجلة الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في الكتاب والسنة – العدد السادس والعشرون .

١٩. المستدرك للنيسابوري ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١١ هـ تحقيق :مصطفى عطا .

٢٠. مسند الإمام أحمد ط مؤسسة الرسالة تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ط ثانية ١٤٢٠هـ .

٢١. مشكلة التصحر في الوطن العربي ، أسبابها ، أبعادها ووسائل مكافحتها ، هاشم نعمة ، الملتقى الجغرافي الثاني ، جامعة قار يونس ، بنغازي ، ليبيا ، ١٩٩٤م .

٢٢. مصنف ابن أبى شيبة ط مكتبة الرشد الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩تحقيق كمال يوسف الحوت.

٢٣. مصنف عبد الرزاق ط الكتب الإسلامي / بيروت ١٤٠٣هـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي .

٢٤. معالم التنزيل المسمى بتفسير البغوي ط دار طيبة ١٤٠٧هـ تحقيق عثمان ضميرية وآخرون.

٢٥. المعجم الكبير للطبراني ط مكتبة العلوم والحكم،ط ثانية ١٤٠٤ هـ تحقيق : حمدي السلفي.

٢٦. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج محمد الخطيب الشربيني ط دار الفكر / بيروت .

٢٧. المغني لابن قدامة المقدسي ط دار الفكر / بيروت ١٤٠٥ هـ .

٢٨. موطأ الإمام مالك ط مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان ط أولى ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

٢٩. نصب الراية للزيلعي ط دار الحديث ١٣٥٧ هـ تحقيق محمد يوسف البنوري .

أنس سليمان أحمد المصري

- تاريخ الـــولادة: ٢٨/٢/١٩٧٧م.
- مكـــان الولادة: الكـــــويت.
- الجنسيـــــــة: أردنيــــــة.
- رقم الهـــاتف : نقال: (٠٠٩٦٢٧٧٧٤٧٣٣٠٣)
- البريد الالكتروني: anasmsr@yahoo.com

الشهادات العلمية والمسلكية :

- دكتوراه، الجامعة الأردنية، الحديث النبوي الشريف وعلومه، ٢٠٠٩م، جيد جداً.
- ماجستير، الجامعة الأردنية، الحديث النبوي الشريف وعلومه، ٢٠٠٥م، امتياز.
- بكالوريس، جامعة البلقاء التطبيقية، الدعوة وأصول الدين، ١٩٩٩م، جيد جداً.

خبرات العمل :

- محاضر/ الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١١م- تاريخه.
- محاضر غير متفرغ/ جامعة العلوم الإسلامية، عمان، ٢٠١٣م.
- المستشار اللجنة الشرعية لمعهد (وانا)، ٢٠١٥م.
- محاضر/ دورات علمية، وتنمية بشرية، عدة جهات.
- المشاركة في عدة حلقات تلفزيونية وإذاعية.

الدورات التأهيلية :

- دورة إعداد المؤتمرات والمحافل العلمية، مؤسسة الرواد العالمية، ٢٠١٥م.
- دورة الذكاءات المتعددة (عمان – جمعية الحديث الشريف – عام ٢٠١١م).
- دورة مهارات الحياة الأساسية، مؤسسة إتقان، ٢٠٠٨م.
- دورة (ICDL)، عمان، ٢٠٠٥م.
- دورة الطباعة بالحاسوب، عمان، ٢٠٠٣م.

المؤلفات العلمية :

- قرائن الترجيح بين الأحكام المتعارضة في الجرح والتعديل.
- تحقيق سنن الترمذي- رواية الكروخي.
- صحيح صفة الجنة من الكتاب والسنة.

المنهج القرآني في علاج مشكلة الفساد

د. أنس سليمان المصري النابلسي

محاضر غير متفرع / الجامعة الأردنية

ملخص

لقد جاء القـرآن الكريم والشريعة الإسلامية –في المقام الأول- هداية للبشر، وتنظيماً لشـؤون حياتهم، سواء كان ذلك من خلال إتمام صالـح أخلاقهم، أو علاج مشكلاتهم على صعدهـا المختلفة؛ العقديـة والأخلاقية والسياسيـة والاقتصادية وغيرهـا، فكانا صنوين لا يتفرقان.

وأخطـر تلك المشكلات التي جابهها القرآن الكريم –منذ بكورة تنزيله- مشكلة الفساد التي ما زالت منظومتها سبباً لمشكلات المجتمع كافة، ومرضاً يظهر أثره على محاوره المختلفة؛ كالسياسـة والاقتصاد والفكر وغيرهـا؛ ولهذا حاربه القرآن الكريم، وعمل على هدم أسسه، وتقويض مقوماتـه، وإضعاف انتشاره، من خـلال وضع مناهج عدة تضمـن صلاح المجتمع وقيامه على الحق، حفاظته على العدالة والاستقرار.

فـأولى المنهج القـرآني اهتمامـاً لمحاربة جوانب الفسـاد وتداعياته من خـلال توضيح مفاهيمـه وتحديـد مصطلحاتـه؛ فصحح في عقول النـاس حدوده؛ ليزيل تلبيـس المفسدين فيه، ويظهر صفاتهم ويكشـف أفكارهم، وادعاءاتهم وقناعتهم، وأهدافهم وغاياتهم، ويبين مصيرهـم وسـوء عواقبهم، ويسهل علـى المصلحين تمييزهم ومحاربتهـم والتحذير منهم، وتصحيح مسارهم.

وتُعنى هـذه الدراسة باستقراء هذه المفاهيم القرآنيـة، وتحليلها، وتقعيدها ضمن أدلة شرعيـة، ومنهجيـة واضحـة، وعرضها بشـكل متكامل ومتـوازن، وتوظيفها لبيـان ما أنف، باعتبـاره من أهم أهداف تنزيل الشريعة، وأسمى غايات الأنبياء والرسالات السماوية، التي لا تقوم في المجتمعات إلا بالتخلص من الفساد وأعوانه؛ فهما نقيضان لا يجتمعان.

مقدمة البحث وأهميته

الحمـد لله الذي برأ الأكوان بعدله وحكمته، وهيأ الحياة فيها بعلمه وقدرته، وجعل فيها ملائكة طوافين بحكمه وإمرته، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث برحمته، الهادي لصلاح البشرية بدينه وشِرعته، الداعي إلى رضوان الله بهديه وسنته، والتابعين له بإحسان طامعين بشُفعته، والمصلحين بوحي ربهم آملين بجنته، وبعد:

فـإن غايـة إرسال المرسلين، ودعـوة المصلحين المؤمنين، متجسـدة في إتباع الناس لرب العالمين، وامتثالهم لمنهجه القويم، الصالح في مكان وحين، والمصلح لشؤون العالمين، وتحذير النـاس من مغبة الخـروج عن منهج هذا الدين، وما سيلحقه مـن فساد في الأرض والسماء، ويعانيـه النـاس من الضنك والشقـاء، وفساد في الأموال والأنفس والثمـرات على حد سواء، كما قال – عز وجل – : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى × وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه: ١٢٤].

فـكان لا بد مـن الوقوف على حقيقة الفساد ومقوماته، وطـرق درئه ومقاوماته، وصوره وآثـاره وخطوراتـه، والحلول القرآنية لدحضه ومعالجاته، فإن معرفـة الشر تعمل على حدّه، والمحافظة على الإصلاح متوقفة على محددات ضدّه؛ ولهذا كان الناس يسألون النبيﷺعن الخير، وكان حذيفة – رضي الله عنه – يسأله عن الشر مخالفة أن يدركه[(١)].

ولمـا تقدم، فقد أوليت هذا الموضوع اهتماماً لما يحمله من خطوات نحو الإصلاح، ويمهد لهـا من خـلال معرفة أسس الفسـاد وجـذوره واستئصالها، ويكون ذلك عـن طريق تحديد مفهوم الفساد وملامحه من خلال المنهج القرآني الكريم.

كما ترفد أهميته الحاجة الملحة لمعرفة المنهج القرآني في وصف الفساد وأنواعه، وطرق علاج كل منها، وكشف أي ضبابية أو لبس عن تلك الأنواع أو المفاهيم.

ولهذا كانت أهمية هذا البحث عمدة في المنهج القرآني لعلاج مشكلات الفساد المتنوعة.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٣/ ١٣١٩، حديث (٣٤١١).

الدراسات السابقة :

لقد عنت عدة دراسات وأبحاث متقدمة بموضوع الفساد، ومنهجية القرآن في توصيفه وعلاجه، إلا أنها اقتصرت على جزء غير متكامل من ذلك الموضوع، وسأتكلم عن كل دراسة على حدة:

اللوح، عبد السلام حمدان، والسوسي، ضيائي نعمان، الفساد وأسبابه دراسة قرآنية موضوعية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، يونيو ٢٠٠٧.

وقد عنى فيها الباحثان بأسباب الفساد في القرآن الكريم، دون العناية بنتاجاتها على المجتمعات والأفراد، ودون النظر في منهجية القرآن في معالجتها ومقاومتها، وهي بوابة عبور لمفهوم الإصلاح وتسلسل عملياته الفعالة.

الزحيلي، وهبة مصطفى، التعريف بالفساد وصوره من الوجهة الشرعية، المؤتمر العربي الدولي لمكافحة الفساد، أكايمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠٣.

وقد بحث في صور الفساد وحكمه من وجهة نظر الشريعة، إلا أنه اقتصر على فساد المجتمعات دون غيرها، وتوصيفها دون التطرق إلى منهج القرآن في علاجها ومقاومتها.

كيحل، عز الدين، الفساد: مفهومه ومكافحته في التصور الإسلامي، مجلة الاجتهاد القضائي، العدد الخامس.

وقد عرض إلى مفهوم الفساد، وطرق مقاومته وعلاجه بطريقة رائقة، لكنه جاء بشكل مقتصر على طرق العلاج دون الموضوعات الأخرى المتعلقة بالفساد والإفساد، وخارجاً على التصوير القرآني لأفكار المفسدين وقناعاتهم، وآثارهم المختلفة على الفرد والمجتمع.

قصاص، عبد الرحمن جميل، مفهوم الفساد والإفساد من منظور إسلامي، المؤتمر العربي الدولي لمكافحة الفساد، أكايمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠٣.

وكان مفصل اهتمام الباحث هو الاقتصار على استخراج الأصول والفوائد القرآنية في الفساد والإفساد، وخلص إلى عدة قواعد قرآنية في الفساد، يستدرك عليه بعضٌ آخر منها.

سرحان، ضياء، منهج القرآن في معالجة الفساد الإداري، مجلة ديالى، العدد الثامن والثلاثون، ٢٠٠٩م.

وقد خلص الباحث إلى منهجية القرآن في معالجة الفساد الإداري، وطرق منعه، وهو بحث جيد في موضوعه المتخصص، وأعوزه النظرة الشاملة لطرق علاج الفساد والإفساد بجميع فروعه وأنواعه، مما يجعل الحاجة ملحة في تكرار هذه الدراسة على فروع الحياة المختلفة.

منهجية البحث:

تستند هذه الدراسة على عدة منهجيات متسلسلة تقوم من خلالها استقرائية متكاملة للآيات القرآنية التي عرضت لمعاني الفساد والإفساد، ودراستها وتفسيرها.

ومن ثم تحليل معانيها وما تفيده من مفاهيم موضحة لمعنى الفساد وتفريعاته وأسبابه وآثاره وخطورته على مناحي الحياة المختلفة.

وما يتطلب لعلاجه والتخلص منه في خطوة استباقية لبناء المجتمعات والمحافظة على صلاحها وتقدمها، وهذا منهج استنباطي لا بد من توظيفه لإتمام معالم هذه الدراسة وتكاملها.

حدود البحث:

تقتصر هذا الدراسة على البحث في الآيات القرآنية، المتعلقة بموضوع الفساد والإفساد، وبناء صورة متكاملة عن المنظور القرآن لمحدداته، وتفصيلاته المختلفة، مع التطرق إلى السنة النبوية الغراء بشكل قاصر عن الاستقراء بما يخدم وموضوع البحث.

أسأل الله أي يجعله في ميزان حسنات كاتبه وطالبه وقارئه ورائيه، والله الموفق وهو المستعان.

تمهيد: في تعريف الفساد لغة واصطلاحاً:

الفساد لغة:

الفاء والسين والدال، أصل ثلاثي لمادة (فسد)؛ وفسد الشيء يفسد فساداً وفسوداً، وهو فاسد وفسيد[1].

ويقال: قوم فسدى، كصرعى، وقوم فاسد، كساقط، والمفسدة خلاف المصلحة[2]، وقيل: فسد: بطل واضمحل أو تغير[3]، ويأتي بمعنى الجدب في البر والقحط في البحر كقوله – عز وجل –: ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ...﴾[الروم: ٤١].

وقيل الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال قليلاً كان أو كثيراً[4]، وهو أجمع التعاريف وأصوبها.

الفساد اصطلاحاً:

والمقصود بمعنى الفساد الاصطلاحي؛ أي معناه الشرعي، فقيل: الفساد الشرعي "هو الكفر والعمل بالمعصية"[5]، وقيل أيضاً: "هو التغير عن حالة الاعتدال والاستقامة"[6]، أو الخروج عنه[7]، وقالوا: "هو ارتكاب أيٍّ من الآثام، أو العمل بغير أمر الله"[8].

ومما سبق يمكن استخلاص مفهوم الفساد الشرعي بأنه: "الخروج عن فطرة الله أو شرعه – عز وجل – قليلاً كان أو كثيراً".

ومن هنا يُعلم أن القرآن الكريم يطلق على أي شيء خرج عن شرع الله – عز وجل – وفطرته التي فطره عليها فساداً؛ سواءً كان فرداً أو مجتمعاً أو فساداً كونياً أو غير ذلك.

ومن خلال هذا المفهوم يمكننا تحديد ملامح الفساد في ضوء السياق القرآني.

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ص٧٤٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ف س د).

(٣) الزبيدي، تاج العروس، ٢/ ٤٥٢.

(٤) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٣٦.

(٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١/ ٩٧.

(٦) أبو حيان، البحر المحيط، ١/ ١٩١.

(٧) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل١/ ٢٨.

(٨) المنصوري، المقتطف من عيون التفاسير، ص٣٩.

المبحث الأول

المنهج القرآني في تصحيح مفهوم الفساد ووضع محدداته :

لقد عرضت الآيات القرآنية لمفهوم الفساد ومشتقاته في مواطن متعددة، ومناسبات مختلفة، وأزمنة متباعدة؛ منذ بداية نزول القرآن المكي، وحتى زمن انقطاع الوحي في المدينة المنورة؛ فجاء منها ثلاثة وثلاثون موضعاً في الآيات المكية، وستة عشر موضعاً في الآيات المدنية، بشكل يوضح تركيز القرآن الكريم على محاربة الفساد بأنواعه في المرحلة المكية الذي كان يسوده الكفر والفساد والإفساد، خلافاً للمجتمع المدني الذي كان غالبه الاستقرار وترسخ القيم الإسلامية والمجتمع الصالح المصلح.

ولهذا فقد أولى القرآن الكريم موضوع الفساد ومجابهته المهمة الأولى قبل نشر الإسلام، وبناء قواعد الدولة؛ لما كان للكفار من سلطة نافذة وشأن مؤثر.

وقد جاءت مشتقات الفعل (فسد) في القرآن بصيغ الفعل الماضي (فسدت، أفسدوا)، والمضارع (تفسدوا، يفسدون، يفسد، تفسدنّ، نفسد)، واسم الفاعل (مفسدون، مفسد) والمصدر (الفساد)، ولم تأتِ بصيغ أخرى؛ كالأمر؛ لأن الشريعة الإسلامية لا تأمر بالفساد، كما إنها لم تأتِ بصيغة المبالغة؛ إشارة إلى أن الفساد يحارب في بداياته قبل أن يستفحل ويصبح قوة متحكمة، كما يشير إلى خطورة الفاسد وضرره مهما قلّ، وأن قليله ككثيره، فيجب ألا يترك حتى يستشري فيُجتث في أوله ولا يُتهاوَن فيه.

ومن خلال السياق القرآني للفساد ومفاهيمه المختلفة يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

المطلب الأول: مفهوم المفسدين عن الفساد:

لقد بيّن القرآن الكريم مفهوم الكفار المغلوط لمعنى الفساد، وأن نظرة الفاسد للمصلح تقوم على اتهامه بالفساد؛ إما لانخداعه أو لقناعته بأنه على الطريق الصحيح، وأن كل من خالفه فهو مفسد؛ لما انتكس عنده من الفطرة، وانعكس لديه من المفاهيم والحقائق،

وهــذه قاعدة قرآنية تكــررت في أكثر من موضع، بيّنت بـأن المصلحين في نظر المفسدين هم مفسدون، كما قال - عز وجل -: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[الأعراف: ١٢٧]، وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُـوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة: ١١]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَـوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: ١٥]، ولم يتوقف الأمر عنـد هذا الحد بل حاربوا المصلحين وحاولوا إفناءهم ظناً منهم أن هذا حماية لمجتماعاتهم مـن تبديل العقائد والقيم فـ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَـنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[الشعراء: ١٦٧]، و﴿قَالُـوا لَئِـنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُـوحُ لَتَكُونَنَّ مِـنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[الشعـراء: ١١٦]، واختلقوا لأنفسهـم المبررات لذلك، وهذا يوجب أن تكون الأهواء والقيم والقناعات متوافقة والشريعة السمحــة؛ فمتـى اختلت وابتعدت عن القيـم الربانية، صار الحق باطـلاً، والإفساد إصلاحاً كمـا قال - عز وجـل -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا × الَّذِيـنَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَـا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُـونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٤]؛ لذلك كان من الضرورة أن ينطلـق الإصــلاح على أسس شرعية ربانية، وليس على قوانـين وضعية متغيرة القناعات، ومتعارضــة الآراء ومختلفة الاتجاهات، لإن الإصلاح في هـذه الحالة سيكون متعدد المفاهيم والمناهــج، ويصبح ضبابي الرؤية مما قد يوقع الخلاف بـين المصلحين، ويجعل الإصلاح في نظر بعضهم إفساداً كما وقع مع تلك الأقوام السابقة.

المطلب الثاني: الله يعلم المفسد من المصلح:

لقــد حــدّدت الشريعة الإسلاميــة معالم الفســاد ومقوماتــه ومفاهيمه، بعيـداً عن أية اعتقادات ضالة أو مضلّلة لمفهومه، وأن الحق لا يتعدد ولا يتناقض، فالمصلح لا يمكن أن يكون مفســداً، والعكــس صحيح، وأن الله - عز وجـل - عليم بالمفسدين، ومطّلــع على المصلحين، وخبـير بنوايا كلّ منهــم؛ على الرغم من التهم التــي يلقيها المفسدون جزافـاً ليحرضوا من خلالهــا علــى حركات الإصلاح التي تقوّض سلطانهم وملكهم؛ لكن هــذه الاتهامات لا تقوم بهــا قائمة لأن ﴿رَبُّكَ أَعْلَـمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٤٠]، وقد بـيّن الله - عز وجل - صفاتهم فقــال: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْـرَ الْمُسْرِفِينَ × الَّذِيـنَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥١-١٥٢]، وكشف عن أمرهم فقال - عز وجل -: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٢٠]، وقال - عز وجل -: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[آل عمران: ٦٣]، وإن خفي على المفسدين حالهم ولبّس عليهم الشيطان لكن ذلك لا يخرجهم من دائرة الفساد، كما قال - عز وجل -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١٢]، بل إن علم الله - عز وجل - مطلق؛ فهو عالم بالفساد قبل وقوعه كما أخبر عن بني إسرائيل ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٤]؛ وهذا الوهم القائم عند المفسدين زائل عنهم عند انكشاف الحقائق، ووقوع العذاب، وانتهاء الأمر، فلا يكتشون حقيقة فسادهم إلا بعد فوات الأوان؛ لما على قلوبهم من الران؛ وهذا ما حدث لفرعون وأمثاله بعد اتهامه لموسى بالفساد كما قال - عز وجل -: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]؛ فما اعترف بحقيقة الأمر إلا بعد أن أدركه الهلاك، وارتدع عن المغالطة فيما يدّعي فجاءت الآيات موبخة له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩١]، بل لو ردّ الله عذابه عنه لعاد إلى ادّعاءاته مرة أخرى كما قال - عز وجل -: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨].

المطلب الثالث: النهي عن الفساد واتباع المفسدين:

لقد نهت الآيات المكية عن الإفساد في الأرض في مواضع عدة فقال - عز وجل -: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف: ٥٦]، لكن معظمها كان يضرب الأمثال من الأمم السابقة، وتحذير رسلهم لهم من اتباع الفساد والعمل به؛ لتكون عبرة لكفار قريش؛ فقال على لسان نوح ﷺ لقومه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٧٤]، وصالح ﷺ حين قال لقومه: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ × الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥٠-١٥١]، وشعيب ﷺ قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥]، وكذا موسى ﷺ حذّر هارون قائلاً: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٤٢]، وكذا على لسان المصلحين حين حذروا قارون فقالوا: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]، وقد تكرر النهي عن الفساد في الآيات المكية أضعاف ما نهت عنه المدنية منها؛ فقد جاء النهي عن

الفساد في موضع واحد حين عرّض الله - عز وجل - بقوم موسى ﷺ حيث قال: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة: ٦٠]، وهذا يبين أن المجتمع المدني الذي كان يمثل قيام الدولة المؤمنة العادلة المصلحة، كان يترأسه نبي الله ﷺ، فكان دابر الفساد فيه مجثوث، خلافاً لما عاثه كفار قريش في العهد المكي من الفساد، إضافةً إلى أن مجتمع المدينة كان في مرحلة البناء، وهي مرحلة متقدمة انتهت فيها محاربة الفساد والمفسدين، لا سيما أن الآية الواردة في النهي عن الفساد في المدينة جاءت تعريضاً باليهود ولم تكن موجهة للمؤمنين أو غيرهم، في حين أن النهي المكي كان موجهاً كفار قريش وغيرهم من الناس حتى المسلمين منهم، كما قال - عز وجل -: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف: ٥٦، ٨٥].

المطلب الرابع: الفساد لا يصدر عن غير فسقة الإنس والجان:

لقد أقام الله سماواته وأرضه على العدل الصلاح، وقامت سننه الكونية على الحق والإصلاح، وانصياع كل من في ملكوته لأمره؛ ملائكةً، وشموساً وأقماراً ونجوماً، وجبالاً وشجراً ودواباً، وكثيراً من الإنس والجان كما قال - عز وجل -: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[الحج: ١٨]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء: ٤٤]، وبهذا صار الكون محفوظاً من الهلاك برفع الفساد عن سننه وقوانينه، مصداقاً لقوله - عز وجل -: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[المؤمنون: ٧١]، وقال - عز وجل -: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١]؛ لذلك شذّ الفاسدون من الإنس والجان عن السنة الكونية، فأحدثوا في البر والبحر فساداً غير مسبوق فيها كما قال - عز وجل -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[الروم: ٤١]، وخرجوا عن نسق الكون فخالفوا نهجه وخالفوا معه فطرة النفوس الزكية، والعقول السليمة، ونقضوا فيه عهد الله بعد ميثاقه، كما قال - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٧].

ولهذا قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]، فالمفسدون سفكوا الدماء وابتعدوا عن عبادة الله – عز وجل – وما أخلفهم فيه بحق، وأهلكوا الحرث والنسل كما قال – عز وجل –: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[البقرة: ٢٠٥]، فخرجوا من رحمة الله ومحبته، ونصّبوا أنفسهم أعداء لله وشرعه، فـ﴿اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤] و﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[البقرة: ٢٠٥]، ونبذتهم كل المخلوقات كما ضرب الله – عز وجل – من مثل الأقوام لما قالوا: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾[الكهف: ٩٤]، فطلبوا أن يبعدهم عنهم؛ ولهذا كان من المحال أن يجتمع الإفساد والإصلاح في رجل واحد، أو منهج واحد؛ لأنهما نقيضان لا يجتمعان، فأنى للمفسدين أن يصلحوا، وقد فضح الله – عز وجل – أفعالهم حين قال: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ × الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥١-١٥٢]، وقال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[النمل: ٤٨]، فمن اتبع رضوان الله ليس كمن باء بغضب من الله، والإصلاح من صفات المؤمنين المتقين الناجين من عذاب الله وغضبه، ولا يستوي هؤلاء مع الكافرين والمنافقين والفاسقين من الإنس والجان.

المطلب الخامس: تحذير القرآن من عاقبة المفسدين:

لقد حذّر الله – عز وجل – من عاقبة المفسدين في مواضع كثيرة من الآي المكي، ونهى عن اتباع نهجهم وخطاهم فقال – عز وجل –: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٨٦]، وقال – عز وجل –: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣ والنمل: ١٤]، وقال – عز وجل –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٨١]، وتوعدهم بالعذاب حين قال – عز وجل –: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨]، ولم يكن لهم منجاة من العذاب لما أحدثوا في الأرض ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ × فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[الفجر: ١٢-١٣]، واستمر هذا التحذير في العهد المدني لكن بإشارات أقل تركيزاً؛ لتبقى عواقبه حاضرةً في أذهان المؤمنين، لا لاجتناب طرقه فحسب، بل لحثهم على

تقويضه في أي وقت ظهرت قرونه في مجتمعهم الفاضل، كما جاء في سورة البقرة –وهي مدنية- حيث قال الله – عز وجل -: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٧]، وقال في الرعد: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥]؛ ليبقى تطبيق المنهج الإسلامي خالياً من الفساد في جميع مراحله.

وكما توعد الله – عز وجل – الفساد والمفسدين بالحرب في الدنيا والهلاك في الآخرة، فقد بيّن أن محاربة الفساد ومقاومته مأمن من هلاك الدنيا وضنك معيشتها كما قال – عز وجل -: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١٦]؛ فالفساد عاقبته الهزيمة والذل، أما أولياء الله – عز وجل – فلسان حالهم: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٠]، وعاقبتهم كما قال – عز وجل -: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]، فإن امتنع الصالحون عن محاربة الفساد، أخذوا بجريرة الفاسدين، إذا كثر الخبث[(١)].

(١) كما جاء في الصحيحين من سؤال زينب بنت جحش أنها قالت للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون، قال: "نعم إذا كثر الخبث". انظر البخاري، صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قصة يأجوج ومأجوج، حديث (٣٠٩٧)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قول النبي ﷺ ويل للعرب من شر قد اقترب، حديث (٦٥٣٥).

المبحث الثاني

المنهج القرآني في التحذير من أسباب الفساد ودوافعه

لقد حارب القرآن الكريم الفساد بمحاربة أسبابه، وأمره للناس باجتنابها وتوقيها، وضرب الأمثال على السابقين من المفسدين ممن أهلكهم الله - عز وجل - وجعلهم آية لمن بعدهم، فبيّن من خلال آياته أسباب الفساد وروافد الإفساد ليتجنبها كل عاقل ومؤمن، إذ لا يمكن القضاء على عواقب أمر إلا بعد التغلب على أسبابه وتغييرها؛ فإن المسببات تزول بزوال أسبابها كما قال - عز وجل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، وقد جاءت أسباب الفساد والإفساد في القرآن الكريم على النحو الآتي:

السبب الأول: العلو والطغيان:

من سنن الله - عز وجل - في الكون أن يجعل الناس بعضهم لبعض سُخرياً، وأن يولي بعضهم بعضاً في أمور دنياهم، فيكون فيهم الحاكم والمحكوم، والوالي والمولى عليه، فإن خلت قوة الولاية من الأمانة والبر والتواضع؛ حكمها العلو في الأرض والطغيان، وكانت تلك القوة سبباً من أسباب الفساد والإفساد في الأرض، والظلم والعدوان للناس، وكانت عاقبتها الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ لذلك حذّرت الآيات الكريمة من مغبّة الوقوع في هذا السبب، وضربت من الأمم السابقة الأمثال كما قال - عز وجل -: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ × الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ × فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ × فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ × إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١١-١٤]، فبيّنت الآيات سبب الفساد وهو العلو والطغيان، وأردفت بسوء العاقبة التي لحقت بهم، كما وصفهم الله - عز وجل - في آية أخرى حيث قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٤]، وقال - عز وجل - -أيضاً-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، وقد جاء أيضاً تحذير بني إسرائيل من اتخاذ العلو الذي أتاهم الله - عز وجل - إياه أن يكون سبباً للفساد في الأرض في قوله - عز وجل -: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ

فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٤]؛ فإن اقترن العلو والقوة بالتقوى كانت عاقبته إلى خير، وأورثوا دار الآخرة كما قال – عز وجل –: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]، وإن تحكمت بها أهواء البشر أفسدت في الأرض كما قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل: ٣٤].

السبب الثاني: اتباع الهوى:

لقد حذّر الله – عز وجل – من اتباع الأهواء، وأمر بمخالفتها، وعدم اتخاذها آلهة تُعبد؛ لإنها مفسدة للدنيا والدين؛ لذلك قامت السماوات والأرض على العدل والقسط والميزان، وأما الأهواء فهي بعيدة عن هذا كله؛ لذلك لو اتبع الكون أهواء الفاسدين، لكان ذلك سبب في خرابه وظلم أهله، وهو أمر محال في شرع الله – عز وجل – وسننه الكونية، فالحق والصلاح في مخالفة الأهواء؛ وقد نبهت الآيات القرآنية على هذا في قوله – عز وجل –: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾[المؤمنون: ٧١]، فأصل الاتباع يكون للذكر، لا للهوى.

السبب الثالث: الذنوب والمعاصي:

إن ما يقع من الفساد في ملكوت الله – عز وجل – ناتج عما جنته أيدي البشر؛ لإن هذا الكون مفطور على شريعة وقانون رباني، ومخالفة هذه الشريعة الكونية تُحدث الفساد فيه، كما قال – عز وجل –: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

السبب الرابع: الشرك بالله:

إن الشرك بالله هو أعظم الذنوب والمعاصي، وإن كانت تلك الذنوب سبباً من أسباب ظهور الفساد في البر والبحر، فإن الشرك بالله – عز وجل – هو من أعظم أسباب ظهورها، فالله ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[مريم: ٦٥]، فعبادته واجبه، وأما ما فعله المشركون من جعلهم شركاء له في الحكم، فهذا مآله إلى خراب وفساد كما قال – عز وجل –: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ × لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢١-٢٢]؛ لأن الآلهة التي اتخذوها من دون الله لا

تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فلن يكون حساب ولا عذاب، وسيكون العنان مطلقاً للمفسدين ليظلموا وينتهكوا حقوق الناس دون خوف من عقاب أو عذاب أو هلاك، ودون أن تقوى تلك الآلهة على ردعهم أو مقاومتهم.

السبب الخامس: ترك الجهاد في سبيل الله:

ولهذا جعل الله سنة الجهاد حامية من كل فساد، و"لولا أن الله - عز وجل - يقيّض المؤمنين لقتال الكفار ومجاهدتهم وينصرهم عليهم، ويكف بهم أهل الفساد؛ لغلب الكافرون المؤمنين، ولفسدت الأرض، وبطلت منافعها، ولعمّ الكفر"[1]؛ لهذا كان الجهاد مانعاً من وقوع الفساد في الأرض، كما قال - عز وجل -: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥١].

السبب السادس: الترف والبطر:

لقد سخّر الله نعمه في الأرض لخدمة الناس، وأمرهم بالتصرف فيها من خلال شرعه ودينه؛ فسلطة المال كسلطة الملك، وكلاهما محتاج لمنهج رباني لتسييره، وكما كان الملك العاري عن شرع الله علواً وطغياناً وسبباً للفساد في الأرض، فإن الغنى العاري عن شرع الله يُعدُّ ترفاً وبطراً، يوصل إلى الفساد في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ لذلك لما أنعم الله - عز وجل - على بني إسرائيل بكثرة المال والطعام نهاهم أن اتخاذها مفسدة في الأرض بطراً وترفاً، فقال - عز وجل -: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة: ٦٠]؛ لأن البطر يوجب عدم الالتفات إلى غير المادة واللذة وما يتبعهما من الفساد والإفساد، فحذّر القرآن الكريم من اتباع أهل السرف والبطر فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ × الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥١-١٥٢]، ونهى المصلحون عن ذلك حيث قالوا لقارون: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]؛ ولهذا كان الفساد نتيجة الترف، وكان عاقبتهما الهلاك والعذاب، كما قال - عز وجل -: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦]، وقال: ﴿وَكَمْ

(١) الطبري، جامع البيان، ٢/ ٤٠٤.

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص: ٥٨].

السبب السابع: ترك الولاء والبراء

وهذا الأساس العقدي تقوم عليه كثير من أصول الدين؛ فالولاء لله - سبحانه وتعالى - اتباع لشريعته، والولاء لرسوله ﷺ اتباع لسنته، وهما جُنة من المعاصي والفساد، والبراء من الكفار تركٌ لكل ما أفسدوا به من المعاصي، وهما -أي الولاء والبراء- حجاب عن مخالطة أعداء الله - عز وجل - من شياطين الإنس والجان ومشاركتهم فسادهم؛ لذلك أمر الله - سبحانه وتعالى - اتخاذ الشيطان عدواً؛ لأن عداءه سببٌ لهجر وساوسه وبراءة من موالاة حزبه قال - عز وجل -: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[فاطر: ٦]، وترك هذا الأساس الشرعي باب لكل معصية، وذريعة لكل مفسدة؛ كما نهى الله - عز وجل - عن اتخاذ الكفار أولياء لأن ولايتهم سبب لوقوع الفساد في الأرض، كما قال - عز وجل -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٣]، فإنْ والى أحد من المسلمين كافراً أو عدواً له فإنه سيتبعه ويطيع أمره ويداهنه، وهذا كله سبب للفساد، فإن الشيطان وأتباعه ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾[الأنفال: ٧٣].

المبحث الثالث

المنهج القرآني في بيان أنواع الفساد ومخاطره:

لقد فصّلت آيات القرآن الكريم أنواع الفساد وأقسامه من خلال الصور القرآنية وأنباء الأمم السابقة التي قصها علينا السياق القرآني، وعاقبة كلّ منها، وقد أتى التحذير من هذه الصور جميعاً في القرآن الكريم، فنهى -أحياناً- عن مطلق الفساد، وأحياناً أخرى جاء النهي عن نوع حدّدته الآيات، أو من خلال القصص القرآني الذي وضّح من خلاله ذلك النوع من الفساد الواقع عند الأقوام السابقة، وعلى ذلك فقد انضوت آيات القرآن على نوعين من الفساد نفصلهما فيما يأتي:

النوع الأول: الفساد في الاعتقاد:

سواء كان ذلك كفراً أو نفاقاً كما قال - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨]، أو جزءاً منهما كالسحر والخداع كما في قوله - عز وجل -: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٨١]، أو من ارتكاب للمعاصي ومخالفة لأوامر الله، والانصياع إلى الأهواء وملذات الدنيا كما في قوله - عز وجل -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، أي: بما كسبت من الشرور والمعاصي، أو ولاية لغير الله ورسوله والمؤمنين كقوله - عز وجل -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٣]؛ لهذا لما ذكر الله - عز وجل - المنافقين في سياق سورة البقرة وأمرهم بالإيمان بالله والإخلاص له، وترك الكفر والخيانة وموالاة الكفار، قال فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ × يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ × فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ × وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ × أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ

لَا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ٨-١٢]، وهذا كله فساد في الأديان والشرائع والمعتقدات، وهو أخطر الأنواع، بل إنه سبب في ظهور النوع الآخر من الفساد كما سيأتي تالياً.

النوع الثاني: الفساد في التشريع:

وهو الفساد الواقع بين البشر، من انتهاك لحرمات النفوس والأعراض والأموال والحقوق ومخالفة الشريعة التي أنزلها الله - عز وجل - لتنظيم حياة البشر؛ لذلك جعل الله - عز وجل - الظلم والبغي فساداً، والقتل وأكل الأموال وانتهاك الأعراض، وهضم حقوق الناس إفساداً وانحرافاً عن حكمة التشريع والتنزيل، كما وصف الله - عز وجل - ذلك في قوله: ﴿إِنمَّا جَزَاءُ الَّذينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا ...﴾[المائدة: ٣٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾[البقرة: ٢٠٥]؛ فإهلاك الحرث والنسل من فساد الشرائع والقوانين، كما في قوله - عز وجل -: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، الأمر الذي نهى الله - عز وجل - عنه بني إسرائيل في وحيه إليهم حيث قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنمَّا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة: ٣٢]، وخشيت الملائكة من وقوعه في الأرض قبل خلق الناس لما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[البقرة: ٣٠]، فالفساد واقع بالقتل، وواقع بالظلم والبغي ونقض عهد الله - عز وجل - بترك شريعة وما أمر به، كما قال ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ × الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥١-١٥٢] وقوله - عز وجل -: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد ٢٥]، وقطع الأرحام وغمط الناس كما في قوله - عز وجل -: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد: ٢٢]، والتكبر عليهم وتصعير الخد كما فعل قارون لما ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ × وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ

وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٦-٧٧]، وأكل أموالهم وأملاكهم بغير حق؛ لذلك نفى إخوة يوسف عن أنفسهم الفساد بسرقة أموال الناس لما قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[يوسف: ٧٣]، وكل ذلك من الفساد في حقوق الناس وحرماتهم، وهو من الفساد في التشريع.

المبحث الرابع

المنهج القرآني في الترهيب من آثار الفساد وعاقبة المفسدين:

إن للفساد آثاراً كثيرة تظهر على الأفراد، وتنعكس نتائجها السلبية على المجتمعات، ويضطر كثير من الناس إلى التعايش مع ذلك الفساد حتى يصبح ظاهرة طبيعية، ومشهداً معتاداً، فتنحرف الفِطر، ويفسد السلوك، وتضيع الحقوق، وتُنتهك الحرمات، وتذهب البركة، ويحل الغضب، ويسوء المنقلب يوم القيامة.

ولهذا الأثر الشنيع على الفرد والمجتمع، توعّد الله – عز وجل – المفسدين بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أصبحوا آلة تحرف الناس عن الحق والدين، فقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٠٣]، وجعل نهايتهم إلى بوار، حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٨١].

وفي هذا المبحث سنعرض آثار الفساد في الدنيا، وآثاره يوم القيامة من سوء العاقبة في ضوء آيات القرآن الكريم:

المطلب الأول: أثر الفساد من منظور القرآن الكريم:

وتنقسم آثار الفساد من منظور القرآن الكريم إلى فرعين؛ أثر على الفرد، وآخر على المجتمع:

الفرع الأول: أثر الفساد على الأفراد:

من أهم آثار الفساد الواقعة على الأفراد؛ ما يأتي:

الأثر الأول: الانحراف النفسي:

سواءً كان انحرافاً في الفطرة، أو الشعور الإنساني، أو الوازع الذاتي، وغياب النفس اللوامة، واستحلال الحرام، واستمراء الفساد حتى يستقر في نفس المفسد أن هذا صلاح،

وأن كل ما يقابله فساد كما قال – عز وجل – للمفسدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ× أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[البقرة: ١١-١٢]، فانحرافاتهم النفسية الناتجة عن فسادهم لا تُشعرهم بأنهم على خطأ، وهذا معنى الران الذي ذكره القرآن الكريم، لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً.

الأثر الثاني: الانحراف الفكري :

وهذا الانحراف ناتج عن الأثر الأول؛ فاستمراء الباطل والفساد يوصل إلى القناعات الذاتية بأن هذا الفساد هو صلاح، وأن كل ما يعارضه فإنه فساد، والحق عند الله لا يتعدد، ولا يتغيّر فـ﴿اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٨١]، وما استقر في أذهان المفسدين لا يجعل الباطل حقاً.

الأثر الثالث: الانحراف العقدي:

إن تلك الأفكار والقناعات، تصبح بعد ذلك معتقدات، لا يمكن التنازل عنها، بل ويبدأ أصحابها في الجهاد لأجلها والتضحية، الأمر الذي يثير استهجان الصالحين، كما حدث مع بني إسرائيل أن أوصلهم فسادهم إلى معتقدات باطلة وبّخهم الله – عز وجل – عليها في القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤]، فهذا المعتقد الفاسد غير اللائق بالله – عز وجل – أثر من آثار فساد تفكيرهم لذلك ختم الله – عز وجل – الآية بقوله: ﴿... وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤]، ففساد العقائد، هو في الحقيقة فساد تعامل الخلق مع الله – عز وجل –.

الأثر الرابع: الانحراف الأخلاقي:

وهو أثر لازم، ونتيجة حتمية لتسلسل الانحرافات الآنفة؛ فالانحراف عن شريعة الله – عز وجل –، والإفساد في ملكوته، والاعتداء على حرماته؛ خو سوء للخلق، وخروج عن الفطرة؛ أشارت إلى مثله آيات القرآن الكريم في وصفها لجريمة قوم لوط الخلقية في قوله – عز وجل –: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ× أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا

بعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ×قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٢٨-٣٠]، فطلب لوطٌ –عليه السلام- النصر على هؤلاء القوم المفسدين لما ساء من خلقهم، وما ارتكبوه من الرذائل من قطع للطريق والتعرض للناس في أسفارهم لأجل الفاحشة، وكانوا يجاهرون في فعل المنكرات، حتى غدت من أخلاقهم التي لا تتغير.

الفرع الثاني: أثر الفساد على المجتمعات:

إن فساد المجتمع –لا شك- ناتج عن فساد فئة مؤثرة أو عدد غالب من الأفراد؛ فالمجتمعات المدنية من مؤسسات أو جماعات، أو حكومات أو أنظمة، كلها مبنية على معتقدات الأفراد، وتوجهاتهم الثقافية والفكرية والخلقية، والتي ستفرز مجتمعات فاسدة بقوانينها، وقيمها وأخلاقها وعاداتها؛ حتى تظهر فيها الآثار الآتية:

الأثر الأول: انحراف السلوك المجتمعي:

والذي يظهر نتيجة فساد القيم العامة والغالبة في المجتمع، وكثيرٍ من العادات والتقاليد الخارجة عن شريعة الله - عز وجل -، وانعدام فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فيرسل الله - عز وجل - الرسل محذّرين ومنذرين؛ فإما أن يعودوا عن غيّهم أو ينزل عليهم عذاب الله - عز وجل - في الدنيا، وغضبه في الآخرة؛ الأمر الذي سجّله السياق القرآني في غير موضع، كما في قصة ثمود لما نهاهم صالحﷺوأنذرهم قائلاً: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ × الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾[الشعراء: ١٥٢] من فسادٍ للعلاقات الاجتماعية، والسلوك العام.

وقد حذّر الله - عز وجل - قريشاً من انحرافات السلوك المجتمعي، ونهى عن فساد العلاقات بين مختلف مستويات المجتمع؛ فقد قال - عز وجل -: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد: ٢٢]، أي: أن تعودوا إلى سالف عهدكم من الكفر و الفساد في الأرض وقطيعة الرحم[(١)]، فلا شك أن إحداهما مفض إلى الآخر، ويظهر ذلك في سياق قوله - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِه أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٧]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي

(١) انظر: الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٢/ ١٠٠٣.

الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥]، ففي كلا الموضعين يبين السياق القرآني أن من جملة ما أمر الله - عز وجل - به أن توصل الأرحام[١] ولهذا جاء في الحديث أن النبيﷺقال: "خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو[٢] الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك". قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد ٢٢] [٣].

ولهذا كان هذا الأثر من أظهر الآثار الناجمة عن فشو الفساد في المجتمعات.

الأثر الثاني: انحراف نظام الحكم:

لا شك أن ولاة الأمر والحكام، والقائمين على سياسة الناس، وأصحاب القرار، ومن يتبعهم وينوبهم، ويشاركهم في تولي أمور الناس إنما هم من عامة الشعب ابتداء، ونتاجات المجتمع، فهم جزء غير منفصل عن الناس؛ ولهذا يتأثر الناس بفسادهم، وهم متأثرون على حد سواء؛ فلا يُستغرب أن يحكم الناس ولاة فاسدون، فيضعوا القوانين والأنظمة التي تخدم أهواءهم الشخصية، ومصالحهم الذاتية إلا بعد استشراء الفساد في عامة الناس؛ لذلك قال ابن عباس في قوله - عز وجل -: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١٢٩]؛ قال: "تفسيرها أن الله - عز وجل - إذا أراد بقوم شراً ولى عليهم شرارهم، أو خيراً ولى عليهم خيارهم، وفي بعض الكتب المنزلة: أفني أعدائي بأعدائي، ثم أفنيهم بأوليائي"[٤].

وقد ضرب الله - عز وجل - فرعون مثلاً على انحراف نظام الحكم فقال U: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤].

(١) انظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير، ١/ ١٨٣.

(٢) الحقو: هو الخصر وموضع شد الإزار وهو الموضع الذي جرت عادة العرب بالاستجارة به لأنه من أحق ما يدافع عنه، كما قالوا: نمنعه مما نمنع منه أزرنا فاستعير ذلك مجازا للرحم في استعاذتها بالله من القطيعة. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٨/ ٥٨٠.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة محمد، ح (٣٧٣٥).

(٤) أبو حيان، البحر المحيط، ٥/ ٢٦٦.

الأثر الثالث: انحراف النظام الأمني:

وهـذا أثـر لصيق لفساد الحكـم وفساد القيـم المجتمعية؛ فيسقط علـى إثرهما الأمان وتُختـرق القوانـين كما قـال الله – عز وجل – علـى لسان شعيبﷺوهـو يخاطب قومه: ﴿وَلا تَقْعُـدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَـنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُـمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُـرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٨٦]، فقد نهاهم القـرآن عن إرهاب الناس وترويعهـم، وتوعّد المؤمنين بالقتل، والصـدّ الحسي والمعنوي عن دعـوة شعيـب ؛، وهذا –لا شـك– تهديد أمني ناتج عن خوف المفسديـن من تقويض الدعوة الحقة لملكهم، وفسادهم[١].

ولهـذا قالت الملائكـة: ﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَـنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِـكُ الدِّمَاءَ...﴾[البقرة: ٣٠]، فسفـك الدماء، وانعـدام الأمن أثـران متلازمان لفساد المجتمعـات، وقرن الله – عز وجـل – الفساد بهلاك الحرث والنسل في قوله: ﴿...لِيُفْسِدَ فِيهَـا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ...﴾[البقـرة: ٢٠٥]، وبيّن أن فساد بني إسرائيل أوصلهم إلى تقويض حالة الأمن في المجتمع، والبحـث عن إشعـال الحروب والفتن حيث قـال: ﴿كُلَّمَـا أَوْقَدُوا نَـاراً لِلْحَـرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤]، ولهذا كان اختلال الأمن في المجتمعات نتيجة حتمية لانتشار الفساد فيها.

الأثر الرابع: انحراف النظام المالي

لا شـك أن انتشار الفساد في المجتمعـات كانتشار المرض في الأجساد؛ لا يترك ناحية إلا ويصيبهـا، فتصبح كل المؤسسات والأنظمة خاضعة لأهـواء المفسدين، وتقودهم مصالحهم الشخصيـة لأكل أمـوال الناس بالباطل، سـواء بالسرقة أو النهب أو غيرهـا من السبل غير المشروعـة؛ ولهذا تبرأ إخوة يوسفﷺمن الفساد والمفسدين لـما علقت فيهم شبهة السرقة والخيانة المالية لعلمهـم المطلق بأن الفاسدين هم أصحاب هذه الصفات، وهم منزّهون عن الفسـاد[٢] فـ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِـدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾[يوسف:

(١) انظـر: القرطبي، الجامع لأحكام القـرآن، ٧/ ٢٢٢، والآلوسي، روح المعاني، ٨/ ١٧٨، و الشوكاني، فتح القدير، ٢/ ٢٢٤

(٢) انظر: الشوكاني، فتح القدير، ٣/ ٤٣.

٧٣]، كما حذّر شعيب عليه السلام قومه من مخلّفات فسادهم في الأرض من أكل أموال الناس بالباطل حين قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود: ٨٥]؛ لأن بخس الناس الميزان وتطفيفها هو من الفساد المالي، وباب آخر لأكل أموال الناس بغير حقّ مشروع.

المطلب الثاني: عاقبة المفسدين:

لم تقتصر عقوبة المفسدين في الأرض على خزيهم الدنيوي فحسب، ولم يُرجئ الله - عز وجل - عذاب كثير منهم إلى يوم القيامة؛ بل جاءت الآيات القرآنية تحذّرهم من وقوع خزيي الدنيا والآخرة؛ ولهذا كان عقابهم مضاعف، وفاقاً لأعمالهم التي أفسدت على الناس دنياهم، وأفسدت على المفسدين آخرتهم.

عاقبة المفسدين في الدنيا:

لم تترك آيات القرآن الكريم أية عاقبة سيئة للفساد والمفسدين إلا بيّنتها وحذّرت من عواقبها، وضربت الأمثال، وقصّت القصص، ليعلم الناس مغبة العمل بها، فكانت هذه العواقب الدنيوية ما يلي:

الأولى: القحط والجفاف:

فالإفساد -لا شك- مذهبة لبركة الله - عز وجل -، وخيرات السماء، وثمرات الأرض، فينتشر القحط والجفاف، ويسوء حال البشر وغيرهم من المخلوقات؛ لذلك قال - عز وجل -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، فكل ما في الطبيعة متضرر من فساد البشر؛ لذلك جاء في الحديث أن النمل في جحره والحوت في بحره يصلون على معلم الناس الخير[(١)]؛ لإنه سبب منجاتهم من الهلاك؛ ولهذا كانت معصية الناس لربهم مترتب عليها انحباس المطر وانقطاع الرحمة[(٢)] وما يلحقها من هلاك للزرع وجفاف للضرع، وفقدان لأهم عناصر الحياة.

---

(١) صحيح. رواه الترمذي، انظر الألباني، صحيح سنن الترمذي، حديث رقم (٢٦٨٥).

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٣٦، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٣٨.

الثانية : تفضيل المؤمنين عليهم في الدنيا والآخرة :

فلا يستوي الطيب والخبيث، والذي يصلح في ملك الله – عز وجل – ولا المفسد الفاجر كما قال – عز وجل –: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨] ومن العدل تفضيل الله – عز وجل – المحسنين على المفسدين؛ لهذا بشّر المصلحين بحسن العاقبة في قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف: ١٢٨]، وتوعّد المفسدين بالخزي في الدنيا وسوء الخاتمة، فكانت بشرى للمتقين، وتسلية عما يقع عليهم من الظلم والفساد.

الثالثة : الخزي والعقاب في الدنيا :

سواء كان ذلك العقاب نازل بأمر من الله – عز وجل –، أو بأيدي المصلحين وأصحاب الفطر السليمة؛ ولهذا أمر الله – عز وجل – ولاة الأمر، بالقصاص من المفسدين، فقال – عز وجل –: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾[المائدة: ٣٣].

كما إن سبب عقاب قارون في الدنيا في قوله – عز وجل –: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ...﴾[القصص: ٨١]، لم يكن إلا بعد أن عاث في الأرض فساداً، وبعدما نهاه الذين أوتوا العلم على ذلك فقالوا له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص/ ٧٧]، فلما أبى إلا الفساد أخذ بجريرة عمله.

الرابعة : بغض الله – عز وجل – **وغضبه :**

وقد صرّح الله – عز وجل – ببغضه للمفسدين في ملكوته فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤]، وذلك يدل على أن الساعي في الأرض بالفساد ممقوت عند الله – عز وجل – (١)، فلا يوفقه لما يريد، ولا يصلح له عمله كما قال – عز وجل –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٨١].

(١) انظر: الفخر الرازي، مفاتح الغيب، ١٢/ ٤٥.

الخامسة : الإهلاك والفناء :

إن عمر الأمة الفاسدة وإن طال، فإن عاقبته إلى هلاك وفناء، ولا يغترّ البعض بعلو شأن الفاسديـن، وقوة دولتهم فإنها إلى تبار، فكم ذكر القرآن الكريم من قوة للفاسدين؛ كقارون وفرعون وبني إسرائيل وغيرهم، إلا أن خاتمة كلّ منهم كانت هلاك، ثم عقّب الله على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، وهذه الوراثة تكون بالنصر والتمكين(١).

السادسة : عدم قبول التوبة عند الموت :

فسوء الخاتمة هي نهاية عادلة لكل مفسد، يشفي بها الله U قلوب المستضعفين، ويجعلها عـبرة لـكل متّعظ، كما ضرب الله – عـز وجل – من مثل فرعون عند موتـه فقال: ﴿...حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ × ءَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩٠-٩١]؛ فكل مفسد وظالم يرى سوء عمله عنـد حضور موتـه، ويتمنى أن تنفعه التوبة، في وقت لا يفيد الندم، كما قال – عز وجل –: ﴿وَلَيْسَـتِ التَّوْبَـةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُـونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَـرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَـالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٨].

عاقبة المفسدين يوم القيامة :

إن مـا سبـق من سوء العواقـب في الدنيا، لم يكـن ليخفف على المفسديـن سوء المنقلب في الآخـرة، وإنمـا مصيرهم عذاب آخر من شكلـه أزواج، وإن من سوء ما يجد المفسدون في الآخرة ما يلي:

الأولى : شدة الندم وتمني العودة إلى الدنيا :

كمـا قال – عز وجل – عن حال المفسدين بعـد الموت: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ × لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًـا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَـوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنـون: ٩٩-١٠٠]، فهـذه حال المفرطين في أمـر الله – عز وجل –: الندم وتمنـي العودة للحيـاة؛ ليصلحوا ما كانوا أفسدوه في مدة حياتهـم(٢)، وذلك لهول ما يكشف

(١) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٧/ ٨٢، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٩٤.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤٩٣.

الله – عز وجل – عنهم عند نزع الروح من صور أعمالهم القبيحة [1].

الثانية: الحسرة وخسران أعمالهم الصالحة:

فقد توعد الله – عز وجل – المفسدين بالخسران يوم القيامة، فقال: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: ٢٧]، أي: مغبونون بفوت المثوبة والمصير إلى العقوبة[2]؛ فحتى ما تبقى لديهم من حسنات يوم القيامة، جعله الله – عز وجل – هباءً منثوراً، فخسروا ما تمنوا النجاة بسببه، كما يخسر التاجر ربحه ورأس ماله معاً فلا يتبقى له شيء[3].

الثالثة: اللعنة وسوء المصير:

إن مصيرهم يوم القيامة طرد من رحمة الله – عز وجل –، وخلود في نار جهنم، وسوء منقلب، كما قال – عز وجل –: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥] أي: الطرد والإبعاد من الرحمة ولهم سوء المنقلب –وهو جهنم–[4].

الرابعة: تعظيم العذاب ومضاعفته في الآخرة:

كما قال – عز وجل – فيهم: ﴿إنمَّا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ... وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: ٣٣]، ولم يتوقف الأمر على عظم العذاب، بل زادهم الوعيد ذلاً أن ضاعف الله – عز وجل – لهم ذلك العذاب العظيم، فقال – عز وجل –: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[النحل: ٨٨]، أي: ضاعف لهم العذاب مرتين؛ الأولى: لفسادهم، والثانية: لإفساد غيرهم من الناس ومحاولة صدهم عن الخير[5].

(١) انظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨/ ٤١.
(٢) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص٩٧
(٣) الطبري، جامع البيان، ١/ ٤١٧.
(٤) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٦٧.
(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٤٦.

المبحث الخامس

المنهج القرآني في معالجة الفساد ومقاومته:

لقد كان من منهج القرآن –وهو مصدر الإصلاح- أن عرض لهذا المرض، وبيّن أسبابه، وأعراضه، وآثاره.

وعلى الرغم من تفصيل ذلك كله، لم تترك الآيات القرآنية علاج هذا المرض خاضعاً للتجربة والخطأ كما في أمراض الدنيا، بل أسهب في توصيف العلاج الناجع لهذا المرض الفاحش، كما وضع وسائل وقاية تحمي الفرد والمجتمع الإسلامي من إصابته وعدواه، وتبنى داخله المناعة الكافية للتعرف إلى بوادره، وتوقيها، فظهرت عدة مناهج متضافرة، تقوم بمجملها بسدّ كل الطرق على مريدي الفساد في الأرض، وتتلخص هذه المناهج على محاور عدة:

المنهج الأول: الاتباع المطلق للشريعة:

وهو منهج وقائي علاجي، شامل عام، تنضوي تحته كل المناهج بتفصيلاتها؛ ولذلك شدّد القرآن على اتباع هذا المنهج باتخاذ النبيﷺأسوة، وحذّر أشد التحذير عن مخالفته والخروج عن هديه، فقال الله – عز وجل -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب: ٢١]، وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[آل عمران: ٣١]، وغيرها من الآيات والأحاديث الجمة.

المنهج الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فهو الرافد الرئيس لمجابهة الفساد ومحاربته بكل الوسائل، وهو أهم طرق مباشرة الإصلاح، وتحذير الناس من اتباع سبيل المفسدين، ويكون النهي عن الفساد إما بالنصح والتعليم والإرشاد كما وعظ موسى أخاه هارون –عليهما السلام- لما أراد الرحيل عن قومه فقال: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ١٤٢]، أو كما وصّى القرآن بذلك، وجعله منجاة للناس من الهلاك، فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ

عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦]، فهم أصحاب الفهم والعقل، الذين نهوا أهل المعاصي عن معاصيهم، وأهل الكفر عن كفرهم، فنجاهم الله من عذابه لما أوقعه على أهل الفساد منهم[١]ؤ.

ويلحق ذلك الدعاء بالنصر على المفسدين، وإضعافهم، وكسر شوكتهم، كما دعا لوطﷺعلى قومه فـ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٠].

أو يكون بأية وسيلة ممكنة أخرى كمجابهة المفسدين وقتالهم ومدافعتهم؛ لتبقى الأرض الله عامرة بالصلاح، ومحافظة عليها من الهلاك؛ كما قال U: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[البقرة: ٢٥١]، وقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج: ٤٠]، قال المفسرون: لولا دفع الله – عز وجل – بأهل الطاعة له والإيمان بأهل المعصية والشرك؛ لفسدت بذلك الأرض، ولهلك أهلها بعقوبة الله – عز وجل – إياهم، ولكن من رحمة الله – عز وجل – أن لا يهلك أهل الأرض بدفع برهم بفاجرهم، ومطيعهم بعاصيهم، ومؤمنهم بكافرهم[٢]، ولهذا كانت مجابهة الكفار بالقتال والمجاهدة حماية للأرض وما فيها من الفساد.

المنهج الثالث: الرقابة والذاتية وغير الذاتية:

فالأولى متضمَّنة بمراقبة الله – عز وجل – وتقواه، واجتناب الفساد في الخفاء والعلن، وإرادة تغييره إذا حلّ بالناس كما قال – عز وجل –: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، والتيقن بأن الله – عز وجل – يعلم ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾[المجادلة: ٧]، وأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[غافر: ١٩]، على خلاف أهل الفساد الذين ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[التوبة: ١٠]، وهذا بمجمله واجب على كل مسلم.

وأما الرقابة الخارجية فهي القائمة على التبيّن والبحث، والتنقيب عن كل فاسد،

---

(١) انظر: الطبري، جامع البيان، ١٥/ ٥٢٧.

(٢) الطبري، جامع البيان، ٥/ ٣٧٢.

والتيقّن من فساده كما قال - عز وجل -: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات: ٦]، ولا يمكن مجابهة الفساد ومحاربته والتوقي منه إلا في حال معرفته، ومعلوم أن كثيراً من الفاسدين أو المفسدين ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾[النساء: ١٠٨] الأمر الذي يوجب المراقبة الدائمة لأحوال الناس، حتى يكون أساساً لاتباع منهج المعاقبة لكل مفسد في الأرض.

المنهج الرابع: محاسبة الفاسدين ومجازاتهم:

وذلك متلخص في الإرشاد القرآني إلى التضييق عليهم، وإقامة حدود الله U فيهم، ليرتدعوا وأمثالهم عن الفساد في الأرض، كما قال - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾[المائدة: ٣٣]، ففي هذا القصاص حياة للبشر، واستقامة لمصالحهم، ومن أمن العقوبة، استشرى فساده، وأهلك الزرع والضرع، وأهلك البشر.

المنهج الخامس: انطباق شروط الإصلاح على من يتولى أمور الناس:

وهما شرطان هامّان، لا يصلح اختيار أي مؤتمن أو عامل إلا بهما، وهما: القوة المعرفية والعملية، والثاني: الأمانة وحسن السيرة؛ فالأولى مهمة للتطبيق، والثانية مهمة للمنهج والتنظير، كما جاء على لسان بنت الرجل الصالح لما قالت مادحة موسى r: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦]، فالقوة المتمثلة بالقوة العقلية والبدنية والمعرفية، والخبرة مشترطة في كل مسؤول أو مصلح، لكنها ليست كافية دون شرطها الثاني: وهو الأمانة؛ فقد تُستخدم تلك القوة والمعرفة لسوء الفعل، وتستغل تلك المهارة للتفنن بأنواع الفساد؛ لذلك كانت الأمانة شرط ركيز لا ينفك عن القوة التي إن فُقدت كان صاحب القرار مهزوزاً ومتردداً على الرغم من أمانته، مما يوقع الفساد رغماً عنه دون اتخاذ إجراءات تحول دون ذلك.

الخاتمة والنتائج

بعد تلك الدارسة الاستقرائية لمشتقات الفساد ومفاهيمها في سياق الآيات القرآنية، ما يتبعها من تحليل وفهم، يمكن تلخيص نتائج هذا البحث فيما يلي:

١. إن الله – عز وجل – أقام كونه على قواعد الحق والصلاح، وأما ظهور الفساد فإنه أمر دخيل شاذ عن سنن الله – عز وجل – في الكون.

٢. لقد وضع الله – عز وجل – قوانين هذا الكون فيما يصلحه، وأي خروج عن تلك السنن الربانية التي أنزلها في القرآن والسنة هو وجه من وجوه الفساد.

٣. إن مفسدي الإنس والجان هم المخلوقات الوحيدة التي تعصي الله – عز وجل – في ملكه على خلاف كل المخلوقات مما يجعلهم شواذ، وإن ما يظهر من الفساد في الكون بما اكتسبت أيديهم.

٤. إن أول مراحل محاربة الفساد، تحديد مفاهيمه في سياق القرآن ومعرفة ماهيته وحدوده ليتم تمييزه عن الصلاح، ولتكون محاربته منبثقة من رؤى واضحة ومحددة.

٥. إن أول معالم الفساد؛ هو فساد الأفراد، والذي ينتج عنه فساد المجتمعات والأنظمة، وتنتكس فيه الفطر والقيم.

٦. إن الفاسدين رغم فاسدهم لا يعترفون بفسادهم؛ إما لعدم شعورهم وانتكاس فطرهم، أو معاندة للحق، مما يدفعهم لاتهام المصلحين به، الأمر الذي يدفعهم للندم وطلب العودة لإصلاح ما أفسدوا في وقت لا تقبل فيه التوبة.

٧. حذّرت الآيات المكية من الفساد بشكل أكبر؛ لارتفاع رؤوس الكفر، وما كان منتشراً عندهم من أنواع الفساد؛ الأمر الذي لم يتكرر في المدينة لطبيعة مجتمعها.

٨. لقد فصل السياق القرآني أسباب تولد الفساد وانتشاره، وبيّن أنواعه وآثاره؛ ليتم تجنبها ومحاربتها على جميع المستويات، الفردية منها والجماعية.

٩. لقد دعت الآيات القرآنية الفاسدين للتوبة، في حين هـدّدت المفسدين بالعذاب والهلكة لضررهم الأكبر على المجتمع.

١٠. لقد وضع القرآن الكريم عدة مناهج شاملة لمعالجة للفساد وواقية عن وقوعه، يمكن تشكيل ملامحها من خلال وضع صورة مكتملة الحواشي وشاملة لكل آيات القرآن.

١١. على الرغم من أن الصلاح أمر فطري، وأن الفساد دخيل طارئ على النفوس البشرية، إلا أن الطبيعة البشرية تبقى مهيئة لأن تنحرف إلى الفساد إن لم تتخذ الشريعة الإسلامية ملجئاً لها.

توصيات الباحث:

وعلى ذلك يمكننا أن نختم هذه الدراسة بالتوصيات التالية:

١. ضرورة تحديد مفاهيم الفساد وأشكاله وصوره سواء على المستوى الفردي أو المجتمعي، وتوعية الناس بحدوده، وتبصيرهم بأسبابه وعواقبه، وحثهم على محاربته بكل الطرق المتاحة لذلك.

٢. إيصال النصيحة للولاة والأمراء والحكام وأصحاب القرار، وتنبيههم على آثار الفساد وعواقبه الوخيمة، ومعاونتهم في اجتثاث جذوره والتخلص منه، كخطوة ركيزة للإصلاح، ودفعهم إلى اتخاذ قرارات وأنظمة من شأنها محاربة الفساد وأهله، من باب قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣. استنطاق أهل العلم لأهمية تحديد مفاهيم الفساد، وخطورته من خلال طرق الاتصال الشفهية كالخطب والدروس والمواعظ والمؤتمرات والندوات وورش العمل، أو الطرق المكتوبة كالكتب والمجلات والصحف وغيرها، وتفعيلها في مناطق التأثير على المجتمع كأجهزة الإعلام، والمدارس والمساجد والجامعات، وأصحاب القرار، والاستعانة بأهل العلوم الأخرى لتحديد مظاهر الفساد في تلك المجالات.

وأخيراً، لا يكون لسان حالي إلى كما قال نبي الله شعيب –عليه الصلاة والسلام-: ﴿إن إريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[هود: ٨٨].

أسأل الله أن يكتبنا مع الصالحين المصلحين، وأن يبعد عنا الفساد والإفساد، وصلى الله على سيد المرسلين، وإمام المصلحين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٣. ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٢م، تحقيق: السيد محمد السيد.

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر.

٥. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

٦. أبو زهرة، محمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.

٧. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٨. الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

٩. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، صحيح البخاري، مكتبة الإيمان، مكتبة الإيمان، المنصورة، ٢٠٠٣م، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد.

١٠. البيضاوي، أبو الخير عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٨م.

١١. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، تحقيق صفوان عدنان داودي.

١٢. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٣. الزجاج، عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندي، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي.

١٤. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.

١٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨.

١٦. الفخر الرازي، مفاتح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

١٧. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني.

١٨. مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

١٩. المنصوري، مصطفى الحصن، المقتطف من عيون التفاسير، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦م، تحقيق محمد علي الصابوني.

٢٠. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار القلم، دمشق، ١٩٩٥م.

د. محمد شافعي مفتاح بوشية

جامعة الأزهر بالقاهرة

أستاذ مساعد ورئيس قسم الفقه بكلية الشريعة والقانون

جامعة الإنسانية- قدح دار الأمان – ماليزيا

مَنهجيةُ القرآنِ في علاجِ مشكلاتِ المرأة

حقوقُ الزوجةِ نموذجًا

بحث مقدم إلى

المؤتمر الدولي القرآني الأول لتوظيف الدراسات القرآنية في علاج الدراسات المعاصرة

والذي تعقده كلية الشريعة وأصول الدين – جامعة الملك خالد – أبها – المملكة العربية السعودية

إعداد

د. محمد شافعي مفتاح بوشية

دكتوراه في الفقه من كلية الشريعة والقانون

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران:١٠٢]، (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات:١٣].

وبعد....

فإن كتاب الله تعالى جليلُ النفع عظيمُ القدر، فضله عظيم، وخيره عميم،ونهجُه قويم، أفلحَ من اهتدى به واتبعه، ورَشَدَ من تعلمه وعلمه، وصَلُحَ من تعبد به وابتغى ثوابه.

ولقد أدرك سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- فضل كتاب الله عز وجل ومكانته في الدنيا والآخرة، فعكفوا عليه تلاوة وحفظًا ومدارسةً وتعلمًا، وتفسيرًا وتبيينًا، وبذلوا في ذلك أقصى جهدهم، واستفادوا من نصوصه في علاج مشكلاتهم المختلفة، فسعدوا في الدنيا والآخرة، ونجت الأمة الإسلامية من الكثير من المآزق والمزالق التي ألمت بها على المستوي الفردي والأسري.

والناظر إلى المشكلات التي تعج بها المجتمعات الإسلامية - لا سيما في نطاق الحياة الزوجية- يجد أنها قد اتخذت أبعادًا خطيرة، ونحت مناح مختلفة أودت بالأسرة إلى التفكك وفقدان مفهومها الصحيح، وأورثت الزوجين تناحرًا ونفورًا، وما ذلك إلا نتيجة البعد عن كتاب الله تعالى ونهجه القويم، وانعكس ذلك بصورة واضحة على المرأة التي خلقها الله سبحانه وتعالى وفطرها على كيفية معينة، تستحق الصيانة والرعاية والرحمة.

ومن هنا كان لزامًا على الأمة الرجوع إلى كتاب الله تعالى ودراسة آياته وتوظيفها في حل المشكلات، والقيام بتعاليمه من أجل إصلاح المجتمع وذلك بإصلاح اللبنة الأولى له وهي الأسرة.

وانطلاقًا من هذا كله كان اهتمام كلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد بأبها بعقد هذا المؤتمر الدولي القرآني الأول تحت عنوان "توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة" والذي اشتمل على عدة محاور هامة، وإسهامًا يسيرًا مني في أحد محاوره فقد استخرت الله تعالى في كتابة بحث بعنوان:

" منهجية القرآن في علاج مشكلات المرأة- حقوق الزوجة نموذجًا"

وذلك ضمن المحور الثالث:"توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية" بند(٥) مشكلات المرأة، متناولا هذه الحقوق من منظور القرآن، وبيان أهميتها وضوابطها،والآثار المترتبة على حفظها.

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الموضوع في نقاط أهمها:

١. تعدد المشكلات الزوجية واتساع نطاقها على مستويات كثيرة في أكثر المجتمعات؛ مما يستدعي البحث عن طرق لعلاجها وحلها في ضوء الشرع.

٢. كثرة النصوص القرآنية في كتاب الله تعالى التي تعالج مشكلات الأسرة- وعلى وجه الخصوص المرأة- وتضع لها الحلول الناجحة، وقاية وعلاجًا؛ مما يتطلب البحث في هذه النصوص بالدراسة والتحليل.

٣. ضرورة ربط الحياة الزوجية بكتاب الله تعالى قراءة ودراسة واتباعًا واقتداء للتوصل من خلاله إلى سبل الحياة الكريمة، والعيش القويم.

٤. ضرورة فهم الزوج للأسس التي تقوم عليها علاقته بزوجته، وكيف أنها أمانة لديه ينبغي عليه صيانتُها ورعايتُها وتوفيتُها حقوقَها وفقا لمنهج الله تعالى.

٥. دفع الشبهات التي تثار بشأن المرأة المسلمة، وبيان دور الشريعة الإسلامية في إنصافها ورفع مكانتها.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة

المقدمة: فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث.

التمهيد:تعريف الحق والتأصيل القرآني لحقوق الزوجة.

أولا: تعريف الحق لغة واصطلاحًا.

ثانيًا:تشريع حقوق الزوجة في القرآن الكريم مبدأٌ شرعيٌّ.

المبحث الأول: الحقوق المعنوية للزوجة في القرآن الكريم – دراسة تحليلية. وفيه خمسة مطالب:

- المطلب الأول:المعاشرة بالمعروف.
- المطلب الثاني:العدل عند تعدد الزوجات.
- المطلب الثالث: الوطء وتوابعه.
- المطلب الرابع:ترك الوطء حالة العذر الشرعي.
- المطلب الخامس:رعاية دينها وخلقها.

المبحث الثاني: الحقوق المادية للزوجة في القرآن الكريم – دراسة تحليلية. وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: الصداق.
- المطلب الثاني: النفقة.
- المطلب الثالث: الميراث.
- الخاتمة: وتشتمل على نتائج البحث وتوصياته.

منهج البحث:

ينطلق هذا البحث من خلال الآيات القرآنية التي تناولت حقوق المرأة، وما يدور حولها من تفسير وتحليل واستدلال من خلال آيات أخرى أو نصوص من السنة النبوية، معتمدًا في ذلك على استيفاء المعلومة من مصادرها الأصيلة، وملتزمًا فيه بمنهج البحوث العلمية من حيث الأمانة العلمية، وعزو النصوص إلى قائليها، وتخريج الأحاديث النبوية من مصاردها، وسلامة البحث من الناحيتين اللغوية والإملائية، وقد اكتفيت في الحواشي بذكر الكتاب ومؤلفه والجزء والصفحة منعا للتكرار، وذكر بياناته التفصيلية في قائمة المراجع.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من قرأه ووقف عليه،

وأن يغفر لي زلاتي، ويقيل عثراتي، وأن يبصرني بمواضع نقصي وتقصيري، كما أسأله جل شأنه أن يجزي القائمين على هذا المؤتمر خير الجزاء، ويوفقهم لخدمة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

الباحث

تمهيـــــد

تعريف الحق والتأصيل القرآني لحقوق الزوجة

أولا: تعريف الحق لغة واصطلاحًا.

الحكـم على الشـيء فرع عن تصوره، وحتـى يتسنى لنا الكلام عـن حقوق الزوجين في ضوء القرآن الكريم، يجدر بنا أن نبين تعريف الحق لغة واصطلاحًا، وتأصيل القرآن الكريم لحقوق الزوجة، وذلك على النحو الآتي:

١ - تعريف الحق لغة:

الحقـوق جمع حـق، وهو في اللغة نقيضُ الباطل، ويجمع كذلـك على حقَاقٌ، وهو مصدر قولهم:حـقَّ الشـيءُ، أي وجب، وحَقَّ الأمرُ يَحقُّ ويَحُقُّ حَقّاً وحُقوقـاً أي صَارَ حَقّاً وثَبت؛ وحَقَّ عَلَيْـه القولُ وأحْقَقْتُه أنَا، وَفي التَّنْزِيـل: (قالَ الَّذينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) [القصص:٦٣]؛ أيْ ثَبَـتَ، قَالَ الزَّجَّاجُ(ت٣١١ه): هُمُ الجنُّ وَالشَّيَاطِينُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلكنْ حَقَّتْ كَلمَةُ الْعَذاب عَلَـى الْكافريـنَ) [الزمر:٧١] ؛ أيْ وَجَبَـتْ وَثَبَتَتْ، وَكَذَلكَ: (لَقَدْ حَقَّ الْقَـوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ) [يسـ:٧] وجملة مـا يطلق عليه الحق في اللغـة الأمر الواجب، والموجـود الثابت، والإحكام، والصحة(١).

٢- تعريف الحق اصطلاحًا:

للحق تعريفات عدة في اصطلاح العلماء تبعا لمقتضياته وما يؤول إليه من أمور معنوية أو حسية، وقد تتبعت كتب التعريفات فوجدت أن أقرب ما يناسب مفهوم الحق المتعلق بالإنسان مـن تعريفات القدامى هو ما ذكـره الكفوي بقوله"حق الإنسان كونـه نافعا له ورافعا للضرر عنه"(٢).

لكـن وجـدت من كتب المعاصرين تعريفات للحق تتناسب مـع موضوع البحث أورد منها ما يلي:

(١) لسان العرب، لابن منظور(٤٩/١٠) مادة ح ق ق.

(٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للكفوي(ص ٣٩١).

- الحق مصلحة ثابتة للشخص على سبيل الاختصاص والاستئثار يقررها الشارع[(١)].
- الحق هو المطلب الذي يجب لأحد على غيره[(٢)].
- الحـق هو مجموعـة القواعد والنصوص التشريعية التي تنظم علـى سبيل الإلزام علائق الناس من حيث الأشخاص والأموال[(٣)].

وذكر بعض الباحثين أن أبرز ما يمكن استنباطه من التعريفات السابقة أن الحق يشمل: القواعـد والمبادئ التـي تضمنتها هذه النصوص، وتنظيم علاقات الناس، والوجوب والإلزام في تطبيقها[(٤)].

ويمكن للباحث استخلاص تعريفا للحق على جهة العموم بأنه:أمر واجب على المرء نحو غيره ألزمه به الشرع أو ألزم به نفسه.

وبنــاء عليه يمكن تعريف حقوق الزوجـة بأنها:الأمور التي تثبـت للزوجة في ذمة الزوج بموجب عقد الزوجية، بناء على إلزام الشرع بها أو التزام الزوج بها.

٣- كلمة الحق في القرآن الكريم:

وردت كلمة "الحق" بجميع مشتقاتها في القرآن الكريم حوالي (٢٨٨) مرة[(٥)]، وقد تتبع

---

(١) المدخل للفقه الإسلامي،للشيخ أحمد عيسوي(ص٣٣٨)،الإسلام وحقوق الإنسان،د.القطب محمد(ص٣٨).

(٢) المدخل الفقهي العام، للشيخ مصطفى الزرقا (١٠/٣).

(٣) المرجع نفسه(٣/٩-١٠).

(٤) المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم، د. يحيى زمزمي(ص٢٠) بتصرف يسير.

(٥) ينظر:البقرة(٢٦/٤٢/٦١/٩١/١٠٩/١٤٤/١٤٦/١٤٧/٢١٣/٢٨٢،آلعمران:٦٠/٦٢/٧١/١٥٤،النساء١٧١،المائدة٤٨/٧٧/٨٣/٨٤،الأنعام٥٧/٦٢/٦٦/٧٣/٩٣، الأعراف:٨/٣٣/١٠٥/١١٨/١٤٦/١٦٩،الأنفال٦/٧/٨/٣٢،التوبة٢٩/٣٣/٤٨،يونس٢٣/٣٠/٣٢/٣٥/٣٦/٧٦/٨٢/٩٤/١٠٨،هود١٧/٤٥/١٢٠،يوسف٥١،الرعد١/١٤/١٧/١٩،إبراهيم٢٢،الإسراء٨١،الكهف٢٩/٤٤/٥٦،مريم٣٤،طه١١٤،الأنبياء٢٤/٩٧،الحج٦/٥٤/٦٢. المؤمنون٧١/١١٦،النور٢٥/٤٩،الفرقان٢٦،النمل٧٩،القصص٤٨/٥٣/٧٥،لقمان٣٠،السجدة٣/٤،الأحزاب٥٣،سبأ٦/٢٣/٤٩،فاطر٣١،غافر٥/٧٥،فصلت١٥/٥٣،الشورى١٨/٢٤/٤٢،الزخرف٢٩/٣٠،الأحقاف٢٠/٣٠،محمد٢/٣،الفتح٢٨،النجم٢٨،الحديد١٦، الممتحنة١، الصف٩،النبأ٣٩). ووردت نكرة في:البقرة١٢١ آل عمران١٨١،١١٢،١٠٢،٨٦،٢١، النساء١٥٥،الأنعام٩١،الأعراف٣٠، يونس٥٥،هود٧٩،الكهف٣١، الحج١٨، ٤٠، ٧٨،٧٤،القصص:١٣، ٦٣،الروم٦٠، لقمان٣٣،السجدة١٣،فاطر٥، يس٧،الزمر١٩، ٦٧، غافر٥٥، ٧٧، الجاثية٣٢، الأحقاف١٧، ١٨، الذاريات١٩، الواقعة٩٥، الحديد٢٧، المعارج٢٤)

علمـاء الوجوه والنظائر في القرآن الكريم الكلمـة بمشتقاتها فاسنبطوا أنها تطلق على معانٍ وصلت في مجملها ٢٣ وجهًا، ولا يتسع المقام لذكر تلك المعاني فهي مبسوطة في مواضعها من كتب الوجوه والنظائر القرآنية[١].

ثانيًا: تشريع حقوق الزوجة في القرآن مبدأ شرعي:

كرَّم القرآن الكريم النساء أيما تكريم، وحسبهن أنْ سميت باسمهن سورة في كتاب الله تعـالى اشتملت على طائفة كبيرة مـن الأحكام والتشريعات الخاصـة بالنساء على اختلاف درجاتهن.

والـذي يعنينا هنا هو حقـوق المرأة كزوجة، والتي تناولها القـرآن الكريم في العديد من الآيـات، سـواء كانـت حقوقا خاصة بهـا أو مشتركة بينهـا وبين الزوج، ويكفـي أن الله جعل سبحانـه وتعالى بين الرجل والمـرأة حقوقًا متبادلة، أجملها في آيـة وفصلها في آيات أخرى، فقال جل شأنه: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة:٢٢٨].

روي عـن الضحـاك في قوله: (ولهن مثـل الذي عليهن بالمعروف)، قـال: إذا أطعن الله وأطعن أزواجهن، فعليه أن يُحسن صحبتها، ويكف عنها أذاه، ويُنفق عليها من سَعَته[٢].

وقـال الجصاص(ت٣٧٠ﻫ): "أخبر الله تعالى في هذه الآيـة أن لكل واحد من الزوجين عـل صاحبه حقًا وإن الـزوج مختص بحق له عليها ليس لها عليه مثّله بقوله تعالى (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِـنَّ دَرَجَةٌ)، ولم يبين في هذه الآية ما لكل واحد منهما على صاحبه من الحق مفسرا وقد

(١) ذهـب هارون ومقاتل إلى الاتفاق على أحد عشر وجهًا، واختلفا في معنى وجه واحد منها، وزاد الدامغاني وجها فصارت اثنا عشر، وزاد ابن الجوزي والثعالبي ثمانية أوجه أخرى.

ينظـر علـى جهـة الإجمال: الوجـوه والنظائـر، لمقاتل(ص١٠٢)، كشـف السرائـر في معنى الوجـوه والنظائر، للدامغاني(ص٢٣٠)، نزهـة الأعـين النواظـر لابـن الجوزي(١٥٨/١)، الوجـوه والنظائـر في القـرآن دراسة وموازنة، لسليمان القرعاوي (ص٢٨٦-٢٩٣).

وينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم(٢٠٥/١-٢١٠) حيث تتبع جميع الألفاظ القرآنية التي وردت فيها كلمة حق بجميع مشتقاتها، وذكر معانيها.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن، للطبري(٥٣١/٤).

بيَّنه في غيرها وعلى لسان رسوله ﷺ"[1].

وقد شرع الإسلام حقوقا للزوجة، وجعل من أقوى ضماناتها أنها تتصف بالصفة الشرعية، ويلاحظ "أن أغلب تلك الحقوق ثبت وجوبها بأحكام شرعية منصوص عليها، وما يجب لها من الحقوق بالاشتراط، متسم كذلك بالصفة الشرعية، لوجوب الوفاء بالشروط المتفق عليها عند عقد النكاح، ما لم تخالف شرعًا، أو تناقض مقتضى عقد النكاح، فكان أداؤها واجبًا لوجوبها شرعا، في كلا الصنفين من الحقوق، ويثاب من يؤدي ما وجب عليه، كما يعاقب من فرَّط في أدائها؛ وتلك ميزة هامة لضمان الحقوق الزوجية للمرأة، لا يضاهيه أي ضمان في الأنظمة والقوانين الوضعية الأخرى"[2].

هذا .. وقد بنيت حقوق المرأة في القرآن الكريم على أعدل أساس يتقرر به إنصاف صاحب الحق، وإنصاف سائر الناس معه، وهو أساس المساواة بين الحقوق والواجبات[3].

ولو تدبرنا كل ألفاظ الحق الواردة في القرآن الكريم لما وجدنا فيها لفظا صريحًا يبين حقوق الزوجين، بل جاءت الآيات القرآنية الدالة على حقوق الزوجين بصيغ مختلفة مثل الأمر والنهي والخبر.

فمن الأوامر قوله تعالى: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) [النساء:٤]، وقوله جل شأنه (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء:١٩]، وقوله (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً) [النساء:٢٤].

ومن النواهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) [النساء:١٩].

وقوله (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) [النساء:٢٠].

(١) أحكام القرآن، للجصاص(٦٨/٢).

(٢) ضمانات حقوق المرأة الزوجية، لمحمد يعقوب الدهلوي(ص٣١).

(٣) المرأة في القرآن الكريم، لعباس محمود العقاد(ص٦٣).

ومن الخبر قوله جل شأنه (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ) [النساء:٣٤].

بل إن هذه الآية وما تلتها تجمعان بين الإخبار والأمر والنهي، قال تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا× وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) [النساء:٣٤-٣٥].

وهكذا يُلحظُ أن جميع الآيات التي ورد فيها ذكر حقوق الزوجين أو الزوجة وحدها لم يأت فيها لفظ الحق ولا أي من مشتقاته صريحًا، وإنما جاء التعبير بهذه الصيغ التي تفيد إثبات القرآن الكريم لحقوق الزوجين.

هذا ويعتبر قول الله تعالى (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم) [البقرة:٢٢٨]، من أبلغ الآيات التي أثبتت أن الله تعالى قد جعل بين الرجل والمرأة حقوقا متبادلة، أجملها في آية وفصلها في آيات أخرى، على نحو ما تقدم ذكره عن الجصاص.

ولو نظرنا إلى السنة النبوية لوجدنا فيها بعض الأحاديث النبوية التي ورد فيها التعبير عن حقوق الزوجة صريحًا أورد منها مثالا واحدا من حديث حكيم بن معاوية القشيري رضي الله عنه أنه قال "..... قُلْتُ: مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: " تُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ"[1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده حديث حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه (٢١٣/٣٣) برقم(٢٠٠١١) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وأخرجه في مواضع أخرى، وأبو داود في سننه كتاب النكاح، باب: في حق المرأة على زوجها (٢٤٤/٢) رقم (٢١٤٢)، وسكت عنه، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير باب قوله تعالى "اليوم نختم على أفواههم.." (٢٣٠/١٠) رقم(١١٣٦٧) وذكر الشيخ الأرناؤوط ان روايات أحمد إسنادها حسن من أجل حكيم بن معاوية وغيره.

ومــن يتدبر نظام الأسرة يجد أنه يستلزم تقرير الرئاسة عليها لواحد من اثنين: الزوج أو الزوجــة، ولا يغني عن هــذه الرئاسة ولا عن تكاليفها تسمية الزواج بــ"شركة بين شريكين متساويــين، وتوفيقا بين حصتــين متعادلتين"، فإن الشركة لا تستغنــي عمن يختص لولايتها ويقوم بها، ومن غير المعقول أن تتصدى المرأة لهذه الولاية مطلقا، لأنها تعجز عنها في بعض الأوقــات...، وهذه الفــوارق بين الجنسين تدخـل في حساب الشريعــة الإسلامية عند تقرير الحقوق والواجبات بينهما[1].

ولكن نظرًا لأن الزوج له القوامة بنص القرآن فقد جاءت أكثر الآيات الكريمة مخاطبة له بحقوق زوجته عليه، لأنه الذي يملك إيفائها أو إهدارها، والناظر لحقوق الزوجة يجد أنها تنقســم باعتبارات مختلفــة، فبالنظر إلى نوعية الحقوق تنقســم إلى حقوق معنوية، وأخرى ماديــة، وبالنظــر إلى صاحبــة الحق نجد أنها علــى قسمين:حقوق الزوجــة، وحقوق المطلقة طلاقــا رجعيًا، وبالنظر إلى رتبة هذه الحقوق نجد أنها إمــا حقوق واجبة وجوبًا عينيا، وإما حقوق غير واجبة بل مستحبة من باب حسن العشرة ومكارم الأخلاق[2].

وبالنظــر إلى أثر تطبيق هذه الحقــوق على حياة المرأة، أو الزوجين، يمكن تقسيمها إلى حقوق وقائية تحفظ المرأة من الوقوع في الضرر، وأخرى علاجية ترفع عنها الضرر إذا وقع، وهــذه التقسيمات في تقديــري فيها تشابه وتداخل، وفي هذه البحــث سأتناول حقوق الزوجة وكيــف أوردها القرآن الكريم ووظفها التوظيف الشرعي الكفيل بحل مشكلات المرأة خاصة، ،والحفاظ على حياتها، وذلك في مبحثين على النحو الآتي:

(١) المرأة في القرآن الكريم، عباس محمد العقاد (ص٦٤) بتصرف.

(٢) ومــن أمثلــة ذلك أن حق العــدل في المبيت والنفقــة ونحوه واجب، أما حــق الزوجة في حب زوجهــا لها فهو ليس بواجب.

المبحث الأول

الحقوق المعنوية للزوجة في القرآن الكريم- دراسة تحليلية

وفيه مطالب:

المطلب الأول:المعاشرة بالمعروف

أمـر القرآن الكـريم بالإحسـان إلى الزوجة، ومعاشرتهـا بالمعـروف، في حالة الرضى والغضـب، وذلك يتجلى في نصوص قرآنية صريحـة في وجوب المعاشرة بالمعروف، ونصوص أخـرى حثت على التعامل مع نشوز النساء بحلـول شرعية تناسب كل النساء، ونصوص ثالثة حثت على إدخال التحكيم أو الصلح في نزاعات الزوجين.

فمـن النوع الأول:قول الله تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُـنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَـا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَـإِنْ كَرِهْتُمُوهُـنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَـيْرًا كَثِيرًا) [النساء:١٩] فنصَّت الآيـة علـى سبيل الوجوب بإحسان عشرة النساء مع الإشـارة إلى أن الله تعالى قد يكون قدَّر الخـير في تلك المـرأة التي يبغضها زوجها، والمعاشرة بالمعـروف المقصود بها المصاحبة لهن بالإحسان كما ذكره مقاتل[(١)].

وذكـر الزمخشـري(ت٥٣٨ه) أن المراد بالمعاشرة بالمعـروف النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في القول[(٢)].

ويفسر المعروف كذلك حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه "لاَ يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِىَ مِنْهَا آخَرَ ". أَوْ قَالَ "غَيْرَهُ"[(٣)].

(١) تفسير مقاتل(٢٢١/١)،(٣٧٨/٢).

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل(٥٢٢/١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب: الوصية بالنساء(١٠٩١/٢) رقم(٣٧٢١).

وقال الشافعي (ت٢٠٤هـ) في معنى الآية في موضع: " وجماع المعروف إتيان ذلك بما يحسن لك ثوابه وكف المكروه" ، وقال في موضع آخر: " وجماع المعروف بين الزوجين كف المكروه وإعفاء صاحب الحق من المؤنة في طلبه، لا بإظهار الكراهية في تأديته فأيهما مطل بتأخيره فمطل الغني ظلم"[١].

ومنه كذلك (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء: ١٢٩].

وهذا مطلب قرآني يتجلى فيه مدى حرص القرآن على إحسان المعاشرة عند تعدد الزوجات، والإشارة إلى ثقل العدل المطلق بين الزوجات،ولكن في نفس الوقت نهي عن الميل المجحف بإحدى الزوجتين أو الزوجات.

ومن النوع الثاني من النصوص الآمرة بحسن العشرة: قوله جل شأنه: (وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) [النساء: ٣٤].

والآية الكريمة قد حملت في طياتها أدوية النساء حين النشوز، أدوية تناسب كل نساء الأرض، على التفصيل الذي يورده المفسرون هل هو للترتيب أو للتنويع والتخيير، ثم اختتمت بالنهي عن البغي على النساء إن أبدين الطاعة للزوج.

وفي معنى قوله" فلا تبغوا" أقوال للمفسرين، فذهب ابن عباس وقتادة رضي الله عنهما إلى أن المعنى: إذا أطاعتك فلا تتجنَّ عليها العلل[٢].

وذهب آخرون إلى أن المعنى: لا تجنوا عليهن بقول أو فعل، وهذا نهي عن ظلمهن بعد تقرير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن،وقال ابن عيينة(ت١٩٨هـ): "لا تكلفوهن الحب لكم

(١) أحكام القرآن، للشافعي(١/١٣٣) والموضع الثاني رواية ثانية عند المزني.ويشير بذلك إلى حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب الحوالات،باب:إذا أحال على مدين فليس له رد (٣٩٤) رقم(٢٢٨٧)، ومسلم في كتاب المساقاة باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة(٣/١١٩٧) رقم(١٥٦٤).

(٢) جامع البيان، للطبري(٨/٣١٧) .

فإنه ليس إليهن"[1].

ومن النوع الثالث: قول الله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) [النساء: ٣٥].

وقوله تعالى: (وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)[النساء:١٢٨].

وفي معنى الإحسان والتقوى يقول مقاتل(ت١٥٠ه): " وَإِنْ تُحْسِنُوا الفعل فلا تفارقها وَتَتَّقُوا الميل والجور فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً - ١٢٨ - في أمرهن من الإحسان والجور"[2].

وقال الطبري: " وأما قوله"وإن تحسنوا وتتقوا"، فإنه يعني: وإن تحسنوا، أيها الرجال، في أفعالكم إلى نسائكم، إذا كرهتم منهن دَمامة أو خُلقًا أو بعضَ ما تكرهون منهن بالصبر عليهن، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف"وتتقوا"، يقول: وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر منكم عليهن فيما يجب لمن كرهتموه منهن عليكم، من القسمة له، والنفقة، والعشرة بالمعروف)"[3].

ومن إحسان عشرة النساء عدم إمساكهن كرها، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، قال الله تعالى(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [البقرة: ٢٢٩]، وقال تعالى(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٣١].

والمتدبر في هذه الآيات الكريمة يخرج منها بدروس عدة أهمها ما يلي:

١. أن حسن معاشرة الزوجة مطلب شرعي وضرورة حياتية لاستقامة الحياة الزوجية

(١) معالم التنزيل، للبغوي(٦١٣/١)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي(١٧٣/٥).

(٢) تفسير مقاتل(ص٤١٢).

(٣) جامع البيان، للطبري(٢٨٣/٩).

وصلاحها.

٢. أن حسن معاشرة الزوجة فيه وقاية للحياة الزوجية من مواطن النزاع والخصام والشقاق.

٣. أن حسن العشرة فيه إعلاء لمكانة الزوجة، ووضعها في مكانها الصحيح لدى الزوجة، فهي ليست سلعة عنده، إنما هي أمانة استحلها بكلمة الله تعالى، وواجب عليه صيانتها.

وقد حثت السنة النبوية كذلك على حسن العشرة، وأوصت بالمرأة خيرًا، وجاء ذلك في حديث خطبة الوداع"أُوصيكُمْ بالنِّسَاء خَيرًا؛ فَإِنَّهُنَّ عنْدَكُمْ عَوَانٌ، اتَّخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَة اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكَلَمَة اللَّهِ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا، وَأَنْ لاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتكُمْ لأَحَد تَكْرَهُونَهُ، فَإِذَا فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَإِنَّ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ نَفَقَتَهُنَّ، وَكِسْوَتَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ"[١].

المطلب الثاني:العدل عند تعدد الزوجات

أباح الإسلام للرجل أن ينكح أكثر من امرأة بالنص الصريح الدال على ذلك، مع وجوب العدل بين الزوجتين أو الزوجات، فقال جل شأنه(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا) [النساء:٣].

قال الكاساني(ت٥٨٧ه) في معناها :"إن خفتم أن لا تعدلوا في القسم والنفقة في نكاح المثنى، والثلاث، والرباع، فواحدة ندب سبحانه وتعالى إلى نكاح الواحدة عند خوف ترك العدل في الزيادة، وإنما يخاف على ترك الواجب، فدل أن العدل بينهن في القسم والنفقة واجب، وإليه أشار في آخر الآية بقوله ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ أي: تجوروا، والجور حرام، فكان العدل واجبا ضرورة؛ ولأن العدل مأمور به لقوله عز وجل ﴿ إن الله يأمر بالعدل

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم (٢/٨٨٦) رقم(١٢١٨).

والإحسان﴾ على العموم والإطلاق إلا ما خص أو قيد بدليل"[1].

فالعدل عند تعدد الزوجات حق شرعي للمرأة تركه يوجب على الرجل قضاء دنيويا، وإثما أخرويا، ولا ينبغي أن يُفهم أن خوف الزوج من العدل يكون مسوِّغًا للقول بحرمة التعدد،بل يجوز له التعدد ولكن الأولى الاقتصار على واحدة،، ووجه ذلك – في تقديري- أن العدل في حد ذاته فريضة على الزوج سواء تزوج واحدة أو أكثر، لأن الزوج لو قصر في حقوق الواحدة وهو قادر عليه فقد ظلمها، وإن تزوج عليها وأوفى إحدى زوجتيه حقها وأغفل الأخرى فقد ظلم أيضًا.

قال القرطبي(ت٦٧١ه) "وقد اتفق الجميع على أن للحر أن يتزوج أربعا وإن خاف ألا يعدل..... ثم قال في موضع آخر: "فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز، ولكن الأفضل ألا يتزوج"[2].

والإسلام نبّه على العدل بين الزوجات حال رغب الزوج في التعدد وشدد على ذلك، وجعل للمرأة مخرجًا تستطيع به التحلل من هذا العقد والرباط وذلك بأن شرع لها الخلع، وأن من العدل في الطلاق أن جعل له في الشرع مراحل قبل الشروع فيه لحل الخلافات بين الزوجين وكذلك وضع له شروطا كي لا يقع ظلم بالمرأة.

والعدل بمعناه المطلق مقصد من مقاصد ومن مقاصد الشريعة الإسلامية في توجيهاتها كلها، وكل ما ليس بعدل فهو ظلم، وخارج عن شريعة الإسلام- كما قال ابن القيم (ت٧٥١هـ): "كل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل"[3].

وما يؤيد ضرورة العدل بين الزوجات من السنة حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مَنْ كَانَت لَه امْرَأَتَانِ فَمَالَ إلى إِحْدَاهُمَا جاء يوم الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ"[4] .

---

(١) بدائع الصنائع(٣٣/٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن(١٣٧/٥) (١٤٠/٥).

(٣) إعلام الموقعين(٣/٣).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح، بَاب في الْقَسْم بين النِّسَاءِ (٢٤٢/٢) رقم(٢١٣٤)، واللفظ له، والترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر(٤٣٩/٣) رقم (١١٤١)، والنسائي في المجتبى، كتاب عشرة

وقد اتفق أكثر شراح صحيح البخاري- بناء على آيات العدل والحديث المتقدم ذكره- على أن "العدل بين النساء فريضة"، والمقصود مطلق العدل، أما التفصيل ففيه كلام واسع للفقهاء لا يتسع المقام لذكره(١).

ومن أبرز صور العدل بين الزوجات العدل في المبيت، وهو حق للمرأة باتفاق جميع الفقهاء(٢).

قال ابن قدامة(ت٦٢٠ه): "لا نعلم بين أهل العلم في وجوب التسوية بين الزوجات في القَسْم خلافاً(٣).

ومن صور العدل كذلك في الحقوق الزوجية العدل في النفقة على نحو ما هو معروف في مواضعه(٤)، فالعدل المأمور به هنا هو العدل الذي يستطيعه الزوج من أمور المسكن والمأكل والملبس والمبيت والنفقة.

قال بعض المعاصرين: "والواجب أن يعدل الزوج بينهن فيما يملك؛ فيسوي بينهن في الإنفاق عليهن؛ لأن النفقة حسب حالِه هو على ما عليه العمل الآن، ويسوي بينهن في المبيت عندهن بحيث يؤنس كل واحدة بالمبيت عندها عددًا من الليالي مثل عدد ليالي الأخرى، أما ما لا يملك وهو ميل القلب فلا يكلف المساواة فيه؛ لأنه لا تُكلف نفس إلا وسعها" ثم قال: "فالعدل المشروط لإباحة التعدد هو القدر المستطاع من المساواة. والذي نفيت استطاعته هو المثل الأعلى من العدل والمساواة في كل شيء بغاية الدقة، بلا نقص أو زيادة فيه حتى في

النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض (٦٣/٧) رقم(٣٩٤٢) وقال الترمذي عنه: لَا يعرف مَرْفُوعا إِلاَّ من حَدِيث همام ابْن يَحْيَى، قَالَ عبد الْحق: وَهَمَّام بن يَحْيَى ثِقَة حَافظ تحفة الأشراف، للمزي(٣٠٥/٩)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير(٣٧/٨)، وابن حجر في الدراية(٦٦/٢).

(١) شرح صحيح البخاري،لابن بطال(٧٦/٥)، فتح الباري ،لابن حجر(٣١٣/٩)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح،لابن الملقن(٥٦٦/١٧).

(٢) بدائع الصنائع، للكاساني (٣٣٢/٢)، البحر الرائق، لابن نجيم (٨٤/٣)، أحكام القرآن، لابن العربي(٦٣٤/١)،الشرح الكبير، للدردير (٣٠٤/٢)، فتح الباري، لابن حجر(٣١٣/٩)المغني، لابن قدامة(٢٣٠/٧)، المحلى، لابن حزم(٦٥/١٠).

(٣) المغني(٢٣٥/١٠).

(٤) بدائع الصنائع(٣٣٢/٢).

الود القلبي"[1].

فالعدل في الحب والميل القلبي مما يتعذر على الرجال تحصيله، ولهذا عفى الله تعالى عنه بقوله في موطن آخر: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء: ١٢٩].

قال ابن جزي(ت٥٩٧هـ) فيها: "معناه العدل التام الكامل في الأقوال والأفعال والمحبة وغير ذلك فرفع الله ذلك عن عباده، فإنهم لا يستطيعون"[2].

وقال أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ): " ونبه تعالى على انتفاء استطاعة العدل بين النساء والتسوية حتى لا يقع ميل البتة، ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، وفي ذلك عذر للرجال فيما يقع من التفاوت في الميل القلبي، والتعهد، والنظر، والتأنيس، والمفاكهة. فإن التسوية في ذلك محال خارج عن حد الاستطاعة، وعلق انتفاء الاستطاعة في التسوية على تقدير وجود الحرص من الإنسان على ذلك، وقيل: معنى أن تعدلوا في المحبة قاله: عمر، وابن عباس، والحسن، وقيل: في التسوية والقسم. وقيل: في الجماع" [3].

ثمرات العدل بين الزوجات:

لو ذهبنا نتتبع ثمرات العدل بين الزوجات وما يحققه من منافع وقائية وعلاجية لما اتسع المقام، ويكفي أن نورد طرفا يسيرًا من ذلك على هذا النحو:

١. العدل بين الزوجات مطلب شرعي فيه امتثال لأوامر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو ما يجب على المسلم فعله.
٢. العدل بين الزوجات يقطع النزاع بينهن، فتستقيم للرجل حياته مع التعدد، وتستقيم للمرأة حياتها مع الشعور بالأمان والاطمئنان من وقوع الحيف عليها.
٣. العدل بين الزوجات يقي الزوج من عذاب الله تعالى يوم القيام، حيث ورد الوعيد الشديد فيمن لا يعدل بين نسائه – كما تقدم في الحديث الشريف.

---

(١) أحكام الأحوال الشخصية في الشريعة الإسلامية، لعبد الوهاب خلاَّف (ص١٢٢).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل(١ /٢١٢).

(٣) البحر المحيط(٤/٨٨).

٤. العدل بين الزوجات علاج ناجح للحياة الزوجية إن شابها الكدر والتشتت بسبب الحيف من الزوج على زوجته، فكثير من المشاكل الزوجية التي تنشأ بين الزوجات مردها إلى شعور زوجة بتفضيل الأخرى عليها في أساسيات العدل، لاسيما إذا كان التفضيل ظاهرًا والحيف عليها واضحًا.

هذا..ومما يجدر ذكره أن العدل بين الزوجات ليس حقا معنويا للمرأة فقط بل هو معنوي ومادي، فمن جهة كونه معنويًا أنه يحقق للمرأة السكينة والاستقرار، ويسبغ على علاقتها بزوجها صبغة المودة والرحمة، ومن جهة كونه ماديًا أنه يحقق لها الكفاية في السكنى والنفقة ونحوهما، وهذه متطلبات حسية تحتاجها المرأة.

المطلب الثالث: الوطء وتوابعه

المعروف أن الوطء وقضاء الوطر مقصد من مقاصد النكاح، وهو مطلب للزوجين، ولكن لما كان الزوج هو صاحب القوامة، ومن شأن المرأة أن تكون مرغوبة لا راغبة، نظرًا لما جبلت عليه من الحياء الفطري، فإنه يمكن القول بأن الوطء حق للزوجة يثبت لها بالزواج، وهذا الحق ثابت لها بنصوص القرآن والسنة.

ومن أبرز النصوص القرآنية المستدل بها على ذلك قول الله تعالى:(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [البقرة:٢٢٨]، وقوله أيضًا: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [النساء:١٩].

قال ابن القيم (ت٧٥١هـ) عن الآية الأولى:" فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها؛ فإذا كان الوطء حقًا للزوج عليها فهو حق على الزوج بنص القرآن أيضًا فإنه تعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة، ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً عليه، والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره؛ فقال تعالى: (فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [البقرة:٢٢٩][(١)].

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين(ص٢١٥-٢١٦).

وللعلماء خلاف في حكم الوطء وضابطه، أو المقدار الذي يسقط به حقها في المطالبة به على أربعة أقوال:

القول الأول: أن للزوجة مطالبة زوجها بالوطء، لأنه حق مشترك، وإذا طالبته به فيجب عليه ويجبر على أدائه في الحكم مرة واحدة، وما زاد على الواحد تجب عليه ديانة فيما بينه وبين الله من بب حن المعاشرة واستدامة النكاح، وهو مذهب الحنفية[١] والشافعية في قول[٢].

القـول الثاني: أنه لا يجب على الزوج وطء زوجتـه، ولا يجبر عليه قضاء ولا يأثم بتركه، وهو ما ذهب إليه جمهور الشافعية[٣]. واستدلوا من المعقول بما يلي:

أ – أَن الوطء حقه، فَجَاز لَه تَرْكه، كما أن في داعية الطبع ما يجزئ عن تكاليف الشرع، والوطء كذلك.

ب –أن الجمـاع إنمـا هو من دواعـي الشهوة وخلوص المحبة التي لا يقـدر على تكفلها بالتصنع لها[٤].

ولكن أصحاب هذا القول رأى بعضهم أنه يستحب للزوج أَنْ لا يعطل زوجته من الوطء تحصينًا لها ، لأنه من المعاشرة بالمعروف، وتركه يؤدي إلى الإضرار بها[٥].

القـول الثالث: قضي لها بليلة من أربـع ليال على الراجح لأن له تزوج ثلاث سواها، وإن شـكا الـزوج قلته قضي له عليها بما تقدر عليه على الصحيـح ولا يتقيد بأربع مرات في الليلة ويومها ولا بغيرها[٦].

وَرَوَي عـن أَبِي عِمْـرَانَ الفاسي(ت٤٣٠هـ): "اختلف في أقل ما يقضى به على الرجل من الـوطء، فقال بعضهـم: ليلة من أربع أخذه من أن للرجل أن يتـزوج أربعا من النساء والذي،

(١) بدائع الصنائع، للكاساني(٢/٣٣١)، فتح القدير، لابن الهمام(٣/٣٠٢).

(٢) فتح الباري، لابن حجر(٩/٢٢٩).

(٣) الحاوي الكبير، الماوردي(٩/٥٧٢)، إحياء علوم الدين، الغزالي(٢/٥٠)، الأشباه والنظائر، السبكي(١/٣٦٨).

(٤) الأشباه والنظائر، السبكي(١/٣٦٨)، الحاوي الكبير، للماوردي(٩/٥٧٢).

(٥) إحياء علوم الدين، للغزالي(٢/٥٠)، الأشباه والنظائر، للسبكي(١/٣٦٨) بتصرف.

(٦) القوانين الفقهية، لابن جزي (ص١٤١)، مواهب الجليل، للحطاب(٤/١١)،شرح منح الجليل، لعليش(٣/٥٣٦).

قال: ليلة من ثلاث أخذه من قوله (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ) [النساء:١١]، وقضى عمر بمرة في الطهر لأنها يحلها ويحصنها(١).

وبنحـوه قال أبو حامد الغزالي (ت٦٥٦هـ) أنه ينبغي على الزوج أن يأتي زوجته كل أربع ليال مرة، وذلك استنادًا إلى إحلال الزوجات الأربع له (٢).

القـول الرابع: أنـه يجب على الرجل وطء زوجته في كل أربعـة أشهر مرة إذا لم يقم به مانع، وهذا مذهب الحنابلة (٣). ودليلهم من المعقول ما يأتي:

أ –أنه لو لم يكن واجبا لم يصر باليمين على تركه واجبا كسائر ما لا يجب.

ب- أن النـكاح شـرع لمصلحة الزوجين، ودفع الضرر عنهما، وهـو مُفض إلى دفع ضرر الشهوة من المرأة كإفضائه إلى دفعه عن الرجل؛ فيكون الوطء حقا لهم جميعًا.

ج - أنه لو لم يكن لها فيه حق لم وجب استئذانها في العزل كالأمة(٤).

ولعـل القول الذي تطمئـن إليه النفس في ذلك هو عدم التحديـد في ذلك بل يترك هذا الأمـر لتقديـر كل زوج أو كل زوجين، ويؤيد هذا ما قاله شيخ الإسـلام ابن تيمية "يَجب عَلَى الرَّجُـل وَطْء زَوْجَتـه بِالْمَعْـروف، أَيْ بِقَدْر حَاجَتها وَقُدْرَتـه- كَمَا يطعمهَا وَيُنْفـق عَلَيها بِقَدر حَاجَتهَـا وَقُدْرَتـه - مِنْ غَيْر تَحْديد بِمَرَّة فِي كُلّ شَهْر أَوْ أَرْبَعَة أَشْهُر أَوْ أُسْبُوع أَوْ يَوْم مِنْ أَرْبَعَة أَوْ غَـيْر ذَلـك، وَذَلكَ لأَنَّ دَلالَـةَ نُصوص الْكتَاب وَالسُّنَّـة عَدَمُ تَقْدير ذَلـك، أَوْ أيِّ شَيْء ممَّا يوجبـه عَقْـدُ النِّكَاح عَلَى كُلّ وَاحد من الزَّوْجَيْن وَالرُّجُوعُ فِيـه إِلَى الْعُرْف، قَالَ تَعَالَى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [البقرة: ٢٢٨](٥).

ومعاشرة الزوجة تستلزم آدابا وأمورً ينبغي مراعاتها لا يتسع المقام لذكرها، مثل حفظ

---

(١) مواهب الجليل، للحطاب(١١/٤)، وفي شرح منح الجليل(لأنه يحبلها).

(٢) إحياء علوم الدين(٥٠/٢).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٧١/٣٤)، كشاف القناع، للبهوتي (١٩٢/٥).

(٤) كشاف القناع، للبهوتي(١٩٢/٥).

(٥) مختصر الفتاوى المصرية(٣١/١)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم(ص٢١٥-٢١٦).

سر العلاقة الزوجية، وضرورة إشباعها إشباعا عاطفيا(١) من الحب ونحوه لما يمثله ذلك من وقاية للمرأة وصيانة لها وإعفافًا، وإمهال المرأة بعد فراغ الرجل من الوطء حتى تقضي شهوتها، وغير ذلك من آداب الوطء.

وإذا كان وطء الزوجة حق لها، فإن التقصير فيه يؤدي إلى مشاكل زوجية من أبرزها ما يلي:

١ - نشأة المشاكل والنزاعات بين الزوجين:

وذلك لأن المرأة تريد الراحة النفسية والاستقرار وإشباع رغباتها، ويعد ذلك سكنا لها ومودة، ويسري عن نفسها آلام الأعباء المختلفة، فإذا فقدت هذا الحق مع وجود الأعباء فإن حالتها تسوء فتنشأ المشاكل.

٢- ظهور حالات الطلاق:

تشير بعض الدراسات إلى أن من بين أسباب الطلاق المنتشرة في المحاكم في بعض البلاد هو عدم شعور المرأة بالاستقرار في المعاشرة، حيث يشير أحد المختصين إلى أن أهم مشاكل العلاقة المؤدية لتنافر الزوجين والطلاق في المجتمعات العربية تعود إلى أصول جنسية، وكثير من مشاكل المتزوجين التي تمتلئ بها المحاكم في بعض البلاد تعود إلى مشاكل في العلاقات الجنسية(٢).

٣- وقوع المرأة في ممارسة الاستمناء (العادة السرية):

من آثار فقدان حق المرأة في الوطء وما يترتب عليه من الإشباع العاطفي أن تتجه المرأة إلى إشباع رغبتها عن طريق الاستمناء (العادة السرية)، وذلك حين تفتقد الإشباع في العلاقة الزوجية، فالرجل الذي لا يتنبه لهذا الأمر جيدًا، ويتعامل مع زوجته تعاملاً آليا

(١) الإشباع العاطفي عرفته بعض الباحثات المتخصصات بأنه "ارتواء قلب الزوجين بالحب والحنان والمودة والرحمة بحيث لا يكون عندهما نقص في المجال العاطفي فيفتشان عنه خارج حدود الإطار الزوجي. أهمية الإشباع العاطفي بين الزوجين، سحر علي المصري (ص٢).

(٢) د. هشام شريف، المختص في علم الجنس البشري والمستشار الأسري والباحث في النشاط الجنسي الإنساني في حوار منشور في تقرير "عدم إشباع المرأة جنسيًا أسرع طريق إلى الطلاق أو الخيانة-إعداد: نسرين حلس - بموقع إيلاف. وأورد فيه نماذج وإحصائيات لا يتسع المقام لذكرها.

خاليًا من العواطف ونحوها، يتسبب في حرمان زوجته من لذة المعاشرة فتحاول الحصول عليها بطريقة أخرى غير مشروعة[1].

٤- وقوع المرأة في الخيانة الزوجية:

إذا فقدت المرأة الوازع الديني والخلقي، وكانت قد ابتليت مع زوجها بعدم تحقق الإشباع العاطفي، فإنها تكون عرضة للوقوع في الخيانة الزوجية، لا سيما إن كانت المرأة ممن تعمل أو كثيرة الخروج من البيت وتخالط الرجال، فترى فيهم ما لا تراه في زوجها من التلطف في الحديث ونحوه.

وبهذا يتبين ضرورة مراعاة حق الزوجة في هذا الجانب، وعدم إهماله، فهو من باب المعاشرة بالمعروف، وكيف لا وقد جعل الله تعالى العلاقة الزوجية علاقة سكن ومودة كما في قوله جل شأنه(وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الروم:٢١].

المطلب الرابع: ترك الوطء حالة العذر الشرعي

إذا كان الوطء حقا للزوجة، وفيه من المنافع والوقاية لزوجين ما فيه، فإن الإسلام قد أباحه لهما في أي وقت، ماعدا حالة وجود العذر الشرعي للمرأة(الحيض أو النفاس).

فمن حقوق المرأة –كما سطره القرآن الكريم- حرمة معاشرتها خلال الحيض ونحوه كالنفاس، حيث لا يحل لزوجها إجبارها على المعاشرة وهي على هذه الحالة، ولا ينبغي لها أن تمكنه من ذلك، قال تعالى(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة:٢٢٢].

وسبب نزول الآية كما في حديث أَنَس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فيهِمْ لَمْ يُؤَاكلُوهَا، وَلَمْ يُجَامعُوهُنَّ فِي الْبُيُوت فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾[البقرة:

(١) تقرير "عدم إشباع المرأة جنسيًا أسرع طريق إلى الطلاق أو الخيانة، مقال "الفراغ العاطفي عند المتزوج ثغرة للانحراف"، موقع فلسطين أون لاين. م سابق.

٢٢٢] إِلَى آخِـرِ الْآيَـةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ" فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُـوا: مَـا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُـلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلاَّ خَالَفَنَا فِيـهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّـادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَـالَا يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُـودَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، فَـلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُـولِ اللهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَـا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا[١].

وقد حكى الرازي(ت٦٠٦ه) – عند تفسير هذه الآية- اتفاق المسلمين على حرمة الوطء في زمن الحيض، واتفاقهم على حل الاستمتاع بالمرأة بما فوق السرة ودون الركبة، واستنبط مـن الآية فائـدة جليلة جديدة وهي أن يكون قوله:﴿ فَاعْتَزِلُـوا النِّسَآءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ نهياً عن المباشـرة في موضع الـدم وقوله: ﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ يكون نهياً عن الالتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع[٢].

ومن تدبر التعبير القرآني عن هذا الصنيع بأنه"أذى" يدرك مدى بلاغة النظم القرآني في جمع كل الأضرار التي تترتب على المعاضرة أثناء الحيض- معنوية كانت أو حسية، للزوجة وحدها، أو للزوجين معا- في هذه الكلمة" الأّذى".

قـال ابن جريـر الطبري(ت٣١٠ه): "والأذى هو ما يؤذى به مـن مكروه فيه،وهو في هذا الموضع يسمى "أذى" لنتن ريحه وقذره ونجاسته، وهو جامع لمعان شتى من خلال الأذى، غير واحدة"[٣].

وقـال القرطبـي (ت٦٧١ه) في معناه: "هـو شي تتـأذى به المرأة وغيرهـا أي برائحة دم الحيض. والأذى كناية عن القذر على الجملة"[٤].

فما هي جوانب الأذى في ذلك الصنيع؟ أورد هنا طرفا منها بإيجاز:

١. جماع الحائض يؤدي إلى اشتداد النزف الطمثي، لأن عروق الرحم تكون محتقنة وسهلـة التمزّق وسريعة العطب، كما أن جدار المهبل سهل الخدش، وتصبح إمكانية

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب: اصنعوا كل شيء إلا النكاح (٢٤٦/١) رقم(٣٠٢).

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي(٤١٣/٦).

(٣) جامع البيان، للطبري(٣٧٤/٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن(٨٥/٣).

حدوث الالتهابات كبيرة مما يؤدي إلى التهاب الرحم أو التهاب عضو الرجل بسبب الخدوش التي تحصل أثناء عملية الوطء. وهذا أذى حسي.

٢. جماعها يؤدي إلى امتداد الالتهابات إلى قناتي الرحم فتسدها، مما قد يؤدي إلى العقم أو إلى الحمل خارج الرحم، وهو أخطر أنواع الحمل على الإطلاق. وهذا أذى حسي.

٣. يصاحب الحيض آلام تختلف في شدتها من امرأة إلى أخرى، وأكثر النساء يصبن بآلام في الظهر وفي أسفل البطن، وبعض النساء تكون آلامهن شديدة مما يستدعي استعمال الأدوية، وهذا أذى حسي.

٤. تصاب كثير من النساء بحالة من الكآبة والضيق أثناء الحيض وخاصة عند بدايته،كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنى مستوى لها أثناء الحيض. وهذا أذى معنوي.

٥. تصاب بعض النساء بالصداع النصفي قرب بداية الحيض، ويصحبه ضعف في الرؤية وقيءٌ(١).

وإذا كان القرآن قد نهى عن إتيان الحائض ومن في حكمها كالنفساء، فإن السنة النبوية قد أباحت للزوج عدة أمور– غير المعاشرة- تمتع كلا من الزوجين بالآخر، وتسري عن نفسه، وترفع عن الزوجة ألمًا نفسيًا قد تشعر به وهي في حالتها هذه.

× فأباح للزوج الاستمتاع بزوجته فيما بين السرة والركبة، وهذا فيه إمتاع للزوجة كذلك، ويؤيد هذا حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: "كَانَتْ إِحْدَانَا إِذَا كَانَتْ حَائِضًا، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَاشِرَهَا" أَمَرَهَا أَنْ تَتَّزِرَ فِي فَوْرِ حَيْضَتِهَا، ثُمَّ يُبَاشِرُهَا، قَالَتْ: وَأَيُّكُمْ يَمْلِكُ إِرْبَهُ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْلِكُ إِرْبَهُ" (٢).

(١) توضيح الأحكام لعبد الله البسام(٣٦٢/١)،موقع الإسلام سؤال وجواب، للمنجد- فتوى(٤٣٠٢٨) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب:مباشرة الحائض (٦٧/١) رقم(٣٠٢)، ومسلم في كتاب الحيض، باب:مباشرة الحائض فوق الإزار(٢٤٢/١) رقم(٢٩٣)، واللفظ للبخاري.

× وأباح للزوجة غسل شعر زوجها وترجيله ونحوه وهي حائض كما في حديث هشَام بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كُنْتُ أُرَجِّلُ رَأْسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا حَائِضٌ" [(١)].

× وأباح له النوم في حجرها، بل وقراءة القرآن كذلك، ويؤيد هذا حديث الصحيح عَنْ مَنْصُورِ بْنِ صَفِيَّةَ، أَنَّ أُمَّهُ، حَدَّثَتْهُ أَنَّ عَائِشَةَ حَدَّثَتْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: "كَانَ يَتَّكِئُ فِي حَجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ يَقْرَأُ القُرْآنَ"[(٢)].

× وأباح له مؤاكلتها ومشاربتها، والشرب أو الأكل من إنائها أو سؤرها، والحديث المؤيد لذلك في صحيح مسلم عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كُنْتُ أَشْرَبُ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ يَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ، فَيَشْرَبُ، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ وَأَنَا حَائِضٌ، ثُمَّ أُنَاوِلُهُ النَّبِيَّ ﷺ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ" وَلَمْ يَذْكُرْ زُهَيْرٌ فَيَشْرَبُ [(٣)].

ولعل حكمة الشريعة في إباحة كل هذه الأمور دحض الشبهات التي أثيرت أو تثار بشأن حالة المرأة خلال الحيض أو النفاس، وأنه لا يصلح ملامستها أو مؤاكلتها – على نحو ما تقدم في سبب نزول الآية الكريمة- ويزاد على ذلك أن في إباحة مثل هذه الأمور مزيد من حقوق المرأة في الإسلام.

وكما حرم الإسلام إتيان الزوجة الحائض، فقد حرم أيضًا إتيانها في الدبر، وهذا التحريم نصت عليه السنة النبوية ولم يأت ذكره في القرآن الكريم، ولهذا لم أتعرض لذكره هنا.

المطلب الخامس: رعاية دينها وخلقها

من الحقوق المعنوية التي كفلها القرآن الكريم للزوجة حق رعايتها دينيًا وخلقيًا وتوجيهها سلوكيًا، والحفاظ عليها من موارد السوء، وهذا الحق ليس للزوجة وحدها بل للزوجة والولد كذلك، قال الله تعالى في كتابه العزيز: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) [التحريم:٦][(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب:مباشرة الحائض(٦٧/١) رقم(٢٩٧)،.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب:قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض (٦٧/١) رقم(٢٩٧) ومسلم في كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله(٢٤٣/١)رقم (٢٩٥) واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب:سؤر الحائض،(٢٤٥/١) رقم(٣٠٠).

(٤) معايير الوسطية وضوابطها بين الواقع والتطلعات، د.حامد محمد عثمان(ص١٣٤) بتصرف.

وحكى الماوردي(ت٤٥٠ه) فيها أوجهًاثلاثة:أحدها:معناه قوا أنفسكم، وأهلوكم فليقوا أنفسهم ناراً قاله الضحاك، والثاني:قوا أنفسكم ومروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيكم اللّهُ بهم، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، والثالث: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم، قاله علي وقتادة ومجاهد،وفي الوصية التي تقيهم النار ثلاثة أقاويل: أحدها: يأمرهم بطاعة اللّهَ وينهاهم عن معصيته،قاله قتادة، والثاني:يعلمهم فروضهم ويؤدبهم في دنياهم، قاله علي،والثالث: يعلمهم الخير ويأمرهم به، ويبين لهم الشر، وينهاهم عنه[(١)].

وقال المراغي (ت١٣٧١ه)والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة والولد والعبد والأمة، وفى الآية إيماء إلى أنه يجب على الرجل تعلّم ما يحب من فرائض الدين وتعليمها لهؤلاء"[(٢)].

ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري عن مُجَاهِدٌ في قوله تعالى:﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ﴾ [التحريم: ٦]: قال"أَوْصُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَدِّبُوهُمْ"[(٣)]. ومن جوانب الرعاية في هذا الحق ما يلي:

١ - أمر المرأة بالصلاة وحثها عليها ومعاونتها في أدائها.

قال الله تعالى(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) [طه:١٣٢].

فأمر الزوجة بالصلاة من واجبات الزوج، ومعاونته لها في أدائها فرضًا كانت أو نفلا، مما يعود بالخير عليهما، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ رَشَّ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى رَشَّتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ"[(٤)].

(١) النكت والعيون، للماوردي(٦/٤٤).

(٢) تفسير المراغي(٢٨/١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) (٦/١٥٨) قبل الحديث(٤٩١٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها،باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل(١/٤٢٤) رقم(١٣٣٦)، وأبو داود في باب تفريع أبواب التطوع وركَعات السُّنَّة، باب قيام الليل(٢/٣٣) رقم(١٣٠٨) وهذا لفظ ابن ماجه، وأخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب الوتر ،من كتاب صلاة التطوع (١/٤٥٣) رقم(١١٦٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

٢- عدم إرغام الزوجة على شيء من صنوف الزينة المحرمة.

فالزينة أمر مطلوب للزوجة، وهو حق لها، ولزوجها – كما هو معروف- ولكن بشرط أن لا ترتكب محظورًا مما نهى رسول الله ﷺ عنه من الزينة التي فيه تشبه بالرجال، أو تغيير لخلق الله تعالى، أو غير ذلك من صنوف الزينة التي تستوجب اللعن، والعياذ بالله، وإذا كانت الزينة حقًا للزوجة، وحقًا للزوج، فإنه لا ينبغي على الزوج أن يرغمها على ارتكاب محظور في الزينة، ولا ينبغي على الزوجة أن تطيعه فيما حرم الله تعالى.

ويمكن أن يستثنى من ذلك بعض الأمور التي فيها خلاف بين الفقهاء، والتي أجاز البعض فيها فعل زينة بعينها لأجل الزوج، أو بإذنه، وهذا لا محل لذكره هنا، فهو مبسوط في مواضعه من كتب الفقه وكتب شروح السنة التي تعرضت لأحاديث الزينة.

٣- ضرورة حمايتها من مجاورة أهل الفساد أو مساكنتهم أو الدخول عليهم.

من الحقوق المعنوية التي كفلها الإسلام للمرأة أنَّه لا ينبغي تعريضها لمواطن الفساد والفجور، فلا ينبغي لزوجها أن يمكنها من دخول هذه الأماكن، ولا يسكنها بجوارها.

وقد أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) في هذا الشأن بفتوى تنبض بالحياة على الرغم من مرور قرون طويلة عليها وهذا نصها: "مسألة: في رجل له زوجة، أسكنها بين ناس مناجيس، وهو يخرج بها إلى الفرج وإلى أماكن الفساد، ويعاشر مفسدين، فإذا قيل له: انتقل من هذا المسكن السوء، فيقول: أنا زوجها ولي الحكم في امرأتي ولي السكنى، فهل له ذلك؟ .

الجواب: الحمد لله رب العالمين. ليس له أن يسكنها حيث شاء، ولا يخرجها إلى حيث شاء، بل يسكن بها في مسكن يصلح لمثلها، ولا يخرج بها عند أهل الفجور، بل ليس له أن يعاشر الفجار على فجورهم، ومتى فعل ذلك وجب أن يعاقب عقوبتين: عقوبة على فجوره بحسب ما فعل، وعقوبة على ترك صيانة زوجته، وإخراجها إلى أماكن الفجور، فيعاقب على ذلك عقوبة تردعه وأمثاله عن مثل ذلك" (١).

(١) الفتاوى الكبرى(٣/١٥٢-١٥٤).

المبحث الثاني

الحقوق المادية للزوجة في القرآن الكريم – دراسة تحليلية

وفيه مطالب:

المطلب الأول:الصداق

جعل الله الصداق حقًا من حقوق النساء، فأمر الأزواج بإيفائه لهن، وضرب مثالا لعظمه ومقداره بالقنطار، ونهى عن أخذ شيء منه إلا عن طيب نفس من الزوجة، ونهى عن استرداده.

×× فأما عن كون الصداق من حقوق المرأة فهو مستفاد من قول الله تعالى:(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) [النساء:٤]، والمهر للزوجة يمثل حقا مشتركا بين حقوق الله تعالى وحقوق العبد، ولهذا تجده واجب الأداء.

قال الكاساني(ت٥٨٧ه): " المهر ملك المرأة وحقها؛ لأنه بدل بضعها، وبضعها حقها وملكها، والدليل عليه قوله عز وجل:﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾، أضاف المهر إليها فدل أن المهر حقها وملكها"(١).

ومن هذا القبيل كذلك قول الله تعالى: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء:٢٤]. فأبانت الآية أن المهر حق للمرأة، فإن شاءت تنازلت عنه أو عن شيء منه فلا حرج عليه ولا على الزوج في ذلك.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فيها: "إذا تزوج الرجل منكم المرأة، ثم نكحها

(١) بدائع الصنائع(٢/٢٩٠).

مرة واحدة، فقد وجب صَداقها كلُّه"[١].

وإذا تدبرنــا حكمة تشريع الصــداق لوجدنا فيها معالم تكريم واضحة للزوجة منها ما يلي:

١. أن الصــداق يتضمــن معنى إكرام المرأة، وتطييب نفسهــا، وإشعارها بجدية طلبها للزواج.
٢. أنــه يظهر مدى حســن نية الزوج على قصــد معاشرتها بالمعــروف، ودوام الزواج، ومــدى قدرته علــى تحمل المسؤولية الماليــة، والإنفاق على الأســرة الناشئة، وتوفير المستلزمات المالية التي تحتاجها.
٣. إظهار خطر هذا العقد ومكانته، وإعزاز المرأة وإكرامها.
٤. تمكين المرأة من التهيؤ للزواج بما يلزم لها من لباس ونفقة[٢].

وإذا تدبرنــا حكمة كون الصداق واجب على الزوج دون الزوجة لوجدنا أن هذا من باب إظهــار الحفــاوة بالمرأة وعــدم إلجائها إلى الكدِّ والتعــب، والخروج إلى الأســواق والشوارع، والاختلاط بالآخرين؛ للحصول على مال تُقدم بعضه لمن يقبل بزواجها[٣].

×× وأمــا عــن مقدار الصداق وكيف أن الشرع لم يجعل له حدًا، فهو مأخوذ من قول الله تعــالى: (وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْــدَالَ زَوْجٍ مَــكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَــلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَــهُ بُهْتَانًــا وَإِثْمًا مُبِينًا× وَكَيْفَ تَأْخُذُونَــهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) [النساء:٢٠-٢١].

قال الشَّافعــي(ت٢٠٤هـ): "ودلَّ قول الله تبارك وتعالى(وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا) على أن لا وقــت في الصــداق كثر أو قلَّ،لتركه النهي عن القنطار وهــو كثير، وتركه حداً للقليل،ودلّت عليه السُّنَّة والقياس على الإجماع"[٤].

(١) جامع البيان، للطبري(١٧٥/٨)، تفسير ابن أبي حاتم(٩١٩/٣).

(٢) ينظــر: الفقــه الإسلامي وأدلته، للزحيلي(٦٧٦٠/٩)، الحكمة من تشريع المهــر،د حسن أبو غدة- موقع رسالة الإسلام(http://muntada.islammessage.com/) بتصرف.

(٣) الحكمة من تشريع المهر، لأبي غدة.

(٤) تفسير الإمام الشافعي(٥٦١/٢).

والآية الأولى دليل على عظم قدر الصداق، وفيهما دليل على جواز المغالاة في المهور؛ لأنَّ الله تعالى لا يمثل إلا بمباح، والآية الثانية تدل على عدم جواز أخذ شيء منه بعد الزواج، فالصداق حق كامل للمرأة بالدخول، أو المسيس أو الخلوة الشرعية، وحق متنصف إذا طلقت قبل الدخول على ما هو معروف في أبواب النكاح.

هذا... ومن عظم شأن المهر، أنه ورد له في القرآن الكريم ثلاثة أسماء هي:النحلة، والأجر والفريضة، قال تعالى(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) [النساء: ٤]، وقال جل شأنه(وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) [النساء: ٢٥]، وقال عز من قائل :(وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً) [البقرة: ٢٣٧]، وله في السنة أسماء أخرى.

ولا يضر تشبيه المهر بالأجرة، والنكاح بالبيع، إنما هو من باب الفصل بين الزوجين في الحقوق، وهذا إنما يظهر عند المشاحة والخصومة، ولا يعني من قريب ولا من بعيد أن الزواج عقد مبايعة ومثامنة، وإنما هو مكارمة. ولذلك يصح النكاح دون تسمية المهر عند العقد، ولو كان بيعا أو إجارة حقيقةً لم يصح(١).

المطلب الثاني:النفقة

من أهم الحقوق المادية التي تثبت للزوجة بموجب النكاح حق النفقة عليها حسب حالة الزوج، وقد دل القرآن والسنة على ثبوت حق النفقة للزوجة كفايتها بالمعروف، فمن أدلة القرآن ما يلي:

أ –قوله: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) [النساء: ٣٤].

دلت الآية على أن من بين أسباب تحقق قوامة الرجل على المرأة النفقة،والنفقة طريق تحقيق الكفاية لها.

ب- قوله: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة:٢٣٣].

(١) ينظر فتوى "الحكمة من مشروعية مهر المرأة" –موقع إسلام ويب- رقم(١٧٤١٧٥) الخميس ٣٠ ربيع الأول ه.

وجـه الدلالة: الآيــة تبين أن التكليـف بحسب الوســع، وأن النفقة علــى الرجال بحسب حالهم[1].

ج – قولـه: (أَسْكنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِـنْ وُجْدكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُـنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْـنَ حَمْلَهُنَّ) [الطلاق:٦]،دلت على وجوب السكنى والنفقة للزوجة، ونهت عن الإضرار.

قــال محمد بــن الحسن(ت١٨٩): " إن كَانَ لَهُ عيَال من زَوْجَــة وَأَوْلَاد فَإِنَّهُ يفترض عَلَيْه الْكَسْــب بقدر كفايتهم عينًا لأن الانفاق على زَوجته مُسْتَحقّ عَلَيْه قَالَ الله تَعَالَى: (أَسْكنُوهُنَّ منْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ) الْآيَة، مَعْنَاهُ وأنفقوا عَلَيْهِم من وجدكم وَهَكَذَا فِي قِرَاءَة ابْن مَسْعُود"[2].

وقــال الكاساني(ت٥٨٧هـ): "الأمــر بالإسكان أمر بالإنفاق؛ لأنهــا لا تمكَّنُ من الخروج للكسب لكونها عاجزة بأصل الخلقة لضعف بنيتها"[3].

د – قولـه: (لِيُنْفِـقْ ذُو سَعَة منْ سَعَته وَمَنْ قُدرَ عَلَيْــه رزْقُهُ فَلْيُنْفقْ ممَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًــا إلَّا مَــا آتَاهَا سَيَجْعَــلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) [الطلاق:٧]، وهــذه الآية - كما ذكره المــاوردي- مــن المجمل الــذي لا يجب بيانه علــى الرسول، فقــد أجمل فيها النفقــة في أقلها وأوسطها وأكثرها، حتى اجتهد العلماء في تقديرها"[4].

وقد دلت السنة كذلك على وجوب النفقة على الزوجة بالمعروف، وأبرزها حديثان:

الأول:حديــث عَائشَــةَ رضي الله عنها أَنَّ هنْــدًا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَــا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحيحٌ وَلَيْسَ يُعْطينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي، إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، فَقَالَ: خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَك، بِالْمَعْرُوفِ"[5].

(١) المبسوط، السرخسي(١٨٢/٥).

(٢) الكسب:محمد بن الحسن (ص٥٧)

(٣) بدائع الصنائع،الكاساني(٣٣٢/٢)

(٤) الحاوي الكبير، الماوردي(٦٢/١٦)، البحر المحيط في أصول الفقه،الزركشي(٦١/٥).

(٥) متفق عليه:أخرجه البخاري رقم (٥٣٦٤) (٦٥/٧)كتاب النفقات باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمــه ما يكفيها وولدها بالمعروف، ومسلم رقم(١٧١٤) (١٣٣٨/٣)في كتاب الأقضية، باب قضية هند، واللفظ للبخاري.

والثاني: حديث النبي ﷺ في خطبة الوداع وفيه "...وَإِنَّ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ نَفَقَتُهُنَّ، وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ"[(١)].

وجـه الدلالـة: دل الحديث على أن النبي ﷺ قد أذن لهنـد أن تأخذ من مال زوجها ما يكفيهـا وولدهـا بالمعروف بـدون علمه، والحديث عمـدة في بابه، وقد استنبـط منه الفقهاء طائفة كبيرة من أحكام النفقة[(٢)].

هـذا... والناظر إلى أحقية المرأة للنفقة يجد أنها في أمس الحاجة إلى هذا الحق نظرًا لما يلي:

١. أنَّ للرجـل القوامـة على المرأة وهذه القوامة تستلـزم أن تكون المرأة معالة لديها ما يكفيهـا من أمور حياتها، حيث نجد في الآيـة (٣٤) من سورة النساء أن من أسباب القوامـة النفقـة، فالآيـة تكشف عن المزايا التي مـن أجلها كان الرجـل قوّاما على المرأة، ولم تكن المرأة قوّامه على الرجل.

٢. أنّ الرجل أقوى من المرأة، وأقدر على السعى فى وجوه الحياة، وكفالة حاجات المرأة والأولاد[(٣)].

٣. أنّ المرأة عرضة للضياع والانحراف – إن لم تتوفر لها سبل الكفاية- فكم من فتيات ونساء دفعتهن ظروف الحياة الصعبة، وانعدام المنفق عليهن، أو الكافي لأمورهن– إلى السـير في طريـق الكسب الحرام، والوقوع في براثـن الخطيئة، فكان في تشريع الإسلام حق الكفاية للمرأة صيانة لها عن الضياع.

٤. أنَّ كفايـة المـرأة بالنفقـة عليها تعطيها من القـوة ما يجعلها تتفـرغ لشؤون البيت، والقيـام على رعايته على الوجه الأكمل، سواء أكانـت أمًا أم زوجة، فتمارس بذلك مهمـة كبـيرة من المهام التي كلفهـا الله تعالى بها، فإذا كان العكـسُ وفقدت المرأة

(١) جـزء مـن حديث طويل أخرجه مسلم رقم(١٢١٨) (٢/٨٨٦) في كتاب الحج ، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) المبسـوط، السرخسي(١٧/٣٩)، بدايـة المجتهد، ابن رشـد(٣/٧٦-٧٧)، الأم، الشافعي(٥/٩٣-٩٤)، كشاف القناع، البهوتي(٥/٤٦٠).

(٣) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب(٣/٧٨٢).

حـق الكفاية هذا، فإنها لا تهتم بشؤون بيتها بـل تسعى لأن تتكسب ولو على حساب أسرتها.

٥. أن التاريـخ والعلـم شاهدان على أن ما أرشد إليه الكتـاب العزيز من قيام الرجال وسيادتهـم على النساء هو الحق الواقع والفطرة الصحيحة، وقد بينَّ الله تعالى لنا بفضلـه المرجِّح لكون الرجل هو القيم علـى المرأة، وهو تفضيله بنحو القوة والقدرة علـى الحماية والكسب، وهذا مرجِّـح فطري طبيعي، وإنفاقه المـال في المهر وغيره وهذا مرجِّح اجتماعـي عقلي، والشريعة الإسلامية موافقـة دائمًا للفطرة الإلهية، ومطابقة للمصالح الاجتماعية ومؤيدة بالدلائل العقلية[1].

٦. ولذلـك فـإن افتقاد المرأة لحق الكفاية وعدم توفره لهـا يقلب موازين الأمور، حيث يجعل المرأة عرضة لمزاحمة الرجال ويخرجها عن طبيعتها.

٧. أنَّ تحقيـق الكفايـة للمـرأة بالنفقة عليهـا يتوافق مع قـول الله تعـالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُـنَّ) [الأحزاب:٣٣]، حيث يمنعها تحقيق هـذا الحق فحق النفقة يمنعها عن مزاحمة الرجال في أماكن العمل التي فيها اختلاط بالرجال، ويمنعها عن التعرض للأعمال الشاقة التي توهن بدنها أو تزري بكرامتها، وتفقدها أنوثتها وجمالها.

المطلب الثالث:الميراث

الميراث تشريع إلهي يمثل قمة العدل والرحمة والصلة والمودة، شرعه الله عز وجل، وقد حرص الإسلام على تقوية ربـاط الزوجية، فجعل الزوجية سببا مـن أسباب الميراث وذلك لتقويـة أواصر المحبة بينهما - مثال ذلـك - عندما يرث الزوج زوجته، والزوجة عندما ترث زوجها.

فلمـا كانت العلاقة الزوجية تمثـل درجة سامية من درجات العلاقـات جماعها السكن والمـودة والرحمـة، فقد شرع الله المـيراث بينهما في قوله جـل شأنه: (وَلَكُمْ نِصْـفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُـمْ إِنْ لَمْ يَكُـنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُـمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ

(١) الرجال والنساء، لمحمد رشيد رضا، مجلة المنار(٤٨١/٤) بتصرف يسير

بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ) [النساء:١٢].

قال القرطبي(ت٦٧١ه): "وأجمع العلماء على أن للزوج النصف مع عدم الولد أو ولد الولد، وله مع وجوده الربع. وترث المرأة من زوجها الربع مع فقد الولد، والثمن مع وجوده.." [(١)].

وقال الطاهر بن عاشور(ت١٣٩٣ه): "هذه فريضة الميراث الذي سببه العصمة، وقد أعطاها الله حقها المهجور عند الجاهلية إذْ كانوا لا يورثون الزوجين:أما الرجل فلا يرث امرأته لأنها إن لم يكن لها أولاد منه، فهو قد صار بموتها بمنزلة الأجنبي عن قرابتها من آباء وإخوة وأعمام، وإن كان لها أولاد كان أولادها أحق بميراثها إن كانوا كبارا، فإن كانوا صغارا قبض أقرباؤهم مالهم وتصرفوا فيه، وأما المرأة فلا ترث زوجها بل كانت تعد موروثة عنه يتصرف فيها ورثته.....فنوه الله في هذه الآيات بصلة العصمة، وهي التي وصفها بالميثاق الغليظ في قوله: (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) [النساء:٢١]" [(٢)]

قلت: في تشريع الميراث للزوجة مراعاة لحسن العشرة والسكن والمودة التي بينها القرآن الكريم، وأرسى معالمها بين الزوجين، وفيه من الاعتراف بالجميل والفضل ما فيه، إذ أنه في حالت كثيرة يكون للزوجة دخل كبير في تكوين ثروة زوجها، بمعاونتها إياه، وتوفير الجو الآمن والهادئ له ليمارس أعماله من تجارة وغيرها.

بل إنَّ في كثير من المجتمعات تعمل الزوجة مع زوجها يدًا بيد في مهنته أو حرفته أو حرفة أخرى، وتشاركه في نفقات البيت والأولاد - وهي غير ملزمة بذلك- مما يعد مساعدة صريحة للزوج إما بتوفير نفقاته هو أو بإضافة مال على ماله.

ولهذا كان من الإنصاف أن ترث الزوجة ولا تحرم من زوجها، فهذا التشريع الإلهي يمثل قمة العدل والرحمة والمودة، بالإضافة إلى سنوات العمر التي قضتها الزوجة في خدمة زوجها وخدمة أولاده، والمحافظة على ماله.

وميراث الزوجة من زوجها يسير وفقا لهذه الحالات:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(٦٧/٥).

(٢) التحرير والتنوير(٢٦٣/٤).

١. أنَّ تكـون واحـدة، فحينئذ ترث الربع إن لم يكن للزوج فرع وارث، والثمن إن كان له فرع وارث.
٢. أنَّ تتعـدد الزوجـات فيشتركن في الربع، أو الثمن بناء علـى وجود فرع وارث للزوج أو عدمه.
٣. أنَّ الزوجة ترث من زوجها بمجرد العقد، سواء دخل بها أو لم يدخل[١].
٤. أنَّ الزوجة ترث زوجها بمجرد موته حتى ولو كان قاصرًا[٢].

وبهـذا المطلـب اليسير أكون قد وصلت بفضل الله تعالى وتوفيقه إلى نهاية هذا البحث، ولا أدعـي أنني قد وفيته حقه،أو أتيت بكل حقوق المرأة على زوجها، ولكن حسبي أنني أشرت إلى أبرز هذه الحقوق التي وردت في كتاب الله تعالى، وكيف أن مراعاتها وتطبيقها يحل كثيرا مـن مشاكل الزوجـة، ويعود بالأثر الطيب على الحياة الزوجيـة، وأنتقل بعد ذلك إلى خاتمة البحث وأهم توصياته.

(١) تنظر فتوى "ميراث الزوجة من زوجها المتوفى عنها قبل الدخول" للمفتي بكري الصدفي- مفتي الديار المصرية سنة ١٣٢٤هـ- فتاوى دار الإفتاء المصرية (٤١١/٢).
(٢) فتوى "ميراث الزوجة من زوجها القاصر" للشيخ عبد المجيد سليم ، مفتي الديار المصرية سنة ١٣٥٣هـ- فتاوى دار الإفتاء المصرية (٣٧٤/٢).

الخاتمة

بعد توفيق الله تعالى وعنايته أورد هنا أبرز نتائج البحث وتوصياته على النحو الآتي:

أولا: نتائج البحث:

أن الإسـلام قد كفل حقوقا تحفـظ للأسرة كيانها، وتقيها مما تتعرض له من مشكلات حياتية، وهذه الحقوق نص عليها القرآن الكريم في موضع عدة.

أن مصطلح "حق" ورد في القرآن الكريم عشرات المرات بمشتقات مختلفة، ولكن ليس فيهـا مـا يدل على تعريف الحـق الذي هو أمر واجب على المرء نحو غـيره ألزمه به الشرع أو ألزم به نفسه".

أن حقـوق الزوجـة قـد عبر عنها القـرآن الكريم بصيـغ متعددة كالأوامـر، والنواهي والأخبار التي تفيد في مجملها "الأمور التي تثبت للزوجة في ذمة الزوج بموجب عقد الزوجية، بناء على إلزام الشرع بها أو التزام الزوج بها".

أن القـرآن الكريم خاطب الزوج بحقوق زوجته عليـه، نظرا لكونه القيم عليها، وكونه الذي يملك إيفاء هذه الحقوق أو إهدارها.

أن حقوق الزوجة تنقسم إلى أقسام عدة باعتبارت مختلفة، أشهرها التقسيم إلى حقوق معنويـة وحقـوق مادية، وبينمها تشابه وتداخل، وهي في مجملهـا تمثل وقاية للحياة الزوجية مما قد يطرأ عليها من خلل، وعلاجًا لما وقع فيها من مشكلات.

أن أبـرز الحقوق المعنوية للزوجة هي:العشرة بالمعروف، والعدل بين الزوجات، والوطء، وعدم معاشرتها خلال العذر الشرعي، ورعاية دينها وخلقها.

أن إهدار الزوج لأي حق من الحقوق المعنوية للزوجة يورث الحياة الزوجية خللا، ويؤدي إلى مفاسد أخلاقية، وآلام نفسية تلحق بالزوجة.

أن مـن أبرز الحقـوق المادية للزوجة: الصـداق، والنفقة، والمـيراث، وكل هذه الحقوق مضمونة بنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية.

أن إهدار الزوج لحقوق زوجته المادية يتنافى مع صفة القوامة التي أثبتها القرآن للزوج، ويعد من أكل أموال الناس بالباطل، ويؤدي إلى تعرض المرأة لمفاسد وأضرار بدنية ومعنوية.

ثانيا : التوصيات :

ضـرورة الرجـوع إلى نصوص القرآن الكريم كمنهاج ونبراس تستمد منه معالم حقوق الإنسـان على جهة العموم، وحقـوق الزوجين على جهة الخصوص، وحقوق الزوجة على جهة الأخص.

قيام المؤسسات الدينيـة والاجتماعية والدعوية بتوعية المجتمع المسلم بحقوق الزوجين، وترسيـخ مفهوم هذه الحقـوق وآثارها في نفوسهم من خلال الربط بكتـاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

عقـد دورات تثقيفية ودروس تربوية لكل شخصين مقبلـين على الزواج لتبصيرهما بما لـكل منهما علـى الآخر من حقوق وما عليه نحوه من واجبات، وهنـاك دول تنتهج هذا النهج مع أبنائها، بل وتعتبره شرطا لموافقة أولي الأمر على إتمام عملية الزواج (ماليزيا نموذجًا).

تيسـير إجراءات التقاضي فيما ينشب بين الزوجين من نزاع بشأن الحقوق والواجبات، وعدم التطويل في الفصل فيها.

قائمة المراجع

١. القرآن الكريم:

٢. أحكام الأحوال الشخصيــة في الشريعة الإسلامية، لعبد الوهاب خلاف(ت١٣٧٠هـ) ط: دار الكتب المصرية بالقاهرة،الطبعة: الثانية، ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.

٣. أحـكام القرآن، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي(٣٧٠هـ) تحقيق/ الشيخ محمد الصادق قمحاوي، ط: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ه-بيروت.

٤. أحكام القرآن، للإمام أبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣ ه)، تحقيق/ علي البجاوي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – د. ت.

٥. أحكام القرآن، للإمام محمد بـن إدريس الشافعي(ت٢٠٤هـ)، تحقيق/د. عبدالغني عبد الخالق، ط:دار الكتب العلمية:١٤٠٠ه – بيروت.

٦. إحيــاء علوم الدين، للإمام أبي حامــد محمد بن محمد الغزالي(ت٥٠٥هـ)، ط: دار المعرفة،بيروت. د.ت.

٧. الأشباه والنظائر، للإمام تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت٧٧١هـ)، ط:دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٨. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الشهير بابن القيم(ت٧٥١هـ)، تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد، ط:دار الجيل - بيروت ، ١٩٧٣م.

٩. الأم ، للإمــام أبــي عبــد الله محمــد بــن إدريــس بــن العباس بــن عثمان بــن شافع المطلبي(ت٢٠٤ه)، ط:دار المعرفة – بيروت:١٤١٠هـ/١٩٩٠م

١٠. أهمية الإشبــاع العاطفي بين الزوجين، سحر علي المصري، كتاب من إصدار مؤسسة الفرحة للإعلام – كرسي النور - بموقع ملتقى أهل العلم.

١١. البحـر الرائق شرح كنز الدقائق، للإمام زين الدين بن إبراهيم بن نجيم ، المعروف بابن نجيم المصري (ت٩٧٠هـ) ، ط:دار المعرفة – بيروت.د.ت.

١٢. البحر المحيط في أصول الفقه، ، للإمام أبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، ط: دار الكتبي، الأولى، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م.

١٣. البحر المحيط، لمحمد بـن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) ، تحقيق / عادل عبد الموجود وآخرون، ط: دار الكتب العلمية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، الاولى، بيروت.

١٤. بدايـة المجتهـد ونهاية المقتصـد، للإمام أبي الوليـد محمد بن أحمـد بن محمد بن أحمـد بن رشد القرطبي الشهير بابـن رشد الحفيد (ت٥٩٥هـ) ، ط دار إحياء الكتب العربية- مصطفى البابي الحلبي، الرابعة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

١٥. بدائـع الصنائـع في ترتيـب الشرائع، لعلاء الديـن أبي بكر بن مسعـد الكاساني (ت ٥٨٧ه) ط: دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. بيروت.

١٦. البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، للإمام سراج الدين أبـي حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي الشهـير بابن الملقن (ت ٨٠٤ه)،، تحقيق /مصطفـى أبو الغيط وآخرون، دار الهجـرة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٧. التحريروالتنوير،لمحمد الطاهربن عاشور(ت١٣٩٣هـ) ،طدارسحنون،١٩٩٧م،تونس.

١٨. التسهيـل لعلوم التنزيل، للإمام أبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الغرناطي (ت ٧٤١هـ) ، تحقيق د عبد الله الخالدي،ط:شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الأولى - ١٤١٦ هـ.

١٩. تفسـير الإمـام الشافعـي، للإمـام أبـي عبـد الله محمـد بـن إدريـس الشافعـي المطلبـي(ت٢٠٤ه) ، جمـع وتحقيـق ودراسة: د. أحمـد بن مصطفى الفـرَّان،ط :دار التدمرية - السعودية ، الأول:١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م.

٢٠. تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي(ت٣٢٧ه) ، تحقيق/أسعد محمد الطيب، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الثالثة:١٤١٩ه.

٢١. التفسير القرآني للقرآن، د عبد الكريم يونس الخطيب (ت١٣٩٠هـ) ، ط:دار الفكر العربي – القاهرة.

٢٢. تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي(ت١٩٤٥م) ، ط:شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، د.ت، مصر.

٢٣. تفسير مقاتل، للإمام مقاتل بن سليمان البلخي(ت١٥٠هـ) ، تحقيق/ أحمد فريد ،ط: دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٢٤. تقرير "عدم إشباع المرأة جنسيًا أسرع طريق إلى الطلاق أو الخيانة- نسرين حلس - بموقع إيلاف.

٢٥. توضِيحُ الأحكَام مِن بُلُوُغ المَرَام، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام (ت١٤٢٣هـ) ، طَ: مكتَبة الأسدي، مكّة المكرّمة،الطبعة الخامِسَة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

٢٦. التوضيح لشرح الجامع الصحيح،، للإمام سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت ٨٠٤هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين في دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث بالفيوم – مصر، ط:دار النوادر، دمشق ،الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م.

٢٧. جامع البيان في تأويل القرآن(تفسير الطبري) ، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري (ت٣١٠هـ) ، تحقيق/أحمد محمد شاكر،ط:مؤسسة الرسالة،الأولى١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، بيروت.

٢٨. الجامع الصحيح(المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ) للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري(ت٢٠٦هـ) ،ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي،ط:دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٢م.

٢٩. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله e وسننه وأيامه، المشهور ب"صحيح البخاري"، للإمام/محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي(٢٥٦هـ)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط:دار طوق النجاة، الأولى:١٤٢٢هـ، مصر. المصورة عن الطبعة السلطانية.

٣٠. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق/هشام سمير البخاري، ط: دار عالم الكتب، الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، الرياض.

٣١. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق/علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود ، ط: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٩ هـ-١٩٩٩ م.بيروت – لبنان.

٣٢. الحكمة من تشريع المهر،د حسن أبو غدة- موقع رسالة الإسلام(http://muntada.islammessage.com/) بتصرف.

٣٣. الدراية في تخريج أحاديث الهداية، للإمام أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق / السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، ط: دار المعرفة – بيروت – د.ت.

٣٤. الرجال والنساء، لمحمد رشيد رضا، مجلة المنار- موقع المكتبة الشاملة.

٣٥. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ط:دار الكتب العلمية،١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م- بيروت، لبنان.

٣٦. سنن ابن ماجه، للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت٢٧٣هـ) تحقيق وترقيم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية (الحلبي) ط: ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

٣٧. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ) ،تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط:دار الفكر،د.ت. بيروت.

٣٨. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ) ،تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط:دار الفكر،د.ت. بيروت.

٣٩. السنن الكبرى، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي ت٣٠٣هـ) ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن،ط:دار الكتب العلمية،الأولى:١٤١١ه-١٩٩١م.

٤٠. الشرح الكبير على مختصر خليل، للشيخ أحمد بن محمد الدردير(ت١٢٠١ه) ، ومعه: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، للإمام محمد عرفة الدسوقي(ت١٢٣٠ه) وتقريرات الشيخ محمد عليش(ت١٢٩٩ه) ، ط:دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي- د.ت.

٤١. شرح صحيح البخاري، لابن بطال،لأبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي (ت٤٤٩ه) ، تحقيق/أبو تميم ياسر بن إبراهيم،ط: مكتبة الرشد، الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م- الرياض.

٤٢. شرح فتح القدير، لكمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي السكندري المعروف بابن الهمام الحنفي (ت ٦١٨ه) على(الهداية شرح بداية المبتدي) ط: دار الفكر، بيروت، د.ت.

٤٣. شرح منح الجليل على مختصر خليل، للشيخ محمد عليش(ت١٢٩٩ه)ط:دار الفكر١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٤. ضمانات حقوق المرأة الزوجية، تأليف محمد يعقوب الدهلوي، ط:عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية ومكتبة أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولي:١٤٢٤ه.

٤٥. الفتاوى الكبرى، للإمام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية(ت٧٢٨ه) ، ط: دار الكتب العلمية، الأولى:١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٤٦. فتاوى دار الإفتاء المصرية- موقع المكتبة الشاملة.

٤٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي(ت٨٥٢هـ) ،ط:دار المعرفة:١٣٧٩ه، بيروت.

٤٨. فتوى "الحكمة من مشروعية مهر المرأة" – موقع إسلام ويب- رقم(١٧٤١٧٥) الخميس٣٠ ربيع الأول ه.

٤٩. الفراغ العاطفي عند المتزوج ثغرة للانحراف، موقع فلسطين أون لاين- الأربعاء٥ نوفمبر٢٠١٤م.

٥٠. الفقه الإسلامي وأدلته، د.وهبة الزحيلي، ط:دار الفكر، الرابعة. د.ت.

٥١. القوانين الفقهية، للإمام أبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ) تحقيق محمد بن سيد بن أحمد مولاي، ط:وزارة الأوقاف الكويتية – د.ت.

٥٢. الكسب، للإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني (ت ١٨٩هـ) ، تحقيق/ د. سهيل زكار، ط: عبد الهادي حرصوني ، الأولى، ١٤٠٠هـ - دمشق.

٥٣. كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس البهوتي (ت ١٠٥١هـ) ، تحقيق/ محمد لأمين الضناوي، ط عالم الكتب،الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، بيروت.

٥٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،للإمام أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري(ت٥٣٨هـ) تحقيق/أ عبد الرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي- د. ت. بيروت.

٥٥. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، للإمام أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي(ت١٠٩٤ه) ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ط:مؤسسة الرسالة – بيروت – د.ت.

٥٦. المبسـوط، لشمس الدين أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي(ت٤٨٣ه)، تحقيق / خليل محيي الدين الميس، ط:دار الفكر،الأولى:١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. بيروت.

٥٧. مجمـوع الفتاوى، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بـن عبد السلام الحراني، الشهير بابن تيميـة(ت ٧٢٨هـ) تحقيق/ أنور الباز وعامر الجـزار ط:دار الوفاء بالمنصورة، الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م، مصر.

٥٨. المحلـى بالآثار، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بـن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ)، تحقيق/أحمد محمد شاكر، ط:مكتبة دار التراث، د.ت، القاهرة.

٥٩. المدخل الفقهي العام، د.مصطفى أحمد الزرقا،ط:دار الفكر،التاسعة:د.ت.

٦٠. المدخل للفقه الإسلامي، د.عيسوي أحمد العيسوي.

٦١. المرأة في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، ط:دار نهضة مصر للطباعة والنشر- القاهرة – د.ت.

٦٢. المستـدرك على الصحيحين، لأبـي عبد الله محمد بن عبـد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥ه)،. تحقيـق/ مصطفـى عبـد القـادر عطـا، ط:دار الكتـب العلميـة ،الأولى:١٤١١هـ -١٩٩٠م.بيروت.

٦٣. المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١ه)، تحقيق /شعيب الأرنؤوط وعادل مرشـد، وآخرون، بإشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٦٤. معـالم التنزيـل في تفسير القـرآن، للإمـام أبي محمـد الحسين بن مسعـود البغوي (ت٥١٠هـ)، تحقيق وتخريج/محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش،ط:دار طيبة للنشر والتوزيع، الرابعة:١٤١٧ ه - ١٩٩٧م.

٦٥. معايير الوسطية وضوابطها بين الواقع والتطلعات، د.حامد محمد عثمان – موسوعة أبحاث الوسطية، ط: كرسي الأمير سلطان للدراسات الإسلامية المعاصرة ١٤٣١ه.

٦٦. المغني شرح مختصر الخرقي، لموفق الدين أبي محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي(ت٦٢٠ه) ط:دار الفكر،١٤٠٥هـ. بيروت.

٦٧. مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي(ت٦٠٦ه)، ط:دار الكتب العلمية، الأولى:١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م- بيروت.

٦٨. المنهج الأخلاقي وحقوق الإنسان في القرآن الكريم، د.يحيى بن محمد حسن زمزمي- موقع المكتبة الشاملة.

٦٩. مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني، تحقيق/ زكريا عميرات،دار عالم الكتب- طبعة خاصة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٧٠. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر،لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٧٩ه) تحقيق/محمد عبد الكريم كاظم الراضي،ط:مؤسسة الرسالة،الأولى:١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م بيروت.

٧١. النكت والعيون أو تفسير الماوردي، للإمام أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (ت٤٥٠ه)، تحقيق/ السيد عبد المقصود عبد الرحيم، ط: دار الكتب العلمية – بيروت- د.ت.

٧٢. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة، لسليمان بن سالم القرعاوي، ط:مكتبة الرشد، الاولى:١٤١٠هـ-١٩٩٠ه، الرياض.

×××××××××

ذاكر دمير

- بكالوريوس: جامعة نجم الدين أربكان كلية الهيات.
- ماجستـير: في موضـوع "المصطلحات القرآنية والتفسيريـة في كتب التعريفات والحدود والمصطلحات" في قسم التفسير بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة مرمرة ٢٠١٦.
- العمل والجهة: يعمل حاليا معيداً ومحاضراً في قسم التفسير لكلية الدراسات الإسلامية بجامعة مرمرة، أسطنبول.
- من إنجازاته العلمية: الحصول على إجازة العلوم الإسلامية بطريق المدرسة الكلاسكية العثمانية. نشرت له بعض البحوث العلمية منها: النسخ في القرآن ما له وما عليه.

- بكالوريوس: جامعة نجم الدين أربكان كلية الهيات.
- ماجستـير: في موضـوع "المصطلحات القرآنية والتفسيريـة في كتب التعريفات والحدود والمصطلحات" في قسم التفسير بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة مرمرة ٢٠١٦.

- العمل والجهة: يعمل حاليا معيداً ومحاضراً في قسم التفسير لكلية الدراسات الإسلامية بجامعة مرمرة، اسطنبول.

- من إنجازاته العلمية: الحصول على إجازة العلوم الإسلامية بطريق المدرسة الكلاسكية العثمانية. نشرت له بعض البحوث العلمية منها: النسخ في القرآن ما له وما عليه.

البريد الإلكتروني: zakirdemir56@hotmail.com

المحور

توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية

(المشكلات الأسرية)

ورقة بحثية بعنوان:

"معالجة التفكك الأسري بهداية القرآن الكريم في ضوء سورة التحريم"

ذاكر دمير

مقدمة البحث

الحمـد لله مُحيي الـرِّمم، ومُجري القلـم، وذارِئ الأمم، وبارِئ النسـم، ليعبدوه ولا يشركـوا به شيئًـا، وأفضل الصـلاة وأتمُّ التسليم علـى سيدنا محمد النبـي الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فـإنَّ النصـَّ الإسلامـي أولى الأسرة عنايةً عظمى، وأفرد لهـا أُسسًا وأحكامًا، ونسَّق علاقاتهـا تنسيقًا ناجِعًا، لأنها اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي، وقارئ القرآن المتدبرُ يـرى هذا الاهتمـام ويدركه، وهـذه السورة التي هي مـدار بحثنا تناولت عـددًا من الشؤون الأسريـة، وحرصـت علـى إيضاح ومعالجـة صورِ التفـكك الأسري، مما دفعنـي لبحث هذا الموضوع تحت محور توظيف الدراَسات القرآنية في علاج المشكلات الأسرية

خطة البحث:

جـاء هـذا البحـث في مقدمة وتمهيد وثلاثـة مباحث، أولها لمحـة مُوجَزة في التفكك الأسـري وتأثـير العلمانية فيه، وثانيهـا في معالجة سورة التحريم التفـككَ الأسريَّ كالحوار وحفظ السر والتوبة وأهمية المسؤولية وضرب الأمثال، وثالثها التطبيقات التربوية المستنبطة والنتائـج المستخلصة من السـورة، وفي الخاتمة تناول البحث اهتمامَ القرآن بمعالجة قضايا الأسـرة، وأنها اللبنة الأولى للمجتمع المسلـم، ووضع الحلول المناسبة للمشاكل التي تنشأ بين أفراد الأسرة.

أهمية البحث:

هذا البحث من الموضوعات المهمة من حيث بيانُ قواعدَ وضوابط للمحافظة على الأسرة في ضوء هديِ سورة التحريم، ويتجلّى ذلك في النقاط التالية :

أ- إن التفـكك الأسريَّ ظاهـرةٌ كبرى في جميع المجتمعات الإنسانيـة، وقد أصابت هذه الآفةُ المجتمعَ الإسلامي، لذا وجب على الباحثين المزيدُ من النظر في القرآن الكريم لاستنباط علاجٍ لهذه العلة التي تهدِّدُ أهمَّ ركن من أركان المجتمع.

ب- يتوهَّم بعضُهم أنّ بيت النبوة لا يعترِيه ما يعتري سائرَ البيوت من المشاكل الأسرية، وهـذا اعتقاد قاصر، وقد أثبتت هذه السـورة أن الأنبياء يَجري في بيوتهم ما يَجري في بيوت عامة الناس، فكان هذا تعليمًا للناس وتسليةً لهم.

ج- وإني آمـل أن تسهـم هذه الدراسةُ في لفت أنظـار الباحثين والمصلحين الاجتماعيين لتدبر القرآن واستنباطِ علاجٍ لأمراض الأسرة التي يُعاني منها البيت المسلم.

أهداف البحث:

أ- إن هـذه الدراسة تهـدف إلى وضع الحلول المستنبطة من سورة التحريم لحلِّ مشاكلِ الأسـرة التي لا تخلو يومياتُهـا من العثرات والخلافات وسوءِ التفاهم بين أفرادها، وهذا من طبيعة الإنسان مع ما يعيشه البيت المسلم من تحديات وتهديدات تستهدفه، لذلك جاءت هذه الدراسةُ لتساهم في الإجابة عن السؤال التالي : كيف تتجاوز الأسرةُ المسلمةُ تلك المنَغِّصات؟

ب- كما يهدف هذا البحث إلى توضيح طرقِ التعامل مع المشاكل الأسرية، ومنها التفكُّكُ الأسري، وكيفيةُ التعاملِ معها في ضوء السورة.

ج- ومـن أهـم أهداف هـذه الدراسة تقـديمُ أفضلِ عـلاجٍ لبناء الأسـرة وإبعادِها عن التفكك الأسريِّ.

د- وتوجيهُ الأزواج والزوجات إلى أهمية المعالجات التي توافرت فيها الصفاتُ الإيجابية لمعالجة هذا التفككِ.

الدراسات السابقة :

لم يَتَناهَ إلى علمي كتابٌ مفردٌ في الحياة الزوجية من خلال سورة التحريم، وما اطّلعتُ عليــه من كتابات حول السورة إنما هو أشبــهُ بمقالات أو تفسيرات تحليلية من كتب التفسير، وأهمُّ ما وقفتُ عليه في ذلك:

أ- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي.

ب- التفســير الموضوعــي لسور القــرآن الكريم إعـداد نخبة من علمــاء التفسير وعلوم القرآن، وهو بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم.

ورغـم ما في تلك الدراسات من فوائد إلا أنها لم تتناول سورة التحريم من جانبها الذي يتعلق بالتفكك الأسري.

تمهيد :

هــذه الســورة عظيمةٌ في معانيهــا، معجزة في مبانيهــا، ألقتْ ضوءًا علــى بيت النبوة، وحرَّضتْ على الآداب والتوجيهات الرَّبانية، ووضعتْ العلاج للتفكك الأسري.

وقبـل الحديـث عـن مضامين السورة يجـدر بنا أن نعطـي لمحة عنهــا، وذلك من حيث مدنيتُهــا وتسميتُهــا، وعـددُ آياتهــا، وترتيبُهــا في النزول والمصحــف، ومناسبتُها لمــا قبلها، وأهدافُها ومحورها، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولا : مدنية السورة وتسميتها :

وقــع إجمــاع أهل العلم على أن هــذه السورة مدنية[1]، وآياتها اثنتــا عشرة آية، وعدد كلماتهــا مائتان وسبع وأربعون كلمة، وحروفها ألــف وستون حرفاً[2]،كحروف سورة الطلاق، وتزيد عنها سورة الطلاق بكلمتين.

---

(١) ابــن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٣/١٤١٣، مج. (٥)، (ص. ٣٢٩).

(٢) الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم ، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٥/١٤١٥، مج. (٤)، (ص. ٣١٠).

ووَرَد للسورة أكثر من اسم، فَتَعَدُّد الأسماء دليل على شرف المسمى، كما قال الفيروزآبادي[١]، سميتْ سورة التحريم لتحريم النبي ﷺ شيئًا على نفسه، هذا الاسم توقيفي فقط، وجاءت تسميتها في كلام الصحابة[٢] وسميت سورة النبي[٣]، ووجه تسميتها بالنبي لأنها ذكرت لفظ النبي في أول آية، وسميت سورة النساء[٤]، وسورة المتحرِّم، وهو النبي[٥]، وسورة لمَ تُحرِّم[٦]، وسورة اللَّمَ تُحرِّم[٧]، على حكاية ﴿لم تحرِّم﴾، وجعلُها بمنزلة الاسم، وإدخالُ لاَم التعريف عليها، وإدغام اللاّمين، والتسميتان الأخيرتان من ناحية تسمية السورة بأول كلمة فيها، وهذه الأسماء الأربعة: لم تحرم، المتحرم، النبي، النساء، هي أسماء اجتهادية من المفسرين، أو وُجِدت في نُسخ بعضَ المصاحف، ولم يثبت فيها عن النبي ﷺ شيء.[٨]

---

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، وزارة الأوقاف، القاهرة: ١٤١٦/١٩٩٦، مج. (١)، (ص. ٨٨).

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت: ١٤٠٣/١٩٨٣، مج. (٨)، (ص. ٢١٣).

(٣) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبكان، الرياض: ١٤١٨/١٩٩٨، مج. (٦)، ص. (١٥٣)؛ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٧/٢٠٠٦، مج. (٢١)، ص.(٦٧-٦٩)؛ البقاعي، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد: ١٤٠٣/١٩٨٣، مج. (٢٠)، ص. (١٧٩).

(٤) ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت:١٤٠٧/١٩٨٧،مج. (٨)، ص. (٣٠٢)؛ الألوسي، أبو الثناء شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت: ١٤١٧/١٩٩٧، مج. (١٥)، ص. (٢١٧). ولم أقف عليه عند أحد من المفسرين غيرهما، ولم يعده السخاوي والسيوطي اسما للسورة.

(٥) الألوسي، روح المعاني، مج. (٢٨)، (ص.١٢٨)

(٦) ابن الجوزي، زاد المسير، مج. (٨)، ص. (٣٠٢)؛ والسيوطي، الدر المنثور، مج. (٨)، (ص. ٢١٣)؛ الألوسي، روح المعاني، مج. (٢٨)، (ص. ١٢٨).

(٧) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس: ١٤٠٥/١٩٨٤، مج. (٢٨)، ص. (٣٤٣).

(٨) الدسوري، منيرة محمد ناصر، أسماء سور القرآن وفضائلها، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٩/٢٠٠٨، ص. (٤٢٦-٤٢٨).

ثانيًا: ترتيب نزول السورة :

هــي الخامسة بعد المائة في عِداد نــزولِ سورِ القرآن، فقد نزلت بعد سورة الحجرات وقبل سورة الجمعة[1].

أمــا من حيث ترتيــبُ المصحف فهي السورة السادسة والستون، قبلها سورة الطلاق، وبعدها سورة الملك، وهي السورة التي بها يُختم الجزء الثامن والعشرون في المصحف.

ومن المُسلَّم أن نزول هذه السورة كان بعد زواج النبي بزينب بنت جحش، كما أفاد ذلك سبب نزولها، وليس من المتفق عليه تحديد زمان نزول هذه السورة، ولكن بعد وقوف عميق على بعض الأحـداث في كتب التاريخ والسير يُمكن أن نُحدد فترة زمنيــة تقريبية، فمثلًا قصة زيد وزينب وقع ذكرها في سورة الأحزاب، وغزوة الخندق وقعت في السنة الخامسة للهجرة.[2]

ثالثًا: مناسبة السورة لما قبلها :

مــن علوم القرآن المعينة على فهمه وفهــم مقاصده علمُ المناسبات بين السور والآيات، ولما كانت كلُّ سورة من سور القرآن الكريم لها مناَسبةٌ وصلةٌ بما قبلها وبما بعدها، ومناسبةٌ وصلةٌ ما بين آياتها، وارتباطٌ بين أولها وآخرها، يجدُر بنا أن نذكر ما كان من ذلك في سورة التحريم.

إن ســورة الطــلاق والتحريم متشابهتان في عرض الأحكام، وما يتعلَّق بهما، وهذه وإنّ كانت إحدى وجوه المناسبات في كِلتا السورتين ، إلا أنَّ منها أيضًا:

١. افتتاح الكلام في السورتين بخطاب يا أيها النّبي.

٢. مشاركــة السورتين في الأحــكام الخاصة بالنساء، فسورة الطلاق في إيضاح أحكام الطــلاق والعدة وغير ذلك، وهذه السورة في ذكر بعضــ نساء الرسول ﷺ وكيفية معاملته لهنّ باللين والحُسنى .

٣. ســورة الطــلاق في تحريم ما أحـلَّ اللّه بالطلاق، وإنهاء خصام بعضــ نساء الأمة، وهــذه الســورة في تحريم مــا أحـل اللّه بالإيــلاء، وإنهــاء خصومــة أزواجه ﷺ،

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، مج. (٢٨)، ص. (٣٤٣).

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام ، السيرة النبوية، دار الحديث، القاهرة: ١٤١٩/١٩٩٠، مج. (٣)، ص. (١٦٥-١٨٣).

وإفرادها بأحكامهن تعظيما لهن وتعظيما له ﷺ، كما خصت هذه السورة بختمها بذكر زوجة فرعون آسية ومريم ابنة عمران وكونهما في الجنة.

٤. ارتباط بداية هذه السورة بنهاية ما قبلها، كما ذكره البقاعي (ت.٨٨٥/ ١٤٨٠) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور حيث قال: لما ختم سبحانه الطلاق بإحاطة علمه وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره، دل عليه أول هذه بإعلاء أمور الخلق بأمر إخفاء ما تعلق به منه، فأظهره سبحانه عتاباً لأزواج نبيه في صورة عقابه، لأنه أبلغ رفقاً به، لأنه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة لأمته، تارة لطلب رضاهم وأخرى رغبة في هداهم ، لأنه بالغ في تهذيب أخلاقه مع ما طهره اللّه به من نزاهتها عن كل دنس حتى ضيَّق عليها بالامتناع عن بعض ما أبيح له حفظاً لخاطر الغير[1].

رابعاً: أهداف السورة ومحورها:

هذه السورة المدنية تتضمن بعض أحكام التشريع الخاصة بأمهات المؤمنين لتكون أنموذجًا تحتذي به الأمة.

ابتدأت السورة بعتاب لطيف للنّبي ﷺ على تحريمه على نفسه شيئًا مُباحًا، وهو العسل، كما ثبت في الصحيح[2]، ثم وجّهت العتاب لبعض أزواج النبي لإفشائهن السرّ حين أسرّ النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى زوجته حفصة، فأخبرت به عائشة، مما أغضب النّبي صلى اللّه عليه وسلم، وهَمَّ بتَطْليق أزواجه، وهدّدَهُن اللّهُ بإبداله أزواجًا خيرًا منهن[3]، وناسب ذكر ذلك تذكير أهل بيت الإيمان باتقاء النار والترهيب من الجزاء، وبالتوبة النصوح، وبجهاد الكفار والمنافقين من غير انشغال بأحوال البيت والأسرة من أزواج وأولاد، ثم ختمت السورة بضرب مثلين عظيمين: أحدهما للكافرين، والثاني للمؤمنين، فالأول:

(١) البقاعي، نظم الدرر، مج. (٢٠)، ص. (١٧٩) بتصرّف

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق: ١٤١٠/ ١٩٩٠، كتاب التفسير، مج. (٤)، ص. (١٨٦٥). وهذا حديث صحيح.

(٣) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١١/١٩٩١، ص. (٤٥٩)؛ السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت: ١٤٢٢/٢٠٠٢، ص. (٢٧٠-٢٧١).

مثـل الزوجة الكافـرة ، امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، عنـد الرجل المؤمن الصالح، والثـاني: مثل الزوجة المؤمنة، امرأة فرعون، عند الرجـل الكافر الفاجر، ومثل المرأة الحرة التقيـة البتول في غير عصمـة، تنبيهًا للناس على وجوب اعتماد الإنسـان على نفسه، وأنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب إذا ساء العمل.

المبحث الأول

مفهومُ التفكُّك الأسري وتأثيرُ العلمانية فيه

المطلب الأول: مفهوم التفكك الأسري

عـرّف أهلُ اللغة التفككَ بالضعف والاضطراب،[1] أما علماء الاجتماع فقد عرَّفوه بعدة تعريفات[2] تَصُبُّ كلها في معنى واحد يُشير إلى انهيار الوحدة الأسرية وانحلالِ العلاقات ما بـين أفراد الأسرة نتيجةَ قطع العلاقات بين الزوجين، والتخلي عن الالتزامات الأسرية، مما يؤدِّي إلى تصدُّع الأسرة وتفكُّكها.

إن مناقشـة موضـوع التفـكك تستوجب أن نقـف على أهم الأسبـاب التي ساهمت في التفكُّك الأسري وتصدُّعِه وانهياره.

المطلب الثاني: تأثير العلمانية في التفكك الأسري :

إن مـن أهم الأسبـاب التي ساعدت على التفكك الأسري تلك الأفـكارَ العلمانيةَ[3] التي

(١) ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب، دار صادر، بيروت:١٤١٤/١٩٩٤، ص.٤٧٥-٤٧٨؛

(٢) الفيروزآبـادي، القاموس المحيـط، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٦/١٩٨٦، صـ. (١٢٢٧)؛ مرتضى الزبيدي، محمـد بـن محمد بن محمد بـن عبد الرزاق ، تـاج العروس مـن جواهر القاموس، التراث العربـي، الكويت: ١٤١٣/١٩٩٣، ص. (٢٩٩-٣٠١).

(٣) بدوي، أحمد زكي، معجم المصطلحات للعلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت: ١٩٨٦، ص. (١١٢).

غزت عقولَ العالَم الإسلامي خلال القرن العشرين،فما هي هذه العلمانية، وما تأثيرُها على الأسرة والمجتمع؟

العلمانيــة لفـظ أطلق منذ القــرن التاسع عشر نتيجة الصــراع الشديد والطويل بين الكنيســة والدولة، وقد شجّعتِ العلمانيةُ على فتــح أبواب الانحراف التي نَلمِسُها الآن ونَجنِي ثمارها.

العلمانيةُ تلك النَبْتَةُ التي أخذتْ بالنموِّ إلى أن أصبحتْ شجرةً باسِقةً ضربتْ جذورَها في المجتمعات.

وحَــرِيٌّ بالذكر أن نقول : أصبحت العلمانية نَمطًا للتفكير وجزءًا أساسيًا من حضارةِ وثقافة الغرب يَلتزِم بها ويدافِعُ عنها، وبذلك يمكن اعتبارها إيديولوجيا.

في ظلِّ هيمنة العلمانية، كإطارٍ للمجتمع، تُصبح العلمانية نظامًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًــا تتفاعل في المجتمع بعيدًا عن تأثــير الدين، حيث لم يَعُد الدين في هذه المجتمعات قائمًا كمصدرٍ للقِيم على مستوى الفرد والأسرة.

ويجــب علينا أن نذكر أنّ العلمانية ليست مجموعة أفكارٍ، ولكنها إطارٌ لعمليةٍ تنشأ من خلالها القِيمُ والأفكار، وتتفَاعَلُ مع بعضها بعيدًا عن تأثير الدِين.

وقــد أدَّى ذلــك التفاعــل إلى تطور أنماط مــن التفكير والسلوك الفــردي والمادي في المجتمعــات الغربيــة، والذي أخذ يتسع تأثيره في ظلِّ ثــورة الاتصالات إلى بقية أنحاء العالَم، بما فيها الدول العربية والإسلامية.

إنّ مــن أهــمِّ ما تولَّدَ عن هيمنة العلمانية بُرُوزَ ما يسمّى بالفردية المطلقة، أي لا يمكن أن يُعِيــق الإنسانَ أيُّ عائقٍ في تحقيق ذاته وحياته، وكيفية تفكيره ومعيشته، حتى إن الدين لا يستطيع أن يُملي عليه كيفَ يفكّر، إذ الفَرد لا يَخضعُ إلا للقانون الوضعي فقط.

وتحقيقُ الذات يعني ألّا يواجِه الإنسانُ أيَّةَ عوائقَ تقف أمامه، أو تَصدُّه عن تنمية ذاته وتحقيقهــا، مُدَعَّمــاً باستقلال الفرد المطلــق، أما الخصوصيةُ المطلقة فتعنــي حقَّ الفرد بأن يُترَك وشأنَه يفكّر بما شاء وكيفما شاء، ويسلك الطريق التي يشاء، دون أيِّ تدخلٍ من أحد .

المطلب الثالث: العلمانية والاضطراب الذي نشرتْه في الفرد والأسرة :

أحدثـتِ العلمانيـة تشويشـاً واضطرابًـا في النظام، سواءً في بنائـه أو نموه أو تفاعله داخلِيًـا وخارجَيًـا، فالنظـامُ يُمكِن أن يكـون ماديًا أو اجتماعيًـا مثلَ نظام الأسـرة، وتُشكِّل الفوضـى عندما تصيب النظام حالةَ انحرافٍ أو حالةً مَرَضِيّة، سواء كان في بنائه أو نموه أو تفاعلِه من أجل أدائه لوظيفته.

إنّ التشويش والاضطراب الذي أحدثتْه العلمانية على مستوى الفرد أرْبَكَ تفكيرَه، ومن ثـمَّ السلـوكَ لديه، وإن ما فعلتْـه العلمانية من اضطـراب في فكرِ وسلوك الفــرد في المجتمع المعاصـر، وخاصةً في المجتمعات غـير الإسلامية، جَعلَ هذا الفردَ يُجيـزُ الزنا واللِواطَ، وإنَّ تَعاظُـم هذا السلـوك كظاهرة جعل المجتمعـاتِ الغربية تقبَلُ بهذه الانحرافـات، ومَثالٌ على ذلك أن القانون الكندي يسمح بالممارسة الجنسية المثلية[1].

المطلب الرابع: أثر الدين في الحفاظ على نظام الأسرة :

قدّم الدينُ مجموعةً واسعةً من نُظُم القيم الأسرية ليَضبط بها تفكيرَ الفرد وسلوكَه، ومجموعـةُ القيم هذه، والتي انبثقت عن القرآن والسنة، جاءت لتفعيل دورِ العقل إلى أقصى درجـة ممكنة، شريطةَ ألّا يتجاوزَ مقاصدَ الشريعة، وبنـاءً عليه فإن على الفرد عندما يفكر أن يوازن ما بيٍن مصلحته ومصلحة أسرته ومجتمعه، ولذا نقول : جاء الدين ليساعد الفرد، وهو يتفاعلُ مع أسرته، على استخدام عقله، وضَبطِ عاطفته وتهذيبها، وجاءت القيمُ لتساعد الفــردَ على اتخاذ قراراته، سواءً في الزواج أو الطـلاق، واستنادًا إلى ذلك وضّحتْ منظومةُ القيم التي جاء بها الدينُ الإسلامي مفهومَ الأسرة كنظام اجتماعي كهدف واضح من خلال القيمَ التي طرَحَها، وذلك من مثل كيفية تفاعل أفراد الأسرة، سواء كان الزوج أو الزوجة أو الأولاد، ولقـد وضّح الدينُ الحقوقَ والواجبات قبل الـزواج وعند الزواج، وكيفيةَ القيام بهذه الحقـوق والواجبات، بناءً على منظومة من قيم الكرامـة والعدل والاحترام والمودة والرحمة والإحسان والصبر وكظم الغيظ والتسامح والعفو.

---

(١) لقـد توسع المسـيري في تعريف العلمانية علـى أنها فصل الدين عـن الدولة. انظر المسـيري، عبد الوهاب، بين العلمنانية الجزئية والعلمانية الشاملة، موقع الدكتور المسيري.

وسأحـاول فيما يلي تَلمُّسَ واستنباطَ بعضِ القيم التي تضمَّنَتْها سورةُ التحريم وأثرَها في الحِفاظ على الأَسرة من خلال عدة مواقف.

إن حادثـة تحـريم رسـولِ الله ﷺ العسـلَ على نفسـه، بمعنى الامتناع منـه إرضاءً لزوجاتـه، جُعلـتْ منطلقًا لبيانِ معالمَ وهدايات تتعلَّق بالأسـرة، فالقرآن الكريم في كثير من المواضِع يذكر جزئيةً أو حادثةً معينةً، ثمَّ ينطلقُ منها إلى تربية الأفراد والجماعات على ضوءِ الحادثة الجزئية.

المبحث الثاني

في معالِجات التفكك الأسري

أولا: العتابُ برفق وأثرُه في معالجة التفكك الأسري:

يأتـي العتـابُ مـن الله تعـالى لرسولـه رقيقا لطيفًا، وقـد تكرر عتـابُ الله له فجاء عتابُـه بشأن حادثة عبد الله بن أم مكتوم، وعتابُه في شأن أخذ الفداء من أسرى بدرٍ بصيغة الغائـب شفقة ورحمةً، وفي بدايـة السورة نجد العتابَ يبدأ بالنـداء بوصف النبوة، وفيه من التشريـف للنبـي ما هو جليٌّ واضح، وأن الكلام بعده لا يؤثّر علـى مَقامه، ثم يأتي العتابُ في صيغـة سؤال وتلطـف [لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ][1] ،ثم ذكر السبب الدافع للتحريم [تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ][2]، وهذا السبب ليس فيه مصلحة عامة ولا خاصة، لأنه مَبنيٌّ على الغيرة بـين الزوجـات، ولا اعتبارَ لها في التشريع، ومما خفّف العتابَ هنـا تذييلُ الآية بذكر المغفرة والرحمة.

ثانيا: حفظُ السرِّ وقيمتُه وأثرُه في الأسرة:

السِّرُّ بالكسر والتشديد لغةً يطلق على أمر خفيٍّ ضدِّ العلانية[3]، واصطلاحًا ما يُسِرُّه المرءُ في نفسه من الأمور التي عَزَم عليها[4].

أَسَرَّ النبيُّ ﷺ لإحدى زوجاته (حفصة/عائشة) أنّه حرّم العسلَ على نفسه، أو حرّم ماريةَ[5]، والحادثة معروفة في كتب السير وأسبابِ النزول.

---

(١) تعديل القانون الكندي عام ١٩٧٢ لتصبح الممارسة الجنسية المثلية مسموح بها قانونيّا.

(٢) التحريم، ٦٦/١.

(٣) التحريم، ٦٦/١.

(٤) التهانوي، محمد علي بن علي بن محمد، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، دار الكتب العلمية،

(٥) بـيروت:١٤١٨/١٩٩٨، مـج. (٢)، ص. (٣٥١)، لقد توسع التهانوي مفهوم السـر وأنواعه في العلوم الإسلامية. أبـو البقاء، أيـوب بن موسى الحسيني الكفـوي، الكليات، مؤسســة الرسالة، بـيروت: ١٤١٣/١٩٩٣.مج. (١)، ص. (٥١٤).

أخبرتْ زوجة الرسول ﷺ غيرَها من النساء بما كان من سرِّ رسول الله، ولكن الله تعـالى أخبر نبيَّه بمـا كان من أمر زوجته، وأطلعه على ما حدث منهـا من إذاعة السرِّ، فلما تقابلا وأخبرَها بما كان منها من إفشاء السرِّ قالت: من أخبرك به؟ قال: أخبرني ربّي الذي لا تخفى عليه خافية.

ومـن سيـاق الآيـات نجـدُ أنّ الله تعـالى يأمرُ حفصـة وعائشة بالتوبة مـع العتاب، وأمرَهُمـا بكتمان السـرِّ ومحبةِ ما أحبَّه رسـولُ الله وكُرْهِ ما كَرِهَهُ، فـإنْ فعلتُما واستجبتما قُبلتْ توبتُكما من الذنب وكان خيرًا لكما، أما إن تعاونتُما على ما يؤذي رسولَ الله ﷺ بسبب الغيرة والرغبة في إفشاء سرّه، فإن الله يتولّى نصرَهُ بكلّ أسباب النصر.

إنَّ قوامَ الحياة الزوجية يقوم على الثقة المتبادَلة بين الزوجين، ومما يُقوِّي هذه الثقةَ ويوطِّـدُ أركانَها كتمـانُ أحدهما لسرّ الآخَر، وعدمُ إفشائه، وعند وقـوع ما يخْدشها فالعتابُ الرقيـق، والمحاسَبـةُ الجزئيَة على بعضِ المآخذ كفيلٌ بإعـادة المياه إلى مجارِيهـا، ويتجنَّبُ الاستقصاءَ والإلحافَ في المُساءلة والمُعاقَبة (فما استقصى كريم قط)[1].

والطلاقُ شديد الوقع على نفوس أهل البيت جميعًا، ولكن الطرف الأكبرَ ضرراً وتأثُّرًا هــي المرأة، فهي ترى في الطلاق هدمًا لعُشِّ الزَوْجيــة، وتدميرًا لمملكتها وعرشها الذي تتربَّعُ عليــه، وقطعًا لوَشائــج المودة، ومما يضاعف تأثّرَهــا وانزعاجَها إذا علمَــتْ أن امرأة أخرى ستحلُّ محلّها، وتكون خَلفًا لها وأقربَ إلى قلب زوجها.

لقــد كـرَّمَ اللهُ أمهُّـاتِ المؤمنـين باستخدام ألطَـف العبارات وأخفِّها عنـد تهديدهنَّ بالطـلاق والاستبـدال، حيثَ جـاء التعبيرُ [عَسَى رَبُّـهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ][2]، ودلالـةُ "عسى" تفيدُ الترجي في المحبوب[3] أوَّلًا ، ثم علّق هذا الترجي بشرط "إن طلقكنَّ"، واستخدمَ في الشرط حرف "إن"، وهو يفيد التشكيكَ، بخلاف "إذا" التي تفيد تحقيقَ الوقوع.

وخـيرُ الأزواج مَـن توفَّـرتْ فيهنَّ الصفـاتُ المذكـورة في الآية التي تشـير إلى الصفات

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، مج. (٥)، ص. (٣٢٩-٣٣٠).

(٢) مصطفـى مسلم، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلية الدارسات العليا والحث العلمي، ١٤٣١/٢٠١٠، مج. (١٥)،ص. (٢٤٩).

(٣) التحريم، ٦٦/٥.

المطلوبـة في الزوجة: [المُسْلِمَـات المُؤْمِنَات القَانِتَـات التَائِبَات العَابِـدَات السَائِحَات الثَيِّبَات وَالأَبْـكَارا][١]. فعندما هُدِّدَتْ أمهاتُ المؤمنين بالاستبـدال بأُخريات غيرهنَّ خَير منهنّ جاء تفصيـلٌ تلك الخيريـة في الصفات السبـع، وكلُّها صفات تدلُّ على المستـوى الإيمانيِّ الرفيع والأخـلاقِ النَبيلَـة، وإيثـارِ الآخرة علـى العاجِلَـةِ و وكأنّها تفصيـلٌ لِما رَغَّبَ فيـه رسولُ اللّه ﷺ: (فاظفَرْ بذات الدِّين تربتْ يداك)[٢].

ثالثًا: أثرُ الحوار في نزع الخلاف بين أفراد الأسرة :

ظهـر الحـوارُ في السـورة من خلال محـاورة النبـي ﷺ لزوجته التي أفشـتْ سرّهُ، والحـوارُ طريقٌ لإيصال الفكرة وتبليـغ الدعوة إلى الحق، وهو السبيلُ لإقناع الآخرين بوجهة النظـر التي يراها، ولذا كان النبي ﷺ قبل أن يَغـزُو قومًا يطلب منهم الإسلامَ، ويُبيِّنُه لهم بمـا يزيل الشبهات. والقـرآنُ الكريم استعمل الحوار كثيرًا، فلا يخلـو نبيٌّ من محاورة قومِه وإقناعِهـم بالهَـدي الذي جاء به. والحوار بـين أفراد الأسرة يشيع جوًّا مـن المودة والتآخي، إذ الهـدفُ منه ليس إلغاءَ الطـرفِ الآخر، إنما يقوم بإضاءة نقطة مُظلمـةٍ، وتوضيحِ قضيّةٍ غامضةٍ لا يراها المحاوِرُ الآخَرُ على الوجه الصحيح.

والتربيـةُ بالحوار تساعـدُ على إيقاظ العواطف والانفعالات، ممـا يساعد على تربية أفرادِ الأسرة وتوجيهِهِم نَحوَ المثل الأعلى، كما تساعد على تأصيل الفكرة في النفس وتعميقِها.

والحوارُ وسيلة إلى فهم رؤية الآخر وإشاعة ثقافة الإعذار، مما يُزيل الظنونَ الخاطئة، ويزيدُ المرءَ عقلًا وفهمًا لسنن الحياة، ويضيِّق مساحةَ الخلاف وسوءَ التقدير، ويُذيب البرودَ الذي قد يُلقِي بثقله على العلاقات، والتجافي الذي هو أوَّل خُطوةٍ للتدابر وسوءِ الظنّ.

رابعًا: التوبة إلى اللّه وأهميتُها في تجنُّب التفكك الأسري :

التوبـةُ لغـةً الخلوصُ من الغشِّ والشوائب الغريبـة[٣]، وللسلف لفتاتٌ لطيفة في بيان معنـى التوبـة النَّصوح ، وأنها: أن يتوب العبدُ من الذنب، ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبدُ نادمًا على ما مضى، مُجمِعًا على ألاّ يعود

---

(١) ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد الله بن يوسف جماال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المكتبة

(٢) العصرية، بيروت: ١٤١١/١٩٩١، مج. (١)، ص. (١٧٢).

(٣) التحريم، ٦٦/٥.

فيــه، وقال الكلبي: أن يستغفر باللســان، ويندم بالقلب، ويُمسك بالبَدن[1]، وقال النبي: (إن الله عــز وجل يبسط يــده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[2].

وقــد أمــر الله تعالى عبــادَه المؤمنين بالتوبة، وحثَّهم عليها، وبــينَّ لهم ثمرات القيام بهــا. وتاركُ التوبة قانطٌ من رحمــة الله، فمَهما عظُمت الذنوب، فإن رحمة الله تعالى أوسعُ، ومــن الآثار التربوية للتوبة إشراقُ أنوار التوبة على التائب، فتُثمرُ الهدايةُ، وإصلاحُ السلوك، واطمئنــانُ الروح، ويَجْنِي التائب من توبته فوائدَ عظيمــةً متنوِّعة تعودُ على القلب بالسكينة، وعلــى النفس بالطمأنينــة، وعلى الجوارح بالطاعة، ومما لا شكَّ فيــه أن التائبَ الصادقَ في توبتــه يستبدل عملَه الخاطئَ بعمل وسلوك أفضلَ، فتصبِــحُ شخصيتُه متزنةً، وعملُه صالحًا ونافعًا بإذن الله، وفي الآخرة يبدِّل الله سيِّئاتِه حسنات.

وفيما يلي نوضّح أهميةَ التوبة :

١. علــى الآباء تعريفُ أبنائهــم بالتوبة النصوح وشروطِهــا، وإيقافُهم على سَعةِ رحمة الله وعفوه
٢. ينبغي للآباء أن يقوموا بتوجيه أبنائهم إلى باب التوبة المفتوح عندما يرتكبون خطأً مــا، وأنّهم مهما ابتعدوا فإنّهــم لا يستطيعون أن يعــودوا إلا بالتوبة النصوح، وهذا يفتح بابَ الأمل أمام التائب.
٣. تذكــيرُ أبناء الأسرة أن التوبة والاستغفارَ يجلبان الرزقَ والبركة والتوفيق في الدنيا والآخرة
٤. اكتسابُ صفة العفو والرحمة بين أفراد الأسرة الواحدة.
٥. فتــحُ بابِ الأمل للمخطئ، وعدمُ تيئيسه وتقنيطِه، وأنّه بإمكانه أن يجعل من الخطأ صوابًا، ومن الفشل نجاحًا.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب النكاح، الرقم: ٥٠٩٠، مج. (٥)، ص. (١٩٥٨)؛ أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي، ســنن أبي داود، مؤسسة الريان، بـيروت: ١٤١٩/١٩٩٨، الرقم: ٢٠٤٠، مج. (٣)، ص. (٦)؛ الترمذي، أبــو عيســى محمد بن عيسى، سنن الترمــذي، دار الغرب الإسلامي، بـيروت: ١٤١٧/١٩٩٦، الرقم: ١٠٨٦ مج. (٢)، ص. (٣٨٢). وهذا حديث صحيح.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مج. (١)، ص. (٢٣٣)؛ الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص.(٧٨).

خامسًا: مسؤوليةُ الحفاظ على الأسرة من التفكك :

بعـد التهديـد والوعيـد لزوجتي الرسول ﷺ يأتي السياق القـرآنيُّ: ((إن لم تتوبا)) ، أي عمـا وقـع منكما، فيأتي هذا المقطعُ للدلالة على طـرق الوقاية من الوقوع في غضب الله وعذابـه، وهو أسلوبٌ قرآني كثـير الورود والدوران، ينطلق من حادثة معيّنةٍ ليعمَّ ويشملَ الإنسانية كلَّها، فمن حادثة المتظاهرتين إلى مخاطبة الكافرين والناس عامة.

شبّه الرسول ﷺ المسؤولين عن غيرهم بالرعاة، كما في الحديث: (كلكم راعٍ وكلُّكم مسـؤول عن رعيته، والإمام راعٍ مسؤولٌ عـن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...)[1]، وهو تشبيه في غاية الدقة والجمال.

فالرَّاعي يجنّب أغنامَه كُلَّ ما يَضرُّها من حيوانٍ مُفترس أو غيره من الأماكن الموْبُوءَة أو المجدِبَـة، ورَبُّ الأسـرة يُجنِّب أهلَ بيته مصـارعَ السوءِ والمفاسدَ الخُلُقيـةَ ومزالقَ الهوى، والمسلم يعطي من نفسه القُدوَةَ والمثلَ الأعلى لأهل بيته في حسن الخُلُق، والوقوف عند حدود الله، ومحاسبـةِ النفس، والمبـادرة إلى فعل الطاعـات، واجتنابِ المعاصـي، ويكونُ في حاجة الصغير مع الإشفاق عليه، كما يكون في خدمة الكبير مع التوقير والاحترام له.

وعلـى المسـؤول (الأب) أن يراعي الأزواجَ في التوجيـه والتربية، وذلك من خلال الآيات الكثـيرة التي تدعو لذلـك، قال تعالى: ﴿وعاشروهـنَّ بالمعروف فـإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[2].

ويأتـي الأولادُ في المرتبـة الثانيـة، ولمّا كانـت الشفقةُ والرحمة تغلبُ علـى حال الوالدين جـاء التحذيرُ في أكثرَ من آيـةٍ من التمادي في تغليب العاطفة على الحكم الشرعيِّ، والتوجيهُ السديـد في حقهم، قـال الله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٢٤/٢٠٠٣، مج. (٢٣)، ص. (١٠٨-١٠٩)؛ ابن الجوزي، جمال الدين بن عبد الرحمن، زاد المسير في علم التفسير، المكتـب الإسلامـي، بيروت: ١٤٠٧، مـج. (٨)، ص. (٣١٣-٣١٤)؛ ابـن قيِّم الجوزية، بدائـع التفسير، دار ابن الجوزي، الرياض: ١٤١٤/١٩٩٣، مج. (٤)، ص. (٤٨٦).
ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٣ هـ ، مج. (١)، ص. (٣٠٩).

(٢) مسلم، أبو الحسن بن الحجاج، صحيح مسلم، دار طيبة، الرياض: ١٤٢٦/٢٠٠٦، كتاب التوبة، الرقم: ٢٧٥٩، مج. (٢)، ص. (١٢٦٥). وهذا حديث صحيح.

فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم][1].

وعلــى الأب أن يراعي التــوازنَ بين العملِ والعبادة، والتفرُّغَ للأهــل، فيُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. إن أهل البيت بحاجة للغذاء البدني والملَابس للستر والزينةِ وإشباع الجانب العاطفي، وإلى تلبيــة حاجــة الستر والعَفاف، عن عبد الله بن عمرو بــن العاص رضي الله عنهما، قال له رسول الله ﷺ: ﴿ بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل فلا تفعل فإن لجسدك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا ﴾.[2]

إنَّ مسؤوليــة المؤمــن عظيمــةٌ تجــاهَ أهــلِ بيتــه، فهــو مسؤول عــن وقايتهــم جميعًا من اقتحــام حُفرة النار، وهو مسؤول عن عباداتهم وأدائهــا على الوجه الصحيح، وعن سلوكهم واستقامتهم على نهجٍ قويم، وعن أخلاقهم وحسنِ تعاملهم مع الآخَرين.

إن أفراد الأسرة أمانةٌ في عنق الأب، وأيُّ إخلالٍ في المسؤولية والرِّعاية تَعْقُبُها محاسبةٌ وجزاء [يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون][3].

فعلى المسؤول أن يحرص على مصلحة أفراد أسرته الدنيوية والأُخْرَوية، ولا يكفيه صلاحُ نفســه ووقايتُها من النار، وربما كان بعضُ أفرادَ الأسرة سببًا في دخوله النّار، لعدم رعايتهم كمَـا أمر الله تعالى، فعلــى الآباء تعريفُ أبنائهمَ بالتوبة النصــوح وشروطها، وتعليمُهم سَعةَ رحمــة الله وعفــوه، وينبغي أن يقوموا بتوجيــه أبنائهم إلى باب التوبة المفتــوح عندما يُرتكبُ خطأً مَا، وأنّه مهمَا ابتعد فإنّه لا يستطيع أن يعود ويدخل إلا بالتوبة النصوح، وهذا يفتح بابَ الأمل أمام التائب.

وإنّ عــدم التيئيــس مــن رحمة الله يفتــح باب التوبة للعائدِيــن إلى الله تعالى مهما عظُمت الذنوبُ. وإنَّ رحمة الله تعالى واسعة فلا ييأسّ مذنبٌ من رحَمة ربه متى صدقَ التوجُّهَ إلى ربه وحده.

ومــن ثمرات التوبة والاستغفار أنهما يجلبان الرزقَ والبركة والتوفيق في الدنيا والآخرة، ويُكسبان صفةَ العفوِ والرحمة بين أفراد الأسرة الواحدة، ويفتحان بابَ الأمل للمخطئ، وأنّه

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، الرقم: ١٨٢٩، مج. (٢)، ص. (٨٨٦-٨٨٧). وهذا حديث صحيح.

(٢) النساء، ٤/١٩.

(٣) التغابن: ٦٤/١٤.

بإمكانه أن يجعل من الخطأ صوابًا، ومن الفشل نجاحًا ، فعليه ألا ييأس ، وألا يقنط .

سادسًا: ضربُ الأمثالِ وأثرُها في معالجة التفكك الأسري :

ضــرب الله تعــالى مَثلَين للكفــار والمؤمنين مُؤَداهما أن مَن كفــر لا يُغني عنه من الله تعــالى شــيء، ولا ينفعه ملجأ أو مُعتَصَمٌ، وأنّ مَن آمــن لا يدفعه دافعٌ عن رضوان الله تعالى، ولــو كان في أســوأ مَنْبِتٍ وأخَسِّ حالٍ، فقرابةُ أبي لهب لرسول الله لا تنفعه يوم القيامة، وحبُّ الرســول لأبــي طالبٍ لا يفيده طالما أنّه لم يؤمن بالله، وممّــا تعرّضت له الآيات الكريمات أن امــرأة لوط وامرأة نوح اللتــين كانتا في بيت النبوة ولكنهما خانتــا زوجيهما بالكفر، لم تدفع عنهمــا رابطةُ الزواج شيئًا مــن عذاب الله، وضربُ الأمثال في الســورة دليلٌ على تأثير وقعه في الفــرد والمجتمع، وما يمكن أن يــؤدي إليه هذا الأسلوب من فوائدَ تربوية عظيمة، وفي هذا الأسلــوب إبرازٌ للنمــاذج السلبية، وتحذيرٌ من اقتفاء سبيل أصحابهــا واتباعِ خطواتهم، وفي هــذا تلميحٌ لزوجتــي الرسول ﷺ حفصة وعائشــة، وتنبيه لهما بأن زوجــة نوح وزوجة لوط لم ينفعهمــا قربُهمــا من نبي الله ، لأنهمــا سارتا بخلاف طريقة نبيّ الله نــوحٍ ولوط عليهما السلام.

وضربُ الأمثال سبيــلٌ للإقناع والتأثير بتصوير الحَقِّ بصورته الناصعة والترغيبِ فيه، وذكــرِ الباطلِ بصورته القبيحة والتنفيرِ منه وتَعْرِيَته وكَشــفِ حقيقَته، والإقناعُ بالأمثال نالَ نصيبًــا كبيرًا ومكانًــا عاليًا في القرآن الكــريم، لذلك فإن حكاية القصة مــع ضرب الأمثال يجعلُهــا بعيدةَ الأثر صعبةَ النسيان، تتمكّن من المشاعر وتأســرُ الأحاسيس، فيبقى أثرُها في نفــس الإنسان، فالقرآن يستخدم القصةَ لجميع أنواع التربية والتوجيه، تربيةِ الروح، وتربيةِ العقل، وتربيةِ الجسم، فهي سِجِلٌّ حافلٌ لجميع التوجيهات.

ومــن ثــم ينتقل القــرآن ليضرب لنا المثــل الثاني في هذا السيــاق لامرأتين، الأنموذجُ الأول امرأةُ فرعونَ التي تُجَسّد في شخصيتها الإيمانَ والتصديقَ إضافةً إلى الثبات والشموخ والتعالي على ملذات الدنيا ومُتْعَتها، راكلةً كلَّ ذلك برجلها مضحيةً في سبيل عقيدتها لتَظفر بمــا عند الله [ربِّ ابْــنِ لي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَــوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ][(١)]

والأنموذجُ الآخَر الذي ضُرب به المثل هو أنموذجُ مريمَ ابنةِ عمرانَ عليها السلام، إنها تمثِّلُ الفتاةَ الصالحة الطيبة المنشأ في كَنف نبي الله، زوج خالتها، زكريا عليه السلام، حيث قام بكفالتها ورعاية شؤونها، وإنها مثالُ النُّبْل والطهرِ والعَفاف والتقوى منذ نعومةِ أظفارها، فكان تكريمُ الله تعالى أن يجعلها وابنَها آيةً للناس.

إنَّ أكثر مزالقِ المرأة بالمال والزينة والجاه والتَّباهي بالمكانة الاجتماعية، أو تكون بشهوة الفرج والانسياق وراء الغريزة البهيمية في الحبس، والأنموذجان الصالحان يمثلان المترفعات عن هذين المنزلقين، فاستحقا التكريم وخلودَ الذكرِ، والثناءَ إلى يوم الدين.

فالمناسبة بين الآيات ومحورِ السورة واضحةٌ، حيثُ التربية بضرب المثل بالنماذج المنحرفَة لاجتناب التشبه بها، وضرَبَ مثلا بالنماذج الصالحة للاقتداء بها.

(١) التحريم ٦٦/١١.

المبحث الثالث

التطبيقات التربوية المستنبطة والنتائج المُستخلصَة من السورة

المطلب الأول: التطبيقات التربوية المستنبطة من السورة

أ- تطبيــقُ مبدأ تشريفِ النبــي ﷺ بالنبوة والرسالة، وغرْسُ حبِّ الرسول الكريم ﷺ في نفس الطفل، له تأثيرٌ في سلوكه وأفعاله، وتوضيحُ أن مَن أحبّ الرسول كان معه في الجنة.

ب- تفعيــلُ أسلــوبِ التفكير والتأمــل في ترسيخ الإيمان بالملائكة ويــوم الآخر، وأن الله عــز وجــل الذي خلقنا من العدم قادرٌ علــى بعثنا بعد الموت، وأنه لابــد أن ينال المحسنُ ثمرةَ إحسانهِ، والمسيءُ عاقبةَ إساءته.

ج- التذكــيرُ بأن أفرادَ الأســرة المؤمنة التي ترجو رحمةَ الله، وتخاف من عقابه، وتؤمن باليــوم الآخر حقَّ الإيمان، يجمع الله بينهم في الآخــرة كما جمعهم في الدنيا، فإن ذلك مما يزيد في ترابط الأسرة الواحدة وتعاونِها على البرّ والتقوى.

د- علــى الأزواج مراعاةُ الزوجــات في القيام بمسؤولياتهنّ، فالزوجــةُ تَعتَريها المشاكلُ والاهتمامات المتنوِّعة، فقد تنشغل لتربية أبنائها والقيام بأعباء المنزل عن شيء من متطلبات الزوج، فعلى الأزواج مراعاة ذلك مادامت قائمةً برعاية حقوق الله في نفسها وفي أهل بيتها.

المطلب الثاني: النتائج المستخلصة من السورة

١. بيتُ الرسول ﷺ أصابتْه بعضُ الأحداث، ووجودُ مثل هذه الأحداث في الأسرة أمرٌ طبيعي.

٢. معرفةُ الله حقّ المعرفة والإيمانُ بالملائكة وباليوم الآخر أوّلُ رَكيزةٍ من ركائز سعادة الفرد والأسرة في الدنيا والآخرة.

٣. اهتمَّ الإسلامُ ببناء الأسرة المسلمة، ووضّحَ الصفاتِ التي تكونُ في الزوجة لتأسيس

الأســرة، وألقى المسؤوليةَ على ربّ الأسرة في المحافظة على أسرته والنجاة بها يوم القيامة.

٤. حثَّ الإسلام على التوبة والرجوع عن الخطأ، وبيّن أنَّ باب التوبة مفتوحٌ، وأنها سببٌ في كثير من الخيرات والبركات.

٥. حفظُ الأســرار وعدمُ إفشائها يزيد الألفة والمحبة، ويدفـعُ الإشكالات والخلافات، ويَحِدُّ من خطورتها.

٦. تؤكِّـدُ الآياتُ أن أسلوب الحوار من أهــم الأساليب التربوية وأنجحها، وأن الإسلام ليس دينَ كَبْتٍ ولا إقصاءٍ للآخَر.

٧. التأكيدُ على تقريب الفكرة للمخاطب ومخاطبته بما يؤثّر فيه ويجعلُه أكثر استجابةً، كما هو في أسلوب ضرب الأمثال.

٨. إن تطبيــق المضامين التربويةِ المستنبطةِ من السورة في واقع الأسرة المعاصرة يؤدّي إلى نجاح الآباء والأمهات في تربية أسَرِهم.

الخاتمة

أ- لم تحـظَ مؤسسـةٌ اجتماعية في المجتمع الإسلامي بما حظِيتْ بـه الأسرةُ في القرآن الكـريم، ولا غرابـةَ في ذلك، فهـي اللَّبِنَةُ الأولى التـي يتكوّنُ منها صـرْح المجتمع الإسلامي، فمنهـا يستمـدُّ المجتمع قوتَه ونقـاءَهُ وصلابتَه، ولا غرابةَ أن نرى آياتِ القـرآن الكريم تُسايرُ تكويـنَ الأسرة من يوم الاختيـار والخُطبة إلى توثيق عُرَى النـكاحِ وبيانِ حقوق الزوجين، ثم التعرُّض للعلاقة بينهما وبين أولادهما.

ب- لقـد وَضَع القرآن الحلـولَ المناسبةَ للمشكلات التي تنشأ بـين أفراد الأسرة إلى أن تنتهـي العلاقةُ الزوجية طلاقًا أو وفاةً، كما حرص علـى إعطاء كل ذي حقٍّ حقّه من الميراث أو من غيره.

ج- لقـد عرضـتِ السورة أحداثًـا وثيقةَ الصِّلة بالأسـرة، بل أحداثًا تتعلّـقُ بأطهر بيت وأشرفه، بيتٍ هو مصدر تشريع الأمة، لتأخذ الأمةُ العظاتِ والدروسَ مما كان يَجري لرسولِ الله مـع زوجاتـه أمهات المؤمنين، وما كُنَّ يُؤمَرْنَ به مـن توجيهات تُجاه رسول الله ﷺ، وهو قـدوة الأزواج، والتوجه إلى التوبة إن وقع منهن ما يدعو إلى التوبة والاستغفار، والتلويح لهنَّ أنَّ قربهنَّ لرسول الله ﷺ لا يشفع لهنّ إن خالفْنَ هديَه وتشريعَهُ.

د- ومـن تلك الأحـداث الجزئيةِ يكونُ التوجيهُ العامُّ للمؤمنـين، وبيانُ مسؤوليتهم عمن استرعاهـم من الأهْلِين، وذكرُ ما ينتظرهم من العقوبة في حال التقصير، وما ينتظرهم من تكـريم في حال قيامهم بمسؤولياتهم، ثم بيانُ سنة الله تعالى في المسؤولية الفردية، فلا ينفع القـربُ من الصالحـين ما لم تخالِط القلوبَ بشاشَةُ الإيمـان، ولا يضرّ القربُ من المفسدين مادام القلبُ عامِرًا بحبِّ الله ورسوله.

هـ- لقـد عشنا مـع السورة وأساليبها التربوية التي جمعت بـين التصريح والتلميح، وبين الوعد والوعيد، والخوف والرجاء.وكلُّ ذلك كان الهدف منه الأسرةَ الإسلامية وشؤونها.

وأخيراً يوصي الباحث بما يلي:

أولاً: يلتمســ ناصحاً وزارة التربيــة والتعليم أن تقرِّر تدريسَ هذه السورة وما تُرشدُ اليه في المدارس الثانوية والمعاهد مع سورة الطلاق.

ثانياً: ينصح الباحث كل أب وأمّ أن يجعل لأهل بيته ساعة يتحدثون فيها عما ارتكبوه من أخطــاء خلال يومهــم، ليتعودوا الشجاعة والاعتراف وليكــون الأب والأم أوّل المبادرين، ومن هنا تحيا سنة الحوار الصريح التي جاءت في هذه السورة.

ثالثــا: إن تحديــد ساعة في الأسبــوع لأفراد الأسرة لإجراء حوار عمــا يمكن أن يعترض الأســرة مــن مشاكل يعين على تقويــة الشخصية وتقبلها لآراء الآخريــن، كما يعين على خلق حلول للمشاكل المحتملة.

رابعــاً: الأمانة حمــل ثقيل على الإنسان فيجــب أن يعود نفسه على حملهــا وحفظُ السر أمانــة يجب االتكتم عليه ويستطيع الأب أو الأم أثناء الحوار أن يُثْرِيَ حديثه بالأمثلة الواقعية من خلال مشاكل البيت والمدرسة تدريب أفراد البيت على ذلك.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابــن هشــام، أبو محمد عبد الملــك بن هشام (ت. ٢١٣/٨٢٨)، السـيرة النبوية، دار الحديث، القاهرة: ١٤١٩/١٩٩٠.

٢. البخــاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيــل (ت. ٢٥٦/٨٧٠)، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق: ١٤١٠/١٩٩٠.

٣. مسلــم، أبو الحسن بن الحجاج (ت. ٢٦١/٨٧٥)، صحيح مسلم، دار طيبة، الرياض: ١٤٢٦/٢٠٠٦.

٤. أبــو داود، سليمــان بــن الأشعــث الأزدي (ت. ٢٧٥/٨٨٩)، ســنن أبــي داود، مؤسسة الريان، بيروت: ١٤١٩/١٩٩٨.

٥. الترمــذي، أبو عيسى محمد بن عيســى (ت. ٢٧٩/٨٩٢)، سنن الترمذي، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٤١٧/١٩٩٦.

٦. الواحــدي، أبو الحسن علي بن أحمــد (ت. ٤٦٨/١٠٧٥)، أسباب نــزول القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١١/١٩٩١.

٧. الزمخشــري، أبو القاسم محمود بن عمر جــار الله (ت. ٥٣٨/١١٤٣)، الكشاف عن حقائــق غوامض التنزيل وعيــون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبــة العبكان، الرياض: ١٤١٨/١٩٩٨.

٨. ابــن عطيــة، أبو محمد عبد الحــق بن غالــب (ت. ٥٤٢/١١٤٨)، المحــرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٣/١٩٩٣.

٩. ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن (ت. ٥٩٧/١٢٠١)، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت:١٤٠٧/١٩٨٧.

١٠. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت. ٦٧١/١٢٧٣) الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٧/٢٠٠٦.

١١. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت. ٧١١/١٣١١)، لسان العرب، دار صادر، بيروت: ١٤١٤/١٩٩٤.

١٢. الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم (ت. ٧٤١/١٣٤١) ، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٥/١٩٩٥.

١٣. ابـن قيِّم الجوزيـة، محمد بن أبي بكـر (ت. ٧٥١/١٣٥٠)، بدائـع التفسير، دار ابن الجوزي، الرياض: ١٤١٤/١٩٩٣.

١٤. ________________، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٣ هـ.

١٥. ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد الله بن يوسف جمال الدين(ت. ٧٦١/١٣٦٠)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المكتب العصرية، بيروت: ١٤١١/١٩٩١.

١٦. الفيروزآبـادي محمد بـن يعقوب (ت.٨١٧/١٤١٥)، بصائـر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، وزارة الأوقاف، القاهرة: ١٤١٦/١٩٩٦.

١٧. ________________ القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٦/١٩٨٦.

١٨. البقاعي، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن (ت. ٨٨٥/١٤٨٠)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد: ١٤٠٣/١٩٨٣.

١٩. السيوطـي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الديـن (ت. ٩١١/١٥٠٥)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت: ١٤٠٣/١٩٨٣.

٢٠. ________________، لبـاب النقـول في أسبـاب النـزول، مؤسسـة الكتـب الثقافية، بيروت: ١٤٢٢/٢٠٠٢.

٢١. أبو البقاء، أيوب بن موسـى الحسيني الكفوي (ت. ١٠٩٤/١٦٨٣)، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٣/١٩٩٣.

٢٢. التهانــوي، محمد علي بن علــي بن محمــد (ت. ١١٥٨/١٧٤٥)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، دار الكتب العلمية، بيروت:١٤١٨/١٩٩٨.

٢٣. مرتضــى الزبيدي، محمد بن محمد بن محمد بن عبــد الرزاق (ت. ١٢٠٥/١٧٩٠)، تاج العروس من جواهر القاموس، التراث العربي، الكويت: ١٤١٣/١٩٩٣.

٢٤. الألوســي، أبو الثناء شهاب الديــن (ت. ١٢٧٠/١٨٥٤)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت: ١٤١٧/١٩٩٧.

٢٥. ابــن عاشور، محمد الطاهــر (ت.١٣٩٣/١٩٧٣)، التحرير والتنويــر، الدار التونسية للنشر، تونس: ١٤٠٥/١٩٨٤، مج. (١٣)، (ص. ٣٤٣).

٢٦. الدســوري ، منــيرة محمد ناصــر، أسماء سور القــرآن وفضائلهــا، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٩/٢٠٠٨.

٢٧. مصطفــى مسلــم، التفسير الموضوعــي لسور القــرآن الكريم، كليــة الدارسات العليا والبحث العلمي، ٢٠١٠/١٤٣١.

٢٨. بــدوي، أحمد زكــي، معجم المصطلحات للعلــوم الاجتماعية، مكتبــة لبنان، بيروت: ١٩٨٦.

٢٩. المســيري، عبــد الوهاب، بــين العلمانية الجزئيــة والعلمانية الشاملــة، موقع الدكتور المسيري.

أ.د عبد الفتاح محمد خضر

توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة بجامعة الملك خالد بأبها

المحور الثالث: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية

مشكلة النشوز وكيف عالجها القرآن
دراسة تحلل ظاهرة النشوز الزوجي اجتماعياً
وتصف علاجها قرآنيا

أ.د عبد الفتاح محمد خضر

أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر

عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه ﴿ تبيان ﴾

Khedr299@hotmail.com

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين....... أما بعد

انتشر النشوز كمقدمة لطلاق أو خلع ـ غالبا ـ في المجتمع انتشار النار في الهشيم، فمن البيوت من قضى نحبه ومنها ما ينتظر، وبلغة الإحصان ـ وزماننا هذا هو زمن الإحصاء ـ نجد الهول كله:

ففي السعودية : وفقاً لإحصائيات وزارة العدل في المملكة لعام ٢٠١٥، ٧,٨ حالات طلاق تحدث في السعودية كل ساعة، أي نحو ١٨٨ حالة يومياً. هذه النسبة لم تختلف عن إحصائيات ٢٠١٤، التي سجلت ٤ حالات طلاق كل نصف ساعة، عدا حالات الخلع، وقضايا الانفصال أمام المحاكم،

وفي مصر: باتت ظاهرة الطلاق في تزايد مستمر. وأظهرت الأمم المتحدة في إحصائية لها، أن حالات الطلاق في مصر وصلت إلى ٢٠ حالة في الساعة الواحدة، ما يعادل ١٧٠ ألف حالة سنوياً، ووفقاً لجهاز التعبئة والإحصاء، سجلت مصر حالة طلاق كل ٦ دقائق خلال عام ٢٠١٣، أي ٢٤٠ حالة طلاق يومياً. ووفقاً لمركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار التابع لرئاسة الوزراء، وصل عدد المطلقات عام ٢٠١٤ إلى مليونين ونصف المليون رغم النظرة المجتمعية السيئة للمطلقة في العالم العربي، ومصر خصوصاً، وغالبية حالات الطلاق تحدث في العام الأول، بسبب رفض الزوجة تقبل طباع زوجها وأخلاقياته، ورفضها لطريقة تعامله السيئة معها. لافتةً إلى أن في مصر اليوم نسبة كبيرة من حالات الطلاق التي تحدث بعد أشهر من الزواج.

وفي تونس: بالرغم أن تونس تسجل ١٠٠٠ حالة طلاق شهرياً، وفقاً لمركز الإحصاء الوطني التونسي، أي نحو ٤ حالات كل ٣ ساعات، فإن هذا الرقم يعد كبيراً هناك، نظراً لأن المجتمع التونسي لم يتجاوز ١٢ مليون نسمة، ويظهر في تونس سبب جديد للطلاق، بعد أن تحدث خبير معتمد لدى المحاكم التونسية في الصحة الجنسية والعلاقات الأسرية عن أن ٤٠٪ من حالات الطلاق تعود لأسباب جنسية

وفي الإمارات: مع أواخر ٢٠١٥ وبداية ٢٠١٦، باتت محاكم دبي تسجل يومياً ٤ حالات طلاق، ما يشير إلى ارتفاع ملحوظ في نسب الطلاق التي سجلت من ٢٠١٢ حتى ٢٠١٤، ١٢

ألف حالة،بحسب آخر الإحصائيات الإماراتية، فإن مواقع التواصل الاجتماعي أصبحت من أسباب الطلاق، نظراً لانشغال الزوجين بهذه المواقع طوال اليوم، وإهمال كل منهما الآخر. وساعدت في ذلك الهواتف الذكية، وتأتي ضمن الأسباب الأخرى الذمة المالية المستقلة للسيدات في الإمارات، وقدرتهن على المعيشة الميسورة بعد الانفصال، فضلاً عن تعدد الزوجات.

وفي العراق: أعلنت السلطة القضائية الاتحادية في العراق أن حالات الطلاق ارتفعت بنسبة ٧٠٪ في السنوات العشر الأخيرة. وأصبحت تسجل حالات الطلاق أكثر من ٦٠ ألف حالة سنوياً. وكشفت دراسة مجتمعية سبباً جديداً لارتفاع هذه النسب في العراق، هو المسلسلات التركية التي تظهر الصورة الوردية للأزواج، ما يؤدي إلى سخط الأزواج في العراق على حالهم، في ظل الأوضاع المعيشية الصعبة التي يعيشها العراقيون، منذ الغزو الأمريكي. وكانت مؤسسة العراق لمنظمات المجتمع المدني، كشفت في دراسة لها أن موقع Facebook والانترنت والهواتف المحمولة، من أسباب الطلاق في العراق. خصوصاً أن تواصل الأزواج مع آخرين عبر الانترنت يثير الغيرة والشكوك التي تؤدي إلى المشاكل الأسرية في نهاية المطاف.

وفي الجزائر: علنت وزارة العدل الجزائرية ارتفاعاً ملحوظاً في حالات الطلاق في البلاد وصل إلى ٦٠ ألف حالة سنوياً، أي حالة كل ١٠ دقائق. وكشفت الإحصائيات عن ١٠٠ ألف طفل جزائري يقعون ضحايا بسبب انفصال الآباء.

وفي الأردن: وصلت حالات الطلاق في الأردن إلى نحو ١٥ ألف حالة، بزيادة سنوية ١٠٠٠ حالة، وفقاً لتقديرات دائرة الإفتاء. ويتيح الأردن للزوجة إتمام الطلاق من زوجها إذا أرسل لها رسالة sms، أو إيميل، أو عبر أي وسيلة أخرى من وسائل التواصل، ويعرف هناك بالطلاق الإلكتروني. (١)

أمام هذه الإحصائيات المذهلة نجد أنفسنا أمام مشكلة كبري تهز ضمير العلماء ليتحركوا فرادي وجماعات لوقف دمار أكل الأخضر واليابس، وليعمدوا إلى كتاب الله وسنة رسوله لرصد الداء بحكمة وروية ووصف الدواء بدقة وحذق مبادرة لحل الأزمات قبل وقوعها، ومحاصرتها بعد وقوعها ، إذ أن صلاح البيوت هدف أصيل في شريعة الإسلام.

(١) انظر موقع: http://raseef22.com

ومشكلات البيوت الزوجية تبدأ غالبا من نقطة انصراف الزوجة أو الزوج عن مطالب الآخر المشروعة بالتعالي عليها، أو بالتأفف منها، أو باستثقالها لسبب أو لآخر، والأسباب كثيرة تتنوع بتنوع البيئات، وتختلف باختلاف البقاع والثقافات، وقد عمت البلوى في زماننا هذا بهذه المشكلة لأسباب عديدة أهمها مواقع التواصل الاجتماعي والإعلام والموروثات، والتقليد الأعمى الذي ألقى بظلاله الكثيفة على الأسر والبيوت، فخرَّب كثيراً من البيوت، وخبب كثيراً من الأزواج والزوجات، وضيع كثيراً من الشباب والشابات، فبات المجتمع رهين الجهل والغُربة الذي ضَرُّه أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

وبهذه الآلية المعاصرة التى توخت هدمَ المجتمع أو تمييعَه وتذويبَه في ثقافات الآخر تجذَّر مرضُ النشوز بين طرفي الأسرة ﴿ الزوج والزوجة ﴾

ولقد شرَّق الناس وغرَّبوا من أجل إيجاد حلول ناجعة لوقف نزيف انهيار الأسر وتفكك المجتمعات فما وجدوا إلا نُتَفاً من هنا ونتفا من هناك، لا تفي بحل ناجع لظاهرة النشوز .

ولأهمية هذا الحل ولشدة الحاجة إليه توجهت إلى كلام الله الذي هو سَدَى ولحمة هذا البحث الموسوم بـ مشكلة النشوز وكيف عالجها القرآن

"دراسة تحلل ظاهرة النشوز الزوجي اجتماعياً وتصف علاجها قرآنياً "

لأقف على الداء وأصفَ من خلاله الدواء ، والقرآن كله دواء وشفاء .

حدود البحث: الآية رقم ٣٤ من سورة النساء، والآية رقم ١٢٨ من نفس السورة.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يحتوي على :

مقدمة شملت سبب اختيار الموضوع وأهميته وحدوده ، وأربعة مطالب، وخاتمة وتوصيات:

المطلب الأول : تعريف النشوز.

المطلب الثاني: أسباب عامة للنشوز.

المطلب الثالث :مظاهر النشوز عند الزوجة.

المطلب الرابع: أسباب النشوز عند الزوجة.

المطلب الخامس: مظاهر النشوز عند الرجل .

المطلب السادس : أسباب النشوز عند الرجل .

المطلب السابع: كيف عالج القرآن النشوز عند المرأة ؟

المطلب الثامن: كيف عالج القرآن النشوز عند الرجل ؟

والخاتمة والتوصيات.

المطلب الأول: تعريف النشوز في اللغة والاصطلاح وبيان العلاقة بينهما.

النشوز في اللغة :

تطـرق علماء العربية إلى بيان معني النشــوز من خلال معاجمهم، وباستقراء المستطاع منها نجد تكاملا معرفيا يخص بيان النشوز كحقيقة لغوية، وكيف انتهت مادته إلى ما يمكن أن يكون مظنة مراد الله تعالى في القرآن من خلال وروده

يقول ابن فارس ـ رحمه الله ـ في مقاييسه:" النون والشين والزاء أصلٌ صحيح يدلُّ على ارتفاع وعُلوّ. والنّشَز: المكان العالي المرتفع. والنّشْز والنُّشُوز: الارتفاع، ثم استعير فقيل نَشَزَت المـرأةُ: استَصعَبتْ على بَعلها، وكذلك نَشَزَ بعلُها: جفاهــا وضرَبَهَا." [1] ويقال:" نَشَزَ فلان عــن مقرِّه: نَبا، وكلُّ ناب نَاشِزٌ. قال تعالى: "وَإِذا قيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا" [المجادلة١١] ويعبّر عن الإحياء بِالنَّشْزِ والإِنْشَازِ، لكونه ارتفاعا بعد اتِّضاع. قال تعالى: "وَانْظُرْ إِلَى الْعظام كَيْفَ نُنْشِزُها"[البقرة ٢٥٩] وقوله تعالى: "وَاللاَّتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَ"[النساء ٣٤] ونُشُوزُ المرأة: بُغْضُهــا لزَوْجِها ورفْعُ نفسها عن طاعته، وعَيْنها عنــه إلى غيره"[2]ونَشَزَت المرأَة: اسْتَعْصَت علــى بَعْلها وأَبْغَضَتْــه، ونَشَزَ عليها بَعْلُهــا: إِذا ضَرَبها وجَفاها، ...وقــال الأَزهريّ: والنُّشوز: كراهةُ كلِّ واحد من الزوجين صاحبَه. [3]

وبتدبــر مــا قاله اللغويــون نستطيع الجزم بــأن النشوز في حق الزوجيــة له محتواه الذي هو :

البغض والكراهية، ثم الجفوة المنبثقة من تخلق أحد الزوجين بخلق يأباه الآخر، ومن ثم التعالي والارتفاع بصريح العصيان واستحالة العشرة إن لم تعالج.

ونستطيع أن نعرف النشوز اصطلاحا بأنه: تعالي أحد الزوجين على الآخر وعدم اعتباره لحقوق الزوجية وواجباتها" يشمل ذلك العصيان ، وإساءة العشرة [4].

(١) انظره: ٤٣١/٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب: ص٨٠٦.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي: ٥٦/٥.

(٤) قال الشنقيطي : النشوز في اصطلاح الفقهاء: "الخروج عن طاعة الزوج" أضواء البيان ٢٤١/١.

العلاقة بين المعني اللغوي والمعني الاصطلاحي :

المتدبـر للمعني اللغوي والاصطلاحـي يجد أن نسيجهما واحد حيث الارتباط التام ؛ لأن المعنـي اللغوي دار حـول التأبي والنّبو والارتفاع والاستعصاء علـى الزوج أو ضرب الزوجة أو عدم مراعاة حقوقها، والمعنى الاصطلاحي جمع هذه المعاني في جملة قاصدة .

المطلب الثاني أسباب عامة للنشوز

هذا المطلب يرصد أهم أسباب النشوز إجمالا وذلك من خلال تعاملي مع أزمات الأزواج منـذ أكـثر من ثلاثين عامـا، وأسبـاب النشوز تختلف باختـلاف الدول، والبقـاع والأعراف والعادات والتقاليـد ولا يمكن جمعها إلا باستقراء تام للمجتمعات البشرية كلها، والاستقراء التام محال إلا على الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، من هنا كان الاجتهاد في تحديد سبب النشوز بقدر الاستطاعة .

والنشـوز قـد يرجع للحالة الاقتصادية حيـث فقر الزوج بعـد أن تَزَوَّجَتْه غنيا، أو بخل الزوج وتقتيره بعد أن كان كريما، أو للحالة الصحيَّة بالمرض بعد السلامة، أو للحالة الأمنيَّة بسجـن الزوج مثلا بعد الحرية، أو الاجتماعية حيث رفقـة السوء التي طرأت بعد الزواج، أو ميلاد غَيْرَة قاتلة محمومة طرأت على الزوج فشكّكَت في طهر زوجه وظلمها بما ليس فيها، أو بسبب الشبكة العنكبوتية حيث إن لغة الإحصاء تؤكد أن نسبة ٨٠٪ من أسباب النشوز ـ ومن ثم الطلاق ـ تحدث بسبب "الدردشة" و"الكاميرات" وانصراف الأزواج عن بعضهم البعض بسبـب مـا يسمـى بالصداقة بين الجنسـين وما يتبع ذلـك من مخاللة ومخادنـة، كما يمثل الصراع التحكمي بين الزوجين نسبة كبيرة في مقياس النشوز، كذا سؤال غير أهل العلم من الجهـلاء وأبعاض المثقفين، والسحرة والمشعوذين والدجالين وغير ذلك من الأسباب المجملة أو التي لا يعلمها إلا الله وحده، ومما يحسن ذكره ما سطره صاحب المنار من أسباب للنشوز مجملـة حيث قال: " فَـإِنَّ مِنْهُنَّ مَنْ تُحِبُّ زَوْجَهَا وَيُزَيِّـنُ لَهَا الطَّيْشُ وَالرُّعُونَـةُ النُّشُوزَ عَلَيْه، وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْشُزُ امْتِحَانًا لِزَوْجِهَا لِيَظْهَرَ لَهَا أَوْ لِلنَّاسِ مِقْدَارُ شَغَفِه بِهَا وَحِرْصِه عَلَى رِضَاهَا، أَقُـولُ: وَمِنْهُنَّ مَنْ تَنْشُـزُ لِتَحْمِلَ زَوْجَهَا عَلَـى إِرْضَائِهَا بِمَا تَطْلُبُ مِنَ الْحُلِـيِّ وَالْحُلَلِ، أَوْ غَيْرِ

ذَلِـكَ، وَمِنْهُنَّ مَـنْ يُغْرِيهَا أَهْلُهَا بِالنُّشُوزِ لِمَآرِبَ لَهُـمْ" (١) وهاك أهم أسباب النشوز في نقاط سيأتي شرحها مفصلا في ثنايا البحث.

- السبب الأول : التنشئة الاجتماعية غير السديدة.
- الثاني: التعقيدات الاجتماعية في تكوين الزواج ، من قبل الأولياء والأهل .
- الثالث: تأسيس الزواج تحت سطوة الأهل أو المال أو الإكراه أو الصفقات .
- الرابع: عدم التكافؤ بين الزوجين مالا أو جاهاً أو نسباً أو ديناً .
- الخامس : عدم الإحاطة بأهداف الزواج، والغايات من تكوين الأُسَر .
- السادس: غياب التوعية الدينية والثقافية والفكرية والنفسية والطبية الحقيقية لدور الأسرة .
- السابع: عدم العلاج الحاسم لقضايا ومشكلات الزوجين من بدايتها .
- الثامن: التقصير في أداء الحقوق الزوجية من الطرفين أو من كليهما.
- التاسع: التأثر بالموروثات والتقاليد والعادات المنافية للدين أو التي توهم الصراع بين الزوجين
- العاشر: وسائل الإعلام الضالة التي تجعل من الزوجين عبيدا لأوامرها ونواهيها .
- حادي عشر: استشارة غير المتخصصين من الأصدقاء والرفقاء، الذين يزيدون الطين بله .

هذا مجمل ما رصدته من أسباب النشوز وتقويض الأسر من خلال عملي بميدان الساحة الاجتماعية في مصر ، وقد تعمدت ذكرها مجملة لأن البحث كله سيدور حولها ومن خلال الأدلة، مما أغني عن التكرار .

المطلب الثالث: مظاهر النشوز عند الزوجة.

منطلقنا لقضية النشوز عند المرأة عموما[المظاهر والأسباب والعلاج]هو قول الله تعالى:﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ

(١) تفسير المنار: ٥/٦٠.

أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[النساء ٣٤] إذ هي الآية الكريمة التي خصت هذه القضية وأبانت عن محتواها الذي انطلق منه العلماء فشخّصوا الداء ووصفوا الدواء .

وحري بي أن أقف على معنى الآية الكريمة إجمالا لتمهد طريقنا للولوج إلى بيت القصيد فأقول: إن جو الآية يتحدث عن قوامة الرجل وتعاونه مع المرأة أيا كان وصفها، خاصة الزوجة " الرجال قوامون على النساء" هذه القوامة التي تعني الرياسة المقيدة بقيود، لا الرياسة والزعامة الآمرة الناهية ـ فحسب ـ كما يظن الجهلاء "يقال: قام على الشيء وهو قائم عليه وقوام عليه، إذا كان يرعاه ويحفظه ويتولاه بعنايته والمحافظة عليه، وليست القوامة مطلق الرياسة، بل إن الرياسة تسمى قوامة إذا كان الرئيس يقوم على رعاية المرؤوس والمحافظة على حقوقه وواجباته، والأزواج يقومون على شئون زوجاتهم بالحفظ والرعاية والحماية والصيانة، ومن هنا تجيء الرياسة، وأعتقد أن قيام الرجل على شئون الزوجة ليس فيه رياسة، إنما فيه حماية ورعاية وتعب وهو من قبيل توزيع التكليفات، فإذا كان للرجل رياسة عامة، فللمرأة ـ أيضاً ـ رياسة نوعية، ولذا قال النبيﷺ :"وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا "[(١)]

ـوقد علل الله تعالى القوامة بأمرين: أحدهما وهبي والآخر كسبي[(٢)] أما الوهبي فمنطوقه:" ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي: بسبب ما فضل الله به بعضهم على بعض، ولم يذكر الله تعالى هذا التفضيل تفصيلا؛ لأن هذا مما لا يخفي على عاقل معرفته في الرجال على الجملة، كحسنُ التدبير ورزانةُ الرأي ومزيدُ القوة في الأعمال والطاعات؛ ولذلك خُصّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادة في جميع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك.. فَالتَّفْضِيلُ إِذَنْ هُوَ لِلْمَزَايَا الْجِبِلِّيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي حَاجَةَ الْمَرْأَةِ إِلَى الرَّجُلِ فِي الذَّبِّ عَنْهَا وَحِرَاسَتِهَا لِبَقَاءِ ذَاتِهَا أولا، كما تقتضي أمورا دينية عامة .

(١) زهرة التفاسير: ٣/ ١٦٦٧، والحديث في صحيح البخاري كتاب: الجمعة باب: الجمعة في القرى والمدن رقم: ٨٩٣، مسلم كتاب: فضيلة الإمام العادل باب: رقم: ١٨٣٩.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٧٣.

وأما الكسبي فيكمن في قوله تعالى: " وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ "

قال العلماء: " إنه مَتَى عَجَزَ عَنْ نَفَقَتِهَا لَمْ يَكُنْ قَوَّامًا عَلَيْهَا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَوَّامًا عَلَيْهَا كَانَ لَهَا فَسْخُ الْعَقْدِ، لِزَوَالِ الْمَقْصُودِ الَّذِي شُرِعَ لأَجْلِهِ النِّكَاحُ " (١) وكون الرجل يتم تكليفه بالإنفاق على الأسرة، هذا يعني الإشراف على شئونها، وهذا مبدأ قامت عليه الديمقراطيات الحديثة، وهو مبدأ فقهاء القانون الدستوري القائل: " من يُنفق يُشرف " أو " من يدفع يراقب " (٢)

وبعد أن بين المولى تبارك وتعالى أمر القوامة والتفضيل الذي هو بقدر التكليف، ذكر نوعي الزوجات: الصالحات والناشزات.

ففي حق الصالحات قال تعالى: " فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ " والصلاح يدور حول إحسان التبعل وما يتبعه من إصلاح البيوت: " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ : الصَّالِحَاتُ الْمُحْسِنَاتُ لأَزْوَاجِهِنَّ؛ لأَنَّهُنَّ إِذَا أَحْسَنَّ لأَزْوَاجِهِنَّ فَقَدْ صَلَحَ حَالُهُنَّ مَعَهُمْ، وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: الْعَامِلاتُ بِالْخَيْرِ، وَقِيلَ: اللائي أصلحهن اللَّهُ لأَزْوَاجِهِنَّ قَالَ تَعَالَى: " وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ " ﴿ الأنبياء ٩٠ ﴾ ، وَقِيلَ: اللَّوَاتِي أَصْلَحْنَ أَقْوَالَهُنَّ وَأَفْعَالَهُنَّ "(٣) وهذا يظهر أن المرأة الصالحة لا تعترض على قوامة الرجال، وبذا تتميز الخاضعة لأمر الله من المعترضة الساخطة .

وفي حق اللاتي شرعن في التعالي والنشوز، وعدم الطاعة فيما يخص واجباتها الزوجية المفروضة عليها، يقول تعالى: " وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ " هنا يقف الغلاة المتحاملون على دين الإسلام صفا واحدا كلهم اجتمع على محاربة الله تعالى فيما وصانا به ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] "﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

ولنا مع العلاج وقفه في المطلب السابع: كيف عالج القرآن النشوز في حق المرأة ؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن :٥/ ١٦٩

(٢) شبهات حول حقوق المرأة في الإسلام نهى قاطرجي شبكة حقوقيات

(٣) البحر المحيط: ٣/٦٢٤.

لكن ما مظاهر النشوز
التي إذا استشعرها الزوج تيقن حصوله في زوجه؟
أقول: إن مظاهر النشوز تتنوع إلى فعلية وقولية.

فالنشوز في صورته الفعلية يمثله :

١ـ عدم طاعة الزوج في فراشه :

نجـزم بأن أبرز ما يميز الحياة الزوجية علـى الإطلاق هو اللقاء الزوجي، فكل ما دونه من طعام أو شراب ووو.. يمكن أن يكون بدون زوجية، وقد أعد الله المرأة لذلك اللقاء إعداداً، كذا الرجل، يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٦] يَعْنِي فُرُوجَ النِّسَاء فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا للنِّكَاح قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُهَاجِر: ...كَمَا قَالَ: " فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ" [البقرة ٢٢٤] [١] ويقول رسولنا الكريم ﷺ "فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّه، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّه"[٢] وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺإِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشه فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ[٣] بل سخط عليها كما في رواية مسلم " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ـ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، مَا مِنْ رَجُل يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْبَى عَلَيْه، إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا"[٤] وبالرغم من هذه التحذيرات التي ترهّب الزوجة المسلمة العاقلة من معارضتها أو التقليل من وعيدها تنـام الناشز حيث ينهض زوجها، وتقوم حيث يرقد، وتُظهر التعب وهي ليست متعبة، وتظهر المرض وهي سليمة بعافيتها، وتتعلل عند طلبها لفراشها بعلل لا تتناهي، وقد يكون الزوج آخر مـن يعلم سببها . وإذا كان المانع من مرض أو عذر شرعي كحيض أو نفاس فهو عذر مقبول، ولا يحل لها حينئذ أن تمنعه من الاستمتاع بما دون الفرج . إذن فالتأبي على الزوج في فراش الزوجية عرض لمرض هو النشوز .

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/١٣٢.

(٢) مسلم كتاب: الحج باب: حجة النبي ﷺ. رقم ١٢١٨ ، ٢/٨٨٩.

(٣) البخـاري كتـاب: بدء الخلـق، باب : ذكر الملائكة ، رقـم ٣٢٣٧، ٤/١١٦.ومسلم كتاب نـكاح المتعة باب : تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٤٣٦.

(٤) مسلم كتاب: نكاح المتعة باب: تحريم امتناعها من فراش زوجها ، رقم ١٤٣٥، ٢/١٠٦٠.

٢ـ عدم الاعتناء بالزوج في طعامه وشرابه:

ذلك أن العادة جرت بأن الزوجة هي من تعد طعام بيتها، وأصبح هذا من المعروف عرفا فكان كالمشروط شرطا، أي: يقوم مقام الشرط في الالتزام والتقيد، وإن لم يُذكَرْ صريحًا، وهذا يدخل تحت قوله تعالى ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] لكن بعضهن رغم تجويدهن لهذه الأمور العرفية قد يترفعن لغير علة ـ إلا علّة النشوز والتعالي على الزوج ـ عن إعداد الطعام أو الاهتمام بالقوت والشراب، لذا يرجع الزوج فيجد نفسه أمام ملهبة الجوع ومُرّ الحرمان الذي نسجته زوجته لتذيقه بعض الذي عمل، ولا يدري هذا الزوج بفطنته أنه أمام مظهر من مظاهر النشوز التى لها ما بعدها.

٣ـ تعمد إهمال الزوجة نفسها خاصة أثناء وجود زوجها:

جرت العادة أن من بلغت سن الزواج تقوم بتطبيق برنامج صارم يقي جسدها كل منفر أو مكروه بإقامة سنن الفطرة، وعند الزواج لا تجد غضاضة من اعتنائها بنفسها، بل وزينتها لزوجها، لكن النشوز يصنع من صاحبته كائنا مهملا فيه الشعوثة والغبورة والإهمال مما ينفر الزوج ويطرده بل يطارده، وهي هي إذا ما أرادت أن تخرج خارج المنزل ادهنت واكتحلت وتألقت وتعطرت وتزينت وأصبحت كما يقول العامة "ست النسا" هنا يكمن دور الزوج الذكي الذي يستشعر واحداً من أهم مظاهر النشوز والإعراض مؤداه لماذا للغير لا لي؟

٤ـ عدم الاكتراث بالزوج وعدم احترام ثوابته القيمية بل التمرد عليه ومعاندته:

ذلك أن آية النساء [٣٤] المذكورة آنفاً وضحت أن المستقيمات على شرع الله مطيعات لله تعالى ولأزواجهن، حافظات لكل ما غاب عن علم أزواجهن بما اؤتمنَّ عليه بحفظ الله وتوفيقه، فلا تفشي له سرا ولا تُدخل أحداً بيته إلا بإذنه، محافظة على ماله فضلا عن أنها إذا أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: الَّذِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلاَ تُخَالِفُهُ فِيمَا يَكْرَهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِه" (١) وقال رسول الله ﷺ "إن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح" (٢) وقد قال رسول الله ﷺ "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل

(١) رواه النسائي والحاكم وأحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٤/٤٥٣.

(٢) مسلك كتاب: الحج باب: حجة النبي ﷺ. رقم: ١٢١٨.

لهـا: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت"[1] إذن فالعصيان الذي يمثل عدم الطاعة، أو عدم حفظها لنفسها أوماله الخ يمثل خرقا في جدار الزوجية مؤذن بتدميرها.

٥ـ الإسراف والتبذير بهدف هدم الزوج اقتصاديا:

تظـل المـرأة حريصة على مال زوجهـا حرص الجبان على مهجته طالمـا هي تنتمي إليه وتحبه وهذا ما أمرها به رسولنا ﷺ من حفظها لنفسها وماله، فإذا وصلت إلى درجة العلو عن مقـام الزوجية بذّرت وأسرفت وأفقرتـه متجاسرة على قوله تعـالى: "﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِيـنَ كَانُـوا إِخْـوَانَ الشَّيَاطِـينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُـورًا﴿ ٢٧ ﴾ [الإسراء] فالتبذيـر يعنــي عدم اكتراثها بالنعمة، بـل لا يهمها أن تحافظ على تلـك النعمة وذاك المال الذي جعله الله لنا قياما بنص الآية الكريمة ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًـا ﴾ [النســاء: ٥] وعند ذلك يجب على الزوج أن يكون عند الحدث، الحدث الذي يعني النشوز أو بداياته وما يجب عليه تجاهه.

٦ـ إهمــال الأولاد والذرية: وذلك من خلال كفران نعمة الذرية التي امتن الله عليها بها، والتــي هي رجـاء الصالحين ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَـادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَـذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَـيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبيـاء: ٨٩] ومطلـب خليل الرحمن ـ عليـه السلام ـ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِـنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافـات: ١٠٠] ومـن أهم مطالب عبـاد الرحمن: "﴿ وَالَّذِيـنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَـبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَـا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقـان: ٧٤] وبالرغم من هذا قد تهمـل الناشز فطرتها التــي جبلـت عليها فتهمـل الأولاد وتتركهم بلا عناية أو رعاية لتعاقـب بذلك أباهم الذي هو زوجهـا متناسية نصيبها الأصيل فيهم، لكنها كرهـت وباعت بيع السماح هذا البيت بما فيه ومن فيه .

٧ـ معاداة أهل الزوج ورَحمه: وذلك بمقاطعة قرابة الزوج من الدرجة الأولى فما دونها، وهـم من نشأ فيهـم وانتصر بالله ثم بهم، وبدون سبب وجيه تُعـذر بسببه الزوجة ، بالرغم مـن قـول الله تعالى: " ﴿ فَهَـلْ عَسَيْتُـمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِـدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُـوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِـكَ الَّذِيـنَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَـى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]وللمقاطعة أشكالها التي تبـدأ بالتأفف منهم وتنتهي بالتسلط عليهم بالألفاظ البذيئة وإغضابهم لتافه

---

(١) رواه أحمد: ح رقم٦٦١ من صحيح الجامع .

الأسباب، وقد فسر الطبري ـ رحمه الله ـ الفاحشة في قوله تعالى ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ [الطلاق: ١] بالبذاء على الأحماء أي: أهل الرجل فآذتهم في الكلام والفعال(١).

٨ـ عشقها لرجل آخر: في خضم الاغتيالات الجماعية لمجتمع المسلمين من خلال مواقع التدابر الاجتماعي التي دخلت البيوت دون إذن بل احتلت غرف النوم، وبسببها باتت زوجات كثيرات في مهب ريح الاختراق بسبب "دردشة" أو مهاتفة أو مصادقة على طالب للصداقة أو أو ، وهنا تقع الفأس في قمة الرأس، ويتم نسيان قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]وقوله تعالى ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨]وقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] فلا حرمة لكاتب من الملائكة فترعوى، ولا حرمة لبيت ولا لزوج ولا ولا، فيتسلل العشق إلى قلب الزوجة فيفسدها بالكلية ويجني عليها وعلى زوجها وأولادها ودينها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهذا مظهر رئيس من مظاهر النشوز ومقدمات هدم البيوت ومحوها بالكلية.

ويكون النشوز بالقول من خلال:

١ــ رفع الصوت علي الزوج: وذلك بارتفاع نبرات صوت الزوجة على زوجها مع تغليظ لتصيب بيتها بالصمم وجيرانها بالضيق بقصد فضحه وتقليص كرامته مخالفة بذلك قوله تعالى ﴿ ..وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩] وللزوج أن يعي أن ذلك من مظاهر النشوز في زوجته ليتنبه لذلك.ـ .

٢ـ سب الزوج وزجر الأولاد، والصراخ في البيت، دون خشية من سمعة سيئة متجاهلة قول النبي ﷺ للسيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ واعظاً إياها: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ "(٢) فرعونة الزوجة، وسب الأولاد، ولعنهم ، والصراخ فيهم من طرق الاعتراض على الزوج والتعالي على معيشته ومن ثم النشوز.

٣ـ إخراج أسرار البيت خارجه وخاصة أسرار العلاقة الحميمة بين الزوجين وقد جاء

(١) جامع البيان للطبري: ٢٣/٤٤٠.

(٢) مسلم كتاب:السلام باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم رقم:٢١٦٥.

الزجر لذلك في السنة المطهرة واضحاً. .... بهذا نكون قد انتهينا من مظاهر النشوز عند المرأة التى هي عرض لمرض ومن ثم نشرع في بيان المرض .

المطلب الرابع: أسباب النشوز عند الزوجة.

قد يعجب الزوج غاية العجب مما يكابده من سوء أخلاق زوجه، لأسباب يعرفها وأخرى لا يعرفها؛ لذا كان حرياً بنا أن نستعرض أسباب النشوز عند المرأة إذ بمعرفة السبب-خاصة غير المعلوم- يبطل العجب، وهاك تفصيلا للمستطاع منها:

تزويج المرأة بالإكراه:

كثير من الآباء يتكلمون في زواج بناتهم كمن يعقد صفقة تجارية لا دخل لها برأي العروس المعنية، فقد أعطى كلمةً وتمم صفقةً ، وهذا من أبرز عقوق الآباء للأبناء، وأهم ما يوقد أوار نيران النشوز والعصيان، ولسنا ببعيد عما رواه أحمد وصححه محققه: "عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: جَاءَتْ فَتَاةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ يَرْفَعُ بِي خَسِيسَتَهُ "فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا" قَالَتْ: فَإِنِّي قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنْ لَيْسَ لِلْآبَاءِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ" (١) حيث إنه ليس للآباء إلا بذل النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلمة الأخيرة لمن ستكابد حلو الحياة أو مرها هي، وهي فحسب، وبالإكراه نهدم الأسرة قبل تأسيسها .

سوء خلق زوجها: قد تصطدم المرأة بعد زواجها برجل سيء الخلق، فتتحول سعادتها إلى تعاسة، وفرحتها إلى حزن، وتترسخ هذه الحال فتثمر اكتئابا من ناحية ونشوزا من ناحية أخرى، يقول الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ- ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴾ أي: "لو كنت سيِّئَ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: أنه" ليس بفَظٍّ، ولا غليظ، ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح "(٢) وعند أبي داود في السنن:" عن

(١) مسند أحمد تحقيق شعيب الأرناؤوط:٢٩٢/٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١٤٨/٢. وحديث ليس بفظ .. رواه البخاري في صحيحه.

حارثة بنِ وهبٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: " لا يدخُلُ الجنَّةَ الجَوَّاظُ، ولا الجَعْظَرِيُّ"[١] قال: والجَوَّاظ: الغليظُ الفظُّ.

إذن سوء الخلق من أهم أسباب الحرمان من الجنة من ناحية، والحرمان من التوفيق والسعادة الزوجية من ناحية أخرى.

عدم التكافؤ:

التكافؤ بين الزوجين كما قال الماوردي يعني: " المساواة، مأخوذ من كِفَّتَي الْمِيزان لتَكَافُئِهما"[٢]، لأن زواج المرأة من غير الكفء مظنة الاضطراب وإثارة النزاع وأنفة أحد الزوجين أو عصبتهما وهو شرط أصيل أسهب في بيانه الفقهاء وعلماء الشريعة، يقول الكاساني ـــ رحمه الله تعالى ـــ: " مصالح النكاح تختل عند عدم الكفاءة؛ لأنها لا تحصل إلا بالاستفراش، والمرأة تَستنكف عن استفراش غير الكفء، و تُعيرَّ بذلك، فتختل المصالح؛ ولأن الزوجين يجري بينهما مُباسَطاتٌ في النكاح لا يبقى النكاح بدون تحملها عادة، والتحمل من غير الكفء أمر صعب يثقل على الطباع السليمة، فلا يدوم النكاح مع عدم الكفاءة، فلزم اعتبارها"[٣].والتكافؤ ليس ماديا اقتصاديا فحسب، بل يعمّ التكافؤ العلمي، والثقافي، والاجتماعي، وغير ذلك، وهو من أهم أسباب التلاحم بين الزوجين، فعن عَليِّ بْنِ أَبِي طَالِب أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: " يَا عَلِيُّ، ثَلاثٌ لا تُؤَخِّرْهَا، الصَّلاةُ إِذَا آنَتْ، وَالْجَنَازَةُ إِذَا حَضَرَتْ، وَالأَيِّمُ إِذَا وَجَدْتَ لَهَا كُفْئًا "[٤] وعندما تصطدم المرأة برجل لا يتوافق معها فكرياً، اجتماعياً، أو ثقافياً، أو اقتصادياً، أو أو ، فإنها ستشعر بالوحدة والوحشة وعدم الأنس مما يعجل بزوال زواج بني على غير تكافؤ مشترك بين زوجين.

الجهل بالحياة الزوجية وتبعاتها:

كثير من الشباب بنوعيه ينظر إلى الزواج نظرة سطحية شهوانية مصلحية عابرة، وكأن "الجنس" سيحل محل العبادات والمعاملات والعمل، وهو البرنامج الذي سيكون الشغل

(١) سنن أبي داود كتاب: الأدب باب: في حُسْنِ الْخُلُقِ رقم : ٤٨٠٣.

(٢) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي للماوردي تحقيق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود: ٩/١٠٠.

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني : ٣١٧/٢.

(٤) سنن الترمذي كتاب: الصلاة باب: ما جاء في الوقت الأول من الفضل رقم: ١٧١. قال أبو عيسى هذا حديث غريب حسن

الشاغل لطرفي المعادلة، ولا يدري الشباب أن الزواج مسئولية وسيادة وتفكر وتفقه وعبء ينوء به الرجال، بجوار جانب عاطفي يتغذى ببقية الجوانب فيعلو وينخفض بناء على نجاح الزوجين في الحياة العملية أو إخفاقهما.

ومن أبرز الأدلة على أن الزواج مسئولية وعمل ليس بالهين قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٦ - ٢٨] فالقوة والأمانة بالرغم من إتيانهما في سياق الاستئجار إلا أنهما من مسوغات الزواج، كما يبدو من السباق واللحاق في الآيات الكريمات، والقوة والأمانة يستوجبان تحمل مسئوليات كثيرة يجهلها الرجل في بيته فيجسِّر زوجته شيئا فشيئا ويكون النشوز.

الخُلَّة الفاسدة :

من أبرز ما يضيع البيوت وينشر النشوز أن تجد المرأة زوجها في صحبة أهل السوء، ومن غير المقبول أن يتزوج الشاب ويظل على ما هو عليه دون مراعاة لآداب تقضي بتنظيف سمعته من القيل والقال، وتنظيف ثيابه من المفسدين زملاء الكاس والطاس والأفلام الإباحية والسهر وهجر فراش الزوجية، ومَنْ هذه شاكلته سيخسر دنياه وآخراه قال تعالى﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] ومن خسائره الدنيوية فساد بيته ونشوز زوجه .

التحريض العائلي:

التحريض العائلي- الذي يقل ويكثر- حسب اختلاف المجتمعات ديانة وثقافة، وعلما وجهلا ، يشكل سببا رئيسا لنشوز الزوجة وفرارها من جحيم التأليب عليها، فبعض الأمهات تشعر بأن زوجة ابنها قد استولت علي ولدها وأخذته للأبد، فتضيق بذلك ويكون رد الفعل هو التحريض والعدوان، ولو تنبهت الأم والأخت والأرحام بأن التدخل في حياة الآخرين للسيطرة عليها أو إسقاطها هو عدوان محرم لَكَفَّ الفاعل وعاشت البيوت دون نشوز أو خراب . قال تعالى﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] وقال تعالى﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

تفوق المرأة على الرجل بعد الزواج وتقدمها :

قد يبدأ الزوجان حياتهما في تكافؤ تام، لكن مع مر الزمن تبزُّ الزوجة زوجها بحصولها علـى شهادة أعلى أو بتحقيقها لمكاسب حياتية أعظم، مما يجعلها تطغي على زوجها وتتعالي عليــه، وتشعر بالاستغناء عنه والبطر فيكـون النشوز والتعالي، ولسنا ببعيد من قوله تعالى:" ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ [العلق] .

الشبكـة العنكبوتية: دخلت الشبكة العنكبوتية على الأسرة فدمرتها تدميرا - إلا ما رحم ربـك ومن رحم - حيث الخـداع والضلال، والعري والمواعدة ، وانسحــاق كثير من الأزواج في المحادثـات الطويلـة التي يزينها الشيطان تزيينا " الدردشــة" فانصرف بسببها المبتلون من الأزواج ليس عن زوجه أو ولده أو رحمه أو مصالحه فحسب، بل انصرف عن نفسه التى بين جنبيــه، ولـو أردنا التدليل على خطأ هذا المسلك الهادم للأسر، الهازم لكل فضل وفضيلة ما استطعنا أن نعطي الأمر حقه في ورقات قليلة لا يسمح المقام بزيادة فوقها.

السحــر والشعوذة: الانسياق خلف السَّحرة والمشعوذة من أهم أسباب النشوز، حيث يتم تصدير المشكلة الزوجية عن طريق الزوجة أو من يعاونها من أهلها إلى أحد العرافين السحرة لاستكنــاه السبــب وتلمس حله عن طريــق الجان والشياطين، وهذه ظاهــرة متفشية في العالم كله، وبالرغم من أننا نؤمن بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، والأدلة متظاهرة على ذلك، لكن كثيرا مــن الرجــال والنساء يذهــب إلى ما به ينزلقــون إلى الكفر - والعياذ بــالله - بنص حديث أبي هُرَيْــرَةَ، قَــالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْــزِلَ عَلَــى مُحَمَّدٍ ﷺ." (١) هذه أبرز أسباب النشوز كمــا علمتُها من خلال الحياة ممزوجة بالتخصص، علماً بأنه من الممكن أن يكون سبب النشوز هو الهوى والتسلط فحسب.

المطلب الخامس: مظاهر نشوز الرجل

لا تختلــف كثيرا مظاهــر النشوز عند الرجل عــن مظاهر النشوز عند المــرأة. فالرجل عندمــا يتعــالى رفضاً لقيم الأسرة التــي أقرها الإسلام تمهيداً لحل عقــدة النكاح بالطلاق يكون في تعامله مع زوجه في مظهر من المظاهر التالية:

(١) الحاكم في مستدركه كتاب: الإيمان رقم: ١٥، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

هجـر فراش الزوجيـة: إذا كنا قد أسلفنا بأن من مظاهر النشوز عند المرأة عدم طاعة الـزوج في فراشه، فإننا على يقـين أن أبرز مظاهر النشوز عند الرجـل هجر فراش زوجته، وعـدم إعطائهـا حقهـا الشرعي . قال ابـن عادل قال الكَلْبِـيُّ : نشوز الرَّجُـل للزوجة : ترك مُجَامَعَتِها ، وإعراضُهُ بوجْهه عَنْها ، وقلة مُجَالَسَتِها[١]

إهمـال مطالب المنـزل الضرورية: حيث يعيش الزوج أثناء نشـوزه لذاته، لا يهمه زوجة وهـي العانية بنص حديث نبينا ﷺ الـذي رواه عمرو بن الأحوص، قال شهدت حجة الوداع مـع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال: " اتَّقُوا اللَّه فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ"[٢]، ومعنى عوان أي: أسرى في أيديكم . ولا يخفى عن البال المثال التطبيقي في حديث أم زرع: " قَالَتْ الْخَامِسَةُ زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ"[٣]قال النووي: " هذا ـ أيضا ـ مدح بليغ فقولها "فَهِد" بفتح الفاء وكسر الهاء تصفه إذا دخل البيت بكـثرة النـوم والغفلة في منزله عن تعهـد ما ذهب من متاعه وما بقـي وشبهته بالفهد لكثرة نومـه يقال أنوم مـن فهد، وهو معنى قولها ولا يسأل عما عهـد أي لا يسأل عما كان عهده في البيـت مـن ماله ومتاعه وإذا خـرج أسد بفتح الهمزة وكسر السين وهـو وصف له بالشجاعة ومعنـاه إذا صار بين النـاس أو خالط الحرب كان كالأسد "[٤] كمـا إنه قد يتمادى فلا يهمه ذريـة جهـلا منه حيث ظن أن معاقبة الأولاد تبع لمعاقبة او إهمـال أمهم [زوجه]، ويعيش في ضلال لا يعلم سببه إلا الله .

إهمـال الزوج لنفسه: فيكون أشعـث أغبر، فإذا ذهب خارج بيته تحلى بالرياش والعطر وتجمل للخروج، وهذا ما أسلفنا وجوده كمظهر من مظاهر النشوز عند المرأة.

عـدم الاكتراث بالزوجة وعدم احـترام ثوابتها القيمية بالتمـرد عليها ومعاندتها: ومن ثوابـت المـرأة الغيرة الشديدة، وقد ضربت أمُّنا السيدة عائشـة ـ رضي الله عنها ـ مثلا لبني

---

(١) تفسير اللباب ٥/٣٧٧.

(٢) سـنن الترمـذي كتاب: الرضاع الصـلاة باب: ما جاء في كراهية إتيان النسـاء في أدبارهن رقم: ١١٦٣. قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(٣) البخـاري كتـاب: النكاح باب: حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ الْأَهْلِ رقـم : ٥١٨٩، مسلم كتاب: فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب :ذكر حديث أم زرع رقم :٢٤٤٨.

(٤) شرح النووي على مسلم: ١٥/ ٢١٤

جنسها في شأن الغيرة حيث قالت إن" النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَطَارَتْ الْقُرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ فَقَالَتْ حَفْصَةُ أَلَا تَرْكَبِينَ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي وَأَرْكَبُ بَعِيرَكِ تَنْظُرِينَ وَأَنْظُرُ فَقَالَتْ بَلَى فَرَكِبَتْ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ فَسَلَّمَ عَلَيْهَا ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا وَافْتَقَدَتْهُ عَائِشَةُ فَلَمَّا نَزَلُوا جَعَلَتْ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الْإِذْخِرِ وَتَقُولُ يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حَيَّةً تَلْدَغُنِي وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا "قال النووي "هذا الذي فعلته وقالته حملها عليه فرط الغيرة على رسول الله ﷺ "(١).

معاداة أهل الزوجة وأرحامها: - أسلفت - أن من مظاهر نشوز الزوجة معادة أهل الزوج وأرحامه، وهذا ما يتحقق بنصه وفصه في فصيل من الرجال، فيعادون أصهارهم وأخوال أولادهم وخالاتهم والجد والجدة ومن اتصل بهم دون وجه حق؛ ولو كان بحق ما عيب فاعله، وسنة الله في بناء الأسر على الاتصال والتراحم والتلاحم وجبر الخاطر ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]فكما يرجو الزوج أن يجد محبة في قلب زوجه لذويه ورحمه فالأمر حاصل في حقه تجاه أرحام زوجه، لكنه النشوز الذي هو أهم سبب في نشر البغض وقطع ما أمر الله به أن يوصل

عشق الزوج على زوجه: والناشز من الرجال الذي يمثل هذه النقطة [العشق] إما أنه لسبب أو لغير سبب يريد أن يتزوج بأخرى مع زوجه، مع توفر الاستطاعة، لكن تمنعه العادات والتقاليد الفاسدة من طرق باب الحلال الحاصل في قوله تعالى:" ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]" فيعشق في الحرام ويكون ناشزاً مع زوجه التي وقفت حجر عثرة في طريق تحقيقه لما أحله الله، فأضرت نفسها وأضرت بدين زوجها!!

وإما أن الزوج المتغير المزاج الساخط على كل شيء يريد زوجة ثانية مع عدم الاستطاعة، وتعمده تناسي أنه لا يستطيع أن يعول زوجتين وأسرتين ووو..فيخادن ويخالل، ويعيش في

(١) شرح النووي على مسلم: ١٥/٢١٣.والحديث رواه البخاري كتاب: النكاح باب: الْقُرْعَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا رقم :٥٢١١، ومسلم كتاب:الفضائل باب: في فضل عائشة رضي الله تعالى عنهما رقم :٢٤٤٥.

ظـلام حياة العشق والحرام فيتعالى على زوجته ويتعامـل معها بهمجية وسخط، لأنه يرتوي من خارج نطاق ريّه الحلال وهو يزعم أنه يحسن صنعاً، ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِيـنَ ضَـلَّ سَعْيُهُـمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُـمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُـونَ صُنْعًا﴿ ١٠٣ ﴾ [الكهف]فعلـى الزوجة أن تكون يقظـة لتقلبات زوجها ومن نسيـت أو تناست أو لم تستشعر ستستيقظ في الوقت الضائع وتندم ولات ساعة مندم.

رفـع الصوت علي الزوجة: يعمد من لا يتصف بالحكمـة إلى رفع صوته ونبراته المهدِّدة الزاجـرة الآمـرة الناهية، فيُسمع أسرتـه مالا تحب، ويُسمع جيرانه مـن يتوارى منه الكريم خجلا وأدباً، لكنه النشوز الذي أمره أن يسب زوجته، وأن يزجر أولاده، وأن يسبب لهم العقد النفسيـة، ويصـرخ في البيت صراخـا لا يتناسب مع رجل أو كريم ، ولا يـدري أحدٌ أنه يعيش مظهراً من مظاهر النشوز .

إخراج أسرار البيت: هذا المظهر هو من عين مظاهر النشوز عند المرأة، فمن لا يكترث بأسـرار بيتـه يعاني نشوزاً. بـل شذوذاً يؤذن بخـراب بيته وهدمه، وكشـف الأسرار عيب في الأحـرار، فضلا عـن أحرار الأزواج، هذه أبرز مظاهر النشوز عنـد الرجل كما رصدتُها من واقعٍ أعيشه.

المطلب السادس: أسباب النشوز عند الرجل .

مظاهر النشوز ـ كما أسلفت ـ هي عَرَضٌ كارتفاع درجة حرارة الجسم المنبئ عن مرض باطني ، والمرض يكمن في الأسباب حسب خبرة الطبيب، وهاك إياها ـ على قدر الاستطاعة:

الإجبـار على الزواج: بعضـ المجتمعات تجبر الابن على الزواج مـن قريبة أو حسيبة أو نسيبـة لغرضـ ما أو مصلحة، لكنـه لا يرغب فيها رغم قرابتها أو حسبهـا أو نسبها أو تيقن تحقـق المصلحـة، تعددت الأسباب والإكـراه واحد، مثل هذا الزواج ممـن لا يريدها، أو كان الـزواج لشاب لا يشغله الزواج أصـلا لسبب أو لآخر لكنه تحت الضغط والإكراه تزوج بمن لا يريدها، عند ذلك يظهر النشوز والإعراض، ولا يدري من أجبره أن الزواج راحة نفسية بقدر ما هو سنة سَنّية، و أنه تدور عليه الأحكام الخمسة ـ كما هو مبين في كتب الفروع.

سـوء خلق الزوجة: مـن أهم مظاهر النشـوز والشرود عن البيت والأسـرة والزوجة ما

يجـري على لسان بعض الزوجات مما يعف عنه اللسان من بذيء القول الموجه إلى الذرية أو الزوج أو الأقارب أو الجيران مما يزهد الرجل الكريم في زوجه، وقد بينت ما يتعلق بالأقوال الفاحشة ومدي النهي عنها في عنصر [سوء خلق الزوج] وفيه الكفاية.

عدم التكافؤ: قد يكون عدم التكافؤ كائنا قبل الزواج، وله ما بعده من استفاقة في الوقت الخطأ، وقد يكون بعد الزواج - وهو من مستجدات المشاكل - وذلك بتنامي عقلية الزوج وتقدمه على محاور المعرفة والرقي الثقافي والعلمي والوظيفي مع ركود - لا تقدم معه - بالنسبة لعقلية الزوجة التي لا تقبل الترقي ولا التحديث، وقد أسلفت ما يتعلق شرعا بالتكافؤ في مثل هذا العنصر في جانب المرأة.

الجهل بالحياة الزوجية وتبعاتها: هناك من النساء من يجهلن أبجديات الحياة الزوجية، فيصبحون ويغدون ويمسون وهن لا فقه لديهن يتصل بواجبات الأسرة، أو واجبات الأولاد أو واجبات الزوج وخدمته إذ لا خلاف بين الفقهاء في جواز خدمة المرأة لزوجها وإنما الخلاف في وجوب هذه الخدمة[1]، أو واجباتهن نحو الترشيد أو الإنفاق أو العلاقة الحميمة على سرير الزوجية، مما يضيق بسببه الزوج ذرعا ويفارق فراق غير وامقٍ تكون بدايته من النشوز كعرض لمرض.

الخُلَّة الفاسدة: السكن والمودة والرحمة هذه الثلاثة هي صمام أمان الزوجين، لكن الزوج قد يجنح إلى ما يحركه حركة تفسده على زوجه من خلال اكتساب الخلة الفاسدة وما ينجم عنها من تصدير لفكر لا يمت إلى الأسرة وصالحها بصلة، فأصدقاء السوء يوسوسون ويخططون وينفذون حتى يقوضون الأسرة ، والعاقل من يطلِّق مجموعته التى كان قبل الزواج يسهر معها، ويعبث معها ، ليتحول بزواجه من متحرك إلى ساكن " ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] خاصة بالليل ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ [يونس: ٦٧] ﴿ اللَّهُ

(١) فالشافعيـة والحنابلـة وبعض المالكية إلى أنه لا يجب على الزوجة خدمة زوجها، والأولى لها فعل ما جرت العادة به.وذهب الحنفية إلى وجوب خدمة المرأة لزوجها ديانة لا قضاء، وذهب المالكية إلى أنه يجب على المرأة خدمة زوجها في الأعمال الباطنة التي جرت العادة بقيام الزوجة بمثلها إلا أن تكون من أشراف الناس فلا تجب عليها الخدمة، إلا أن يكون زوجها فقير الحال، انظر بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني : ١٩٢/٤، والمبسوط للسرخسي: ٣٣/١١، وفتح الباري لابن حجر :١٢٣/٩.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ [غافر: ٦١] ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ [الأنعام: ٩٦] فمن لا يسكن بيته ليلاً من الرجال ـ لا لعذر ـ يكون ناشزاً، إذ زوجه ما تركت عز أبيها ، وبيت أسرتها التـي كانـت تعيش فيه مدللة إلا لتجد أنيساً يهبها أمناً وأماناً في الليل قبل النهار، لا أن تعيش وسادةً خالية من حلِّها ؟!

التحريض العائلـي: يحكي لنا الواقع أن بعض الآباء والأمهات يخيّل إليهم أن ولدهم بعـد الزواج لازال طفلا مدللاّ لديهم، ينسـون أو يتناسون أنه تزوج واقترن بزيجة لها حقوق المرافقة وعدم المفارقة إلا لضرورة، وبما ان هذا الأمر ليس منساغاً ولا مستوعباً لدي شريحة من الآباء فإنهم يعكرون على ولدهم حياته خاصة إذا لم يكن متضلعا من ثقافة دين الإسلام وأمـره ونهيـه فيفسدون عليه حياتـه ليقع بين فكي رحى بين متطلبات زوجـه ومتطلبات أهله فيكون النشوز ومن ثم ما بعده.

الانسحـاق في الشبكة العنكبوتية: تلك كـبري المصائب المعاصرة التي حلت على العالمين ـ خاصـة المسلمـين ـ حيث انصـراف معظـم الأزواج إلى ما تعطيه من طـرف اللسان حلاوة فتفسـده على زوجه وتصيبه بالشرود وتتركه بعـد أن تجني عليه وعلى أسرته ليجد نفسه في العـراء، لم يكترث بديـن ولم يحفُل بضمير ولا بأُسرة ولا بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وكمـا تقـدم البشر بسبب شبكة المعلومـات الدولية، فإنه من خـلال جانبها السلبي قد تأخـر، بـل تاه حتى خُسـف به وبـداره الأرض، فانصرف كثـير مـن الأزواج إلى الساقطات وبائعات الهوى والحرام فنشز عن زوجه المسكينة وهي لا تدري.

وقـد ترجـع ـ أيضـاً ـ أسباب النشـوز فوق ما تقـدم إلى انعدام الحـوار وذلك بالخرس الزوجـي، وكـبر سن الزوجة مع احتفـاظ الزوج بحيويته وقوته، وعـدم الإنجاب أو قلته عند المستكثريـن منـه، وكـثرة المشاجرات بـين الزوجين، .وقد يكـون السبب هو الهـوى والحمق والتمرد .وهلم جرا. وقانا الله شره.

المطلب السابع: كيف عالج القرآن النشوز ومقدماته عند المرأة ؟

ــ عالج الإسلام نشـوز المرأة بطريقة حكيمة خلـت من الآثار السلبيـة الجابية ، وذلك

من خلال قوله تعالى: " ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤، ٣٥]

قبل الدخول في علاج النشوز: الوعظ والهجر والضرب يجب أن نتيقن بأن النشوز إن كانت له أسبابه التي حصل بسببها، فمن المسَلَّم أن إزالة هذه الأسباب يجب أن يمهد للصلح وانسياب الحياة بين الزوجين؛ لأننا نؤمن بأن الجراح لا تندمل إلا بتطهيرها ومحو أسباب تَقَيُّحهَا، وبذا تقتنع العاقلة من الزوجات بأن سبب النشوز قد انتهى، وبهذا تعود المياه إلى مجاريها، أما إذا كان السبب في النشوز هو الهوى وهدم الأسرة منها فإن الإسلام يقف أمام زوجةٍ من هذا القبيل وقوف الطبيب الحاذق أمام مريضِه ليعالجه بحنكة وحكمة ومهارة كما يلي:

الوعظُ: أتى الوعظ صَدْرا في معالجة الخوف من حدوث النشوز. والوعظ: ترقيق الكلام المشتمل على تذكير المرأة بالله من خلال الترغيب والترهيب والجنة والنار، وذكر ما يتصل بالثواب والعقاب من الآيات والأحاديث وقصص السلف الصالح والمواقف المؤثرة، "وَالْوَعْظُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْمَرْأَةِ، فَمِنْهُنَّ مَنْ يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهَا التَّخْوِيفُ مِنَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَعِقَابِهِ عَلَى النُّشُوزِ، وَمِنْهُنَّ مَنْ يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهَا التَّهْدِيدُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ فِي الدُّنْيَا، كَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْمَنْعِ مِنْ بَعْضِ الرَّغَائِبِ كَالثِّيَابِ الْحَسَنَةِ وَالْحُلِيِّ، وَالرَّجُلُ الْعَاقِلُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ الْوَعْظُ الَّذِي يُؤَثِّرُ فِي قَلْبِ امْرَأَتِهِ"[1] ويجب أن يكون الوعظ في ظرف مناسب للقبول وذلك بـ " أن تنتهز فرصة انسجام المرأة معك، وتنصحها في الظرف المناسب لكي يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك"[2] والمفترض أن نقف عن هذا العلاج لنجاعته، لكن لو لم يفلح العلاج بالوعظ فيكون الهجر.

الهجر: وهو العلاج الثاني عند فشل الوعظ، بأن يولي الزوجُ زوجَه ظهره في فراشها، أو لا يكلمها شريطة ألا يعرف ذلك الأولاد أو الأهل أو غيرهم من الأناسي؛ لأن شهود الأولاد

(١) تفسير المنار: ٥/٥٩.

(٢) خواطري حول القرآن: ١٥٠١

ذلك يعني كسراً لكبريائها وشموخها، وبدلا من أن يُكْحلَهَا فإنه يعميها، وتزداد الأمور تعقيداً، وبـذا يفشل العلاج الثاني، يقول الشعراوي - رحمه اللَّه تعالى - " والمرأة عادة تُدل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها، وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرَجل عليها؛ لأن تكويـن الرجـل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المـرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجـل فهـو لا يقدر أن يصبر، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثـار بسرعة، فأنت ساعة ترى هذه الحكاية، وهـي تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال؛ فأعط لها درساً في هذه الناحية، اهجرها في المضجع [1] والهجر كما بينتْ الآية الكريمة مقيد بالمضجع أي: في سرير الزوجية حتى لا يتولد العناد الذي تثأر به المرأة لكرامتها عندما يظهره الزوج ويفشيه، وعلى الأكـثر في نطـاق البيت كما قيده رسولنا الكريم - ﷺ - "وَلاَ تَهْجُرْ إلاَّ فى الْبَيْت"[2] بل لا يزيد الهجـر عـن ثلاث كما قال - ﷺ - : " وَلا يَحِـلُّ لِمُسْلم أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَـوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ" لكن في الزوجية قد يزيد تأديبا وفق ما يصلح الزوجة. وماذا لو لم يفلح الهجر؟

لضـرب: ذاك الـذي شغب بسببه العلمانيون واللادينيـون وأضرابهم على القرآن وعلى الإسلام وعلى المسلمين[3]، ولو علموا أن الله - تعالى - أتى بالضرب في ذيل العلاجات التقويمية

---

(١) السابق.

(٢) أبو داود: كتاب: النكاح باب: فى حَقِّ الْمَرْأَةِ عَلَى زَوْجِهَا، رقم ٢١٤٤،٢/ ٢١٠.وقال الألباني حسن صحيح.

(٣) يقـول صاحـب المنار مصورا موقف الآخر من الضرب : " يَسْتَكْبِرُ بَعْضُ مُقَلِّـدَة الْإِفْرِنْجِ فِي آدَابِهِمْ مِنَّا مَشْرُوعِيَّةَ ضَرْبِ الْمَرْأَةِ النَّاشِزِ، وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ أَنْ تَنْشُزَ وَتَتَرَفَّعَ عَلَيْه، فَتَجْعَلَهُ وَهُوَ رَئِيسُ الْبَيْتِ مَرْءُوسًا بَلْ مُحْتَقَرًا، وَتُصِرُّ عَلَى نُشُوزِهَا حَتَّى لَا تَلِينَ لِوَعْظِه وَنُصْحه، وَلَا تُبَالِيَ بِإِعْرَاضه وَهَجْره، وَلَا أَدْرِي بِمَ يُعَالِجُونَ هَؤُلَاءِ النَّوَاشِزَ؟ وَبِمَ يُشِـيرُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِـنَّ أَوْ يُعَامِلُوهُنَّ بِهِ؟ لَعَلَّهُمْ يَتَخَيَّلُـونَ امْرَأَةً ضَعِيفَةً نَحِيفَةً، مُهَذَّبَةً أَدِيبَـةً، يَبْغِي عَلَيْهَا رَجُلٌ فَـظٌّ غَلِيـظٌ، فَيُطْعِـمُ سَوْطَهُ مِنْ لَحْمِهَا الْغَرِيضِ، وَيَسْقِيه مِنْ دَمِهَـا الْعَبِيطِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ اللهَ تَعَـالَى أَبَاحَ لَهُ مِثْلَ هَـذَا الضَّـرْبِ مِنَ الضَّرْبِ، وَإِنْ تَجَرَّمَ وَتَجَنَّى عَلَيْهَا وَلَا ذَنْبَ، كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنْ غِلَاظِ الْأَكْبَادِ مُتَحَجِّرِي الطِّبَاعِ، وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ يَـأْذَنَ بِمِثْلِ هَذَا الظُّلْمِ أَوْ يَرْضَى بِه، إِنَّ مِنَ الرِّجَـالِ الْجَعْظَرِيَّ الْجَوَّاظَ الَّذِي يَظْلِمُ الْمَرْأَةَ بِمَحْضِ الْعُدْوَانِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي وَصِيَّةِ أَمْثَالِهِمْ بِالنِّسَاءِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ، وَيَأْتِي فِي حَقِّهِمْ مَا جَاءَتْ بِه الْآيَةُ مِنَ التَّحْكِيمِ، وَإِنَّ مِـنَ النِّسَاءِ الْفَوَارِكَ الْمَنَاشِيصَ الْمُفَسِّلَاتِ اللَّوَاتِي يَمْقُتْنَ أَزْوَاجَهُنَّ، وَيَكْفُرْنَ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِنَّ، وَيَنْشُزْنَ عَلَيْهِمْ صَلَفًا وَعِنَادًا، وَيُكَلِّفْنَهُمْ مَا لا
طَاقَةَ لَهُمْ بِه، فَأَيُّ فَسَادٍ يَقَعُ فِي الْأَرْضِ إِذَا أُبِيحَ لِلرَّجُلِ التَّقِيِّ الْفَاضِلِ أَنْ يُخَفِّضَ مِنْ صَلَفِ إِحْدَاهِنَّ، وَيُدَهْوِرَهَا مِـنْ نَشَـزِ غُرُورِهَا بِسِوَاكٍ يَضْرِبُ بِه يَدَهَا، أَوْ كَفٍّ يَهْوِي بِهَا عَلَى رَقَبَتِهَا؟ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَئِمَّتِهِمُ الْإِفْرِنْجِ يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُـمُ الْعَالِمَاتِ الْمُهَذَّبَاتِ وَالْكَاسِيَـاتِ الْعَارِيَاتِ، الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ، فَعَلَ هَذَا حُكَمَاؤُهُـمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، وَمُلُوكُهُمْ وَأُمَرَاؤُهُـمْ، فَهُـوَ ضَـرُورَةٌ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَـا الْغَالُونَ فِي تَكْرِيمِ أُولَئِـكَ النِّسَـاءِ الْمُتَعَلِّمَـاتِ، فَكَيْفَ تَسْتَنْكِـرُ إِبَاحَتَهُ لِلضَّرُورَةِ فِي دِينٍ عَامٍّ لِلْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْبَشَرِ؟ !" ٥/ ٦١ .

للزوجة الناشز أو من نستشعر نشوزها، وليس في مقدمتها لأصيبوا بالخرس، إذ هو مرحلة تغني عنها مرحلتان سابقتان﴿ الوعظ والهجر ﴾قال ابن العربي:" مِنْ أَحْسَنِ مَا سَمِعْت فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ: يَعِظُهَا فَإِنْ هِيَ قَبِلَتْ وَإِلَّا هَجَرَهَا، فَإِنْ قَبِلَتْ وَإِلَّا ضَرَبَهَا، فَإِنْ هِيَ قَبِلَتْ وَإِلَّا بَعَثَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا، فَيَنْظُرَانِ مِمَّنْ الضَّرَرُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الْخُلْعُ"(١)

ويقرر صاحب المنار بأنه:" يُبَاحُ الضرب إِذَا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ رُجُوعَ الْمَرْأَةِ عَنْ نُشُوزِهَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ، وَإِذَا صَلَحَتِ الْبِيئَةُ، وَصَارَ النِّسَاءُ يَعْقِلْنَ النَّصِيحَةَ، وَيَسْتَجِبْنَ لِلْوَعْظِ، أَوْ يَزْدَجِرْنَ بِالْهَجْرِ، فَيَجِبُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الضَّرْبِ، فَلِكُلِّ حَالٍ حُكْمٌ يُنَاسِبُهَا فِي الشَّرْعِ، وَنَحْنُ مَأْمُورُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ بِالرِّفْقِ بِالنِّسَاءِ، وَاجْتِنَابِ ظُلْمِهِنَّ، وَإِمْسَاكِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ تَسْرِيحِهِنَّ بِإِحْسَانٍ، وَالْأَحَادِيثُ فِي الْوَصِيَّةِ بِالنِّسَاءِ كَثِيرَةٌ جِدًّا." (٢) ولا ينسى المعترض أن هذه آية محكمة ، فإن كان من المسلمين الموحدين فعليه أن يلتزم الأدب مع الله تعالى الذي يؤمن به، ولا يكونن من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وإن كان من غيرنا فعليه أن يعي جيداً أن الضرب له ظرف معين، وشريحة معينة من الزوجات وليس كل الزوجات فليس كل علاج يصلح لكل مرض، وبكيفية معينة، وبأوصاف معينة، وبقيود معينة، فالأمر ليس على إطلاقة كما يزعق الزاعقون وينعق الناعقون .

فالضرب أشبه ما يكون بالضرب النفسي لا الضرب الجسدي.

كما ضرب لنا رسولنا الكريم مثلا هو أشبه ما يكون بالعتاب الحاني بين الزوجين وذلك عندما تتبعت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ النبي ـ ﷺ عند خروجه إلى البقيع دون إعلامها وكانت ليلتها ثم رجعت واضطجعت قبله ثم دخل ـ ﷺ ـ : فَقَالَ: "مَا لَكِ؟ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً" قَالَتْ: قُلْتُ: لَا شَيْءَ، قَالَ: "لَتُخْبِرِنِّي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" قَالَتْ: قُلْتُ:

(١) أحكام القرآن لابن العربي:١/٥٣٥.

طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، فَأَيُّ فَسَادٍ يَقَعُ فِي الْأَرْضِ إِذَا أُبِيحَ لِلرَّجُلِ التَّقِيِّ الْفَاضِلِ أَنْ يُخَفِّضَ مِنْ صَلَفِ إِحْدَاهُنَّ، وَيُدَهْوِرَهَا مِنْ نَشَزِ غُرُورِهَا بِسِوَاكٍ يَضْرِبُ بِهِ يَدَهَا، أَوْ كَفٍّ يَهْوِي بِهَا عَلَى رَقَبَتِهَا؟ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَئِمَّتِهِمُ الْإِفْرِنْجِ يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمُ الْعَالِمَاتِ الْمُهَذَّبَاتِ وَالْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ، الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ، فَعَلَ هَذَا حُكَمَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ، وَمُلُوكُهُمْ وَأُمَرَاؤُهُمْ، فَهُوَ ضَرُورَةٌ لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا الْغَالُونَ فِي تَكْرِيمِ أُولَئِكَ النِّسَاءِ الْمُتَعَلِّمَاتِ، فَكَيْفَ تَسْتَنْكِرُ إِبَاحَتَهُ لِلضَّرُورَةِ فِي دِينٍ عَامٍّ لِلْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْبَشَرِ؟!" ٥/٦١ .

(٢) تفسير المنار: ٥/ ٦٣.

يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: "فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟" قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: "أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟" قَالَتْ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: "فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ"، قَالَتْ: قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ "قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ"[1] وجو الحديث يوحي بحميمة العتاب المصاحب للهَدَته - ﷺ - إياها، ومن هنا كانت مصداقية ما روى عُرْوَة، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - خَادِمًا لَهُ قَطُّ وَلَا امْرَأَةً لَهُ قَطُّ"[2]

وقد ذهب ابن عاشور إلى أن الضرب هو عرف بعض الطبقات من النساء أو بعض القبائل، والناس متفاوتون في ذلك، وأهل البدو منهم لا يعدون ضرب المرأة اعتداء، ولا تعده النساء أيضاً اعتداء.. فلا جرم أنه أذن فيه لقوم لا يعدون صدوره من الأزواج إضراراً ولا عاراً ولا بدعا من المعاملة. مع تقبيح المبالغة في الإيذاء والضرب وإذا وجدنا في النصوص الشرعية ما يبيح الضرب لبعض الأزواج في بعض الأحيان، فإننا سنجد في هذه النصوص ما يمنع مبالغة كل الأزواج في الإيذاء والضرب في كل الأحيان.

فليس لزوج أن يجلد زوجته، وليس لزوج أن يلطم وجهها، ويترك أثراً من الإيذاء في جسدها. فعليه أن يجتنب الوجه والمواضع المخوفة؛ لأن المقصود التأديب لا الإتلاف. وقد روى أبو داود عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه، قال قلت: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: " أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت".[3]

ومـا دام "يوجد في هذا العالم امرأة من ألف امرأة تصلحها هذه العقوبة، فالشريعة التي يفوتها هذا الغرض شريعة غيرُ تامة، لأنها بذلك تُؤثِر هدم الأسرة على هذا الإجراء

(١) مسلم كتاب: الجنازة باب:ما يقال عند دخول القبور رقم ٢٣٠١.ومعنة "حشيا رابية" سرعة الشهيق والزفير، ولهد : دفع أو ضرب.

(٢) مسند أحمد رقم :٢٤٠٣٤، قال محققه : حديث صحيح.

(٣) التحرير والتنوير: ٤٢/٥.

وهذا ليس شأنه شريعة الإسلام المنزلة من عند الله " .[1]

ـ والضرب ليس عزيمة بل هو رخصة "عَنْ إِيَاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ قَالَ: "قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لا تَضْرِبُنَّ إِمَاءَ اللَّهِ، فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ ذَئِرَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِنَّ فَضُرِبْنَ، فَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ طَائِفُ نِسَاءٍ كَثِيرٍ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لَقَدْ طَافَ اللَّيْلَةَ بِآلِ مُحَمَّدٍ سَبْعُونَ امْرَأَةً كُلُّ امْرَأَةٍ تَشْتَكِي زَوْجَهَا فَلَا تَجِدُونَ أُولَئِكَ خِيَارَكُمْ" [2]

لذا فإن المجمع عليه أن ضرب الزوجة له مواصفاته التي لا تكسر عظما، ولا تدمي جسداً، ولا تؤذي عضوا، ولا تترك ندبة، بل بمثل السواك، وبلون من ألوان الخوف على المضروب لا التشفي فيه، وقد أسلفنا ما جاء عن نبينا وهو متفق مع ما علمنا إياه ربنا " في قصة سيدنا أيوب ـ عليه السلام ـ عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ [ص: ٤٤] .والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوباً بحنان الضارب فهي تطيع من نفسها، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذي خلقنا يُشَرِّع حكماً تأباه العواطف، إنما يأباه كبرياء العواطف، فالذي شرع قال هذا لا بد أن يكون هكذا "[3]

ـ والضرب المباح بالصورة التى أسلفناها أقل ضررا من تطليق المرأة ـ طالما لم تستحل العشرة، والضرر يزال، والضرر الأعظم يزال بالضرر الأخف، وارتكاب أخف الضررين حسنا جميلا وهو مقصد شرعي ـ كما لا يخفي على من له دربة بعلم المقاصد والموازنات.

ـ بهذا الفهم، وبتلك البراهين العقلية والنقلية نستطيع أن نكون رددنا على العلمانيين ومن لف لفهم ممن يثيرون الغبار على ثوابت هذا الدين العظيم شبههم .

وبما أننا وقفنا على علاج النشوز عند المرأة حري بنا ان نقف على كيفية علاج نشور الرجل .

(١) الإسلام دين العدل محمد فج النور: ١٥.

(٢) ابن ماجه كتاب: النكاح باب: ضرب النساء، رقم:١٩٨٥، والحديث حسن صحيح انظر صحيح وضعيف سن ابن ماجه ح١٩٨٥.

(٣) خواطري حول القرآن للشعراوي: ١/ ١٥٠٢.

المطلب الثامن : كيف عالج القرآن الكريم النشوز ومقدماته عند الرجل

الرجل قيم بيته، وهو سيده المطاع في طاعة، ومن الشفافية وحسن الإيمان أن يكون واضحاً صريحاً مع زوجه وشريكته في مسيرته الحياتية طالت أو قصرت، وبما أن القلوب تقلّب، فإن الرجل قد يصبح راضيا فيمسي ساخطاً، ويمسي ساخطاً فيصبح راضياً، وقد يخرج من بيته فتطيب له زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة فيكتم أمره نظرا لرعونة النساء ووجدهن على أزواجهن الذي يتصاعد ليصل إلى هدم البيت على من فيه تشفياً لكرامة مزعومة، إذ الحلال ما أحله الله، ولطالما كان الرجل رشيداً يعي أمكاناته ويتيقن استطاعته فعليه إن خاف ألا يفعل، وإن فعل ألا يخاف، ولا ثالث من مماحكاة تسقط الرجل من عين ناظريه؛ لأنه يخاف من زوج رعناء، أو نسب سيجرده من عِزّة ويلزمه الذل أو ما شابه ذلك من مراكز القوى التي تتحكم في بعض الرجال .

أقول هذا لأن بعضنا يريد شيئا معيناً كزواج مكرر مثلا ولا يكاد يُبين، ويعيش ضغطاً نفسياً وعصبياً واجتماعياً قد يصير بسببه خائفاً وبسبب الخوف من الحلال رغم تمنيه يخادن أو يخالل أو ينافق أو أو الخ فتري الزوجة حال زوجها .في هذه الأثناء . متغيراً ولا تدري ما السبب ؟ الجواب إنه النشوز الذي أسلفنا مظاهره وأسبابه وهاك علاجه، قد يتأثر الزوج بأحد أسباب نشوز الرجال التي أسلفتها في المطلب السادس .

وحري بنا أن نتلمس العلاج في قوله تعالى:﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٨]

ومعنى الآية إجمالا:" وإن علمت امرأة من زوجها ترفعًا عنها، وتعاليًا عليها أو انصرافًا عنها فلا إثم عليهما أن يتصالحا على ما تطيب به نفوسهما من القسمة أو النفقة، والصلح أولى وأفضل. وجبلت النفوس على الشح والبخل. وإن تحسنوا معاملة زوجاتكم وتخافوا الله فيهن، فإن الله كان بما تعملون من ذلك وغيره عالمًا لا يخفى عليه شيء، وسيجازيكم على ذلك"(٤)

قالت عائشة رضي الله عنها "هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها

(٤) التفسير الميسر: ٩٩.

ويتــزوج عليهــا تقول له أمسكنــي ولا تطلقني وأنت في حل من النفقة علــي والقسمة لي " (١).
وقالت عائشة إن سودة لما أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله يومي لعائشة فقبل ذلك منها ففي تلك وأشباهها أراه أنزل الله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا). وقد يكون هذا الخيار هو الأصلح للمرأة لوضعها اجتماعيا أو نفسيا .

وطريق علاج المرأة لنشوز زوجها يكون بتتبع الآتي:

أولا: أن توافقــه على ميله إن أراد زواجا بأخــري تفاديا للطلاق، أو أن تتنازل عن ليلتها للزوجة التي يحبها زوجها لنفس الغرض.

ثانيا- تنصحه مذكرة إياه بالله ثم بحقوقها، محذرة من الظلم .

ثالثــاً- أن تحكي لمــن تثق في دينه وأمانته مــن أهلها ليقوم بوساطة تفضــي إلى إقناعه وإعادة المياه إلى مجاريها ، إن لم تفلح النصيحة .

رابعاً- إن لم تفلح حاكمته ليطلق أو تخلعه .

هــذا ما تيسر من علاج لأمــر النشوز عند الزوج وبذا يسدل الستــار على قضية حياتية اجتماعيــة لها خطرهــا قمت بفضل الله باستقرائها اجتماعيا ومــن ثم تسليط الضوء عليها قرآنيــا ، وأظــن أن أوفق البحوث ما كان مشتبــكاً بالواقع ويعالج قضيــة حياتية لها خطرها كالنشوز.

(١) رواه البخاري كتاب: النكاح باب: وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا رقم:٥٢٠٦، ومسلم كتاب: التفسير باب: وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا رقم: ٣٠٢١.

الخاتمة

بعد حمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات أستطيع أن أقف عند نقاطه المفصلية فأقول:

١. شخص البحث مرض النشوز استقراءً اجتماعياً واقعياً ووصف الدواء من خلال القرآن والسنة وأقوال السلف، ولا شك أن أنفع البحوث العلمية ما كان حلا لمشكلة واقعية، أسأل الله أن يكون هذا البحث كذلك.
٢. عرف البحث النشوز لغة واصطلاحا وبين العلاقة بين اللغة والاصطلاح.
٣. أبان البحث عن خطورة النشوز وأنه أصبح ظاهرة متفشية نتج عنها انتشار الطلاق وانهيار الأسر إلا من رحم ربي من زوج استشعر خطره فانتصر عليه بتطبيق تعاليم الإسلام ومن ثم أحبطه.
٤. كشف البحث مظاهر النشوز في حق الرجل والمرأة كَعَرَض لمرض بحيث إن من لامسه استشعره في مهده واستطاع بتوفيق الله ثم بالأخذ بالأسباب أن يسيطر عليه.
٥. ذكر البحث أبعاداً ثلاثة هي أسباب لنشوز: البعد العام الذي يصدر عنه كل نشوزٍ، والبعد الخاص بالرجل، والبعض الخاص بالمرأة.

ــ بلغة ميسرة وبحجة مفحمة تم الرد على من يتهم الإسلام بأنه يميز ضد المرأة ويأمر بضربها ببيان دقائق هذه القضية التي من جهلها شغب علينا فيها.

.تم من خلال هذا البحث معالجة مرض النشوز من خلال القرآن والسنة ومدرسة الحياة لدي الباحث الذي منّ الله عليه بانغماسه في التعرض لمشكلات مجتمعه على مدار خمس وثلاثين سنة وحضور الجلسات العرفية التي تخص النشوز ودواعيه .

التوصيات :

أوصي بترجمة بحثي هذا، ومن ثم طبعه وإخراجه بصورة مسموعة ومكتوبة، بلغات متعددة وتوزيعه على الشباب المقبل على الزواج في العالم العربي والغربي، لعل الله ينفع به بني جلدتنا من الشباب المقبل على الزواج، وفي نفس الوقت يرد العاديات عن الإسلام الذي يتهمونه بأنه يميز ضد المرأة.

قائمة المراجع والمصادر

أولا التفسير :

إرشاد العقل السليم لأبي السعود / دار إحياء التراث العربي – بيروت/ د ت

أضواء البيان للشنقيطي ، دار الفكر / بيروت / لبنان/١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ

البحر المحيط لأبي حيان / ت :صدقي محمد جميل/ دار الفكر بيروت/ ١٤٢٠ هـ

بصائر ذوي التمييز للفيروزاباد تحقيق: محمد علي النجار، الناشر:المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

التحرير والتنوير لابن عاشور / دار سحنون/ تونس / د ت.

تفسير القرآن العظيم لابن كثير/ ت:محمد حسين / دار الكتب العلمية بيروت/ الأولى ١٤١٩ هـ

تفسير المنار محمد رشيد رضا/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٩٠ م

التفسير الميسر لنخبة من العلماء / مجمع الملك فهد بالمدينة

جامع البيان للطبري/ د. التركي/ دار هجر / الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

الجامع لأحكام القرآن ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش/ دار الكتب المصرية / القاهرة/ط ٢/ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

خواطري حول القرآن للشعراوي / دار أخبار اليوم / د.ت.

زهرة التفاسير لأبي زهرة / ط دار الفكر العربي بمصر / د ت .

اللباب في علوم الكتاب لابن عادل/ الكتب العلمية / بيروت / ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م/الأولى.

ثانيا الحديث وشروحه :

سنن أبي داود:ت/ شعَيب الأرنؤوط و محَمَّد كامِل / الرسالة العالمية/ الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

شرح النووي على مسلم/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/الثانية ، ١٣٩٢هـ

صحيح البخاري ت/ محمد زهير / دار طوق النجاة/ الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ

صحيح مسلم، ت/محمد فؤاد عبد الباقي/ دار إحياء التراث العربي – بيروت/ دت.

مسند أحمد ت/أحمد محمد شاكر/دار الحديث – القاهرة/ الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

ثالثا : اللغة العربية :

المفردات في غريب القرآن للراغب، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ

مقاييس اللغة لابن فارس . طبع عيسى الحلبي بمصر . دت

رابعا : الفقه :

بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني/دار الكتب العلمية/الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

الحاوي الكبير في فقه الشافعي للماوردي/ ت على معوض / الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩م

شبهات حول حقوق المرأة في الإسلام نهى قاطرجي شبكة حقوقيات.

الإسلام دين العدل محمد فج النور/ ط مكتبة الفيحاء / ليدن/ دت .

أحمد مصطفى محمد منصور

- تاريخ الميلاد : ٢ / ٥ / ١٩٦٧م.
- مكان الميلاد : ولاية نهر النيل – محلية الدامر.

المؤهلات العلمية :

- بكالوريوس دراسات إسلامية.
- ماجستير دراسات إسلامية (تفسيرو علوم قرآن).
- دكتوراه دراسات إسلامية (تفسيرو علوم قرآن).
- دبلوم لغة انجليزية
- ماجستير ترجمة –عربي – انجليزي

الخبرات العلمية :

- جامعة أم درمان الإسلامية.
- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا.
- جامعة السودان المفتوحة.
- الكلية الأردنية السودانية
- جامعة كرري.

الدراسات والبحوث :

الحقوق المعنوية للحيوان في الإسلام .
نظرات في سيرة الإمام الأوزاعي.
التفسير الموضوعي بالجامعات السودانية.
تحليل الخطاب الخبري في القرآن الكريم.

المؤتمرات الخارجية :

مؤتمر حول التفسير الموضوعي – جامعة الشارقة. دولة الامارات
مؤتمر حول البلاغة وتحليل الخطاب – جامعة تيزي وزو – دولة الجزائر.

الهدى القرآني في التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي

إعداد

دكتور / أحمد مصطفى محمد منصور

مقدمة

يشير مصطلح وسائل الإعلام الاجتماعية إلى استخدام تكنولوجيات الإنترنت والمحمول لتحويل الاتصالات إلى حوار تفاعلي. وعرفت وسائل الإعلام الاجتماعية بأنها: (مجموعة من تطبيقات الإنترنت التي تبني على أسس أيديولوجية).

وذلك بين جميع مشتركي الشبكة مع إمكانيات التفاعل المباشر والحر على المواقع الاجتماعية وعند نهاية كل مقال أو خبر، كما أتاح الفرصة للمتلقين بأن يصنعوا برامجهم الإذاعية أو التلفزيونية التي يحبونها ويتابعونها وذلك بطرح مقترحات لمعد البرنامج، أو المشاركة بطرح أسئلة للضيف الذي سيستضاف بالبرنامج فنتج ما يسمى بالمواطن الصحفي، كما صار الشخص الذي يعيش الأحداث بإمكانه أن يصورها أو يكتب عنها ويرسل ما يصور أو يكتب إلى وسائل الإعلام المتلهفة للأخبار من مناطق لم يستطع مراسلو تلك الوسائل من دخولها فوسائل الإعلام الاجتماعية هي وسائل إعلام غيرت طريقة التواصل المعتادة.

أهم وسائل التواصل الاجتماعي:

أولاً: فيس بوك.

ثانياً: تويتر.

ثالثاً: واتساب.

رابعاً: الرسائل القصيرة.

عناصر الرسالة:

أولاً: المرسل أو مصدر الرسالة.

ثانياً: محتوى الرسالة.

ثالثاً: وسيلة الإرسال.

رابعاً: المستقبل.

أنواع الرسائل:

أولاً: الرسائل المكتوبة.

ثانياً: الرسائل المسموعة.

ثالثاً: الرسائل المصورة.

وقد أشتمل هذا البحث على ثلاثة مباحث تضم سبعة مطالب.

المبحث الأول

الضوابط العامة

المطلب الأول: تصحيح القصد والنية:

إن أول ما يجب على كل مسلم قبل التفكير في إنشاء حساب على هذه الوسائط الإعلامية والتفاعل مع روادها هو النظر إلى قصده ونيته من ذلك فللنية شأن عظيم في ديننا الحنيف وعناية كبرى عند قدوتنا ورسولنا المجتبى ﷺ وأئمة الهدى من بعده وقد وردت النية في العديد من آيات القرآن الكريم تختلف في ألفاظها وتتنوع في أساليبها وتتعدد في إشاراتها ويبقى الهدف واحد وهو الإخلاص لله رب العالمين ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴿٥﴾)[1] ومن هنا كانت عبارات السلف رضوان الله عليهم والتي تعلي من قدر النية وأن الأعمال لا وزن لها بغير نية ولا بد لكل عمل من نية وأنها قد تعظم الصغير من الأعمال وقد تصغر العظيم منها وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله (كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية ، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك)[2] فقبل دخولك إلى مواقع التواصل الاجتماعي تذكر الغاية التي خلقت لأجلها ، قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾)[3] وتذكر قول الناصحين، (لما علم الموفقون ما خلقوا له وما أريد بإيجارهم رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم فشمروا إليه وإذا صراطهم المستقيم قد وضع فأستقاموا عليه ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

(١) سورة البينة الآية (٥).

(٢) زاد المهاجر إلى ربه لأبن القمي، ص ص٦-٧.اجر إلى ربه لأبن القيم ، ص ص٦-٧.وا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأتا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم فشمروا إليه وإذا ص

(٣) سورة الذاريات الآية (٥٦).

بشر، في أبد لا يزول، ولا ينفد بصبابة عيش)[١]

فالمفتاح الذي ينبغي أن يستهل به المسلم نشاطه في وسائل التواصل الاجتماعي هو قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿ ١٦٢ ﴾)[٢] أما دورانه داخل هذه الوسائط فينبغي أن يبنيه على ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى : إيمان وتقوى.

القاعدة الثانية: عمل خالص لله تعالى.

القاعدة الثالثة: موافقة السنة النبوية المطهرة.

فأهل هذه الأصول الثلاثة كما يقول ابن القيم[٣] هم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسنة جميعها هي تجتمع في أصلين:

الأول: إخلاص في طاعة الله.

الثاني: إحسان إلى خلق الله.

وفي هذا تحقيق لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴿ ٢٠٨ ﴾)[٤] حيث يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع أوامر الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك زواجره ما استطاعوا من ذلك.[٥]

المطلب الثاني: السداد في القول:

إن ما يصدر عن المسلم من أقوال مقروءة أو مسموعة يصعب تداركها بعد صدورها خصوصاً في هذه الحالة التي نتحدث عنها وهي حالة التواصل مع أناس من شتى بقاع الأرض يكاد يكون من المستحيل ان يصل إليهم خبراً أو معلومة ما جميعاً ثم يصل إيهم تدارك او

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لأبن القيم ، ص٧.

(٢) سورة الأنعام والآية (١٦٢).

(٣) حادي الأرواح ، مصدر سابق ، ص٢٩٩.

(٤) سورة البقرة الآية (٢٠٨).

(٥) تفسير ابن كثير ، ج٢، ص٢٤٨.

تصحيح طرأ على ذلك ولذا يجب أن يكون ما نقول محاطاً بالسياج المتين، جاء في قوله تعالى : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿ ٣٦ ﴾)[١] كما يجب أن نضع نصب أعيننا قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿ ٧٠ ﴾)[٢] فلا نقول هجراً ولا نغلط في الحديث بل نتلطف في القول ونقول ما نحب أن نسمعه من غيرنا فالكلمة الطيبة يشبهها تعالى بأنها مثل الشجرة الطيبة التي تستقبل ما ينزل من السماء من ماء فينبت الله تعالى بذلك زرعاً وثمراً فقد قال عز وجل (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴿ ٢٤ ﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ ٢٥ ﴾)[٣] بل يعلي القرآن الكريم أحياناً من شأن الكلمة ويرفعها درجة فوق الفعل.

ومثال ذلك قوله تعالى : (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿ ٢٦٣ ﴾)[٤] وفي هذا يقول الإمام القرطبي رحمه الله (القول المعروف هو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة وفي باطنها لا شيء، لأن ذكر القول المعروف فيه أجر وهذه لا أجر فيها)[٥] فينبغي أن تكون كلماتنا نقية من المن والأذى لا يشوبها اختيال ولا تكبر ولا افتخار على الناس وازدراء لهم إذ يقول تعالى: (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴿ ٣٦ ﴾)[٦] فالمختال هو المتكبر، الفخور هو الذي يفخر على الناس بغير الحق تكبراً[٧] فالشأن ألا نبادر بالقول إلا بما هو طيب أما من بادرنا بالكلمة الطيبة فينبغي أن نكافأه ونزيده إحساناً فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نرد التحية بأفضل

(١) سورة الاسراء الآية (٣٦).
(٢) سورة الأحزاب الآية (٧٠).
(٣) سورة إبراهيم الآيات (٢٤-٢٥).
(٤)) سورة البقرة الآية (٢٦٣).
(٥) تفسير القرطبي ، ج٣، ص٣٠٩.
(٦) سورة النساء الآية (٣٦).
(٧) معالم التنزيل للبغوي، ج٢، ص٦٤.

منهـا حيث قال: (وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَـا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴿ ٨٦ ﴾)[1]

المطلب الثالث: الإحسان في الفعل:

الفعـل الصادر من المسلم هو بمثابـة التطبيق العملي الذي تؤديـه الجوارح تصديقاً لما قـر في القلب ونطق به اللسان أو تكذيبـاً لذلك فالمسلم قد يعزم على فعل الخير ويقول بذلك لسانـه وتصـدق جوارحه ذلك، وقد يعرض له عارض يمنعه مـن ذلك وهو في الحالين مثاب بـإذن الله تعالى، وآخر قد تحدثه نفسه بالسوء ويقـول اللسان بذلك فإن رجع عن ذلك أجر وإن تمـادى أثم وفي حديثنا عن استخدام وسائـل التواصل الاجتماعي يأتي الحديث عن حق الله تعـالى وحق الآدميـين والذي ينبغي التنبيه إليـه كما يقول فقهاء الشريعـة الغراء أن ما مـن حق لآدمـي إلا والله فيه حق وأن من حـق الله على كل مكلف تـرك أذاه لغيره،[2] ومبدأ التفاعـل بـين الناس يجب أن يكون على هدى الله سبحانه وتعالى الذي يرسمه لعباده المتقين حيث يقول جل من قائل : (وَالْعَصْرِ﴿ ١ ﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴿ ٣ ﴾)[3]

فالعلاقة التـي تحكم المشاركين في وسائل التواصـل الاجتماعي هو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَـرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّـن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانـاً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَـادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شنأ نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُـمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْـوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿ ٢ ﴾)[4] ففي هذه الآية كما يقول ابن كثير رحمه الله[5] يأمـر تعالى عباده المؤمنـين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى وعلى هذا فكل مسلم مأمور أن يفعل لله ويترك لله استنـاداً إلى شروط صحة التكاليف

(١) سورة النساء الآية (٨٦).

(٢) محاضرات في المبادئ العامة في قانون العقوبات، المستشار جمال المرصفاوي، ص٣٢.

(٣) سورة العصر الآيات (١-٣).

(٤) سورة المائدة الآية (٢).

(٥) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٦.

بالأفعال الثلاثة وهي: [1]

الأول: أن يكون معلوماً للمكلف علماً تاماً حتى يستطيع المكلف القيام به كما طلب منه.

الثاني: أن يكون معلوماً أن التكاليف صادرة ممن له سلطان التكليف ، وممن يجب على المكلف اتباع أحكامه.

الثالث: أن يكون الفعل المكلف به ممكنا.

وبعد استيفاء هذه الشروط يتأكد لكل مكلف أنه مسؤولاً عن كل ما يصدر عنه من أفعال كما تقرر ذلك الآية الكريمة، قال تعالى : (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴿ ١٣ ﴾) [2]

فالإمـام الألوسـي في تفسيره يقول في هـذه الآية : (أي وألزمنـا كل إنسان مكلف عمله الصـادر منه باختياره) [3] ومن هذه النصوص يمكننا أن نقول أن على رواد وسائل التواصل الاجتماعي التقيد بالآتي:

أولاً: مراعاة مصالحهم الذاتية.

ثانياً: مراعاة مصالح م الذاتية.

نقول أن على رواد وسائل التواصل صدر عنه من أفعال كما تقرر ذلك الآية الكريمة

بر، وترك المنكرات وهو التقون يتفاعلون معهم.

ثالثاً: مراعاة مصالح الآخرين.

رابعاً: كف الأذى عن الجميع.

(١) علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف، ص١١٥.

(٢) سورة الاسراء الآية (١٣).

(٣) روح المعاني للألوسي، ج١٥، ص٣١.

المبحث الثاني

ضوابط إنشاء الحساب الإلكتروني:

المطلب الأول: مراعاة شرعية المضمون:

مـن المعلوم أن العلاقـة بين العلوم. الشرعيـة وغيرها ليست جديـدة مبتدعة بل يمكن تصنيفها أنها نشأت منذ مهد الرسالة التي جاءت لتقر ما هو صالح وتقوم ما هو معوج وتنفي مـا هـو طالح وقد شاعت محـاولات ومساعي استيعـاب التطورات الكـبرى في مجال المعرفة الانسانيـة في البيئة المسلمة وتفاعلت مع ذلك تفاعلاً ايجابياً ومن بين المجالات المعرفية ذات الأثـر الكبير في هـذا العصر هو ما عرف بثورة الاتصالات والتي يتطلـب التعامل معها قدراً كبيراً من الحذر والتثبت وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولاً: غياب الثبات العلمي في حركة بناء النظرية في علم الاتصال.

ثانيـاً: التبدل المستمـر في أساليب وأشكال العقل الاتصالي وذلـك لاستناده إلى وسائل سريعة التغير والتطور. [١]

من هنا كان لا بد من ابتغاء القرآن المجيد، والولوج إلى عليائه من جديد، والتعامل معه باعتباره كلام الله – تبارك وتعالى- وهو الخطاب العالمي النازل بالشريعة السمحة[٢] وعلى المسلـم أن يلتمـس الهدى في تشريعه الـذي وضع قواعد لتنظيم جميـع العلاقات التي تربط البشر بعضهم البعض، سواء كانت هذه العلاقات دستورية أو قانونية أو اقتصادية واجتماعية ، وسـواء كانت فردية أو جماعية[٣] وفي ثنايا هـذا الكتاب العزيز تتجسد الأحكام الثابتة في حياة الإنسان الاجتماعية والتي تنسجم مع فطرته ومهما تطورت الحياة الاجتماعية في بعض

(١) اتجاهات البحث في علم الاتصال، د. محمود محمد و د. محمد بابكر، ص ص١١٩-١٢٢.

(٢) نحو منهجية معرفية قرآنية، د. طه جابر العلواني، ص١٤.

(٣) كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر، ص٣٥٩.

مجالاتها فإن قبح الظلم وحسن العدل ولزوم أداء الأمانة والوفاء بالعهود والمواثيق تظل كلها من مكارم الأخلاق التي يدعو لنا ديننا الحنيف وعند فهمنا لذلك يمكننا الدخول إلى عالم التواصل الاجتماعي وحادينا في ذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴿١٣﴾)[1]

المطلب الثاني: مراعاة حرمة الآخرين:

المرء مأمور بأن لا يتعرض للفتن وإلزام نفسه ما لعله لا يقوى عليه كما يقول ابن حجر[2] في كتاب فتح الباري في معرض كلامه عن الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا : يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد، نتحدث فيها. فقال : فإذا ابيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال: غض البصر، وكف الأذى ، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. [3]فالإسلام يراعي حرمات الآخرين أينما كانوا ووقت ما كانوا ، يراعيها وهم يسيرون في الطرقات ويراعيها داخل مساكنهم ويضع العديد من القواعد التي يقررها لحماية البيوت والتي تشمل الاستئناس، بمعنى اللطف في طلب الأذن بحيث يحدث في نفوس أهل البيت الأنس بالراغب في زيارتهم. والاستعداد لاستقباله حيث نجد ذلك في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿٢٧﴾)[4] ويرشد المؤمنين إلى ما يحفظ لهم حرماتهم حيث يقول تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٨﴾)[5] ويحذرهم من سوء الظن والتجسس

(١) سورة الحجرات الآية (١٣).

(٢) فتح الباري لابن حجر، ج١١، ص١٤.

(٣) المصدر السابق، المجلد السابق، ص١٠.

(٤) سورة النور الآية (٢٧).

(٥) سورة النور الآية (٥٨).

والغيبـة حفاظـاً على سلامة صدورهم وذلك في قولـه تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْـمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴿ ١٢ ﴾)[1] فالواجب على كل مسلم أردا المشاركـة في وسائل التواصل الاجتماعي التقيد بجميع الضوابط الشرعية للاطلاع على المعلومات وتبادلها ومنها:

أولاً: عدم الدخول في مواقع غير مسموح بها.

ثانياً: الاستئذان للدخول في المواقع الشخصية.

ثالثا: عدم الاطلاع على ما يتميز بطابع الخصوصية.

رابعاً: اتباع الاجراءات السليمة عند النقل من الموقع المعين.فاظاً على سلامة صدورهم وذلك في قوله تعالى : (يها داخل مساكنهم ويضع العديد من القواعد التي

(١) سورة الحجرات الآية (١٢).

المبحث الثالث

ضوابط تبادل الرسائل:

المطلب الأول: تجسيد القدوة الحسنة:

المسلم الذي يرتاد مواقع التواصل الاجتماعي ينبغي أن يأتي إليها وهو مرفوع الرأس يحمل بين جوانحه الدعوة الإسلامية ذات الطبيعة الاعلامية المتميزة التي تؤكد قدرتها على إبراز كافة عناصر الرسالة الإعلامية القادرة على التعامل بايجابية بما يجعلها في مكان الريادة والقدرة والتأثير في الآخرين باستخدام كافة الوسائل المتاحة والممكنة للقيام بوظيفة البلاغ المبين وتقديم رسالة الاسلام إنطلاقاً من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴿ ٤٥ ﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴿ ٤٦ ﴾)[١]

مواصلة لمسيرة الأنبياء والرسل الممتدة التي يدعون فيها الناس إلى هدف واضح وإلى فكرة بينة، لا لبس فيها ولا غموض[٢] قال تعالى: (قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿ ١٠٨ ﴾)[٣] ويجدر بالمسلم أن يكون في الصدر عند ارتياده لمواقع التواصل الاجتماعي بهدى الآخرين إلى ما فيه الخير والنفع ويقودهم إلى الصلاح تحقيقاً لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴿ ٧٤ ﴾)[٤]

ولكن لا بد للإمامة من حق يؤدي فإذا نظرنا في قوله تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا

(١) سورة الأحزاب الآيات (٤٥-٤٦).

(٢) النبؤة والأنبياء لمحمد علي الصابوني، ص٥٠.

(٣) سورة يوسف الآية (١٠٨).

(٤) سورة الفرقان الآية (٧٤).

تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾)[1] نجد أن هذه الآية قد تحدث عنها السعدي في تفسيره قائلاً (دلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وخاض في ذلك على لسانه ، فأهم بذكر الله، واتبع مراضي ربه ، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منّ الله به عليه. فحق بذلك أن يتبع ويجعل إماماً. [2]

المطلب الثاني: التقيد بحسن الإقتداء:

وضع الحق عز وجل امثالاً عديدة لنوعية الرسائل التي تستحق أن يتبادلها الناس بينهم ومن ذلك ذكره للقصص في كتابه العزيز وقد وصف قصة يوسف عليه السلام بأنها أحسن القصص وقد تحدث العلماء في ذلك وذكروا أقوالاً لبيان السمات التي تميزت بها سورة يوسف لتكون أحسن القصص منها: [3]

القول الأول: لأن ما في هذه السورة من القصص يتضمن من العبر والمواعظ والحكم ما لم يكن في غيرها.

القول الثاني: لما فيها من حسن المحاورة وما كان من يوسف عليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوهم عنهم .

القول الثالث: فيها ذكر الحبيب والمحبوب وما دار بينهما .
القول الرابع: كل من ذكر فيها كان ما له من السعادة.

فينبغي النسج على هذا المنوال والتأسي بذلك. وبالمقابل ببالمقابل .
ن ذكر فيها كان ما له ما دار بينهما .
ليه السلام من الصبر على أذاهم وعفوهم عنهم .

في كتابه العزيز وقد وصف قصة يوسف ين تعالى ما لا يحمد ذكره من الأخبار فقد بين

(١) سورة الكهف الآية (٢٨).
(٢) تفسير السعدي، ج٥، ص٣٠.
(٣) فتح القدير للشوكاني، ج٣، ص٥.

ذلك في قوله عز وجل: (وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿ ٨٣ ﴾)[١]

وقد جاء في التفسير[٢] أن المنافقين كانوا يختلقون الأخبار من الأمن أو الخوف، وهي مخالفة للواقع ، ليظن المسلمون الامن حين الخوف فلا يأخذوا حذرهم، أو الخوف حين الأمن فتضرب أمورهم وتختل أحوال اجتماعهم وعلمهم أن يردوا الأمر إلى الرسول ﷺ وأهل الشأن قبل إشاعته ليعلموا كنة الخبر وحاله من الصدق أو الكذب. بل وأحياناً قد تكون الأخبار حقيقة لكن المصلحة تتطلب أن تنقل على وجهها الصحيح الذي تتحقق به المصلحة ويأمن فيها من وقوع المفسدة ومن ذلك قوله تعالى: (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴿ ١٥٤ ﴾)[٣] فالتوجيه الرباني في هذا المقام أنه لا يقال لمن قتل في سبيل الله مات، بمعنى انقطعت عنه الحياة فالشهيد لم يمت وإنما انتقل من حياة ناقصة إلى حياة كاملة دائمة، كما أن لفظ الموت مفزع للإنسان فإذا دارت المعركة وسقط الشهداء وقيل فلان مات وفلان يؤثر ذلك في نفس من سمع كلمة الموت لذا لا يقال مات ولكن استشهد.[٤]

(١) سورة النساء الآية (٨٣).

(٢) تفسير ابن عاشور، ج٥، ص١٤٠..

(٣) سورة البقرة الآية (١٥٤).

(٤) أسرار التفاسير، لأبي بكر الجزائري، ج١، ص١٣٤.

خاتمة

الحمـد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي المكرمات وعلى آله وصحبه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فأحمـده تعالى أن وفقني لإكمال هذا البحث والذي أرجو أن يكون قطرة نافعة في هذا الغيث المدرار بإذن الله تعالى والذي يشارك فيه طلبة العلم من شتى بقاع العالم الإسلامي لنرسي معاً دعائم التعامل السليم مع إحدى القضايا الكبرى في عصرنا الحاضر وآمل أن نتفق على تحقيق الآتي:

أولاً: عقد مؤتمر خاص بوسائل التواصل الاجتماعي وكيفية التعامل معها وفقاً لأحكام ديننا الحنيف.

ثانياً: إعداد منهج دراسي عن هذه الوسائل ليدرس لأبناء المسلمين في المراحل الدراسية المختلفة.

ثالثاً: إعطاء هذه الوسائل حظها من العناية لترشيدها والاستفادة منها في المجتمع المسلم.

رابعاً: حث الائمة وخطباء المساجد لبيان ما ينبغي فعله حيال هذه الوسائل التي تغلغلت في كيان الأمة المسلمة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه الخير والسداد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع والمصادر

أولا: القرآن الكريم.

ثانياً: الأحاديث النبوية الشريفة.

ثالثاً: كتب التفسير:

١. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت ، لبنان ، مكتبة الغزالي، دمشق، سوريا ، بدون طبعة.

٢. معالم التنزيل في التفسير والتأويل ، تأليف أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٣. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام امنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المؤسسة السعيدية، الرياض المملكة العربية السعودية، بدون طبعة.

٦. أسر التفاسير لكلام العي الكبير، وبهامته نهر الخير أبو بكر جابر الجزائري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، مصر ، طبعة خاصة بمصر وفلسطين والمعرب العربي.

٧. تفسير القرآن العظيم، للإمام الجليل ، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، مكتبة دار التراث، القاهرة ، مصر ، بدون طبعة.

٨. تفسير التحرير والتنوير، سماحة الاستاذ الامام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس، الجمهورية التونسية ، بدون طبعة.

رابعاً : كتب الحديث:

فتح الباري، يشرح صحيح الامام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الريان لتراث، القاهرة، مصر الطبعة الثانية، ١٤٠٩ه-١٩٨٨م.

خامساً: المراجع العامة:

١. اتجاهات البحث في علم الاتصال، نظرة تأصيلية، د. محمود محمد فلندر، د. محمد بابكر عوض ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

٢. الجامع الفريد ، كتب ورسائل لأئمة الدعوة الاسلامية ،طبع على نفقة عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ه.

٣. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق أبو عبد الله، أيمن محمد محمد عرفة، المكتبة التوفيقية ، بدون طبعة.

٤. خارطة المفاهيم القرآنية ، أ. د/ السيد عمر ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩م.

٥. زاد المهاجر إلى ربه للإمام ابن قيم الجوزية، دار القاسم للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه -٢٠٠٠م.

٦. علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف، توزيع الدار السودانية للكتب، الخرطوم، السودان ، بدون طبعة.

٧. كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، الأزهر القاهرة، مصر- شوال ١٣٨٣ه، مارس ١٩٦٤م.

٨. محاضرات في المبادئ العامة في قانون العقوبات، المستشار جمال المرصفاوي، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٨٢ه-١٩٦٢م.

٩. النبوءة والأنبياء ، محمد علي الصابوني، المكتبة العصرية ، صيدا، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م.

١٠. نحو منهجية معرفية قرآنية، د. طه جابر العلواني ،دار الفكر، دمشق، سوريا ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

أ.د. أحمد حامد محمد سعيد

- الدرجة العلمية : أستاذ .
- تاريخ الميلاد:٢ /١٩٧١/٨م
- مكان الميلاد : طنطا
- الجنسية : مصري
- الحالة الاجتماعية : متزوج
- جوال : ٠٥٠٩٦٠٩٨٧٨

Email Ahmedsaid1971@yahoo.com

حصـل على المركـز الثاني على مستوى جمهوريـة مصر العربيـة في الثانوية الأزهرية، القسم الأدبي، عام ١٩٨٩م.

ثانياً: المؤهلات العلمية

الشهادة العلمية الجهة المانحة التخصص العام التخصص الدقيق التقدير

الليسانس جامعة الأزهر الشريف تفسير وحديث تفسير وعلوم قرآن ممتاز مع مرتبة الشرف١٩٩٣م.

الماجستير جامعة الأزهر الشريف

الموضوع التفسير بالمأثور لسورة الحديد جمع ودراسة مع بيان الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة بتقدير (ممتاز) ١٩٩٧م.

الدكتوراه جامعة الأزهر الشريف

الموضوع الأمثال القرآنية في سورتي البقرة وآل عمران دراسة تحليلية موضوعية (مرتبة الشرف الأولى) ٢٠٠٠م.

المنهج القرآني
في علاج مشكلات الشباب الاجتماعية المعاصرة

(صحبة السوء نموذجًا)

بحث مقدم إلى
المؤتمر الدولي القرآني الأول
توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة
المحور الثالث
توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية

إعداد

أحمد حامد محمد سعيد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
بجامعتي الأزهر الشريف والطائف
الطائف/ شعبان ١٤٣٧هـ

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن والاه.

وبعد

فمما اتفقت عليه الشرائع كلها والأمم جميعها أن أهم مراحل عمر الإنسان وأخطرها التي يمر بها في حياته هي مرحلة الشباب، كما اتفقت - أيضا - على أن استقامة الشباب في هذه المرحلة تكون - بإذن الله تعالى - سببا في نهضة المجتمعات وتقدمها، وانحرافهم يكون فيه دمارها وانهيارها.....

ومن هنا كانت عناية البشرية كلها - وأهمية البحث أيضا - بهذه المرحلة الخطرة من حيث تتبع مشكلاتها، وما يعكر صفوها، ويهدد أفرادها..... ودراسة سلبياتها وآثارها، والمسارعة في علاجها، ورصد جميع الحلول الممكنة لها من قريب أو بعيد، والتركيز على تحويل السلبيات إلى إيجابيات، والآثار السيئة إلى آثار حسنة، بل مفيدة ونافعة للأفراد والمجتمعات والأمم.

وهذا ما هدف إليه قسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد بالمملكة العربية السعودية حيث ينظم المؤتمر الدولي القرآني الأول: توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات المعاصرة، وهو جهد مشكور، وعمل مأجور، وسعي مشكور.

وبتوفيق من الله - سبحانه وتعالى - كان هذا البحث في بيان مشكلة من أهم مشاكل الشباب وعلاجاتها، إذ يأتي ضمن المحور الثالث، وهو توظيف الدراسات القرآنية في علاج المشكلات الاجتماعية، وعنوانه (المنهج القرآني في علاج مشكلات الشباب الاجتماعية المعاصرة، صحبة السوء نموذجًا) حيث أتقدم به للإسهام في هذا المؤتمر المبارك - بإذن الله تعالى -.

وللبحث أهداف وخطة ومنهج.

أما الأهداف: فتتمثل فيما يلي:

١. إبراز دور القرآن الكريم في علاج جميع المشكلات المعاصرة، لا سيما مشكلات الشباب.

٢. إبـراز دور المملكـة العربيـة السعودية في خدمـة القرآن الكـريم وعلومه، ممثلة في جامعاتها العريقة، وكلياتها الأصيلة، وأقسامها المباركة.
٣. ربـط شباب الأمة المسلمة بكتاب ربها - عـز وجل - ربطا يحفظها لدرجة العفاف، ويصونها عن الاعوجاج والانحراف.
٤. النهوض بالدراسات القرآنية الكريمة؛ لتـؤدي دورها في علاج القضايا الإسلامية المعاصـرة - عامـة - ومشكلات الشبـاب - خاصة -، والإسهـام بالنهوض الشامل للأفراد والمجتمعات والأمم.
٥. بيان المنهج القرآني الكريم في علاج مشكلة صحبة السوء علاجا ناجعا - بعون الله تعالى -.
٦. معالجة مشكلة صحبـة السوء كنموذج لمشكلات الشباب الاجتماعية، وذكر الحلول المناسبة لها، وربط ذلك كله بآيات التنزيل العزيز.
٧. توظيـف طاقات الباحثين وجهودهم في علاج المشكلات المعاصرة، والاستفادة منها في كل زمان ومكان.

وأما الخطة: فقد اقتضت تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة: فقد تضمنت أهمية الموضوع، وخطته، ومنهجه.

وأمـا التمهيد: فقد اشتمل علـى تعريف كلمة الشباب في اللغة والاصطلاح، وعرجت فيه لأهمية مرحلة الشباب، ثم ذكرت أنواع الشباب، والمراد منهم في بحثنا.

وأما المباحث الثلاثة فهي كما يلي:

- المبحث الأول: في أهمية الصحبة في ضوء القرآن الكريم.
- والمبحث الثاني: في المخاطر والآثار المترتبة على صحبة السوء.
- والمبحث الثالث: في كيفية علاج المشكلة ورصد الحلول الملائمة لها.

وأمـا الخاتمة: فقد تضمنت أهم النتائـج والتوصيات، ثم المراجع والمصادر، ومحتويات البحث.

× وأمـا المنهج: فإنه سيقـوم – بعون الله تعالى – على تأصيـل أهمية الصحبة – عموما – وذكـر المخاطر والآثار السلبيـة التي تنشأ عن صحبة السوء، ثـم كيفية علاج هذه المشكلة وبيـان الحلـول التي تتساير وتتفـق معها، كل ذلك سيتـم تأصيله من كتـاب الله وربطه بآيه الكريمـات، وذكر أقوال المفسرين المبجلين، وعلمائنا الأماجد وعرض آرائهم، وبيان الراجح منهـا – بعـون الله – جـل جلالـه – مراعين في ذلـك قواعد البحث العلمي مـن حيث العزو والتوثيق، والتخريج والتنسيق..... الخ.

وفي الختام: لا يسعني – حقا – إلا أن أتقدم لجميع المسئولين والقائمين على هذا المؤتمر – خاصـة – وكليـة الشريعة وأصول الديـن وجامعة الملك خالد – عامـة – بالشكر والتقدير، سائلا ربي I لنا وللجميع التوفيق والسداد، والعون والرشاد.

كمـا أساله أن ينفع بما كتبت، وأن يفيد بما سطرت، وأن يعالج بما طرحت..... إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [(١)]).

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) هود: ٨٨.

جـرت عـادة الباحثين أن يذكـروا - بين يدي أبحاثهـم - عدة أمور تعـد توطئة لأصول البحـث من جهة، وتجلـي بعض المفاهيم والمصطلحات التي تتعلق بـه من جهة أخرى، وفيما يتعلـق ببحثنا نلفي هذه الأمور - مجملة - هي: تعريف الشباب في اللغة والاصطلاح، وأهمية مرحلة الشباب، وأنواع الشباب، والمراد منهم في بحثنا.

وهاك - بعون الله تعالى - توضيحها وبيانها فيما يلي:

تعريف الشباب في اللغة والاصطلاح.

أما عن تعريف كلمة الشباب في اللغة:

فقـد جـاء في معجم مقاييـس اللغة[1]: أن مـادة " شَبَّ " (الشِّـينُ وَالْبَاءُ أَصْـلٌ وَاحِدٌ، يَـدُلُّ عَلَى نَمَاءِ الشَّيْءِ، وَقُوَّتِه فِي حَـرَارَة تَعْتَرِيه، مِنْ ذَلِكَ: شَبَبْتُ النَّارَ أَشُبُّهَا شَبًّا وَشُبُوبًا... وَكَذَلِـكَ شَبَبْتُ الْحَـرْبَ، إِذَا أَوْقَدْتَهَا، فَالْأَصْلُ هَذَا، ثُمَّ اشْتُقَّ مِنْـهُ الشَّبَابُ، الَّذِي هُوَ خِلَافُ الشَّيْـب، يُقَالُ: شَبَّ الْغُلَامُ شَبِيبًـا وَشَبَابًا، وَأَشَبَّ اللَّهُ قَرْنَهُ، وَالشَّبَابُ - أَيْضًا -: جَمْعُ شَابٍّ، وَذَلِكَ هُوَ النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ بِقُوَّةِ جِسْمِه وَحَرَارَتِه).

ونجـد معنـى الشبـاب في لسان العـرب[2] هـو (الفَتـاء والحداثةُ، شـبَّ يشِـبُّ شَبَابًا وَشَبِيبَةً.... وَالشَّبَابُ: جَمْعُ شابٍّ، وَكَذَلِكَ الشُّبان).

وفي مختـار الصحـاح[3] نقـرأ: (ش ب ب: (الشَّبَابُ) جَمْـعُ شَابٍّ، وَكَـذَا (الشُّبَّانُ)، وَ (الشَّبَـابُ) - أَيْضًا - الْحَدَاثَةُ، وَكَذَا (الشَّبِيبَةُ)، وَهُوَ خِلَافُ الشَّيْبِ، تَقُولُ: (شَبَّ) الْغُلَامُ يَشِـبُّ - بِالْكَسْـرِ - (شَبَابًا) وَ(شَبِيبَـةً)، وَامْرَأَةٌ (شَابَّـةٌ) وَ(شَبَّةٌ) بِمَعْنًـى، وَ(الشِّبَابُ) - بِالْكَسْرِ - نَشَاطُ الْفَرَسِ وَرَفْعُ يَدَيْهِ جَمِيعًا).

ومن هذه التعاريف كلها نقف على أن للشباب في اللغة عدة معان، منها: النماء، والقوة، والزيادة، والفتاء، والحداثة، والنشاط، ولا تباين بينها؛ فكلها مرادة ومحتملة.

---

(١) ١٧٧/٣

(٢) ٤٨٠/١

(٣) ص: ١٦٠

وأما عن تعريفها في الاصطلاح:

فلم يتفق علماؤنا - على تباين مشاربهم وتخصصاتهم - على تعريف جامع مانع لكلمة أو مرحلة الشباب من حيث الاصطلاح - ولا يزال الحال هكذا حتى في عصرنا هذا الحديث - وإنما ذكروا تعاريف عدة نذكر بعضها، ثم نرجح منها ما يوافق شرعنا وديننا.

فذهب البعض إلى أن الشباب هم الأفراد الذين تقع أعمارهم بين ١٥- ٢٥ سنة[١].
وذهب البعض إلى أن بداية مرحلة الشباب هي ١٨ عاما[٢].
وقال البعض: إن الشباب هم الأفراد الذين تقع أعمارهم بين ١٣-٣٠سنة.
ومال غيرهم إلى أنهم هم الأفراد الذين تقع أعمارهم بين ١٥-٣٠سنة.
وقال آخرون: إن الشباب هم الأفراد الذين تقع أعمارهم بين ١٨-٣٠سنة[٣].

وعرفها أ. د / سليمان بن قاسم بن محمد العيد بأنها (مرحلة عمرية يمر بها الإنسان، تبدأ من سن البلوغ - أي حوالي سن الخامسة عشرة من العمر - وتنتهي تقريبًا في سن الأربعين، وهناك من يجعلها تنتهي قبل الأربعين، وآخرون يوصلونها إلى الخمسين)[٤].

ورجح قوله الأول وعلل له فقال: (ولكن الراجح من هذا التحديد أن مرحلة الشباب تنتهي في سن الأربعين من العمر؛ لأن الإنسان في هذه السن يصل إلى حده في النمو)[٥].

وهذا هو ما نميل إليه ونرجحه - أيضا -؛ لأنه أقرب التعاريف إلى شريعتنا الإسلامية، حيث يكون الإنسان محاسبا على أفعاله وجميع تصرفاته منذ بلوغه، ويؤيد ذلك اعتبار مرحلة الشباب بالبلوغ كما جاء في قوله - جل جلاله -: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ [٦]﴾.

---

(١) هذا الرأي يمثل حصيلة نقاش المؤتمر الأول لوزراء الشباب العرب المنعقد في القاهرة عام ١٩٦٩م.
(٢) راجع: موقع منظمة العمل الدولية على الإنترنت.
(٣) تحديد مفهوم الشباب، مقال بالإنترنت.
(٤) مكانة الشباب في الإسلام أ. د/ سليمان بن قاسم بن محمد العيد، بحث بالإنترنت.
(٥) المرجع السابق.
(٦) النور: ٥٩.

أهمية مرحلة الشباب:

لا يختلف اثنان على أن أهم مراحل عمر الإنسان هي مرحلة الشباب، وذلك لما تتميز به من خصائص لا توجد في غيرها، ومن أهمها:

- أن فترة الشباب هي المرحلة التي يتمتع فيها الإنسان بكامل قواه الجسدية، فهو قد تعدى مرحلة الصعود (الطفولة)، ولم يبدأ مرحلة الانحدار (الشيخوخة) بعد.
- أن الشباب هم رجال الغد، وآباء المستقبل، وعليهم مهمة تربية الأجيال القادمة، وإليهم تؤول قيادة الأمة في جميع مجالاتها.
- كما أن في صلاح الشباب صلاحا للأمة، وفي فسادهم فسادا لها؛ لأنهم هم القوة المتحركة في المجتمع[1].
- وهي - أيضا - فترة العمل والجد، والقوة والإنتاج، والأداء والعطاء، وليس ذلك غيرها من سائر مراحل العمر، ويدلنا على ذلك قوله - سبحانه وتعالى -: **(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [2])**.

قال الإمام ابن الجوزي: (قال المفسرون: المعنى: خلقكم من ماء ذي ضعف، وهو المنيّ، ثم جعل من بعد ضعف يعني ضعف الطفولة قوة الشباب، ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الكِبَر وشيبة)[3].

- وأن الشباب لم يكتمل نضجه بعد، فهو قابل للتشكيل والتغيير، فإن كان توجيهه إلى الخير قبله ونفع الله به، وإن كانت الأخرى فالدمار مصيره.
- كما أن هذه المرحلة أفضل مراحل العمر: وتعود أفضليتها لما يجتمع للإنسان فيها من القوة والنشاط دون غيرها، وراحة الحياة وبهجتها في الدنيا - غالبا - ما تكون

---

(١) راجع: الشباب لعلي بن عبد العزيز الراجحي، مقال بالإنترنت، الشباب مستقبل الوطن، بقلم سلطانه الزارع ٢٠١٦/٤/٢٧م.

(٢) الروم: ٥٤

(٣) زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي ٤٢٧/٣

في مرحلة الشباب، ولما يتوافر له فيها من كمال الحواس، فهو في هذه المرحلة أقدر على الانتفاع بحواسه من أي مرحلة أخرى، فهي مرحلة يتطلع الصغير أن يصل إليها، ويتمنى الكبير أن يرجع إليها.

- كما أنها أطول مراحل العمر: فعمر الإنسان في الغالب بين الستين والسبعين سنة، وبهذا أخبر رسول الله ﷺ حين قال: " أعمار أمتي بين الستين والسبعين، وأقلهم من يجوز ذلك "[١]، والوسط الحسابي للعددين (٦٠، ٧٠) هو ٦٥ سنة، وإذا كان زمن سن الطفولة من الولادة حتى نهاية الرابعة عشرة، وسن الشباب من بداية الخامسة عشرة إلى نهاية الأربعين، وسن الكهولة من الحادية والأربعين حتى نهاية الخمسين، وسن الشيخوخة بعد ذلك إلى آخر العمر نجد أن مرحلة الشباب هي أعلى نسبة في مراحل العمر التي يمر الإنسان بها في حياته[٢].

- كما أن الشباب هم عماد الأمم: فالشباب في جميع الأطوار وفي أي قطر من الأقطار هم عماد حضارة الأمم، وسر نهضتها؛ لأنهم في سن الهمم المتوثبة والجهود المبذولة، سن البذل والعطاء، سن التضحية والفداء، وغالبًا ما يمثل الشباب النسبة العظمى من السكان في الدول النامية، الأمر الذي يقتضي مزيدًا من الاهتمام به، والاستثمار فيه، حيث يعتمد نمو خيرات هذه المجتمعات وملاحقتها لمطالب التطور وتفوق هيكل عملها وجودته على مدى جدوى عنصر الشباب فيها، ولهذا السبب نفسه نجد أنه سرعان ما ينهار أي مجتمع وتضيع قيمه إذا ما وهن شبابه، وأغلقت دونه نوافذ العلم والخبرة، بينما تتقدم المجتمعات الأخرى وتسبق غيرها معتمدة على فارق الزمن في إطلاق هذه الطاقات لأقصى ما تستطيع، وكلما اغتنمت الدول طاقات شبابها في العلم والإنتاج وبناء الحضارة زاد إنتاجها وحققت أهدافها[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه أبواب الدعوات باب ٥/٥٥٣، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وابن ماجه في سننه ك الزهد باب الأمل والأجل ٢/١٤١٥، والحاكم في مستدركه ك التفسير تفسير سورة الملائكة ٢/٤٦٣، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي.

(٢) مكانة الشباب في الإسلام أ. د/ سليمان بن قاسم بن محمد العيد، بحث بالإنترنت

(٣) راجع: أهمية مرحلة الشباب، مقال بالإنترنت، الشباب .. المرحلة الذهبية في العمر لعبد الرحمن الشلاش، مقال بجريدة الرياض، العدد ١٤٥٦٤، ٤ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ - ٩ مايو ٢٠٠٨م، أهمية مرحلة الشباب في عمر الإنسان، مقال بالإنترنت.

ومن هنا ندرك أهمية مرحلة الشباب وقيمتها، في تقدم المجتمع ونفعه، أو تأخره وضره.

أقسام الشباب، والمراد منهم في بحثنا :

ذكر شيخنا العلامة ابن عثيمين ﷺ أن الشباب ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وأبان عن مفهوم كل قسم، وعرض لنا سماته وصفاته فقال ما ملخصه: (إذا نظرنا نظرة فاحصة في الشباب أمكننا أن نحكم من حيث العموم بأن الشباب ثلاثة أقسام: شباب مستقيم، وشباب منحرف، وشباب متحير بين بين.

أمـا الشباب المستقيم: فهو شباب مؤمن بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فهو مؤمن بدينـه إيمانَ محبٍّ له، ومقتنع به، ومغتبط به، يرى الظفر به غنيمة، والحرمان منه خسرانًا مبينًا.

وهذا القسم من الشباب مفخرة الأمة ورمز حياتها وسعادتها ودينها، وهو الشباب الذي نرجو الله – من فضله – أن يصلح به ما فسد من أحوال الإسلام والمسلمين، وينير به الطريق للسالكين، وهو الشباب الذي ينال السعادة في الدنيا والآخرة.

وأما القسم الثاني: فشباب منحرف في عقيدته، متهور في سلوكه، مغرور بنفسه، منغمر في رذائله، لا يقبل الحق من غيره، ولا يمتنع عن باطل في نفسه، أناني في تصرفه، كأنما خلق للدنيا وخلقت الدنيا له وحده، شباب عنيد لا يلين للحق ولا يقلع عن الباطل.

شبـاب لا يبـالي بما أضاع من حقوق الله، ولا من حقـوق الآدميين، شباب فوضوي فاقد الاتـزان في تفكيره، وفاقد الاتزان في سلوكـه وفي جميع تصرفاته، شباب معجب برأيه كأنما يجري الحق على لسانه، فهو عند نفسه معصوم من الزلل، أما غيره فمعرض للخطأ والزلل مادام مخالفًا لما يراه.

شباب ناكب عن الصراط المستقيم في دينه، وناكب عن التقاليد الاجتماعية في سلوكه، ولكنـه قـد زين له سوء عمله فـرآه حسنا، فهو من الأخسرين أعمالا (**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** [(١)]).

(١) الكهف: ١٠٤

فهو شؤم على نفسه، ونكبة على مجتمعه، يجر أمته إلى أسفل السافلين، ويحول بينها وبين العزة والكرامة، جرثومة وبيئة قاتلة، صعبة العلاج، إلا أن يشاء الله، والله على كل شيء قدير.

والقسم الثالث: شباب حائر متردد بين مفترق الطرق، عرف الحق واطمأن به، وعاش في مجتمع محافظ، إلا أنه انفتحت عليه أبواب الشر من كل جانب، تشكيك في العقيدة، وانحراف في السلوك، وفساد في العمل، وخروج عن المعروف من التقاليد، وتيارات من الباطل متنوعة، فهو في دوامة فكرية ونفسية، وقف أمام هذه التيارات حيران لا يدري هل الحق فيما حدث وجد من هذه الأفكار والمبادئ والمسالك؟ أو فيما كان عليه سلفه الماضي ومجتمعه المحافظ؟ فصار مترددًا قلقًا، يرجح هذا تارة، وذاك أخرى.

فهذا القسم من الشباب سلبي في حياته، يحتاج إلى جاذب قوي يقوده إلى حظيرة الحق وطريق الخير، وما أيسر ذلك إذا هيأ الله له داعية خير، ذا حكمة وعلم ونية حسنة.

وهذا القسم يكثر في شباب نالوا بعضًا من الثقافة الإسلامية، لكنهم درسوا كثيرًا من العلوم الكونية الأخرى التي تعارض الدين في الواقع أو في ظنهم، فوقفوا حيارى أمام الثقافتين، ويمكنهم التخلص من هذه الحيرة بالتركيز على الثقافة الإسلامية وتلقيها من منبعها الأصلي - الكتاب والسنة - على أيدي العلماء المخلصين، وما ذلك عليهم بعزيز).[1]

وبعد أن وقفنا على أقسام الشباب الثلاثة نقول: إن المراد منهم في بحثنا هما القسمان الثاني والثالث: فالثاني بدرجة أكبر وأهمية أعظم؛ وذلك لانحرافه وتهوره......، والثالث بدرجة كبرى وأهمية عظمى، وذلك لتردده وحيرته......، فينضم القسمان - معا - إلى القسم الأول فيصلح المجتمع، وتنهض الأمة.

ومع بيان المنهج القرآني لعلاج مشكلة صحبة السوء؛ حيث نعرض لأهمية الصحبة، وبيان مخاطر الصحبة السيئة وآثارها، ورصد الحلول التي تناسبها، وربط ذلك كله بآيات الذكر الحكيم، وبيان المراد منها نقف مع المباحث التالية - بعون الله تعالى -.

(١) من مشكلات الشباب للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين من ص: ٨ : ١٧بتصرف.

المبحث الأول

أهمية الصحبة في ضوء القرآن الكريم.

اهتم الإسلام الحنيف بالصحبة اهتماما بالغا؛ حيث رغب في صحبة الصالحين، والارتباط بأصدقاء الخير، وحذر من اختيار الصحبة السيئة تحذيرا شديدا، وبالذات رفقاء السوء، الذين يجاهرون بالمعاصي، ويباشرون الفواحش دون أي وازع ديني أو أخلاقي؛ لما في صحبتهم من الداء، وما في مجالستهم من الوباء.

وبين ندم الإنسان وتحسره يوم القيامة على اختيار الصديق السيئ حسرة ما بعدها حسرة، وصور ذلك أيما تصوير، حيث يرد من أساء الاختيار المهالك - لا محالة -.

وإذا كان ترغيب ديننا وتحذيره عاما يشمل كل إنسان فإنه يخص بذلك الشباب - أيما خصوص - وذلك لخطورة مرحلتهم التي يمرون بها، وعمرهم الذي يعيشونه إبان هذه المرحلة.

وقد تحدثت آيات قرآنية عديدة عن الصحبة وأهميتها، وما يترتب عليها في الدنيا والآخرة، وسوف نذكر بعض النماذج للصحبة الصالحة، وأخرى لصحبة السوء في الدنيا، وثالثة لما يترتب على الصحبة عموما في الآخرة، وذلك - بعون الله تعالى - فيما يلي:

أما نماذج الصحبة الصالحة : فمنها :

- قوله: ﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

قال الإمام الرازي ﷺ مجليا وجها من أوجه دلالة الآية الكريمة على فضائل أبي بكر الصديق: (وَالْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّهُ - تَعَالَى - وَصَفَ أَبَا بَكْرٍ بِكَوْنِهِ صَاحِبًا لِلرَّسُولِ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْفَضْلِ.

(١) التوبة: ٤٠.

قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ فُضَيْلِ الْبَجَلِيُّ: مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ أَبُو بَكْرٍ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ كَافِرًا؛ لأَنَّ الأُمَّةَ مُجْمِعَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ (إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ) هُوَ أَبُو بَكْرٍ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَصَفَهُ بِكَوْنِهِ صَاحِبًا لَهُ، اعْتَرَضُوا وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَصَفَ الْكَافِرَ بِكَوْنِهِ صَاحِبًا لِلْمُؤْمِنِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ[1]).

وَالْجَوَابُ: أَنَّ هُنَاكَ وَإِنْ وَصَفَهُ بِكَوْنِهِ صَاحِبًا لَهُ ذِكْرًا إِلاَّ أَنَّهُ أَرْدَفَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الإِهَانَةِ وَالإِذْلَالِ، وهو قوله: (أَكَفَرْتَ) أما هاهنا فَبَعْدَ أَنْ وَصَفَهُ بِكَوْنِهِ صَاحِبًا لَهُ ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَهُوَ قَوْلُهُ: (لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فَأَيُّ مُنَاسَبَةٍ بَيْنَ الْبَابَيْنِ لَوْلَا فَرْطُ الْعَدَاوَةِ؟)[2].

وقوله: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي × هَارُونَ أَخِي × اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي × وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي × كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا × وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا × إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا [3]).

تذكر الآيات جزءا من دعاء موسى ربه؛ حيث طلب موسى أن يجعل الله له وزيرا من أهله، وهو أخوه هارون، وقد كان هارون نعم الصديق لموسى.

قال الشيخ المراغي: (أي: واجعل لي عونا من أهل بيتي هارون أخي؛ ليحمل معي أعباء الرسالة، ويكون ظهيرا لي عند الشدائد، وحلول المكاره.

ثم طلب موسى من ربه أن يشدّ به أزره فقال: (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي × وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) أي: أحكم به قوتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة؛ حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذي يؤدى إلى أحسن الغايات، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل.

ثم حكى عنه - سبحانه - ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال: (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا × وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا) أي: لكى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من بينها ما يدعيه فرعون الطاغية، وفئته الباغية من الألوهية له، ونذكرك - وحدك - ابتغاء مرضاتك، دون أن نشرك

(١) الكهف: ٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام الرازي ١٦/٥١.

(٣) طه: ٢٩ : ٣٥.

معك غيرك أثناء أداء الرسالة، ودعوة المردة الطّغاة إلى الحق.

ولا شك أن التعاون في الدعوة أنجع في الوصول إلى المقصد من الانفراد، فكل من النبيين يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله في حال الانفراد.

(إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) أي: عليما بأحوالنا، وأن ما طلبناه مما يفيدنا في تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها، فإن هارون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين، وكبح جماح المضلين، وإرشادهم إلى حق اليقين)[1].

وهكذا نلفي صحبة كل من أبي بكر وهارون خير صحبة، وأفضل عون على طاعة الله، وتبليغ دينه، ونشر دعوته..... وعلى جميع أنواع الخيرات وصنوف الطاعات.

وأما نماذج صحبة السوء: فنذكر منها:

× قوله : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ × وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ × حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ [2]).

ونلحظ في الآيات تحذير الله من قرناء السوء، والعواقب السيئة التي تترتب على صداقتهم والاقتران بهم، فتبين أنه من يتعامى أو يتغافل أو يعرض عن ذكر الرحمن يسلط عليه شيطانا يكون ملازما له، يضله عن سبيل الله، ويهديه إلى صراط الجحيم.

قال الإمام الراغب: (ولم يعن بالشيطان إبليس - فقط - بل عناه والهوى، وكل ما دعاه إلى باطل وصرفه عن حق)[3].

ومن المعلوم أن وظيفة قرناء السوء - أيا كان نوعهم - هي الغواية والإضلال، والفساد والإخلال - وقانا الله ذلك كله -.

وأما ما يترتب على الصحبة عموما في الآخرة: فمن ذلك:

---

(١) تفسير المراغي للإمام المراغي ١٦/١٠٦ : ١٠٨.

(٢) الزخرف: ٣٦ : ٣٨.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني للراغب الأصفهاني ٣/١٢٣٩.

× قولـه - سبحانـه وتعـالى -: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً × يَوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً × لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي [1]﴾.

يخـبر الله ﷺ عن ندم الظالم يوم القيامة ندما شديـدا، حيث لا ينفعه الندم، وعضه على يديه حسرة وأسفا على صداقة السوء التي نتج عنها الضلال والانحراف[2].

وسبـب نزول الآية الكريمة كما ذكر بعض المفسريـن أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط، حيـث كان أسلـم أو جنح إلى الإسلام، وكان أبي بن خلـف الذي قتله رسول الله ﷺ بيده يوم أحـد خليلًا لعقبة فنهاه عن الإسلام، فقبل نهيه فنزلـت الآية[3]، والعبرة - كما هو معلوم - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والشاهـد مـن القصة أنه أطاع خليله وقرينه، فكان سببًـا في هلاكه وبعده عن الإيمان، فضلًا عن العمل الصالح، وكان سببًا في حصول الندم والحسرة له يوم القيامة.

ففـي الآية الكريمة تنبيهٌ لكل إنســان على تجنب قرين السوء، قـال شيخنا الشنقيطي: (وهـذه الآيـة الكريمة تدل علـى أن قرين السوء قد يدخل قرينه النـار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف)[4].

× وقوله: ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنيِّ كَانَ لي قَرِينٌ × يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ × أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ × قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ × فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ × قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ × وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ [5]﴾ .

يقســم الصاحب المؤمن على أن الصحبــة السيئة من معوقات الهدى والاستقامة، ومما ينأى بالإنسان عن العمل الصالح، ومن أسباب الهلاك المحقق.

قـال الدكتـور محمد محمود حجازي: (قـال قائل منهم في أثناء حديثـه: ﴿ إِنيِّ كَانَ لِي

(١) الفرقان: ٢٧ : ٢٩

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٤٢١/٣ بتصرف يسير.

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٩٨/٣.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٨٢/٦

(٥) الصافات: ٥١ : ٥٧.

قَرِينٌ) في الدنيا يقول موبخا ومؤنبا لي على ما كنت عليه من الإيمان والتصديق بالبعث: (يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) بيوم القيامة؟ (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا) نبعث؟ (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) أي: لمبعوثون مجازون؟ وهكذا يقول الكفار! قال ذلك القائل الذي كان له قرين يعترض عليه لأنه آمن، قال لجلسائه: (هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ)؟ على أهل النار لأريكم هذا القرين ومآله، فاطلع على أهل النار من كوة أو على كيفية - الله أعلم بها - فرآه - أي القرين - في وسط الجحيم يتلظى بالنار المسعرة التي وقودها الناس والحجارة، وبئس القرار.

وماذا قال له؟ قال لقرينه: (قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ) وقاربت (لَتُرْدِين) وتهلكني بما كنت تفعله معي، (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي) وتوفيقه وهدايته (لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) للعذاب كما أحضرت أنت وأحزابك)[(1)].

× وقوله - سبحانه وتعالى -: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) حيث يدل على أن ثمرة الصحبة في الآخرة عداوات وكره وبغضاء، إلا صحبة المتقين فإن ثمرتها المحبة والمودة في الآخرة.

قال ابن عباس ومجاهد ﷺ في تفسيرها: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ) يريد يوم القيامة (بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) أي: أعداء، يعادي بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا (إِلَّا الْمُتَّقِينَ) فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة[(2)].

ويقول الدكتور طنطاوي: (وقوله - تعالى -: (الْأَخِلَّاءُ) جمع خليل بمعنى صديق، وسمى الأصدقاء أخلاء؛ لأن المودة التي بينهم تخللت قلوبهم واختلطت بنفوسهم.

أي: الأصدقاء في الدنيا يصير بعضهم لبعض يوم القيامة أعداء؛ لأنهم كانوا يجتمعون على الشرور والآثام في الدنيا، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان فلما جاء يوم القيامة وانكشفت الحقائق.. انقلبت صداقتهم إلى عداوة.

(إِلَّا الْمُتَّقِينَ) فإن صداقتهم في الدنيا تنفعهم في الآخرة؛ لأنهم أقاموها على الإيمان والعمل الصالح والطاعة لله رب العالمين.

---

(١) التفسير الواضح للدكتور محمد محمود حجازي ٢٠٧/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠٩/١٦.

فالآية الكريمة إنذار للكافرين الذين كانت صداقاتهم في الدنيا تقوم على محاربة الحق، ومناصرة الباطل... وبشارة عظيمة للمتقين الذين بنوا صداقتهم في الدنيا على طاعة الله – تعالى – ونصرة دينه، والعمل بشريعته)[1].

ومن خلال ذلك نقف على بعض ما يترتب على الصحبة عموما في الآخرة، سواء أكانت صحبة سوء أم صحبة طيبة.

وما أجلَّ كلام شيخنا ابن قيم رحمه الله في بيان فوائد المخالطة وأضرارها، وتقسيم الناس في ذلك، ومن يخالط منهم، ومن يجتنب، ومن يُقترب منهم، ومن يباعد..... ليعتبر بذلك شبابنا، ويشب عليه أولادنا (إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله – تعالى – وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله – تعالى – ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عنه، فمخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها.

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه، وقوته وضعفه، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا، أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف، ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربا عليك

(١) التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ١٣/ ٩٨.

فـإذا فارقك سكن الألم، ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسـن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصـت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتهـا، بل إن تكلـم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه بـه، فهـو يحدث من فيـه كلما تحدث ويظـن أنه مسك يطيب بـه المجلس، وإن سكت فأثقل مـن نصف الرحـى العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض..... ومن نكد الدنيا علـى العبـد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد مـن معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجا ومخرجا.

القسـم الرابع: مـن مخالطته الهلك كله، ومخالطته بمنزلـة أكل السم، فإن اتفق لأكله ترياق، وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس - لا كثرهم الله -)[1].

فينبغـي علي شبابنا أن يتخيروا ما ينفعهم ويصلحهم، وأن ينأوا بأنفسهم عما يضرهم ويهلكهم.

وما أجمل قول الإمام الشافعي :

إذا المـرء لا يـرعـاك إلا تكلفا
فدعـه ولا تكثر عليه التأسفا
ففي الناس أبـدالٌ وفي الترك راحة
وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهـواه يهـواك قلبه
ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة
فلا خير في ود يجيء تكلفا
ولا خير في خل يخون خليله

(١) بدائع الفوائد للإمام ابن قيم ٢/٢٧٣ : ٢٧٥ بتصرف يسير.

ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده
ويظهر سرا كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها
صديق صدوق صادق الوعد منصفا[(١)].

ونلفي في السنة النبوية المطهرة ما يدل على أهمية الصحبة وشأنها، حيث قال: " مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السوءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ المِسْكِ وَكِيرِ الحَدَّادِ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ المِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ ثَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً "[(٢)].

ومن هنا نستبين أهمية الصحبة، وأن كل قرين بالمقارن يقتدي، وأن الصديق أحد اثنين: إما أن يكون كصاحب المسك، أو يكون كنافخ الكير، وما يهمنا هو بيان الآثار السيئة التي تترتب على صحبة السوء، والمخاطر التي تزل فيها قدم الصديق نتيجة لسوء الرفيق.

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب للهاشمي ٢/ ٤٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ك البيوع باب في العطار وبيع المسك ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه ك البر والصلة والآداب باب اسْتِحْبَابِ مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ، وَمُجَانَبَةِ قُرَنَاءِ السُّوءِ ٤/ ٢٠٢٦.

المبحث الثاني

المخاطر والآثار المترتبة على صحبة السوء

يظن البعض أن عواقب صحبة السوء تقتصر على الصديق أو الرفيق أو الصاحب وحده، ولا تتعداه إلى غيره، باعتبار أنه مرافق له وصاحب، وأما غيره فلا.

وهذا ظن خاطئ وليس في محله؛ لأن صحبة السوء لا تعيش وحدها، وإنما تعيش في أسرة ومجتمع يحيطان بهم، فهم بعض من الأسرة، وكيان من المجتمع، يؤثر ويتأثر، غاية الأمر أن أول ما يتأثر هو الشخص نفسه، ثم من يعيش معه بعد ذلك.

وعلى هذا فلابد لكل من حول هذه الصحبة - أو معظمهم - أن يتأثر بها في حالة السلب مما يؤدي إلى خلل جلي في الأسرة، وتقويض نشاط المجتمع، وإصابته بشتى الأمراض وكثير الآفات.

ومن هنا فإننا نود أن نجلى بعض المخاطر التي تترتب على صحبة السوء، سواء أكانت تعود على الفرد أم المجتمع كله، وذلك - بعون الله تعالى - فيما يلي:

أولا: ما يعود على الفرد من هذه المخاطر، ومنها:

الغواية في الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة.

حيث يغوي صاحب السوء صاحبه، ويضله عن طريق النور والهداية، ويزين له طريق المعاصي وسبل الشر والفساد، ويوقعه في الرذائل والمنكرات، والموبقات والمهلكات.

فصحبة السوء داء عضال، وبلاء واقع، تقطع على الفرد طريق الخير، وتصده عن ذكر الله، وتبعده عن طريق النور، وتولجه طرق الظلمات، فهي سبب هلاكه في الدنيا، ودخوله النار بعد الممات.

وليس أدل على ذلك من قوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ × وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ × حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ

بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ × وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [1]).

والآيات تجسد حال قرين السوء في الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا حاله في الدنيا قبل، وهنا نضيف بيان حاله في الآخرة، وهو شر حال، وسوء مآل - والعياذ بالله -.

إن هذا القرين يتمنى يوم القيامة أن يكون بينه وبين قرينه بعدا كما بين المشرقين - وهيهات له ذلك - والسبب في ذلك كله أنه كان في الدنيا بئس القرين.

ثم يزيدهم الله حسرة فوق حسرة، وندامة إثر ندامة حيث يقال لهم: (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ).

أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم - أيضا - روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا واشترك فيها المعاقبون هان عليهم بعض الهون، وتسلَّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة[2].

وهذا القرين قد يكون شيطانا من شياطين الإنس أو الجن، يستعمل كل الوسائل التي تصد صاحبه عن طريق الخير والهدى، وتزين له كل سبل الشر والردى...

قال ﷺ: (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ [3]).

× الخسارة في الدنيا، والعداوة في الآخرة.

لقد نهى الله ﷺ عن صحبة السوء في الدنيا؛ لأن قلوبهم قد غفلت عن ذكره، واتبعوا أهواءهم، وصارت جميع أمورهم وأحوالهم ضائعة، لا خير فيها، ولا ثمرة مرجوة منها.

(١) الزخرف: ٣٦ : ٣٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص: ٧٦٦.

(٣) فصلت: ٢٥.

قال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [١] ﴾، وهذا هو حال من خسر دنياه، ونأى عن ذكر ربه ومولاه.

وقد أكد الله ﷺ على خسارة الغافلين المعرضين - ومنهم صحبة السوء، ومن خالطهم، وأصر على معايشتهم - فبين أن حياتهم تكون في ضنك ومشقة، وتعب ونصب، وذلك لإعراضهم عن ذكر الله.

قال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى × قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا × قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [٢] ﴾.

كما أن تأثير هذه الصحبة السيئة لن يفنى بفناء الدنيا، ولن يزول بزوالها، بل هو ممتد - أيضا - إلى الآخرة، وخطورتها باقية وظاهرة - تماما -؛ حيث تتحول كل الصداقات إلى عداوة، إلا صداقات المتقين.

قال: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [٣] ﴾.

× **تهوين المعصية.**

لا يخفى على ذي لب أن مصاحبة أهل الباطل والمعاصي تهون المعصية، يقول الإمام الغزالي: (وَأَمَّا الْفَاسِقُ الْمُصِرُّ عَلَى فِسْقِه فَلَا فَائِدَةَ فِي صُحْبَتِه، بَلْ مُشَاهَدَتُهُ تُهَوِّنُ أَمْرَ الْمَعْصِيَةِ عَلَى النَّفْس وَتُبْطِلُ نُفْرَةَ الْقَلْبِ عَنْهَا، وَلِأَنَّ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّهَ لَا تُؤْمَنُ غَائِلَتُهُ، وَلَا يُوثَقُ بِصَدَاقَتِه، بَلْ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَغْرَاضِ)[٤].

× **الذوبان في رفقاء السوء وأصدقاء الشر.**

ومن أشد ما يتأثر به الإنسان: الصحبة في سن مبكرة، وخاصة في سن المراهقة، ففي سن المراهقة تتكون شخصية الإنسان، وفي هذا السن يبدأ الإنسان في البحث عن هويته وشخصيته، وهي نقلة نفسية عند الشباب، تتجدد فيها الصراعات التي عاشها وهو صغير

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) طه: ١٢٤ : ١٢٦

(٣) الزخرف: ٦٧.

(٤) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للقاسمي ص: ١٢٨.

إلى الشعور بالهوية أو عدم تعيين الهوية، حيث الشعور بالاغتراب وذوبان المراهق في الآخرين، وعدم قدرته على اكتشاف قدراته إلا بمساعدة الآخرين، ففي هذه المرحلة يكون عند المراهق الاستعداد للصداقة ويبدأ البحث عن صديق ورفيق، يكتسب منه تجارب الحياة، فإذا كان هذا الصديق سيئ الخلق والسلوك اكتسب منه السلوك السيئ كالانحرافات الجنسية والعدوانية والتأخر الدراسي والسرقة والكذب والفساد، ويظل هذا السلوك ينمو معه كلما كبر، حتى يكون الإنسان وبالا على نفسه وأهله ومجتمعه، بل وعلى المجتمع الإنساني بأسره[1].

وما حدث ذلك كله لهذا الشاب المسكين إلا لأنه رافق أرباب السوء، وذاب في العلاقة معهم، فكانت النتيجة هي الوبال وسوء المآل.

× **جلب العار والسمعة السيئة.**

ومن آثار صحبة السوء: أنها تجلب على صاحبها العار والسمعة السيئة في الدنيا؛ فقد قيل: قل لي من تصاحب أقل لك مَن أنت ؟، وقال طرفة بن العبد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي[2]

× **تعاطي المخدرات والوقوع في المنكرات.**

وهي - أيضا - تؤدي به إلى سلوك مسالك الرذيلة والانحراف حيث تنتهي الصحبة السيئة - غالبا - إلى المخدرات، أو الوقوع في الفواحش والمنكرات، من شرب للخمر، أو ارتكاب فاحشة الزنا، أو غير ذلك.

× **الوصول إلى الكفر - والعياذ بالله -.**

وقد تصل بالإنسان إلى الكفر - والعياذ بالله - كما في قصة أبي طالب عم النبي ﷺ حين وفاته[3].

× وبالجملة: فإن صداقة السوء فيها دعوة إلى الغفلة واتباع الأهواء، وفيها التثبيط عن

(١) الصحبة السيئة والحبة الصالحة، مقال بالإنترنت.

(٢) ديوان طرفة ابن العبد ١/٣٢.

(٣) أخرجها البخاري في صحيحه ك الجنائز باب إِذَا قَالَ الْمُشْرِكُ عِنْدَ الْمَوْتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ٢/٩٥، ومسلم في صحيحه ك الإيمان بَابُ أَوَّلُ الْإِيمَانِ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ١/٥٤.

فعل الخيرات وعمل الصالحات، وفيها تزيين المعصية والإعانة عليها، وفعل المنكرات، وفيها العيشة الضنكة والحياة التعيسة والقلق النفسي، وهي طريق إلى النار حيث يحشر المرء يوم القيامة مع من أحب، فمن كان مصاحبا للأشرار حشر معهم[1].

قال عدي بن زيد:

إِذَا كُنْت فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ   وَلَا تَصْحَبْ الْأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي[2]

حقا وصدقا: إن الطباعَ تُعدِي، وصُحبةَ السُّوء تُغوِي.

ثانيا: ما يعود على المجتمع من هذه المخاطر والآثار، ومنها:

× **التفكك الأسري.**

لقد حذرنا الله من أهل الخوض والسوء - أيما تحذير - فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[3]﴾.

يقول العلامة ابن عجيبة: (يقول الحق: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: القرآن بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالسهم، بل قُم عنهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير القرآن، ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ النهيَ عن مجالستهم، وجلست نسياناً، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ أي: بعد أن تذكر النهي ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ونسبة النسيان إلى الشيطان أدبًا مع الحضرة،

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ووضع المظهر موضع المضمر، أي: معهم، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما على المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم، بل عقابهم على الخوض خاصٌّ بهم، ﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم ﴿ذِكْرَى﴾ أي:

---

(١) راجع في ذلك: أهمية الصحبة الصالحة للدكتور/ بدر عبد الحميد هميسه، مقال بالإنترنت، والصحبة السيئة والبيئة الفاسدة لخالد البعداني، مقال بالإنترنت.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي ٢/٢٦١.

(٣) الأنعام: ٦٨.

تذكيرهــم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدروا، وكراهية ذلك إن لم يقدروا، فيعظونهم (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) فَيجتَنِبُون ذلك الخوض حياء أو كراهية مُساءتهم، وإنما أبيح للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم لأن ذلك يشق عليهم، إذ لا بُدَّ لهم من مخالطتهم في طلب المعاش وفي الطـواف، وغير ذلك، بخلافـه لأن الله أغناه عنهم به، فنهـاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقا.

ثـم قال لـه: (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُـمْ لَعِباً وَلَهْواً) أي: بنوا أمـر دينهم على التشهِّي، وتدَّينـوا بما لا يعود عليهم بنفع، عاجلاً وآجـلاً، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب، أو اتخـذوا دينهـم الذي كلفوا بالدخول فيـه لعبًا ولهوًا، حيث سخروا بـه، أي: أعرض عنهم ولا تبـال بأفعالهم وأقوالهـم، (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا) وزخرفها حتـى نسُوا البعث وأنكروه، والعياذ بالله.

ومـن هنـا يتأكد التحذير من مخالطـة أهل الخوض وصحبة العـوام، وكل من ليس من جنـس أهل النسبة، فإن ألجأه الحـال إلى صحبتهم فليُذكرهم، ويعظهم، ويُنهضهم إلى الله بمقاله أو حاله ما استطاع)[1].

وعليـه فينبغي علـى كل إنسان أن يجتنب صحبـة السوء اجتنابا تامـا، وأن ينأى بنفسه عنهـم؛ لمـا في صحبتهم من عواقب وخيمة، وأضرار جسيمـة في تدمير الفرد وتفكك الأسرة وانهيار المجتمع.

× **الإساءة والتأثير السلبي.**

كما أن رفقاء السوء يسيئون إلى مجتمعهم إساءة بالغة؛ إذ يدعون إلى المعاصي والآثام، والفواحش والمساوئ، والهدم والحرق، التي يتأثر بها المجتمع تأثرا سلبيا كبيرا، ويشهد لذلك أن كثيرا من الدراسات قد بينت أن غالب صور الانحراف والتهور لا تكون فردية، وإنما تكون ذات نمـط جماعي سيئ مع رفقة تعـين غيرها على فعله، فالصاحـب السيئ باب من أبواب الشر يُدّخِل الشيطان إلى القلوب، ويُظْلِم على أصحابه الدروب.

× **تبديد الطاقات وانتشار الفوضى.**

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٢/ ١٣٠ ، ١٣١ بتصرف يسير.

إذا تركنا الشباب ورفقاء السوء وأصدقاء الشر والفساد ولم نوجههم التوجيه السديد أو نستغل طاقاتهم فيما ينفع ويفيد لمصلحتهم وأسرهم ومجتمعهم فإنهم سيكونون أعضاء سيئين، وغير نافعين، بل وغير مفيدين، وينتج عن ذلك كله انتشار الفوضى وشيوع القلاقل والاضطرابات في شتى الأنحاء والأرجاء ودمار المجتمعات وضياع قدرات الشباب.

وفي هذا كله إيذاء لهؤلاء الأصدقاء ولأسرهم، بل ولمجتمعهم - أيضا - حيث تعطلت الطاقات وانتشرت المنكرات، وقد توعد الله الذين يؤذون أفراد المجتمع المؤمن فقال: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً [(١)]).

قال الإمام ابن عطية : (وإذاية المؤمنين والمؤمنات هي - أيضا - بالأفعال والأقوال القبيحة والبهتان والكذب الفاحش المختلف)[(٢)]، وأحوال رفقاء السوء لا تخرج عن ذلك - إطلاقا -.

ولله در صاحب الظلال ﷺ إذ يقول: (وهذا التشديد يشي بأنه كان في المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات بنشر قالة السوء عنهم، وتدبير المؤامرات لهم، وإشاعة التهم ضدهم.

وهو عام في كل زمان، وفي كل مكان، والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة من الأشرار المنحرفين، والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض، والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان، وهو أصدق القائلين)[(٣)].

× **السقوط والانهيار.**

إن من أعظم مخاطر صحبة السوء وآثارها على المجتمع هو سقوط أفراده فردا فردا، حيث لا يوجد به أعضاء عاملون وفعالون، وصالحون ومنتجون، وإنما صار المجتمع بصحبة السوء على عكس ذلك تماما.

وقد أنتج هذا شبابا لا وعي لهم ولا إدراك، ولا فهم ولا علم، ولا دراية لهم بالواقع،

(١) الأحزاب: ٥٨.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣٩٨/٤.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٨٨٠.

ولا رؤية لهم في المستقبل..... كما أننا رأينا اتباعا للشهوات، وميولا للأهواء، ومجاهرة بالمعاصي، وسوء أخلاق.....

وهذا هو السقوط الكامل والانهيار التام لأي مجتمع من المجتمعات، بل لأي أمة من الأمم، ولكل حضارة من الحضارات.

وقد ذكر لنا التنزيل العزيز أنموذجا لذلك، فقال: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ × وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ × سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ × مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [(١)]).

قال شيخنا السعدي: (يقول – تعالى – لنبيه: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) أي: علمناه كتاب الله، فصار العالم الكبير والحبر النحرير.

(فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ) أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزا.

(فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله – تعالى – خذله ووكله إلى نفسه، فلهذا قال – تعالى –: (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) بأن نوفقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

(وَلَكِنَّهُ) فعل ما يقتضي الخذلان، فـ(أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) وترك طاعة مولاه، (فَمَثَلُهُ) في شدة حرصه على الدنيا

(١) الأعراف: ١٧٥ : ١٧٨.

وانقطاع قلبه إليها (كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) أي: لا يزال لاهثا في كل حال، وهذا لا يزال حريصا حرصا قاطعا قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

(ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) بعد أن ساقها الله إليهم فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها لهوانهم على الله، واتباعهم لأهوائهم بغير هدى من الله.

(فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

(سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ) أي: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آتاه الله آياته يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيها للعباد، ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى الشهوات يكون سببا للخذلان.

ثم قال - تعالى - مبينا أنه المنفرد بالهداية والإضلال: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ) بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم (فَهُوَ الْمُهْتَدِي) حقا لأنه آثر هدايته - تعالى -، (وَمَنْ يُضْلِلْ) فيخذله ولا يوفقه للخير (فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين)[1].

وهكذا يكون السقوط والخذلان والخسران لمن ابتغى الشر دون الخير، وآثر الضلال على الهدى.....

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص: ٣٠٨.

المبحث الثالث

كيفية علاج المشكلة ورصد الحلول الملائمة لها.

ويتمثل علاج هذه المشكلة الخطيرة ورصد الحلول التي تلائمها من خلال مستويات خمسة، مجملها: مستوى الأصدقاء، ومستوى الأسرة، ومستوى المربين والمصلحين، ومستوى الخطباء والوعاظ، ومستوى المجتمع بأكمله، وبيانها - بعون الله تعالى - فيما يلي:

أما بالنسبة للمستوى الأول: مستوى الأصدقاء، فيتمثل في:

× اختيار الشباب الصحبة الطيبة والجلساء الصالحين، الذين يعينونهم على الطاعة، ويبعدونهم عن المعصية، كما قال الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[(١)] ﴾.

يقول الحافظ ابن كثير: (أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء)[(٢)].

ولذا لما سئل ابن السمَّاك: أيُّ الإخوان أحقُّ ببقاء المودَّة؟ قال: الوافرُ دينُه، الوافي عقلُه، الذي لا يَمَلُّك على القُرب، ولا ينساكَ على البُعد، إن دنوتَ منه أدناك، وإن بعُدتَ عنه راعاك، وإن استعضدتَه عضَدَك، وإن احتجتَ إليه رفدَك.

وقال علقمة بن لبيد العطارديﷺلابنه: إذا نازعتك نفسك صحبة الرجال فاصحب من إذا صحبته زانك، وإن خدمتك صانك، وإن عركت به مؤونة مانك، اصحب من إن مددت يدك بفضل مدها، وإن بدت منك ثلمة سدها، وإن رأى منك حسنة عدها، اصحب من

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٠.

يتناسى معروفه عندك، ويتذكر حقوقك عليه[1].

وينبغي على الشباب أن يتذكر - دائما - أن نِعْم الذخيرة والحُلَّة هي عقيلة الصُّحبة والخُلَّة.

× كما ينبغي على الشباب أن يحذروا من صحبة الفاسدين والفاسقين وقرناء السوء؛ لأن الصاحب - كما نعلم جميعا - ساحب، وقد يجر صاحبه إلى طريق الشر والفساد، ولأنهم كلما حاولوا الاقتراب من الله - سبحانه وتعالى - بفعل ما أمر من فرائض ونوافل، واجتناب ما نهى من المحرمات وجدوا من قرناء السوء الصد والتثبيط، والدعوة إلى الشهوات والملذات، فيبقون أسرى هؤلاء القرناء، قال الله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [2]﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعا ولا محبا لطريقته ولا تغبطه بما هو فيه)[3].

ولله در شيخنا العلامة ابن عثيمين ﷺ إذ يقول في علاج هذه المشكلة: (وينبغي على الشاب أن يختار لصحبته من كان ذا خير وصلاح وعقل، من أجل أن يكتسب من خيره وصلاحه وعقله، فيزن الناس قبل مصاحبتهم بالبحث عن أحوالهم وسمعتهم، فإن كانوا ذوي خلق فاضل ودين مستقيم وسمعة طيبة فهم ضالته المنشودة وغنيمته المحرزة، فليستمسك بهم، وإلا فالواجب الحذر منهم، والبعد عنهم، وألا يغتر بمعسول القول وحسن المظهر، فإن ذلك خداع وتضليل، يسلكه أصحاب الشر؛ ليجذبوا بسطاء الناس لعلهم يكثرون سوادهم، ويغطون بذلك ما فسد من أحوالهم)[4].

وأما عن المستوى الثاني: مستوى الأسرة فيتمثل فيما يلي:

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي ١/٢٦٥، وربيع الأبرار للزمخشري ١/٧٠.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/١١٠.

(٤) من مشكلات الشباب ص: ٢٠ ، ٢١.

× أن يحرص الآباء على تربية أبنائهم تربية حسنة، وتنشئة أولادهم تنشئة اجتماعية سليمة في بيئة نظيفة، فالمرء على دين خليله، وغرس القيمة النبيلة في نفوس أبنائهم، فإذا وجد الابن في بيئة حسنة حيث يستطيع تكوين صداقات مع أقران ذوي أخلاق حسنة تحقّق المراد، واستطاع أن يتجنب رفقاء السّوء، وما يترتب علي صداقتهم مما ذكرناه.

وهذا هو دور الأسرة مع أبنائها ومن تعول، قال: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا [1]﴾.

عن قتادة ﷺ قال: يقيهم أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليه بأمر الله يأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها، وزجرتهم عنها[2].

- كما ينبغي على الأسرة أن تقوم بتوعية الأفراد بمخاطر رفقاء السّوء وأن يبينوا لهم صفاتهم، فقد يلتبس على البعض - أحيانا - بعض الصفات، ويظن رفيق السوء جيدا أو ماهرا، فيصادقه ويصاحبه، ثم تكون النهاية الأليمة، وخاتمة السوء - والعياذ بالله -.

وبالتالي فإن وضع الأسرة المعايير الصحيحة في اختيار الرفقاء هي من الأمور التي تسهم في ابتعاد الأفراد عن رفقاء السّوء واختيار الرّفيق الصّالح.

- تحديد نشاطات الأبناء، واختيار أصدقائهم، وتشجيعهم على الالتحاق بالنشاطات المنظمة، مثل الكشافة والنوادي الرياضية ونشاطات المدرسة وحلقات تحفيظ القرآن الكريم ..... الخ.

- وضع حدود واضحة وخطوط عريضة وأسس ثابتة للأسرة يلتزم بها أفرادها - جميعا - مثل: ضبط أوقات الخروج من المنزل، والعشاء، والإجازات، ومعرفة الأصدقاء والزملاء، ومَن يُصَاحَب، ومَن لا يصاحب..... وهكذا.

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) جامع البيان للإمام الطبري ٢٣/٤٩٢.

- دراسة حاجات الأبناء وإشباعها بالطريقة السليمة حيث تتعرف الأسرة على احتياجات أبنائها، والتي قد يلبيها له أصدقاؤه السيئون، مثل: المغامرات، المكانة، الإثارة، الإعجاب..... الخ، ويجب ترتيب بدائل عن الصحبة السيئة تستطيع إشباع حاجاته، فعلى سبيل التمثيل إذا كان الشاب يحب الإثارة فإنه يجب ترتيب رحلة للحديقة أو البرية، أو تزويده بالألعاب الالكترونية التي تشبع حاجاته ورغباته[(١)].

وأما بالنسبة للمستوى الثالث: مستوى المربين والمصلحين فنجمله فيما يلي:

- أن يسلك المربون والمصلحون في توجيه الشباب والأفراد مسلك الرأفة والرحمة، واللين والوعظ، والتوجيه والإرشاد، والمكاشفة والمصارحة، فيتعامل المصلح مع الشباب على أنهم إخوته، والمربي على أنهم أبناؤه، فصلاحهم يَسُرُّه، ومخالفتهم تسوءه، وهكذا دون زجر أو تعنيف، أو فظاظة أو غلظة، كما قال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ [(٢)]﴾.

قال الإمام البغوي: (أي: فبرحمة من الله ﴿ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ أَيْ: سَهُلَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُكَ، وَكَثْرَةُ احْتِمَالِكَ، وَلَمْ تُسْرِعْ إليهم بالغضب، ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا ﴾ يَعْنِي: جَافِيًا سَيِّئَ الْخُلُقِ قَلِيلَ الاحْتِمَالِ، ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: فَظًّا فِي الْقَوْلِ غَلِيظَ الْقَلْبِ فِي الْفِعْلِ، ﴿ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ أَيْ: لَنَفَرُوا وَتَفَرَّقُوا عَنْكَ، يُقَالُ: فَضَضْتُهُمْ فَانْفَضُّوا، أَيْ: فَرَّقْتُهُمْ فَتَفَرَّقُوا ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ تَجَاوَزْ عَنْهُمْ)[(٣)].

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة والمربون والقادة والمصلحون، أحوالهم بين الرحمة واللين، والعفو والتجاوز، والصفح والإحسان.....

وأما عن المستوى الرابع: مستوى الخطباء والوعاظ فيتمثل فيما يلي:

- التركيز في خطب الجمعة على أهمية الصحبة الصالحة وسمات الأصدقاء الصالحين، والثمرات التي تثمرها، وخطورة صحبة السوء في الدنيا والآخرة،

(١) راجع في ذلك: الصحبة السيئة: الوقاية والعلاج لخالد القحطاني.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ١/ ٥٢٦ بتصرف.

وآثارها السلبية التي لا تعد ولا تحصى.

- أن يكثفوا المحاضرات والندوات التي توضح أضرار السلوك غير السوي - ولا سيما صحبة السوء - وأثرها على الفرد والمجتمع[(١)]، قال C: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ [(٢)]﴾.

وأما عن المستوى الخامس: مستوى المجتمع بأكمله فنوجزه فيما يلي:

- أن يتعاون المجتمع كله على إصلاح الشباب أيا كان عمره، وأيا كان حاله، فهم عماد المجتمع، وسواعد الأمة، ونهضة المستقبل، قال f: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى [(٣)]﴾.

- استخدام وسائل الاتصال الجديد، من فيس بوك وتويتر وغيرهما من أدوات العصر التي فرضت علينا وعانينا كثيرا من بعض ممارسات مرتاديها الخاطئة، فلا بأس أن يتم تطويعها لتوجيه شبابنا، وإرشاد فتياتنا، وخدمة مجتمعاتنا بما يعود علينا - جميعا - بالخير والرشاد، والنفع والسداد[(٤)].

- أن يتم تفعيل البرامج العامة والأنشطة المدرسية في جميع المؤسسات التعليمية، والتي يجب ألا يقتصر دورها - قط - على تلقين طلابها العلم بما يحذر الشباب والأفراد من صحبة السوء والأضرار التي تنتج عن ذلك.

- إقامة مراكز مسائية ومخيمات صيفية تجذب الشباب إليها، وتقدم برامج مفيدة ونافعة لشغل أوقات فراغهم، وإبعادهم عن صحبة السوء.

وفي الختام: ينبغي أن يتذكر الشباب - جميعا - قول الرسول ﷺ: " المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل "[(٥)].

---

(١) مقال بعنوان مصاحبة رفقاء السوء الأستاذ / عمر اللحيان

(٢) فصلت: ٣٣.

(٣) المائدة: ٢.

(٤) خطورة رفقاء السوء للدكتور / خالد الخاجة، مقال بجريدة البيان بتاريخ ٢٠١٢/١١/٦م.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه ك أبواب الزهد باب حدثنا محمد بن بشار ٥٨٩/٤، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وقال العلامة الألباني: حسن.

ومـا أروع وصية التابعي الجليـل علقمة بن قيس ﷺ إذ ينصح ابنه قائـلا: (يَا بُنَيَّ إِذَا عَرَضَـتْ لَـكَ إِلَى صُحْبَةِ الرِّجَالِ حَاجَةٌ فَاصْحَبْ مَنْ إِذَا خَدَمْتَـهُ صَانَكَ، وَإِنْ صَحِبْتَهُ زَانَكَ، وَإِنْ قَعَـدَتْ بِكَ مُؤُونَةٌ مَانَكَ، وَاصْحَبْ مَنْ إِذَا مَـدَدْتَ يَدَكَ بِخَيْرٍ مَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً سَدَّهَا، اصْحَبْ مَنْ إِذَا سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَكَتَّ ابْتَدَاكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ بِكَ نَازِلَةٌ وَاسَاكَ، اصْحَبْ مَنْ إِذَا قُلْتَ صَدَّقَ قَوْلَكَ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَمْرًا آمَرَكَ، وَإِنْ تَنَازَعْتُمَا آثَرَكَ)[1]، ولا ريب أن هذه الوصية تعد جماع الوصايا في الصحبة وآثارها.

نسـأل الله – جـل جلاله – أن يوفـق شبابنا إلى اختيار الصحبـة الصالحة التي تدلهم علـى الخيرات، وتُعينُهم على الطاعات، وأن يصرف عنهـم أهل السوء ومجالستهم، والتأثر بأعمالهم وأخلاقهم، اللهم آمين.

وأخـيرا: فهـذا هو جهد المقل، أسـأل الله – جل جلاله – أن يكتب لـه التوفيق والسداد، والقبول والنفع؛ إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

وصلـى الله وسلـم وبـارك وأنعـم علـى سيدنـا محمـد، وعلـى آلـه وصحبـه وسلـم.

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ص: ١٢٨ ، ١٢٩.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه. ،، وبعد

فبعد هذه التطوافة الرائعة حول البحث في مشكلة من أهم مشكلات الشباب الاجتماعية المعاصرة - وهي مشكلة صحبة السوء - وذكر مخاطرها وآثارها ومحاولة علاجها يطيب لنا أن نسجل أهم النتائج التي توصلنا إليها، والتوصيات التي نراها، وذلك فيما يلي:

أولا: أهم النتائج:

١. أهمية مرحلة الشباب، وخطورتها البالغة في حياة الإنسان.
٢. أن الشباب أقسام ثلاثة، وبحثنا يعالج مشكلة من أهم مشكلات القسمين المنحرف والمتردد بين بين.
٣. أن مشكلات الشباب كثيرة وكثيرة، لا يستطيع بحث حصرها وعلاجها.
٤. أن البحث يعالج - حسب رؤيته - مشكلة من أهم مشكلات الشباب وأخطرها، وهي مشكلة صحبة السوء.
٥. أن ديننا الإسلامي الحنيف هو الأصل في علاج أي داء، وحل أي مشكلة.
٦. أهمية توظيف الدراسات القرآنية في علاجات القضايا، أيا كان نوعها وزمانها ومكانها.
٧. أن في استقامة الشباب وصلاحهم تقدم المجتمعات ونهضتها، وفي انحرافهم وفسادهم تأخرها وفناءها.
٨. أهمية تنظيم المؤتمرات الدولية التي تعنى بعلاج القضايا المعاصرة - لا سيما قضايا الشباب - ومحاولة القضاء على سلبياتها أولا بأول، من خلال المقترحات والتوصيات التي تتقدم بها الأبحاث العلمية.

ثانيا: أهم التوصيات:

نوصي بتناول المشكلات المعاصرة في مراحل أخرى من مراحل حياة الإنسان في مؤتمرات قادمات - بإذن الله تعالى - من خلال محاور عدة، تتعلق بكل مشكلة على حدة، وطباعة ما يختار منها؛ ليفيد منه الأفراد وتصلح المجتمعات، وتنهض الأمم.....

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المراجع والمصادر[1]

١. القرآن الكريم

أولا: كتب تفسير القرآن الكريم:

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ت١٣٩٣هـ، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ت٦٧١هـ، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٤. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت٧٧٤ هـ، تح: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ت١٣٧٦هـ، تح/ عبد الرحمن ابن معلا اللويحق، نشر: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٦. جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ، تح: أحمد محمد شاكر، نشر: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٧. زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت٥٩٧هـ، تح: عبد الرزاق المهدي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الأولى ١٤٢٢هـ.

٨. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي ت٦٠٦هـ، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الثالثة ١٤٢٠هـ.

ثانيا: كتب الحديث الشريف:

٩. الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، المسمى بسنن الترمذي لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك ت٢٧٩هـ، تح: بشار عواد معروف، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م.

(١) وهي مرتبة حسب العلوم والفنون، ثم حسب حروف المعجم - تحتها -

١٠. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المسمى بصحيح البخاري لمحمد ابن إسماعيل أبي عبد الله البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، نشر: دار طوق النجاة، الأولى ١٤٢٢هـ.

١١. المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ت٤٠٥هـ، تح: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

١٢. سنن ابن ماجة لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٣هـ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

١٣. صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري ت٢٦١هـ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ثالثا: كتب اللغة والمعاجم:

١٤. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصاري ت٧١١هـ، نشر: دار صادر، بيروت، الثالثة ١٤١٤هـ.

١٥. مختار الصحاح لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي ت٦٦٦هـ، تح: يوسف الشيخ محمد، نشر: المكتبة العصرية والدار النموذجية، بيروت، صيدا، الخامسة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٦. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني ت٣٩٥هـ، تح: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

رابعا: كتب أخرى متنوعة:

١٧. بدائع الفوائد لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية ت٧٥١هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٨. المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي ت٨٥٢هـ، نشر: عالم الكتب، بيروت، الأولى ١٤١٩هـ.

١٩. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار لجار الله الزمخشري ت٥٨٣هـ، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، الأولى ١٤١٢هـ.

٢٠. من مشكلات الشباب للشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، إصدار مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

خامسا : أبحاث ومقالات:

٢١. الصحبة السيئة والبيئة الفاسدة لخالد البعداني، مقال بالإنترنت.

٢٢. الصحبة السيئة: الوقاية والعلاج، مقال لخالد القحطاني.

٢٣. أهمية الصحبة الصالحة د/ بدر عبد الحميد هميسه، مقال بالإنترنت.

٢٤. تحديد مفهوم الشباب، مقال بالإنترنت.

٢٥. مشكلات الشباب المسلم في عصر العولمة: الحلول والعلاج للدكتور/ صالح بن سليمان الوهيبي بحث بالإنترنت.

٢٦. مصاحبة رفقاء السوء مقال للأستاذ / عمر اللحيان.

٢٧. مكانة الشباب في الإسلام أ. د/ سليمان بن قاسم بن محمد العيد، بحث بالإنترنت.